

قاسم محمد سويدان

تاريخ

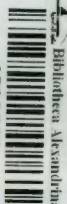
ملكات الشرق



تقديم ومراجعة
أ. د. محمد محفل

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

1503539



Bibliotheca Alexandrina

تاريخ ملكات الشرق

❖ الكتاب: تاريخ ملكات الشرق
The History of the Queens of the East ❖
❖ المؤلف: قاسم محمد سويدان (kassem4015@yahoo.com) ❖
❖ تقديم ومراجعة: أ. د. محمد محفل ❖

جميع حقوق طبع ونشر هذا الكتاب محفوظة للمؤلف
يمنع طبع ونشر واقتباس أي جزء من هذا الكتاب إلا بموافقة المؤلف

الطبعة الأولى 2014

ISBN: 978-9933-480-41-7

الناشر
دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - سوريا - هاتف 11 2237411 00963

توزيع



دار نور حوران

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا - ص. ب. 5658

هاتف 00963157198425 فاكس 0096315715430
جوال 00963941329555 - 00963933329555

E-MAIL: NOURPUBLISHING@GMAIL.COM

تاریخ ملگات الشرق

تأليف
قاسم محمد سويدان

تقديم ومراجعة
أ. د. محمد محفل



المحتوى

09	استهلال
17	مقدمة المؤلف
25	تمهيد تاريخي
25	أولاً، العصور الرومانية
34	ثانياً، العصور اليونانية
38	السلالة السلوقية التي حكمت سورية وآسية الصغرى
40	السلالة البطلمية التي حكمت مصر
43	ثالثاً، السلالة الساسانية الفارسية
45	لمحة سريعة عن بعض شعوب الشرق القديم
51	الفصل الأول
51	بلقيس ملكة سبأ
53	مصادر تاريخ الزمن القديم
54	الدور المعيني (القرن الثالث عشر - 620 ق م)
55	الدور السبئي (950 - 115 ق م)
59	الدور الحميري (115 ق م - 525 م)
60	الدور الحبشي (الدور الثانوي الأول)
61	الدور الساساني - الفارسي (الدور الثانوي الثاني)
61	بلقيس ملكة سبأ بين الواقع والأسطورة
63	الرواية التوراتية
76	الرواية العربية
81	الرواية القرآنية
87	الرواية التاريخية
91	في العرض والتحليل
99	الفصل الثاني
99	سميراميس (Samiramis) (سمورامات)
99	ملكة بابل وآشور
103	الامبراطورية الكلدانية
103	(الدولة البابلية الثانية أو الحديثة)
108	لائحة الملوك والأسر التي حكمت بابل

109	أسطورة سميراميس (السورية الأصل)
113	سيرة سميراميس التاريخية
123	الفصل الثالث
123	إليسا - إليسار - ديدو - ديدون
123	Elissa - Elissar - Dido - Didon
123	مؤسسة قرطاجة وملكتها، وتاريخ هانيبال (هاني يعل)
124	الخلفية والأصول
127	سيرة إليسا، إليسار، ديدو، ديدون
129	تأسيس قرطاجة
133	تاريخ تأسيس قرطاجة
135	رواية الشاعر اللاتيني فيرجيل في "الإنياذة"
141	الجدور الاجتماعية والسياسية للدولة الجديدة
147	التنظيم السياسي في قرطاجة
149	وصف مدينة قرطاجة
151	حروب قرطاجة
154	الحرب البونيقية الأولى (264-241 ق.م)
159	الحرب البونيقية الثانية (218-201 ق.م)
159	(العبور البري واجتياز جبال الألب إلى إيطاليا)
160	عبور الأيبرو والرون والألب
164	معركة بلاستيا على نهر تريبيا
164	معركة بحيرة تراسيميتو
166	معركة كاناي الشهيرة (216 ق.م)
168	مازق هانيبال (هانيبال) (هاني يعل)
169	روما تحت الحصار (213 ق.م)
172	موقعة زاما خريف عام 202 ق.م
175	الهروب إلى الشرق (195 ق.م)
176	الفصل الأخير في سيرة هانيبال (هاني يعل)
178	الحرب البونيقية الثالثة (149-146 ق.م)
180	صورة هانيبال في كتاب التاريخ العام
187	الفصل الرابع
187	كليوباترا (Cleopatra) ملكة مصر

187	المحطات الرئيسية في حياة كليوباترا
188	أصول كليوباترا واعتلائها العرش
198	لحظة سريعة عن روما عند مجئ يوليوس قيصر
205	كليوباترا بين المتخاصمين الرومان
207	كليوباترا ويوليوس قيصر
218	كليوباترا وماركوس أنطونيوس (مارك أنطوني)
229	كليوباترا وأوكتافيوس وانتحارها مع أنطونيوس
237	الفصل الخامس
237	جوليا دومنا الحمصية
237	Julia Domna Of Homs
237	الاحتلال الروماني للبلاد السورية وآثاره
241	الأسرة السيفيرية (السيفيرانية / الساويرية)
241	على عرش روما
246	جوليا دومنا ودائرتها الأدبية
249	بلوتيانوس الحليف والعدو
251	موت سيفيروس واعتلاء كراكلا
258	اعتلاء الإغابالوس (الإغابال؛ من الجبل) عرش روما
260	تسليم أسكندر سيفيروس سدة العرش في روما
264	في العرض والتحليل
267	الفصل السادس
267	زنوبيا ملكة تدمر
267	Zenobia of Palmyra
267	تدمير الموقع والتاريخ
276	الفن التدمري
284	أصول ويدايات زنوبيا
289	العالم الروماني قبل مملكة تدمر ¹
294	العالم الفارسي ومملكة تدمر ¹
299	نشوء مملكة تدمر بين الجبارين
305	زنوبيا ملكة تدمر
315	حصار تدمر
320	أورليانوس قاهر زنوبيا

323	خاتمة
329	الفصل السابع
329	الملكة ماوية ملكة العرب التنوخيين (ملكة الأزد)
329	Queen Mavia
329	الإمبراطورية الرومانية - البيزنطية في القرن الرابع
336	الهجرات العربية القديمة
339	التنوخيون: أصولهم، هجراتهم، ومناطق استقرارهم
354	ملوك وأحلاف العرب التنوخيون
363	الملك الحواري زوج ماوية
365	التنوخيون (عرب التحالف) والمسيحية
375	ماوية ملكة العرب والثورة
388	موسى، الأسقف العربي
392	الصليح مع الإمبراطور الروماني والتس (فالينز)
395	مشاركة العرب في حروب بيزنطة ضد البرابرة القوط
398	سقوط عرب التحالف التنوخي
403	موت ماوية
409	مقارنة بين ماوية وذنوبيا
413	المصادر العربية
415	المصادر الأجنبية
417	الفهرس

استهلال

تاريخ ملكات الشرق^١ شعاراً أو بالأحرى عنواناً لطيفاً وجذاباً وملتبساً في الوقت نفسه، وضعه الباحث قاسم محمد سويدان لدراسته الشيقة، حيث جاءنا بأخبار ونوادر نساء من بلادنا، لمبن دوراً بارزاً في قيادة وتقرير مصائر أوطانهن عبر العصور؛ من بليقيس اليمنية وسميراميس الآشورية فاليسا الصورية القرطاجية وكليوباترا المصرية البطلمية وجوليا دومنا السورية / الرومانية وزنوبيا العربية التدمرية وانتهاءً بماوية العربية التتوخية... والجديد المبتكر في اجتهاد السيد سويدان هو النقيض لما جاء من نكت وأمثال سائرة ومهازئ في موروثنا الجمعي؛ تقدر في سيرة النساء وتحمل من قدر المرأة والزوجة.. الخ... وهو أمر لم يكن سائناً في ثقافتنا العربية الإسلامية؛ قبل عصر، كثر فيه الإماء والجواري، مما ساهم في امتهان منزلة المرأة، إن كان في حياة الأسرة أو في سائر ميادين المجتمع، لاسيما منذ العصر العباسي، مع الخيزران البربرية التي ساهمت في قتل ابنها الهادي لصالح شقيقه الرشيد، ثم الصراع بين الأمين والمأمون ودور زبيدة العربية أم الأمين ومراجل الخراسانية الفارسية^(١) والدة المأمون... وهنا راح دور المرأة الحرة يتراجع، ولذلك ليس من عجيب الأمر أن يستعصم آخر خليفة عباسي (640-656 هـ/ 1242-1258 م)، أمر (شجر الدر) التي خلفت زوجها نجم الدين أيوب بعد وفاته، فراحت تدير شؤون الملك... ونقل عن المستعصم قوله "ماذا..! هل خلت البلاد من الرجال؟" "مما اضطرها أن تقتن بأول سلاطين المماليك البحريين (عز الدين أيبك)، قبل أن تتأمر على اغتياله، لتلاقي على إثر ذلك ذات المصير على أيدي جواري عز الدين أيبك...

من يطالع (موسوعة حلب المقارنة)، للأستاذ المرحوم خير الدين الأسدي، طبع جامعة حلب، 7 أجزاء، نقول من يتفحص بعض عناوين رائعة علامة حلب الأسدي، وقد كان استاذ جيل، فائق اللغات؛ العربية والفرنسية والتركية والفارسية، كما أنه ألم ببعض جوانب الآرامية والسريانية وأسعدنا العمل معه في قراءة بعض صفحات كتابنا المدخل إلى اللغة الآرامية، نقول قد يستغرب البعض ما جاء في سفره من نوادر وروايات ولواذع تنال من بعض أفراد المجتمع كالمعلمين والقضاة ورجال السلطة... والنساء أيضاً... وهنا نستعجل قائلين، إن صاحب الموسوعة الأمدي ليس من أعداء المرأة ومن مبغضي النساء - وحنوه على والدته التي هجرها زوجها - قد يكون أحد أسباب عزويتها، هو ذليل احترامه الجنس الآخر، وقد عرفناه بمفكرته الجاهزة في كشكوله للتقاط وتسجيل ما يسمعه من الغادي والداني والقريب فالبعيد.. وها هي ما التقلنا من روايات في باب المرأة/النساء:

(١) - مراجل هي من مواليد (بادغيس) في إقليم خراسان، انظر الروض المحط للحميري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة ثانية 1984، صفحة 74.

- الحب وردة والمرأ (المرأة) شوكتها.

- المرأ فاقوسة إبليس.

- إذا أردت أن تقضح سرك سَلِّمُو سَلَمَهُ لمرأ (لامرأة).

- صَاحِبٌ مِنَ الْحُكُومَةِ لَا تَأْخُذُ (تَأْخُذُ) وَسِرْكٌ لمرتك لَا تَعْمَلِيهِ.

- المرأ رَيْتُ تَوْر (ثور) مَا فَلَحَ وَرَيْتُ كَلْبَ مَا نَبَحَ.

- الْبَيْعُطِي (الذي يُعْطِي) إِدْنُو (أَذْنَهُ) لمرتو يَتْعَبُ (يتعب).

- النسوان شياطين الجيوب.

- الرجال عند أغراضن (أغراضهم/ حاجاتهم) نسوان (أي ضعفاء/ أذلاء).

ما رأيناه أعلاه، قد يبدو يسيراً إذا ما قارناه بما جاء لدى غيرنا من الأقوام والأمم

عبر العصور.

يقول الشاعر⁽¹⁾ الإنكليزي الكفيف جون ملتون Milton (1608-1674) في تصنيفه

(الفرديوس المفقود : Lost Paradise): " خَلَقَ الرَّجُلُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ والمرأة لتخضع لشيئته

الرجل". ولدى الفيلسوف الألماني شوبنهاور (1788-1860) صاحب مذهب التشاؤم،

"فالمرأة هي حيوان بشعر طويل وفكر سقيم".

ونقرأ في (سفر الجامعة 26/7، 27)، المنسوب للملك سليمان: " (26) فَجَلَّتْ بَقْلَابِي

لأَعْلَمَ وَأَبْحَثُ لَأَتَمَسَّ الْحِكْمَةَ وَحَقِيقَةَ الْأُمُورِ وَلَا أَعْلَمُ نَفَاقَ الْجُهَالِ وَجُنُونَ الْحَمَقِ (27)

فوجدتُ أَنَّ مَا هُوَ أَمْرٌ مِنَ الْمَوْتِ المرأة التي قَلْبُهَا أَحْبُولَةٌ وَشِبْكُهُ وَبِدَاهَا قُيُودٌ. من كان

صالحاً أمام الله ينجو منها وأما الخاطئُ فَيَقْتَنَصُ بِهَا، قد يَظُنُّ أَحَدُهُمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ

بذلك امرأة مُحَدَّدة بذاتها، قبل أن يتابع في الفقرات التالية: " (29) التي لم تزل نفسي

تطلبها ولم أجدها. إِنِّي وَجَدْتُ رَجُلًا وَاحِدًا بَيْنَ أَلْفِ وَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ أَوْلَئِكَ كُلِّهِمْ لَمْ

أجد". إن لفي هذا الأمر المنسوب للملك سليمان التوراتي أحجية تعيب عن أبصار وبصائر

بني البشر...

ولدينا مثل فرنسي⁽²⁾ غريب يقول: " ما ترغبه المرأة، فאלله يباركه، إذ لا ندري هل

هو في باب القدح والذم أم المدح...! "

وها هو يهوه يُنَادِي بِإِسْرَائِيلِينَ لِأَنَّ الْأَوْلَادَ وَالنِّسَاءَ يَقُودُونَ شَعْبَهُ إِلَى الْهَآوِيَةِ: (أشعيا

12/3): "شَعْبِي مُسَخَّرُوهُ - طُلُقَاتُهُ - أَوْلَادُ وَالنِّسَاءُ يَتَسَلَّطْنَ عَلَيْهِ. يَا شَعْبِي، (إن مرشدك

هم يَضْلُونُكَ وَيَقْسِدُونَ طَرِيقَ مَذَاهِبِكَ".

وجاء في حكم فيثاغوراس (انظر: La Femme et le Communisme, ed.

Sociales, Paris, P.21: المرأة والشيوعية): " للكون عنصران: الخيرُ وَنَتَجَ عنه النظام/

الترتيب والنور والرجل، والشرير ومنه الخواء والظلمات والمرأة". ويقول الخطيب اليوناني

الشهير، وعدو الملك فيليب، ملك مقدونية ووالد الاسكندر: "يتزوج المرء ليضمن أولاداً

(1) - Milton, Lost Paradise: Man was made for God and Woman was made for Man.

(2) - Ce que Femme veut, Dieu le veut.

شرعيين ومحظيات للعناية به، وعاهرات للمذات الجسد.. وهو الآثيني ديموستينيس Demosthenes (332-384 ق.م).. وحتى أغلب الفلاسفة الإغريق كإفلاطون وأرسطو وكذلك الكتاب المسرحيون كأرسطوفانيس، فلا نراهم يضعون المرأة في المنزل الجديرة بها، بل لا يتورعون من الهزء بها والنيل من سيرتها وحُلقها.

أما بالنسبة لروما، فلم يكن وضع المرأة أفضل مما كان عليه في العالم الإغريقي؛ فمن يطالع "أسفار السخرية والهجاء" *Epigrammaton Liberi* للشاعر اللاتيني مرتياليس Martialis (40-104م)، الإسباني المحتد، تبرز في خطوطها الرئيسية شتى صور الحياة الاجتماعية، بجماعاتها الحرفية وفئاتها ومناصبها الإدارية وسائر أفراد المجتمع، ولا يهمل صاحبنا أخلاق وطبائع وشيم ورذائل أهل روما بوجه خاص وإيطالية على العموم... وبالنسبة للمرأة، فنتردد في هذا المقام، أن نسرد سلسلة من الرذائل التي يلصقها صاحبنا بالمرأة الرومانية ونرى بأنفسنا أن نستشهد بما يزخر الكتاب بالتقايح التي تُلصقُ سمعة نساء روما... وها هنا يترأى الشاعر المخضرم (الخطيب) وخلفه (بشار بن برد) من الأغرار على الرغم مما عُرف عنهما من التهكم والعيث والهجاء، بالمقارنة مع مرتياليس الفاضح، الذي لاقي أجمل الترحيب في الأوساط الرومانية المتنفذة وفي مقدمتهم الامبراطور الشرس دوميتيانوس (81-96م)، مما شجّع الشاعر مرتياليس على إهداء الطاغية بعض "مآثره الأدبية".

ولاقي دوميتيانوس حقه على يد زوجته، وقد سهّل لها المهمة بعض أعوان البلاط... كان ذلك قبل عصر السلالة السوروية (193-235) م حيث نَحْ نجمُ (يُوليا دُمنا / جوليا دومنا) إحدى بطالات سفر السيد سويدان.

وفي الغرب المعاصر، نجد البعض لا يختلف كثيراً عما كان عليه الأمر في العالمين الإغريقي والروماني، وها هو "معجم تنويهات (أقوال مأثورة)، فرنسية، لاروس، باريس / *Dictionnaire des Citations Françaises Larousse*, Paris 1998" نأتي على ذكر التنويه وصاحبه والصفحة والرقم. يقول الشاعر الفرنسي بُودلير Baudelaire⁽¹⁾ (1821-1867) الشهير بكتابه (أزهار الشر *Les Fleurs du Mal*)، الصفحة 88/54: "أدهشني دائماً سماحهم للنساء دخول الكنائس، فأيّة معاداة بإمكانهن أن يقيمونها مع الله؟" ويضيف الشاعر الفرنسي الهزلي موليير Molière⁽²⁾ (1622-1673)، (الصفحة 396/51) من المصدر السابق نفسه: "ليس من المناسب ولعدة أسباب أن تتعلّم المرأة وتطلّع على العديد من الأمور".

أما الكاتب المسرحي والممثل السينمائي الفرنسي ساشا غيتري⁽³⁾ Guitry Sasha

(1) - Baudelaire: J'ai toujours été étonné qu'on laissât les femmes entrer dans les églises
Quelle conversation peuvent-elles tenir avec Dieu?

(2) - Molière: Il n'est pas bien honnête et pour beaucoup de choses
Qu'une femme étudie et sache tant de choses

(3) - Sasha Guitry: On met la femme au singulier quand on a du bien à en dire, et on en parle au pluriel sitôt qu'elle vous a fait quelque méchanceté.

(1885-1957)، فيصريحُ (في الصفحة 8/253): "إننا نشير إلى المرأة بالمفرد في باب المديح وبالجمع "النساء" ما أن تُلحق بنا أذيةً ما".

وقد عُرِفَ غيتيري بسخريته وتهكمه، حيث يقول⁽¹⁾ (الصفحة 16/254): "...أعترفُ بطيبة خاطر أن النساء متفوقات على الرجال، إن كان ذلك يثبهن عن الادعاء بأنهن نظائر الرجال".

وها هو الاشتراكي الفرنسي برودون Proudhon⁽²⁾ (1809-1865) يقول (في الصفحة 5/462): "من الممكن أن يكون الرجل والمرأة متساويين أمام الخالق، ولكنهما ليسا نذيين قط، ولا يمكن أن يصبحا كذلك لا في الأسرة ولا في الدولة، مع العلم أن برودون كان اشتراكي النزعة، علماني الهوى.

ونختم بهذه "التوبيخات/الأقوال الماثورة" بـ"حكمة" للكاتب الفرنسي برناردن دوسان بيير Bernardin de Saint-Pierre (1737-1814) وقد جاء التوبيخ في روايته "بول وفرجيتي" (الصفحة 82/72-1): "يسوء سلوك النساء في بلاد رجالها طُفأة، فحيثما ساد العنف تجد الخديعة".

قد يُفسر قول برناردن دوسان بيير⁽³⁾ هذا، بعض ما جاء أعلاه من شوائب الصقوها بالنساء عبر العصور. ولعل برناردن قد استذكر في حكمته تلك رواية الإنجيل وجواب السيد المسيح لأولئك الذين كانوا يُحرضون على رجم المرأة الخاطئة، (يوحنا 7/8): "... من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ ويترمها بحجر".

ونجد أيضاً صدى لتلك الحادثة لدى الشاعر الفرنسي الأكبر فيكتور هوغو Victor Hugo⁽⁴⁾ (1802-1885) في الصفحة 26/261 من توبيخات معجم لاروس حيث قال: "أه لا تشتموا أبداً امرأة قد زلت! فمن يدري تحت أي ثقل ترزح تلك النفس المسكينة".

وفي خطابنا العربي المعاصر فنقتصر على الإشارة إلى كتابين لعلمين عرييين سوريين، يُنمّ منهجهما عن مفهومي نقیضین لدور المرأة في الأسرة والمجتمع. وقد أدرکنا الشخصيتين بل عایشناهما. والعلم الأول هو أستاذنا المرحوم محمد سعيد الأفغاني (1327-1417هـ/1909-1997) الذي درسنا عليه أصول الصرف والنحو في صف الثقافة العامة في كلية الآداب في (الجامعة السورية/ دمشق لاحقاً) عام 1949-1950، وقد أفدنا من علمه، مع زميله الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي، أستاذ الأدب العربي، رحم الله شیوخنا.

(1) - Idem: Je conviendrais bien volontiers que les femmes nous sont supérieures, si cela pouvait les dissuader de se prétendre nos égales.

(2) - Proudhon: L'homme et la femme peuvent être équivalents devant l'Absolu: ils ne sont point égaux, ils ne peuvent pas l'être, ni dans la famille ni dans la cité.

(3) - Bernardin de Saint-Pierre: Les femmes sont fausses dans les pays où les hommes sont tyrans. Partout la violence produit la ruse.

(4) - Victor Hugo: Oh! n'insultez jamais une pauvre femme qui tombe! Qui sait sous quelle fardeau la pauvre âme succombe

والشخصية الثانية هي المرحومة الدكتورة ليلي الصباغ، زميلتنا في قسم التاريخ (جامعة دمشق) وُثِمَ في مجمع اللغة العربية (دمشق)، وقد افتقدناها منذ بضعة شهور، رحمها الله.

وما يخص الأستاذ الأفغاني فهو كتابه، عائشة والسياسة، وللكتاب عدة طبعات، الأولى منها كانت في القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر لعام 1367هـ/1947م، والرابعة، وهي التي بحيازتنا، طبع دار البشائر بدمشق لعام 1431هـ/2010 م. ومؤلف الدكتورة صباغ هو: المرأة في التاريخ العربي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1975.

يقول الأستاذ الأفغاني في باب "المرأة والسياسة"، (الصفحة 21): "الحكم في هذه القضية لسنة الله في المرأة، وما فطرها الله عليه من خصائص غريزية (فسيولوجية) وعاطفية وفكرية، خصائص قاهرة لا يد للإنسان في تحويلها إلا حين يستطيع تحويلها في تركيب الدماغ وبنية خلاياه، أو حين يبدل في وظائف الأعضاء، فيذوق بأذنه أو يسمع بقدمه.

إنها فوارق بين الرجل والمرأة أزلية أبدية، اقتضتها الحكمة الكونية العميقة التي تُعنى دائماً بالتمييز الدقيق، عناية تتطلبها عمارة هذه العوالم القائمة على تقسيم الأعمال، وتيسير كل من الكائنات إلى ما يلائمه وما خلُقَ له. وكل مجتمع يحاول بُنائه إلغاء تلك الفوارق الواضحة بين أعمال الجنسين قمصيره إلى الاضطراب والفساد. لأن في ذلك ثورة على الطبيعة، وما كان ثورة على الطبيعة فمته الضرر كل الضرر، ولا يُرجى له دوام، وإن خُيِّلَ لبعض الأفراد والجماعات (سطحية في تفكيرهم، أو تعصباً لمذهبهم) إمكان الاستمرار عليه. والطبيعة في هذا حكمها واحد لا يختلف باختلاف الأمم، ولا باختلاف الأعصار والأمصار، ولا بتفاوت المجتمعات رقياً وانحطاطاً، ولا بتباين الأفراد تربية وثقافة".

ويتابع الأستاذ الأفغاني (صفحة 22): "...ولأي مثقف كان أن يسرد ما في حفظه من ملكات أو قائدات أو زعيمات أو مدبرات ملك أو نائبات في المجالس... الخ ثم يستقري أحوالهن واحدةً واحدةً، ويؤمن فيهما حَفَّ بهن، فسيدرك أن أكثرهن مسيئات بتصرفهن، عدن على بلادهن بأسوأ العواقب".

وفي (الصفحة 24): "وليس تاريخ العرب ببديع في تواريخ الأمم، فالحكم واحد... فحيث رأيت انحطاطاً في إدارتنا، أو تقهقراً في سياستنا، أو انحلالاً في مجتمعنا، فَنَقُشْ ثمة عن المرأة".

قد نجد عذراً لأستاذنا الأفغاني في قوله، فهذا الكتاب طُبِعَ لأول مرة عام 1947، أي بعد سنة واحدة من نهاية تأليفه عام 1946، وعمر الأستاذ كان 37 سنة فقط... رحم الله أستاذنا، الذي يقول (صفحة 6): "أنا بشرٌ أخطئ وأصيب، وما أنا بشيءٍ أفرح مني بخطأٍ ينبهني إليه مخلص حصيف فأرجع عنه... الخير أن يجعل المرء عقيدته في هذه

المسائل- بعد بذل الجهد بإخلاص- مذهبياً شخصياً يحتمل الخطأ، ثم لا يأخذ نفسه إلا بشيئين: الإخلاص بالبحث، وما يقضي به العقل الحر من الحكم بعد بذل الجهد، والتجرد من كل عصبية.

رحم الله شيوخنا...

وبالنسبة لكتاب الدكتور صباغ " المرأة في التاريخ العربي" - في تاريخ العرب قبل الإسلام- فهو موضوعه ومنهجه هما على النقيض مما رأيناه في كتاب الأستاذ الأفغاني، ولقد أوردت الباحثة من أسماء الأعلام- النساء- أغلبهن قبل الإسلام وفي عدادهن بعض أعلام كتاب السيد سويدان، إذ جاء (في صفحة 11): "...فالمرأة في التاريخ العربي، أو في تاريخ أي مجتمع، عنصر "مَكُونٌ" فيه، وهي في تحركها أو جمودها "علاقات" منتشرة ومتينة في جميع جنباته الظاهرة والخفية، وفي تكوينه وحركته، شأنها في ذلك شأن الرجل الذي هو العنصر الثاني المَكُونُ فيه، ولذا من غير الطبيعي، إن لم يكن من المستحيل، عزل سيرتها في هذا المجتمع، أو تأطيرها ضمن حدود معينة لا تتجاوز فيها. وحالها في حال الرجل سواء بسواء..."

حريّ بنا، كباحثين في ميدان التاريخ - وبخاصة القديم منه - ونحن أمام هذا "القياس الأقرن" بل أكثر من ذلك، هذه المعضلة، أو كما يقولون "برهاناً ذا حدين" ... لا بأس أن نجتهد وتدلي بدلونا بين الدلاء... إذ في البدء كانت المرأة أو بالأحرى "نظام الأمومة قبل الرجل" ونظام الأسرة الأبوية" ... ففي نهاية العصر الحجري الوسيط كان نظام المشاعية البدائية ما زال قائماً، حيث ملكية وسائل الإنتاج كانت مشاعاً لجميع أفراد الجماعة - ولا تقول المجتمع - وهي وسائل بدائية، مما اضطر بشر تلك الفترة للعمل سوية لتأمين معاشهم، فالعمل جماعي ولا قيمة للفرد أمام "قوة الجماعة"، وعلاقات الذكر بالأنثى كانت جماعية، وهذا ما عُرف في علم الاجتماع المعاصر "المزاجية الجماعية" حيث يتم تزواج مجموعة من الرجال مع مجموعة من النساء، وكان الولد ينسب إلى أمه، وهذا ما عُرف باسم Matriarcat وهو اسم مركب من اللاتينية (Mater/ الأم)، و (Arche اليونانية/ قيادة)، حيث لعبت المرأة دوراً كبيراً في الاقتصاد وشؤون إدارة شؤون المجموعة، قبل أن يأتي دور (نظام الأبوة Patriarcat) من (Pater اللاتينية/ أب) و (Arche اليونانية/سلطة- قيادة)، وذلك مع الاستقرار وممارسة الزراعة وتربية المواشي، والدفاع عن الجماعة وصدهجمات المفيرين، فبرز دور الرجل كصلاح وصاحب قطعان من الماشية ومعارب يغير على الأعداء ويحصل على الأسرى (العبيد والإماء)، راح دور المرأة يتقهقر في الاقتصاد مع الرقيق الذي وجّه ضربة كبيرة لدورها الاقتصادي القديم، وكذلك لدور المرأة في المجتمع الذي راح ينحسر مع الإماء، اللواتي زاحمن زوجة (عصر الأمومة)... ومع ازدياد سلطة (الرجل/ الأب) ازدادت ثروته ونشأ مفهوم الإرث، حيث راح (السيد / الزعيم) يود أن يتعرف على أولاده ليميزهم عن أولاد " الزوجة القديمة في عصر الأمومة" ليترك لهم أو ليورثهم سلطاته وأملكه...

فُهرت المرأة وفقدت إعطاء اسمها لأولادها... وراحت مكانتها تتضاءل إن كان في الحياة الاقتصادية أو في مجال العلاقات الإنسانية، في مثلث (الأب - الأم - الأولاد).. لقد حل العبيد/الذكور محلها في نطاق الانتاج الزراعي وزاومتها الإماء في منزلتها كزوجة... وبنوالي السنين... انحنى شموخ المرأة مع طفيان " الرجل" السيد... صاحب الأملاك والضياع والعبيد والإماء... انزوت المرأة - الزوجة، ولكنها لم تستسلم... وأول كائن قُدس هو "الالهة - الأم" التي استطلت قدسيتها ومنزلتها في العديد من ظواهر ومظاهر الحياة الاجتماعية والأساطير والمعتقدات الدينية وأخلاق البشر، ومن هنا رأت الحضارات القديمة شرقاً وغرباً: نغورسانجا السومرية (سيدة الجبال) وأوروو خالقة (أنكيديو) في ملحمة جلجامش و(بلت ايلي) الأكديّة "سيدة الآلهة؛ وعشتار الأكديّة وعناة إلهة الخصب الكنعانية مع اللات التي يختلط اسمها مع عشتارة وكان العرب يمترونها مع عناة والعزى (قصة الفرانق)، ثم ربة الحب بأسمائها المختلفة (عشتار الأكديّة- البابليّة- العربية) و(مايا الهندية) و(أناهيت الفارسية) و (أفروديت اليونانية التي يقابلها في روما فينوس إلهة الحب والجمال) ... وهل ننسى دور الكاهنات والساحرات والعرافات... أنغ. وهذا غيض من فيض... ولا يسعنا هنا إلا أن نشير إلى أن الإسلام نظر نظرة سامية إلى المرأة إذ وصفها في خطابه على سوية واحدة مع الرجل ما عدا الميراث والشهادة، وخاطب الاثنين في الإيمان والعقيدة وفي الحساب دون تمييز- وعلى سبيل المثال لا الحصر- قال تعالى في سورة الأحزاب، الآية 34: "إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا". وفي الحديث الصحيح: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خيارهم لنسائهم" (رياض الصالحين، رقم 276). والأمثلة على تقدير المرأة واحترامها وحقوقها وإسهامها في الدعوة والإسلام الأول كثيرة وواضحة... وقد قالوا: في الجسم السليم العقل سليم.. وفي مجتمع متوازن سليم نجد المرأة أقرب إلى التوازن والسلامة... وتسقط حينئذ مختلف الترهات والخرافات والتواهب والسخافات... ومن هنا وجب علينا أن نشكر الباحث سويدان على جهده واجتهاده في دراسته "تاريخ ملكات الشرق"، وقد رفع قدر المرأة: الوالدة والأخت والزوجة والإبنة... إضافة لجميل صنعه في إلقاء الأضواء على "نساء" من بلادنا، لعين أدواراً ساطعة في مجتمعات وطننا العربي عبر العصور.

أ. د. محمد محفل

عضو مجمع اللغة العربية (دمشق)

دمشق الشام، 1 شوال 1434/9 آب 2013

مقدمة المؤلف

لما أنهى إلى معاوية بن أبي سفيان وهو وال على الشام والقتال قائم في صفين بينه وبين الإمام علي (رض) أن هرقل ملك الروم في القسطنطينية يستعد لغزو ثغور الشام الشمالية، كتب الرسالة القصيرة التالية وأرسلها إلى هرقل: ".. تالله لأن أتممت علي ما بلغني من عزمك على غزو صاحبي (يقصد علي) لأكون في مقدمة جيشه إليك، ولأحرقن القسطنطينية البحراء ولأجعلنها حممة سوداء، ولأنتزعنك انتزاع الإصفينة (الجزرة) من الأرض، ولأجعلنك أريساً (فلاحاً) من الأاراسة ترعى الدبل (الخنازير). فلما قرأ هرقل الرسالة فكر وقدّر أن يعقد مجلسه لمناقشة ما جاء في الرسالة واتخاذ قرار بشأنها. ويعد تشاور ومناقشات مع أعضاء مجلسه قرراً يلغي خطة غزوه ليقينه بأن معاوية سيفعلها ويوقف الحرب مع علي ويكون في مقدمة جيش الخليفة لمواجهته.

إنّ للأمم آجالاً وأجل كل أمة يوم تفقد هويتها وحرمتها وكرامة شعبها، والأمة الشجاعة والقلوب الكبيرة تصير على الجوع والحرمان والقلة أكثر من صبرها على الهوان والخنوع والمذلة، كما يمكنها التغلب على الكبرياء الشخصي لولاة أمورها حينما لا يخدم هذا الكبرياء هويتها وحرمتها ومصالحها الجمعية. فإنما يخضع الكثرة للقلة ضئف الروح وسقوط الهمة وقلة النخوة. وما من أمة استطاعت النهوض بدون أن تكوى بنار الألم والمصائب والمحن، ومصدر قوة الأمم شعورها بذاتها وهويتها وبأنها على حق، وبأنها تحمل طموحات وقيماً جمعية ورسالة حضارية، وأنها عازمة على العيش الحر الكريم. وقديماً قالت العرب: الحق رداؤه القوة، فإذا أراد الحق ألاّ يزدري، عليه ألاّ يتعري.

أثقلت الحضارات الغابرة في بلدان المشرق، ومنه العالم العربي، بتاريخ محتشد بالطوائف والإثنيات والانتماءات التي أغنت مسيرته على مر العصور والأجيال. ومن أجل أن يتطور هذا الجزء من العالم عليه أن يطرح صيغ الحكم الجبرية جانباً ويصهر مكونات غناه الحضاري برؤيا الحضارة الحديثة في التقدم الاجتماعي والتنظيمي بكل مكوناتها الديمقراطية والثقافية والتفاعلية والاقتصادية، وفي المشاركة الشعبية العريضة وتداول السلطة وحق المواطنة، بديلاً عن الرؤيا الخرافية للوجود والتاريخ والفرادانية.

وليس جديداً الدور الذي تلعبه منطقتنا، فقد لعبته على مر العصور والأزمان. ومن يسيطر على هذه المنطقة الواسعة يضمن الأولوية في التأثير بالعالم إن لم يكن التحكم فيه. هكذا كان الأمر مع الدول التي حكمت بين النهرين وبلاد الشام ومصر القديمة وامبراطورية الاسكندر وروما وبيزنطة وهاشم والمسلمين العرب وهولاكو والعثمانيين والاستعمار الغربي الحديث، وهكذا يكون مع القوى العالمية اليوم. إنها قدرية الجغرافية والتاريخ والثقافة التي تمثل جميعها قانوناً لا يمكن تجاوزه في الصيرورة البشرية. وما على سكان هذه المنطقة من العالم إلا أن تعي هذا المصير وتحاول تسخيرها من أجل مصلحة شعوبها وبلدانها.

يقوم العمل التاريخي على بحث ومراجع دقيقة وكافية بحيث يقدم الأحداث والشخصيات على نحو يكون أقرب إلى الحقيقة وإلى رؤية أكثر قبولاً وترجيحاً، وألا يصنم المعتقدات والروايات التاريخية. ويتوجب أن يعكس العمل الجمالية الحركية للبيئة والحدث والشخصيات في التحليل واللغة، مستخدماً عقوبة هذه اللغة وجمالها وبساطتها بحيث تكون مفهومة وممتعة ومفيدة بأن واحد. إذ بينما يعتمد الفن الروائي بشكل أساسي على مجموعة من الخطوط الروائية التي تشكل البيئة الأساسية للعمل، يعتمد العمل التاريخي أساساً على تسلسل متحرك من الأحداث التي ترتبط ارتباطاً شديداً بالمكان والزمان والأشخاص، بحيث تترك آثارها المباشرة وغير المباشرة على المشاركين والمنفذين والعام، وعلى الجوار. فالتاريخ ليس مجرد تدوين لأحداث وقعت ومضت، إنما هو عملية تأليف تاريخي تتم باستمرار بإعادة قراءة وفهم المدون بطريقة منهجية تدخل عميقاً في تحليل واستخلاص الدروس من أجل بحث الأمة من جديد، بحيث تعتمد على رؤى ووجهات نظر وتصورات وإقتراضات تقدم القيمة والأهمية لحاضر ومستقبل الإنسان. وقوة الأوطان تتجلى في قدرة نخيها ومبدعيها في إعادة قراءة وفهم ودراسة تاريخها، وبالتالي قدرة هذه النخب المبدعة على تقديم الدرس الوطني وتوظيفه بطريقة تبادلية ضامنة لخدمة جميع مواطنيها من أجل صياغة مشاريع وطنية واضحة تخدم حاضرها ومستقبلها. وبدل مستوى تقدم الدراسات التاريخية عن فهم ونضج معاصر لعملية البناء الوطني. فالفشل في دراسة وفهم التاريخ بشكل عام، والوطني بشكل خاص، يعد من أكثر المخاطر التي تواجه الأوطان. فنحن ما تزال نعيش على غنى ماضينا العريق دون محاولة ربط جدي، ومفيدة، بينه وبين متطلبات التاريخ البشري العلمي الحديث وتقدمه المستمر، حيث أن التجربة الإنسانية حركة ديناميكية مستمرة، إذ لا شيء يبقى على حاله. فالتاريخ وحدة متكاملة المراحل ومتراصة لا تتوقف عن التطور، قاعدتها بنية حضارية بمكوناتها الرئيسية: الثقافي بجانبه الروحي والمعنوي، والمدني بجانبه المادي والعملي. وقراءة التاريخ وإعادة تفسيره تفضي عادة إلى عملية ربط حوار مستمر بين الماضي والحاضر، فتأخذ من ماضينا الذي يحمل في داخله نوعين من الإرشاد: أحدهما يقرأ كإنذار مبكر، والآخر كضوء على الطريق، إلى ما يفيد في توجيهنا وإرشادنا. ولأن معرفة كيفية عمل المجتمع في الماضي تفتح عيوننا على ما هو كامن في الحاضر، وربما في المستقبل، فبكننا بذلك التقلب على ما يعترينا من قلق على حاضرننا، ويزيدنا معرفة بأفاق مستقبلنا وتحفيزاً لتحقيق آمالنا. فقد كان لأسلافنا الأوائل، على عكسنا، فهم واقعي لتاريخهم الذي لم يكتفوا بتقليده وتعليبه بل استمروا في صناعته وتعديله وتطويره حسب متطلبات المرحلة التاريخية التي مروا بها. وبالإجمال فدراسة التاريخ تساعدنا على استبعاد الأخطاء، وتهدينا إلى كيفية اختيار الأنسب، فالتاريخ ليس إلا إعادة بناء خلاقة للماضي في ضوء الحاضر.

ولذا، يجب أن يفرض بنا وضع العالم العربي اليوم إلى العمل على إثبات الأفق التعددي لمقاصد المناهج العملية لخلق رؤى مؤسسية مبنية على خدمة المجتمع والنهوض به على مراتب عصرية لا تتعارض مع روح الثقافة والتراث والعقيدة، وينقش الوقت مبنية

على نزوع أخلاقي وجهد عقلي، بحيث يمكن التخلص من عملية التدمير اللاشعورية الناتجة عن الأحياء الذاتي الدوني عبر إشاعة الشعور المتصل والمتجدد، سواء كان ذلك بالإحياء أو التريديد، بقدرة التخلف ورسوخه داخل الكيان الجمعي للمجتمع. وعلى العكس من ذلك، يتم الانخراط العملي المؤسسي في صنع الدلالات والمعنى على مسرح التاريخ، للتأثير أولاً على سير الأمة، ومن ثم على سير العالم وتوجهاته، وذلك من خلال استثمار كامل القدرات الحيوية الظاهرة والكامنة بمجملها سواء كانت دينية أو عقائدية، ثقافية، تراثية، تاريخية، اقتصادية، أو علمية، لإنعاش وتحفيز وتسييد قيم التحرر والابداع الفردي والجماعي وتشجيع روح التنافس البناء والتطلع الذهني وإرادة العمل، للوصول إلى نمو متكافئ وسلام مجتمعي عادل ومصان يؤمن بالمشارك الجمعي للأمة في الحرية والمساواة والإخاء، وفي العدالة الاجتماعية، والديمقراطية والمواطنة، وفي حقوق الإنسان، وفي القيم المرتبطة بإنتاج المعرفة التي تشكل القوة الدافعة لكل ما تقدم.

من هنا جاء كتابي "تاريخ ملكات الشرق"، بحيث اجتهدت أن أقدم رؤية ربما لم تكن متوافقة مع أسلوب العرض التاريخي بشكل كامل، ولكنها تقترب أكثر من القراءة التاريخية الأدبية. كما اجتهدت أن أجعل من تنسيق تكوينات الكلمات وجملها أداة تعبير ناجحة للعرض بحيث يبدو الحدث، إلى حد ما، متحركاً، ويدفع الرغبة في القراءة. ولست أدري إلى أي حد نجحت في ذلك؟ لكنني تبقى محاولة قراءة تاريخية لتاريخ وسير شخصيات أفردت لبعضها صفحات كثيرة في كتب التاريخ، في حين تم تجاهل بعضها الآخر أو تغطيتها عن عمد برداء من الغموض. فتاريخ وسير هذه الشخصيات بما مثلته مع شعوبها يعيدها جميعها إلى أرومة واحدة، ماعدا كليوباترا. فالعرب مازالوا يعيشون على الأراضي التي حكمها ملكات من الشرق. وهذا يعني، من ضمن ما يعني، أن شعوب هذا الشرق القديم إنما هي أسلاف وأجداد الشعوب الحالية على هذه المنطقة من العالم. فاستفيقوا من نومكم أيها الأحفاد.

تقدم قراءة "تاريخ ملكات الشرق" رؤية مشرقية، امتدت لفترات منقطعة بداية من القرن التاسع قبل الميلاد حتى نهاية القرن الرابع، تحدث صاحباتها الصعاب والمحن، فحاولن الرد عليها بالهفوف بما حملن من طموحات. وقد وفقت كل واحدة منهن على مسافة قريبة جداً من هدفها النهائي، إلا أنهن، ما عدا بلقيس، انتهين بمأساة هزائمهن. ويمكن الإضاءة السريعة على سيرهن، إلا أن ذلك لن يغني عن قراءة الكتاب:

1- يعتبر تاريخ قرطاجة الذي استمر لسبعة قرون من الحيوية والنشاط المارم على مختلف الأصعدة تقريباً تاريخاً مثيراً. والأكثر إثارة ومدة للتأمل هو في توارى وزوال هذه الحيوية وهذا النشاط دون ترك آثار حضارية عميقة متناسبة مع ما حققته. لقد يسر موقع قرطاجة الحصين والنائي عن الامبراطوريات الشرقية العظيمة ومؤثراتها المجال العملي للانطلاق والازدهار بهوية وشخصية كنعانية واضحة، مكنها من بناء امبراطورية مستقلة ومترامية الأطراف يربعاها سلطان ضخم. فأتاح لها غناها التجاري واستثمارها للمناجم الإسبانية إنشاء أسطول تجاري ضخم أتبعته بعمارة حربية وبجيش قوي قاده عسكريون من طراز رفيع، فأصبحت سيدة البحار، واستطاعت تحقيق وحدة

امبراطورية في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط كانت قد عجزت عن تحقيقه أمها صور على الساحل السوري. فهل كان بإمكان قرطاجة أن تستمر بالمحافظة على انتصاراتها أمام الصعود القوي والثابت لروما؟ تبين قراءة الحرب البونية الثانية خاصة، أن انحلال التماسك الداخلي في قرطاجة كان من الأسباب الرئيسية التي أودت بهلاكها، وأن السبب الرئيسي الثاني كان في قوة روما المتصاعدة التي كانت مصادرها المتعددة لا تنضب مقابل مصادر قرطاجة التي أصبحت محدودة، إضافة إلى البناء الامبراطوري الروماني المؤسسي الذي كان يؤمن استمرار الإدارة الرومانية في إيجاد الحلول النهائية للمشكلات التي تعترضها.

2- لم يبلغ شأن وتدخل النساء ومشاركتهن وتأثيرهن في البلاط الروماني مثلما بلغ في بلاط سلالة حكم العائلة السورية؛ عائلة سيفيروس، حيث يظهر تاريخ حكم العائلة على مدى اثنين وأربعين عاماً الأدوار المؤثرة في البلاط الروماني التي قامت بها الأميرات السوريات من عائلة باسيانوس الحمصية المشهورة، فقد لعبت جوليا دومنا زوجة سبتيميوس سيفيروس ووالدة كركلا دوراً بارزاً في تمكين ملك زوجها وابنها، وفي لعب دور أدبي وثقافي مهم وذلك بإنشاء دائرة أدبية وثقافية وقانونية مشهودة في التاريخ الروماني الثقافي. كما لعبت شقيقتها جوليا ميسا وابنتها جوليا سومييا وجوليا ماميا (ماميه)، والدتا الامبراطورين: إلغابالوس وألكسندر سيفيروس، اللاتي عملن بطموح وعزم لا يلين لتأمين بقاء البلاط الروماني في عائلتهن.

3- رقت كل من زنوبيا وكليوبترا على مسافة قريبة من رؤية استراتيجية لبناء دولة عظيمة على غرار الامبراطوريات اللواتي عاصرتها. حيث نجحت زنوبيا في إقامة مثل هذا البناء، لكنها لم تستطع الاستمرار فيه والمحافظة عليه، وذلك لأسباب عديدة، منها: عدم نضوج فكرة الدولة بمقومات نجاحها واستمرارها، وموقعها بين قوتين جبارتين متصارعتين على النفوذ بما فيها تدمير، وعدم مقدرة تدمير على استقطاب جميع عرب المنطقة وصهرهم في بوتقتهم الواحدة كما فعل العرب المسلمون فيما بعد، إضافة إلى ضعف في إدارة مصادر الدولة الواسعة التي أنشأتها زنوبيا للإنفاق على صيانة هذه الدولة وبناء جيش قادر على تنفيذ الطموحات المستمرة والحفاظ على مكتسباتها، إذ لم يتسن الوقت اللازم للقيام بترتيب وتنظيم هذه الخطوات، لأن روما أدركت سريعاً واجب وأد نجاحات تدمير قبل استفحال أمرها. أما كليوبترا فقد رأت استراتيجية بوضوح كامل، وذلك بمحاولة نقل مركز العالم القديم من روما (أم العالم) إلى الاسكندرية، أي أنها رسمت خطتها التكتيكية لتحقيق هدفها الاستراتيجي الكبير دون أن تمتلك مملكتها مؤهلات القيام بمثل هدف كهذا، إلا سلاح ذكائها وانوثتها. وأمام هدفها هذا اتهمت كليوبترا من غالبية كتب التاريخ بأوصاف مشينة، إلا أنها لم تتوان عن الاستمرار في المحاولة، وذلك بإغراء القادة الرومان؛ قيصر وأنطونيوس وأكتافيوس لتحقيق طموحها. ومن أجل هدفها دفعت حياتها ثمناً لذلك، فقد وصفها المؤرخ ديو كاسيوس: "لقد أسرت كليوبترا أعظم شخصيتين رومانيتين بزمانهما، وبسبب الثالث قضت على نفسها"

4- تعتبر الملكة ماوية التي حكمت بعد موت زوجها (الحواري) أقوى امرأة عربية معاصرة ظهرت في العالم القديم بعد الملكة التدمرية زنوبيا. فتملكت في نهاية القرن الرابع على قبائل الاتحاديين العرب من تحالف تتوخ المريض المكون من القبائل العربية التي كانت تقيم في وسط وجنوب وشمال سورية في فترة القرون الميلادية الأولى. وقادت ثورة العرب (375-378) م ضد بيزنطة وهزمتها في أكثر من مواجهة ومعركة في أسلوب حروب خاطفة تعتمد على الكر والفر حتى وصلت إلى الساحل السوري في فلسطين والطرف الشرقي من النيل، مما اضطر بيزنطة إلى الاستجابة لشروطها وعقد معاهدة سلام معها كان من نتيجتها مشاركة فرسان ماوية العرب بمعركة هادريانوبولس (أدرنة) (أدرينوبل) الشهيرة في التاريخ الروماني (378م)، والذي قتل فيها الإمبراطور والنس (Valens) فالينز) وهو يصد غارات القوط الغربيين. ومشاركتها في معركة الدفاع عن القسطنطينية ضد هجمات القوط العنيفة. وكانت أسباب قيام ثورتها الأساسية ترجع إلى خلافات مذهبية بين أريوسية الدولة البيزنطية، والأرثوذكسية التي كان يؤمن بها العرب. وقد توجت المعاهدة بتتصيب الناسك موسى كأول أسقف عربي من أصول عربية على المذهب الأرثوذكسي واستعادة الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها خلال الفترة السابقة. وبدأت أول كنيسة عربية بالظهور في منطقة المشرق الروماني مستقطبة إليها الكثير من قبائل التحالف التتوخي. إذ قد يدل هذا على شعور وإحساس، لم يكن ناضجاً بما فيه الكفاية، بالذات والهوية العربية.

من المفارقات أن الجميع، خاصة في الغرب، يتحدث ويرفع ويتبنى بشعارات السلام ويرى نفسه من المدافعين عنه، فيدعي رفض كل أشكال العنف ويثور ضد كل ضروب العدوان والظلم والاضطهاد، في الوقت الذي يكاد العنف والظلم والعدوان يلزم الوجود الإنساني جاعلاً من حياته مأساة دائمة على رأي الضعفاء، وضرورة إنسانية على رأي الأقوياء. فهناك من يقول بأنه لولا ظاهرة الحرب لما كان بمقدور الإنسان أن يصل إلى هذا المستوى من الرقي والتطور إذا كانت الحرب ثمناً لذلك، بحيث تبقى الحرب ضرورة ماسة للإصلاح وإعادة الحق والحفاظة على الأوطان، أو كما يتبدي للقادة الكبار ضرورة ماسة لتحريك عجلة الاقتصاد وانتقال الإنسان والبحث عن المجهول الذي لا ينفك الكائن البشري، كفرد أو جماعة منذ وجوده الأول، عن محاولاته المستمرة للكشف عنه. ولو انتهى الصراع لانتهى العالم. وقد قال عالم الاجتماع العربي ابن خلدون: " أعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة واقعة في الخليقة منذ برأها الله، وهذا أمر طبيعي في البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل".

فإرادة القوة إذاً هي جوهر الوجود، والنفوس القوية السليمة هي صاحبة السيادة والسيطرة، وما فلسفة الأفضل إلا أنها رؤية إنسانية عامة لأنها مقتونة على حب البطولة والمجد والمغامرة والاكتشاف والفوز. فالأفضل هو رجل نضال وهزم دأئمين، والضعفاء غير فضلاء كما يقال. والقدرة عند الأفضل هي في امتلاك الموجود والتصرف به والسيطرة عليه وتطويره وتسخيريه. والوجه البارز والمعبر عن الأفضل إنما يكون في العمل

والابتكار والإبداع. وما صراع الحضارات بثقافتها وعقائدها وطبقياتها. وشعاراتها في حقوق الإنسان سواء كانت عالمية أو محلية، إلا واجهات للتدخل والسيطرة والامتلاك. وما على من يخافون على بلادهم وهويتهم ومصالحهم إلا أن يحاولوا أن يكونوا أفضل. وفي الحديث الشريف: " المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وفي كل خير". والمعجزة، بعد وقوع الإنسان، هي في أن يعاود النهوض واقفاً.

وما إجماع الغرب الديمقراطي الذي يرفع بشكل دائم شعار مناصرة حقوق الإنسان والديمقراطية وثقافة السلام ونبذ العنف، حسب معايير المتددة، إلا خدمة لأغراضه. فهو يقوم بالتطور والتقدم على جميع الأصعدة، وهو يقوم أيضاً بتولي اختراع أدوات الحرب وشن الحروب والقتل الجماعي والانحياز الدائم مع أنه يفتي ببراعة ومهارة أنه ضد ما يفعل. بذلك أصبحت الفجوة كبيرة بين المثل والقيم العليا التي يدعيها والوجه الحقيقي الذي نراه عليه.

ولذلك، فمن المنطقي أن يوجع تفاقم القوة وطغيانها لدى الغرب الرغبة ليس في الاحتجاج فقط، وإنما الرغبة في تدميرها. فالحقد على قوة عالمية طاغية يقود تدريجياً إلى الرغبة وحشد الطاقات لتدميرها والقضاء عليها. وما تصرفات الغرب في السيطرة على العالم إلا إحياءات مستمرة كما لو أنه في موقع صاحب القدرة الإلهية الكلية الشرعية والأخلاقية المطلقة. حتى أن تفاقم هذه القوة الغربية الطاغية تغدو في كثير من الأحيان عملاً انتعاريّاً بإعلان الحرب على نفسها. وهذا ربما يعد سلوكاً من طغيان القوة البشرية بكل أنواعها العسكرية والاقتصادية والثقافية قد يقود إلى تدميرها.

فالنظام الذي أنتجته هذه القوة العالمية، خصوصاً في ظل العولمة، مكتها من استخدام مميزات منزلتها العلمية والتكنولوجية المتفوقة وخبراتها المتراكمة لفرض أكثر الأشكال موارية وأكثرها شمولية في التاريخ الإمبريالي كله. وهو الذي أنشأ تدريجياً الشروط الموضوعية للردود العنيفة المباغتة والمتوقعة من قبل الآخرين المعرضين لبطشها وجبروتها. فاجتماع جذور الطاقة من منابعها الكثيرة والمتعددة تغذي الرغبة عند الآخرين حتى يأتي وقت ليس بعيداً قد تتجح هذه الطاقة في تغذية رغبة المبطوش بهم إلى تقويض ما أنتجته هذه القوة العالمية الباطشة. والحال أن المسألة هنا ليست نابعة من عملية استجابة آلية لقراءات أيديولوجية يساء فهمها، ولكن من أسباب رئيسية تأتي من محاولة تطبيع ونهب شاملين للآخرين تقوم بها هذه القوة العالمية الطاغية، ووكلاؤها، لصالحها وباستمرار متنامية الوجود الإنساني والحضاري للآخر. فالغرب القديم الحديث مستمر في استشعار آثار نجاحاته العسكرية والاقتصادية والثقافية والعلمية والتكنولوجية بصورة أقرب إلى قدرة كلية على تطويع الأمم والشعوب مثلما كان الأباطرة الرومان وغيرهم يقومون بالهروب إلى إثارة الموت وإراقة الدماء البشرية في المدن والقرى وعلى السهول والهضاب والجبال وفي الأودية، ليستشعروا إثارة أحاسيسهم الإنلوهية والقدرة! فمن يقتل الملايين يدخل التاريخ، وربما يصبح بطلاً، في حين أن من ينقذ الملايين قد يطويه النسيان سريعاً. لقد عشق الرومان، بطبيعتهم وبالتدريب والتجربة، وممارستهم لقواهم البدنية (ومن بعدهم أحفادهم في الغرب)، إلى تجسيد الشخصية

الإلهية في أنفسهم، وفي إراقة الدماء، لأنهم بنوا بلادهم وحضارتهم ومدنهم، بجزء منها، على خراب وتدمير الآخرين، وقد جبلت امبراطوريتهم بما وصلت إليه بدمائهم ودماء الآخرين، إذ ما تزال آثار دماء قتلاهم فوق ضفاف الأنهار والوديان والسهول والجبال والأقضية وساحات المدن والبلدات، التي شهدت جميعها معاركهم، والتي مازالت أيضاً أجواؤها تمتلئ بروائح أجساد ضحاياهم، فالحياة كانت عندهم في خطوة، والموت في الأخرى.

لقد ذهب الرومان مذهب أشد الأمم بطشاً وأوسعهم ملكاً وأكثرهم تمدناً، وقد بقي لحضارتهم بعد أن بادوا أثر كبير في مدنية أوربة والعالم، لاسيما عبقريتهم المتعلقة بالتنظيم والقوانين وتشكيل الحكومة والإدارة وفنون النحت والنصب والعمارة والشعر وغير ذلك مما نشره من حضارة الإغريق، هتركوا إرثاً حضارياً عظيماً. ولذلك اعتبرت دولتهم أعظم من كثير من الدول القديمة التي ظهرت في التاريخ.

ومع ما يمثلته الغرب من معايير مزدوجة وسياسات نفعية تدعها الأيديولوجيا والقوة المادية والثقافة، فإنه من العدل القول أن الغرب الحديث أنتج وما زال ينتج برامج وأبحاث وتطور وتكنولوجيا في جميع فروع علوم الحياة تعين جميع شعوب الجنس البشري على تحسين أوضاع حياتها ومعاشها. إذ يعد هذا إنجازاً إنسانياً هائلاً وفضلاً يجب أن نعترف به لأمله. وليست مصلحتنا في تصعيد العداء تجاه الغرب، وذلك لأسباب عديدة، وإنما العمل على التصالح معه لما فيه مصلحتنا، فقد شهد مسار التاريخ منذ بداياته بعلاقات وياشتباك مستمرين بين الشرق والغرب، وما علينا إلا أن نقوم بإعادة هندسة استراتيجية لهذه العلاقات وهذا الاشتباك بطريقة تبادلية مفيدة للطرفين. إن السعي نحو هدف مستقبلي والإيمان به يحمل في طياته عملاً جميلاً ومبجلاً ومبهجاً، يضفي معنى وإلهاماً وزينة على حياة الفرد والمجتمع.

وكما بدأنا بمعاوية بن أبي سفيان نختم بمحمد الفاتح وهو يدخل القسطنطينية بعد فتحها، وهو على صهوة حصانه الأبيض يسير في موكبه يحيطه الوزراء والقادة والفرسان وحشود المدينة الذين تجمعوا على طول الطريق الواصل بين طوب قابي وكنيسة آيا صوفيا، حينما فوجئ باندفاع درويش من دراويش الجيش العثماني يخرج من بين الجموع المحتشدة، فيمسك بعرف جواده ويقول له: لا تنس أيها السلطان أنه بفضل دعائنا نحن الدراويش فتحت هذه المدينة، ابتسم السلطان وأخرج سيفه من قمده حتى منتصفه، وقال: صدقت يا درويش! ولكن لا تنس حق هذا السيف أيضاً.

وأخيراً، نشد قائلين: "ويلكم، أيها الناس، إن لم تكن آمالكم في ذاتكم منعقدة".

تمهيد تاريخي

من المفيد وضع لوائح عامة للفترات التاريخية التي مرت على العالم القديم وعلى هذه المنطقة من العالم خلال أكثر من عشرة قرون ليتسنى للقارئ متابعة الأحداث من خلال الرجوع إلى هذه اللوائح كلما اقتضى الأمر ذلك، حيث جاء ترتيبها حسب أهميتها في الكتاب وليس أزمانها .

أولاً: العصور الرومانية

لائحة بالحوادث الكبرى وأسماء الملوك والأباطرة الذين حكموا روما وبيزنطة ابتداء من تاريخ تأسيس روما سنة 753 ق.م حتى معركة اليرموك سنة 636م. حيث مرت روما بعصور رئيسية ثلاث حتى إعلان الامبراطورية البيزنطية في نهاية القرن الرابع الميلادي:

أولاً: العصر الملكي: من عام 753 ق.م حتى 509 ق.م (250 عاماً).

ثانياً: العصر الجمهوري: من عام 509 ق.م حتى 27 ق.م (500 عام). وقد درج المؤرخون على تسمية القرن الأخير من هذا العصر (133-27) ق.م بعصر الثورة، حيث بدأت محاولة إصلاح نبيلة قام بها بعض ترابنة (نقباء العامة المدافعون عن حقوق الشعب) الشعب، تحولت إلى صراع عنيف على السلطة بين كبار القادة العسكريين، ما لبث أن تحول إلى حرب أهلية قضت على النظام الجمهوري. إذ قام الشقيقان طبريوس وجايوس جراكوس بين عامي 133-122 ق.م بمحاولتهما الإصلاحية التي فشلت بمقتلها . واحتدم الصراع في المرحلة الثانية بين سولا وماريوس (120-78) ق.م، ثم بين قيصر ويومبيوس (يومبي) في المرحلة الثالثة، وهو الذي أدى إلى نشوب الحرب الأهلية الرومانية التي لم تبق من النظام الجمهوري إلا على الاسم فقط.

ثالثاً: العصر الامبراطوري: من عام 27 ق.م حتى سقوط روما سنة 476 م تحت ضربات قبائل القوط الجرمانية (500 عاماً)، وتقسيم الامبراطورية إلى شرقية (بيزنطية) عاصمتها القسطنطينية، وغربية عاصمتها روما .

الحدث	قبل الميلاد	
تأسيس روما حيث أصبح رومولوس أول ملك عليها .	753	1
حكمت روما من قبل الملوك الأتروسكيين.	600-510	2
إعلان الجمهورية.	510	3
خاضت روما سلسلة من الحروب المتواصلة مع الجوار في الشمال والجنوب وضمت معظم أجزاء شبه الجزيرة الإيطالية.	500-250	4
أول قانون يسمح بمجلس للشعب الروماني لصياغة القوانين.	287	5
كامل شبه الجزيرة الإيطالية يصبح تحت حكم روما .	270	6
الحرب البونية الأولى بين روما وقرطاجة، حيث داهمت روما عن المدن الإفريقية في جزيرة صقلية ضد القرطاجيين.	264-241	7
بناء أول أسطول روماني، وأول معركة بحرية ينتصر فيها الرومان على القرطاجيين.	260	8
انتصار الرومان على القرطاجيين والاستيلاء على صقلية.	241	9
معاهدة نهر إيبرو (في إسبانية) التي نصت على عدم عبور القرطاجيين إلى شمال النهر وعدم عبور الرومان إلى جنوبه.	226	10
الحرب البونية الثانية بين روما وهانيبال (هانيبل).	218-201	11
انتصار هانيبال وهزيمة الرومان في معركة كاناي التاريخية جنوب شرق روما .	216	12
الحرب المقدونية الأولى بين فيليب الخامس وروما .	214-205	13
اسكيو (ميسيبيو) يهزم هانيبل في معركة زاما جنوب قرطاجة .	202	14
عقد معاهدة السلام بين روما وقرطاجة، حيث أصبحت روما الآن تسيطر على المنطقة الغربية من حوض المتوسط.	201	15
الحرب المقدونية الثانية التي أعلن خلالها استقلال اليونان.	200-196	16
الحرب المقدونية الثالثة التي هزم فيها بيرسوس في بيدنا .	172-168	17
أصبحت مقدونية بالكامل مقاطعة رومانية.	148	18
الحرب البونية الثالثة، وتسوية قرطاجة بالأرض (146 ق-م) بعد استباحتها وإحراقها وتدميرها من قبل المنتصرين الرومان .	149-146	19
طبريوس كراسوس يصبح ممثلاً للشعب الروماني، والذي أدى اغتياله إلى اضطرابات طبقية.	133	20
قام غايوس شقيق طبريوس بتقييد إصلاحات سياسية واقتصادية اغتيل غايوس كراسوس.	123-122	21
ماريوس وسولا يشقان حرياً ضد جوغارثا التوميدي.	121	22
الحرب الاجتماعية بين روما وحلفائها، وتوسيع حق المواطنة.	111-105	23
الحرب ضد الملك ميثريدس الخامس في شمال آسيا الصغرى	91-89	24
الحرب الأهلية بين ماريوس وسولا، واحتلال سولا لروما .	89-85	25
سولا يصبح دكتاتوراً فيعيد الدستور، ويحدث إصلاحات.	83-82	26
سولا يصبح دكتاتوراً فيعيد الدستور، ويحدث إصلاحات.	81-79	27
موت سولا.	78	28

29	72-77	بومبيوس (بومبي) يقاثل سرتوريوس في إسمانية.
30	71-73	ثورة العبيد الثالثة على روما بقيادة سبارتاكوس.
31	70	بومبيوس وكراسوس يصبحان قنصلين. ويعود حزب الشعب.
32	67	نهاية الحرب الثانية على ميثريدياس بعد ثلاث سنوات. يسيطر بومبيوس على البحر ضد القراصنة.
33	64	حملة بومبيوس (بومبي) على الشرق واحتلال بقية آسيا الصغرى وسورية.
34	63	شيشرون يحبط مؤامرة كاتالينا. انتخاب قيصر حبراً أعظم.
35	60	تشكل الائتلاف الثلاثي الأول (غير الرسمي) من: يوليوس قيصر بومبيوس، وكراسوس، ويتخب قيصر قنصلاً.
36	58-51	قيصر يحتل بلاد الغال. واضطرابات في روما طيلة الفترة.
37	53	البريثيون الفرسي يهزمون الرومان في معركة كارهي (حران)، وانتصار كراسوس قائد الحملة والحليف في الائتلاف الأول.
38	49	الحرب الأهلية بين بومبيوس وقيصر. وقيصر يعبر نهر الرييكون باتجاه روما.
39	48	قيصر يهزم بومبيوس في معركة فارسالوس، ويصبح دكتاتوراً.
40	44	اغتيال يوليوس قيصر وسط مجلس الشيوخ الروماني. ومارك أنطوني (ماركوس أنطونيوس) يثار لمثله.
41	43	تشكل الائتلاف الثلاثي الثاني: أنطونيوس، أوكتافيوس، ولبيدوس
42	42	الائتلاف الثلاثي الثاني يهزم بروطس وكاسيوس، المشاركين في اغتيال قيصر، في معركة هيلي.
43	41-40	تقاسم البلاد بين أنطونيوس وأوكتافيوس ولبيدوس.
44	33-32	انقراض عقد التحالف بين أنطونيوس وأوكتافيوس.
45	31	هزيمة أنطونيوس (مارك أنطوني) وكليوبترا أمام أوكتافيوس في معركة أكتيوم البحرية، وانتصارهما سنة 30 ق.م.
46	27	أعاد أوكتافيوس الاعتبار الشكلي لمجلس الشيوخ الروماني، بالمقابل، منحه المجلس أرفع لقب جديد: أوغسطس (المبجل).
47	18	إصدار قانون يولييان الذي يعزز الأخلاق العامة، ويحرم الزنا، وينظم الزواج..
48	12	الأوغسطس يصبح الكاهن الأعظم (رأس الدولة الديني).
49	2	يضيف أوكتافيوس لقباً جديداً إلى ألقابه السابقة: أب الوطن، أو أب البلاد ورأس الهرم على قمة السلطة: الامبراطور الأعظم.

بعد الميلاد	الأحداث
50	4 م تعيين طبريوس وريتا لأوكتافيوس.
51	6 م ضم يهودا في فلسطين إلى الامبراطورية.
52	9 م إبادة فيالق فاروس الرومانية الثلاثة في ألمانيا (المانيا).
53	14 موت الامبراطور أوكتافيوس موتاً طبيعياً عن 76 عاماً.

54	14-37	الامبراطور طبريوس إداري ناجح، لكنه لم يكن محبوباً، مات خفياً على يد قائد الحرس الامبراطوري.
55	14-16	نجاح حملة جرمانيكوس في ألمانيا.
56	19	موت جرمانيكوس القامض وجنارته في أنطاكية.
57	21-22	سيانوس (سيفانوس) يقوم بتظيم الحرس الامبراطوري.
58	26-31	يصبح سيانوس الأقوى في روما، لكنه يعدم في سنة 31 م.
59	37-41	كالپولاً امبراطوراً وكتاتورا قاسياً، قتله اليريتور (نقيب العامة).
60	41-54	كلوديوس يمتلي العرش، ويفتح بريطانيا، ويظهر حكمه سياسية، يمتد أنه مات بسم زوجته.
61	54-68	نيرون يصبح امبراطوراً، ويحرق روما سنة 64، ويضطهد أتباع المسيحية، نحر أو انتحر.
62	68-69	اعتلى أربعة أباطرة العرش الروماني في سنة واحدة: غالبا، أوتو، فتيليوس، وسيسيانوس (فيسبيان)، أشهر إليها بالمرحلة الانتقالية.
63	69-79	جيش الشرق والدانوب تنادي بوسباسيانوس امبراطوراً، حيث بدأ حكم السلالة الفلافية، بنى كلوسيوم روما الشهير.
64	70	طيطوس بن وسيسيانوس يحتل القدس ويهدم المعبد.
65	79-81	طيطوس يخلف والده، يتفجر بركان فيزوفيو (فيزوف) سنة 79 م، ويدمر مدينتي بومبي وهركلانوم.
66	81-96	دوميتيانوس (حمل لقب: قاضي الإحصاء الدائم) على العرش، يبنى القلاع والحصون على طول الحدود في ألمانيا، وينهي فترة حكمه بالربح.
67	96-98	نرفا يصعد إلى العرش بعد اغتيال دوميتيانوس، ويتبنى ترائيانوس (تراجان).
68	98-117	ترايانوس امبراطوراً بعد موت نرفا. يفتح ذاكية (رومانية حالياً)، وينهي مملكة الأنباط ويضمها ويجعلها ولاية (ولاية العربية)، وينجح في حملته الفارسية، فيضم أرمينية وما بين النهرين.
69	117-138	هادريانوس (هادريان) يصبح امبراطوراً: رحالة مثقف جال في أنحاء الامبراطورية، جندي وإداري ناجح، بنى الجدار المعروف باسمه في شمال بريطانيا سنة 122 م. منع اليهود من دخول أورشليم التي أصبحت إيليا كابيتولينا سنة 135 م.
70	138-161	أنطونيوس بايوس الملقب بأنطونيوس الثاني، حيث ساد النظام والسلام في ربوع البلاد خلال حكمه.
71	161-180	ماركوس أوريليوس (أوريل) امبراطوراً. شاركه الحكم ابنه كومودوس من عام 177 حتى موته. يشير المؤرخون إلى حكمه بالأهمية والمثال، جرد حملة عسكرية ضد هاريس البرثية سنة 162 م، كما شن حرباً ضد القبائل الجرمانية على الدانوب بين الأعوام 175 و180. ألف أوريليوس كتاب "التأملات".
72	180-192	كومودوس امبراطوراً. يضع حداً لمشاريع والده على الدانوب.

73	193-211	سيتيموس سيفيروس الليبي يصبح امبراطوراً بعد الأزمة التي نشبت إثر مقتل كومودوس، فيقلب على المطالبين بالعرش لا سيما بسينوس نيجر في الشرق، وكلوديوس ألبينوس في الغرب. قاد حملة على البريئين (197-198)، فاحتل ونظم ولاية ما بين النهرين تخلص من بلوتيانوس قائد حرسه الامبراطوري وعين القانوني باينيانوس خلفاً له. ومنح الجيش امتيازات خاصة كثيرة. مات في يورك - بريطانيا سنة 211م.
74	211-217	كراكلا الحمصي، ابن سيفيروس وجوليا دومنا، على العرش. ورغم إصداره مرسوم المواطنة الرومانية في عام 212م، فقد وصفته المؤرخون بالمتوحش. قتل أخاه جيتا سنة 212م. اغتاله أحد ضباطه وهو في الخلاء خلال حملته على البريئين القرس. ولد المعلم ماني (معلم الديانة المانوية) في بلاد بابل سنة 216.
75	217-218	ماكربنوس يفتصب العرش، ويموت قتيلاً.
76	218-222	إلأغباليوس (الغالب) الحمصي على العرش. قتله الجند مع أمه.
77	222-235	اسكندر سيفيروس الحمصي على العرش. انتصار الساسانيين على البريئين سنة 224م بقيادة أردشير. عين المؤرخ ديو كاسيوس قصصاً سنة 229م. خاض اسكندر حرباً ضد الفرس بين (231-232). اغتاله الجند مع أمه في ماينانس.
78	235-284	شهدت الامبراطورية أزمة القرن الثالث (الأزمة الامبراطورية) بعد موت اسكندر حتى ديوقلتيانوس (دقلديانوس) سنة 284.
79	235-238	التراقي ماكسيموس ثراكس على العرش (تعاقد أباطرة وزوالهم بسرعة في ظروف ومصاعب داخلية وخارجية صعبة؛ مهاجمة الحدود، ثورات وانفصال ولايات، تقاوم الأزمة الاقتصادية.. الخ). ثراكس يموت غيلة.
80	238	المناداة بغورديان الأول الملقب بالأفريقي وابنه غورديان الثاني امبراطورين في قرطاجة، وماتا مقتولين. أعلن ماكسيموس وبالبينوس امبراطورين بأن واحد. أرمية أباطرة في سنة واحدة.
81	238-244	غورديان الثالث يمتلي العرش (ابن الأول وشقيق الثاني). يشير المؤرخون إليهم بالنورديان الثلاثة. قتله الحرس الامبراطوري خلال حملته الفارسية، وأعلن فيليب العربي امبراطوراً.
82	244-249	فيليب العربي (الخوراني) امبراطوراً. احتفل بأعياد روما الألفية سنة 248م. قتل على أرض فيرونا في معركة نشبت بينه وبين دكيوس على تنازع العرش.
83	249-251	تولى دكيوس (ديقيوس) عرش روما بعد مقتل فيليب. أول من أصدر قراراً رسمياً عاماً باضطهاد أتباع المسيحية في عموم الامبراطورية، بينما كانت جميع الحملات السابقة محلية. مات في حملة على القوط. خلفه ابنه هوشيليانوس الذي مات بالوباء.
84	251-253	تريبونيانوس غالوس على العرش. قتله الجند. خلفه إميليانوس الذي

		قتله الجند أيضاً.
85	260-253	والبريانوس (فاليريان). مات في الأسر الفارسي بعد هزيمته في حملته الفارسية. أذينة تدمر يشارك في المعارك ضد الفرس.
86	268-253	يشارك غالتيانوس والده والبريانوس الحكم، ويصبح امبراطوراً بعد أمر أبيه على يد شابور. يتحالف مع زنبويا ملكة تدمر بعد اغتيال زوجها أذينة وابنه في حمص سنة 267 م.
87	270-268	كلوديوس غوتيكوس (القوطي) يصبح امبراطوراً، وينجح في طرد الألمان من إيطاليا والقوط من البلقان. مات بالطاعون. خلفه أخاه كونتيوس الذي اغتيل أو انتحر؟
88	275-270	أورليانوس (أورليان) امبراطوراً. يهزم زنبويا ويقضي على مملكتها، ويأخذها أسيرة إلى روما، ويعرضها في احتفال تصره هناك. لعدم الفيلسوف لونجينوس في حمص بعد انتصاره على تدمر. تأمر على قتله ضباطه الكبار في طريق حملته الفارسية.
89	276-275	تاكيتوس يخلف أورليانوس. ويقتل غيلة. ويخلفه فلوريانوس لأشهر حيث قتل بعدها. قبائل الفرنجة تبلغ إسبانية.
90	282-276	برويوس على العرش. قتله الحنن. موت المعلم ماني سنة 277.
91	283-282	كاروس يستولي على الحكم من برويوس. مات بالصاعقة.
92	284-283	نوميريان بن كاروس على العرش. ربما مات غيلة. شاركه في الحكم أخاه كارينوس الذي قتل في معركة ضد ديوقليتانيوس.
93	305-284	أعلن الجيش ديوقليتانيوس امبراطوراً في خلدونية، ففقد صلحاً مع الفرس. انتصر على جميع منافسيه. يعده المؤرخون منقذاً للدولة من أزمتها في القرن الثالث. أدخل إصلاحات وتحسينات عديدة على نظام الأمن والدفاع والإدارة، وأحدث ثورة في النظم الرومانية، فكان عصره من أهم العصور الرومانية. سميت فترة حكمه بالحكم الرباعي، حيث قسم البلاد إلى أربعة أقسام رئيسية على رأس كل منها حاكم يتبع له. تنازل عن العرش، ومعه مكسيميانوس سنة 305. فتولى كلوروس.
94	306-305	قسطنطيوس (كونستانتس) كلوروس. مات موثاً طبيعياً.
95	337-306	ينادي الجند بقسطنطين الكبير (الأول) ابن كلوروس امبراطوراً. اندلعت الحرب الأهلية بسبب التنازع على الحكم، فكان عهد اضطرابات تعدد فيه القياصرة والأباطرة، إلى أن انتصر قسطنطين على مكسانس في معركة جسر ملفين سنة 312 م، وانتصار حليفه ليكيينيوس على مكسيمينوس دايا في الشرق سنة 313 م. أصدر مرسوم ميلانو الذي سمح بالحرية الدينية في الامبراطورية سنة 313 م. حسم المعركة مع ليكيينيوس، فأعاد وحدة الامبراطورية. أشرف على عقد أول مجمع مسكوني في نيقية سنة 325 م للتوفيق بين المذاهب المسيحية المتخاصمة (الأرثوذكسية والأريوسية). أمر بقتل ابته كريسبوس ثم زوجته فوستا سنة 326. نقل العاصمة من

		روما إلى بيزنطة (مماها القسطنطينية لاحقاً) سنة 330 م. يقوم في سنة 335 بتنظيم الخلافة من بعده بين أبنائه الثلاثة وابني أخيه. تم تعميده وهو في نزعته الأخير سنة 237 م. عده المؤرخون مشرعاً عظيماً. مع ذلك فقد أنزل الطبقات الدنيا إلى أدنى مراتب العبودية.
96	337-340	انقسم أولاده الثلاثة: قسطنطين الثاني، قسطنطيوس الثاني، وقسطنطس، إرث الامبراطورية. استطاع قسطنطيوس الثاني (كونستانس) حسم الأمر بتوحيد البلاد تحت حكمه حتى 361م.
97	337-361	قسطنطيوس (كونستانس) الثاني على العرش في القسطنطينية، يحاصر القرس نصيبين مرات عديدة فيدخلون أمّ سنة 395، ويحتلون سنجاراً في 360 م. تتعرض المسيحية لحملة اضطهاد شديدة في فارس. يعين كونستانس ابن عمه غالوس قيصرًا سنة 351م، ويكلفه بإدارة الشرق، ثم يأمر بقتله سنة 354. ثم يعين يوليانيوس أخو غالوس قيصرًا سنة 355، ويسند له قيادة الحملة ضد قبائل الألمان في غالية، فيعلنه الجيش امبراطوراً بعد انتصاره سنة 360م. يموت كونستانس وهو في طريق عودته من الشرق لقتال يوليانيوس. وقد خاض خلال حكمه سلسلة حروب ضد منافسيه، وضد القوط، وضد القرس.
98	361-363	يوليانيوس (يوليان / جوليان) المرتد. قتل على الجبهة الفارسية أثناء تراجعه. أعاد الوثنية الرومانية الرسمية، لكنه لم يتعرض للمسيحية وإنما حظر استعمال النصوص الكلاميكية على المعلمين المسيحيين. وشاركه الحكم يوليانيوس (جوفيان).
99	363-364	يوليانيوس: رافق يوليانيوس في حملته الفارسية: أعلنه الجيش بعد مقتل يوليانيوس وهزيمة الجيش أمام القرس. عقد معاهدة سلام مع الفرس الساسانيين فأقطعهم أرمينية وبعضاً من بلاد الرافدين
100	364-375	أعلن الجيش والثنيانوس الأول امبراطوراً بعد موت يوليانيوس. فأشرك أخاه والنس (فالينز) وأقطعه ولاية الشرق. يعين ابنه غراتيانوس امبراطوراً سنة 367 م. يصبح القديس أنثاسيوس أسقفاً على الأسكندرية، وأمبروس أسقفاً على ميلانو سنة 373 م. مات ميتة طبيعية. نودي بوالثنيانوس الثاني امبراطوراً بعد موت الأول، فتحكم أمه يوستينا (جوستينا) باسمه.
101	364-378	شارك والنس (فالينز) شقيقه والثنيانوس الحكم، ثم سمي امبراطوراً خلفاً لشقيقه. قتل في معركة أدريانوولس (أدرنة) الشهيرة في التاريخ الروماني- البيزنطي ضد القوط في 28 آب 378 م، وهم يجتازون الدانوب، والتي أباد القوط فيها الجيش الروماني. انتفضت ضده ماوية ملكة العرب التبوخين وهزمته في معاركها التي استمرت لثلاث سنوات. فمقد معها اتفاقية سلام بعد استجابته لشروطها، وشاركت بعدها في معركة أدرنة وفي معركة الدفاع عن القسطنطينية ضد حصار القوط لها.

395-379	10 2	ثيودوسيوس الأول امبراطوراً. نجح في صيانة الامبراطورية من التصدع. وضع حداً لثورة ماويه الثانية سنة 383م. شاركه ابنه أركاديوس كحاكم على القسم الشرقي من الامبراطورية من سنة 383، وبقي مستمراً بعد وفاة والده حتى سنة 408. كما شاركه ابنه الثاني هونوريوس كحاكم على القسم الغربي من سنة 393 واستمر حتى 423 م. بذلك شاركا في الحكم معاً بعد وفاة والدهما. تم الاعتراف لأول مرة بالديانة المسيحية كديانة رسمية سنة 392م. وتم تقسيم الامبراطورية رسمياً إلى قسمين: شرقي وغربي؛ البيزنطية في الشرق وعاصمتها القسطنطينية وعليها أركاديوس، والغربية عاصمتها روما عليها هونوريوس. يلعد مجمع القسطنطينية المسكوني سنة 381 م.
408-383	10 3	أركاديوس على الشرق.
423-393	10 4	هونوريوس على الغرب.
450-408	10 5	ثيودوسيوس الثاني امبراطوراً بعد موت أبيه أركاديوس، وبقى امبراطوراً على الشرق حتى موته موتاً طبيعياً.
410	10 6	استطاع فرج من قبائل القوط بقيادة أاريك احتلال روما في سنة 410 م. واستمرت عموم قبائل القوط في الشرق والغرب بفزوها لأراضي الامبراطورية خلال القرون الثلاثة التالية؛ من الثالث حتى الخامس، ونجحوا في النهاية بإنشاء ممالكهم في القسم الغربي من الامبراطورية، إلى أن تم إنهاء هذه الممالك بالفتح العربي الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية.
457-450	10 7	مارسيان زوج شقيقة ثيودوسيوس الثاني يخلفه. موت طبيعي.
476-455	10 8	تعاقب على حكم الامبراطورية الرومانية الغربية من سنة 455 حتى تاريخ سقوطها سنة 476 م تسعة من الاباطرة.
476 - 1453	10 9	اختلف المؤرخون في تحديد فترة العصور القديمة والوسطى. فاتخذ بعض المؤرخين من تاريخ سقوط الامبراطورية في الغرب سنة 476 م حداً فاصلاً بين القديمة والوسطى يسقط القسطنطينية سنة 1453م على يد القائد العثماني محمد الفاتح.
518-457	11 0	(فترة حكم أسرة ليونيد). حكم ليو الأول ثم ليو الثاني ثم تلاه زينو، ثم جاء بسيليكوس، ثم أناستاسيوس الأول.
602-518	11 1	فترة حكم أسرة يوستين (518-527) م. مات يوستين موتاً طبيعياً.
565-527	11 2	يوستيانوس الأول. موت طبيعي.
578-565	11 3	يوستيانوس الثاني، والذي عانى من اضطرابات عقلية، قتل الوصاية طبريوس الثاني من سنة 574 م حتى وفاة يوستيانوس.
582-578	11	طبريوس الثاني قسطنطين بن يوستيانوس الثاني يالتي. ربما مات

4	بسم موريس.	
11 5	602-582	موريس زوج ابنة طبريوس. أجبره فوكاس على التنازل، ثم قام بإعدامه فيما بعد.
11 6	610-602	فوكاس، الذي تمرد على موريس. أعدمه هرقل سنة 610 م.
11 7	641-610	الامبراطور البيزنطي هرقل. كان من أصول أرمينية. انتزع الحكم من فوكاس، وقام بإعدامه. هُزمت جيوشه أمام العرب المسلمين. بذلك تم وضع المسار الأخير في نمش الامبراطورية الرومانية- البيزنطية بعد 700 سنة كاملة من الاحتلال الروماني للمشرق (64 ق-م حتى 636 م معركة اليرموك)، وألف عام من بداية الاحتلال اليوناني للمشرق (الفترة الهلنستية).

استمر حكم الأباطرة الرومان في الشرق تحت مسمى الامبراطورية البيزنطية (الامبراطورية الرومانية الشرقية) منذ قسطنطين الكبير. مع ذلك كان الأباطرة البيزنطيون يعتبرون أنفسهم روماناً يمثلون الميراث الروماني العظيم، حتى أن الكنيسة الكاثوليكية في الغرب ظلت تعترف بذلك لقرون عديدة إلى أن تم تأسيس الامبراطورية الرومانية المقدسة بتتويج البابا ليو الثالث امبراطوراً عليها، وذلك نتيجة للإختلافات العقائدية مع الأرثوذكسية الشرقية.

درج المؤرخون والباحثون على تصنيف وتسمية تاريخ العائلات الرومانية الحاكمة منذ تأسيس الحكم الامبراطوري حتى سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية، إلى السلالات الحاكمة التالية. علماً أن العديد من أفراد هذه السلالات لم يرتبطوا بالصفات العائلية والأسرية التي يمكن أن تشفع لمل هذه التسميات:

الأولى: السلالة اليوليوس- كلودية (27 ق-م 68 م)؛ نسبة إلى يوليوس قيصر وابنه بالتبني أوكتافقيوس، وعائلة طبريوس كلوديوس. أسسها القيصر، وحكمها خمسة أباطرة: أوكتافقيوس، طبريوس، كاليغولا، كلوديوس، ونيرون. وأكتافقيوس كان الوحيد الذي مات موتاً طبيعياً بينهم، بينما مات الباقيون بمن فيهم المؤسس موتاً عنيفاً. وقد مثلت هذه السلالة الأرستقراطية والعراقة الرومانية.

الثانية: السلالة الفلوية أوألفلاوية (69-96 م)؛ نسبة إلى فلافيوس وأسيسبانوس. وضمت ثلاثة أباطرة، هم: وأسيسبانوس، طيطوس، ودومتيانوس. وقد مثلت هذه العائلة البرجوازية الحديثة وطبقة الفرسان. كان الأخير الوحيد الذي قتل بينهم.

الثالثة: السلالة الأنطونية أو الأنطونينية (96-192)؛ نسبة إلى أنطونيوس التقي. وضمت ستة أباطرة: نيروا (نرفا)، ترايانوس (تراجان)، هادريانوس (هادريان)، أنطونيوس التقي، ماركوس (مرقص) أورليوس، وكومودوس. وشهدت هذه الفترة السلام في ربوع البلاد، وأطلق عليها: سلالة السلام الروماني Pax Romana (المصر الذهبي). جميعهم مات موتاً طبيعياً ما عدا كومودوس الذي قتله الحرس الامبراطوري.

الرابعة: السلالة السيفرانية- السورية (193-235)؛ نسبة إلى مؤسسها سبتيوس سيفيروس، الذي ولد في مدينة لبداء على الساحل الليبي، وتزوج من الحمصية جوليا دومنا، وانجب منها كراكلا وجيتا. وضمت أربعة أباطرة، هم: سيفيروس، كراكلا، الإغابالوس (الإغابال)، واسكندر سيفيروس. مات كراكلا والأغابال واسكندر موتاً عنيفاً من قبل الجيش. أظهرت الجوليات الحمصيات (جوليا دومنا، جوليا ميسا، جوليا سميا/ سوميا، جوليا ماميا) مقدرة كبيرة على تسيير أمور الدولة خلال هذه الفترة. راجع الفصل الذي يتحدث عن جوليا دومنا. وتخلل هذه الفترة استيلاء الجنرال ماكريونوس الحكم لمدة سبعة أشهر تقريباً.

فترة "الطغاة الثلاثون": وهي الفترة التي شهدت الأزمة الإمبراطورية في القرن الثالث والرابع، وأبدأت بحكم الإمبراطور دكيوس سنة 253 م، وأطلق عليها على سبيل المجاز "عهد الطغاة الثلاثين"، قياساً على مثل هذه الفترة في تاريخ الإغريق المسماة بهذا الاسم. فانتشرت الفوضى والحروب وكثر التطلّاحن بين أفعياء العرش، وانقسم ولاء الجنود، واشتد ضعف السلطة المركزية في روما، وأعلنت الكثير من الولايات استقلالها، وهددت غزوات البرابرة (القوط والجerman والغال...) المتتالية الإمبراطورية، كما شهت هذه الفترة أيضاً معارك عسكرية طاحنة بين الرومان والفرس على الأطراف الشرقية، إضافة إلى ثورة تدمر وثورتى الملكة ماوية في سورية. وقضى معظم أباطرة هذه الفترة بالموت العنيف، وتعرضت أنحاء الإمبراطورية إلى فترات من الطغيان والاضطهاد.

الخامسة: سميت الفترة من تسنم ديوقلتيانوس (284-364) م بفترة الهيمنة، التي بدأها ديوقلتيانوس بالحكم الرياعي، ثم جاء بعده قسطنطين الكبير، ثم خلف ابنه قسطنطيوس، ثم جاء يوليانيوس (جوليان) المرتد، وأقفل يوليانيوس سنة 364 م. وشهدت هذه الفترة تحولات عظيمة في تاريخ الإمبراطورية.

السادسة: السلالة الثوانتيانية (364-392)؛ نسبة إلى والنتيانوس الأول، وضمت والنتيانوس الأول، ووالنس، وغراسيان، ووالنتيانوس الثاني.

السابعة: سلالة ثيودوسيوس (379-457) م؛ نسبة لمؤسسها ثيودوسيوس الأول.

ثانياً: العصور اليونانية

وهي استعراض موجز لتطور القوة المقدونية وغزو الأسكندر المقدوني للشرق، وتتضمن لألحة بحكام الأسرتين: السلوقية التي حكمت منطقة آسية العربية وبعضاً من أجزاء آسية الصغرى المجاورة، والبطلمية التي حكمت مصر.

تعود نسبة الهلنيين إلى هيلاس وطنهم الأصلي. ويفهم أهل اليونان من كلمة هيلانيين أو هيلينيين معنى أوسع إذ قال قداماؤهم: حيثما يوجد هيلانيون يوجد هيلاس. وهذا يعني أن لفظ هيلاس يشمل كل بقعة سكنها اليونان، بما فيها: شبه جزيرة اليونان وجزر بحر إيجه وشواطئه، الأناضول، جنوبي ايطالية، صقلية وسواها في

المتوسط وعلى شواطئ الدردنيل والبحر الأسود⁽¹⁾. وتستخدم الصفات التالية: هليني وإغريقي ويوناني بمعنى واحد.

أطلق معظم مؤرخو الشرق القديم تسمية اليونان، بينما أطلق عليهم مؤرخو الغرب القديم الإغريق، وهذا اللفظ أو التسمية ما زالت سارية إلى الآن. وينقسم تاريخ اليونان القديم إلى قسمين رئيسيين:

الأول: ما قبل الحروب الفارسية: وصول سكروبيوس المصري في القرن السابع عشر ق م إلى الساحل اليوناني حاملاً معه فنون وآداب وحكمة بلاد النيل، فبنى سكروبيوس التي تطورت لتصبح أثينة، ومُلك عليها سنة 1657 ق م. ثم قدم إليها قدموس الفينيقي ومعه الحروف الهجائية، فبنى مدينة طيبة (اليونانية وليس المصرية)، ومُلك عليها سنة 1580 ق م. ونشبت سلسلة طويلة من الاقتتال بين المجموعات اليونانية المتعددة، أهمها:

1- حرب الولاة السبعة في القرن الرابع عشر ق م لاستعادة طيبة من أوتوكول.

2- الحرب لطرطد الفينيقيين من طيبة.

3- حروب طروادة التي استمرت عشر سنوات (1184-1194) ق م، والتي نظم فيها الشاعر اليوناني هوميروس رائعته الشعرية الخالدة "الإلياذة".

4- الحرب الدورية سنة 1104 ق م، والتي استعاد فيها أحفاد البطل الأسطوري اليوناني هيراكليس (هرقل) السلطة التي أسسها جدهم.

وكان من تأثيرات هذه الحروب أن بدأت هجرات الكثير من اليونانيين إلى بلاد الأناضول في الشرق، وأهم هذه الهجرات ثلاث:

الأولى: استوطن فيها الأيوليون الشمال الشرقي من الأناضول.

الثانية: استقر فيها الأيونيون على التخوم الجنوبية لمواطن الأيوليين، وبنوا مدينة عظيمة، منها إفسسوس، وميلتيس.

الثالثة: هجرة الدوريين، حيث استولوا على جزيرتي خوس ورودمس وكريت.

وبدأت المنافسة والسياسة يشدان تدريجياً بين الحواضر اليونانية العظمى: أثينة واسبرطة وطيبة. فاشتهرت الأولى بعلمها وثقافتها، والثانية ببطولتها وحروبها، والثالثة بفنونها. وبميل النفوس الإنسانية للتباين والاستئثار نتيجة تفرق القوى اليونانية في مستعمرات آسية وأوربة وأفريقية، ظهر الحكام الطفلة واستأثروا بالمصالح العامة. إلا أن اليونانيين استمطعوا في النهاية، وخاصة الأثينيون، الوصول إلى الحل الديمقراطي. الذي اشتهروا به.

الثاني: من النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد إلى ظهور الإسكندر، حيث بدأ النشاط اليوناني بالاصطدام بالنفوذ الفارسي، فاحتل كورش العظيم ليدية وأسر ملكها. وبعد فترة ثار الأيونيون سنة 500 ق م ضد الاحتلال الفارسي، لكنهم لم يفلحوا في ثورتهم. وهكذا بدأت الحروب اليونانية- الفارسية أوارها، فكانت سجلاً بينهما. لكن

(1) - د. مصطفى العبادي تاريخ اليونان القديم، ص 7. مكتبة الأنجلو المصرية.

اليونان انتصروا على الفرس في المعارك التالية: معارك ماراثون سنة 490 ق.م، ومعركة ترموبلي سنة 480 ق.م، ومعركة بلاثيا سنة 469 ق.م. وقد تبارى الخطباء والشعراء والكتاب والفنانون الإغريق بتمجيد وتخليد هذه الانتصارات وبطولاتها .

لكن هذه الانتصارات بدأت تعطي ثمارها العكسية على بلاد اليونان، لا سيما أثينا واسبرطة. حيث حسدت إحداهما الأخرى، فنشبت الحروب البيلوونيسية بين اسبرطة وأثينة، والتي استمرت لسبع وعشرين عاماً (431-404) ق.م، وانتهت بانتصار اسبرطة وتلاشي القوة الأثينية. وهكذا قبضت اسبرطة على السيادة اليونانية لمدة 33 عاماً، إلى أن انتصر عليهم الطيبيون في معركة لكترنا سنة 371 ق.م. تحولت بعد ذلك قيادة اليونان إلى مقدونية.

ومقدونية منطقة في البلقان تقع إلى الشمال من بلاد اليونان، عرفت كمملكة سنة 814 ق.م، فأصبحت أدوارها معروفة في أواسط القرن السادس ق.م أيام ملكها امينداس الأول الذي خضع لداريوس الأول ملك الفرس. وهكذا تناوب الملوك على مقدونية حتى تم الأمر لفيليب بن امينداس الثاني عام 359 ق.م.

اهتم فيليب قبل كل شيء بتنظيم الجندية، فاخترع نظام الفالانكس، وهو ترتيب صفوف كتيبة من أقوياء الجند يحملون رمحاً طويلة، متى بسطوها أمامهم كانت لهم سباجاً من حديد، يطعنون بها أعدائهم وهم في مأمن. ثم درب الفرسان على فنون الحرب والطمان، فألف قلب الجيش من صفوف المشاة المتراسة، وجعل جناحيه من الفرسان. وجعل القوة المؤلفة من القلب والجناحين تزحف كلها معاً كأنها آلة حربية واحدة لا تقاوم. فلما رأى اليونان كفاءات فيليب العملية في هذه الأنظمة القريدة، أخذوا بالامصطاف وراءه كقائد جديد رأوا فيه زعامة واحدة حازمة منظمة وقوية تعرف ما تريد. فرأى فيليب بحس من فراسته أن يبدأ بفتح الأقاليم الضعيفة المقاومة أولاً. وهكذا، حتى استطاع توسيع نطاق مملكته حتى بلغ الدانوب شمالاً والدرديل شرقاً. ونشبت معركة خيرون الفاصلة في عام 338 ق.م بين قوات فيليب وقوات المعارضة بقيادة ديموستين- الخطيب الذي عمل على معارضة فيليب- فكانت الغلبة لفيليب الذي نجح في أخذ منصب الزعامة الكاملة عليها ما عدا اسبرطة.

اختلف فيليب مع زوجته أولمبياس (والدة الأسكندر) في أواخر أيامه، فطلقها وتزوج من كليوپترا، فخلف منها ولد. وحاول فيليب تعيين ابنه الصغير من كليوپترا ولياً للعهد، مما أدى لاستياء مناصري الاسكندر، ففتكوا بفيليب إبان حفلة زفاف ابنته عام 336 ق.م، وتسلم الاسكندر العرش، وهو ابن عشرين.

ولد الاسكندر المقدومي في 29 تموز سنة 356 ق.م، فعهد والده إلى ليسيماك لتعليمه وتهذيبه. ولما بلغ الثالثة عشر أوكله إلى الفيلسوف أرسطو حيث عني به عناية خاصة. وكانت إلياذة الشاعر هوميروس أول شيء تعلمه. فتشأ منذ حدثته مولعاً بالحرب حالمًا بالمجد. ومن أخبار صباه، أنه كان يعلق على أخبار انتصارات والده

الحرية، بالقول: لم يترك لي شيئاً لأخذه. ويروى أن المبعوث الفارسي داعب الاسكندر الصغير وهو في زيارة لقصر والده، فرأى مسلماً يختلف عن مسالك الصغار من أقرانه؛ وذلك عندما بدأ الصغير يسأله عن أقصر الطرق وأسهلها للوصول إلى بلاد فارس، وكم تبعه عن مقدونية؟ وما هي مواقفكم إبان الحرب؟ إلى غير ذلك من أسئلة هم القادة. اتقن الاسكندر القصاحة والفلسفة والأخلاق والصحة، وكتب لمعلمه أرسطو إبان هياة هواته في الشرق: "إن شغفي بالتفوق هو في إدراك الأمور السامية، وهو عندي أهم من تفوقي عليهم بالعظمة والسيطرة". كان صارماً لدرجة العناد ومقدماً لحد التهور، حيث أدهش المرافقين له لما أبداه من ضروب الشجاعة والإقدام خلال مشاركته في المعارك التي رافق والده خلالها، كما أظهر كفاءة خلال نيابته عن أبيه وهو في السادسة عشرة.

اهتم، بداية بإحلال الأمن في البلاد، فحضى على كل من توقع منه المعارضة أو المزاومة، ثم أثبت ملكيته على جميع بلاد اليونان فانتخب رئيساً عاماً مثلاً كان أبوه، ولم يعارض في ذلك إلا أسيرطة التي تولى أمرها لاحقاً.

اتجه الاسكندر بجحافل نحو الشرق بعد أن استتب له الحال في أوربة، ففتح مصر، وبنى الاسكندرية، وأقام فيها لفترة. وسلك الساحل السوري متجهاً نحو الشرق، فاحتل سورية^(١) والأناضول، وفاز على الفرس بثلاث معارك كان أولها: معركة نهر غرانكوس قرب سواحل مرمرة في ربيع عام 334 ق.م، وثانيها، في معركة مضيق أبيسوس قرب الأسكندرون في 29 آب 333 ق.م، فهزم جيش داريوس الضخم، وأسر وائدة داريوس وامراته وابنه، وثالثها، معركة أربيل على ضفاف دجلة في 2 تشرين الثاني سنة 331 ق.م، حيث تفرق شمل الفرس وتمزقت قواتهم. وأكمل فتح فارس خلال ثلاث سنوات، ثم اتجه بعدها لفتح شبه القارة الهندية، فاجتاز جبال هندكوش في ربيع 326 ق.م. وعاد بعدها إلى بابل سنة 324 ق.م، وأخذ يسعى بتنفيذ خططه العظيمة بمصاهرة الفرس واليونان في وحدة عالمية واحدة، فتزوج من فارسية وأجبر قادته أن يفعلوا ما فعل، ثم أدخل في الجيش اليوناني عدداً كبيراً من جنود الفرس لكي يصهر الجميع في دولة وأمة عالمية واحدة. لكن ذلك لم يرق للكثير من كبار معاونيه. ولأن الحظ لم يبتسم لأحلام الأسكندر، أو لليونان، أو للعالم، قضى الرجل في بابل سنة 323 ق.م دون أن يعين من يخلفه. ولما طلبوا منه تعيين من يخلفه، أجابهم: أكثركم أهلية. ولو أنه عاش لمدة أطول فلهيما تغير تاريخ العالم.

(١) - لعل الاسكندر سورية وفينيقية سنة 332 ق.م بانداً من شمال الساحل السوري متجهاً نحو الجنوب، وذلك باستسلام جميع مدن الساحل ماعدا صور التي رفضت السماح للاسكندر بدخول المدينة ليقيم بقرايين لجده الأعلى "ملقارت"؛ الإله الفينيقي الشهير، الذي ادعى الاسكندر نفاذه منه، وكان رفض أهالي صور للزيارة تعني لهم عدم اعتراف الإله ملقارت بحق الاسكندر في سبائته على المدينة. ورداً على رفضهم قام الاسكندر بمحاصرة المدينة لسبعة أشهر استطاع في نهايتها اختراق أسوارها بهجوم ساحق مستخدماً الأبراج والجسور، واركتب منبخته المشهورة بقل الآلاف من المصريين وأسر أكثر من ثلاثين ألفاً تبعوا في أسواق العبيد.

أدت مطامع خلفاء الأسكندر إلى نشوب نزاعات وحروب بينهم، قتل أثناءها الكثير. مما أدى إلى اقتسام القادة الظافرين في المعارك امبراطورية إلى:

- 1- القائد كساندر على مقدونية وسائر بلاد اليونان.
- 2- القائد ليسيماخس على تراقية وآسية الصغرى.
- 3- القائد بطوليمائوس (بطليموس) على مصر واليهودية وفينيقية.
- 4- القائد سلوقس على سورية الشمالية وما بين النهرين إلى الهند. وقد سميت الدولة التي تسلمت على سورية بالدولة السلوقية نسبة إلى المؤسس سلوقس الأول. وحكم السلوقيون دهرأ امتد من 312 ق.م إلى تاريخ الاحتلال الروماني سنة 64 ق.م بقيادة القائد الروماني الشهير بومبيوس.

السلالة السلوقية التي حكمت سورية وآسية الصغرى

نوجز تاريخ ملوك هذه السلالة التي حكمت سورية الشمالية بالتسلسل التالي:

1	سلوقس الأول (سلوقس نيكاتور)	312-280 ق.م	أحد كبار ضباط الاسكندر ومعاونيه وموضع ثقته. بنى 24 مدينة؛ أولها سلوقية على دجلة اتخذها عاصمة له، ثم أنطاكية التي نقل إليها العاصمة، وأقامية، وسواها. مات عن 73 عاماً.
2	أنطيوخس الأول	280-261 ق.م	خلف والده على العرش. ولقب (سوتر/ المنقذ). قتل في معركة قرب إفسوس سنة 261 ق.م
3	أنطيوخس الثاني لقب (ثيوس)	261-246 ق.م	خلف والده. وجرت حروب طاحنة بينه وبين ملك مصر بطليموس فيلادلفوس تصالحا بعدها. ومات بسم قرينته برنيكا بنت بطليموس سنة 246 ق.م لأنه أعاد زوجته لاوديكيا.
4	سلوقس الثاني لقب (كالينيكوس)	246-225 ق.م	ابن أنطيوخس الثاني من زوجته لاوديكيا. قتل برنيكا بعد اعتقاله العرش، فثار عليه أخوها ملك مصر حفزاه. وضم عدة ولايات من سورية إلى مملكته. أسره البرثيون الفرس في 231 ق.م، وبقي في الأسر حتى مات سنة 225 ق.م.
5	سلوقس الثالث	225-222 ق.م	قتل بعد ثلاث سنوات من حكمه.
6	أنطيوخس الثالث لقب (الكبير)	222-187 ق.م	ابن سلوقس الثاني. لقب بالكبير لإعادته الوحدة إلى سورية. وقعت حرب بينه وبين الروم على خلفية لجوء البطل القرطاجي هانيبال إليه، لكنه لم يوفق فيها. قتل عام 187 ق.م.
7	سلوقس الرابع	187-175 ق.م	ابن أنطيوخس الثالث (فيلوناتور). مات مسموماً

8	أنطيوخس الرابع لقب (إبيفانوس)	175-164	ثاني أولاد أنطيوخس الثالث. حارب ملك مصر لأربع سنوات (171-168) ق.م. فرغت خزينته بسبب الحروب، فتهب هيكل أورشليم، فثار عليه اليهود، فاضطهدهم، فظهرت الفتنة المكابية التي خلفت أثراً هاماً في تاريخ سورية.
9	أنطيوخس الخامس	164-162	خلف والده أنطيوخس الرابع. مات مقتولاً. لقب (يوياتور).
10	ديمتريوس الأول (سوتر)	162-151	ابن سلوقس الرابع. قتل يهوذا المكابي في إحدى المعارك، ثم تصالح مع اليهود سنة 158 ق.م. اعترف به الرومان ملكاً على سورية سنة 156 ق.م. وقتل سنة 151 ق.م.
11	اسكندر بالاس	151-146	سلا في الأصل؟ نازع ديمتريوس على العرش، فأكرهه على الفرار، فاستأثر بالحكم وتزوج من كليوبترا بنت بطليموس فيلوياتور. قتل.
12	ديمتريوس الثاني	146-138	ابن ديمتريوس الأول. لقب (نيكاتور). أسقط ونصب مكانه ابن اسكندر بالاس.
13	أنطيوخس السادس	144-142	ابن اسكندر بالاس من زوجته كليوبترا (ثيوس). ولحداثة عين عليه وصياً ديودورس الأفامي.
14	ديودورس الأفامي (تروفيون)	142-137	بعد اغتصابه العرش (مغتصب العرش) حدث نزاع بينه وبين أنطيوخس السابع، ففر إلى أقاليم وقتل سنة 138 ق.م.
15	أنطيوخس السابع لقب (سبيديتي)	137-128	ثاني أولاد ديمتريوس الأول. تزوج من امرأة أخيه كليوبترا في 141 ق.م. وبمساعدها تمكن من ارتقاء العرش. قتل على الجبهة الفارسية.
16	اسكندر زابيناس	128-123	اسكندراني الأصل لأب دلال. أعلن نفسه ابن اسكندر بالاس بتشجيع من ملك مصر المنازعة ديمتريوس الثاني الملك. اعتلى العرش بين (128 - 125) ق.م. وقتل سنة 123 ق.م.
17	ديمتريوس الثاني	128-125	عاد ديمتريوس الثاني (نيكاتور) إلى الحكم.
18	سلوقس الخامس	125	لدة عام واحد.
19	أنطيوخس الثامن (غريفوس)	125-116	ابن ديمتريوس نيكاتور من كليوبترا. حكم لست سنوات، ثم اختلف مع أخيه من أمه أنطيوخس كيزيك، مما اضطره للفرار سنة 116 ق.م.
20	أنطيوخس التاسع	122-96 ق.م	بعد عودة غريفوس من فراره بجيش عظيم، اقتسم المملكة مع كيزيك الذي كان من نصيبه

	لقب (كيزيك)		سورية المجوفة وفينيقية، والباقي لفرغوس. ساد كيزيك على كامل سورية بعد غريغوس. انتهى سنة 95 ق.م لما غلبه سلوقس السادس.
21	سلوقس السادس (إبيفانوس)	93-97 ق.م	أحد أبناء غريغوس. تبوأ عرش أنطاكية. انتصر على كيزيك بعد سنتين. زاحمه بيوس، هُزم إلى كليكية، فقتل السكان منه سنة 93 ق.م.
22	أنطيوخس العاشر (بيوس)	92-95	ابن كيزيك. تمرد عليه أبناء غريغوس فقتلوه سنة 92 ق.م، هُزم إلى برثية، ويعتقد أنه مات هناك سنة 75 ق.م.
23	أنطيوخس الحادي عشر	90-92	أحد أبناء غريغوس. لقب (فيلادلفوس). غرق في نهر العاصي أثناء هروبه سنة 90 ق.م.
24	ديمترئوس الثالث (أولر)	83-90	رابع أبناء غريغوس. ساعده ملك مصر لاعتلاء العرش. عاد بيوس من برثية بإمدادات فارسية، فاستحوذ سنة 89 على بعض أعمال سورية.
25	أنطيوخس الثاني عشر (دانيس)	83-88	خامس أبناء غريغوس. وقد أخذ دمشق من أخيه دمترئوس، وسمى نفسه ملك سورية المجوفة. ويبقى حتى عام 86 ق.م.
26	ديكران	69-83	نشر الفوضى جميعاً من أبناء غريغوس لاستمرار الصراع بينهم على الملك، فاستقدموا الأرميني ديكران، فملكوه عليهم، وبقي ملكاً على سورية لأربعة عشر عاماً
27	أنطيوخس الثالث عشر (الأسيري)	64-69 ق.م	ابن أنطيوخس العاشر. أخذ لقب الأسيري لأنه تربى في أسية. غلبه القائد الروماني بومبيوس سنة 64 ق.م.

بالاحتلال الروماني، أغلق تاريخياً حكم السلالة السلوقية إلى الأبد. حيث صارت
سيرتهم تاريخاً فقط، إذ لم يُظهر تاريخهم الأثر والجاذبية المرتقبين أو الرسالة التي يمكن
القياس عليها في مسيرة الأمم والدول والحضارات.

السلالة البطلمية التي حكمت مصر

بدأت سلالة البطلمية- أبناء عمومة السلالة السلوقية- في حكم مصر بمؤسسها
الأول الأسكندر المقدوني في 332 ق.م، وانتهت بموت الملكة كليوباترا (السابعة) بالاحتلال
الروماني لمصر سنة 30 ق.م..

احتل الأسكندر المقدوني مصر سنة 332 ق.م بعد فتحه لسورية الكبرى. وكانت
سورية ومصر تحت حكم الإدارة الفارسية الأخمينية حينها. فقام ببناء مدينة الإسكندرية

التي سماها على اسمه، وأصبحت مشهورة بمكتبتها العظيمة وفنارتها المضيفة على الشاطئ والتي عدت من عجائب الدنيا السبع.

عين الأسكندر كليومانس النبطي سنة 331 ق.م حاكماً مالياً على مصر وبقية حتى وفاة الأسكندر. ولا يعد النبطي من بيت الحكام البطلمية.

يعود اسم السلالة (البطلمية) التي حكمت مصر إلى اسم المؤسس الأول لحكم العائلة، وهو القائد المقدوني بطليموس الأول، الذي لقب نفسه (سوتر، أي المنقذ) حيث كان من ضباط الأسكندر الكبار ومن أخلص أصدقائه. فأصبحت مسؤولية الحكم في مصر وفلسطين وفينيقية من نصيبه بعد موت الأسكندر في بابل سنة 323 ق.م. ولما تمكن من تأسيس ملكه أعلن نفسه ملكاً في سنة 304 ق.م، وبذلك عدّ تاريخاً المؤسس الأول لحكم هذه العائلة. وفيها يلي لألثة⁽¹⁾ بأسماء حكام العائلة منذ بدايتها حتى نهايتها، وأهم الأحداث الرئيسية التي مرت بهذه الفترة. وقد أدت فترة الصراعات الأسرية (180-51) ق.م إلى خطر تعرض الدولة المصرية البطلمية في النهاية إلى الوقوع تحت السيطرة الرومانية. ويلاحظ اشتراك أكثر من ملك أو حاكم في فترة الحكم الواحدة.

1	بطليموس الأول (سوتر؛ المنقذ)	323-282 ق.م	المؤسس لحكم الإغريق في مصر. حكم والياً على مصر بين (323-305/304)، وملكاً بين (305-282). شاركه في الحكم ابنه بطليموس الثاني من عام 285 حتى وفاته سنة 282 ق.م.
2	بطليموس الثاني (فيلادلفوس)	285-246	أحب البذخ على عكس أبيه الذي كان جدياً ومتقفاً من الطراز الرفيع.
3	بطليموس الثالث	246-221	لقب نفسه: يوراجيتس الأول.
4	بطليموس الرابع	221-204	لقب نفسه: فيلوتاور.
5	بطليموس الخامس	204-180	لقب نفسه: إبيفانوس.
6	بطليموس السادس لقب نفسه (فيلوميتور)	180-170 168-145	بدأت فترة المنازعات الأسرية (180-51). تولى العرش وهو في السابعة تحت وصاية أمه الملكة كليوترا الأولى، حكم على فترتين: الأولى (180-170)، والثانية (168-145). وفي عام 170 رأى البلاط الحاكم تدعيماً للحكم بمناسبة غزو أنطيوخس الرابع ملك سورية السلوقي أن يشارك مع الملك أخاه الأصغر بطليموس الثامن، وأخته كليوترا

(1) - آيوس بل: أمثال علم البردي بجامعة ليمبورج في كتابه 'مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي'؛ دراسة في انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها. نقله إلى العربية وأضاف إليه د. عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية - بيروت، لبنان. بالإضافة إلى المقارنة مع لوائح أخرى.

			الثانية- وهي زوجته أيضاً .
7	بطليموس السابع لقب به نيوس فيلوپاتور أي فيلوپاتور الجديد	145-145	ابن بطليموس السادس. حكم لأشهر قليلة تحت وصاية أمه الملكة كليوبترا الثانية لقصوره، وذلك بعد مقتل والده في معركة بينه وبين ملك سورية السلوقي على أرض فلسطين، والذين القالب أن عمه بطليموس الثامن تخلص منه ليتولى العرش منفرداً .
8	بطليموس الثامن لقب نفسه (يوراثيس الثاني)	170-163 شارك أخاه في الفترة الأولى وحكم منفرداً من 145-116	هو عم السابع وأخ السادس. أخذ العرش بعد عودته من برقة، تزوج أخته الكبرى أرملة أخيه التي هي أخته، ثم تزوج من ابنتها سنة 141، وجعلها الملكة كليوبترا الثالثة. فهو صمها وخانها وظلت الثانية تحكم معه بلقب " الملكة كليوبترا الأخت". لقبت الثالثة بالملكة كليوبترا الزوجة. حكم على فترتين: (170-163)؛ احتل فيها ملك سورية السلوقي مصر والثانية (145-116) لقبت نفسها: فيلوميثورا سوتيرا
9	كليوبترا الثانية	131-127	
10	كليوبترا الثالثة (فيلوميثورا سوتيرا: كوكي)	116-101	شاركت ابنها القاصر بطليموس التاسع وزوجته كليوبترا الخامسة الحكم (116-107) ق.م، ثم شاركت ابنها بطليموس العاشر بعد استدعائه من قبرص من سنة 107 إلى 101.
11	بطليموس التاسع لقب (سوتر الثاني؛ لاتيروس)	116-107 ومن 88-81	شاركت أمه كليوبترا الثالثة (116-107)، ومن (88-81) ق.م، فحكم مصر وقبرص معاً بعد نجاح الشعب والجيش في الاسكندرية بالثورة على أخيه بطليموس العاشر وطرده.
12	بطليموس العاشر (اسكندر الأول)	107-88	مشاركاً مع أمه كليوبترا الثالثة من 107 إلى 101. ومع زوجته برنيقية من 101 إلى 88 ق.م.
13	برينيس الثالث	81-81	حكم لمدة عام واحد. لقب نفسه (فيلوپاتور).
14	بطليموس الحادي عشر	80	حكم لعام فقط. لقب (اسكندر الثاني). أوصى أن تؤل مصر بعد موته إلى الشعب الروماني.
15	بطليموس الثاني عشر (ديونيسيوس الصغير)	80-58 55-51	والد كليوبترا السابعة ملكة مصر. حكم مرتين: من (80-58)، ومن (55-51)، ومع ابنته كليوبترا السابعة. ومع بطليموس الثالث عشر من 52 إلى 51 ق.م. واشتهر بلقب الزمار.
16	كليوبترا الخامسة	58-57	(تريفانية) حكمت بالمشراكة مع برنيقية الرابعة. وحكمت الرابعة مع أرخيلامس من 56-55 ق.م.
17	كليوبترا السادسة	58-55	(إيفانا). تشاركت الحكم مع الخامسة.
18	كليوبترا السابعة لقبت	51-30	الملكة الشهيرة في التاريخ، شاركها الحكم (51-47)

رقم	(قيا نيوتيرا)	ق.م
	بطليموس الثالث عشر، ومع أخيها الأصغر بطليموس الرابع عشر (44-47). حكمت منفردة (36-44)، ومع ابنها بطليموس الخامس عشر (قيصريون) من 36 إلى 30 ق.م.	
19	بطليموس الثالث عشر (فيلوباتور)	47-51
20	بطليموس الرابع عشر (فيلوباتور)	44-47
21	بطليموس الخامس عشر (قيصريون)	30-36 ق.م

عاشت كليوباترا كمشيقة ليوليوس قيصر من سنة 48 حتى 44 ق.م، فأنجبت منه قيصريون. كما تورطت في قصة حب درامية مع القائد الروماني ماركوس أنطونيوس (مارك أنطوني) بعد رحيل قيصر. وماتت منتحرة بسم الأفعى (سنة 30 ق.م) كما جاء في معظم الروايات التاريخية.

ثالثاً: السلالة الساسانية الفارسية

السلالات التي حكمت الامبراطورية الفارسية وأهم الأحداث خلال هذه الفترة، وبخاصة السلالة الأخيرة (الساسانية):

الأولى: السلالة الأخمينية: حكمت من 539 إلى 330 ق.م تاريخ سقوطها بانتصار الأسكندر على ملكها داريوس الثالث (دارا). وكان قد أسسها قورش الكبير، وحكم بعده اثني عشر ملكاً كان آخرهم داريوس الثالث (قديمانوس) حفيد داريوس الثاني.

الثانية: السلالة البثرية التي حكمت بلاد فارس من سنة 226 م حتى قضى الفتح العربي الإسلامي على آخر معاقلها سنة 651 م، وبذلك انتهت الامبراطورية. بينما انتهى الحكم الفارسي في العراق سنة 638 م بانتصار العرب المسلمين في معركة القادسية. وفيما يلي عرض سريع للملوك وأكاسرة هذه العائلة.

اسم الملك / الحاكم	فترة الحكم	الأحداث
1	أردشهر الأول (مؤسس السلالة)	226-241 ميلادي
		قضى أردشير على حكم السلالة البثرية في نهاية حرب السنوات الثلاث التي دارت بين الطرفين (224-226). وشهدت بداية حكمه الحرب مع روما (229-231). بُعثت الديانة الزرادشتية كديانة رسمية، وتم جمع الزند-أفيستا المقدسة.

2	سابور الكبير (الأول) (شهبور/ شابور)	241-272	جرت الحرب الأولى في عهده مع الروم بين (241-244)، والثانية (252-261)، وأمر فيها الإمبراطور الروماني واليريانوس، والذي مات في الأسر. انتشرت الديانة المانوية في عهده.
3	هرمز الأول	272-273	شهدت الفترة بين (271-273) صراعاً عائلياً دموياً على السلطة.
4	بهرام الأول	273-276	
5	بهرام الثاني	267-293	
6	بهرام الثالث	293	
7	نارسي	293-302	
8	هرمز الثاني	302-309	
9	سابور الثاني (شهبور/ شابور)	309-379	استمرت الحرب الأولى مع الرومان بين (337-350) بنجاح متواضع للفرس، ونشبت من جديد بين (359-363). أعادت روما مناطق غير دجلة إلى الفرس، كما سلمتهم نصيبين وسنجار.
10	أردشير الثاني	379-383	
11	سابور الثالث	383-388	تم تقسيم أرمينية بين الفرس والرومان.
12	بهرام الرابع	388-399	
13	يزدجرد الأول (مرتكب الخطايا)	399-420	سمح للمسيحيين بحرية العبادة، لكنه شن عليهم حملة اضطهاد عنيفة في أواخر حكمه.
14	بهرام الخامس	420-438	خاض حرباً ضد روما بين (420-422). وضم مناطق من أرمينية. أعلن مجمع داد إيشو Dad Ishu الكنسي استقلال الكنيسة الشرقية عن القسطنطينية.
15	يزدجرد الثاني	438-457	اشتعلت الحرب مع بيزنطة سنة 441. واشتعلت الثورة في أرمينية طلباً للاستقلال خلال سنوات (449-451).
16	هرمز الثالث	457-459	
17	بيروز الأول	459-484	واجه طلب الثورة الأرمينية للاستقلال بين السنوات (482-483) م. وصدر مرسوم التسامح الديني مع المسيحية والمسيحيين في عهده.
18	نانش	484-488	
19	قباد الأول (قباد الأول)	488-531	اشتعلت الثورة الأرمينية الثالثة (491). ووقعت الحرب الأولى مع بيزنطة بين (502-506). ورهضت الكنيسة الأرمينية الاعتراف بالمجمع الكنسي الخلقدوني، وأصبحت النسطورية سيدة المسيحية في بلاد فارس.
20	خسرو الأول لقب به (روح أنوشروان)	531-579	استمرت الحرب الثانية مع القسطنطينية من 540 إلى 562، ثم اشتعلت من جديد من 572 حتى عام 591.

الخالدة)	ميلادي	فاضطرت فارس إلى تسليم الأراضي الفارسية من أرمينية إلى بيزنطة.
21	هرمز الرابع	579-590
22	بهرام السادس	590-591
23	بيستام	591-595
24	هرمز الخامس	595
25	خسرو الثاني جريت معركة (ذي قار) في عهده	595-628
26	قباذ الثاني	628
27	أردشير الثالث	628-630
28	شهربراز	630
29	بوران دوكت	630-631
30	بيروز الثاني	631
31	أزرميد دوكت	631
32	كور زاده خسرو	631
33	هرمز السادس	631-632
34	يزدجرد الثالث	632-651

انصار العرب المسلمين على الفرس في القادسية سنة 638 م. وتم انتصارهم النهائي في معركة نهاوند (642). فوضعت نهاية الامبراطورية التي دامت لأكثر من ألف عام، بعد مقتل آخر ملك هارب من ملوكها سنة 651. وقامت هذه الامبراطورية بدور القوة الجبارة المحركة الثانية في هذه الفترة التاريخية المديدة والمشيقة.	ميلادي
---	--------

لمحة سريعة عن بعض شعوب الشرق القديم

1- الحثيون: عُلم تاريخهم وأصلهم بالفموض. ولكن يعتقد أنهم أقوام هندو- أوروبية موطنهم الأصلي بلاد البلقان التي هاجروا منها أول الأمر إلى بلاد الأناضول، ثم أخذوا يتسربون شيئاً فشيئاً إلى سورية، إلى أن بدأت شوكتهم تقوى إزاء تراجع الحوريين

والميتانيين والمصريين، فصارت مملكتهم عظيمة شديدة البأس في الحروب. امتدت امبراطوريتهم بين (2100-1250) ق.م. وكان لهم عدد من المراكز الحربية، منها: كركميش في الشمال الأقصى، وآخر عند مصب العاصي، وقادش في وادي العاصي. وامتد النفوذ الحثي على جنوب شرق تركيا وبلاد الرافدين (ميزوبوتاميا) وشمال ووسط سورية حتى فلسطين، فأخضع الإمارات السورية حينها للدوران في فلكه، وقد أستباحوا بابل سنة 1595 ق.م، ثم تركوها خراباً. وبعد احتلالهم لبلاد الرافدين تبنا القوانين والديانة والثقافة البابلية القديمة. وكانت مملكتهم في أعظم قوتها بين القرن السادس عشر والثاني عشر قبل الميلاد. وبعد أن بسط الآشوريون نفوذهم على بلاد الرافدين حوالي 1300 ق.م بقيت المدن والأراضي الحثية تناضل للحفاظ على استقلالها حتى اجتاحتها القوات الآشورية، وما يسمى بشعوب البحر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكان من أهم مدنها في سورية حمصين- لم يكن اسم حمص معروفاً حينها- التي ربما كانت عاصمة لهم، وحماة. وقد نشأت الممالك الآرامية على أنقاض المملكة الحثية بدءاً من القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

شن الحثيون هجمات عنيفة على المصريين بين (1300-1200) ق.م أدت إلى استنزاف القدرات الحثية والمصرية على السواء. دارت معركة من أهم معارك التاريخ القديم بين الطرفين استخدم فيها الطرفان العربات الحربية، فانتصر⁽¹⁾ فيها (معركة قادش على العاصي) رمسيس الكبير انتصاراً حاسماً.

ورغم انغموس الذي غلف أصلهم وتاريخهم يرى بعض الدارسين أن نشاطهم الرئيسي كان في التجارة بين ومع معظم مناطق البحر الأبيض. وقد مرت الدولة الحثية بدورين من أدوار نشاطها وقوتها انتابتهما فترة ضعف.

2- الحوريون: من القبائل الهندو- أوروبية الرحل التي هاجرت إلى الشمال الغربي من بلاد الرافدين، واستوطنت المناطق الواقعة في أعالي حوض نهر الخابور. ولم يلبثوا أن أسسوا بالتعاون مع الميتانيين مملكة استمرت من القرن الخامس عشر حتى 1330 ق.م.

3- الميتانيون: من الشعوب الهندو- أوروبية التي سكنت بالقرب من بحر قزوين، ثم أخذوا بالإرتحال حتى 1600 ق.م. ونجحوا في إقامة مملكتهم في شمال سورية عند المنحنى الغربي لنهر الفرات. وامتد نفوذهم من البحر المتوسط غرباً حتى مرتفعات ميديّة شرقاً. واتخذوا من واشوكاني (رأس العين الحالية على رأي غالبية العلماء) شرقي مدينة حران على الخابور عاصمة لهم. واستمرت دولتهم بالازدهار حتى القرن الخامس عشر ومعظم الرابع عشر قبل الميلاد، وبدأت بالاضمحلال في نهاية القرن الرابع عشر حتى انهارت نهائياً على يد الحثيين الذين استولوا على أجزائها الشرقية، والآشوريين

(1)- هذا مذكور فقط في كتابات وتوش الكرك، قد ادعى الحثيون أيضاً أنهم انتصروا. والدليل على عدم لتتصار أحد الطرفين أن المعاهدة بينهما وقعت بعد عشر سنوات - المحقق.

على أجزائها الباقية. وينظر تاريخياً إلى الحوريين والميتانيين كدولة واحدة تحت اسم: حوري-ميتاني.

4- الميديون: من الشعوب الهندو-أوروبية. امتد نفوذهم على طول المنطقة الواقعة حالياً في شمال سورية وجنوب تركيا حتى البحر الأسود شمالاً وبحر قزوين شرقاً. امتد حكمهم من نهاية القرن الثامن إلى أن أسقطها الملك الأخميني قورش في 550 ق.م. وتحالف الميديون والبابليون بشن حرب مشتركة ضد الآشوريين تمكنوا فيها من إسقاط الدولة الآشورية واحتلال عاصمتها نينوى في 612 ق.م.

5- العموريون (الأموريون): كانوا من ضمن الهجرة الكبرى الثانية التي انتشرت من جزيرة العرب نحو الشمال. وقد تكثرت هذه الجماعات بالعموريين العمالقة، واستوطنت الأقسام الشمالية من سورية الكبرى، والجنوبية من العراق في البداية، وأخذوا بالانتشار في أواسط سورية حتى نهاية ساحلها الجنوبي في فلسطين. وأسسوا دولة "عمورو"، وجعلوا "ماري" على الضفة الغربية لنهر الفرات (15 كم إلى الشمال من البوكمال) عاصمة لهم. وتعرف خرائب ماري اليوم باسم "تل الحريري"، والتي لعبت دوراً مهماً في تاريخ المشرق لموقعها الممتاز كعقدة مواصلات على طريق التجارة والقوافل. ومر بها إبراهيم الخليل (ع) في طريق هجرته من "أور" إلى "حاران" في القرن التاسع عشر ق.م. أسسوا عدة ممالك في سورية، منها: ماري، يمحاض، كركميش، أوغاريت، قُطْنَا، ومملكة جيبيل...

يعتقد أن السومريين هم من العموريين العمالقة ومن أهم ما خلفوه في تاريخهم القديم كان نجاحهم في تأسيس الإمبراطورية البابلية الأولى (1850-1550) ق.م التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي صاحب "شريعة حمورابي" الشهيرة.

6- الآراميون: من الموجات السامية التي أعقبت هجرة الكنعانيين والعموريين وتدفقت إلى مناطق الهلال الخصيب، فكانت الموجة التي تسمت بالآراميين نسبة إلى الجذر (رام، آرام). ويؤكد المؤرخون أن القبائل الآرامية ترجع إلى أصولها العربية. بدأوا بالاستقرار في منطقة الفرات الأوسط في أواخر الألف الثالثة ق.م. ثم انتشروا في أطراف منطقة بلاد الشام وشرقي الفرات، فأقاموا في القرن الثاني عشر ق.م عدة ممالك على أنقاض العموريين والحوريين والحثيين. وقد اقتبسوا الكثير من العموريين والكنعانيين والحثيين عند تأسيس ممالكهم وإماراتهم التي كان أعظمها في دمشق وحماة ووادي نهر العاصي. وبلغ أوج سلطانهم السياسي في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد.

احتكر الآراميون التجارة بين الشرق والغرب من خلال موقعهم المتوسط بين بلاد آشور وما تلاها وبين المدن السورية على ساحل المتوسط، ومصر. وبذلك أقيمت على أطراف دويلاتها مراكز للتجارة كان من أشهرها تدمر.

انتشرت اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً فأصبحت لغة شعوب سورية، وانتشرت في بلاد هارس ووادي النيل وآسية الصغرى وشمال الجزيرة العربية. وبقيت لزمان طويل، قبل الميلاد، اللغة الدبلوماسية والرسمية والتجارية في بلاد بابل وآشور وفارس وفلسطين

ومصر، وكانت لغة السيد المسيح (ع). وظلت سائدة في البلاد حتى التحرير العربي الإسلامي في القرن السابع بعد الميلاد. انقسمت اللغة الآرامية القديمة إلى لهجتين رئيسيتين: الآرامية الشرقية التي منها المندائية والسريانية، واللهجة الآرامية الغربية؛ ومنها آرامية التوراة، والتدمرية والنبطية.

7- العيلاميون: من الأقوام الآرية التي هاجرت من منطقة زاغروس إلى منطقة الأهواز والهضبة الإيرانية، فضمت في أوج قوتها أجزاءً مما بين النهرين وشرق إيران حتى الخليج العربي جنوباً وبابل وهمدان شمالاً. وخضعوا في يدايتهم إلى المملكة الأكديّة. وتشير سجلات بين النهرين القديمة إلى استمرار الصراع بين العيلاميين والامبراطوريات القديمة فيما بين النهرين: السومرية، الأكديّة القديمة، البابليّة، والآشورية. ووضع الأخمينيون حداً نهائياً للعيلاميين سنة 539 ق.م.

ولا يزال تاريخ العيلاميين يؤخذ من مصادر تاريخ العراق القديم: تاريخ السومريين، الأكديين، الآشوريين، والبابليين. وينقسم تاريخهم إلى ثلاثة أدوار يسبقها الدور الابتدائي (3200-2800) ق.م:

1- الدور الأول (2700-1600) ق.م.

2- الدور الثاني أو الوسيط (1500-1100) ق.م، الذي انتهى بالغزو البابلي.

3- الدور الثالث أو الأخير (1100-539) ق.م. وقد عرف هذا الدور بالتأثيرات الآشورية والميدية القوية عليه. وجاءت نهايته بالصعود الأخميني الفارسي سنة 539 ق.م. وبذلك قضى على الدولة العيلامية بشكل نهائي.

8- الكاشيون Kassites (1800-1170) ق.م: من الشعوب الهندو-أوربية، التي بدأت هجراتها المضطربة، منذ نهاية الألف الثالث ق.م، نحو الهضبة الإيرانية والهند وبلاد الرافدين (ميزوبوتاميا)، فاحتلوها وسيطروا عليها عسكرياً وتجارياً. ونجحوا في إغارتهم على بابل، فأسسوا حكم الأسرة الكاشية حتى جاء الملك الآشوري آشور دان ففرض عليهم وأسقط حكمهم. ودام حكم أسرته في بابل لمدة 576 سنة تقريباً.

9- الكوشيون: لا تزال أصولهم غامضة، ولو أنه يشار إلى أصولهم النوبية في جنوب مصر. والواقع أن ملوكهم الذين أسسوا لأنفسهم ملكاً كبيراً في بلادهم قاموا بنهضة شاملة. وكان لهم أثر عظيم في إحياء وادي النيل ثانية وإعادة مجده القديم، حيث قام ملوكهم من الأسرة الفرعونية الخامسة والعشرين بتلك النهضة. وقد حكم الكوشيون مصر خلال المدة الواقعة بين (751-600) ق.م.

تذكير:

بناءً على رأي د. محمد محفل⁽¹⁾، ♦♦: المحقق، يفضل كتابة أسماء الأعلام والمدن والأماكن.. إلخ، كما كانت شائعة لدى أهلها. ولأن المكتبة الأوربية العامة قد درجت على اختصار معظم أسماء الأعلام في العصور اليونانية والرومانية القديمة، فقد اقتضى ذكر بعض الأسماء المهمة إلى جانب القديمة، وكمثال على ذلك: يوليوس قيصر (جوليوس أو يوليوس سيزر) - بومبيوس (بومبي) - ديوقلتيانوس (دقلديان، دقلديانوس) - سيانوس (سيفانوس) - وسباسيانوس (فاسباسيان، فاسباسيانوس) - دوميتيانوس (دوميتيان) - هادريانوس (أدريانوس، هادريان) - ترايانوس (تراجانوس، تراجان) - ليكينيوس (ليسينيوس) - يوليانيوس (جوليان) - يويانوس (جوفيان) - والنتيانوس (فالنتيان، فالنتيانوس) - والنس (فالينز، فالنز) - بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا) - معركة هادريانا بولس (أدريانوبول، أدرنة) - يوستينيانوس (جستنيانوس، جوستنيان، جُستنيان) - واليريانوس (فاليريان، فاليريانوس) - وكتور (فكتور Victor) ...

(1) - وكذلك، بقرار من المجامع العربية تكتب المدن والقرارات الموقفة بالتاء المربوطة، مثل: سورية، آسيا، أوربة، إسبانية، إيطالية، أفريقية، ألمانية، أرمنية، تركية، مقدونية، أفامية، ترقيية، بريية، ليدية.. إلخ. ومن الأفضل أيضاً كتابة أسماء الأعلام والمدن.. إلخ كما كانت شائعة لدى أهلها - المحقق.

♦♦ يلفظ حرف J ياءً باللاتينية، كما يلفظ حرف V واوً باللاتينية، مثل: يوليوس قيصر Julius Caesar، والنس Valens، واسبسانوس Vespasianus، وهكذا - المحقق.

الفصل الأول

بلقيس ملكة سبأ

يعدُّ الجغرافيون شبه الجزيرة العربية أكبر شبه جزيرة على سطح الأرض، إذ تبلغ مساحتها أقل قليلاً من ثلاثة ملايين كليومتراً مربعاً. وهي محاطة بالبحر الأحمر من الغرب وبحر العرب وخليج عدن من الجنوب، وخليج عمان والخليج العربي من الشرق، ولها فتحة برية وحيدة تتجه وجهتين: إلى الشمال نحو بلاد ما بين النهرين وسورية الكبرى، وإلى الغرب عبر جزيرة سيناء إلى مصر والشمال الأفريقي، ومن الطبيعي أن يكون اتصالها الأيسر، وخصوصاً في العصور القديمة، نحو فتحها البرية في الشمال، رغم أن اتصالها بافريقية يأتي من طريق سيناء وعبر البحر الأحمر وياب المندب، أما اتصالها بأسية فطريق البحر مفتوح أمامها إلى اتساعه العريض، مثلما هو مفتوح عن طريق البر.

يتكون القسم الغربي من شبه الجزيرة من مرتفعات تشرف على البحر الأحمر تبدأ بالانخفاض تدريجياً كلما اتجهنا نحو الشرق، وبالإرتقاء بمحاذاة ساحل البحر الأحمر كلما اتجهنا نحو الجنوب حتى تصل إلى إرتفاع حوالي أربعة آلاف متر في أعلى جبال اليمن.

وتتكون أراضي شبه الجزيرة العربية بأغلبها من صحارى وسهول تتخللها واحات تستغل للزراعة والاستقرار لتوفر المياه فيها. ومنذ أقدم العصور، عاش البشر وسط هذه المساحة كبدو رحل، بينما عاش سكان المناطق الساحلية، وخاصة في قاعدتها الجنوبية الغربية، في اليمن، حياة استقرار وتكوين دول وممالك لها نظم سياسية، لتساقط الأمطار بشكل دائم ومنتظم. لذلك استطاعت اليمن منذ أقدم العصور تكوين أقدم الكيانات الملكية العربية في شبه الجزيرة العربية. ويرى اللغويون أن اسم اليمن مشتق من أثيمن والبركة والخير العميم (اليمن السعيد).

وبالمجمل، كانت شبه الجزيرة العربية وحدة جغرافية واحدة ومسرحة لأحداث تاريخية متنوعة. إذ تدل أقدم المعلومات المكتشفة على حضارة يمنية متقدمة يعود تاريخها على الأقل إلى ما قبل القرن العاشر قبل الميلاد، وربما أبعد من ذلك بقرون.

قسم الجغرافيون الإغريق شبه الجزيرة إلى أقسام رئيسية ثلاث: العربية الصحراوية Arabia deserta (وهو القسم الأوسط منها)، والعربية الحجرية Arabia Petraea (القسم الشمالي ومنه البتراء)، والعربية السعيدة Arabia Felix (الحجاز ونجد واليمن).

وجاء في "معجم البلدان" لياقوت الحموي، ج5، ص 447: "قال الشرقي: إنما سميت اليمن لتيانهم إليها، وقال ابن عباس: تفرقت العرب فمن تيامن منهم. سميت اليمن ويقال أن الناس كثروا بمكة فلم تحتملهم فالتأمت بنو يمن إلى اليمن وهي أيمن الأرض

قسميت بذلك. وقال الأصمعي: اليمن وما اشتمل عليه حدودها بين عُمان إلى نجران ثم يلتوي على بحر العرب إلى عدن إلى الشجر حتى يجتاز عمان...".

نشأت حضارة راقية في الجنوب العربي من شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام بقرون طويلة مازال الكثير من آثارها يشهد على ذلك كبقايا الأسوار والحصون والمعابد وأقنية الري والسدود. وذكر الباحث جواد علي⁽¹⁾، فقال: "وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ما قبل الإسلام على أن العرب كان لهم علم واسع بتنظيم أمور الإرواء والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار، وتدل كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود، وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء. وقد عثر رجال شركة النفط العربية السعودية الأمريكية (آرامكو) على صهاريج أرضية متصلة بعضها ببعض بأنفاق وعليها فتحات من مواضع متعددة لاستفادة الماء منها، عثروا عليها في القطيف والإحساء وفي الفلج، وأواسط نجد وأماكن أخرى تعد اليوم من المناطق الصحراوية، كما وجدوا على مقربة منها قرى كانت عامرة ومزارع واسعة، ولم يكن يعرف العلماء سابقاً أن أواسط شبه جزيرة العرب والأقسام الشرقية منها كانت تستخدم هذا النوع من نظم الإرواء، بل كان المعروف أن الصهاريج المربوطة بأنفاق إنما كانت تستخدم في الشام وفلسطين وفارس والأقسام الشمالية من العراق...". إذ يشير كل ذلك إلى المستوى الحضاري العالي الذي كان يتمتع به سكان المنطقة القدماء وما بلغوه من الفنى والثروة والرفاه إلى الحد الذي تحدث عنه العهد القديم من الكتاب المقدس ومؤرخو اليونان واللاتين الذين أطلقوا على اليمن اسم "بلاد العرب السعيدة Arabia Felix". وكان لليمن حضور مميز في التاريخ القديم، حيث ذكرتها وتحدثت عنها وعن مملكتها (سبأ) كتب الديانة اليهودية، وكتب الديانة المسيحية القبطية والنجاشية، وتحدثت عنها الإخباريون العرب بصورة أقرب للأساطير منها إلى الواقع. كما تحدث القرآن الكريم عنها وعن مملكتها.

وجاء مصدر ثروات أهل اليمن بشكل أساسي من مهاراتهم التجارية البحرية والبرية بنقل كل ما كان يحتاجه العالم القديم من البضائع والسلع القادمة من الهند والصين في الشرق إلى مصر القديمة وطريق البحر الأحمر وسورية وبلاد حوض البحر الأبيض، بالإضافة إلى ما كانت تنتجه المنطقة من اللبان والطيب والبخور والتوابل... إلخ.

ورغم الكم الكبير من النقوش الحجرية الذي تركته لنا حضارة اليمن القديمة، والذي قد يكون أهم من جميع روايات الكتاب المقدس والمؤلفين اليونان والرومان والروائيين العرب، إلا أنها لم تقدم تاريخاً متماسكاً لبدايات ونهايات وأسماء الدول والممالك التي عاشت في تلك الحقب التاريخية القديمة، ولمختلف مناحي حياتها الثقافية. لكن هذه اللقى والمتروكات الأثرية والنقوش الحجرية والشواهد الكتابية التي استخدمت حروفاً أبجدية خاصة دلت على دور اليمن التاريخي القديم.

(1) - جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، الصفحات (101 - 102).

وقد تداخل تزامن العصور اليمنية القديمة بحيث لم يكن من السهل اعتبار الانتقال بينها انقطاعاً، وإنما امتداداً واستمراراً، حتى أن معظم روايات الإخباريين العرب تحدثت عن أن حكام اليمن القديم جاءوا من أب واحد، وتعاقدوا على الحكم والملك باسماء مختلفة (معيثيون، قتيانيون، أوسانيون، حضرميون، سبئيون، وحيريون).

مصادر تاريخ اليمن القديم⁽¹⁾

تتنوع مصادر تاريخ اليمن القديم حسب التالي:

- 1- العهد القديم.
 - 2- كتابات المؤرخين والمؤلفين الكلاسيكيين من يونان ورومان.
 - 3- النقوش والحواليات الآشورية التي أرخت للقرن السابع ق.م، والتي تشير إلى الفترة السبئية.
 - 4- النقوش البابلية التي تضمنت أسماء الكثير من ملوك اليمن وهي تتحدث عن علاقات قامت بين دولهما.
 - 5- المصادر الكتابية العربية والسريانية والبيزنطية والحشبية، والتي تهتم بشكل خاص بفترة القرون الأولى من الميلاد حتى ظهور الإسلام.
 - 6- النقوش والكتابات العربية الجنوبية التي تشكل أهم المصادر التي تبحث في تاريخ حضارة عرب الجنوب بعقائدها الدينية وأنظمتها السياسية والاقتصادية والعمرانية.
- ويمكن الاصطلاح على تقسيم تاريخ اليمن إلى ثلاثة أدوار رئيسية ودورين ثانويين كدليل للمعرض:

يسبق الدور الأول روايات الإخباريين العرب⁽²⁾ التي اتفقت في رؤيتها العامة على أن (الملك) قحطان بن عابر هو الجد الأول لعرب الجنوب، حيث وصلوا نسبه إلى سام بن نوح. وجاء بعد قحطان ابنه يعرب الذي قيل أنه أول من تكلم العربية، ثم ملك من بعده ابنه يشجب، ثم خلفه ابنه عبد شمس الملقب بسياً. وقيل إن من أولاد يشجب جاءت قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب قبل وبعد الإسلام، وإليها نسب السبئيون. إلا أن بعض النصوص المصرية القديمة تحدثت عن علاقات تجارية ضاربة إلى القدم بين مصر واليمن ترجع إلى الأسرة الفرعونية المصرية الخامسة، وذكرت هذه النصوص أن أحد ملوك الفراعنة في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد قاد حملة بحرية عن طريق البحر الأحمر إلى أرض البخور بلاد بنط. وأرسلت الملكة المصرية الشهيرة حتشبسوت، وهي من ملكات الأسرة الثامنة عشر (1500 ق.م) حملة إلى بلاد بنط الواقعة على الطرف الجنوبي للبحر الأحمر على جانبي باب المندب للحصول على البخور والطيب واللبان والعنبر والزعفران والتوابل والصمغ، التي كان يحتاجها المصريون

(1) - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص 78. سلسلة تاريخ العرب والإسلام 1.

(2) - يرى بعض الدارسين هذه الروايات مجرد روايات أسطورية لا تستند إلى وقائع تاريخية.

القدماء في منازلهم ومن أجل تحنيط موتاهم، وكذلك الحرير الصيني ولؤلؤ الخليج وريش النعام، وأنواع الأقمشة الأرجوانية، وغير ذلك من منتجاتها وبضائع أسواقها، حيث حفرت أخبار هذه الحملة على جدران معبد الدير البحري الذي بنته حثشبسوت. إلا أنه لم يسجل تاريخ هذه الفترة الغابرة كدليل على تكوين سياسي في اليمن.

وتعد أقوام سبأ من أقدم الشعوب التي عاشت على أرض الجنوب العربي، وهم العرب العاربة المنحدرون من نسل يعرب بن يشجب بن هحطان، الذين بدأوا بتكوين حكمهم وسلطانهم وبسط سيطرتهم على المنطقة في بحر القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ويقسم المؤرخون أدوارهم إلى الأدوار الرئيسية الثلاثة التالية: الدور المعيني، والدور السبئي، والدور الحميري. وقد اختلف بعض هؤلاء المؤرخين في ترتيب أزمنة هذه الأدوار.

الدور المعيني (القرن الثالث عشر- 620 ق م)

نتيجة لوفرة أمطار اليمن وموقعها الجغرافي الممتاز الذي يربط بلاد الصين والهند بأفريقية وجنوب غرب آسيا وأوربة تجارياً، ومنتجاتها الثمينة، أدت جميعها تدريجياً إلى ظهور وتطور المدن وازدهارها.

وقد أشار بعض البحاثة الغربيين إلى أن الحضارة المعينية تشبه في بعض مظاهرها حضارة ما بين النهرين القديمة. فاجتهد بعضهم إلى أن المعينيين جاؤا من أصول عرقية ضاربة في القدم لشعوب ما بين النهرين؟

كما اختلف العلماء بتاريخهم الذي أرجعه بعضهم إلى ما قبل 1200 ق م، فجعلوهم أقدم من السبئيين، بينما أرجع آخرون ظهورهم إلى ما بعد السبئيين. ولم يقف الأمر عند ذلك بل تعداه إلى عدم القطع باليقين بتاريخ ظهور معين أو سبأ. ويجتهد فيليبي بالقول أن خمس أسر معينة توالى على عرش الدولة المعينية بدءاً من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وهذا يتناقض مع تاريخ قصة ملكة سبأ مع سليمان المتعارف عليه في القرن العاشر قبل الميلاد إذا أخذنا بأن مملكة سبأ وملكتها كانت في اليمن، ولم تكن في مكان آخر كما حدد بعضهم فترة حكم المعينيين بين 400 و 100 ق م. في حين رأى البعض الآخر (ملاك) أن فترة حكمهم امتدت بين القرنين الثامن والثالث قبل الميلاد. ويقودنا هذا الاضطراب وعدم اليقين إلى التوقف بحذر شديد أمام هذه المعطيات.

ارتبط تاريخ الدولة المعينية بتاريخ ممالك قتيان وأوسان وحضرموت. ورأى بعض الباحثين أن تاريخ هذه الممالك كان أيضاً معاصراً لمعين أو سبأ. ويبين هذا مقدار الخلاف على تحديد أزمنة هذه الدول الجنوبية.

لقب الملك في الدولة المعينية بـ "مزود" أي مقدس. وكان المجتمع مكون من عدة طبقات: الارستقراطيون والعبيد، وبينهم طبقات أخرى. وكان للمرأة مكانة محترمة ورفيعة في مجتمعهم. واشتغلوا بالزراعة والتجارة حيث ورد ذكرهم في الحوليات السورية

والمعراقية والمصرية واليونانية واللاتينية. ويستدل من إشارات العالم بلينيوس الأول (القديم) (23-79م) صاحب موسوعة التاريخ الطبيعي، والجغرافيا في بطليموس وغيرهم، إلى أن وجودهم ونشاطهم الاقتصادي استمر، حتى بعد زوال دولتهم، إلى نهاية القرن الأول ق.م، وربما بعد ذلك.

الدور السبئي (950-115) ق.م

بدأ الدور السبئي، على رأي بعض المؤرخين، في نهاية الدور المعيني الموافق لعام 620 ق.م، وانتهي سنة 115 ق.م. في حين يجعله آخرون يمتد من 950 إلى 115 ق.م، أي أنه عاصر فترة القرون الثلاثة الأخيرة من تاريخ الدور المعيني. وعلى ذلك يرى بعض الكتاب والمؤرخين أن العصر الأول من تاريخ اليمن القديم اقترن بالدولة السبئية التي مثلت معظم أدوار التاريخ اليمني القديم، بحيث شكلت دولة سبأ أكبر كيان سياسي في اليمن القديم إذ مرت بثلاثة أدوار رئيسية في تاريخها، فمثلتها في دورها الأول دولة معين، ودولة حمير في دورها الثالث. وقد ورد ذكر مملكة سبأ في سفر التكوين في التوراة. كما أشارت النقوش الآشورية في عهد الملك تفلات بلاسر (745-727) ق.م، وفي عهدي سنحاريب وأسرحدون (715-685) ق.م، إلى أخذهم الجزية من يثعمر وكرب إيلو من ملوك سبأ، وهذا يعني أن دورهم بدأ قبل انتهاء الدور المعيني بقرون. ولا تسعفا المصادر التاريخية بالكثير عن أصول السبئيين، في حين ترجعهم المصادر العربية إلى شمس بن يعرب بن يشجب بن قحطان. ولقب شمس بسبأ لأنه أكثر من الغزو والسبي، فكان أول من سبى من العرب، ويقول رأي آخر أن أصولهم حبشية. ومن الأرجح أنهم كانوا في الأصل قبائل بدوية تنجول في شمال شبه الجزيرة العربية، فقادهم تطوافهم وضغط الآشوريين عليهم إلى الاستقرار في جنوب منطقة المملكة المعينية إلى أن استطاعوا في القرن الثامن قبل الميلاد من تأسيس مملكتهم والعمل التدريجي على ضم بقايا الدولة المعينية التي كانوا يعاصرونها بالتعاون مع القتبانيين، مستفيدين من الضعف التي كانت تعانيه. ووردت إشارات التوراة إلى سبأ بأن أدخلتهم في أسرة حام بن نوح، وأدخلتهم في مكان آخر في نسل سام، ثم جعلتهم في ولد يقطان بن عامر في موضع ثالث، وفي يقشان من أولاد ابراهيم بن قطورة في موضع رابع!

ولقب ملوكهم في الفترة الأولى بـ "مكرب" أي المقدس، وكان أول اسم وصل إلينا من مكربي سبأ هو "سمح علي" (800-780) ق.م. ثم صاروا يلقبون "ملوك سبأ"، ثم "ملوك سبأ وريدان"، وكانت عاصمة مملكتهم سبأ. وكان ملوكهم في العصر السبئي الأول (950-650) ق.م يقومون بوظيفة الملك والكاهن "مكرب" معاً، وفي العصر الثاني (650-115) ق.م تجرد الحاكم من وظيفته الكهنوتية، فأطلق عليه لقب "ملك" فقط.

وقد قام أحد ملوكهم^(١) ببناء سد مارب الذي عُدَّ أعظم سد شيد في الجزيرة العربية ومن أعاجيب العالم القديم، والذي ظل ذكره يتردد عبر الأزمنة فدخل خبره كثير من المبالغات والأساطير. وقد وصفه المؤرخ الهمداني في كتابه "الإكليل"، فجاء وصفه متطابقاً مع أوصاف المؤرخين الغربيين أمثال ارنو هاليفي وغيرهم: يقع السد على ارتفاع 1200م فوق سطح البحر، وكان طوله 560 م، وعرضه 105م، وثم بناؤه على وادي اذنه لتجميع مياه السيول المنحدرة من الجبال المحيطة. وقد تم بناء السد من التراب والحجارة والحصى حتى أصبح عبارة عن حائط ضخم أصم في عرض الوادي، حيث ينتهي أعلاه بسطحين مائلين بزاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى لمنع انجراف التراب عند تدفق الماء، ويستند من طرفيه إلى جبلين عند أسفل كل منهما منافذ للمياه مبنية بصخور ضخمة ومتينة يخرج منها الماء من خلال بوابات خشبية وحديدية ليروي الجنتين عن يمين وشمال. وقد تم إدخال تحسينات متعددة على بناء السد حتى اتخذ شكله النهائي في عهد شمر يرعش (300 م). كما أنشأت سدود عديدة بعد ذلك حيث أدى إلى غنى ورهافية المنطقة، فازدادت أهمية مارب ومنطقتها فاصبحت عاصمة سبأ بدلاً من صرواح.

أشار ياقوت الحموي^(٢) إلى وصف المسعودي للسد: ".. وكان هذا السد من بناء سبأ بن يشجب بن يعرب وكان ساقله سبعين وادياً ومات قبل أن يستتمه فأتمه ملوك حمير بعده". وتحدث الهمداني والمسعودي والأصفهاني عن أن من بنى السد هو لقمان بن عاد. ذلك أن هذه الروايات تبدو أقرب إلى السير الأسطورية منها إلى الحقائق التاريخية الموثقة.

وقد لخص ياقوت^(٣) روايات الإخباريين العرب، الأقرب إلى الأسطورية، عن خبر خراب السد، فقال: "وأما خبر خراب سد مارب وقصة سيل العرم فإنه كان في ملك حبشان فاخرب الأمكنة المعمورة في أرض اليمن وكان أكثر ما اخرج بلاد كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب وعامة بلاد حمير بن سبأ، وكان ولد حمير وولد كهلان هم سادة اليمن في ذلك الزمان، وكان عمرو بن عامر قبل سيل العرم وصارت الرياسة إلى أخيه عمران بن عامر الكاهن، وكان عاقراً لا يولد له ولد، وكان جواداً عاقلاً، وكان له ولولد أخيه من الحداثق والجنان ما لم يكن لأحد من ولد قحطان، وكان فيهم امرأة كاهنة تسمى طريفة أقبلت يوماً حتى وقفت على عمران بن عامر وهو في نادي قومه، فقالت: والظلمة والضياء والأرض والسما، ثيقلن إليكم الماء، كالبحر إذا طما، فيدع أرضكم

(١) - عثر خلال التنقيب في لقاض السد على كتابات بالخط المسند جاء فيها أن باتي الطرف الأيسر من السد هو "سمهلي ينوف بن زمر علي مكرب سبأ الذي خرق جبل بلق وينى مصراً رجباً لتسهيل عمليات الري"، وأن باتي الطرف الأيمن هو "نعمس بن سمهلي ينوف بن زمر". وقد نقلت العبارة الأخيرة على الطرفين الأيسر والأيمن. حيث يشير ذلك إلى أن الأب والإبن، وهما من أهل القرن الثامن قبل الميلاد، قاما ببناء السد.

(٢) - ياقوت الحموي: "معجم البلدان"، ج 5، ص 34.

(٣) - المصدر السابق، ص 35.

خلاء، تسفي عليها الصبّا، فقال لها عمران: ومتى يكون ذلك يا طريفة؟ فقالت: بعد ست
عدد، يقطع فيها الوالد الولد، فياتيكم السيل، بفيض هبّيل، وخطب جليل، وأمر ثقليل،
فيخرب الديار، ويعطل العشار، ويطيّب العرّار، قال لها: فُجعتنا يا مؤالنا يا طريفة فبيني
مقالتك، قالت: أتاكم أمر عظيم، بمسيل لطيم، وخطب جسمهم، فأحرسوا السد ثلثا يمتد،
وإن كان لا بد من الأمر المعد، انطلقوا إلى راس الوادي، فسترون الجرّد العادي، يجر كل
صخرة صيخاد، بأنياب حداد، وأظفار شداد. فانطلق عمران في نضر من قومه حتى
اشرفوا على السد، فإذا هم بجرذان حمر يحفرن السد الذي يليها بأنيابها فتقتلع الحجر
الذي لا يستقله مائة رجل ثم تدفعه بمخالب رجلها حتى يسد به الوادي مما يلي البحر
ويفتح مما يلي السد، فلما نظروا إلى ذلك علموا أنها قد صدقت، فانصرف عمران ومن
كان معه من أهله، فلما استقر في قصره جمع وجوه قومه رؤساءهم وأشرافهم وحدّتهم
بما رأى وقال: اكنموا الأمر عن إخوانكم من ولد حمير لعلنا نبيع أموالنا وحدائقنا منهم ثم
نرحل عن هذه الأرض، وسأحتال في ذلك بحيلة، ثم قال لابن أخيه حارثة: إذا اجتمع
الناس إليّ فإني سأمرّك بأمر فأظهر فيه العصيان فإذا ضربت رأسك بالعصا فقم إليّ
فالطمني، فقال له: كيف يلطم الرجل عمه! فقال: أفعل يا بني ما أمرك به فإن في ذلك
صلاحك وصلاح قومك؛ فلما كان من القد اجتمع إلى عمران أشراف قومه وعظماء
حمير ووجوه رعيته مسلمين عليه، فأمر حارثة بأمر فعضاه فضره بمخضرة كانت في
يده فوثب إليه فطلمه فأظهر عمران الأنفة والحمية وأمر بقتل ابن أخيه حتى شُفّع فيه،
فلما أمسك عن قتله حلف أنه لن يقيم في أرض أمتهن بها ولا بد من أن يرحل عنها،
فقال عظماء قومه: والله لا نقيم بعدك يوماً واحداً ثم عرضوا ضيعهم على البيع
فاشتراها منهم بنو حمير بأعلى الأثمان وأرتحلوا عن أرض اليمن فجاء بعد رحيلهم
بمديدة السيل وكان ذلك الجرذ قد خرب السد فلم يجد مانعاً ففرّق البلاد حتى لم يبق
من جميع الأرضين والكروم إلا ما كان في رؤوس الجبال والأمكنة البعيدة مثل حضرموت
وذمار وعدن وذهيت الضياع والحدائق والجنان والقصور والدور وجاء السيل بالرمل
وطمها فهي على ذلك إلى اليوم، وباعد الله بين أسفارهم كما ذكروا فتفرقوا عباييد في
البلدان، ولما انفصل عمران وأهله من بلد اليمن عطف ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر
ماء السماء بن حارثة الفطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة التيهلوان بن مازن بن
الأزد بن الفوث نحو الحجاز فأقام ما بين الثعلبية إلى ذي قار وباسمه سميت الثعلبية
فتنزلها بأهله وولده وماشيته ومن تبعه فأقام ما بين الثعلبية وذي قار يتتبع مواقع المطر،
فلما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة وبها ناس كثير من بني إسرائيل متفرقون في
نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها بين بني قريضة والنظير وخيبر وطيّماء ووادي القرى
ونزل أكثرهم بالمدينة إلى أن وجد عزة وقوة فأجلى اليهود عن المدينة واستحلّضها لنفسه
وولده فتفرق من كان بها من اليهود وانضموا إلى إخوانهم الذين كانوا بخيبر وقدك وتلك
النواحي وأقام ثعلبة وولده ييشرب فابتنوا بها الأظلام وغرسوا فيها النخل فهم الأنصار
والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزقياء، وانخرج عنهم عند خروجهم من

مأرب حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء وهو خزاعة فاهتتحو الحرم وسكانه جرهم وكانت جرهم أهل مكة فطلقوا ويقوا -وستوا- في الحرم سنناً قبيحة وفجر رجل منهم كان يسمى إساف بامراة يقال لها نائلة في جوف الكمية فمسخا حجرين، وهما الذين اصابهما بعد ذلك عمرو بن لحي ثم حسن لقومه عبادتهما، كما ذكرته في إساف، فأحب الله أن يخرج جرهما من الحرم لسوء فعلهم.. فظفر الله خزاعة بهم فنزلت خزاعة الحرم ثم إن جرهما تفرقا في البلاد.. إلخ".

اختلف الباحثون في تفاصيل وتاريخ إنهاء السد، فقال الأصفهاني أن الإنهيار حدث قبل الإسلام بأربعمئة سنة، أي في القرن الثالث الميلادي، وذكر ياقوت الحموي أنه وقع خلال حكم الأحباش لليمن في القرن السادس، بينما ذكر ابن خلدون أنه حدث في القرن الخامس. وقد روى الهمداني في "الإكليل" أنه شاهد بقايا السد بنفسه في أوائل القرن الرابع الهجري. والأرجح أن سبب اختلاف الإخباريين العرب في تحديد تاريخ إنهاء السد وإرجاعه إلى عصور مختلفة هو كثرة ما تمرض له من تصدعات وإصلاحات حتى أنهياره بشكل كامل.

وكان إنهاء السد من الأسباب المباشرة لهجرات القبائل العربية اليمنية نحو الشمال، خاصة إلى سورية والعراق.

وقد ورد ذكر السد في القرآن الكريم، إذ يقول الله تعالى في كتابه العزيز⁽¹⁾: "لقد كان لسبأ في مسأكتهم آية جنتان عن يمين وشمال. كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خضف وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور. وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين. فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور".

استطاعت مملكة سبأ في عصرها الثاني إدخال قتيان وحضرموت في سلطاتها، فأقامت مراكز ومحطات تجارية على طول الطريق إلى سورية عبر غرزة، وأخرى على الساحل الأهرقي المواجه لها في البحر الأحمر. ولذلك كانت مملكة سبأ أول دولة جنوبية سيطرت على جميع عرب الجنوب وجمعتهم في دولة واحدة. وامتازت حضارة سبأ - حسب غلاس- بالتجارة بحيث نشروا تجارتهم في الهند والحيشة ومصر والعراق والشام، وشادوا الحصون والهياكل والقصور وجعلوها في فئهم من الأعاجيب، ومهدوا طرق البادية وبنوا السدود والقنوات فحولوا الصحارى إلى جنان...

واشتهر النسبيون بالملاحة وهم يمخرون عباد المحيط الهندي وبحر العرب، مما ساعدهم على احتكار التجارة مع الهند حيث درت عليهم أرباحاً كثيرة، إلا أن البحارة اليونان والمصريين بدأوا يدخلون بسفنهم على الخط البحري في المحيط الهندي يجلبون

(1) - سورة سبأ، الآيات 15 - 19.

البضائع من جنوب آسية والهند، حيث أدى ذلك تدريجياً إلى اضمحلال نفوذهم الاقتصادي، إضافة إلى أسباب أخرى، من ضمنها ظهور دولة الأنباط التجارية في شمال الجزيرة العربية، وازدياد النفوذ الحميري، وهم فرع من السبئيين، في مدتهم على ساحل البحر الأحمر الشرقي، وتكوين دولتهم بعاصمتها ظفار التي استطاعت مد نفوذها والقضاء على الدولة السبئية.

الدور الحميري (115 ق م - 525 م)

تعود أول إشارة عن الحميريين في النقوش اليمنية إلى العام 115 ق.م. وجاءت أول إشارة إليهم في المصادر الرومانية في كتاب "الدوران حول البحر الأريتيري"، وفي مؤلفات بلينيوس الأول، ورغم الصلة القوية بين سبأ وحمير (فرع من السبئيين) منذ القديم إلى حد التداخل، فقد استطاعوا بنیان كيانهم شبه السياسي مبكراً خلال نهاية العصر السبئي الثاني بعد أن اعتراه الضعف. وقد ساعدهم موقعهم الساحلي واحتكارهم الملاحة في البحر الأحمر إلى المساهمة في حركة التجارة حتى جاءتهم الفرصة فتغلبوا على إخوانهم السبئيين بأن اتحدوا معهم في أواخر حكمهم فسيطروا على أرض سبأ كلها وامتد عهدهم في دوره الأول بين 115 ق.م إلى 300 م، واتخذوا من ريدان عاصمة لهم بدلاً من مارب، ثم سميت ريدان باسم ظفار، ولقبوا ملوكهم "ملك سبأ وذی ريدان"، وفي نهاية القرن الثالث الميلادي صار لقب ملوكهم "ملك سبأ وذی ريدان وحضرموت ويمنات والعرب في الجبال وفي تهامة، مما يعني توسع ملكهم. وبذلك يكون حكمهم لليمن قد استمر لمدة 640 عاماً.

وفي دوره الثاني، حتى 525 م تاريخ الاحتلال الحبشي، نجحوا في لعب دور تجاري مهم، وازدهروا في الزراعة، وبخاصة اللبان، معتمدين على السدود والآبار.

أرسل الامبراطور الروماني أوغسطس (27 ق.م-14م) حملة رومانية انطلقت من مصر بقيادة حاكمها الروماني ايليوس غالوس لاحتلال اليمن سنة 25 ق.م، فسلكت الطريق البري عبر سيناء والحجاز حتى وصلت مارب التي قاومتهم مقاومة شديدة، فأجبروا على العودة، وفكت فيهم الظروف المناخية القاسية التي لم يكونوا معتادين عليها. ويدعي الرومان ومنهم سترابو أن عوامل المناخ القاسية كانت أهم سبب في عدم قدرتهم على إخضاع اليمن. مع ذلك لم تفتقر مزاحمة الرومان بتطوير تجارتهم البحرية إلى الشرق بطريق المحيط الهندي وبحر العرب، والتي كان يحتكرها الحميريون الذين ضعفت شوكتهم وتضاءلت أهميتهم التجارية. وتكنى ملوكها بلقب "ملك سبأ وريدان".

ونتيجة لضعف تجارتهم بسبب سيطرة الأنباط على الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية، وسيطرة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد احتلالهم لمصر وعموم سورية بما فيها ضم مملكة الأنباط إلى الامبراطورية الرومانية سنة 106، وتنافس وصراع القبائل فيما بينها، وتوالي الاضطرابات والحروب الباطنية، فقضي على استقلال

دولتهم، فدخل الرومان عدن وقدموا المساعدة والدعم للأحباش لاحتلال اليمن في المرة الأولى سنة 340 م حيث استمر احتلالهم لليمن حتى سنة 378 م.

وفي دورهم الثاني، حتى الاحتلال الفارسي، استفاق الحميريون من ضعفهم بانضمام القبائل المجاورة إلى دولتهم، فأخضعوا حضرموت ومعظم اليمن وتهامة، فأصبحت الدولة الحميرية في طورها الثاني تمتد على مساحة أكبر. ولقب ملوكه "ملك سبأ وريدان وحضرموت ويمنات وتهامة". وعرفت الدولة الحميرية في طورها الثاني بـ "دولة بنو تبع: النبابعة". وفي هذا الدور بدأت الديانتان اليهودية والمسيحية في التنافس بين سكان الجنوب العربي لتحل محل الديانة الوثنية في عبادة الشمس والكواكب والنجوم. وريما بدأ انتشار اليهودية هناك بعد تدمير بيت المقدس على يد الامبراطور الروماني واسباسيان وابنه تيطوس سنة 70م. بينما أخذت المسيحية بالانتشار تدريجياً عن طريق مبشرين من الحبشة، من المؤمنين بالطبيعة الواحدة للمسيح، فأنشأوا كنائسهم في عدن وظفار وتجران. ومن المحتمل أن رساليات مسيحية من سورية والحيرة لعبت دوراً تيسيراً آخر في الجنوب العربي. وقد امتد الدور الحميري الثاني حتى 525 م تاريخ الاحتلال الحبشي الثاني لليمن.

الدور الحبشي (الدور الثانوي الأول)

استولى الأحباش على اليمن سنة 340 م فمدوا المسيحية هناك بسند قوي، غير أن الحكم الحبشي لم يعمر طويلاً في اليمن إذ استطاع اليمانيون طرد الأحباش سنة 378م، والعودة إلى وقيثتهم القديمة. وقد تأثر ملوك حمير ومن هاجر معهم إلى يثرب إبان الغزو الحبشي باليهودية، إلا أنه لا يوجد ما يفيد باعترافهم الديانة اليهودية. وقد تعاقب على حكم اثنين بعدها ملوك كان من بينهم ذو نواس (النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي) الذي دان باليهودية وشن حملة اضطهاد عنيفة ضد المسيحية وأجبر المسيحيين على ترك ديانتهم، ومن رفض منهم أحرقه في الأخدود (523م). وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم⁽¹⁾: "والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود. قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد". وقد أثار اضطهاد المسيحية بيزنطة فاشارت على حليفها في الحبشة بتجهيز حملة لاحتلال اليمن، فقام الأحباش بقيادة أرياط بحملتهم الثانية سنة 525 م فقتلوا على الدولة الحميرية ودعموا النصرانية واستمر أرياط حاكماً على اليمن حتى انقلب عليه أبرهة بن الأشرم سنة 549 م، وقام حاكماً على اليمن بموافقة ملك الحبشة، فاهتم بإصلاح سد مارب وأقام احتفالاً بعد انتهائه من

(1) - سورة البروج، الآيات 1-8، والتي تشارت إليهم بالإيمان. وقد تناولت الكتابات المسيحية تمجيد أصحاب الأخدود واعتبرتهم شهداء، وأشارت إليهم باسم "شهداء نجران".

الإصلاح سجل على نقش⁽¹⁾ اكتشف في نهاية النصف الأول من القرن العشرين. وقد فشلت حملة أبرهة لاحتلال مكة، إذ أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة الفيل: "ألم تر كيف فعل ريك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول".

الدور الساساني - الفارسي (الدور الثانوي الثاني)

لم يستكن اليمانيون لحكم الأحباش، فالتسموا الوسائل لتحرير بلادهم، فوجدوها عند أنوشروان كسرى فارس الذي كان على عداء مستمر ضد بيزنطة حليفة الأحباش، فأنجدهم بقوة أبحرت من الخليج العربي ونزلت في جنوب اليمن ونجحت مع المقاومة اليمنية من طرد الأحباش، فنالوا استقلالهم سنة 575 م، وعين سيف بن ذي يزن زعيم المقاومة، الذي استتجد بالفرس، ملكاً على اليمن. وتولى الأمر الساساني حكم اليمن بعد مقتل سيف بمؤامرة فارسية، إلى أن جاء الإسلام فأسرع أهل اليمن بالإنضواء تحت لوائه، وذلك سنة 638 م.

بلقيس ملكة سبا بين الواقع والأسطورة

كانت بلقيس سيدة نساء عصرها وإحدى الملكات اللواتي عطرن التاريخ وأضفن عليه بهاءً لا يزال يثير الخيال حتى الآن. وقد استقطبت سيرتها اهتمام وخيال الأمم والشعوب لكونها أحيطت بغموض أسطوري براق تُسج حول شخصية أنثوية تمتعت بالجمال والحكمة والسلطان والثراء، وحكمت بقلب امرأة وعقل رجل، فألهمت ولا تزال الفنانين والكتاب والشعراء، والأكثر خيال العامة. وكان السؤال حاضراً على الدوام: هل عرفت سبباً فعلاً ملكة بصفات بلقيس؟ أم أنها لم تعدو أن تكون أكثر من أساطير وخرافات ابتدعتها مخيلة العرب ونشرها أقوامهم على مر الأزمان القديمة؟ هل كانوا يشيرون إلى شخصية واحدة، أم أنهم لخصوا عدة حاكمات يمانيات في واحدة؟ وهل كان هذا الدمج متممداً؟ هل كانت بلقيس مزيجاً فريداً من الأسطورة والقص والتاريخ؟

فالقصاص المرتبط بالملكة بلقيس متعددة ومتناقضة أحياناً؛ فهي تولدت من بعد وصية والدها الملك، أو تولدت بعد أن قتل ابن عم لها أقامه الناس بعد موت والدها، أو تولدت بعد وفاة والدها ثم تخلصت لأخ لها عن العرش. وقد وصفتها بعض الروايات بإقامتها علاقات جنسية مثلية، وتقول بعضها أن نكاح سليمان لها كان من غير زواج، وهذا يعد تحقيراً لشخصها. بينما ينظر إلى توليها العرش كأمراة في أعلى سلم الجدارة بما حققته لشعبها من الرخاء والسلام، والإيمان بعد إسلامها مع سليمان. وكانت مثلاً - حسب النص القرآني- للحكمة الرسولية التي تجمع بين العلم والعمل والنبل والشورى ولطف

(1) - انظر Sidney Smith Article, Bulletin of the School of Oriental & African Studies حول حكم الأحباش لليمن.

السلوك. وفي التراث القبطي كمثال للعفاف، وأنها ستعود يوم الحساب لمحاكمة العصاة وعقابهم. وهي في التراث الحبشي مثال للتقى والجمال والذكاء والمعرفة.

وربما كانت بلقيس ملكة سبأ التي حكمت فترة من فترات الدولة السبئية التي ربما استمرت لفترة تاريخية طويلة ابتدأت من 1500 ق.م إلى 500م. وقد كانت هذه اليلاد الصحراوية بلداً خصبة (سميت العربية السعيدة) وذلك قبل تطور المناخ إلى الجفاف، فكانت ذات ثقافة وحضارة عاليتين في اليمن وعمان، شهدت بناء سدود وقنوات مائية غاية في استخداماتها، وترويض وتدجين مبكر للإبل.. إلى الحد الذي دفع الكثير من الباحثين إلى الاعتقاد أن جنة عدن ربما كانت في جنوب الجزيرة العربية، والتي ربما كانت مهبط آدم وحواء.

وكانت شبه الجزيرة العربية مسرحاً لأحداث تاريخية متنوعة، أقيمت عليها الممالك والدول والحضارات وتوسعت طاماً كانت قادرة على المحافظة على سلطانها وتقوذا وقوتها، وتقلصت في حال ضعفها، ويادت في حال انحلالها وظهور غيرها.

وقد نشأت دولة سبأ كأهم تكوين سياسي واقتصادي وتاريخي في الجنوب العربي، إذ يمكن اعتبارها النواة الأساسية التي سبقتها الدولة المعينية للدوران في نفس الفلك، وتبعتها الدولة الحميرية في نفس المسار، بعد اضطحلالها. ويمكن الاجتهاد بالقول أن التفرق التاريخي بين هذه المكونات الثلاثة قد لا يعطي كل واحدة منها خصوصياتها اللازمة. وقد ظلت سبأ وإلى فترة متأخرة في تاريخ اليمن الدولة الأم التي نهل منها ودار في فلكها الجميع، وذلك على الرغم من وجود تناقض في تواريخ ظهور الدول الرئيسية الثلاثة في اليمن، حيث تقول بعضها أن ظهور الدولة المعينية جاء بعد الدولة السبئية⁵

وسبأ عند النسابة والإخباريين العرب: هو رجل من أجداد العرب القحطانيين؛ عبد شمس (الملقب سبأ) بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقد ورد اسم سبأ في الحوليات والنقوش الآشورية القديمة والحديثة. ويظن أن كلمة sabue, sabae وردت عند ملوك أور في نفس التاريخ، تشير كلها إلى سبأ⁽¹⁾. وهذا يعني أن سبأ، على الأقل، كمنطقة أو بلاد إن لم تكن كدولة، قد عرفت منذ أقدم العصور.

استقى كتاب التاريخ العربي القديم من مصدر أساسي واحد تقريباً؛ عن ابن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه، الذين أسسوا رواياتهم على رواية التوراة (الإسرائيليات)، فتحدثوا عن سبأ كإربعة دول: سبأ الشمال⁽²⁾ في جنوب فلسطين، سبأ الجنوب في اليمن، سبأ أفريقية الشمالية، وسبأ أفريقية الجنوبية. لكن عدم ظهور أدلة أثرية أو مخطوطة

(1) - جواد علي "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج5، ص 259.

(2) - يقرر عبد الحميد هو في كتابه بلقيس-ملكة سبأ، الصفحة 47، دار معد للنشر والتوزيع بدمشق، 1992، فيقول: 'لأنني أكرر وكلي ثقة أن اسمها البقاء، وهي حلكمة مبنياً الشمالية التي امتكت من معان وحتى مخين، فهي في شمال الحجاز ونجد على أقرب الحالات، ولا أستطيع أن أتبع المفسرين في حكمهم، فالأقرب الزمني بين مبنياً الجنوب ومسلمان كبير وكبير جداً، وكذلك لا يمكن أن أكرر في شرق أفريقية أو في شمالها لبعد المسافة وعدم وجود مواصلات سريعة.' ٣٠.

في الاكتشافات التاريخية تتفق مع الروايات التاريخية للتوراة يؤدي إلى الاعتقاد أن هذه الروايات لا تعبر عن أحداث تاريخية حقيقية يمكن الاعتماد بصحتها، وذلك لعدم ظهور أدلة تؤيد وجود مملكة إسرائيلية في زمن شاؤول وداود وسليمان، كذلك لم ترد إشارات إليهم في الحوليات التاريخية، بكل ما ورد وأخذ به المؤرخون جاء من الرواية التوراتية. ويعتقد أن بعض قصص التوراة ربما تمت استعارتها واقتباسها من أحداث تاريخية⁽¹⁾ جرت لشعوب وممالك في شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط في زمن أقدم من زمن التوراة، وذلك من أجل بناء تاريخي لمملكة بني إسرائيل، ولاحقاً لدولة يهوذا التوراتية. ولكي لا نستطرد بعيداً عن موضوعنا الأساسي؛ وهو بلقيس ملكة سبأ، يقتضى معالجة الموضوع بناءً على المعطيات التالية: الرواية التوراتية، الرواية العربية، الرواية القرآنية، والرواية التاريخية.

الرواية التوراتية

1

تقوم الديانة اليهودية، التي يقول اليهود فيها أن الله أعطى موسى الشريعة المكتوبة (الألواح) والشفعية على جبل الطور في سيناء، على مصدرين: أساسي وهو "التوراة"⁽²⁾ (التوراة: الهدى والرشاد بالأرامية) التي هي جزء رئيسي من العهد القديم. والعهد القديم جزء من الكتاب المقدس. والكتاب المقدس يضم العهدين: القديم والجديد، وهو مقدس عند اليهود والمسيحيين على السواء، ويعد جزءاً من الديانة المسيحية. والمصدر الثاني هو "التلمود" أي التفسير والشرح والتعاليم، ويشتمل على مجموعة شرائع الديانة وشروح وتعليقات على التوراة وضعها أحنبار وحاخامات اليهود بعد الميلاد، بحيث أصبحت مع مرور الزمن محل تقديس وتبجيل عندهم كما التوراة، وجزءاً من أحكام الديانة. وأصل كلمة "تلمود" آرامية جاءت من (لاماد) وتعني يُعلم. وقسم التلمود إلى: "المشنة" أي النص أو المتن الذي يعتني بمختلف تقاليد وعادات اليهود، و"الجمارا" أي التفاسير والشروح التي بنيت على مجموع المناظرات والاجتهادات التي تم التوصل إليها في المدارس اليهودية الدينية العليا بعدما انتهوا من صناعة المشنة. وقد قام بجمع المشنة الحبر الأعظم يهوذا بن شمعون بين (210-220) م، بينما يرجع تاريخ وضع الجمارا إلى كامل القرن السادس الميلادي، بحيث اكتملت صياغتها النهائية في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي؛

(1) - يقول خبير الآثار المصرية: ويلسون في كتابه ثقافة مصر القديمة: J. Wilson, the Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1956, p. 226-228, "إنه يوجد تشابه كبير بين التزيين المعروفة لأخناتون Relations in Ancient Egypt, N. Y, 1956, P 83- 88". ويوجد تشابه كبير بين التزيين المعروفة لأخناتون إلى قرص الشمس (أتون) والجملة 104 من سفر المزامير من العهد القديم. ونعلم أيضاً بأن العبرانيين أتباع موسى صنعوا أشياء وجودهم في صحراء التي في سيناء ما يعرف بفلح الميثاق وزينوه بتمثال صغيرة تمثل أشكال الملكة محاكاة للتمثال المجنحة التي صنعها كنعان المصريين لألهة الحق والعدالة معات...".

(2) - د. أحمد سوسة في "الديوب واليهود في التاريخ"، الفصل الثالث للتوراة والديانة اليهودية، ص 305، الطبعة السابعة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

قرن الدعوة الإسلامية. ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتاباً منزلاً ويرون أن الله أعطى موسى ألواح التوراة المكتوبة على جبل سيناء، بينما أعطاه التلمود شفاهة.

وهناك تلمودان، يعرف الأول بالتلمود الفلسطيني (الأورشليمي)، والذي دون بالآرامية الغريية، والثاني بالتلمود البابلي الذي دون باللغة الآرامية الشرقية، وهو أوسع بأربع مرات من التلمود الفلسطيني، إذ يقع في 5894 صفحة، ويطبع عادة بأثني عشر جزءاً. ولكل منهما خصوصية البلاد التي وضع فيها.

ويتألف العهد القديم من الكتاب المقدس من تسعة وثلاثين سفرًا. ويتقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية بحيث يتألف الأول منه من خمسة أسفار يطلق عليها أسفار أو كتب موسى الخمسة، وهي:

1- سفر التكوين: يتحدث عن وصف الخليفة وبداية العالم، وعن الشعب المختار.
2- سفر الخروج: يتحدث عن خروج قوم موسى (بني إسرائيل) من مصر، وعن الوحي إلى موسى (ع) على جبل سيناء⁽¹⁾. حيث دونت أحكام الشريعة اليهودية التي من ضمنها الوصايا العشر في الإصحاح العشرين من هذا السفر.

3- سفر اللاويين: الأحبار (من نسل هارون): يضم طقوس كهنة بني لاوي ابن يعقوب.

4- سفر العدد: يتضمن إحصاءات الشعب اليهودي.

5- سفر التثنية: أي سفر تثنية الإشتراع، أي الذي يكرر ويتمم شريعة موسى. ويسمى القسم الثاني من العهد القديم "تثييم" أي الأنبياء، ويتحدث عن تاريخ اليهود المتقدمين والمتأخرين. ويضم تاريخ المتقدمين ثمانية أسفار تتحدث عن تاريخ اليهود من دخول يوشع فلسطين حتى هدم الهيكل في بيت المقدس، وهي:

1- سفر يوشع: يتحدث عن دخول الموسويين في فلسطين، وتقسيم الأراضي على غالبية الأسباط.

2- سفر القضاة: يتحدث عن عصر القضاة بين موت يوشع وولادة صموئيل.

3- سفر صموئيل الأول: يؤرخ لصموئيل وشاؤول والفترة الأولى من عهد داود.

4- سفر صموئيل الثاني: يتحدث عن حكم داود.

5/6- سفر الملوك الأول والثاني: يبعثان من وفاة داود إلى بداية السبي البابلي.

7/8- سفر أخبار الأيام الأول والثاني: ويضمآن وثائق ليست مصنفة ورسالات نسب وروايات من أيام آدم حتى أوائل عهد قورش الفارسي في القرن السادس قبل الميلاد. ويضم تاريخ الأنبياء المتأخرين أربعة عشر سفرًا، هي: أشعيا، أرميا، حزقيال، يوشع، عاموس، عويديا، يونان، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفيان، حججي، زكريا، وملاخي.

(1) - بلغ موسى (ع) في القرآن الكريم برسالة ربه، ومنها ملجأه في مورة طه بدءاً من الآية 8: "هل أتاك حديث موسى. إذ رآه نازراً فقال لأهله إنني أنتم نازراً علي أنكم منها بقمين أو لجد على النار هدى. فلما أتاه نودي باموسى. إنني أنا ربك فاطع نطيك إنك بالوادي المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدي وأقم الصلاة لذكري".

بينما يسمى القسم الثالث "كتوبيم" أي الكتابات والأشعار، ويتألف من اثني عشر سفرًا، هي: مزامير داود، أمثال سليمان، أمثال أيوب، نشيد الأناشيد، راعوث، هوشع، مرثي أرميا، الجامعة، أستير، دانيال، عزرا، ونحميا.

يقسم التاريخ التوراتي إلى ثلاثة عصور رئيسية منفصلة بفترات زمنية طويلة رغم أن كتبة أسفار العهد القديم اجتهدوا بربط جميع هذه الأدوار لتبدو كأنها هي دور واحد مستمر⁽¹⁾؛

1- عصر إبراهيم الخليل الذي يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر ق.م. وباعتراف التوراة؛ كان آل إبراهيم ويعقوب (إسرائيل) مغتربين في أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين. فوطنهم الأصلي كان في حران، حيث كانت العشائر الآرامية التي ينتمون إليها قد استقرت على منابع نهر البليخ (تركية وسورية حالياً) بعد هجرتها من جزيرة العرب، ثم نزحت فروع منها إلى بابل وأور في جنوب العراق، وكان إبراهيم من ذريتها. وكانت اللغة في زمنه لغة واحدة⁽²⁾، التي موطنها الأصلي الجزيرة العربية، هي اللغة الأم التي تكلم بها إبراهيم، حيث كانت في تلك الأزمنة لغة واحدة تتكلم بها جميع القبائل العربية النازحة إلى منطقة الهلال الخصيب، وذلك قبل أن تتفرق هذه اللغة الأم إلى لهجات مختلفة ضمن كتلتها اللغوية العامة، وكانت ديانة ذلك العصر هي ديانة التوحيد والدين الحنيف الذي دعى إليها إبراهيم لعبادة الإله الواحد الأحد خالق السموات والأرض "إيل"، فيكون يعقوب: إسرائيل: هو عبد الإله إيل.

2 عصر موسى الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولغة هذا العصر كانت اللغة المصرية القديمة في بداية أمر موسى (ع)، ثم صارت الكنعانية بعد خروجه من مصر إلى جنوب بلاد كنعان. وقد آمن موسى ومن معه بديانة أخناتون التوحيدية. ولعل فكرة التوحيد الخالص في ديانة أخناتون قد دخلت مصر عن طريق هجرة يعقوب وأبنائه⁽³⁾ إلى مصر، وبذلك تكون ديانة موسى التي بشر بها هي ديانة إبراهيم. وجاء التبليغ لموسى على جبل الطور بعد خروجه من مصر. ولم يلبث أتباعه أن انحرفوا إلى الوثنية من بعده.

3- عصر اليهود الذي يرجع تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد، ولغة هذا العصر كانت الآرامية والعبرية (آرامية التوراة) التي كتبت بها التوراة. وأما الديانة فكانت ديانة (يهود) الخاصة باليهود فقط. وقد بدأ تاريخ اليهودية المتمثلة بالتوراة ببداية هذا العصر. يتبين من خلال قراءة الأدوار التاريخية أن التوراة كتبت بعد إبراهيم (ع) بألف وثلاثمائة عام، وبعد عصر موسى (ع) بأكثر من سبعمئة عام تقريباً. وهي غير التوراة⁽⁴⁾

(1) - أحمد سوسة "العرب واليهود في التاريخ"، ص 74، العربي للنشر والطباعة والتوزيع - دمشق.

(2) - المصدر السابق نفسه، ص 314. انظر أيضاً رأي د. علي فهمي عظيم، ص 124 من هذا الكتاب.

(3) - انظر ميقاتي موزة يوسف.

(4) - يؤخذ من سور القرآن الكريم أن التوراة (التي كتبها أحبار وكهنة لليهود في القرن السادس قبل الميلاد) زمن النبوة والموجدة حالياً هي غير التوراة التي نزلت على النبي موسى في سيناء. كما أشار القرآن الكريم إلى نفي ادعاء النبوة والموجدة حالياً هي غير التوراة التي نزلت على النبي موسى في سيناء.

التي نزلت على النبي موسى. ويقول كثير من المؤرخين والباحثين الغربيين، وأكثرهم من اليهود، مثل لودز في كتابه "إسرائيل": "لا نستطيع تأييد صحة رجوع تاريخ أي من الأسفار الخمسة وحتى الوصايا العشر إلى عصر موسى، وذلك لكثرة ما تعرض من روايات هذه الأسفار للتكرار وإعادة التعديل والتغيير والتوسيع والتصنيف على مر العصور. والتدقيق في العهد القديم يوضح أن الوصايا العشر أدخلت في سفر الخروج وسفر التثنية في وقت متأخر". ويعترف العالم اليهودي أ. هـ. سيلفر في كتابه "موسى والتوراة الأصلية": "إن التوراة الحالية لا تمثل توراة موسى الأصلية". ويقول العالم الألماني مورت كارت: "لا يمكن الاعتماد علمياً على أساطير التوراة، إذ برهنت الأبحاث الأثرية على عدم صحة تلك الأساطير، بل بالعكس توجد أبحاث برهنت على عكس هذه الأساطير". ويقول الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز⁽¹⁾ في كتابه "اللواتن الصادر سنة 1651م، الفصل الثالث والثلاثين: "ليس لدينا من التواريخ المؤكدة من خارج العهد القديم ما يميننا على تعيين زمن صدور أسفار الكتاب المقدس. والاستدلال العقلي لا يحسم مثل هذه القضية، لأن الاستدلال العقلي لا يثبت الحقائق الواقعة، وإنما يقتصر عمله على إثبات صحة، أو عدم صحة، النتائج المستخلصة من الواقعة. ومن الأمور التي ناقشها هوبز خبر موت موسى (ع) ودفنه كما ورد في الآية السادسة من الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر الاشتراع: "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب، ودفنه في الحواء في أرض موآب مقابل بيت فغور". ولم يعرف قبره حتى اليوم. إذ يعتقد اليهود والمسيحيون أن سفر الاشتراع هو أحد الأسفار الخمسة الموحاة إلى موسى، والتي يتكون منها ما يعرف بالتوراة. ويتساءل هوبز قائلاً: واضح أن هذه الكلمات كتبت بعد وفاة موسى ودفنه، حيث من المستغرب والمستبعد أن يخبر موسى حتى ولو كان يتكلم نبوءة الغيب، بأن قبره الذي لم يعرف إلى هذا اليوم بينما لا يزال هو على قيد الحياة. ويعد أن يفحص هوبز عدداً من الإشارات في أسفار موسى الخمسة التي كتبت بعد عصر موسى، وإن لم يستطع تحديد تواريخها على وجه الدقة. ويقول إن فحص أسفار يوشع، والقضاة (الملوك)، وراعوث، وصموئيل، يثبت بأنها كتبت في تاريخ متأخر عن الزمن الذي كان مقرراً لها. ويؤيد الفيلسوف اليهودي أسبينوزا⁽²⁾ في كتابه "الرسائل اللاهوتية" المطبوع سنة 1678 كثيراً من النتائج التي توصل إليها هوبز، وأهمها: أن أسفار موسى الخمسة كتبها أكثر من مؤلف واحد. كما برهن الأب سيمون في كتابه "التاريخ النقدي للعهد القديم" المطبوع سنة 1682، على أن أسفار موسى الخمسة كتبها أكثر من مؤلف واحد، واستنتج من تحليله للأسفار المختلفة، بل وحتى السفر الواحد

اليهود بأن إبراهيم يعقده يعقوب (إسرائيل) هم أجداد اليهود، إذ يقول في الآية 67 من سورة آل عمران: "ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً معلماً وما كان من المشركين". كما بين القرآن ارتباط إبراهيم بالجزيرة العربية والبيت الحرام، إضافة إلى أن القرآن أشار بوضوح إلى أن ديانة النبي موسى الأصلية آمنت بالبعث والنشور والجنة والنار، في حين تدخل أسفار العهد القديم من ذكر ذلك بحيث تتناهي مع الرؤية البابلية في هذا المقام.

(1) - المجلد العاشر من "عالم الفكر" الكويتية - للعدد الثاني لعام 1979 - الصفحات (525-552).

(2) - المصدر السابق.

نفسه، بأن الأساليب مختلفة في أن مادة الموضوع لا تستدعي تغييراً في الأسلوب لو كانت القطعة صادرة عن مؤلف واحد. واقترح الطبيب والكاتب الفرنسي جان أستروك في كتاب نشره سنة 1752، بأن موسى، أو كاتب الأسفار المنسوبة إلى موسى، قد اعتمد على مؤلفات سابقة في كتابة سفر التكوين.

غير أن كهنة الديانة اليهودية الذين أشرهوا على كتابة التوراة وبقية أسفارها نجحوا ببراعة نادرة على رفع سجل تاريخهم إلى أعلى منازل التقديس، وبالتالي إلى إيهام التاريخ البشري العام بأن كتابهم مقدس جاء من عند الله، وسيحل عقاب الله على من لا يصدق ما جاءوا به. فتعمدوا الخلط بين الأدوار التاريخية التي أسسوا عليها، بحيث أهملوا التسلسل الزمني وذلك بربط تلك العصور (عصر إبراهيم، وعصر موسى، والعصر الذي دونوا به التوراة في القرن السادس ق.م) ببعضها، حتى أن العالم اليهودي سيجموند فرويد كتب في ذلك قائلاً⁽¹⁾: "لقد تحرى الكهنة اليهود في سرد رواياتهم بأن يوجدوا ربطاً زمنياً مستمراً بين عصرهم الذي كتبوا به التوراة وعصر موسى، وشددوا على تجاهل وجود ثغرة في الزمن التاريخي بين شرائع موسى والديانة اليهودية المتأخرة عنها في الزمن، ثغرة ربطوها في البداية بعبادة يهوه ثم تخلصوا منها فيما بعد تدريجياً وعلى مهل. وبذلك كانت رواية الكهنة تخضع لنفس الانحراف والتشويه اللذان جعلنا من الإله الجديد (يهوه) إله الآباء والأجداد".

ومن المثير أن التوراة اعتبرت بني إسرائيل مركز الكون والحياة الإنسانية التي تدور في أفلاكها كل العوالم وأحداث التاريخ. وعدتهم موجودين في كل زمان ومكان حتى التي جاءت قبل ظهورهم، حيث أكدت التوراة وجودهم في عصر إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، واستمراهم مئات القرون إلى عهد موسى، وإلى عهد ملوكهم وانقسامهم. ويدعي اليهود الحاليون في العالم، على رأي التوراة، أنفسهم من سلالة يعقوب الذي عاش قبل 3800 عام تقريباً! فقد أرخ كتاب التوراة أحداثاً سبقت ظهورها بشمانيه قرون بالنسبة لزمان موسى والخروج، وخمسة عشر قرناً وأكثر بالنسبة لإبراهيم. فأرجعوا تاريخهم إلى عهود قديمة لم يكن لهم فيها وجود، بل إنهم أرجعوا اللغة العبرية إلى ما قبل دخولهم المزعوم إلى أرض كنعان (فلسطين) في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وأطلقوا عليها (عبرية التوراة Biblical Hebrew)، في حين أن العبرية التي دونوا بها التوراة مشتقة من الآرامية. وهم يقولون في أسطورة "الزوهر" أن الاثني عشرين حرفاً من الأبجدية العبرية نزلت من السماء قبل الخليقة بستة وعشرين جيلاً وأنها نقشَت بنار ملتهبة!

وشاع استعمال التسميات: عبراني وإسرائيلي وموسوي ويهودي كمتراذفات ليست في الواقع التاريخي إلا مصطلحات ترمز إلى أربع جماعات مختلفة عاشت أزيمة أزمنة مختلفة ومتباعدة. فتعبير عبراني أطلق على طائفة من القبائل العربية في الألف الثانية قبل الميلاد حتى أصبح التعريف مرادفاً لمن يعيش في البادية أو الصحراء. وقد وردت

(1) S. Freud, Moses and Monotheism / ميخوموند فرويد: "موسى وديانة التوحيد".

تعايير (الأبري، الهبيري، الحميرو، والعبيرو) في المصادر المسمارية الشرقية والفرعونية. لذلك، تمت إبراهيم الخليل (بالعبراني)، وبهذا المعنى وردت كلمة عبري وعبيرو وخبيرو في الكتابات القديمة التي اكتشفت مؤخراً، والتي تعود إلى ما قبل الإسرائيليين والموسويين واليهود بعدة قرون. وفي ذلك لم يشر القرآن الكريم⁽¹⁾ إلى تعبير (عبري أو عبراني). أما تعبير (إسرائيل) فيقصد به يعقوب (إسرائيل) حفيد إبراهيم وأبناؤه وأحفاده الذين ولدوا وعاشوا في حران شمال العراق، ثم انتقلوا إلى مصر في زمن لاحق للالتحاق ببيوسف أحد أبناء يعقوب، هاندمجوا وذاوبا في البيئة والحياة المصرية. وبعد ستمائة عام جاء موسى المصري بأشباعه يدعو إلى دين التوحيد الخالص الذي كان يدعو إليه أخناتون فرعون مصر، وليس إلى دين "يهود" إله اليهود الخاص بهم. وقد اضطّر موسى وأتباعه للخروج من مصر إلى الجنوب من بلاد كنعان هرباً من طغيان واضطهاد الفرعون الجديد بعدما انقلب على ما آمن به أخناتون بعد موته. وأما تسمية (يهود) فيعتقد أنها أطلقت على بقايا جماعة يهودا نسبة إلى مملكة المنقرضة، بعد أن سباهم نبوخذ نصر إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد.

هاجر يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم (ع) وعائلته إلى مصر للالتحاق بابنه يوسف (ع) حسب التاريخ التوراتي حوالي 1800 ق.م، حيث اندمجوا بشكل كلي في البيئة المصرية لأنها مكثت بين المصريين لأكثر من ستمائة عام حتى جاء موسى (ع)، فهاجر مع جماعته (قوم موسى كما ورد في القرآن الكريم) الموحدين من ديانة أخناتون إلى أرض كنعان، هرباً من اضطهاد فرعون لديانة أخناتون التوحيدية بعد موت الأخير. ومن منطلق الأشياء القول أن لغة قوم موسى هؤلاء كانت المصرية القديمة قبل خروجهم، ثم تأثروا بلغة الكنعانيين وثقافتهم وعاداتهم وحياتهم بعد ظهورهم في بلاد كنعان. لكن التوراة نسبت موسى وجماعته إلى بني إسرائيل أحفاد يعقوب (إسرائيل) وجده إبراهيم!

ويرى الكثير من الباحثين⁽²⁾ أن النبي موسى (ع) كان مصرياً آمناً وبشر بعقيدة التوحيد الخالصة التي دعا إليها أخناتون (1379-1362) ق.م. وأخناتون هو الذي كان أول من قال بعد إبراهيم بالتوحيد المطلق لعبادة الإله الواحد الأحد الذي لا إله غيره. فالإله الحق، وفقاً لعقيدته، ليس له شكل محدد، وأنه لا يُمس ولا يُرى، وليس كمثله شيء، ولا شريك له، وهو موجود في كل شيء وفي كل مكان وزمان، فهو خالق البشرية، الإله الحي الذي يحيي ويميت.. ظاهر جلي في قرص الشمس التي تهب الحياة..". بينما وصف القرآن الكريم سيدنا موسى بالنبي الذي أرسله الله لهداية بني إسرائيل. وقد قامت الديانة الأخناتونية على ثلاث ركائز أساسية، هي: الحقيقة والصدق والعدل. فالأدوار التاريخية الزمنية المتباعدة تتبع الأدوار الرئيسية الثلاثة التالية:

(1) - آل عمران، الآيات 64-67: (يا أهل الكتاب لما تحتاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، ما أنتم بملاّء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين).

(2) - Freud, 'Moses and Monotheism' / فرويد في كتابه "موسى وديانة التوحيد". ومنهم أيضاً المؤرخ اليهودي يوسفوس (37-100) م، كما أيد ذلك فيلسوف الاسكندرية اليهودي فيلون (30 ق.م-40 م).

1- عصر إبراهيم الخليل حوالي 1900 ق.م.

2- عصر موسى حوالي 1250 ق.م.

3- عصر تدوين التوراة في القرن السادس قبل الميلاد.

أي أن التوراة كتبت بعد إبراهيم بألف وثلاثمئة عام، ويعد موسى بأكثر من ستة قرون. لكن فترة موسى هي الفترة التي عدها اليهود بداية لتاريخهم دون سند علمي أو واقع تاريخي.

وينظر إلى الديانة اليهودية على أنها ديانة كهنوتية تقوم طبقة الكهنة بدور الوسيط بين جموع اليهود وإلههم "يهوه"، فهم من ينقذون الشريعة ويفسرون التوراة ويوجهون الشعب اليهودي لممارسة شعائره الدينية. وتمثل أسفار التوراة بالكراهية والدعوة لحرب الكنعانيين سكان البلاد الأصليين وإبادتهم؛ إذ "أوصى الرب موسى بواجب قتل الرجال والنساء والأطفال والشيوخ جميعاً بحد السيف حتى لا يبقى منهم حي على الإطلاق". وهذا لا يمكن بحال أن يتوافق مع شريعة موسى⁽¹⁾ التي أوحاها الله إليه قبل ثمانية قرون من كتابة الأسفار. كما لا يمكن لدين سماوي أن يأمر بإبادة الجنس البشري (الأغيار) لمصلحة أتباع الدين اليهودي الذين يؤمنون أن الله خلق الآخرين لخدمة اليهود شعب الله المختار، إلا إذا أخذنا بما يعلمهم به إلههم الخاص "يهوه": الإله القبلي الذي انحصروا بحبه بالعبادة بالشعب المختار، والقضاء على الآخرين (الأغيار).

2

أرخت الرواية التوراتية لبني إسرائيل بين (971-923) ق.م، بعد استجابة صموئيل آخر كبار القضاة لطلب بني إسرائيل بتعيين ملك عليهم إسوة بالممالك الكنعانية الفلسطينية، فتم تعيين شاوؤل كأول ملك عليهم، فخلقه داود، وسليمان.

أمر الإله "يهوه" - حسب رواية التوراة - يوشع باحتلال أرض كنعان في فلسطين. فغبر نهر الأردن شمال البحر الميت في النصف الأول من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، واحتل جميع الممالك الآمورية من بلاد كنعان، ثم قام بتوزيع هذه الأراضي على الأسباط ما عدا اللاويين. وبعد موت يوشع جاء صموئيل آخر كبار القضاة، فخلقه شاوؤل الذي أهمل تطبيق أوامر "يهوه" فخذله الرب وأوقعه بأيدي أعدائه الفلسطينيين، فقتل هو وأولاده في المعركة. وخلف داود شاوؤل بعد خمسة عشر عاماً من الحكم، وذلك في عام 1010 ق.م تقريباً. وتصنف التوراة علاقة داود (سفر صموئيل الأول، 17: 12-15) مع الملك شاوؤل وزواجه من ابنته والحرب التي نشبت بينهما حتى انتهى الأمر بفوز داود، وذلك بعد موت شاوؤل في حربه مع الفلسطينيين، فحكم داود أربعين سنة (1010-971) ق.م. فخلف سليمان أبيه داود كملك، حيث تذكر التوراة (صموئيل الثاني؛ 12:

(1) - البقرة 78: "فويل للذين يكتبون الكتب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كسبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون".

(24) أنه ابن داود من امرأته الحبشية (بتشيبا) التي كانت امرأة أوريا الحثي في الأصل. وقد حكم أربعين سنة في اورشليم (931-971) ق.م، واشتهر ببناء المعابد والهياكل، فهو الذي بنى الهيكل على ما يقولون (إلا جلب رجال حيرام وسليمان الذهب من أوهير وجلبوا الخشب والمجوهرات أيضاً، فاستعمل سليمان الأخشاب لبناء الأدرج في المعبد وفي قصره وفي صناعة الآلات الموسيقية المختلفة، حتى أن هذا الثراء لم يوجد سابقاً بأي مكان من أرض يهوذا). وزاد على ملك أبيه داود الذي ورثه حتى وصل نهر الفرات شرقاً ونهر النيل غرباً. ومن المعروف حسب التوراة أن سليمان لم يحارب في حياته، مثلما فعل والده، لأنه ملك بوعد من الرب، إضافة إلى أن السجلات التاريخية تقول أن الامبراطورية الآشورية في الشرق كانت في أعظم قوتها وعليها حكام شُهد لهم بالباس والقوة، وهم من كان يشن الحملات العسكرية المتعاقبة باتجاه الشوامئ السورية، وكان الفراعنة كذلك في مصر، فكيف يستوي ما ورد في التوراة؟ إذ شهد القرن الماشر ق.م تدفقاً هائلاً لعدد الآشوري المسلح باتجاه الشام وفلسطين إلى الحد الذي لم تستطع الممالك الآرامية القوية حينها الصمود أمام هذا الطوفان القادم من جهة الشرق، إضافة إلى أن الحوليات الآشورية التاريخية قدمت وصفاً تاريخياً متصلاً لجميع الدول والممالك المجاورة دونما إشارة أو تلميح لوجود مملكة داود وسليمان. كما أن الوثائق المصرية لم تأت بذكر أو معلومات عن هذه المملكة.

ويقول توماس طومسون⁽¹⁾ Thomas Tomson استاذ دراسات العهد القديم في جامعة كوينهاغن الدانماركية: " ذهب الاعتقاد السائد إلى اعتبار أن القصص التوراتية تمثل أحداثاً تاريخية حقيقية، فتغير الموقف تماماً بعد أن أظهرت نتائج المكتشفات التاريخية عدم وجود أدلة مادية تؤيد ما جاء في هذه القصص من أحداث وتواريخ، إذ لا يوجد دليل على مملكة إسرائيلية متعددة في فترة شاوؤل وداود وسليمان، كما لم ترد أي إشارة لهؤلاء الملوك في الحوليات التاريخية". ويعتقد طومسون أن قصص التوراة تتضمن أحداثاً تاريخية قديمة لشعوب وممالك أخرى في الشرق الأوسط جرى اقتباسها لتكون جزءاً من تاريخ مملكة بني إسرائيل، بل يذهب إلى أن دولة يهوذا التوراتية لم تظهر إلا منذ القرن الخامس قبل الميلاد زمن الحكم الفارسي، ولم يكن لها أي علاقة بدولة إسرائيل حول السامرة قبل ذلك بعدة قرون حين دمرها الآشوريون سنة 722 ق.م. وقد فشل الآثاريون بالعثور على أية بقايا للأبنية التي ورد ذكرها في قصة سليمان ضمن طبقات الأرض التي ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد. وربما اقتبست التوراة قصتها من تراث وتاريخ الأسرة الفرعونية المصرية الثامنة عشر⁽²⁾ التي امتدت مملكتها في القرن الخامس عشر ق.م عبر الفرات إلى جنوب أسية الصغرى وجنوباً حتى شلالات نهر النيل

(1) - عن كتاب أحمد ربيع عيد النعم: يلقبس بين القرآن والتاريخ، ص 99، دار مشارق، الجيزة- مصر.

(2) - سار تيمس الأول (1506-1494) ق.م على رأس جيشه إلى سورية فوصل الفرات، ثم عبر النهر عند مدينة كركميش، وكتب على نصب اقامه هناك: أن حدود مملكته تبدأ من ثرى الأرض في الجنوب إلى أطراف المياه المعطومة في الشمال (إشارة إلى مجرى الفرات من الشمال إلى الجنوب). أي من الفرات إلى النيل.

وأواسط جنوب السودان، فاستعاروا الإمتداد الامبراطوري لهذه المملكة وركبوا على مقاس الملك سليمان ومملكته.

ويعد الكتاب المقدس بمعديه القديم والجديد من أكبر الأسس التي تركز عليها ثقافة الغرب القديمة والمعاصرة. وعلى ذلك ارتكز الفكر الغربي العام إلى أن روايات العهد القديم تعتبر حقائق تاريخية شبه مسلم بها إذ من الصعب النقاش بأن رواية العهد القديم قد تكون محض خيال أو روايات أسطورية، تعتمد عن وقائع التاريخ الحقيقي في أي من مصادرها القديمة، إن كانت آشورية، آرامية، كنعانية- فينيقية، أو مصرية.

3

تروي التوراة أن ملك سليمان امتد من مصر إلى نهر الفرات، فوضع سفنه من عصبين بالقرب من إيلاء (العقبة) وسيرها نحو مملكة سبأ. وتروي التوراة أن ملكة سبأ سمعت بسليمان وحكمته وقوته فقدمت إليه بموكب عظيم دونما طلب منه محملة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والطيب والبخور واللبان والتوابل، فكان حجم الهدايا التي أحضرتها: أكثر من أربعة آلاف كيلوغرام من الذهب، وكمية كبيرة من التوابل والبهارات والمجوهرات، وكانت كمية التوابل والبهارات أكثر بكثير مما حظي به في أي وقت آخر. وذلك من أجل الاستماع إلى حكمته وعلمه والتزود منهما، وكذلك لامتحان علمه، فقابل كرمها بكرم أعظم، ثم انصرفت مع عبيدها إلى بلادها. لكن الرواية التوراتية لم تذكر اسم الملكة ولا عمرها ولا حجم مملكتها، كما لم تذكر اعتناق الملكة لدين سليمان، إضافة إلى أنها لم تشر إلى ديانتها. كما لم تذكر التوراة أيضاً سبباً منطقياً لزيارة الملكة لسليمان وهي تحمل أغلى ما عندها من النفائس إلا بغية امتحان حكمته! وبالمقابل قدم سليمان للملكة كل ما طلبته إلى جانب الكثير من الهدايا التي تكرم بها عليها. بعد ذلك ودعت سليمان عائدة مع فريقها إلى بلادها.

يشير العهد القديم إلى ملكة ومملكة سبأ بلاد البخور والعمور بموضعين (سفر الملوك الأول 1: 10-13، وسفر أخبار الأيام الثاني 9: 1-12)، إذ تروي التوراة خبر زيارة ملكة سبأ على النحو التالي:

"قامت ملكة سبأ، بعد سماعها بشهرة سليمان، بالسفر إلى اورشليم لامتحانه بجملة من الأسئلة الصعبة الحل. فأحضرت معها فريقاً ضخماً من المرافقين وقافلة من الجمال محملة بأنواع التوابل والأحجار الكريمة وكمية كبيرة من الذهب. وعند التقائها بسليمان سألته جملة الأسئلة التي كانت تدور في خلدتها، فأجاب عليها جميعاً دونما تباطؤ، حيث لم يجد أي منها محل صعوبة للإجابة عليه. استمعت الملكة إلى حكمة سليمان ورأت القصر الذي بناه، ورأت اصناف الطعام التي قدمها على مائدته، كما اطلمت على أمكنة سكن موظفيه الكبار، وعلى ترتيب قصره واللباس الموحد لهيئة أركانه من المساعدين، وعلى الذين ينتظرون خدمته على وليمة الطعام، وعلى أضحياته التي يقدمها في المعبد. فأصابها الدهول مما رأت، ثم قالت لسليمان: ما سمعته عنك وعن حكمتك في بلادتي

أراه واقعاً وحقيقياً، ولكني لم أصدق حتى جئت ورأيت به نفسي، مع أن ما سمعته لا يساوي نصف ما أراه، فجمعتك وثراؤك أعظم بكثير مما سمعت، يا لزوجاتك المحظوظات! ويا لحسن حظ خدمك وعبيدك! لتمتعهم جميعاً بامتياز حضورك وسماع أقوالك الحكيمة! الشاء والشكر إلى إلهك يهوذا! إذ رضي عنك بجعلك ملكاً على بني إسرائيل لحبه الأبدي لهم، ولتجعل العدالة والقانون سائدين بينهم^(١). غير أن قصة لقاءها بسليمان تأتي بشكل غاير في التلمود إلى حد نفي حدوثها، فيقول: "إن من يقول إن ملكة سبأ امرأة مخطئة بشكل كامل". إذ قد يعود هذا التناقض بين المصدرين إلى عمق الاختلافات في اجتهادات وتأويلات فقهاء الديانة اليهودية.

بينما يتحدث سفر أستير^(٢)، وهو أحد الأسفار الاثني عشر التي تؤلف القسم الثالث من العهد القديم تحت اسم "كتوبييم"، عن الترجوم الآرامي الذي يعد أحد النسخ الآرامية من العهد القديم، والذي يرى البعض أنه كتب بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين، بينما يرى آخرون أنه ربما كتب بعد القرن الحادي عشر الميلادي. والترجوم بمجملة تعليقات وشروحات وإضافات على العهد القديم. ويتحدث سفر أستير عن أستير كفتاة يهودية عذراء جميلة كانت من أحفاد يهود السبي البابلي، نجحت في كسب ود وإعجاب الامبراطور الفارسي أحشويروش (465-485) ق.م. فجعلته يتزوجها، مما مكنتها من إنقاذ أبناء جلدتها من محاولة اضطهاد الوزير الفارسي الأول هامان، فنجحت بالتحصل من أعداء اليهود في البلاط الفارسي. المهم أن ترجوم أستير (لا يوجد سند تاريخي لرواية أستير) تحدث بإسهاب عن لقاء سليمان بملكة سبأ بادئاً باستدعاء سليمان، وهو يعيش لحظة ابتهاج عالية، جميع ملوك الشرق والغرب حول مملكته، وإحضار جميع المخلوقات الإنسية والجنية والحيوانات بما فيها الطيور والزواحف والحشرات، وذلك دون إصدار أي أوامر أو إشارة لجنوده وتابعيه، وإنما كان هذا الاستدعاء الشامل قد تم بمجرد رغبة الملك سليمان. ولما حضروا جميعاً بين يدي الملك تفقد طائر الهدد فلم يجده، فغضب وتوعد بقتله. فلما حضر الطائر قص على سيده قصة البلاد الغنية بكل شيء، والتي تحكمها امرأة تعرف باسم ملكة سبأ، وأن شعب هذه المملكة ليس شعباً محارباً، فسر سليمان بعد غضب، وكتب رسالة يرسلها على جناح الهدد ليخلق مع الطيور إلى الملكة لتسليمها الرسالة التي تدعوها للحضور إليه لتقديم فروض الطاعة والولاء، حيث بين فيها قوته وجبروته وقدرته وتحكمه بمصائر الإنس والجن وسائر المخلوقات. وأبلغها أن حضورها سيتوج باحترام يفوق كل ما أبداه لجميع الملوك، وإلا سيرسل إليها ملوكاً وفيالفاً لا تقدر على مجرد التفكير في مواجهتها. فلما قرأت الملكة الكتاب اعترافاً بالخوف على مملكتها فاستدعت أركان دولتها وشاورتهم في أمر الكتاب وما يجب فعله، فأشاروا إلى

(١) - يدر التضمين الدولي واضحاً في نظم التوراة لكلمة بلقيس التي خاطبت بها سليمان، حيث جعل الملكة تشعر بالحمد من زوجات وعبيد سليمان موحياً بظرة التوراة الدولية لملكة سبأ. ولضخاً، كيف تشكر يهوذا إله سليمان التوراتي وهي لم تؤمن به؟ خطاب من الصعب تصديق بيلانه من ملكة تدعى تل ضيفة على مضيفها.

(٢) - زياد مني: بلقيس لغز ملكة سبأ، ص 133، دار قدس - دمشق.

عدم معرفتهم بهذا الملك وأنهم لن يهتموا بأمره فهم ذو قوة ومنعة، إلا أن الملكة لم تتركز إلى رأيهم بل قررت إرسال هدايا ثمينة إلى سليمان حملتها على سفن بحرية ومعها رسالة تعد سليمان بأنها سلتني رغبته خلال ثلاث سنوات. وعندما حان موعد زيارتها أرسل سليمان بنهاو بن يهوديا الجميل الطلعة لاستقبالها. فلما رآته ترجلت من عربتها ظانة أنه الملك سليمان، غير أنه أبلغها أنه رسول الملك إليها، فالتفتت إلى بعض حاشيتها وقالت: إنكم لم تروا اللبث، بل رأيتم جمال الشاب الذي يقف مستعداً بحضوره. ولما دخلت على سليمان وهو يجلس في بيت زجاجي حسبته يجلس وسط نجة من الماء، فرفعت تنورتها لتتمكن من العبور نحوه، فظهر الشعر على ساقها، فقال سليمان: جمال امرأة وشعره شعر رجل، والشعر زينة للرجال ومعيب للمرأة. فالتصبت الملكة في الحال وخاصيته قائلة: سيدي الملك، سأسألك ثلاثة أسئلة إن تمكنت من حلها سأومن بأنك رجل حكيم، وإن لم تتمكن من حلها تكون مثل باقي البشر. ثم بدأت تسأله وهو يجيب، فتبين لها أنه رجل حكيم لأنه أجاب على جميع ألفاظها، فأدركت أنه ليس كباقي البشر.. فاشت عليه وأيدت ما شاهدهت بنفسها إذ لم تكن تصدق ما سمعته عن إعجاز سليمان. وأظهرت تأثرها الشديد باصطفاء الرب لسليمان ومنحه ملكاً ليس كمثلته ملك لإقامة القضاء والمساواة والعدالة. ثم قدمت له هداياها الثمينة من الذهب والفضة والجواهر، وبالمقاب قدم لها سليمان كل ما رغبته به.

تعرضت بعض التراجم اليهودية الأخرى بشكل سريع إلى ملكة سبأ، فحولتها إلى شيطانة أوغولة شريرة يكسو الشعر ساقها. كما ساق كتاب ألف باء سيراسيدس⁽¹⁾، الذي يعود تأريخه إلى العصور الوسطى، وكتاب اليهودي اليميني ابن يوسف، في روايتهما عن ملكة سبأ؛ رواية خرافية تتحدث عن لقاء يوشع بن سيراخ بالملك البابلي نبوخذ نصر (الذي سبى اليهود) ابن ملكة سبأ من سليمان؟

والواضح أن الهدف الأساسي من مجمل الروايات اليهودية عن ملكة سبأ ولقائها بسليمان هو التركيز على سليمان ومملكته كصاحب الصولجان والقوة والمنعة على معظم مخلوقات الإنس والجان والحيوانات والطير يحركها كيفما شاء بمجرد خاطر، كما تركز على حكمته غير المحدودة. وقد أشارت الرواية التوراتية إلى عودة الملكة إلى بلادها بعد لقائها بسليمان، بينما اختلفت نهاية اللقاء في التراجم الأخرى. وقد اتخذ التراث الديني اليهودي بالإجمال موقفاً معادياً من الملكة وصورها بأنها قرينة الشيطان إن لم تكن الشيطان نفسه.

لم يتأخر التراث الديني المسيحي في روايته عن بلقيس ملكة سبأ عن اللحاق باليهودي، فإشار التراث الديني القبطي إليها بملخص الرواية التالية⁽²⁾: لما فرغ سليمان من بناء الهيكل، قضى الرب بانتقال مملكة داود وسليمان إلى بلاد الحبشة المباركة فجعل ملكة اليتيم: ملكة الجنوب، التي كانت تحكم على اليمن والحبشة، تقوم بالسفر إلى

(1) - زياد مكي: بلقيس لغز ملكة سبأ، ص 151، دار قمس - دمشق.

أورشليم للقاء سليمان والاستماع إلى حكمته. وكانت ملكة التيمن هذه قد ولدتها أمها برجل على شكل رجل عنزة سميئة وجميلة كانت رأتها فأعجبت بها خلال حملها، فجاءت رجل من رجلي الطفلة على شكل رجل العنزة التي أعجبتها. وقد رفضت بلبقيس الزواج بسبب رجلها حتى أصبحت ملكة. فلما سمع سليمان بقصتها دعاها لزيارته، وجلس على كرسيه الملكي الذي نصبه في وسط ساحة القصر البلورية فوق الماء. فلما دخلت الملكة عليه رفعت طرقي ثوبها لكيلا يبتلا بالماء فظهرت رجلها العنزاوية لسليمان، إلا أن هذه الرجل تغيرت إلى رجل أنثوية حاملا لمست، دونما قصد، قاعدة الخشب المقدسة الموجودة في كرسي سليمان، ففاجأتها رعدة عظيمة من السرور والابتهاج، فأيقنت بقدرة سليمان غير الطبيعية، فقام سليمان وأجلسها معه على كرسيه الملكي. فوقعت رغبة سليمان بامتلاك ضيفته الجميلة، إلا أنها رفضت الاستجابة له، فأعد لها وليمة فخمة من الأطعمة اللذيذة الحارة بغية استزادتها بطلب شرب الماء، ثم أمر ألا يترك شيء من الماء بجانب سريرها، بل بجانب سريره. وبعد أن ذهبت الملكة للنوم أحست بمطش شديد فبحثت عن الماء ولم تجده إلا بجانب سرير الملك، فأصبحت له على ناموسه، فحملت منه. وسألته وهي تستعد للعودة إلى بلادها عن مصير طفله إن كان ذكراً، فطلب منها أن ترسله إليه ليجعله ملكاً. فولدت له ولداً ريته تربية الملوك، ثم أرسلته إلى سليمان بعدما وصل سن البلوغ. فلما وصل إلى سليمان ألبسه تاج أبيه داود وأعلن أن: هذا هو داود بن سليمان بن داود ملك إسرائيل. بعد ذلك قرر داود ضد رغبة والده سليمان أن يغادر إلى أرض النجاشي ليكون ملكاً عليها. وبقيت سلالة داود تحكم الحبشة حتى ميلاد السيد المسيح، وادعى الامبراطور الحبشي هيلاسيلاسي سليل الأسرة السليمانية الأكسومية، الذي اسقط حكمه الانقلاب العسكري سنة 1974م، بأنه الحاكم الخامس والعشرين بعد المائتين من نكاح سليمان لبليقيس ملكة الجنوب المسماة "مكدأ": ملكة أكسوم القديمة. ورغم امتداد دولة اليمانيين إلى القرن الأفريقي في القرن السابع قبل الميلاد، فإن الرواية تفقد إلى أسس علمية. ومع ذلك جعل الإنجيل من بليقيس ملكة الجنوب شخصية تتميز بموقع فريد في التراثين: المسيحي القبطي والمسيحي الحبشي. ويزعم نجاشيو الحبشة انتسابهم إلى ملكة الجنوب حتى أصبحت تمثل هويتهم الوطنية الحبشية (الأكسومية).

وفي "ملحمة كبرانجست"⁽¹⁾: عظملة الملوك التي عثر عليها ضمن مخطوطات المكتبة الملكية في كنيسة صوفيا، يقدم دوماتيوس بطريرك الروم عرضاً لملكة انعام المقسمة بين ملك الروم ونجاشي الحبشة، بحيث جعل ملك روما يبدأ من منتصف أورشليم حتى الشمال والجنوب الغربي (أوربة) المعروفين في العالم القديم في ذلك الزمان، وتبدأ حصة النجاشي من المنتصف الثاني لأورشليم حتى نهاية الجنوب وإلى غرب الهند. وقد خاطب السيد المسيح اليهود الذين تأمروا على صليبه قائلاً: "ستقوم ملكة الجنوب يوم الحساب مع هذا الجيل (يقصد اليهود) وتحكم عليه لأنه لم يسمح كلامي، وهي جاءت من أقاصي

(1) - المصدر السابق، ص 166.

الأرض لتستمع إلى حكمة سليمان". وبعد أن أقامت عند سليمان لفترة أشهر قضياها معاً في الحوار حول الخالق الحي الدائم المحيي والمميت، رب البشر والملائكة والكون والوجود، تركت عبادة الشمس والنجوم وأسلمت لرب سليمان، ثم أعلمته بنيتها العودة إلى بلادها، وكان قد أسره جمالها، فرفض إليها أن تقضي ليلتها الأخيرة في مخدعه، فطلبت وقتاً للتفكير في الأمر، معتقدة أن رغبة سليمان تتطوي على عرض بالزواج. فوجئ سليمان لما فسرت له بلبقيس ما فهمته، لأن نيته كانت القيام بفعل الحب معها دون الزواج منها. وحفاظاً على كرامته وهيبه ملكه لم يستطع التراجع، فقرر وضع بعض الشروط عليها إن قررت زيارته تلك الليلة، والتي من أهمها أن تحترم شخصه كملك وإن تحافظ على مملكته. لكن نية سليمان كانت الفوز بالملكة، فتآمر للإيقاع بها بأن أعد لها وليمة عشاء ضخمة من أطايب الطعام وفنلها بكل أنواع التوابل التي تزيد الرغبة في الطعام من أجل أن يجعلها تشمر بالظمأ الشديد. فلما شعرت بالحاجة القوية إلى الماء لم تجده إلا في مخدع سليمان، فاضطرت أن تشرب الماء من إبريق سليمان، فاعتبر سليمان أن بلبقيس قد أخذت باتفاقهما، لأنها يشربها الماء الخاص به قد اعتدت على ممتلكاته، ثم رفض أن يأتيها بمزيد من الماء إن لم تلب رغبته في الفرائش، مما اضطرها للنوم في سريره، حيث استمتع بحيوية عذريتها وجمالها وجسدها الطاهر. ولم يكن بنيتها الزنا وإنما كان دافعه حكمة الإلهام لزيادة نسله في الأرض؛ فلما نام ظهر له نور ساطع ينزل من السماء وينشر ضياؤه على أرض إسرائيل، ويكمل، بعد توقف، إلى أرض الحبشة، حيث يستمر بضياؤه السماوي على الحبشة إلى الأبد. فعلق قائلاً: بينما كنت انتظر عودة الضياء إلى إسرائيل ارتفع نور أقوى إلى السماء وهبطت منه شمس في بلاد يهوذا، لكن إسرائيل تعاملت معه بسوء ورفضت السير بنوره، بل حاولوا إطفاءه، لكن النور ذهب فأضاء روما وبلاد الحبشة، فاستيقض سليمان وفكره مشوش من هذا الحلم.

قدم سليمان خاتمه إلى الملكة التي استعدت للرحيل إلى بلادها، كي يكون علامة لنسله منها، وأخبرها عن حلمه، وقال: لتكون بلاد الحبشة (بلادك) مباركة بإذن الرب. ثم ودعها وقدم لها الهدايا. وبعد أشهر الحمل وضعت الملكة طفلاً ذكرًا أسمته "ابن الحكيم: منليك الأول" الذي أصبح فيما بعد أول ملوك الحبشة. ولما كبر الولد طلب التعرف على والده، فذهب إليه فأجلسه على العرش بعد أن سماه داود، ثم ملكه على الحبشة.

ولأن سليمان أخلف وعده الرب⁽¹⁾ بأن عبد إلهي مؤاب وآمون وبني لهما المنعبد، وتزوج من نساء كثيرات غير يهوديات، وبني معابد لآلهتهن، أمر الرب بتمزيق⁽²⁾ مملكته بعد موته سنة 931 ق.م. فلماذا يعاقب الرب سليمان بعد موته؟ وما ذنب المملكة بعد موت سليمان بعدما عبد الأصنام وتزوج من نساء كثيرات غير يهوديات؟

(1) - العهد القديم، سفر الملوك الأول 11: 1-41.

(2) - العهد القديم، سفر الملوك الأول 12-18.

انقسمت القبائل اليهودية بعد موت سليمان بين شمال وجنوب، فانقسمت المملكة نتيجة لذلك إلى مملكة إسرائيل في الشمال، ومملكة يهوذا في الجنوب. وكان أول من غزا الملكتين بعد الانقسام الفرعون الليبي الأصل شيشنق الأول سنة 926 ق.م، فأخضعهما وأخذ معه أسرى من مدنها. ثم جاء تغلات بلاسر الآشوري (745-727) ق.م فاستولى على مملكة إسرائيل. ثم غزاهم سرجون الثاني، ففرضي نهائياً على مملكة إسرائيل. وفي 701 ق.م حمل سنجاريب على مملكة يهوذا فأجلى الكثير منهم عن مدنها. وجاء من بعده نبوخذ نصر الكلداني في حملته سنة 597 ق.م على أورشليم وأسر ملكها وسبي يهودها إلى بابل، ثم وقع السبي الثاني سنة 586 ق.م، حيث قضى نهائياً على مملكة يهوذا.

الرواية العربية

اجتهد الإخباريون العرب في رواياتهم قبل الإسلام على المصادر اليهودية بالأساس تنقل أخبار سيرة ملكة سبأ ولقائها بسليمان. والاختلاف كبير بين آراء الإخباريين في تحديد اسم وتسبب ملكة سبأ (الملكة الحميرية اليمانية). إذ لا يوجد تاريخ لسنة ولادتها ووفاتها. والسند الأساس لوجودها وسيرتها مستمد من التراث الديني المشترك لليهودية والمسيحية، ومن التراث الإسلامي، مع الاختلاف في التفاصيل والمعاني والمقاصد بين التراثين. ويمكن القول أن رواية بلقيس العربية تطورت تفاصيلها من روايتها الأسطورية-الخرافية- التاريخية، حيث بدأ تركيبها من قصة مأخوذة عن ملكة ما حكمت سبأ، وكانت مثلاً للحكمة والسلطان والثروة، وارتبطت بالملك سليمان بن داود رمز القوة والحكم على معظم المخلوقات من إنس وجن وحيوان وطير، ثم جاء الربط النهائي بالقصة القرآنية التي توجت ملكة سبأ يعقد من الإيمان بالإله الواحد مع النبي سليمان.

وتتحدث رواية ابن الأثير⁽¹⁾ عن نسبها وملكها وما جرى معها، فتقول: (اختلف العلماء في أسماء آبائها، فقيل: هي بلقمة ابنة ليشرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقيل: هي بلقمة ابنة هادد واسمه ليشرح بن تبع ذي الأذعار بن تبع ذي المنار بن تبع الرايش، وقيل في نسبها غير ذلك لا حاجة إلى ذكره.

وقد اختلف الناس في التبعية وتقديم بعضهم على بعض وزيادة في عددهم ونقصان، اختلافاً لا يحصل الناظر منه على طائل، وكذا أيضاً اختلفوا في نسبها اختلافاً كثيراً، وقال كثير من الرواة: إن أمها جنية ابنة ملك الجن واسمها راحة بنت السكر. وقيل: اسم أمها بلقمة بنت عمرو بن عمير الجني، وإنما نكح أبوها إلى الجن لأنه قال: ليس في الإنس لي كفاءة، فخطب إلى الجن فزوجوه.

واختلفوا في سبب وصوله إلى الجن حتى خطب إليهم فقيل: إنه كان لهجاً بالصيد، فريما اصطاد الجن على صور الأطباء فيخلى عنهن، فظهر له ملك الجن وشكره على

(1) - ابن الأثير: "الكامل في التاريخ"، ج 1، الصفحات (230-234).

ذلك واتخذهُ صديقاً، فخطب ابنته فأنكحه على أن يعطيه ساحل البحر ما بين يبرين (هرمز) إلى عدن؛ وقيل إن أباهما خرج يوماً متصيداً فرأى حيتين تقتتلان ببيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فأمر بقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها ماء، فهاقت، فأطلقها وعاد إلى داره وجلس منفرداً، وإذا معه شاب جميل، فذعر منه، فقال له: لا تخف أنا الحية التي أنجيتني، والأسود الذي قتلته غلام لنا تمرد علينا وقتل عدة من أهل بيتي؛ وعرض عليه المال وعلم الطب، فقال: أما المال فلا حاجة لي به، وأما الطب فهو قبيح بالملك، ولكن إن كان لك بنت فزوجنيها، فزوجه على شرط أن لا يغير عليها شيئاً تعمه ومتى غير عليها فارقته، فأنجاه إلى ذلك، فحملت منه فولدت له غلاماً فألقته في النار، فجزع لذلك وسكت للشرط، ثم حملت منه فولدت جارية ألفتها إلى كلبه فأخذتها، فعضم ذلك عليه وصبر للشرط، ثم إنه عصي عليه بعض أصحابه فجمع عسكره فسار إليه ليقاتله وهي معه، فأنتهى إلى مقارعة، فلما توسطها رأى جميع ما معهم من الزاد يخلط بالتراب، وإذا الماء يصب من القرب والمزواد، فأيقنوا بالهلاك وعلموا أنه من فعال الجن عن أمر زوجته، فضاق ذرعاً عن حمل ذلك، فأتاها وجلس وأومأ إلى الأرض، وقال: يا أرض صبرتي لك على إحراق ابني وإطعام الكلبة ابنتي ثم أنت الآن قد فجعتنا بالزاد والماء وقد أشرقتنا على الهلاك! فقالت المرأة: لو صبرت لكان خيراً لك، وسأخبرك: إن عدوك خدع وزيرك فجعل السم في الأزواد والمياه ليقتلك وأصحابك، فمر وزيرك ليشرب ما بقي من الماء ويأكل من الزاد، فأمره فامتنع، فقتله، ودلتهم على الماء والميرة من قريب وقالت: أما ابنك فودعته إلى حاضنة تربيته وقد مات، وأما ابنتك فهي باقية، وإذا بجويرية قد خرجت من الأرض، وهي بلبقيس، وفارقتها امرأته وسار إلى عدوه فقطر به. وقيل في سبب نكاحه إليهم غير ذلك، والجميع حديث خرافة لا أصل له ولا حقيقة.

وأما ملكها اليمـن فقيل: إن أباهما فوض إليها الملك فملكته بعدهم، وقيل: بل مات عن غير وصية بالملك لأحد. فأقام الناس ابن أخ له، وكان فاحشاً فاسقاً لا يبلغه عن بنت قيل ولا ملك ذات جمال إلا أحضرها وفضحها، حتى انتهى إلى بلقيس ابنة عمه، فأراد ذلك منها فوعده أن يحضر عندها إلى قصرها وأعدت له رجلين من أقاربها وأمرتهما بقتله إذا دخل إليها وانفرد بها، فلما دخل إليها وثبا عليه فقتلاه. فلما قتل أحضرت وزراءه ففرعتهم فقالت: أما كان هيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته ثم أرثهم إياه قتيلاً، وقالت: اختاروا رجلاً تملكونه. فقالوا: لا نرضى بغيرك، فملكوها. وقيل: إن أباهما ثم يكن ملكاً وإنما وزير الملك، وكان الملك خبيثاً، فبيع السيرة يأخذ بنات الأفيال والأعيان والأشراف، وإنها قتلته، فملكها الناس عليهم.

وعظموا ملكها وكثرة جندها أيضاً، فقيل: تحت يدها أربعمائة ملك، كل ملك منهم على كورة، مع كل ملك منهم أربعة آلاف مقاتل، وكان لها ثلاثمائة وزير يديرون ملكها، وكان لها اثنا عشر قائداً يقود كل قائد اثني عشر ألف مقاتل.

وبالخال آخرون مبالغة تدل على سخف عقولهم وجهلهم، فقالوا: كان لها اثنا عشر ألف قيل، تحت كل قيل مائة ألف مقاتل، مع كل مقاتل سبعون ألف جيش، في كل جيش سبعون ألف مبارز، ليس فيهم إلا أبناء خمس وعشرين سنة. وما أضن الساعة راوي هذا

الكذب الفاحش عرف الحساب حتى يعلم مقدار جهله، ولو عرف مبلغ العدد لأقصر عن إقدامه على هذا القول المصغيف.

وقالوا: أنفقت على كوة بيتها التي تدخل الشمس منها فتسجد لها ثلاثمائة ألف أوقية من الذهب، وقالوا غير ذلك، وذكروا من أمر عريشها ما يناسب كثرة جيشها، فلا نطول من الكذب بذكره. وقد تواصلوا على الكذب والتلاعب بعقول الجاهل واستهانوا بما يلحقهم من استجهال العقلاء لهم، وإنما ذكرنا هذا على قبحه ليقف بعض من كان يصدق به عليه فينتهي إلى الحق^(١).

أشار ابن جرير الطبري إلى بلقيس في "تاريخ الأمم والملوك" إلى أنها بلقمة أو يلقة بنت اليشرج أو ابن ذي شرح.. بن يشجب بن قحطان بن يعرب. ويشير ابن حزم الأندلسي في "جمهرة أنساب العرب" إلى أن شدد بن زرعة من حمير هو زوج بلقيس، ويلقيس من بني تبع وهم من حمير بن سبأ بن يشجب بن قحطان، كما يشير أبو محمد الحسن بن أحمد يعقوب الهمداني في "الإكليل" إلى شرح بن شرحبيل جد بلقيس، وأن زوجها هو شدد بن زرعة، ويبان ذلك قول تبع حين ذكر بلقيس: عمتي الخير ومن نال مطلع الشمس خالي. وسجل المسعودي اسمها في "مروج الذهب": يلقيس بنت الهمداه بن شرحبيل بن عمرو الرائش. وكتب ابن خلدون في "تاريخه" نقلاً عن المسعودي أن اسمها هو يلقة بنت الشرح بن الحرث بن قيس، ونقلاً عن الحسن الجرجاني: "... حتى نشأت بلقيس بنت اليشرج بن ذي جدر بن اليشرج بن الحرث بن قيس بن صيفي ققتلته غيلة، ثم ملكت...". وذكرها قاموس تراجم "الأعلام" لخير الدين الزركلي^(٢)، فقال: "بلقيس بنت الهمداه بن شرحبيل، من بني يعفر بن سكيك، من حمير: ملكة سبأ. يمانية من أهل مأرب. أشير إليها في القرآن الكريم ولم يسمها، وليت بعد من أبيها (في مأرب) وطمع فيها ذو الأذعار (عمرو بن أبرهة) صاحب غمدان، فزحف عليها، فانهزمت، ورحلت مستخفية بزي أعرابي إلى الأحقاف، فأدركها رجال ذي الأذعار فاستسلمت، وأصابته منه غرة في سكر، ققتلته، ووليت أمر اليمن كله، وانتادت لها أقبال حمير، فزحقت بالجيوش إلى بابل وفارس، فخضع لها الناس، وعادت إلى اليمن فاتخذت مدينة سبأ قاعدة لها. وظهر سليمان بن داود، النبي الملك الحكيم، بتدمر، وركب الرياح إلى الحجاز واليمن، وآمن اليمانيون بدعوته إلى الله، يعد أن كانوا يعبدون الشمس. ودخل مدينة سبأ فاستقبلته بلقيس بحاشية كبيرة وتزوجها، وأقامت معه سبع سنين وأشهرًا، وتوفيت هدهنًا بتدمر^(٣). وانكشف تابوتها في عصر الوليد بن عبد الملك، وعليه كتابة تدل على أنها ماتت

(١) - إلى هنا تنتهي رواية ابن الأثير، قبل أن يبدأ بالحديث عن لقاء سليمان حسب النصوص القرآنية.

(٢) - المجلد الثاني، الصفحات (73-74)، دار العلم للملايين.

(٣) - انظر (زكريا): تدمر الموقع والتاريخ، ص 267. ويكتب شوان الحميري في "شمس العلوم": "تدمر مدينة بالثمام مبنية بحطام الصخر فيها بناء عجيب سميت بتدمر الملكة العمليقة بنت حسان بن أدينة لأنها أول من بناها، ثم سكنها سليمان بن داود (ع) بعد ذلك فبنت له الجن بناء عظيمًا فتسبت اليهود والعرب بناؤه إلى الجن لما استعظموه، وقال النابغة الذبياني: وحطس الجن أي قد أننت لهم بيتون تدمر بالصفايح وبالعمد

لإحدى وعشرين سنة خلت من ملك سليمان، ورفع غطاء التابوت فإذا هي غضة لم يتغير جسمها، فرفع ذلك إلى الوليد، فأمر بترك التابوت في مكانه وأن يبنى عليه بالصخر.

وعرف الإخباريون العرب بلقيس بعدة أسماء: ملكة سبأ، بلقمة، بلقمة، بلقة، بلقه، يلقة، يلقة، ألمقة، والمقة. وقد رأى نشوان الحميري بأنه لو كان اسم الملكة هو بلقيس لما نشأت الحاجة إلى إطلاق أسماء أخرى عليها. ويلقة والمقى في اللغة الحميرية هي اسم نجم الزهرة، وما ألمقة إلا اسم القمر؛ الإله العربي الجنوبي. لكن، مع كل هذا الجدل لم تظهر النقى الأثرية أو الحوليات التاريخية القديمة أي شيء يشير إلى الاسم بلقيس.

وقد اجتهد بعض الباحثين⁽¹⁾ بالقول أن اسم بلقيس هو دمج ليمل وقيس ليصبح بلقيس، وأشار آخرون أنه جاء من الكلمة اليونانية (بالاكيس/بالاقيس) pallakis (Pallaxis) التي تعني باليونانية عشيق (عشيقة سليمان)، وجاءت عند المؤرخ اليهودي يوسفوس: نوكليس/نقوليس/نوفاليس، وعريت إلى نوفلة. كما يمكن أن تكون التسمية كنية في الأصل؛ مشكلة من كلمتين إحداهما الاسم قيس. ويذكر ابن الكلبي في "جمهرة النسب" قيساً ضمن شجرة نسب بلقيس. فهي بنت القيس كقولهم: ابن القيس أو أبو القيس، فتصبح الكلمتان بعد الدمج ودرج الكلام بلقيس، ثم جرى كسر القاف بعد ذلك قياساً على ما هو مشهور في مثل ذلك كما تنتهي كلمتا أبو الفقيه أو ابن الفقيه إلى بلقيس، وأبو القاسم إلى بلقاسم. ولم تذكر التوراة اسم بلقيس، بل نعتها كتب التراث اليهودي بملكة سبأ، وملكة التيمن، وملكة الجنوب، بينما لم يسمها القرآن الكريم. أما المصادر العربية الرئيسية فتذكرها بالاسم بلقيس خاصة في كتاب "التيجان" لابن هشام، وكتاب الإكليل للهمداني، والقصيدة الحميرية لنشوان الحميري، والتي تقول بعض أبياتها:

أَمْ أَيْنَ بَلْقَيْسُ الْعَظْمُ عَرْشُهَا أَوْ صَرَحَهَا الْعَالِي عَلَى الْأَضْرَاحِ
زَارَتْ سُلَيْمَانَ الَّتِي بَتَدْمَرُ مِنْ مَارِبٍ دِيناً يَسْلُ اسْتِنَاحِ

غير أن المصادر العربية لا تورد اشتقاقاً مقديماً لهذا الاسم، ويدخله البعض مثل ابن دريد ضمن الأسماء الحيرية التي لا تقف لها على اشتقاق لأن لغتها قد بدعت وقدم العهد بمن كان يعرفها. ويفرد بذلك نشوان بن سعيد الحميري الذي قدم اشتقاقاً للاسم في "شمس العلوم"، فقال: وبلقيس اسمان جملاً اسماً واحداً مثل حضرموت وبعليك وذلك أن بلقيس لما ملكت بعد أبيها الهدهاد قال بعض حمير لبعض: ما سيرة هذه الملكة من سيرة أبيها؟ فقالوا: بلقيس، أي بالقاسم، قسميت بلقيس. والظاهر أن روايات الإخباريين العرب كانت ترى أن الاسم بلقيس إنما هو لقب للملكة، وأن اسمها الحقيقي لم يكن بلقيس. وفي ذلك كله يقع خلاف عظيم بين النسابة العرب!

ونذكر البكري في "معجم ما استعجم": "تدمر مدينة بالبرية على طريق الشام بنتها الجن لسليمان". غير أن أهل تدمر - حسب ياقوت "معجم البلدان"، ج2، ص 17، يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود بأكثر مما بيننا وبين سليمان، ولكن الناس إذا رأوا بناءً عجيباً جعلوا يأنبه أضاقوه إلى سليمان وإلى الجن.

(1) - انظر آراء المستشرقين في كتاب زياد مكي "القيس لغز ملكة سبأ"، ص 55.. وما بعدها.

وقال أبو أسامة اللغوي بلقيس اسم أعجمي على فعليل بفتح الباء فعرته العرب فقالوا بلقيس بكسر الباء لأنه ليس في كلامهم فعليل بفتح الباء، وبلقيس بنت يشرح ملكة سبأ. ويقال أنها بلقيس بنت اليماني بن الحارث بن قيس، وأنها ملكة سبأ شرح بعد الهدهاد ذي الصرح سبع سنين، وتزوجت شدد بن زرة بن سبأ، وأقامت أربعاً وعشرين سنة. وقال ابن قتيبة: كانت أفضل الناس وأعقلهم وأحزمهم في زمانها، فكان من أمرها وأمر سليمان ما قصه الله في كتابه العزيز، ويقال أن سليمان تزوجها فولدت له داود بن سليمان الذي مات في حياة أبيه، ويقال بل زوجها رجلاً من المقاتل فسرحها إلى ملكها، وكان يأتي بلدها كل شهر. وقال (أي ابن قتيبة): ثم ملكت بلقيس بنت هدهد عشرين سنة باليمن، ثم أتت سليمان بن داود إلى فلسطين، ويقال أنها بنت بأرض سبأ المسناة التي يقال لها العرم، وأن ذلك قبل ملك النابغة، وقيل العرم بناء لقمان بن عاد الأخيرة فأخربه الدهر، ورُممته بلقيس، فبقي العرم بعدها، حتى أضرب به سيل العرم قبل دولة الإسلام بأربعمائة سنة.

وقال غيره: اختلف في بلقيس، فقيل هي بنت جمشاد ملك الفرس، وقيل كانت أمها من الجن، واسمها بلقيس بنت شيصيان، وبنو مالك وبنو الشيصبان بطنان من الجن. ويروى عن ابن عباس أنه قال كانت أم بلقيس من الجن يقال لها بلقيس بنت شيصبان، وقيل هي بلقيس بنت ذي شرح، وأما العمدة، وقيل هي بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو ذي الإذعار بن أبرهة ذي المنار بن الرايش على أحد الأقوال، ملكة بعد أبيها، ثم ملك بعدها ياسر نعم. وذكر من طريق محمد بن جرير عن مسلمة بن عبد الله بن رعي قال لما أسلمت بلقيس تزوجها سليمان بن داود، ومهرها بعليك، وعن اسحاق بن الربيع الخطار سئل الحسن عن ملكة سبأ، وقالوا إن أحد أبويها جني، فقال الحسن الجن لا يتوالدون، ورأيت أن المرأة من الإنس لا تولد من الجن. وقال مجاهد أنه كان تحت يدها اثني عشر ألف قيل تحت كل قيل مائة ألف، وقال بلغني أنها امرأة تسمى بلقيس، قدميها مثل حافر الدابة، وكانت في بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة يزيدون اثني عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل، وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أيام من صنعاء، فلما جاء الهدهد بخبرها إلى سليمان، كتب الكتاب ويمته مع الهدهد، فجاءها وقد غلقت الأبواب، وكانت تغلق أبوابها وتضع مفاتيحها تحت رأسها، فجاء الهدهد فدخل من الكوة فألقى الصحيفة عليها، فأخذتها فقرأتها، فإذا بها من سليمان. وقال بقية بن الوليد عن الأوزاعي، قال: كسر برج من أبراج تدمر فأصابوا به امرأة حسناء مدججاء مدرجة مدمجة، كأن أعطافها على الطوامير المدرجة، عليها عمامة طولها ثمانون ذراعاً، مكتوب على طرف العمامة بالذهب: "بسم الله الرحمن الرحيم، أنا بلقيس ملكة سبأ، زوجة سليمان بن داود، ملكة الدنيا كافرة، ومؤمنة، ملكة ما لم يملكه أحد قبلي، ولا يملكه أحد بعدي، ثم صار مصيري إلى الموت، فاقصروا يا طلاب الدنيا".

ويقال أن سبب تزويج أبيها من الجن أنه كان وزيراً لملك عات يفتصب نساء الرعية، وكان الوزير غيوراً فلم يتزوج، فصحب في الطريق رجلاً سألته: أما لك من زوجة، فاجابه: لا أتزوج أبداً، فإنَّ ملك بلادنا يفتصب النساء من أزواجهن، فقال له لأن تزوجت ابنتي لم ينصبها أبداً، فقال له: بل ينصبها، فقال: إنا قوم من الجن لا يقدر علينا، فتزوج ابنته فولدت له بلقيس، ثم ماتت الأم، وأبتى لابنته بلقيس قصراً في الصحراء، فتمي إلى الملك خبرها، فقال لأبيها: أعندك هذه البنت الجميلة ولا تأتيني بها، فأمر بحبسها، فأرسلت بلقيس إليه إني بين يديك، فتجهز للمسير إلى قصرها، فلما هم بالدخول بمن معه خرجت إليه جوارى من بنات الجن مثل صورة الشمس، فقلن له: ألا تستحي، تقول لك سيدتنا أتدخل بهذه الرجال على أهلنا، فأمرهم بالانصراف ودخل وحده، فأغلقت عليه الباب وقتلته بالنعال ثم قطعت رأسه وألقت به إلى عساكره، فأمروها عليهم، ولم تزل حتى أبلغ الهدد خبرها إلى سليمان.

وقال عبدالله بن سلام إنما طلب سليمان الهدد لأنه احتاج إلى معرفة الماء كم هو من وجه الأرض، لأنه كان في مفازة عدم فيها الماء، وأن الهدد كان يرى باطن الأرض من ظاهرها، فيخبر سليمان بموضع الماء، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة، وتسلك عنه وجه الأرض كما تسلك الشاة.

وقد لفق البعض من الإخباريين العرب أنها بلغت بفتوحاتها بابل ونهاوند وأذربيجان وحتى الصين، وقادت حملاتها ضد الماديين نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، وضد المانيين في أرمينية، وضد أرفاد، وذلك بغية إضافة صورة خيالية عن بلقيس كملكة فاتحة، لكن لم يعثر على أي أثر لذلك في الحوليات التاريخية القديمة.

الرواية القرآنية

بالرغم مما تقدم من اختلافات في تفاصيل الروايات التي تحدثت عن الملكة اليمانية، يبدو واضحاً ولا يحتاج إلى كثير تأكيد أن بلقيس ملكة سبأ سليلة حسب ونسب جاءت من بيت ملكي. وحتى تسهل الأمر بدون العودة إلى ما سبق من روايات متعددة عن توليها الملك، سنكتفي بأخذ الرواية الأقرب إلى الواقع الافتراضي، وهو أن والدها كان، في أحسن الأحوال ملكاً. وقد ورثت الملك منه لأنه على ما يبدو لم يرزق بأبناء بنين، فلما حضرته الوفاة أوصى لها بالملك، فأشار عليه رجل من وجوه حمير من بني قحطان قائلاً: أئدع أفاضل قومك وتستخلف علينا امرأة وإن كانت بالمكانة التي منك ومنا؟ فأشار الملك إلى حلم وعلم وحكمة ابنته قائلاً: إنها أعقل النساء والرجال ولا تخطئ في المشورة، واني أسمى مالك بن يعفر بن عمي وهو غلام له حزم وعقل، فإذا بلغ فله الملك إما في حياتها وإما بعد موتها، فسمع الجميع وأطاعوا.

استقر الحكم لبلقيس لأنها أثبتت فعلاً أنها ابنة أبيها في الحلم والعلم والمشورة والحزم. فاستقرت البلاد وازدهرت أيما ازدهار خلال حكمها، وتمتع اليمانيون بالأمان

والرياء والفتى والعمران والمدنية، ونجحت في توطيد أركان حكمها وملكتها بالدهاء والسياسة العادلة الحكيمة بين جميع أفراد الرعية. فما كان أن يكون لها شأن عظيم لو لم تتصف برجاحة العقل وسعة الحكمة وغزارة الفهم والسياسة إلى جانب الكياسة والمشورة، ولذلك أسعقها حسن تفكيرها وحزم تدبيرها في كثير من المواقف الصعبة والمحن الشديدة التي تعرضت لها هي ومملكتها. فبنت السدود وأقامت الصروح وشقت القنوات حتى أصبحت مملكتها في قوة وعزة ومتعة ورياء أشارت إليها كتابات المؤلفين والمؤرخين اليونان والرومان والعرب، وفوق ذلك القرآن الكريم في سورتي النمل وسبأ. وقيل أنها بنت سد العرم أو أنها رعمته.

وبينت الآيات القرآنية الكريمة ما وصلت إليه مملكة سبأ من التقدم والازدهار والرخاء، فقالت: " لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتا أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور"⁽¹⁾.

عاصرت ملكة سبأ مملكة سليمان حسب السياق القرآني، مع أن سياق الآيات لم يشر إلى الزمن الذي حدث فيه اللقاء بين سليمان وبلقيس، كما لم يسم القرآن الكريم الملكة بل اكتفى بوصفها ملكة على سبأ أوتيت من كل شيء عظيم.

لما ملك داود جعله الله نبياً وملكاً وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع، فلأن له الحديد، وأمر الجبال والطير أن يسبحوا معه إذا سبح، ولم يعط الله لأحد صوتاً أجمل من صوته، فكان إذا قرأ الزبور تقرب منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها (ولقد أتينا داود فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد - أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير)⁽²⁾. وكان داود شديد الاجتهاد كثير العبادة والبكاء. وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر، كما كان لا يأكل إلا من كسب يده.

وقد امتحن الله داود بأن ابتلاه بزوجة أوريا⁽³⁾ التي وقع في حبها عندما رآها. ولما سأل عنها أخبروه عن زوجها الذي يقاتل في أحد الثغور، فبعث إلى صاحب الثغر أن يقدم أوريا بين يدي التابوت إما أن يظفر أو يقتل، ففعل ذلك به قتل، فترج داود امرأته، وهي أم سليمان في أقوال. وبينما داود في المحراب يصلي دخل عليه ملكان أرسلهما الله من غير الباب، فراعهم ذلك، فقالا: " لا تخف، خصمان بنى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة. فقال: أكفلنيها وعزني في الخطاب"⁽⁴⁾، أي قهرني وأخذ نعجتي، فقال للأخر: ما تقول؟ قال: صدق، إني أردت أن أكمل نعاجي مائة فأخذت نعجته. فقال داود: إذ لا ندعك وذلك، فقال الملك: ما أنت بقادر عليه. قال داود: فإن لم ترد عليه ماله ضربنا منك أنفك وجبهتك، قال: ياداد أنت

(1) - سورة سبأ، الآيات 15-17.

(2) - سورة سبأ، الآيات 10-11.

(3) - ابن الأثير: "الكامل في التاريخ"، ج 1، الصفحت (224-226).

(4) - سورة ص، الآيات 22، 23.

أحق أن يضرب منك أنفك وجبهتك حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة فلم تزل به حتى قتل وتزوجت إمرأته. ثم غابا عنه.
عرف داود ما ابتلي به، فخر ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها، وإدام البكاء حتى كفت عيناه.. إلى أن غفر له ربه.

ولما توفى داود عن عمر يناهز المائة عام، أو أكثر قليلاً على بعض الأقوال، كانت مدة ملكه قد بلغت أربعين سنة وكان له تسعة عشر ولداً، فأورث الملك إلى ابنه سليمان دون الآخرين. وكان سليمان ابن ثلاثة عشر سنة، فأثاء الله النبوة مع الملك. وقد أيد النص القرآني توريث داود الملك لابنه سليمان، فقال: "ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين. وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين. وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون"⁽¹⁾، وسخر الله لسليمان الريح والجن: "ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات أعمالوا آل داود شكراً وقبيل من عبادي الشكور"⁽²⁾.

كان داود يستشير ابنه سليمان ويرجع إلى رأيه وحكمه الصائب رغم صغر سنه، ومن ذلك ما قاله تعالى في كتابه العزيز: "وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين"⁽³⁾. وهي أن غنماً دخلت ليلاً زرع قوم فأكلته، فتقاضى داود بالغنم لصاحب الزرع، وحكم سليمان أن يسلم الزرع إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفق الغنم إلى صاحب الزرع فيصيب منها إلى أن يعود زرعها إلى حاله، عندئذ يقوم بدفع الغنم إلى صاحبها. فلما سمع داود حكم ابنه سليمان أمضاه وهو مسرور. وجاءت هذه القصة القرآنية لتدل على حكمة سليمان ونبوغه.

لما أتى الله النبوة إلى الملك سليمان دعى إلى الله أن يؤتیه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، إذ خاطب ربه قائلاً: "ربي اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب. فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب. والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب. وإننا له عندنا لنزلقى وحشاً مآب"⁽⁴⁾، فاستجاب له ربه وسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والريح. فكان إذا خرج من بيته إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الإنس والجن ينتظرون أمره.

(1) - سورة النمل، الآيات 15-17.

(2) - سورة مياء، الآيات 12-13.

(3) - سورة الأنبياء، الآيات 78-79.

(4) - سورة ص، الآيات 35-40.

فلما كان سليمان في غزوة من غزواته طلب طائر الهدد ليدله على مكان الماء لأن الله قد أعطى الهدد نعمة رؤية الماء تحت الأرض، فلم يجده، وقيل أيضاً: نزل ضوء الشمس فنملى مجلسه، فرفع نظره إلى الأعلى ليرى من أين تنزل الشمس لأن الطير كانت تقف صافات فوقه فتظله من حرها، فرأى ضوء الشمس يأتي من مكان الهدد، فأعلن أنه سيعذبه إن لم يقدم سبباً مقنعاً لتركه مكانه دون استئذان. وحدث محمد بن إسحاق، فقال: "كان سليمان (ع) إذا غزا غداً إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه يتفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه لون من كل صنف من الطير كل يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدد، فقال: "ما لي لا أرى الهدد أم كان من الغائبين. لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتينني بسلطان مبین" (النمل 20-21).

كان الهدد يطوف حينها طائراً فوق أرض الله فمر على أرض سبأ فرأى قصراً عظيماً تحيطه حدائق غناء، فنزل بجوار هدهد رآه، وسأله متعجباً: أين أنت من سلطان وحكم سليمان وما تفعل هنا؟ فقال له: ومن سليمان هذا؟ فذكر له ما حُسر لسليمان من الجن والإنس والطير، فعجب الهدد الآخر من ذلك. ثم أطلعه على أحوال مملكة سبأ وملكتها. فلما عاد الهدد إلى سليمان أخبره بخبره اليقين الذي جاء به من سبأ، وهو يمكث غير بعيد: "فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ بخبر يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم. قال منتظر أسدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولي عنهم فانتظر ماذا يرجعون. قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تلعو عليّ وأتوني مسلمين. قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون. قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإني مرسله إليهم بهدية فتناظره بم يرجع المرسلون. فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتاني الله خيراً مما آتاكم بل أنتم بهديتكم ترحون. أرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون. قال يا أيها الملأ أياكم يأتييني بمرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفریت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم. قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون. فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا من الملم من قبلها وكننا مسلمين. وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين. قيل لها ادخلي الصرح

فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين⁽¹⁾.

يدور سياق القصة القرآنية حول حكمة بلقيس وما حققته لملكها من الخير والثروة والقوة والشورى (ليس النص القرآني منقولاً عن التوراة). وربما سبقتها ملكات حكمن سبأ، فاكتمست إحداهن شهرة واسعة عن الباقيات خاصة وأنها ارتبطت بسليمان، وأسلمت معه، فازدادت أهمية سيرتها بظهور الإسلام. وهذا يعزز رؤية إسلامية راقية للمرأة، حيث مثلت استحقاقاً وجدارة نوعية وكفاءة شخصية مهمة لتسبب المرأة موقفاً هيادياً في أعلى هرم الدولة والمجتمع. إذ إن الصورة التي رسمها القرآن الكريم للملكة سبأ ربما تعني تضميناً يكاد يكون واضحاً بعدم رفض ولاية المرأة. وهذا موقف يبدو مخالفاً لموقف التوراة المعادي للمرأة من خلال تصويرها كأنثى تتعذر من أصول جنسية لا تبيح إلا عن غرائزها، وأنها لا تمت إلى عالم النظام الاجتماعي الإنساني، الذي كان الموضوع الأساسي للتعليم القرآني، من هنا دخلت بلقيس، من خلال القصة القرآنية، في تاريخ العرب والمسلمين كسيدة مثال للحكمة والجمال والعفة والاعتزان والمسؤولية والراي والشورى، فأصبحت مثلاً للمرأة العربية المسلمة الكاملة. إذ لا غرو في ذلك، فالصورة التي رسمها القرآن الكريم والسنن النبوية الشريفة للمرأة، بشكل عام، صورة تبلغ درجة عالية من الاحترام والتقدير والحقوقية.

لم تكن ملكة سبأ امرأة عادية، أو ملكة تحكم في عصر ما، فبر ذكراها كالفالبيية العظمى من الملوك والملكات. فقد امتازت عنهم جميعاً بتخليد ذكراها وتشريفها في القرآن الحكيم، فهي تملك على قومها وإها عرش عظيم استرسل الثعالب في وصفه بحيث طعمه بالذهب والجواهر واللأثني والياقوت الأحمر والأزرق والأخضر وكله بالذهب والفضة والياقوت، وجعل قوائمه الأربعة من الياقوت: فواحد منها من الأحمر والثاني من الأخضر والثالث من الأزرق والرابع من الياقوت الأصفر.. إلخ، بحيث كان يسلب الأبواب ويذهب بالمنطق والأسباب. وعن فتادة: كانت قوائمه من لؤلؤ وجوهر، وكان يستر بالديباج والحريز، وعليه سبعة أغلاق. وقال ابن إسحاق: وكان يخدمها النساء، فكان معها لخدمتها ستمائة من النساء، وقال ابن عطية: واللازم من الآية أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كاهنة من قوم كفار يسجدون للشمس من دون الله. وقد أوتيت في مملكتها من كل شيء عظيم، واقتنر اسمها باسم النبي سليمان. وقد كان قومها - حسبما أخبر الهدد سليمان - يعبدون الشمس والنجوم ويسجدون لها من دون الله بالرغم مما آتاهم الله من النعم والغنى والقوة والبأس. فما كان من سليمان المتصف بكمال العقل وسعة الحكمة إلا أن يتحرى رواية الهدد، فقال: "سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين". فأرسل إلى الملكة وقومها يدعوهم إلى الإيمان وصاغة الله الذي لا إله غيره، وأن يأتوه مسلمين خاضعين. فلما فضت الملكة الرسالة،

(1) - سورة النمل، الآية 20-44.

بعدما ألقاها إليها الطائر، وجدتها من سليمان إنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلق علي وأتوني مسلمين". فجمعت بلقيس وزراءها وعلية قومها للتشاور في أمر كتاب سليمان، فأشاروا عليها برفض طلب سليمان والاستعداد للحرب لأنهم أولوا قوة وبأس شديد "نحن أولوا قوة وبأس شديد"، غير أن بلقيس الخبيرة والبصيرة رأت رأياً آخر، لأنها تعلم أن "الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون"، فأشارت عليهم أن ترسل له هدية وترى بما يرجع المرسلون، لكن سليمان رد عليهم هديتهم وتوعدهم قائلاً: "أتمدونني يمال فما أتاني الله خير مما آتاكم. بل أنتم بهديتكم تفرحون". فتأكدت بلقيس من قوة سليمان وعظيم سلطانه عند عودة الرسل إليها، فقررت السير إليه ومعها أكابر قومها ودولتها. فلما صارت على حدود مملكته قال لأصيحياه: "ايكم يأتيني بعريشها قبل أن يأتوني مسلمين". قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك واتي عليه لقوي أمين"، إلا أن رغبة سليمان كانت تريد إحضاره بأسرع من ذلك، فقال الذي عنده علم من الكتاب، وكان كما قيل هو آصف بن برخيا، وكان صديقاً يعرف الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وقيل هو غير آصف، وأنه قال لسليمان: سأجيئك به قبل رقة عيتك وانتباهتها. فامدد بصرك، فمد بصره نحو اليمن، فإذا بالعرش، فما رد بصره إلا هو أمامه: "أنا أتيك به قبل أن يرثك إليك طرفك"، فنظر سليمان- ربما إلى السماء أو إلى جهة ما- ثم رد طرفه فرأى عريشها: "مستقرراً عتده"، فقال: "هذا من فضل ربي أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم". فلما دخلت بلقيس على سليمان في مجلسه، سألها: أهكذا عرشك قالت كأنه هو". وقال القراء وغيره، إنما أمر بتكره لأن الشياطين قالوا له إن في عقلها شيئاً، فأراد أن يمتحنها، وقيل خافت الجن أن يتزوج بها، فيولد له منها، فيبقون مسخرين لآل سليمان أبداً، فقالوا له أنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل حمار، فقال نكروا لها عريشها" لتعرف عقلها، وكان لسليمان ناصح من الجن، فقال له كيف لي أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفهما، فقال أنا أجعل في هذا القصر ماء، وأجعل فوق الماء زجاجاً، حتى تظن أنه ماء فترفع ثوبها، فتري قدميها، فهذا هو الصرح الذي ذكره تعالى في قوله "فلما جاءت قيل لها أهكذا عرشك قالت كأنه هو"، أي شبهته بعريشها الذي تركته وراءها في بلدها، فعلم سليمان كمال عقلها وعلمها، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين"، وقيل هذا قول بلقيس، أي أوتينا العلم بصحة نبوءة سليمان من قبل هذه الآية في العرش، وكنا مسلمين، يعني متقادين لأمره، وقيل هو من قول سليمان أي أوتينا العلم بقدرة الله تعالى على ما يشاء من قبل هذه المرأة، وقيل: أوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائفة من قبل مجيئها، وقيل هو من قول قوم سليمان، قيل لها: "ادخلي الصرح" الذي أمر سليمان الجن ببناؤه لكي تدخل عليه بلقيس وهو فيه، فبنوا هذا الصرح الممرد من قوارير" قال إنه صرح ممرد من قوارير"، فلما أدخلت بلقيس عليه حسبته لجة ماء فكشفت عن ساقها لتعبر إليه، فإذا هي أحسن النساء ساقاً، سليمة مما قالت الجن، غير

أنها كانت كثيرة الشعر، فقالت: "رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين"، فاستسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت مع سليمان وأقرت على نفسها بالظلم.

وقيل إنَّ سليمان تزوجها- بعدما أشار عليه ناصحه الجني بعمل النورة والحمام لاقتلاع الشعر دون أن يسبب أذى لساقها- وأسكنها الشام، وقيل أنه نكحها وأحبها حباً جماً، ووردها إلى بلادها، وصار يأتيها على الريح كل شهر مرة لمدة ثلاثة أيام، فولدت له ولداً أسماه داود، فمات في زمانه. وقيل أيضاً أنه لم ينكحها بل زوجها إلى ذي تبع ملك همدان حسب رغبتها ثم ردها إلى بلادها. وقيل أنه أمر الجن بإطاعة ذي تبع، فأمرهم ذي تبع ببناء حصون اليمن. وقيل إنَّ الجن امتنع عن طاعة ذي تبع بعد موت سليمان، فانقضى ملك بلقيس وملك ذي تبع مع انقضاء ملك سليمان؟

ويقال إن حمير اجتمعت بعد بلقيس على مالك بن يعفر بن عمرو بن حمار بن المنذر بن عمرو بن زيد بن السكيك بن وائل بن حمير، وملك بعده ابنه شمس بن يرعش، وهو الذي خرب سمرقند على ما قيل! فملك بعده ابنه صيفي بن شمر على اليمن، ويمت أخاه إهريقين، بن شمر إلى أفريقية بالبربر، وكنعان فملكها.

الرواية التاريخية

ورد ذكر سبأ والسبئيين في التوراة وفي المؤلفات اليونانية واللاتينية، وكذلك في الكتابات الآشورية. ويعتمد أن كلمة Sabum, sabu, saba، التي وردت في نص سومري يعود إلى آخر ملك من ملوك أور في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، والتي تعد أقدم نص تاريخي يصل إلينا، إنما تعني على الغالب سبأ والسبئيون، فعندئذ يكون السبئيون هم أول شعب عربي جنوبي يصلنا خبره. وقد نشرت صورة كتابة حُفرت على لوحة نحاسية جاء فيها: "عبد شمس، سبأ بن يشجب، يعرب بن قحطان"⁽¹⁾. وقد ذهب العالم هومل إلى أن السبئيين هم في الأصل من أهل العربية الشمالية، ارتحلوا في القرن الثامن قبل الميلاد إلى جنوب الجزيرة العربية واستقروا في منطقة صرواح ومأرب وفي الأماكن السبئية الأخرى. وذكر ميلر أن دولة سبأ وردت في أخبار آشور على قريمة ذكرت فيها الأمم التي تقدم الجزية للملك الآشوري سرجون الثاني (721-705) ق.م. وقد دلت على دورهم التاريخي لقى أثرية مميزة وشواهد كتابية معلومة تقتزن بإشارات غالبية إلى سبأ التي ارتبطت بها معظم الرموز التاريخية في اليمن القديم، والتي هي بالفعل وأسطلة العقد في هذا العصر، حيث يمثل تاريخ دولة سبأ وحضارتها العمود الفقري في تاريخ اليمن. وسبأ عند النسابة هي: أبو حمير وكهلان، ومنهم تسلسلت أنساب أهل اليمن جميعاً. وارتبطت إلى حد كبير هجرة أهل اليمن إلى الأمصار بسبأ، حتى قيل: تفرقوا أيدي سبأ. وكانت دولة سبأ في عصرها الأول أكبر وحدة سياسية فيه، وما دول معين وقحطان

(1) - جراد على: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، ص 258، الذي أشار إليها في: REP. EPIG, 4304, VIII, II, P. 184. Collection P. Lamare.

وحضرموت التي ارتبطت بها حيناً وانفصلت عنها في حين آخر، أو اندمجت فيها لتكون دولة واحدة كما في دولة حمير التي لقب ملوكها بملوك سبأ وذى ريدان، إلا تكوينات سياسية كانت تدور في فلك الدولة الأم: سبأ .

اتفق كثير من المؤرخين أمثال أبو الفداء وابن خلدون والسعودي واليعقوبي ونشوان الحميري على أن حمير ملك بعد أبيه سبأ، إلا أن اختلافهم كان على من خلف بعد حمير، وكان أيضاً في ترتيب ملوك حمير وأسمائهم حيث كان بين حمير والحارث آخر ملوكهم مائة وخمسون أباً .

وقد جدول جرجي زيدان في كتابه "تاريخ العرب قبل الإسلام" أسماء ملوك حمير ومدة حكم كل منهم. حيث كان أولهم الحرث الراءش.. فجاء ترتيب الهمداني بن شرحبيل الخامس بينهم، وجاء ترتيب بلقيس بنت الهمداني بن شرحبيل السادس. ويتكون جدول زيدان من ستة وعشرين ملكاً، استمروا في الحكم لمدة ألف وسبعمائة سنة تقريباً ؟ إلا أن جرجي زيدان عد هذه المدة الطويلة تاريخاً لدولتي سبأ وحمير بما فيها الثياينة ؟

وتبين أن عدد ملوك سبأ الذين قرأت أسماءهم على أنقاض مدينتي مأرب وصرواح أكثر من ثلاثين ملكاً (مكرباً). ولدولة سبأ أربعة أدوار كان الملك يدعى (مكرب سبأ) في الدور الأول، و(ملك سبأ) في الدور الثاني، و(ملك سبأ وريدان) في الثالث، و(ملك سبأ وريدان وحضرموت) في الرابع. ثم انتقلوا من لقب مكرب (مقدس أو كاهن) إلى لقب ملك (سلطان مدني أو سياسي).

أشار جواد علي⁽¹⁾ إلى عثور العلماء في أنقاض مدينة صرواح القديمة على كتابات سبئية بعضها من عهد المكربين. ومنها نص مهم رمزوا له برقم آثاري (Glaser 1000A,B). والأمر بتدوينه كان المكرب الملك (كرب ايل وتر) إذ يتحدث النص عن فتوحاته وانتصاراته وأعماله. وفي مقابل خربة معبد صرواح خربة أخرى تقع على تل، هي بقايا برج المدينة، وأطلال أخرى، يظهر أنها من بقايا معابد تلك المدينة وقصورها. وفي صرواح كان معبد (المقه) إلهة سبأ التي انتشرت عبادتها من هذه المدينة بانتشار السبئيين. ومن معابد هذه الإلهة التي بنيت في هذه المدينة معبد (يفعن أو يفعان) الذي حظي بعناية المكربين.

ويشاهد في خرائب صرواح بقايا القصور القديمة والأعمدة الحجرية المنقوش عليها بالخط المسند، علماً أن القسم الأعظم من المباني القديمة لا يزال مدفوناً تحت الأنقاض ماعدا آثار بعض القصور التي لا تزال ظاهرة فوق الأرض، منها قصر يزعم الأهليون أنه كان لبقيس، وكان به عرشها، وهو يعرف عندهم بقصر بلقيس ؟

لم تكن مأرب عاصمة سبأ في هذا الوقت بل كانت مدينة من مدن سبأ الكبرى، ولعلها كانت العاصمة السياسية ومقر الطبقة المنتفذة في سبأ. أما صرواح فكانت العاصمة الروحية، وفيها معبد الإله الأكبر ومقر الكهنة (المكربون). وقد وجه المكربون

(1) - جواد علي: " المنصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، الصفحات (304-351). وقد اشار علي إلى تعداد قوائم الرحالة المؤرخين وتصنيفهم إلى مجموعات دون ذكر أسمائهم.

عنایتهم نحو مآرب كما لو كانوا يخططون لجعلها مركز الدولة السياسي والديني، فأقاموا فيها معبد الإلهة (المقه) ⁽¹⁾ الكبير، والقصور الضخمة، وسكنوا بها، وأقاموا عندها سد مآرب العظيم.

اشتغل علماء العربية الجنوبية على ترتيب أسماء حكام سبأ المكربين بحسب تسلسلهم التاريخي، حيث تم تصنيفهم ⁽²⁾ في جمهرات على أساس القدم، مراعين في ذلك دراسة نماذج الخطوط والكتابات التي وردت فيها أسماؤهم. وكان من أوائل من عني بهذا الموضوع من العلماء الرحالة العالم الشهير كلاسر، والعالم فريش هول، ورودونكناكس وفليبي وغيرهم. والذي يهمننا من مراجعة هذه القوائم هو محاولة العثور على اسم بلقيس أو ملكة سبأ أو امرأة حكمت سبأ. فقد رتب هول قائمته لمكربي سبأ في سبعة أسماء أطلق عليهم جمهرة مكربي سبأ الأولى، وخمسة أسماء أطلق عليهم جمهرة مكربي سبأ الثانية، ورمز إلى كل اسم من أسماء الجمهرتين برقم أثاري خاص به. وجاء اسم المكرب (كرب ايل وتر) صاحب صرواح الأخير في الجمهرة الثانية.

وأما رودونكناكس فقد ناقش القائمة التي وضعها كلاسر وهول وهارتمن، فوضع جمهرات جديدة مبنية على أساس الرابطة الدموية والتسلسل التاريخي وما ورد في الكتابات من أسماء، ثم لخصها في جمهرات ثلاث، ثم عاد فذكر جمهرتين أخريين خلال مناقشته لمجموعة الجمهرات الثلاث. لكن فليبي جعل تاريخ حكم أول مكرب حوالي سنة 820 ق.م تقريباً، وسار على هذا الأساس بإضافة مدة عشرين عاماً لكل ملك، فتألفت قائمته من 23 مكرباً (عشرة في الأولى، وثلاثة عشر في الثانية). أما ريكنس، فقد دون قائمته بجعلها تأتي في ثمانية مكارب.

ويتلقب (كرب ايل وتر) صاحب صرواح (650 ق.م) بلقب ملك، واستمرار من جاء بعده من الحكام على التلقب به، ندخل في عهد جديد من الحكم في سبأ، سماه علماء العربيات الجنوبية عهد (ملوك سبأ) تمييزاً عن عهد المكربين، وتمييزاً عن العهد الذي تلاه وسمي عهد (ملوك سبأ وذي ريدان). ويبدأ عهد (ملوك سبأ) بسنة 650 إلى 115 ق.م، ثم يبدأ بعده عهد (ملوك سبأ وذي ريدان).

وتظهر قوائم هول ثمانية عشر اسماً لـ (ملوك سبأ) صنفها بثلاث أسر. أما كليمان هوار فجعلها في خمس جمهرات مكونة من اثني عشر اسماً، بينما جعلها فليبي في خمسة وعشرين اسماً، وجعلها ريكنس في ستة عشر اسماً.

وفي الواقع، بدأ الباحثون والرحالة في العمل للكشف عن آثار تدل على وجود ملكة سبأ التي قرؤوا عنها وعن غنى مملكتها الروايات المثيرة، فبدأ الصيدلاني الفرنسي جوزيف توماس آرنولد سنة 1843م البحث عن محرم بلقيس، فكان أول أوربي يأتي إلى المكان متخفياً. وفي سنة 1869 جاء إلى مآرب متخفياً فرنسي آخر هو جوزيف هاليبي.

(1) اللوحة الحجرية المنقوشة للإلهة سبأ (المقه) الموجهة إلى آلهة القمر الجنوبية في القرن السابع قبل الميلاد.

(2) - جولاد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، الصفحات (306-315).

الذي نجح في تهريب 686 نسخة من النقوش الممنوعة. ثم زار الموقع ثلاث مرات النمساوي إدوار غلاسر باسم مستعار وأخرج معه المئات من نسخ النقوش إلى أوروبا (أكثر من ألف نسخة). وقد قام ويندل فيليب بالحفر في مأرب سنة 1951، فاستطاع خلال سنة من الحفريات العثور على معبد أبعاده 82x60 قدماً داخل مربع مقدس أبعاده 250x330 قدماً، ومعابد بجدار يبلغ ارتفاعه 30 قدماً، وقيل حينها أن هذا المكان كان سكن بلقيس الملكي. إضافة إلى ذلك، اكتشف فيليب آثار سد مأرب الذي يبلغ طوله ثلث ميل (535م تقريباً) على وادي دانه، على بعد ثلاثة أميال من مأرب، إلا أن حامية يمنية هاجمت فيليب وفريقه سنة 1952، فاستطاع الفريق الهرب تاركين معداتهم خلفهم. وفي عام 1947م زار اليماني مدير الآثار المصرية د. أحمد فخري، وفيما بعد ألف كتابه "دراسات في تاريخ الشرق القديم: مصر والعراق- سوريا واليمن". وقد عثر في عام 1980م على قطع أثرية تثبت أن عمر الحضارة اليمنية يتجاوز فعلاً 3500عام. وقد تعاقبت فرق البحث على المكان خلال الخمسينيات من القرن الماضي.

وشهد عام 1998 تشكيل فريق دولي لمشروع بحث عن محرم بلقيس تحت إدارة الدكتور وليام غلانزمان من جامعة كالغاري Calgary الكندية بتمويل من المؤسسة الأمريكية للدراسات البشرية (AFSM). حيث وجدوا أن معظم المكان كان مدفوناً تحت الرمال على عمق ثمانية أمتار وأكثر. ونتيجة استمرار البحث ظهر مدخل المعبد بروج من ثمانية أعمدة من الحجر الكلسي أمام ساحة بيضاوية الشكل بعرض ثمانين متراً تقريباً. كما ظهرت الساحة محاطة بجدار حجري كلسي سميك عليه كتابات محفورة بعضها بطول أربعة عشر متراً، واعتقد الفريق أن الباقي من هذا الجدار ما يزال مدفوناً تحت الرمال على عمق عشرة أمتار، لذلك استخدمت أجهزة الكشف الراداري عالية التقنية. لكن لم يته الفريق عمله بالكشف عن كامل المكان، وقدر أن إنهاء العمل يحتاج إلى خمسة عشر عاماً أخرى.

تبين لفريق غلانزمان أن المعبد (محرم بلقيس) كان محجاً قبل مولد بلقيس بوقت طويل جداً. وذلك من خلال: النقوش الكتابية، ألوان الجدران، قطع التماثيل البرونزية، أوان فخارية، قطع خزفية، عظام حيوانات يعتقد أنها بقايا أضحيان، وقطع من البخور يعود عمرها إلى أكثر من ألفي سنة ما زالت تحافظ على بعض من رائحتها المميزة. ويظهر أن المعبد استخدم بدءاً من 1200ق.م تقريباً حتى القرن السادس الميلادي. وبين فريق البحث أن النقوش أظهرت أن المعبد كان مكرساً لعبادة الإلهة (المقة) إلهة القمر والخصب المريية- الجنوبية. كما تبين أن بعض المئات من النقوش تعود بتاريخها إلى القرن التاسع ق.م، وبعضها إلى القرون التي تلت عصر بلقيس، وتحتوي معلومات مهمة عن تاريخ حكمها السياسي والاجتماعي، وتاريخ ملوك السبئيين، إضافة إلى أسماء الزوار المهمين إلى المعبد وأسمائهم وأصولهم القبلية، وأظهرت أن بعضها أسماء أنثوية، إذ يعتقد أن إحدى هذه الأسماء ربما يعود إلى بلقيس ملكة سبأ.

اعتقد غلانزمان أنّ الدليل على وجود ملكة بلقيس مدفون تحت أنقاض مجمع العبادة المعروف باسم "محرم بلقيس"، والذي عمره حتى الآن 3500 عام، ويبعد عن مأرب عدة كيلومترات، وأنّ بلقيس عاشت في مأرب وعبدت في محرابها المقدس "محرم بلقيس". لكن الكثير من المهتمين بهذا الشأن دحض ما ذهب إليه غلانزمان لعدم وجود دليل مادي على هذا الاستنتاج.

والخلاصة: أنّه لم يعثر على اسم ملكة سبأ، أو بلقيس، أو اسم لامرأة حكمت سبأ، في كل القوائم المشار إليها. كما لا يوجد ما يشير إليها في أية نقوش أثرية أو كتابات تاريخية، مما يدل على أنّ قصة بلقيس: ملكة سبأ، لا يوجد لاسمها سند تاريخي، اللهم إلا في الروايات العربية القديمة، وفي الروايات الدينية اليهودية والمسيحية، وفي التراث الإسلامي، والتي أشارت إليها بملكة سبأ.

في العرض والتحليل

اتفقت التوراة والقرآن في السياق العام واختلفتا في التفاصيل والمقاصد. حيث تبين أوجه الاختلاف والاتفاق بين القصص التوراتية والقرآنية، ومفهوم القصة ومكوناتها في التوراة ومفهومها ومكوناتها في القرآن على بعد شاسع في الأهداف والمقاصد الإنسانية النهائية:

1- عبد سليمان الأصنام في التوراة وهو مجرد ملك، بينما ذكره القرآن كنبى، ولم يعبد الأصنام. فحسب القرآن، كان سليمان في آن واحد ملكاً وتنبياً عظيماً. واتفقت التوراة والقرآن على أنّ داود أورثه الملك. ولم يذكر القرآن مدة ملكه ولا عمره. وأشار القرآن إلى أنّ داود كان يجاهد في سبيل الله. غير أنّ التوراة قدمت تفاصيل في حكاية داود وهو يزنّي ويقتل ويشرب الخمر ويتعمى، حتى أنّ التوراة تشتمل بالقول أنه أقام احتفالاً عظيماً بعدما استرد التابوت من الفلسطينيين فرقص على أنغام العود والدفوف والصنوج حتى انكشفت عورته، ووزع الخبز والخمر على جموع الشعب. إذ استخدم داود (حسب رواية التوراة) الخمر ليسترضي زوجته قائد جيشه، فأسكره ليذهب إلى بيته فيطمع هو والناس أنّ زوجته قد حملت منه وليس من داود (صموئيل الثاني 11: 13). كما روت التوراة أنّ سليمان عبد الأصنام في أخريات حياته استجابة لرغبات بعض زوجاته (الملوك الأول 10: 11).

2- تذكر التوراة أن سليمان تزوج من مئات النساء (700 امرأة)، بينما لم يذكر القرآن ذلك. ولم ترد قصة إخبار الهدد لسليمان عن بلقيس في التوراة، بينما أخبره الهدد عن بلقيس في القرآن.

3- أتت القصة بأشكال مختلفة في التراث الديني اليهودي (التوراة والتلمود..).

4- ذكرت التوراة أن سليمان قبل هدية الملكة. بينما رفض سليمان الهدية في القرآن الكريم، لأن الدعوة إلى الله هي الأولى عنده.

5- لم تذكر التوراة أن سليمان غزا خلال فترة ملكه وبقي ملكه كما تركه له داود (ملكاً على إسرائيل فقط)، في حين أن القرآن أشار إلى غزوه دونما تفاصيل. ولم يذكر القرآن إن كان لسليمان عدو يذكر، بينما ذكرت التوراة عداوة أخيه لسرقته الملك خلال مرض داود أبيهما. وأشار القرآن إلى مملكة سليمان عن أبيه دونما تحديد لمكانها، بينما تقول روايات التراث اليهودي أن مملكة داود كانت في فلسطين، ولم يذكر القرآن أنه ملك الدنيا أو ملك من الفرات إلى النيل كما جاء في التوراة وغيرها من كتب اليهود.

6- يفترض أن سليمان كان يعرف بسبأ ومملكته، قبل أن يخبره الهدهد عنهما.

7- لم تذكر التوراة والقرآن اسم ملكة سبأ، بل أشارا إليها باسم: ملكة سبأ، وامرأة في القرآن. كما لم تذكر القصة القرآنية أي من أبويها، ولم تقل شيئاً عن مظهرها وشكلها، ولم تربط اللقاء بموقع جغرافي محدد، ولم تربط بينها وبين ميان وصرح، ولا بمكان غير سبأ، ولم تحدد إن كانت مملكته مدينة- دولة أو مترامية الأطراف، بل ذكرت على لسان قومها (أنهم كانوا ذو بأس وقوة) وأنها كانت تعبد الشمس مع قومها، ثم أسلمت مع سليمان لله رب العالمين (كرمها القرآن بإسلامها).

8- ذكرت روايات التراث اليهودي أن سليمان تزوج أو تكح بلقيس، بينما لم يشر القرآن إلى ذلك. فمعنى الآية "أسلمت مع سليمان" أنها اقتربت بالمعنى الديني، حيث لم تقطع الآية بالزواج أو أي علاقة بين رجل وامرأة، بل قطعت بأنها دخلت في دين سليمان.

9- يتوافق زمن سليمان التوراتي مع زمن مملكة معين وليس مع مملكة سبأ. إلا إذا أخذنا بما يقوله بعض الباحثين أن مملكة سبأ كانت في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية⁽¹⁾ بالقرب أو على حدود مملكة سليمان؟ أو إذا أخذنا بما يقوله بعض المؤرخين من أن تاريخ دولة سبأ يقع بين 950 و 115 ق.م. لكن سياق الآيات في سورة سبأ يحدد بصورة جلية مكان مملكة سبأ عندما يقول: "لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتا أكل حطط وأثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزئناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور"⁽²⁾. إذ لم تثبت الآثار ولا الكتابات التاريخية ولا الأسطورية أي مكان لسد العرم غير ذلك الذي كان في اليمن.

10- لم يشر القرآن الكريم إلى أصول جنية للملكة، وإنما جاء سياق الآيات بنفي ضمني قاطع للصفة الشيطانية لها، على عكس ما جاء في التراث اليهودي.

11- جاء مفهوم القصة في التراث اليهودي لخدمة الهدف الأساسي وهو تصوير تاريخ اليهود بأنه مركز تاريخ العالم القديم، وأن اليهود هم شعب الله المختار، فجعلوا

(1) - عبد الحميد هـو: "فليس بين الحقيقة والأسطورة"- دراسة تاريخية، دار معد، دمشق.

(2) - سورة سبأ، الآيات 15-17.

سيرتهم سيرة تاريخية تكتسب ثوباً علمياً، بينما جاء مفهوم القصة في القرآن الكريم بأهداف ومعان روحية تشنق إليها قلوب وعقول المؤمنين فتقتفي العبرة والعظة والتأمل وأعمال الخير والإيمان في أخبار الأنبياء والمرسلين، وقصص الحكام الطغاة، والفزوات، وأحداث الأمم التي سبقت، ومقارنتها بما فعله المنكرون لوحدانية الخالق وعدالته وقدرته على كل شيء. وقد بين القرآن الرابطة والتواصل بين الأديان والرسالات السماوية التي سبقتها ولم ينكرها. لكن القرآن أغفل ارتباط القصة بالزمن التاريخي لأنه ليس كتاباً في التاريخ بل كتاباً يبين وحدة الوجود العامة في قدرة الله الواحد الأحد القادر الصمد والداعي بواسطة كتبه ورسله وأنبيائه إلى سعادة البشر بالإيمان والحق والعدل والصراف المستقيم والأخلاق الحميدة والمعاملة الحسنة بين أبناء البشر لفوز بالدارين: الأولى والآخرة. كما يدعو القرآن إلى التأمل والتفكير في الخلق والحياة وسلطان الكون من أجل تسخيرها جميعها في خدمته وأغراض حياته وتطورها. وفي الوقت نفسه لم يخلط القرآن الكريم بين حقائق التاريخ المعروفة بأن يقدم زمناً على آخر، فجاءت روايته عن المرسلين متناسقة في أزمانها، كما لم يذكر أسماء من اشتركوا مع الأنبياء والمرسلين؛ فلم يسم الذي جادل إبراهيم في ربه، ولم يسم الذي مر على قرية خاوية على عروشها، ولم يذكر اسم بلقيس مع سليمان، ولم يذكر اسم العزيز في قصة يوسف، ولم يذكر اسم فرعون مصر في قصة موسى، ولم يسم الذي علمه الله من لدنه علماً في سورة الكهف، كما لم يسم الذي عنده علم من الكتاب في سورة النمل.. ولم يناقض تكرار القصة الواحدة نفسها، والتي جاءت في أكثر من سورة من سوره.

12- أظهر التراث اليهودي أن هدف بلقيس الرئيسي من زيارتها إنما كان لامتحان الملك الإسرائيلي العظيم سليمان. لكن الذي لم يتأكد حتى الآن هو: هل وجدت فعلاً ملكة بهذه الصفة والاسم؟ يدعوها العرب بلقيس، يعتقد أنها حكمت في حوالي 950 ق.م؟

13- توافقت رؤيا روايات بلقيس برؤيا دينية تاريخية عامة في التراث اليهودي - المسيحي، وكذلك في التراث العربي- الإسلامي.

14- يرى بعض الدارسين والباحثة أن زيارة بلقيس لسليمان ربما كانت للتبادل التجاري، إذ ربما قصد سليمان تحويل بعض منتجات سبا إلى مصر إلى القدس (الملك الأول 10: 10)، وفي الوقت نفسه، كانت بلقيس تطمح إلى فتح أسواق جديدة، لكن الميل الروائي العام يذهب باتجاه الاعتقاد أن الشخصيتين المكييتين أنجذبنا إلى بعضهما كرجل وامرأة!

15- حازت بلقيس على دوام شهرتها وتقدير سيرتها في العالمين العربي والإسلامي بأكثر مما تتاولته روايات التراث الديني اليهودي في جذبها وشدها.

16- قدم بحاثه ودارسون يهود ومسيحيون ومسلمون (كمال صليبي وأحمد عثمان وغيرهم آخرون) بناءً تاريخياً يتفق، حسب رأيهم، مع تاريخ المنطقة المنبني على الشواهد

الأثرية والكتّابية منذ نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، فتبين لهم أنّ ملكة سبأ ربما حكمت مجموعات يهودية إضافة لمواطنيها اليمانيين في جنوب الجزيرة العربية. وربما كانت ملكة سبأ تحكم طرقي البحر الأحمر وخاصة في جزئه الجنوبي (جنوب الجزيرة العربية وأريتيرية والعبيشة).

17- يأتي سياق الآيات في القرآن الكريم بوحدة زمنية واحدة، بدءاً من إحاطة الطائرنيّ سبأ وملكها إلى حمله رسالة سليمان إليها، ومشاورة قومها، وإرسالها هديتها إلى سليمان، إلى رد سليمان للهدية وطلب إحضارعرشها، إلى إحضارها قبل ارتداد طرفه إليه. مع هذا يقدم البيان القرآني رواية متكاملة في العرض والعقدة والحل مضمناً المقصد والهدف.

18- هل يوجد في أمة سليمان، وهو النبي المرسل الذي آتاه الله كل ما ذكر في الآيات، من هو أعلم منه بالكتاب ليحمل عرش بلقيس إليه في طرفه عين؟ ربما كانت الإجابة على هذا السؤال هي أنّ سليمان الذي يحكم على الإنسان والجن والحيوان ويكلّمها جميعاً، والذي وهبه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، بحيث أشار عن طريق الاتصال العقلي إلى الذي عنده علم من الكتاب ليقوم بإحضار العرش قبل أن يرتد إليه طرفه! ليس هو الملك، يشير أو يوحي فيطاع!

19- تدل الرواية القرآنية على أنّ أهم وأشهر حادثة في حياة تلك الملكة كانت زيارتها للنبي سليمان (ع)، وما كان من كلام الهدد وكلام بلقيس وكلام سليمان وإسلامها مع سليمان لله رب العالمين.

20- ساق القرآن القصة كعظلة لعبدة الأوثان ليؤمنوا حيث آمنت ملكة سبأ .

21- كومت الآيات القرآنية بلقيس وألقت عليها ثوب الإيمان بإسلامها مع سليمان إلى الله.

22- تعود أصول الروايات العربية عن بلقيس إلى أنّها جزء من اليهوديات التي أدخلت على التراث العربي قبل وبعد الإسلام. بينما يُظن أنّ رواية الترجوم ربما نقلت عن الرواية العربية الإسلامية. وربما كانت الرواية العربية، والعربية- الإسلامية، كما وردت في كتابات الإخباريين هي الأصل، مع أنّها جاءت أحياناً برؤية فقهية يهودية. إلا أنّ المقارنة تبين أنّ الحاخامات أدخلوا الكثير من جوانب رواية بلقيس العربية في تراثهم الديني على نحو كفي في بعض الأحيان لتوافق جوهر تعاليمهم ومقاصدهم التاريخية والدينية.



سُجّلت قصة سبأ وملكها بشكل مستفيض في التاريخ الروائي والديني، كما سُجّلت قصة داود وسليمان. ويغض النظر عن متابعة صدق رواية بلقيس تاريخياً، تبقى مشكلة صدق الرواية التاريخية قائمة عند داود وسليمان. فهخارج التوراة والتراث اليهودي، بشكل عام ما عدا الرواية القرآنية، لا يوجد ما يشير إلى هذين الملكين الإسرائيليين في تاريخ

الشعوب المحيطة. وقد أشار بعض الآثاريين الإسرائيليين، وعلى رأسهم الدكتور حاييم رومانسكو من جامعة تل أبيب، إلى عدم وجود ما يدل على مملكتي داود وسليمان. وأظهرت أبحاث رومانسكو أن هيكل سليمان المزعوم، الذي يشكل حائط المبكى جزء منه، لم يبن في القرن العاشر قبل الميلاد. كما أرجع عالم الآثار المصري د. أحمد فخري عودة بناء الحائط إلى ما قبل 1400 عام قبل الميلاد حسب الحوليات التاريخية المصرية لتحتمس الثالث، والتي تتحدث عن احتلاله لفلسطين سنة 1468 ق.م. وبين فخري أن حائط المبكى (حائط البراق عند المسلمين) وقلة جيل مجدو ربما تم بناؤهما من قبل تحتمس الثالث وحفيده أمنحتب الثالث (1405-1367) ق.م، حيث قام الأخير بتجديد هذه الأبنية.

وتظهر أوصاف العهد القديم لهيكل سليمان تطابقاً شبه تام لمجمع عبادة أمنحتب الثالث في طيبة المصرية، وذلك حسبما رآه عالم الآثار المصرية الأمريكي وليام. سي. هايز، والآثاري المصري اسكندر بدوي، حيث احتوى مجمع أمنحتب الثالث في طيبة على أرضية رائعة من الموزاييك على شكل بحيرة تمتلئ بالماء كأنها صرح ممرد من قوارير (كما وصفها النص القرآني في سورة النمل)، مما اضطر بلقيس لرفع أطراف تنورتها لتفوص في الماء فتكشف عن ساقها. وقد عرف عن أمنحتب الثالث حبه للنساء وزواجه من أميرات أجنبيات لثمتين تحالفاته وعلاقاته الدبلوماسية والتجارية مع الآخرين، وهذا ما فعله سليمان. ويشير الباحث في التاريخ الإسلامي كمال صليبي إلى أن النبي موسى (الولد والوريث الشرعي للفرعون المصري) قد قاد، في خروجه سنة 1360 ق.م تقريباً، أشياعه من موحي أخناتون إلى خارج مصر نحو بلاد كنعان؟ وكان سيجموند فرويد أول من أشار إلى أن: "موسى ربما كان الفرعون المصري أخناتون الذي طرد لتبشيريه بديانة التوحيد الشورية في مصر. فجذبت ديانة التوحيدية أتباعاً كثيرين من المصريين، بينهم العبرانيين الذين كانوا يعيشون في شمال شرقي مصر". ولما كانت هجرة موسى ومن معه قد مرت بصحراء سيناء باتجاه نهاية الطرف الشمالي الشرقي من ساحل البحر الأحمر، تكون أرض اللبن والعسل التي تحدث عنها التراث اليهودي ليست أرض فلسطين الجنوبية المجدية. كما اعترفت التوراة أن موسى لم يدخل أرض كنعان (الأرض الموعودة)، حيث أشار كمال صليبي إلى أن العديد من الأسماء التي وردت في الكتاب المقدس تتطابق مع الأسماء الموجودة في منطقة شمال الحجاز، وليس في فلسطين كما أورد بعض علماء الآثار؟

ويرى صليبي أن المئات من عائلات المشردين الإسرائيليين مع قطعانهم تركوا الحشد الهارب مع موسى (ع) عبر سيناء القاسية التضاريس، بحيث أكملوا طريقهم نحو الشمال إلى فلسطين، واستقروا بالعيش بهدوء بين الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين. وبالتالي لا يوجد سند تاريخي يظهر دخولاً عبرياً كثيفاً، أو أي شواهد عن جيش. يوشع Joshua يقوم بفتح واحتلال فلسطين. وقد برهنت الآثارية البريطانية الدكتورة كاترين كنيون سنة

1950 على عدم وجود شاهد واحد يقول بفتح واحتلال يوشع لفلسطين، كذلك تقول بعدم وجود شواهد واقعية تشير إلى مملكة يهودية أقامها داود وحكمها سليمان، إضافة إلى نفيها أسطورة قبائل التيه.



سقطت القدس سنة 587 ق.م تحت سنايك خيل نبوخذ نصر، قتم الأسر البابلي. وخلال فترة هذا الأسر (587-525) ق.م، تنادى الكتاب والمؤلفون والباحثون اليهود لتأليف تاريخ المجموعات اليهودية لإدخال الطمأنينة والهدوء إلى نفوس هؤلاء المهزومين، وإلى جعلهم يؤمنون بأن لهم هوية وتاريخ مميز. فتنسجوا ما عرفوه عن اليهود في الجزيرة العربية في رواية دينية- تاريخية- أسطورية أسقطوها على أرض فلسطين بقدر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، بحيث جعلوها أرض ميعادهم المقدسة، وأبعدوا بقدر ما عللوا عدم دخوله فلسطين، فاخترعوا قصة يوشع وفتح له لبلاد كنعان، وطبقوا نموذج داود على تحتشمس الثالث أعظم الفاتحين القدماء، ومن ثم طبقوا داود وسليمان على أمنتحتب الثالث. وربما كان اسم داود وسليمان اسمين من أسماء رؤساء القبائل العربية في فلسطين أو شمال- غرب الجزيرة العربية.

أجاد المؤلفون والباحثون اليهود، عند كتابة التوراة، في اختراع رواية التيه بضياغ القبائل العربية في صحراء سيناء لتعليل ما حدث لمملكة اليهود القوية المفترضة لداود وسليمان في فلسطين. والحديث عن شواهد تاريخية جدية تشير إلى تيه العبرانيين قبل حصولهم على موطن قديم في فلسطين في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الحادي عشر قبل الميلاد يأتي من باب الأدب الديني وليس من باب الواقع التاريخي، لأنه لم يعرف تاريخ عبراني موثق يعتمد به قبل القرن السادس ق.م، إذ لم يعثر على أدلة كتابية أو آثارية عن هذا التاريخ.

والذي لم يكن مترابطاً هو كيفية الاستعارة المسيحية للرواية التوراتية وكمال إسقاطها كأساس للتراث المسيحي العام، بحيث انصهرت هذه الرواية بصلب الرؤية الدينية المسيحية الغربية للعالم والكون!



ينظر إلى القصص المرتبطة بالملكة بلقيس بأنه متعدد ومتناقض أحياناً؛ فهي تولت من بعد وصية والدها الملك، أو تولت بعد أن قتلت ابن عم لها أقامه الناس بعد موت والدها، أو تولت بعد وفاة والدها ثم تخلت لأخ لها عن العرش، وقد وصفتها بعض الروايات بإقامتها علاقات غير سوية؟

وقصة الملكة بلقيس ذائعة الصيت منذ القدم، وقد تجاوزت شهرتها وصيتها مكان وزمان أحداثها، وتناقلتها شعوب كثيرة أخرى بروايات ناسبت رؤاها وحياتها، وتناولتها نصوص وشروحات التراث الديني اليهودي، والمسيحي القبطي والحبيشي، وتفسير القرآن الكريم، كما دخلت في قصص الأنبياء والقديسين، وعُنت بتفاصيلها كتب الأخبار

والتاريخ خاصة اليمانية منها، واستلهمها قنّانو عصر النهضة الأوروبية. وأُخذ موضوع سيرتها أساساً لكتاب الحبشة الديني المعروف بملحمة "كيرانجست: مجد الملوك".

ولعدم وجود وثائق أو حواشي مكتوبة تدل على قصة بلقيس وسليمان، يرى البعض أنّ قصة ملكة سبأ تعد من القصص الجميل الذي يطفئ على الأصل. إذ لم يعثر على اسم الملكة في الكتابات القديمة أو في اللقى الأثرية، بل يذهب البعض إلى أنّ مملكة سبأ التي ملكتها صاحبة السيرة التوراتية والقرآنية لم تكن في اليمن، بل كانت في مكان ما إلى الجنوب من هلمطين، شمال غرب الجزيرة العربية، بينما يرى التراث الحبشي أنّ بلقيس ملكة حبشية زارت سليمان من أرض الحبشة وتزوجت به وأنجبت له ولداً حكم الحبشة وسلالته من بعده.

مع ذلك، بقيت سيرة بلقيس حية على مدار الزمن في موروث أهل اليمن أكثر من غيرهم، وبقيت رمزاً تاريخياً لحضارتهم القديمة. وينسب أهل اليمن إلى بلقيس العديد من آثار مأرب الرائعة كعرش بلقيس ومعبر بلقيس، وهم ما زالوا يتخذون من اسمها اسماً لبناتهم ومؤسساتهم، ويزينون به ابداعاتهم الأدبية والفنية.



اتخذ التراث الديني اليهودي موقفاً معادياً من ملكة سبأ (بلقيس)، إذ ربما جاء ذلك كرد فعل على صورتها وسيرتها في المحيط الثقافي العربي القديم (إذا جازت التسمية). وتحتوي التوراة على مواقف عامة معادية للمرأة، وأنها مثال لضرورة خضوعها الكامل للرجل ككائن أنثوي بما تعنيه هذه الصفة من معنى. وربما جاء هذا الموقف أيضاً معادياً لملكة سبأ لأنها مثلت تساوي المرأة مع الرجل كونها تسنمت أعلى منصب في الدولة في ذلك التاريخ المبكر من التمدن الإنساني، فهي مثال المرأة الحكيمة وصاحبة السلطان مقابل مثال سليمان، هصيره، كونها أنثى، كمثل للشيطان (الغول أو الساحرة). لكن سيرة بلقيس مثلت في تراث الشعوب التي عاشت الطوائف اليهودية بين ظهرانيها مجتمعاً حكمته امرأة كونت فيه من خلال سيرتها مثالا للحكمة والجمال والمساواة مع الرجل. فأولاً وأخيراً، ظهرت بلقيس وهي تحكم بقلب امرأة وعقل رجل.

الفصل الثاني

سميراميس (Samiramis) (سمورامات)

ملكة بابل وآشور

بدأ تدفق موجات الهجرة من الجزيرة العربية نحو الشمال منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد بحثاً عن الخصب والمياه، واستمرت بالتنقل والحركة خلال موجات هجراتها المتعددة على مدى آلاف السنين؛ إلى سورية الكبرى، وإلى العراق نحو دجلة والفرات، وإلى جنوب فلسطين وسيناء ووادي النيل. ومن ضمن هذه الموجات بدأ الأكديون بالاستقرار على ضفاف نهر الفرات الغربي وسط العراق، المنطقة الأقرب إلى موطنهم الصحراوي في البادية السورية التي كانوا قد وصلوا إليها مسبقاً. وقد بدأ أسلوب حياتهم بالتطور تدريجياً من الرعي إلى الزراعة التي اعتمدت على الري، فشقوا القنوات وجروا المياه إلى أماكن زراعتهم واستقروا بهم. وهكذا أخذوا يأنشاء البلدات والمدن في حوض الفرات الأوسط، والتي كان من أشهرها مدينة كيش (تلول الأحمر حالياً) قريباً إلى الشرق من بابل، ومدينة أكد ومسيار واكشاك وأوييمس وكوتا وأور والسوس عاصمة العيلاميين في غرب إيران، حتى بدؤوا الخطى في بناء دولة الأكديين التي أسسها سرجون الكبير في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، والتي سميت بالدولة أو الامبراطورية الأكدية نسبة إلى عاصمتها "أكد". وقد عمرت لفترة أقل من قرن ونصف (2230-2255 ق.م.) حيث قضت عليها القبائل الجبلية التي انحدرت من الجبال في الشمال، فاحتلت بابل وقضت على الحكم الأكدي. وقد شملت الامبراطورية الأكدية معظم منطقة الهلال الخصيب وبعضاً من آسيا الصغرى حتى الساحل السوري على المتوسط شمالاً وصولاً إلى سارديس والإطلال على بحر إيجه، وجنوباً حتى الخليج العربي، كما ضمت بلاد العيلاميين في الشرق (وهي عريستان وخوزستان الحاليين). وبعد أن استولى سرجون على الدويلات السومرية في جنوب العراق مغز البحر إلى خليج عمان وبحر العرب وضم جزرها إلى مملكته، وأصبح الحاكم على أكد وسومر. وكان من أبرز ملوكهم بعد سرجون الكبير حفيده نرام سين (2291-2255 ق.م) الذي لقب نفسه بـ: "ملك الأقاليم الأربعة، ملك العالم". وأصبحت اللغة الأكدية اللغة الرسمية في جميع أنحاء البلاد التي خضعت لسلطان الأكديين. واستمرت كلفة تخاطب في فترات العهد البابلي الأول، والآشوري، والبابلي الثاني (الكلداني) حتى القرن السابع ق.م. وقد زاحمتها اللغة الآرامية ونجحت في إزالتها من التداول. وقد استخدم الأكديون الخط المسماري واستعاروا الكثير من اللغة السومرية التي كانت أول لغة ابتكرت أحرف الكتابة، ودونت بها نصوصها منذ 3200 ق.م. وقد وصف العالم الألماني مورتكارت⁽¹⁾ الأكديين بأنهم: "ينتمسون إلى أسرة الشعوب

(1) - كتاب لظون مورتكارت تاريخ الشرق الأدنى، ص 84.

السامية البدوية الكبيرة التي استوطنت بشكل دائم تقريباً الصحراء السورية. ولا بد أن يكون موقع ولوجهم إلى أراضي سومر قد جاء من المنطقة التي يقترب فيها دجلة والفرات من بعضهما اقتراباً شديداً في المناطق المحيطة بمدينة كيش (بابل فيما بعد).

ويذكر مورتيكارت وجود حقيقة حضارية سابقة على عصر الأكديين، في حوالي النصف الأول من القرن السابع والعشرين قبل الميلاد، ربما تتفق مع سلالة أور الأولى. ويضيف في المصدر نفسه، الصفحات 44-52: "من المؤكد أن الساميين قد نزلوا البلاد قبل أن يكون هناك دولة أكديّة، ومن المؤكد أيضاً أنهم رغم وقوفهم منذ قرون ضد السومريين إلا أنهم تصاهروا معهم واختلطوا بهم وتعاونوا معهم في جميع المجالات بعد دخولهم البلاد مسلمين في هجراتهم المتتالية حتى فاقوا السومريين خاصة في كيش وماري. ونحن نملك منحوتات من مدينة ماري تحمل كتابة سامية أقدم من أور الأولى".

وقد هاجر المموريون العمالة من جزيرة العرب وانتشروا في بداية هجراتهم في أواسط سورية ولبنان وفلسطين، وأسسوا عدة دويلات، من أهمها دولة "عمورو"⁽¹⁾ أو "مارتو" على الساحل السوري الشمالي بين أوغاريت والحدود اللبنانية، واتخذوا من ماري على الفرات عاصمة لهم، والتي كان قد ضمها سرجون الكبير إلى مملكته. غير أنهم عادوا فأسسوا عدة دويلات في وادي الرافدين بعد سقوط الدولة الأكديّة، فتمكنوا في بداية القرن التاسع عشر قبل الميلاد من تأسيس مملكة موحدة حكمت معظم أقطار المنطقة، عرفت بالمملكة البابليّة الأولى أو القديمة، كما عرفت سلالة ملوكهم بسلالة ملوك بابل الأولى. وكان أول ملوكهم "سموايوم" (1894-1881) ق.م، الذي اتخذ من بابل عاصمة له. وأخذت بابل بالتطور من بلدة صغيرة إلى أن أصبحت ذات شأن عظيم في تاريخ البلاد حتى أطلق اسمها بعد ذلك على وسط بلاد بين النهرين وجنوبها. وقد تعاقب على حكم الدولة اثنا عشر ملكاً خلال ثلاثة قرون (1894-1595) ق.م، كان أشهرهم سادسهم حمورابي الذي حكم اثنتين وأربعين عاماً (1792-1750) ق.م. وقد خلفه القانون الذي اشترعه، والذي سمي بـ "قانون أو شريعة حمورابي"، والذي كان أول تشريع يسن في التاريخ البشري.

ضم حمورابي خلال حكمه بلاد سومر في الجنوب، وآشور في الشمال، ثم مملكة ماري، ووصل إلى ساحل المتوسط، فأصبحت الدولة البابليّة الأولى تضم جميع بلاد ما بين النهرين من جبال طوروس حتى الخليج العربي، وأستولت على وسط سورية وجميع منطقتها الساحلية حتى خليج العقبة.

وفي العام 1595 ق.م تعرضت الامبراطورية البابليّة الأولى إلى هجمات الحيثيين الجبليين العنيفة التي قدمت من منطقة الأناضول، فاستباحوا بابل ونهبوها وخربوها ثم عادوا من حيث أتوا يحملون كنوزها وغنائمها. ثم زحف الكاشيون⁽²⁾ Kassite الجبليون

(1) - د. أحمد سوسة: "العرب واليهود في التاريخ"، ص 133.

(2) - انظر الصفحة 48 من هذا الكتاب.

قادمين من منطقة زاغروس في أعقاب تراجع الحثيين، واحتلوا بابل وأسسوا سلالة الحكم الكاشية التي ورثت جميع ممتلكات الدولة البابلية الأولى⁽¹⁾.

تدريجياً وعلى مر العصور أخذت القبائل التي قدمت من شبه الجزيرة العربية في الألف الرابع ق.م وبداية الثالث تستقر في منطقة شمال العراق حتى إلى ما بعد الموصل، وعرفت هذه المنطقة قديماً باسم "شويارتو أو سويارتو"⁽²⁾. وقد أسست هذه الجماعات مدينة "آشور" نسبة إلى الإله آشور، وتسموا بالآشوريين ونجحوا بإقامة إمارة صغيرة مؤلفة من مدينة آشور وضواحيها على نموذج الدويلات الأكديّة في جنوب العراق، ولأن موقع آشور محاط بالطامعين من جميع الأطراف بنى الآشوريون قواعد الدولة على أسس حربية، فنظموا جيشاً أصبح القوة الرئيسية للدولة، ثم تطورت هذه الدولة إلى تنظيم عسكري ومدني ثابت محكم لم تؤثر عليه المنازعات التي كانت سائدة حينها بين الدويلات حتى صار بإمكان قوة دولة آشور الفتية توجيه جميع قواها الموحدة للقضاء على أعدائها الخارجيين. وساعدهم بذلك استعمال الخيول والعربات في معاركهم، حتى أصبحوا أعظم قوة عسكرية ضاربة في زمنهم، فازدادوا اتساعاً وقوة وثراءً. وقد قسم العلماء تاريخ بلاد آشور العام إلى ثلاثة عهود رئيسية:

1- العهد الآشوري القديم (3500-1595) ق.م: ويبدأ في أواخر الألف الرابعة وبداية الألف الثالثة قبل الميلاد وينتهي بنهاية مملكة بابل الأولى سنة 595 ق.م. ولم يتطور وضعهم إلى كيان سياسي ثابت في هذا العهد، حيث خضعوا للحكم الأكدي، ثم بدأ بعض أمراءهم بالاستقلال في أوائل العهد البابلي الأول، ونجحوا في تكوين دولة مستقلة لهم باسم مملكة آشور، إلا أن حمورابي قضى على استقلالها.

2- العهد الآشوري الوسيط (1595-911) ق.م: على الرغم من تعرض الآشوريين إلى هجمات القبائل الآرامية من الغرب وغزو الجبليين الكالوريين والحثيين من الشمال، استطاعوا الانتصار عليهم جميعاً، حيث قضوا على الحثيين وضموا مملكتهم (ميتاني)، فتوسعت دولتهم في فترة أدن نيراري الأول (1300 ق.م) حتى الفرات، وشمالاً حتى كركميش (جرابلس الحالية). وفي فترة شلمنصر الأول (1276-1245) ق.م امتد نفوذ الدولة الآشورية شرقاً فشمّل الهضبة الإيرانية، وغرباً حتى سواحل المتوسط (كامل منطقة ساحل سورية الكبرى)، وشرق النيل، وجنوباً حتى أطراف النوبة، وشمالاً إلى ما وراء الأناضول. وقد أعاد تغلات بلاسر الأول (1115-1077) ق.م الاعتبار والهيبة إلى الإمبراطورية من جديد بعد ضعف دام لأكثر من مائة وثلاثين عاماً. ثم بدأ التدهور يذب في أوصال الدولة مرة أخرى، حيث انتهزت القبائل الآرامية الفرصة وتوسعت نحو الشرق على حساب الآشوريين وشكلت دويلات آرامية قوية في سورية والعراق الغربي بلغت ذروة ازدهارها في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد.

3- العهد الآشوري الحديث (911-612) ق.م، بأدواره الرئيسية الثلاث:

(1) H. G. Guterbock, *Babylonia and Assyria*, ed. Vol. II, pp 951- 979, 1965 -- (1)

(2) - انظر الصفحة 346 من هذا الكتاب.

أ- الامبراطورية الآشورية الأولى (911-824) ق.م: حكم هذه الفترة أربعة ملوك أشهرهم آشور ناصريال الثاني (884-859) ق.م، حيث قام بتنظيم الجيش وتدريبه، مما ساعده على توسيع فتوحاته في المناطق الجبلية الشمالية والشرقية، ومد فتوحاته نحو الغرب فاستولى على أكثر من عشرة دويلات صغيرة كمدن الموآث الفينيقية على الساحل السوري حتى فلسطين، وبعض المدن الآرامية في الوسط، ومنها دمشق. وجاء بعده ابنه شلمنصر الثالث (859-824) ق.م فورث عن أبيه امبراطورية واسعة برهن على كفاءته في الحفاظ عليها بل وتوسعتها، حيث تمكن من إخضاع الآراميين والفينيقيين والدول الفلسطينية لدفع الجزية، كما قهر بابل في حملتين، وثار عليه (شلمنصر الثالث) أحد أبنائه على خلفية خلاف ولاية العرش، واستمر التمرد لأكثر من أربع سنوات انتهت بعد موت الأب. وبهذه الحرب الأهلية بدأت فترة الضعف (824-745) ق.م التي سببت تصدعاً في جسم الدولة حيث تقلص نفوذها واتسلخت بعض الأقاليم التابعة لها، ودامت هذه الفترة قرابة الثمانين عاماً، حكم خلالها خمسة ملوك؛ منهم شمشي أدد الخامس زوج سميراميس، وسميراميس كوصية على ابنها الناصر بعد مقتل شمشي أمام أسوار بابل، ثم أدد نيراري الثالث مع أمه سميراميس الملكة الأم، ثم بدا الضعف والتمرد من جديد، إلى أن جاء تغلات بلاسر الثالث، فأعاد للدولة سطوتها، فتكونت الامبراطورية الآشورية الثانية التي صارت مرهوبة الجانب.

ب- الامبراطورية الآشورية الثانية (745-626) ق.م: تبدأ هذه المرحلة بتسلم تغلات بلاسر الثالث زمام الحكم سنة 745 ق.م، والذي استمر على مدى ثمانية عشر عاماً تمكن خلالها من استعادة نفوذ المملكة الآشورية بعد فترة الضعف التي مرت بها. وحكم خلالها ستة ملوك. وضمت في وقتها جميع أراضي الهلال الخصيب ومصر حتى أطراف ليبيا الشرقية، والهضبة الإيرانية شرقاً، والمناطق الجبلية شمالاً، وقضت على مملكة إسرائيل نهائياً، كما تم إخضاع مملكة آرام وعاصمتها دمشق سنة 723 ق.م.

ج- نهاية الدولة الآشورية (626-612) ق.م: حدثت منازعات على العرش بعد وفاة آشوربانيبال، الذي كان قائداً عسكرياً كبيراً وراعياً عظيماً للفنون والآداب، إذ احتوت مكتبة قصره في نينوى على ألواح ورقم ضمت كل ما تعلق بتاريخ حضارة بين النهرين منذ العهد السومري حتى عهده. وكان من نتيجة هذه المنازعات أن بدأت المقاطعات البعيدة بالانفصال عن الامبراطورية، كمصر والمدن الساحلية في فلسطين وسورية ولبنان، وفي أرمينية. فانتهزت بابل الفرصة وتحالفت مع ملك الماديين في الشرق وهاجموا العاصمة الآشورية نينوى وأسقطوها سنة 612 ق.م. ويسقط نينوى وموت آخر ملوكها كانت نهاية الدولة الآشورية العظيمة بعد أن عاشت لأكثر من ألف وخمسمائة عام اعترتها فترات من القوة والضعف. فمثلما تقوم بعد الموت حياة، جاءت بداية حياة دولة بابل الثانية (المملكة الكلدانية بقيادة نبو بلاسر).

الامبراطورية الكلدانية

(الدولة البابلية الثانية أو الحديثة)

يرجع العلماء أصل الكلدانيين إلى شواطئ الخليج العربي في جنوب العراق. حيث تأسست الدولة الكلدانية القديمة (الأولى) في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، والتي عرفت بسلالة الأمراء أو سلالة القطر البحري أو بسلالة بابل الثانية، والتي جاءت بالدرجة الأولى من بقايا السومريين⁽¹⁾. والكلدانيون هم من القبائل البدوية السامية، واشتق اسمهم من قبيلة "كلدي"، ويعدهم المؤرخون فرعاً من الآراميين الذين نزحوا من سورية إلى جنوب العراق.

انتهز سكان القطر البحري، بعد وفاة آشوربانيبال سنة 626 ق.م، ضعف الدولة الآشورية، فانفصل حاكم بابل نبو بلاسر سنة 625 ق.م وأعلن استقلاله عن الدولة الآشورية (سلالة البابليين الحادية عشر)، ثم تحالف مع الماديين في إيران، فشنوا حرباً مشتركة قوضت الحكم الآشوري في البلاد وأسقطت العاصمة نينوى سنة 612 ق.م. وبذلك تم تأسيس الدولة الكلدانية (البابلية الثانية) التي استولى عليها قورش الأخميني في عام 539 ق.م، واستمرت تحت حكم الأخمينيين إلى أن غزاها الاسكندر المقدوني.

لعبت الدولة الكلدانية دوراً مهماً في تاريخ المشرق في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، فامتولت على جميع الدويلات في عموم سورية الكبرى، وبلغت أوجها في عهد نبوخذ نصر الثاني، وهو ابن نبو بلاسر وخليفته، وقد كان من أعظم الملوك الكلدانيين قاطبة ودام حكمه ثلاثة وأربعين عاماً (605-562) ق.م. وقام بحملتين على مملكة يهودا فقضى عليها وسبى يهودا إلى بابل (السبي الأول سنة 597، ثم تبعه السبي الثاني سنة 586 ق.م)، إذ كان نبوخذ نصر على رأس الحملة الثانية. وقد خلفه ملوك ضعفاء إلى أن سقطت بابل بيد قورش الأخميني الذي سمح لمن شاء من اليهود بالعودة إلى فلسطين.



عاش الكاهن البابلي بيروسوس **Berosus** (بيروس)⁽²⁾ في العصر الكلداني (الدولة البابلية الثانية). حيث ولد حوالي 340 ق.م، وعاش في بابل، وكان في مقتبل العمر عند موت الاسكندر المقدوني في بابل سنة 323 ق.م. ثم سافر إلى بلاد اليونان بعد بلوغه وأقام في جزيرة كوس جنوب-شرق بحر إيجه، وأسس هناك مدرسة لعلوم الفلك

(1) - انظر أحمد موسة "العرب واليهود في التاريخ"، الصفحات (187-188)، العربي للطباعة والنشر، ط 6.

(2) - اسم بيروس بالآرامية هو يروحوشا، ومعناه: ابن القصر - المحقق.

والتنجيم. وترك لنا كتاباً ألفه باللغة اليونانية عنوانه "تاريخ بابل" *Babyloniaca*، أسسه على أرشيفات بابلية محلية^(١). وقد رسم المنجمون البابليون الأوائل في ذلك الزمن القديم خريطة النجوم في السماء، وتوصلوا إلى حساب طول السنة الشمسية بفارق ستة وعشرين دقيقة، وتمكنوا من تطوير عدة طرق ووسائل للتنبؤ بأوقات الكسوف والخسوف إلى درجة مقبولة. وقد استفاد بيروس من الأرشيفات البابلية التي ضمت معظم تاريخ بلاد الرافدين في العصور الآشورية والبابلية والكلدانية. وتم إنجاز تاريخه في ثلاثة مجلدات، كتبها بين عامي (290-278) ق.م تحت رعاية وتشجيع الملك السلوقي الثاني أنطيوخس الأول^(٢) (سوتر: المنقذ). وأشار بلينيوس الكبير ويوسفوس ويوليوس وأوسبيوس إلى ما تبقى من تاريخه عن بابل. وقد أشار بوليبيدوس اللاتيني من أصحاب "التاريخ الأوغسطي" إلى اختراع بيروس لساعة الشمسية شبه الدائرية المجوفة والمتموضعة في قالب مكعب الشكل. وصنع له الإغريق تمثالاً نصيبه في أثينا، يشير إلى شهرته وريادته في علوم الفلك والتنجيم. وانتقل لاحقاً للميش في مصر تحت رعاية الملوك البطالمة في أواخر حياته كما روى بعض المؤرخين. ولم يظهر ما بقي من تاريخه إلا بعد ظهور رواية الطبيب اليوناني كتيسياس الذي أخذ منه ديودورس الصقلي عن الملكة سميراميس. والظاهر أن بعض المؤرخين الوثنيين والمسيحيين لاحقاً اعتمدوا على المؤرخ بوسيدونيوس الأفامي (130-50) ق.م الذي أشار إلى أعمال بيروس البابلي. ويتحدث بيروس فيما تبقى من مجلده الأول عن خلق العالم، بحيث جعله يبدأ ب 432000 سنة قبل أول ملك بابلي وحتى تاريخ الطوفان. بينما يتحدث المجلد الثاني عن تاريخ بابل وملوكها حتى عام 734 ق.م. حيث أشار إلى الملكة الآشورية سميراميس (سمورامات) زوجة شمشي أدد الخامس، والذي ربما جاء وصفه لها بالآشورية كرد فعل على مجاعات به الأسطورة الإغريقية التي وصفها بمؤسسة بابل. ويتحدث مجلده الثالث عن تاريخ بابل من 734 ق.م حتى الملك السلوقي أنطيوخس الأول (280-261) ق.م.

رتب بيروس تاريخه عن بابل إلى فترات زمنية، بحيث جعل:

- 1- الفترة الأولى: تمتد من خلق العالم حتى الطوفان.
- 2- الفترة الثانية: حكمها ستة وثمانون ملكاً ساسوها في الألف الثالثة ق.م.
- 3- الفترة الثالثة: حكم خلالها ثمانية ملوك ميديين؛ غزا أولهم بابل في النصف الثاني من الألفية الثالثة قبل الميلاد.
- 4- الفترة الرابعة: حكمها أحد عشر ملكاً لم تذكرهم السجلات.
- 5- الفترة الخامسة: وقد حكمها تسعة وأربعون ملكاً كلدانياً، ويعود تاريخها إلى آخر الألفية الثالثة قبل الميلاد وأوائل الثانية ٩

(١) - يوجد اختلاف بين لوائح بيروس عن الفترات التاريخية الأولى وبين المعروف في الدراسات الأكاديمية.

(٢) - Diodorus Siculus, his library, 3.42.1.

6- الفترة السادسة: وتضم الملوك العرب الذين حكموا لمدة 245 عاماً. وأطلق على حكام هذه الفترة "حكام السلالة العربية"، المتطابقة مع السلالة الأولى التي انتمى إليها حمورابي.

7- الفترة السابعة: حكمها خمسة وأربعون ملكاً لمدة 526 عاماً. فيها ضاعت الفترات اللاحقة من تاريخه حتى نبوخذ نصر (نبوناصر)، الذي تبدأ مرحلته في 748 ق.م، وامتدت هذه الفترة حتى حكم الاسكندرامقدوني، وضمت الملوك المشهورين: نبو بلاسر، نبوخذ نصر، نابونيدوس، وقورش الأخميني.

ويمكن الاستدلال عن مجمل تاريخ بلاد الرافدين منذ بداياته بترتيب الملوك الحكام بالتالي:

- 1- عشرون إلى خمسة وعشرين ملكاً حكموا شعوبهم وهم تحت الخيام.
- 2- أحد عشر ملكاً أكدياً حكموا لمدة 180 عاماً تقريباً (2334-2154) ق.م، حيث بدأت فترتهم بحكم سرجون الأول حتى سقوط الامبراطورية.
- 3- خمسة ملوك سومريين حكموا من 2112 ق.م حتى أسقطهم العموريون سنة 2004 ق.م.
- 4- تسعة ملوك آموريين حتى 1920 ق.م.
- 5- تبدأ المرحلة التاريخية المكتوبة في الارشيفات الملكية وسجلات الموظفين الكبار من هذه المرحلة وما بعد. وقد حكم هذه المرحلة 23 ملكاً، يبدأ تاريخهم من نهاية القرن التاسع عشر ق.م إلى نهاية حكم أربيا أدد الأول (1363 ق.م).



وعلى الرغم من وجود اختلافات في تواريخ ملوك بلاد ما بين النهرين القديم بشكل عام، وذلك حسب المصادر المتعددة، إلا أنه من المفيد جدولة ملوك آشور وبابل اعتباراً من هذا التاريخ لاعتماده على سجلات ووثائق ونقوش كتابية مسمارية. ويلاحظ نوع من التداخل أحياناً خاصة بين الآشوري والبابلي، وإلى درجة أقل مع الأكدي والكلداني!

ابتداء التاريخ الآشوري المكتوب: لائحة بثلاثة وعشرين ملكاً ؟

1	إرিশوم الثاني	9 - 1727 ق.م
2	شمشي أدد الأول: وحد جميع مدن-الدولة الآشورية المستقلة	1726 - 1695 ق.م
3	إشمي داغان الأول: معاصر حمورابي في بابل	1693 - 1654 ق.م
4	آشور دوغول: جاء بعده خمسة ملوك غير معروفين	1653 - 1648 ق.م
5	أداسي: جاء بعده خمسة ملوك حكموا لفترات قصيرة	9
6	إرشمون الثالث	1545 - 1533 ق.م
7	شمشي أدد الثاني	1532 - 1527 ق.م

8	إشمي دلفان الثاني	1512 - 1511 ق.م
9	شمشي أدد الثالث	1510 - 1495 ق.م
10	أشور نيراري الأول	1494 - 1469 ق.م
11	بوزور آشور الثالث	1468 - 1455 ق.م
12	إنليل ناصر الأول؛ حكم بعده 4 ملوك حتى نيراري الثاني	1454 - 1442 ق.م
13	أشور نيراري الثاني	1423 - 1417 ق.م
14	أشور بل نيشيشو	1416 - 1409 ق.م
15	أشور ريم نيشيشو	1408 - 1400 ق.م
16	أشور نادين آخي الثاني	1399 - 1390 ق.م
17	إربيا أدد الأول	1389 - 1363 ق.م

وربما كان عدد الملوك الذين حكموا في هذه المرحلة أكثر من هذا العدد. غير أن بعضهم درج على أن يشطب من لوائح الموظفين الكبار والأرشيفات الملكية المكتوبة أسماء بعض من سبقوه، حتى أنهم كانوا يزيلون التماثيل أو الكتابات المنقوشة عليها. ولم يكن هذا الشطب أو الإزالة يتم في عصر معين من تاريخ الآشوريين، بل كان سلوكاً شبه عام لدى الكثيرين منهم.

الفترة التاريخية الآشورية الوسطى: حكمها أربع وعشرون ملكاً معروفاً

1	أشور أوباليت (أوباليط): الذي نال استقلال بلاد آشور من الميتانيين	1363 - 1328 ق.م
2	إنليل نيراري	1327 - 1318 ق.م
3	أريك دين إلي	1317 - 1306 ق.م
4	أدد نيراري الأول	1305 - 1274 ق.م
5	شلمنصر الأول	1273 - 1244 ق.م
6	تيكولتي نينورتا الأول: نهب بابل، وقتله ابنه	1243 - 1207 ق.م
7	أشور نادين أبلي	1206 - 1203 ق.م
8	أشور نيراري الثالث	1202 - 1197 ق.م
9	إنليل كودوري أوصور	1196 - 1191 ق.م
10	نينورتا أبال إكور	1191 - 1179 ق.م
11	أشور دان الأول: الميلاميون يحتلون بابل	1178 - 1133 ق.م
12	أشور ريشا أيشي: نبوخذ نصر الأول يحتل عيلام	1132 - 1115 ق.م
13	نينورتا تيكولتي آشور	1115 - 1114 ق.م
14	موتاكيل (مئكل) نوسكو	1115 - 1114 ق.م
15	تغلات بلانسر الأول: هزم نبوخذ نصر الأول	1114 - 1076 ق.م
16	أشاريد. بال إكور الثاني: حكم على نينوى وأربيل وأشور	1075 - 1074 ق.م
17	أشور بل كالا	1073 - 1057 ق.م

18	ملك أو أكثر غير معروفين	لمدة أربع سنوات
19	شمشي أدد الرابع	1053 - 1049 ق.م
20	خمسة ملوك غير معروفين	حكموا لمدة 39 عاماً
21	آشور رابي الثاني؛ عاصر داود حسب التاريخ اليهودي.	1010 - 970 ق.م
22	آشور ريش أيشي الثاني؛ عاصر سليمان (التاريخ اليهودي).	969 - 967 ق.م
23	تغلات بلاسر الثاني؛ عاصر سليمان (التاريخ اليهودي).	966 - 935 ق.م
24	آشور دان الثاني؛ عاصر سليمان (التاريخ اليهودي).	934 - 912 ق.م

الفترة التاريخية الأخيرة في الدولة الآشورية: حكمها 19 ملكاً

1	أدد نيراري الثاني؛ احتل بابل والأناضول وسورية	911 - 891 ق.م
2	تيكولتي نينورتا الثاني؛ معاهدة سلام مع بابل دون جزية	890 - 884 ق.م
3	آشور ناصر بال الثاني؛ بلغت فتوحاته سواحل المتوسط	883 - 859 ق.م
4	שלمنصر الثالث؛ هزم أرمينية، واحتل بابل وأيران؛ أول ظهور لسميراميس في البلاط الملكي (كنة שלمنصر)	858 - 824 ق.م
5	شمشي أدد الخامس؛ زوج سميراميس (سمورامات)	824 - 811 ق.م
6	سميراميس؛ حكمت الامبراطورية الآشورية كوصية على عرش ابنها القاصر أدد نيراري الثالث إلى أن بلغ السن القانوني، وذلك بعد مقتل زوجها تحت أسوار بابل.	811 - 806 ق.م
7	أدد نيراري الثالث؛ بدأت الدولة تميل إلى الضعف في نهاية حكمه	806 - 783 ق.م
8	שלمنصر الرابع	782 - 773 ق.م
9	آشور دان الثالث؛ حركات تمرد في بلاد آشور	772 - 755 ق.م
10	آشور نيراري الخامس	754 - 745 ق.م
11	تغلات بلاسر الثالث؛ استعاد قوة الامبراطورية الآشورية	744 - 727 ق.م
12	שלمنصر الخامس؛ احتل السامرة وأسر بعض اليهود	726 - 722 ق.م
13	سرجون الثاني؛ احتل مصر وأوراتو (مملكة كانت تقع إلى الجنوب من القفصاس) وبابل، وقتل في المعركة	721 - 705 ق.م
14	سنحريب؛ واجه حركات التمرد، ودمر بابل	704 - 681 ق.م
15	أسرجدون؛ جدد بناء بابل، وهزم السكيثيين والمصريين	680 - 669 ق.م
16	آشوربانيبال؛ هزم مصر وليدية وعيلام	668 - 627 ق.م
17	آشور إيتيل ايلاني؛ هاجم البابليين والميديون بلاد آشور	626 - 624 ق.م
18	سنشار إشكون؛ الميديون ينهبون نينوى	623 - 612 ق.م
19	آشور أوباليت (أوباليط) الثاني يهرب إلى حران ⁽¹⁾	612 - 6 ق.م

(1) - انظر ص 346؛ سقوط نينوى وهرب آشور أوباليط وعشرة من تائه (Ten-Chiefs إلى حران في أعالي الفرات، وتكوين مملكتهم الجديدة التي سميت: مملكة أورسرينه.

لائحة الملوك والأسر التي حكمت بابل

تحتوي لائحة الملوك البابليين (تاريخ بابل) على ملوك بابل، بحيث أسست على تصور قريب جداً من وقائع التاريخ الحقيقي لملوك بابل القدماء، المسجلة في سجلات قديمة، بحيث تداخلت مع لائحة ملوك سومر. ويمكن تقسيم التاريخ البابلي إلى أربعة عصور، بالإضافة إلى العصرين الآخرين اللذين حكمهما الفرس الأخمينيون وأغريق الاسكندر والسلوقيون.

1- العصر الأول: تشكلت مدن- الدولة الأمورية (العمورية) المبكرة التي استمر حكمها من منتصف القرن العشرين حتى بدايات الثامن عشر قبل الميلاد، وحكمها ستة عشر ملكاً. ثم جاءت الأسرة البابلية الأولى الذي استمر حكمها حتى 1531 ق.م. وكان عدد ملوكها اثني عشر ملكاً، أهمهم وأشهرهم حمورابي البابلي (1792-1750) ق.م، والذي كان معاصراً لمملكة ماري على انضرات "زمرى ليم"، وسيوي هويك العيلامي. والآشوري شمشي أدد الأول.

2- العصر الثاني: ويضم الأسرة البابلية الثانية 12 ملكاً (1530-1460) ق.م.

3- العصر الثالث: الأسرة الكاشية (1800-1170) ق.م. حكمها 19 ملكاً.

4- العصر الرابع: حكم هذه الفترة البابلية (1115-529) ق.م ثمانية سلالات:

أ- السلالة الرابعة (1115-1025) ق.م. وحكمها أحد عشر ملكاً.

ب- السلالة الخامسة (1024-1004) ق.م. وحكمها ثلاثة ملوك.

ج- السلالة السادسة (1003-985) ق.م. وحكمها ثلاثة ملوك.

د- السلالة السابعة (984-979) ق.م. وحكمها ملك واحد.

هـ- السلالة الثامنة (978-943) ق.م. وحكمها ملك واحد.

و- السلالة التاسعة (942-731) ق.م. حكمها 21 ملكاً، أهمهم نيوناصر 748-

734). وبدا تاريخ بطليموس ومصادر أخرى بتسجيل قائمة ملوك بابل.

ز- السلالة العاشرة (731-727) ق.م. وهي الأسرة البابلية - الآشورية التي حكمت

هذه الفترة على آشور وبابل (الامبراطورية الآشورية الحديثة بملوكها الآشوريين). وقد

حكمها ثمانية عشر ملكاً؛ أهمهم: تفلات بالاسر الثالث (744-727)، سرجون

(شاروكين) الثاني (710-705)، سنحريب (705-703)، شمشون أوكين بن أسرحدون

(668-648)، سي شاريكون (627-620) ق.م، وهو الذي فقد السيطرة على بابل.

وقد نهب الآشوريون بابل سنة 689 ق.م، ثم أعاد أسرحدون الآشوري بناءها سنة 670

ق.م.

ح- السلالة البابلية الحادية عشر (الدولة البابلية الحديثة: الكلدانيون) (626-529 ق.م. حكمها سبعة ملوك؛ أشهرهم: نبوبلاسر (626-605)، ونبوخذ نصر الثاني (605-562 ق.م.).

5- عصر الفرس الأخمينيين: حكم الأخمينيون بابل لمدة 209 سنوات (539-330 ق.م.) (ميزوبوتاميا الفارسية والامبراطورية الأخمينية). ففي عام 539 ق.م. احتلت جيوش قورش الكبير بابل، حيث عين ابنه ملكاً عليها. وحكم هذه الفترة 12 ملكاً أخمينياً. وكان آخرهم داريوس الملقب بقدمانوس (336-330 ق.م. وهو الحفيد الأكبر لداريوس الثاني الذي انهزم أمام الاسكندر الأكبر.

6- الحكم الإغريقي لبابل (بابل الهلينستية) (330-141 ق.م.: تم تقسيم تركة الاسكندر بعد موته، فأصبحت بابل تحت حكم السلوقيين الذي استمر إلى أن استولى عليها البرثيون الفرس سنة 141 ق.م. وحكم هذه الفترة أربعة عشر⁽¹⁾ ملكاً سلوقياً.

أسطورة سميراميس (السورية الأصل)

شملت الامبراطورية الآشورية كامل العراق، والجزء الغربي من إيران، وشمال شرق تركية، سورية الكبرى (سورية ولبنان وفلسطين)، ومصر، وآسية الصغرى، حتى أنها ربما وصلت إلى شبه القارة الهندية في فترة من فترات نفوذها. وكانت هذه المساحة الهائلة تتصلص وتتمدد حسب القوة التي امتلكتها.

أسبغت الأسطورة على شخصية سميراميس، ملكة آشور وبابل، هالة خارقة تصنع المستحيلات؛ فهي تروي سيرة امرأة مثيرة، فائقة الحسن والجمال، قوية الشكيمة، عزيزة الإرادة والتصميم، طموحة النفس، حكيمة العقل، بارعة التخطيط، وحاملة المشاعر بأنها ابنة الإلهة العسقلانية ديركيتو، والتي سارت، لاحقاً، على خطى أمها في شهنائيتها وهسوتها.. أصبحت بالصدفة محاربة، ثم ملكة وفاتحة لبلاد امتدت من إثيوبية حتى الهند. وذلك في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد. حيث أكملت فتح بابل بعد مقتل زوجها شمشي أد الخامس تحت أسوار بابل، وحكمت باسم ابنها القاصر أد نيراري الثالث لمدة خمس سنوات، وأدارت الحكم ببراعة نادرة حيث حافظت على النفوذ الآشوري، بل زادت نفوذاً على نفوذ. وبنت الكثير من البلدات والمدن والقصور والحدائق، والتقنوات المائية والسدود من أجل تطوير الإنتاج الزراعي، إضافة إلى محاولاتها لتلطيف الطبيعة الآشورية العسكرية العنيفة بجعلها قريبة من الطبيعة البابلية المعتدلة والمتصفة بإنتاجها الفكري والأدبي والفني.

(1) - لنظر لائحة الملوك السلوقيين على الصفحة 38.

كان المؤرخ الإغريقي الشهير هيرودوت أول من ذكر اسم سميراميس بعد زيارته لبابل في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. وقد وردت أسطورة سميراميس في أعمال ديودورس الصقلي⁽¹⁾ الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، والذي استقى مصادر روايته عن أسطوره سميراميس من الطبيب اليوناني كتيسياس Ctesias مواطن مدينة سنيديوس القديمة في مقاطعة كاريا (شمال غرب تركيا الحالية)، والذي عاش بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وقد هاجر إلى إيران واستقر في بلاط الملوك الأخمينيين كطبيب لمدة سبعة عشر عاماً تقريباً. حيث يعتقد أنه جمع مادته الأسطورية عن سميراميس من سجلات الحوليات الملكية الفارسية.

تقول الأسطورة أن سميراميس ولدت من أمها الإلهة السورية ديريكيتو⁽²⁾، التي كانت إلهة زراعية معبد عسقلان على ساحل فلسطين الجنوبي. ولأنها أهانت الإلهة أفروديت، قررت الأخيرة الانتقام منها، فجعلتها تقع في غرام شاب سوري. فكانت سميراميس ثمة لمواقعة حميمة بين أمها ديريكيتو وهذا الشاب الذي جاء إلى معبدها لتقديم القرابين، فاستهوته وأغوته للقيام بفعل الحب معها. ولشعورها بفعلتها المشينة، ومن أجل تغطية ما قامت به، قتلت حبيبها، وانتظرت حتى وضعت جنينها، فتركته في مكان ناء على أطراف الصحراء، ثم ألقت بنفسها في بحيرة المعبد المقدسة والمليئة بالأسماك لتتغير عما أضاعته من عفتها وطهرها، فحولتها أفروديت مياشرة إلى سمكة براس امرأة جميلة تعيش في مياه البحيرة. وقد أشار إليها المؤرخ هيرودوت باسم "أفروديت السماوية".

لم يصادف أحد الطفلة المتركة في العراء إلا جموع الحمام التي كانت تعيش في تلك المنطقة، فأشفق الحمام على الكائن الصغير وبدأ بتدفئتها بريشه، وبإحضار قطرات الحليب بمنقارة، والذي كان يسرقه من أوعية حليب الرعاة لينقطها في فم الطفلة. وبعد بلوغها عامها الأول صار الحمام ينقر قوالب الجبن ويحضرها لإطعام الطفلة، وهكذا استمر الحال على هذا المنوال حتى اكتشف الرعاة مسلك الحمام بالوقوف على أنية الحليب وقطع الجبن بشكل يثير الاهتمام. فتابع الرعاة طيران الحمام إلى حيث يحط، فوجدوا الطفلة والحمام يقوم بتزقيمها الجبن وتطييق الحليب في فمها، فأخذوها إلى رئيس القطعان الملكية "سيما". فقام سيما الذي لم يرزق بالولد برعاية الطفلة الصغيرة مع زوجته كأنها ابنتهما الحقيقية، وأعطاهما اسم "سومرامات". وقد رأى ديودورس الصقلي أن اسم سميراميس ما هو إلا تعبير عن اسم الحمامة باللغة الآشورية (السورية) القديمة. فلاحظ أن كلمة حمامة باللغة الآشورية ربما كان سومارتو Summartu وقد ذكر إزيكيل Ezechiel في قاموسه الاشتقاقي أن الحمامة في اللغات السامية تدعى "سيماو أو سوماتو".

(1) - انظر الرواية الأسطورية الكاملة في الكتب الثاني من مكتبة ديودورس التاريخية، والذي يحتوي على مئين نصلاً: The Library of History of Diodorus Siculus, published in Vol., I of the Loeb Classical edition, 1933 book II.

(2) - المصدر السابق، الصفحات (359-361).

كبرت سميراميس في كنف الزوجين سيما، ويدا ربيعهما يخطف الألباب، وحضورها يغطي على جميع أقرانها من الصبايا الفاتحات. وفي إحدى أيام جولات أونيس حاكم سورية الآشوري رأى الفتاة، التي لم تكن من أصول ملكية، فأغرم بها وسأل سيما والدها بالتبني يدها للزواج فوافق سيما، وتم الزواج، حيث أخذها معه إلى نينوى عاصمة الدولة، فأنجبت له صبيين، هما: هياتيس وهيداسبس⁽¹⁾. واثبتت الزوجة حصافة إلى جانب ذكائها في مساعدة زوجها بما كانت تقدمه له من نصائح وأراء.

كان على الزوج أونيس الذي كان في منصب التورتانو في الامبراطورية الآشورية، وهو منصب يمثل قائد الجيش والثاني بعد الملك، أن يلي نداء امبراطوره تينوس- الذي كان قد احتل كامل سورية الكبرى ومصر- لقيادة الحملة الآشورية التي يحضر لها لإخضاع بلاد باكثرية (بلاد قديمة كانت تقع في شمال أفغانستان الحالية، وجنوب طاجيكستان وأوزبكستان الحاليين). استطاع الجيش بقيادة أونيس احتلال معظم مدن باكثرية ما عدا العاصمة باكثرا المحصنة التي صعبت عليه. مع ذلك استمر بحصارها لفترة طويلة دون أن يتمكن من فتحها بسبب مناعتها واستيسال المدافعين عنها. فبدأ القائد الآشوري يشعر بالقلق من عدم مقدرة جيشه على حسم الأمر وفتح المدينة. ولما طال المقام اشتاق لزوجته الحبيبة سميراميس فبعث لإحضارها. وبعد وصولها تداول معها أمر الحصار لمعرفة بذكائها ورجاحة عقلاها، فاتفقت معه على دراسة مواقع المدافعين عن المدينة. من أجل ذلك تخفت داخل ملابس الجنود وبدأت بمراقبة وملاحظة الطريقة التي تدار بها الهجمات ورد المدافعين عليها. لم يطل بها وقت المراقبة والملاحظة حتى أدركت أن الطريقة الوحيدة للتغلب على المدافعين هي في تحييد تكتيكاتهم وأساليبهم، وذلك بخطة مباغطة جسورة.

لاحظت سميراميس أسلوب المدافعين عن المدينة ضد الهجمات الآشورية، بأن المدافعين المرابطين في القلعة المبنية على رأس الجبل يتحدرون بسرعة للوقوف إلى جانب المتمرسين وراء الاستحكامات على الأسوار المحيطة بالمدينة، فينجحون بإفشال الهجمات الآشورية، خاصة وأنهم كانوا في كل مرة يحسبون كيفية الرد قبل المباشرة به، لرؤيتهم كيف كانت تتم الهجمات وهم يراقبون من فوق الأسوار ومن مشارف القلعة في الأعلى.

اختارت سميراميس المتخفية باللباس العسكري وبمعرفة زوجها كتيبة من الجنود الأشداء وتسلمت معهم في ظلام الليل الجدران الخلفية للقلعة في اصعب نقطة للصعود إليها وأضعة في الاعتبار اطمئنان المدافعين في القلعة من استحالة اقتحامها من هذا المكان. فكان ظهورها السريع مع وحدتها العسكرية الخاصة مفاجئاً للمدافعين النائمين في الأعلى، بل صاعقاً، إذ تمكنت مع فريقها من حسم الأمر بسرعة كبيرة توافقت مع

(1)- يتفق نيولا الميثقي مع الكاتب الأرميني موسى الخوري من أن الولدين حاولا التخلص من الأم والأخ الصغير نينياس للاستيلاء على العرش، لكن المؤامرة انكشفت، فقتل أمهما بقتلها، غير أن المصادر الآشورية لم تتحدث عن ذلك.

هجوم ليلي شامل بقيادة زوجها الذي استطاع فتح ثغرات في الأسوار، حيث بدأ تدفق القوات الآشورية بالعبور إلى وسط المدينة، وبالتالي فتحها واستسلامها .

لما طارت أخبار الفتح إلى الملك الآشوري نينوس في العاصمة نينوى، استدعاها مع زوجها وأخذق عليها الهدايا وعبارات المديح والشكر. وبطبيعة الحال - كما في معظم الأساطير، أو كما يحدث مع أصحاب الجاه والسلطان من مصادرة، ويدون وجه حق، كل ما هو مميز- وقع الملك في حب سميراميس، كيف لا وجمالها لا يقاوم، وذكائها غير مقارن، فطلب من الزوج والقائد أونيس أن يتنازل عن زوجته له مقابل تزويجه بابنته. إلا أن أونيس الذي يحب زوجته رفض المقايضة، فهدده الملك بسمل عينيه إن لم يوافق، لكن أونيس لم يستطع إعطاء الموافقة على المقايضة باللسان بل بالانتحار، حيث أقدم على انتحار مشرف رآه أفضل من عيش مهين .

تزوج الملك الآشوري نينوس من سميراميس وجعلها ملكة آشورية تجلس معه على العرش. فأنجبت له ذكراً أسموه نينياس. فأودعها وصاية ابنتها على العرش قبل موته بعد أن حكم الامبراطورية لاثنتين وأربعين عاماً. فاشترقت على دفنه في مقبرة الملوك، وبنت له ضريحاً عظيماً يليق بمقامه كملك وزوج.

أتت روايات أثيناؤوس وديون وبلوتارخوس وآخرون، مع بعض الاختلاف في التفاصيل، من أن سميراميس كانت امرأة جميلة قدمت إلى الملك الآشوري، الذي وقع في حبها، وكهدية زواج طلبت منه الرداء الملكي والحكم لخمس سنوات، إذ أمرت الخدم، بعدما أجابها الملك إلى طلبها، بقتله، وهكذا وصلت إلى حكم⁽¹⁾ الآشوريين؟

جاء حلم سميراميس كي تسبق إنجازات زوجها المجيدة، فقررت أول الأمر بناء مدينة تناسب طموحاتها، فقامت ببناء مدينة بابل⁽²⁾ (حسب الأسطورة)، وأحاطتها بسور طويل يبلغ مداه أكثر من خمسين كيلومتراً، ويتسع عرضه لمرور عريتين متوازيتين في وقت واحد. وبنت الأرصفة النهرية لتسهيل أعمال التجارة، وأنشأت جسراً على الفرات، وأقامت على كل طرف من طرفي الجسر العجري قصراً وربطت القصرين بنفق يمر تحت النهر. وقد قامت بزيارة لجميع أقاليم المملكة؛ ميديا وفارس ومصر وإثيوبية وليبية، وبنت النصب والحدائق، والطرق في السهول وفي الأماكن الوعرة.

قررت سميراميس بعد أن رتبت أمور مملكتها في الداخل أن تغزو الهند، حيث جعلت من باكترية نقطة انطلاقها لتحقيق غرضها، فأعدت خططها لعبور نهر السند، ومواجهة جيش ستابرويات ملك الهند وفيلته المشهورة. فأقضت ثلاث سنوات بالاستعداد لغزوتها الهندية هذه بجمع جيش هائل من المشاة والفرسان والآلات. كما تفتقت عبقريتها عن

(1) - كان الملوك الآشوريون يقومون بتصيب ممثل يقوم مقام الملك خلال الفترة التي يتدبأ بها الملكيون بصوف القمر أو كسوف الشمس لتتكلل اللعة إلى الممثل وليس إلى الملك. وتكرت اللوائح المسماة المكتشفة بمكتبة نينوى عن مصير أحد هؤلاء الممثلين الذي استمر في مهمته لمدة يوم على العرش، أعادوه بعدها إلى بيته لعدم تحقق ما تنبأ به الملكيون. ويمكن التخمين أن صعود سميراميس الأسطوري قد تم خلال القيام بهذا الدور؟

(2) - سميرامات هي من بنت بابل وحديثها المعلقة حسب كتبنا، ولكن طماء للتاريخ يقولون أن نبوخذ نصر الثاني هو من بنى حدائقها المعلقة على غرار حدائق بابل محظيته المدينة المفضلة لشعورها بالحنين لبساتين وحدائق بلادها؟

صناعة دس على شكل القيلة ويحجمها بشكل يغطي جماً يحمل شكل فيل مزيف، يسار به لإيهام الهنود وفيلتهم بهجوم فيلنها الحرية هذه. كما قام المهندسون الفينيقيون والمصريون والقبارصة، الذين أحضرتهم، ببناء القوارب التي ستعبر بها النهر.

ابتدأت المعركة بعبور جنودها مستخدمين القوارب المائية، فانهزم الهنود إلى الضفة الشرقية للنهر أمام تقدم قواتها، غير أن الجيش الهندي ثبت بقوة على البر الشرقي للنهر، فدارت معركة حامية الوطيس انتصر فيها الجيش الهندي وهزم الجيش الآشوري، وجرح سميراميس بذراعها وظهرها، فقررت العودة إلى نينوى وهي تجر أنيال خبيتها. عمرت سميراميس حتى الثانية والستين. وقد هامت بتسليم المسؤولية الملكية لابنها نينياس، الذي قام بمحاولة فاشلة لإقصاء أمه عن السلطة. بعد ذلك اختفت سميراميس بشكل غامض. ويروي ديودورس الصقلي في أسطوريته أنها تحولت إلى حمامة طارت مع جموع الحمام.

خصص الطبيب الإغريقي كتسياس معظم فصول كتابه للحديث عن سميراميس وسيرتها وأعمالها، والقليل عن زوجها نينوس. قدخلت سيرتها الذاكرة التاريخية الأسطورية بشكل لا يمحي، بينما بدت صورة نينوس في الأسطورة باهتة وغير مؤثرة

سيرة سميراميس التاريخية

تعتبر أسماء الملك نينوس وزوج سميراميس وإبهما نينياس أسماء أسطورية استخدمها المؤرخ ديودورس الصقلي نقلاً عن رواية الطبيب الإغريقي كتسياس، إذ لم يعثر في الأرشيفات والحواليات الآشورية على ما يشابه هذه الأسماء من قريب أو بعيد. ويعتقد بعض الباحثين أن هذين الاسمين اشتقا من نينوا؛ وهو الاسم الآشوري لنينوى العاصمة. أما فيما يخص اسم سميراميس، فقد اكتشف عالم الآثار الإنكليزي هنري لايارد^(١)

(١) - جاء في الصفحات (177-179) من الموسوعة السوسرية، مطابع الأهرام التجارية، المجلد رقم واحد، ما يلي: بدأ الاضطلاع بالبحث عن هذه الآثار الخالدة الفرنسي بول بوتا، والإنكليزي هنري لايارد، والألمانيون كرنهوب وآنديري. بدأ بوتا سنة 1842م التنقيب في دورشاروكيم التي تبعد حوالي 12 كم عن مدينة نينوى، فُكشفت عن قصر سرجين الثاني (721-705 ق.م) الذي أقامه في مدينة عظيمة ذات أبواب سبعة. واكتشف بوتا 200 حجرة شامخة في القصر بنيت حول أفنية، ويواجه الجدران الداخلية للقصر ما طوله ميلان من النقوش البارزة المعجسة لموك وألوه وجنود يقاتلون ويتعبدون لإلههم آشور، ويقوم على حراسة بوابات القصر أسود ضخمة مجسدة وبيران لها رؤوس آدمية. وفي أثناء أعمال التنقيب والاستكشاف التي كان يقوم بها بوتا قام هنري لايارد سنة 1845 بالبحر والتنقيب في روة النمرود. وسرعان ما كُشف عن غرف مبطنة بلوحات مرمرية تغطيها كتابات مسمارية ونقوش بارزة مجسدة لمقاتلين، وصيادي أسود، وراكبي مركبات من ذات العجلتين، ومهاجمين لحصون بالمجنوق، بعضهم يتسلمون الفدية من مهزومين. وكان ثمة حولان ضخمان مجنحان لهما رأس إنسان، هما أسد وثور يحرسان مدخل أحد القصور الملكية الثلاثة التي شيدها الملك الآشوري ناصريل الثاني (879 ق.م).

وفي عام 1849 بدأ لايارد الحفر في روة كويونجيك، فُكشفت على مدينة نينوى، التي طالما حلم علماء الآثار بالعثور عليها، فُكشفت عن تسمع غرف في قصر الملك آشور العظيم منحاريب (705-681 ق.م). وتم الكشف عن أبعث فنون العمارة والنقوش في الحضارة الآشورية، وكثير من ألباء التصوير، والنقوش، والأسود والتزيين المجسدة، ونقوش مجسدة ضخمة من المرمر الملون لمعارك حربية، وحصون، وسفن، ومحاربين ملتحين، وريما أقواس، وقرصان يطاردون أعداء

ومرافقه الآثاري الآشوري العراقي الجنسية هرمز رسام في بعثتهم للتنقيب عن آثار مدينة نمرود الحالية التي كانت تسمى مدينة كلخو في العصور الآشورية، تماثيل الإله نبو التي وجدت في المنطقة المقدسة من كلخو (معبد نبو) الذي أسسه أدد نيراري الثالث (787-788) ق.م كما ورد في قائمة الموظفين الكبار. وقد حملت بعض هذه التماثيل كتابات إهداء جعلت من سميراميس⁽¹⁾ شخصية تاريخية حقيقية.

وقد أمر بإقامة هذه التماثيل - حسب النقش الموجود على قاعدة التمثال - بيل ترسي إلوما حاكم كلخو والموظف الكبير حينها (787-798) ق.م، والنقش عبارة عن صلاة ودعاء مهدي من الحاكم إلى الإله نبو: "لنبو، من أجل طيب حياة أدد نيراري ملك بلاد آشور، سيده، ولطيب حياة سمورامات، المرأة الملكية، سيدته، قام بيل ترسي إلوما حاكم كلخو، بجعل خفيدي وسيرفانا وتيمين ويلونا، يقيمون (هذا التمثال) من أجل حياته الخاصة، أياماً طويلة وسنوات كثيرة، من أجل سلامة بيته وشعبه، ومن أجل الخلاص من الأمراض. أيها الإنسان الذي ستأتي ثقتي في (نبو)، ولا تقف ياله آخر غيره"⁽²⁾.

كما وجدت البعثة تماثيل لإلهين من آلهة الآشوريين بالقرب من معبد الإله العظيم نبو. وعلى أحد هذين التماثيل نقش يقول: "إن حاكم كلخو يهدي هذين التماثيل إلى نبو من أجل حياة ملكه ومولاه أدد نيراري ملك آشوريا، ومن أجل حياة مولاته أم الملك (الملكة الأم) سمورامات، ومن أجل حياته هو نفسه. واسم سمورامات هنا يستدعي اسم سميراميس في الأسطورة الإغريقية، بينما عرف اسم أدد نيراري من نقوش أخرى كثيرة، ومن الأرشيف الملكي الآشوري. ففي العقد الأول من القرن العشرين اكتشف العالم الألماني والتر اندريه الذي رأس فريقاً للتنقيب في مدينة آشور القديمة صفين من ألواح الشواهد القبورية الحجرية وعليها نقوش كتابية تشير إلى أسماء مسؤولين كبار؛ العديد من الملوك الآشوريين، وثلاثة نصب تقع وسط نصب الملوك خصصت لزوجات الحكام، مشيرة إلى سمورامات، سيدة القصر الملكي، وتشميتو- شرأت وآشور- شرأت. والأخيرتان

مذعورين، وملوك يطمعون العرصات، تلوح رؤوسهم المظلات وهم يتقدمون على امتداد أنهار يحف بها الخيل وتسلق بالأسماك، ونساء وأطفال يقادون للزئبق، وأسود مطعونة بالحرايب وهي تثب على صيادها من فرط الأمل والاهتاج. بيد أن أهم هذه المكتشفات جميعاً كان المكتبة الملكية للملك آشور بانيليال، إذ عثر على الآلاف من ألواح الصلصال والأنسطوانات تمنحها جميعاً الكتابة المسمارية، التي تخط العلماء لك رموزها سنة 1857. وبذلك أصبح بالإمكان قراءة الكتابة البابلية والآشورية.

وكشف كوليبوي وأندري عام 1903 عن قصور ومعابد مدينة آشور (ومنهما المعبد الكبير الهرمي الشكل المؤلف من عدة طوابق، وهو معبد آشور كبير آلهة الآشوريين)، وتم للكشف عن كثير من القبور التي احتوت على أوان خزفية وقبور وألواح الصلصال.

برع الآشوريون في مجال فنون العمارة والنقوش فشيّدوا ونقشوا أصلاً تمكنت من الطود آلاف السفن، وذلك لاحتواء بلاد آشور على محاجر من الحجر الجيري والبازلت والرميزي. بينما برع البابليون بصناعة ألواح الصلصال لثة المحاجر في جنوب بلاد بين النهرين؛ بلاد بابل.

(1) - انظر سميراميس ملكة آشور و"بابل" لجورفاني بتقيانق، ص (36-40)، ترجمة د. عبد مرعي، روائد للثقافة، دمشق، للتعرف على حقيقة سميراميس التاريخية من خلال المكتشفات الأثرية والنقوش والمسجلات الملكية.

(2) - المصدر السابق، ص 37، بالإضافة إلى ما ورد في كتاب دونالد ماككنزي:

Myths of Babylonia and Assyria, by Donald A. Mackenzie, (1915), XVIII, P. 422

هما قرينتا الملكين سنحريب وآشوربانيبال. أما سمورامات فما هي إلا سميراميس نفسها. فقد أكد العالم روكس أن سمورامات هي سميراميس تتكلم عن نفسها في هذا النقش، وهي سيدة القصر الملكي لزوجها الملك الآشوري شمشي أدد الخامس؛ ملك العالم، وهي كنة شلمنصر الثالث "ملك الجهات الأربعة؛ ملك العالم".

بينت النقوش المكتشفة موقع سميراميس تاريخياً، إذ كانت زوجة شمشي أدد الخامس (823-811 ق.م ابن شلمنصر الثالث الملك الآشوري الشهير (858-824) ق.م، وأم الملك الآشوري أدد نيراري الثالث (810-783) ق.م، كما أنها كانت كنة شلمنصر الثالث نفسه. كما بين نقش آخر، اكتشف سنة 1916، كان قد أمر ببنائه أبنها الملك أدد نيراري يشير إلى اعتلائه العرش بعد بلوغه السن القانونية سنة 806 ق.م بعد أن حكمت سمورامات لمدة خمس سنوات كوصية على العرش، فحكمت الامبراطورية خلال فترة قصوره، تماماً مثلما فعلت سميراميس في سياق الأسطورة الإغريقية.

قدم جيوفاني بيتيناتو في كتابه "سميراميس ملكة آشور وبابل"، عرضاً مفصلاً لتربية الامبراطورية الآشورية الحديثة المياسية والاقتصادية والعسكرية والإدارية. بحيث مثلت الطريقة التي حكم بها الآشوريون تحقيق رغبة الإله آشور بالانتصار النهائي والدائم دون أخذ لاعتبارات إنسانية، فكانت قسوتهم وطغيانهم وشهوتهم العنيفة إلى السلطة والتحكم بالشعوب وثوراتها قد مكنتهم من تحقيق الحلم الآشوري في بدايات الألف الأول قبل الميلاد. إلا أن سلوكهم في الرعب والإرهاب والظلم والقسوة منعهم من القدرة على سلوك التطبيع الإنساني مع الشعوب التي قهروها، ولذلك سقطت دولتهم في نهاية المطاف. وأبرز الكاتب محاولات سميراميس لإصلاح النظام السياسي والعسكري التي قامت عليه الدولة إلى تطبيع متدرج وتصالح مع النظام الذي كان سائداً في بابل، إضافة إلى محاولاتها إدخال عبادة الإله البابلي نبو إلى بلاد آشور في عملية ابغت منها صهر الشعبين الجارين في بوتقة امبراطورية واحدة بحيث يعطي أحدهما الآخر ما يفقده، فيضيف إلى الآشوريين من حقول الفكر والأدب والفنون البابلية، وبالمقابل يأخذ البابليون ما يفقدونه من فنون العسكرية والحروب التي امتاز بها الآشوريين. ويبدو أن التأثيرات الثقافية البابلية بدأت بالتأثير على الآشوريين في عهد شلمنصر الثالث، وربما كان هذا التحول من جانب شلمنصر قد أدى إلى امتعاض النخبة السياسية والدينية والاقتصادية الحاكمة التي وجدت تعبيرها لاحقاً في الثورة التي قامت بها المدن الآشورية في نهاية عهده. وقد أسس شلمنصر مكتبة في كلخو ملأها بثقافة البابليين، ومن بعده أضاف أدد نيراري الرابع مجموعات ضخمة جديدة إلى هذه المكتبة.

وقد توصل علماء آثار ألمان وإنكليز إلى العثور على مكتبات آشور ونينوى المسمارية، وعلى الخصوص مكتبة آشوربانيبال الشهيرة في نينوى، وكذلك وثائق البابليين والسومريين، بحيث مكنتنا هذه الوثائق من التعرف على صورة الواقع التاريخي

والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والأدبي لمجمل ما قدمته حضارات بين النهرين منذ أقدم عصورها .

اختلفت الشعوب القديمة التي عايشَت تلك العصور في التنازع على نسب وأصول سميراميس إليها . فحاول كل شعب ادعاء انتمائها إليه؛ حيث نسبت إلى الآراميين الذي كانوا يشكلون الغالبية العظمى من سكان سورية القديمة في القرون الأولى من الألف الأولى قبل الميلاد، وادعى كل من البابليين والفرس والآراميين والأورارتيين بنسبها إليهم. وذكر المؤرخ الإغريقي هيرودوت وجود ملكتين بين الملوك البابليين بقوله: "حكم بابل ملوك كثيرون بنوا الأسوار والمعابد، كان بينهم امرأتان، الأولى سبقت الثانية بستة أجيال تقريباً، هي سميراميس التي قامت ببناء السدود والجسور، وشقت الأقنية والترع. والثانية: نيتوكريس التي ربما زينت بابل بالحدائق المعلقة".

ونيتوكريس Nitocris هو اسم إحدى زوجات الملك الآشوري سنحريب (705-681) ق.م، والتي أصبحت صاحبة سلطة قوية جداً في الدولة، فعينت ابنها أسرحدون (681-669) ق.م، أصغر أبناء سنحريب ولياً للعهد. ثم عملت على تولية حفيدها آشوربانيبال بن أسرحدون (669-627) ق.م على العرش، حيث كان آخر ملك عظيم في التاريخ الآشوري الأخير. ويقال أنها تمكنت من ترتيب وحياكة أمور الدولة لمدة تزيد على خمسين عاماً.

ويبين النصب الموجود في متحف مرعش في تركيا حقيقة وجود سميراميس التاريخية. إذ يشير النقش الموجود على النصب إلى اسم المتبرع به، وهو أدد نيراري الثالث الذي قرن اسمه في النقش مع اسم أمه سمورامات. وهذا يدل على أن هذا الملك يسمي نفسه مع أمه في وثيقة رسمية مما يؤكد على حقيقة وجودها التاريخي، وليس الأسطوري فقط.

يذكر المؤرخ الكنسي أوسيبوس القيصري: "خرجت سلالة الملوك الآشوريين الحديثة من جهة الملكة سميراميس". كما أشار بلوتارخوس في تاريخه إلى أصولها السورية من مدينة عسقلان التي كانت مدينة مستقلة عن دولة دمشق أو عن مملكتي إسرائيل ويهوذا قبل ولادة سميراميس بفترة وجيزة. وقد احتلها الملك الآشوري شلمنصر الثالث (858-824) ق.م حسبما أخبرتنا بها حوارياته المكتوبة التي تحدثت عن مسار حملاته وزحف جيوشه نحو الغرب باتجاه الساحل السوري بما فيه فلسطين، إذ يذكر أنه وصل ساحل المتوسط خمس وعشرين مرة. وتشهد على ذلك حوارياته المنقوشة على مسلته، وكذلك النقوش الكتابية النافرة على المصلة السوداء، وفي المشاهد الحربية التي رسمها على شرائط⁽¹⁾ البرونز الطويلة على بوابات قصر "بلوات" الذي بناه والده آشور ناصربال الثاني.

(1) - المصدر السابق نفسه، الصفحتان (110-111): "ترك لنا آشور ناصر بال إلى جانب حوارياته وصفاً دقيقاً لحملاته العسكرية في منحوتات مجسدة في مدينة كلخو (أمرود الحالية). بينما فضل ابنه شلمنصر الثالث حفرها على أثرين تزيين عظيمين هما المسلة السوداء وبوابات بلوات البرونزية: وتحت للمسلة السوداء كلها زهرة مؤلفة من ثلاث

ويصف شلمنصر في حولياته محاولة احتلاله النهائية لسورية وفلسطين حسبما جاءت في كتاب جيوفاني المذكور، ص 105: " أدركت الدول السورية في هذه الأثناء الخطر الآشوري، فاقامت تحالفاً عسكرياً بقيادة ملوك حماة ودمشق وضم أربع عشرة مملكة. حيث حدث اللقاء الأول في العام 853 ق.م في قرقر على العاصي، من جهة الجيش الآشوري المجرب للقتال، ومن الجهة الأخرى قوة المتحالفين، التي وجد بينها لأول مرة عرب يركبون الجمال.. وقد قاومت الدول الآرامية الصغيرة، لكن القوة كالأسد، فاضطر شلمنصر أن ينسحب بأيد هارفة. إلا أنه استطاع بعد محاولات عديدة أن يخضع مجموع هذه الدول الآرامية تحت سلطانه".

قدمت سميراميس نفسها لمجتمع الدولة والنخبة الآشورية كمحاربة وإنسانة تتساوى مع الرجل وتتحلى بالحكمة والنضج، وتتمتع برؤية اجتماعية وسياسية ودينية جديدة، فكانت أول سيدة ملكية آشورية يشار إليها بتعابير المساواة مع زوجها الملك في السجلات الرسمية الملكية، وكمملكة أم "سيدة القصر الملكي" أيام ابنها أدد نيراري الثالث بحيث قرن اسمها مع اسمه في نقش التقديس على تمثال الإله نبو. وتمكنت من إنقاذ الدولة من الانهيار في لحظة فارقة من التاريخ الآشوري، وذلك بعد موت زوجها شمسي أدد الخامس تحت أسوار بابل بحيث انتقلت سريعاً من العاصمة إلى قيادة المعركة بنفسها والانتصار وفتح بابل وضعبها إلى الامبراطورية. وكي تستطيع القيام بمهمتها كمملكة كان عليها أن تتفوق على ذاتها وتتساوى بالرجل الآشوري المحارب بإقتاعه أنها ليست أقل كفاءة وقدرة منه في تقلد أمر الملك والدولة. وقد أنجزت سميراميس مهمتها بنجاح كإدارية ومحاربة مساوية للرجل، وكحكيمة تتمتع بحصافة وحزم تمكنت من إنقاذ الدولة الآشورية من الإنحدار والسقوط.

كما مثلت سميراميس أهم شخصية نسائية في تاريخ بلاد ما بين النهرين في العصر الامبراطوري الآشوري الوسيط. وقد تركت انطباعاً عميقاً في المخيلة العامة من خلال سيرتها الناجحة في الدولة والحكم. حيث ارتبطت أسطورتها وتاريخها بسيرتها كمملكة وحاكمة وكأم مقدسة⁽¹⁾ ترأست فوق المقادير الإنسانية في الحب والحرب والسلطة والشهوة في زمنها، تماماً مثلما اشتهرت أسطورياً بوالدها ديركيو المقدسة إلهة الحمام والأسماك في عسقلان من أعمال سورية.

طبقات؛ ارتفاعها مترين وعرضها 60 سم عند القاعدة و40 سم عند القمة، وقد نحتت في خمسة حقول، أما رقائق النحاس البرونزية على بوابات قصر بولات، فكانت درجتاً الباب الفخشي البالغ عرض كل منها 160 سم وارتفاعها 610 سم، إضافة إلى فصائلي الباب الفخشين، مغطاة بستان شرائط برونزية تحمل عروضاً نادرة، وعرض كل شريط 28 سم ومماكة 2 مم ومقسم إلى حقلين، بحيث نقش المشاهد على ارتفاع 13 سم. وتذكر كلها حروب شلمنصر لمظفزة⁽¹⁾ - كانت عبادة للملكة الأم أو الأم العظيمة عبادة شعبية عند شعوب آسيا للفرية وبعض من مناطق آسيا الصغرى، ومصر، وجنوب وغرب أوربة. ويبدو أن هذا الاعتقاد أو التقديس أو العبادة جاءت اسامياً من الطقوس التي صاغت النشاط الزراعي عند المجموعات الشرقية لأعراق السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. وكانت عبادة الآلهة والإلهات متداخلة في بلاد آشور وبابل، حيث كان ذلك واضحاً في عبادة عشتار إلهة الحب والحرب والخصب، وعشتروت عند الفينيقيين (الإلهة الأم).

اشعل الابن الأكبر لشلمنصر آشور دان أبلي في سنة 827 ق م ولدة ست سنوات حرياً أهلية على خلفية ولاية العرش التي كان قد منحها الأب لولده الأصغر شمسي أدد الخامس، إلى جانب أسباب أخرى اقتصادية وسياسية واجتماعية، إلى أن تمكن الأخير مع زوجته سمورامات من حسم الصراع المسلح من العاصمة الثالثة لكخو ضد أخيه، فأعاد سيطرته على آشور ونيوى اللتين كانتا قد تمردتا مع غالبية المدن الآشورية تحت قيادة الأخ المنافس، واستمرت الحرب الأهلية بعد وفاة الأب لشلمنصر بسنتين حتى تم القضاء عليها نهائياً، فاستقر الحكم لشمسي أدد وزوجته الملكة سميراميس.

وقفت سميراميس إلى جانب زوجها، وربما كان تأثيرها في الوفاق مع بابل وراء تحالفه مع الجار الجنوبي لحسم الصراع لصالحه في الحرب الأهلية. ذلك أن شلمنصر كان قد بدأ بتمتين عرى الصداقة والتحالف مع جيرانه البابليين في الجنوب، غير أن شمسي أدد الخامس بعد أن استقرت له الأوضاع اعتبر أن الاتفاق الذي عقده والده مع الملك البابلي مردوك زاكير شومي غير مناسب. لذلك قام بنقض الاتفاق حيث جند عدة حملات عسكرية ضد بابل حتى تم فتحها، وبذلك أصبح الآشوريون أسياذ كامل بلاد الرافدين بعد ضم بابل لها. غير أن البابليين لم يركنوا إلى سيطرة الآشوريين على بلادهم؛ إذ أعلن ملكها الجديد تمرداً على حكم الآشوريين سنة 812 ق م، مما اضطر شمسي أدد إلى القيام بحملة عسكرية لإخماد التمرد، فأصيب إصابة قاتلة أمام أسوار بابل في 811 ق م. فما كان من سميراميس إلا أن تتصرف بسرعة وثبات بالذهاب لقيادة المعركة وتولى مسؤولية الموقف الحرج بنفسها حتى قضت على التمرد. فكان أن منحها المجمع الآشوري الحاكم ثقته في الإشراف على وصاية عرش ابنها القاصر. ذلك أن موت الملك وولي العهد ما يزال صغيراً، وشبح الفراغ يهدد كيان الدولة، فرض عليها القضاء على تمرد الملك البابلي في المقام الأول. ولمعقتها بتقاليد آشور العميقة بتبوأ الرجال هرم السلطة والحياة أدركت أن من الحكمة ألا تسمى نفسها ملكة بلاد آشور بل اكتفت بالإشارة إلى نفسها كزوجة الملك، الزوجة الملكية، وأم الملك (الملكة الأم)⁽¹⁾، وكنة شلمنصر الثالث.

كان أدد نيراري الثالث في العاشرة لما تسلمت أمه مسؤولية الحكم، فبدأ أنها المرة الأولى في العصر الآشوري الممتد على أكثر من ألف عام تحكم فيه ملكة بأصولها غير الآشورية بعفدها، إذ لم يكن العهد قد طال بها كثيراً عن منبتها الأول: الأرامي السوري-الفلسطيني.

(1) - انظر جيوفاني بينيتانو "سميراميس ملكة آشور وبابل"، المصفحات (197-199)، ترجمة د. عبد مرعي، روافد للثقافة، دمشق؛ (كانت مؤسسة "الملكة الأم" معروفة منذ أقدم العصور في سورية الكبرى. وكمثال على ذلك: الأميرة الفينيقيّة إيزابيل ابنة ملك صور وزوجة آخاب كملكة أم مارست نفوذاً في مملكة الأولاد أخزيا ويورام من ملوك يهودا. كما تمتعت الملكة الأم في أوطاريت باحترام كبير (1400-1200) ق م حيث كانت الأم تترب عن الملك عند غيابه عن العاصمة، وكانت تتدخل عند تعيين ولاية العهد. وكانت الملكة الأم تحظى باحترام الحثيين الكبير، وكان الأمر كذلك في ممالك الفينيقيين، وفي ايبلا، وفي للممالك القبطونية).

قسمت الامبراطورية الآشورية إدارياً إلى عدد من الولايات، والولايات إلى مناطق، والمناطق إلى وحدات إدارية أصغر. وكان الملك يحكم مع "مجلس كبار المملكة الأربعة" الولايات. وكان للأربعة كبار مهمات رئيسية يمارسونها. أهمها منصب التورتانو، الذي يقوم مقام نائب الملك في قيادة الجيوش كقائد أعلى. وكانت البلاد مقسمة إلى 26 ولاية أيام شلمنصر الثالث وابنه شمشي أدد الخامس زوج سميراميس، كما يظهر من لائحة الموظفين الكبار.

وزعت سميراميس المناصب^(١)، وبخاصة مناصب الأربعة كبار في المملكة (نائب القائد العام، منادي القصر، كبير السقاة، المفتش) وعينت حكام المقاطعات الكبيرة التي من ضمنها آشور وكلخو، وركزت على موظفيها كبار وكافات الموهوبين، وأرسلت الحملات ضد الميديين في الشرق، وضد جوزانا في الغرب. ولم تحرم نفسها من المتعة والمسرة، إلا أنها تجنبت الزواج كي لا تفقد سلطاتها، فكانت تختار الأجل والأقوى من بين جنودها لإشباع رغبتها الأنثوية، حيث كان الإختفاء هو المصير النهائي لذلك الأجل والأقوى.

استمرت سميراميس كوصية على عرش ابنها وكحاكمة وكأم للملك "مؤسسة الملكة الأم" بتأثيرها على ابنها حتى وفاتها، وبدخال عبادة إله الحكمة والثقافة البابلي نبو إلى مجمع الآلهة الآشورية بشكل رسمي كتمهيد للتطبيع بين الشعبين البابلي والآشوري، لإدراكها أن التقارب بين الطرفين فيه مصلحتهما مجتمعين؛ فالآشوريون كانوا الأقوى سياسياً وعسكرياً، لكنهم افتقدوا إلى ما امتاز به البابليون، ورتة التراث السومري الديني والثقافي والفلسفي الذي تحدث عن خلق العالم والحياة والطوفان، من بعد تقياف وفكري. ورغم مقاومة الآشوريين لمحاولات التطبيع التي قامت بها سميراميس للتصالح مع بابل، أدرك الملك الآشوري آشوربانيبال (668-627 ق.م، ولو متأخراً، أهمية ذلك، فقام بحفظ "الحواليات الآشورية التاريخية" التي حفظت كامل تراث بلاد الرافدين شمالاً وجنوباً. إذ أمر بجمع وكتابة جميع النصوص المتناثرة من سومرية وبابية وآشورية قديمة وحديثة، مثل فيها، بالدرجة الأولى، الإنجاز البابلي الثقافي العظيم أساس هذا الصرح الهائل، فاشرف على جمعه في عشرين ألف رقيم طيني وضعها في مكتبته الشهيرة "مكتبة آشوربانيبال" في نينوى.

وقد أنارت رقم وألواح المكتبة التي اكتشفها الأثاريون الانكليز، في بداية القرن العشرين، ظلام الماضي السحيق، فظهرت ملاحم، كملحمة جلجامش، وإنجازات أسطورية، كأسطورة الطوفان التي شابهتها أسطورة العهد القديم، وأساطير عن أصل الكون، وخلق الإنسان والعالم، والحياة الآخرة، وترانيم للآلهة المختلفة؛ كإله العدالة، وعشتار إلهة الحب، وأسفار حكمة وفلسفة، وبحوث في مسائل الحساب والفلك اشتهر به

(١) - المصدر السابق، الصفحة 203.

الكلدانيون في العصور الكلاسيكية⁽¹⁾. وبذلك قدم آشوريانيبال أعظم كنز لأعظم إرث ثقافي بشري قديم.

دشن معبد نيو في كلخو سنة 787 ق.م وسمورامات ما تزال على قيد الحياة. وبفضل إدخال هذه العبادة إلى بلاد آشور (الإله نيو هو ابن كبير الآلهة البابلية- الراهبية- مردوك)، صار يحتفى به ليس في بابل فقط بل في نينوى، بحيث أصبح مردوك إلهاً راهدياً (لجميع بلاد الراهدين)، فتقبل الآشوريون في النهاية سيادة الإله مردوك عليهم وعلى إلههم آشور، فصار الملك الآشوري مدعو من قبل مردوك ليحكم على آشور وبابل بطريقة شرعية. وكان من نتائج هذا التغيير ما فعله آخر ملوك الآشوريين العظام: آشور بانيبال بما تركه من إرث ثقافي وأدبي عظيمين (مكتبة آشوريانيبال في نينوى).

كان نيو إله الكتابة والعلم والمعرفة والحكمة عند البابليين، فاختارت سمورامات إدخال هذا الإله إلى بلاد آشور لسد الفجوة الثقافية والروحية بين الشعبين بحيث يمكن إغناء قوة الآشوريين بمنحها ما امتازت به الحياة البابلية من ميل إلى الفكر والآداب والفنون والعقيدة. وبمحاولاتها التطبيع بين الشعبين كانت الوريثة لحميها شلمنصر الثالث.

أقامت سميراميس نصبها ونقشت عليه اسمها ولقبها حين تسلمها السلطة. لكن معظم أخبار سيرتها يمكن استخلاصها من بين السطور في الحوليات الآشورية.

وبينما رسمت الأسطورة صورة شخصية سلبية لأدد نيراري الثالث؛ كصبي بصفات أنثوية لا يميل إلى الحرب بل إلى الدعة والمسرعات، أظهرت الحوليات الآشورية أنه كان في الحقيقة قائد عسكري كفؤ وسياسي قدير. إذ قاد حملة سنة 802 ق.م ضد آرام دمشق ولبنان وفلسطين كما فعل جده شلمنصر من قبل. ونقش اسمه مع اسم أمه سمورامات على النصب الذي وجد في مرعش إضافة لاقتران اسمه مع اسم شمشي إلو صديق صباه وقائد جيشه.

كان حكام الولايات يظهرون ولاءً مطلقاً مادام الملك قوياً وقادراً على إدارة الدولة بكفاءة عالية، لكن مظاهر الضعف بدأت تظهر في نهاية عهد أدد نيراري ومن بعده، حتى جاء تغلات بلاسر بانقلابه واستهلائه على الحكم (754-745) ق.م، فأعاد الهيبة للدولة وحقق نتائج سريعة فأعاد الألق إلى الامبراطورية، بحيث افتتح الآشوريين بالعودة إلى مفاهيمهم التقليدية القديمة في أساليب الملكية المطلقة في الحكم. بذلك، ذهب الكثير من جهود سميراميس أدراج الرياح.

اختفت سميراميس (سمورامات) عن المسرح بعد تدشين معبد نيو الجديد في كلخو بوقت قصير. لكن الحوليات لم تذكر كيفية اختفائها عن المسرح السياسي الآشوري، ولا متى بالضبط، كما لم يتم اكتشاف ضريحها، ولو أنه يظن بوجوده في المقبرة الملكية في آشور حيث قبر زوجها. وقد صممت المصادر الآشورية عن سيرتها في السنوات الأخيرة من حياتها.

(1) - انظر المصدر السابق، ص 193.

تحكي غالبية الروايات الأسطورية أنها قتلت بيد ابنها أد تيراري الثالث. كما يروي ديودورس الصقلي عن كتيسياس أن الإلهة المصرية "آمون" أخبرتها عن نهايتها عند زيارتها لمعبد آمون في مصر، لما سألته عن نهايتها: "أخبرها آمون أن شخصاً سيجعلها تختفي، وأنها ستعبد من قبل بعض شعوب آسية كإلهة، وسيحدث هذا عندما يقوم ابنها بالاعتداء على حياتها". لذلك عبد الآشوريون الحمائم لأن سميراميس تحولت إلى حمامة.

لم تسجل الوثائق سنة ولادة سميراميس، إلا أنه يمكن التخمين من سنوات عمرها الذي عاشته، وذلك بتقدير عمرها من السجلات الآشورية بين سنتي 60 و65 عاماً. إذ يقع تاريخ ميلادها التقريبي، إن كانت وفاتها بين 790 و785 ق.م، بين 850 و845 ق.م.

حدد حكم سمورامات وهو يتقاطع بين ثلاثة الملوك البابليين والآشوريين، بأن وضعها كحاكمة على بابل وأشور بالترتيب بعد الملك الآشوري الخامس في الفترة التاريخية الحديثة) للدولة الآشورية، فحدد فترة حكمها بين (812/811 - 806/807) ق.م. حيث يتوافق هذا التحديد بشكل كامل مع تاريخ وصايتها على ابنها القاصر (812/811 - 806/807) ق.م. وهي الفترة المتطابقة مع السياق الأسطوري للرواية مع الاختلاف في الأسماء، ما عدا اسمها.

ويقال أن الاسكندر حافظ على بابل، ولم يدمرها، لإعجابه بسميراميس، حيث خاطب ضباطه وجنوده قائلاً: "أرجوكم، فكروا أنكم جئتم إلى بلاد تحترم جداً اسم امرأة لقيمتها. كم من المدن الكبيرة بقت سميراميس؟ وكم أخضعت من البلدان الكثيرة لحكمها؟ لم نصل بعد إلى مجد هذه المرأة، فهل سنسأم من مجدنا؟ لنقف الآلهة معنا، فهناك أشياء كثيرة يانتظرونا"⁽¹⁾.

من الواضح أن ديودورس الصقلي، وهو من أهم مشاهير كتاب اليونان وصاحب المؤلف الضخم "المكتبة التاريخية" التي أرخت لتاريخ العالم القديم منذ بدء الخليقة حتى موت أغسطس سنة 14 ق.م، وضمت عشرات الأجزاء والفصول وآلاف الروايات المحبوبة والمثيرة، التي جمعت معظم الصفات الإنسانية المركبة، والمتفاوتة، من: الجمال، البراءة، الحب، الشاعرية، الرغبة، والمغامرة، كل ذلك مع إغراءات السلطة والحكم والشهوة، والتلاعب والمنورة والمكر، الإغراء، الجشع، القسوة، والخيانة، وفي النهاية الانحراف إلى نهايات مفعجة. إذ جعل - في إحدى هذه الروايات - من توهج شخصية سميراميس الأسطورية يرتفع في مخيلتنا إلى حلم كامل من الإعجاب بالجمال والإفارة والفننة المتحركة، والمتناقضة أحياناً. فجعلها، وكأنني بها تفني: لقد وهبتي الطبيعة جسد امرأة رائعة التناسق والجمال، ولكن أعمالي رفعتني إلى مصاف أقدر الرجال وأشجعهم.

(1) - جيوفاني بيتاتو سميراميس ملكة بابل وأشور، ص 270، ترجمة. د. عبد مرعي. روائد الثقافة والفنون، دمشق.

الفصل الثالث

إليسا - إليسار - ديدو - ديدون

Elissa - Elissar - Dido - Didon

مؤسسة قرطاج وملكها، وتاريخ هانيبال (هاني بعل)

عرفت (إليسا) ديدو^(١) كأمريرة من صور وملكة لقرطاج، وابنة أخت إيزابيل^(٢). ماتت بسبب حبها لأينياس حسب ملحمة الإنيادة للشاعر اللاتيني فيرجيل. وتقول الأسطورة: إن إليسا كانت ابنة ملك مملكة صور الفينيقية. فقام شقيقها بيجماليون بقتل سيخايوس زوجها الثري بعد موت والدهما الملك. فظهر خيال سيخايوس لزوجته في المنام وأخبرها عن قتله وكيف، كما أخبرها أين أخفى ثروته. أدركت إليسا مدى الخطر الذي يمكن أن تتعرض له من شقيقها الملك بيجماليون. فجمعت الثروة التي تركها لها زوجها وهربت إلى قرطاج. وهناك قايتت السكان المحليين بعد هبوطها على ساحل المنطقة بتقديم كمية كبيرة من المال الذي تحمله مقابل أن تستأجر من الأرض بقدر ما تستطيع قياسه بمساحة جلد ثور. وافق السكان على المقايضة لأنها بدت صفقة عظيمة ومربحة لهم. فماذا يقيس جلد ثور من الأرض إنه لا شيء. بنظر السكان مقابل المال الكثير الذي قدمته لهم! لكن عبقرية إليسا تنفتحت عن قياها بقتل جلد الثور إلى سرائد رفيعة بقدر ما تستطيع وربطتها ببعضها ومدتها على الأرض حتى صنعت مساحة كبيرة تشبه نصف دائرة نصفها المفتوح بمواجهة البحر. في النهاية استطاعت إليسا تأسيس قرطاج. والتقى بها الأمير الطروادي أينياس وهو بطريقته من طروادة إلى لايفنيوم، فأحبها وأحبته. فقتلت نفسها بعدما تركها لعدم قدرتها على العيش بدونه. ورأها أينياس فيما بعد في العالم السفلي، فلم تلتفت إليه (الكتاب الخامس من الإنيادة).

حكمت قرطاج أكثر من 300 بلدة ومدينة على وفي أطراف النصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وعلى جزره، حيث أسست امبراطورية بحرية عظيمة استمرت لأكثر من ستمائة عام، حاربت الممالك الإغريقية على مدى قرونها الأولى وانتصرت عليهم. ثم قادت الحروب البونية الثلاث ضد الرومان اعتباراً من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى سقوطها نهائياً في العام 146 قبل الميلاد.

(١) - سيتم الإشارة إلى إليسا - من أسمائها الأربعة - في معظم الأحيان: إليسا، إليسار، ديدو، ديدون. والأسان الأخوين جاءا من التسمية اللاتينية.

(٢) - كانت إيزابيل أميرة من أميرات صور وملكة إسرائيل، ابنة إيزر ملك صور، وزوجة آخاب. وملكة أم ماريث إيزابيل نفوذاً واسعاً في مملكة الأمراء الخزياء ويورام بعد مقتل زوجها وخلال عرش الأولاد، وخاصة بعد مقتل أخزيا ملك عرش يهوذا، وقد تدخلت أيضاً كزوجة الملك، في شؤون الدولة، وفي الحوادث بشكل مباشر، وتعرض من عارض سياساته للملاحقة، وأحياناً للتخلص منه بالقتل.

الخلفية والأصول

تكلم الفينيقيون لغة (سامية) تكاد تتطابق في البناء والنطق مع لغتنا العربية الحالية. وقد تجلّى ذلك بشكل واضح في أسمائهم، حيث كانت هذه الأسماء عادة تضاف إلى اسم بل، ليصبح الاسم مركباً. ويعل هو كبير آلهة الشرق. فالولد عندهم كان يدعى باركيل (الذي باركه بل)، ومعطيل (أي معطية أو هدية بل)، والبنت عريسة بل (أي خطيبة بل)، وأمة بل (أي جارية بل)، وعبد ملقارت (خادم ملقارت، وملقارت هو إله صور المقدس)، وخيملك (خي ملك أي أخو الملك)، وخوتالات (أخت اللات)، أو تسمى مباشرة بنتيل (ابنة بل)، أو هانييل (الذي يحظى أو يهنا يعناية بل⁽¹⁾)، أو صديريل، أو مهريل، إلخ. بحيث يمكن رؤية أن هذا التطابق لم يأت مصادفة أو بدون أسس لغوية مارسها من أطلقوا هذه الأسماء على أنفسهم.

يعتبر الدكتور على فهمي خشيم⁽²⁾ أن العلماء الذين قسموا اللغات إلى ثلاث مجموعات: سامية وحامية وأرية، خدعونا. وهو يعتبر أن هذه اكنوزية توراتية عنصرية، اعتبرت أن أبناء نوح: سام الجد الأول للعرب والبابليين والعبرانيين، وحام الجد الأول للمصريين والأفارقة، وياقت الجد الأول للأوروبيين والصينيين والبقية كلهم، ولم يكونوا يعرفون الصينية، فصنّفوا كآريين. وهو يعتبر أن هذه النظرية غير علمية على الإطلاق. والمهم عنده هو التقسيم الجغرافي، إذ يرى أن ما يسمى الحامية والسامية قد أدمجتا في كتلة واحدة سموها الحامية- السامية، بينما يسميها د. خشيم "العروبية". والعروبية عنده تضم مجموعة اللغات القديمة: فهي بابلية في العراق، وكنعانية في بلاد الشام، ويسمونها فينيقية في الساحل الشامي، والسبئية والمصرية والنوبية القديمة.. إلخ. وهذه عبارة عن مجموعة من اللهجات تفرعت عن لغة واحدة اسمها اللغة العروبية، بما فيها اللغة العربية، عربية الجزيرة العربية. وهكذا، فانسبئية أو الحميرية، والعربية العدنانية، والآرامية.. إلخ. كانت كلها لهجات من اللغة العروبية. حتى جاء القرآن الكريم، فسادت لهجته على جميع اللهجات المحلية الأخرى.

لم تكن كلمة عرب تعبر عن مجموعة ثقافية أو قومية أو عرقية، إذ كانوا قبائل. وكلمة عرب قبل الإسلام استعملت في الغالب بمعنى البدو، من مادة "عرب" بمعنى ظهر كما في النصوص البابلية والآكدية، لكنها لم تتبلور كفكرة قومية إلا بظهور الإسلام بعدما توحدت القبائل المتناحرة ضد القوتين الجبارتين في ذلك العصر: الروم والفرس، واكتسحت العالم كما هو معروف، وأصبح "العربي" هو من جاء من الجزيرة العربية.. ويقول ابن منظور في

(1) - "تاج للعروس للزيدي، ج28، الصفحات (93-94): بل: اسم (صنم كان) من ذهب (لقوم إلياس عليه السلام) هذا هو الصواب، ويؤيد قوله تعالى (وإن إلياس لمن المرسلين)، إذ قال لقومه ألا تتقون، أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين)، الصداقات، الآيات 123-125. وقال الراغب: وسمى الحرب مجودهم الذي يقرّبون به إلى الله: بعلاً، لا متقدّمه الاستعلاء فيه. وقيل: بل: (ملك من الملوك) عن ابن الأعرابي، والبعل: الزوج.

(2) - مجلة العربي الكويتية، العدد 619، الصفحات (68-73).

"اللسان" نقلًا عن خليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب "العين": ".. بنو كنعان قوم كانوا يتكلمون لغة تضارع العربية، أي تشبهها". وقد بينت النقوش الكنعانية بعد اكتشافها في القرن العشرين أنها لغة عربية فصيحة عند قراءتها، وتظهر قراءة نقوش إيبلا في لوحة من لوحاتها في نهاية الألفية الثالثة في لغة عربية فصيحة. وهذا يدل على أن هذه اللغة كانت مكونة من مجموعة لهجات عديدة: كالأكدية، والأشورية، والبابلية، والكنعانية، والآرامية... إلخ. وظهور الإسلام هو الذي مكن العربية في النهاية من السيادة على كل اللهجات.

إذن، خلقة الفينيقيين لغة كنعانية ذات أصول سامية- حامية من أسرة لغات الشمال التي ضمت الآرامية والأشورية والعبرية والعربية.. وهي اللغات التي ظلت سائدة في غرب آسيا حتى الغزو الخارجي الحيثي على المنطقة في الألف الثانية قبل الميلاد، ونجد أقدم أثر مكتوب باللغة الفينيقية في أفريقية على قلادة ذهبية محفوظة في متحف قرطاج عليها الإهداء التالي: "إلى عشتار، إلى بجماليون، من بدا ملك بن بادي؛ مبارك من يباركه بجماليون". والقلادة من القرن الثامن قبل الميلاد. وهذا يعني في واقع الأمر أن الفينيقيين بالأساس هم أحفاد الكنعانيين وهم عرب من شبه الجزيرة العربية جاؤوا مع الهجرات التي وصلت الأطراف الغربية من سورية الكبرى عند منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، واهتروا في موجتين رئيسيتين: الأولى اتجهت إلى المناطق الداخلية وعرفت باسم العموريين، والثانية اتجهت إلى المناطق الساحلية وعرفت باسم الكنعانيين⁽¹⁾ أو سكان الأراضي المنخفضة. حيث تمكنت الهجرات الكنعانية الأصل من الاستقرار على الساحل السوري قبل بداية العصر التاريخي وتمكنت من تأسيس عدة مدن مثل صيدا وصور وجبيل وبعض المدن الداخلية مثل أريحا وبيسان ومجدو وغيرها. وقد رأت هذه المجموعات أن من الأفضل لها التجمع حول مدنها وتحصينها بشكل جيد لأن هذه المنطقة لم تنعم بالهدوء والاستقرار على مدى تاريخها الطويل بحكم موقعها الجيو- سياسي والاقتصادي كنقطة التقاء وطريق طبيعي بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. لم تظهر كلمة فينيقي إلا في نهاية الألف الثانية وبداية الأولى عندما تعرف الإغريق على حضارة الساحل السوري وأدهشهم ما كانوا قد توصلوا إليه في صباغة الملابس والأثاث باللون الأرجواني اللامع، فأطلقوا على سكانه اسم "الفينيقي والفينيقيون". والكلمة تعني باليونانية اللون الأرجواني. وقد استخرج الفينيقيون المادة الأولية في صناعة

(1) - ورد في كتاب أحمد مومسة "العرب واليهود في التاريخ"، ص 97، وصف العالم الألماني مونتكرات للكنعانيين: "إننا نعلم من خلال الحفريات التي أجريت في جبيل (بيبلوس القديمة) في وسط ساحل بلاد الشام وبالأستاد إلى المراسلات الملكية في مدينة ماري ومن موجودات الطبقات السفلى في تل الحشاشنة (إلخ) بالقرب من أنطاكية، أن أناساً من ساميين غربيين قد قطنوا بلاد الشام على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة ق.م. وكان هؤلاء على قربة من تلك اللغة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ سلالة حموربي، أما من ناحية التسمية الخاصة فنطلق على هؤلاء الساميين في بلاد الشام اسم الكنعانيين. وينقسم الفينيقيون الأوائل، أي سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر، إلى هذه المجموعة السامية الغربية".

اللون الأرجواني من بعض أنواع القواقع والأصداف البحرية التي عثروا عليها في مياه سواحلم الشرقية للمتوسط.

أخذ الفينيقيون يوطدون أقدامهم في فلسطين منذ ما قبل القرن الحادي عشر ق.م، ثم انتشروا شمالاً على طول الشريط الساحلي، وتمكنوا بفضل مهاراتهم ومواهبهم التجارية البحرية وشدة جلدتهم وروح المغامرة لديهم من تطوير سلسلة من مدن النشاط التجاري، الموجودة منذ نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، على امتداد هذا الساحل في غزة وعسقلان وحيفاً ويافاً وعكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وأرود وعمريت وطرطوس ورأس شمرا (أوغاريت) .. إلخ، حيث امتدت أطرافها إلى الشرق من جبال لبنان، وقد مثل الموقع الجغرافي والمساحة الزراعية الضئيلة وطبيعة الكنعانيين وأحفادهم الفينيقيين التجارية سبباً رئيسياً في عدم توسعهم بالدرجة الأولى نحو الشرق لبناء إمبراطورية قوية تحاكي قوة الإمبراطوريات؛ الآشورية - البابلية، والفارسية، والمصرية، والإغريقية لاحقاً. ولذا لم يكن في مقدور الفينيقيين أن يروا طموحاتهم التجارية تتحقق إلا في أعالي البحار. وبإلحاح، خضعت هذه المنطقة لبعض التعديلات على مدى تاريخها. وقد كانت هذه المنطقة أرض كنعان القديمة.

وفي ذلك، برز الفينيقيون في المجالات التجارية وأصبحت شهرتهم كبيرة في الأسواق الأجنبية للارتفاع بثرواتهم الطبيعية وبخاصة خشب الأرز الذي استخدمه القدماء في بناء المشاريع المعمارية والبحرية والدينية والفنية. كما نجحوا في صناعة البرونز والعاج والعظام والزجاج، بينما أظهروا قدرة فائقة في صناعة الأقمشة وبصفة خاصة المصبوغة منها باللون الأرجواني. كما سجلوا اهتمامهم بالزراعة والصيد البحري. وقد مهد لهم نشاطهم التجاري فرصة التعرف والاتصال بالأسواق الخارجية والتعرف أيضاً على الطرق البرية والبحرية مما أكسبهم مهارات فائقة في البحار. ومثلما كانت التجارة والاقتصاد دافعهم الرئيسي للهجرة نحو الغرب كانت أيضاً المبررات السياسية والبشرية، ولكن ربما بصورة أقل.

يمتد العلماء والباحثون أن مدينة صور على الساحل السوري كان لها الدور البارز في عملية تأسيس المراكز الفينيقية في غرب البحر الأبيض المتوسط لأن الزعامة السياسية والحضارية انتقلت إلى تلك المدينة قرب نهاية الألف الثاني وبداية الأول ق.م. وهناك رأي غالب يقول: إن صور بدأت في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إثر انتصار ملك عسقلان على صيدا، مما دفع أهالي صيدا إلى البدء ببناء صور لامتيازها بموقع دفاعي مناسب، فجزيرتها مواجهة للشاطئ تؤمن لها حماية شبه طبيعية إلى حد كبير. ومن صور هذه رأى الفينيقيون أن آفاقهم المفتحة الأبواب تشير لهم نحو الغرب، فأصبحوا رواد الهجرات الفينيقية الأولى والألاحقة إلى الرحب الفسيح في غرب المتوسط.

فرض الفينيقيون الغربيون (يرد وصفهم في معظم الكتابات، وخاصة اللاتينية، بابونيقيين/البونيين/القرطاجيين) سيطرتهم على مجمل الشاطئ الجنوبي والنصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط من منتصف حوضه الداخلي قبالة اليونان وليبية إلى

منفذه المفتوح عند أعمدة هرقل (جبل طارق) إلى إسبانية والمحيط الأطلسي. وبالرغم من أن الفينيقيين نجحوا بسيادتهم على البحار إلا أنهم لم يتمكنوا من تجميع مراكز مستعمراتهم المتفرقة في دولة واحدة قوية، كما لم يتمكنوا من تشكيل قوات برية دائمة قادرة على رد الغزاة والطامعين. ولذلك تعرضوا للغزو الآشوري والفارسي في الشرق، والإغريقي والروماني فيما بعد من الشمال والغرب.

ويعتبر العصر الفينيقي في الغرب مكملاً للتاريخ الفينيقي في الشرق خاصة في بدايات التكوين الأولى له. ولذلك يمكن القول أن العصر الفينيقي في الغرب قد استمر من بداية تأسيسه حتى بعد منتصف القرن السادس قبل الميلاد مرتبطاً بشكل أو بآخر بالشرق من النواحي الحضارية والدينية والضريبية، واعتبار المهاجرين القادمين من الساحل الفينيقي مواطنين قرطاجيين مباشرة، حتى صار بإمكان دولة قرطاج الوقوف على قدميها كقوة ذاتية مستقلة سياسياً واقتصادياً عن الأم في المشرق.

وفي الوقت الذي بدأ تطور المستعمرة الناشئة في قرطاج يأخذ مجراه، بدأت المدينة الأم (صور) تتحدر وتوهي. وفي الوقت الذي بدأت فيه صور تتأثر بقوة بالحضارة اليونانية بعد احتلال الاسكندر المقدوني لها، ذهبت قرطاج باتجاه الحفاظ على طابعها الفينيقي وصيانتها.

وقد تم الانتقال من المرحلة الفنية إلى المرحلة القرطاجية المستقلة على يد أسرة ماجو التي تمكنت من إنشاء جيش قرطاجي قوي مكون من القيادات القرطاجية ومن المرتزقة الليبيين والبربر⁽¹⁾ والنوميديين والغاليين والإسبان والإيطاليين وسكان بعض جزر المتوسط. ولم يتردد المرتزقة اليونانيون من الانخراط في صفوف هذا الجيش في بعض الأوقات. بذلك بدأ بناء التحصينات والأسوار والمواقع.. حيث بدأت مرحلة جديدة أقرب إلى الصفة السياسية للدولة منها للاقتصادية. والأهم في ذلك كله كان ازدياد الصلات والشائج والمصالح المتعددة بين الفينيقيين والليبيين والبربر وغالبية شعوب المغرب الحالي بحيث أخذت هذه المنطقة بالانتقال من الإطار المحلي البحت إلى إطار معترك التطورات السياسية والاقتصادية الدولية في حوض البحر الأبيض المتوسط آنذاك.

سيرة إيسا، إيسار، ديدو، ديدون

تعتبر تفاصيل حياة إيسا غامضة ومربكة إلى حد ما، حيث سيرى القارئ أن سيرتها تقع بين الواقع والخيال، بين الحقيقة والأسطورة، وذلك أن القرطاجيين أنفسهم لم يتركوا لنا ما يعتد به من تدوينات أو تاريخ يتناول سيرتها، بل إن معظم ما يعرف عن تاريخ قرطاج جاء من المؤرخين والكتاب اليونان واللاتين على وجه الخصوص (تيميوست).

(1) - جاء في الصفحة 66 من تاريخ الحضارة العلم - روما وإمبراطوريتها: "إن آخر وثيقة خطت بالعرف البونيني يعود تاريخها إلى القرن الأول الميلادي. أما اللهجة التي دعاها للقيس أغسطينوس (بونيفي) إنما ترجع إلى اللهجة الليبية التي استمر التكلم بها في المناطق الريفيّة، وهي أم اللهجة البربرية المحلية اليوم.

الصقلي، ماندر الأفسوسي، جوستين اللاتيني الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد، والذي نقل عن سلفه تروغس بومبيوس)، وبالتالي فإن ما كتب عن إليسا وقرطاجة جاء من مصادر ليست محايدة. غير أن السيرة العامة لإمبراطورية قرطاجة جاءت متوافقة مع تاريخها المكتوب، بينما جاءت سيرة إليسا بمعظمها من مصادر يختلط فيها الواقع التاريخي بالأسطوري، ومع ذلك فهي تتفق بشكلها العام مع التاريخي، لسبب مهم هو أن أسطورتها التي تناولها العديد من المؤرخين الأدباء والفنانين تحدثت عن نفس الأسماء ونفس الأماكن ونفس تواريخ الأحداث. وهذا هو الذي يشكل الأساس في كتاب التاريخ. من المعروف في التاريخ القديم أن الإيمان بالأساطير والقصص الخيالية كان شائعاً في كافة مجالات الحياة الدينية أو السياسية أو الاجتماعية أو في جميعها معاً. وفي كثير من الأحيان ألهمت هذه الأساطير والقصص مخيلة الجموع الشعبية العامة خاصة، واستساغتها، واعتبرتها في بعض الأحيان نوعاً من الوحي القادم من السماء. وما يقيس على الباحث سوى تحري الموضوعية والدقة واستنباط الوقائع من بين سطور هذه الأساطير.

ويمكن استخلاص سيرة إليسا من مصادر مختلفة.. فحسب رواية جوستين: أوصى ماتان ملك صور (بيلوس الثاني كما دعي في الأدب الكلاسيكي) أن يخلفه على العرش بعد موته ابنه الصغير بجماليون وابنته إليسا⁽¹⁾ أو إليشا أو عليشة (عيشة) التي كانت ذات جمال نادر. غير أن المناصرين للملك بجماليون من شعب صور عملوا على خلع إليسا ففضلين بقاء بجماليون على العرش لوحده فقط. وكان أبوها قد زوجها من خالها الذي ورد اسمه حسب المصادر: أغريباس، أخيرياس، عشرياص، أشريصاص، أو سيخايوس. أو زيكاريميل، الذي كان كاهن معبد الإله ملقارت وكان ذا مرجعية وسلطة سياسية وذا ثراء واسع، وكأنه ملك حقيقي. وزمها كان وصياً على بيجماليون القاصر، فقد كان يحتل المرتبة الثانية في المملكة. وقد طمح بيجماليون إلى سلطة أغريباس وثروته، لذلك قام بقتله داخل المعبد وأخفى آثار جريمته عن أخته وعن الجميع. حيث خدعها بروايات خيالية عن موته. ولذلك أخذ شعب صور يضغط لاختيار حاكم واحد يدير شؤون البلاد بدلاً من التنازع والشقاق الذي أخذ بالظهور في البيت الملكي، بحيث أصبح بجماليون الملك لوحده.

ظهر شبح أغريباس (عشرياص) لزوجته إليسا في المنام وأخبرها بمن قتله وكيف. كما أخبرها أين تجد ثروته المخبأة، ونصحها بالهروب من صور إنقاذاً لحياتها، لأن أخيها بيجماليون لن يتورع عن قتلها عاجلاً أم آجلاً. عملت إليسا بسريرة شديدة مع بعض أتباعها من عليّة القوم من خصوم الملك الجديد، على ترتيب خطة الهروب ومعها ثروة زوجها.

(1) - ربما كان اسم إليسا اسماً يونانياً مشتقاً من اسمها الفينيقي الأصلي إليشلت أو عليشات أو عليشة، بينما أطلق عليها اللاتين ديدو (الزحالة). ويعتقد أن الاسم الذي كان معروفاً لها في قرطاجة هو إليسا وليس ديدو.

وحتى لا تثير شبهات أخيها حول نيتها في الهرب عرضت عليه رغبتها بترك قصر زوجها الذي لا يزال يثير حزنها وأشجانها، وأنها ترغب أن تقوم برحلة بحرية من أجل تقديم القرابين عن روح زوجها. فزودها بيجماليون بسفينة من أجل هذا الغرض، حيث قامت بتجهيزها، وبسرية تامة حملت مع بعض مؤيديها أكياس الذهب وخياتها في غرف شحن السفينة، وبعد ذلك قام عمال الملك بتحميل أكياس مملوءة بالرمل على ظهر المركب، وأبحرت في جنح الليل دون أن تعلم أخاها. وعندما أصبحت في عرض البحر رمت أكياس الرمل التي كانت على ظهر السفينة موهمة أنها أكياس الذهب كهيئة عن روح زوجها. وكانت تبكي مستذكرة زوجها، وأنها بعملها هذا إنما تقدم قريناً بهذا الذهب المشؤوم الذي كان السبب في هروباها. ولم يكن العمال يعرفون ما تحويه هذه الأكياس. فلما تبين لهم الأمر خافوا من العودة إلى صور لمعرفتهم أن الملك لن يغفر لهم عدم معرفتهم بالأمر وإخباره بما كان يجري من نية تهريب الذهب⁽¹⁾. لذلك قرروا جميعاً البقاء ومرافقة الأميرة في رحلتها. ورافقها في هذه الرحلة أنصارها من مجلس الشيوخ ومن كهنة معبد ملقارت. فغادر كل من ذكرناه البلاد إلى الأبد بسرية تامة عن أعين ومعرفة الملك بيجماليون.

ذكرت أسماء بعض أفراد عائلتها: أخوها بجماليون، وجدها بلزيروس، واسمها أيضاً، حيث وردت في لائحة الملوك الطغاة للمسرحي الإغريقي ماتندر الأفسوسي (342-292) ق.م ضمن لائحة ملوك صور الواردة في "Josephus's Against Apion, i.18" للمؤرخ اليهودي يوسفوس، بحيث ينهي يوسفوس استشهاده: "الآن، وبيجماليون في السنة السابعة من حكمه، تهرب أخته خوفاً على حياتها منه، وتقوم ببناء مدينة قرطاجة في ليبيا".

كانت وجهتهم الأولى قبرص للراحة والتزود بالمؤن لرحلة أطول. وفي قبرص اشترت إليسا عدداً وافياً من العذارى القبرصيات اللاتي كنَّ يخدمن في معبد عشتار (فينوس)، فأقسمن أن يتزوجن الرجال السوريين من حاشية إليسا. وهكذا واجهت إليسا وفريقها أخطار البحر الواسع لإيجاد المكان المناسب لتوقفهم واستقرارهم⁽²⁾. وفي صور أشار العرافون على بجماليون عدم مطاردته لها عندما علم برحيلها، قائلين له: ستعاقبك الآلهة إن أوقفنا لأنها أكلت إليها بناء مدينة جديدة".

تأسيس قرطاجة

يرجع الباحثون مبررات خروج الفينيقيين إلى الأطراف الغربية من البحر الأبيض المتوسط إلى دوافع اقتصادية بالدرجة الأولى وأخرى سياسية وبشرية. فقد أسس

(1) - نذكر رواية جوستين هذه، والمقولة شافياً عن تورغيس بومبيوس، غير متمسكة وغير مقبولة في حكايتها.

(2) - Justin, XVIII, 4-6.

البحارة الفينيقيون⁽¹⁾ محطات تجارية مبكرة لهم يرسون فيها لمبادلاتهم التجارية على طول شواطئ المتوسط، وخاصة الجنوبية منها. وذلك أسس الصيداويون منهم مراكز تجارية بين القرنين السادس عشر والثاني عشر قبل الميلاد، ومنها أوتيكا Utica (عوتيقا بالكنعانية: أي المدينة العتيقة، والتي سماها ابن خلدون: وطاعة) القريبة من الموقع الذي اقيمت عليه قرطاجة. وفي غاديس/قادس على ساحل إسبانية الجنوبي، كما أنشأوا مدينة ليكسوس على سواحل المحيط في المغرب. وكان هدف الصيداويين بتأسيسهم لموتيقا المنافسة التجارية مع الصوريين في تأسيس مستعمرتهم الأولى في عوتيقا نفسها. وقد أثبت الآثار أن عوتيقا لقرطاجة تشبه تماماً صيدا لصور. حيث كانت عوتيقا أقدم في تأسيسها من قرطاجة، واحتفظت بنوع من الموقع التجاري الهام دون سلطة حقيقية. لذلك تناهست عوتيقا وقرطاجة على ساحل المتوسط الأفريقي الغربي كما تناهست صيدا وصور على الساحل الفينيقي على الساحل السوري.

إذن، اجتازت إليسا وحاشيتها وأعضاء السناتو والكهنة وعذارى عشتار المرافقين عرض البحر حتى وصلوا الشاطئ القريب من أوتيكا على الخليج فنزلوا هناك. وبدأوا بالتفاوض مع السكان المحليين لإقامة علاقات صداقة وشراء أو استئجار قطعة أرض بمقدار ما يمكن لجلد ثور كبير أن يغطي ليقيموا عليها سكانهم. اعتقد السكان أنهم كسبوا اتفاقاً عظيم الجزاء مقابل لأشئ تقريباً، إذ ماذا يمكن أن تكون أكبر مساحة من الأرض يقيسها جلد ثور؟ أبدت حاشية إليسا امتعاضاً شديداً خلال التوصل إلى صيغة الاتفاق؛ إلا أن السكان تفاجأوا وهم يرون إليسا وفريقها يقومون بتقطيع جلد الثور إلى شرائح رفيعة جداً يطلوها من نهاياتها بعضها ببعض بحيث صنعوا من هذه الشرائح خيطاً عظيم الطول مدوه بشكل نصف دائرة مقابل اللسان البحري بحيث بقي الطرف المواجه للبحر مفتوحاً. ولذلك حصلت إليسا وفريقها على مساحة من الأرض أكبر بكثير مما لم يقدر السكان إلا أن تكون يقدر مساحة جلد ثور.

اختارت إليسا اللسان البحري على الخليج في مفاوضاتها مع السكان كمكان مناسب من جميع الوجوه لإقامتها عليه، وهو المكان الملاصق لموقع كامبي أو كاكابي (Cambe أو Caccabe) حيث كان مركزاً تجارياً لفينيقيي صيدا الأوائل. وقد أشار الكاتب الفرنسي فرانسوا ديكريه⁽²⁾ إلى وصف المؤرخ بوليبيوس (75,2,73,2,1) وهو مصدر موثوق كان شاهداً على حصار وسقوط العاصمة، إذ يقول: " تقع المدينة على شاطئ أحد الخلجان،

(1) - كان هوميروس أول من استخدم كلمة Phoinix، وتعني البلاد، وكلمة Phoinixes وPhoinix، وتعني ساكن وسكان البلاد باليونانية، وربما رجعت للتسمية إلى أبعد من ذلك. وكلمة Phoinix الإغريقية تعني لون الأرجوان، الذي برع أهل البلاد لوحدهم بصناعة ألوانه على الثياب. وبذلك كان الإغريق هم أول من أطلق تسمية فينيقية والفينيقيين على الكنعانيين من سكان الساحل السوري. كما أطلق الإغريق تسمية بيبلوس Byblos على بنت جبيل على الساحل اللبناني الحالي لأنها كانت تشتهر بصناعة ورق الكتابة (البليبيروس). وسماوا بتمر بالعمرا من كلمة بالم التي تعني باليونانية شجر النخيل.. وهكذا.

(2) - انظر كتابه قرطاجة أو إمبراطورية البحر، ص 61، 62، ترجمة عزالدين أحمد عزو، تحقيق د. عبدالله الحلو، دار الأهالي - دمشق.

في شبه جزيرة تكاد تكون محاطة إما بمياه البحر أو بمياه بحيرة. وتصل بالقارة بواسطة لسان عرضه خمسة وعشرون غلوة، أي ما يساوي 4400 متراً، وعلى طرف هذا اللسان القليل من المساحة، توجد مدينة أوتيكيا، وفي الجهة الأخرى، ويمحاذاة البحيرة، توجد مدينة تونس الحالية، كما توجد على هذا اللسان مجموعة من التلال الصعبة الاجتياز إلا من خلال بعض الطرق المشقوقة بأيدي البشر لترتبط قرطاجنة بباقي البلاد. ويصف ديكريه شبه جزيرة قرطاجنة: " .. بأنها أشبه بمرساة عملاقة مرمية صوب البحر، وكان مدخلها محمياً بسلسلة من الذرى تشكل خط الدفاع الأول (جبل نهلي)، إضافة إلى لسان يتقدم باتجاه الشرق إلى عرض البحر، وعلى طول خمسة عشر كيلو متراً، وكان هذا اللسان يتصل ببخيرة شاطئية قليلة العمق وغنية بالأسماك - وهي الآن تشكل بحيرة تونس أو سيخة البحيرة - عن أحد الخلجان، وهو اليوم مغطى بقسمه الأكبر بطمي نهر المجردة، وكانت مدينة أوتيكيا تقع في قلب هذا الخليج. وكان على القرطاجيين أن ينشئوا عبر هذا النتوء الجبلي الطويل، وعلى نقطة لا يتجاوز عرضها الأربعة كيلومترات، خطاً دفاعياً متقدماً بلغ طوله ثلاثين كيلومتراً. ويضم خندقاً عريضاً محفوراً في الجهة الغربية، إضافة إلى قاعدة مركزية ذات حباك، واستحكامات، وربما كانت توجد أيضاً مراصد، وأخيراً كان يوجد خندق خلقي. كان هذا الخط الدفاعي يسد الممر المتجه إلى الشرق. وقد كانت المدينة مع ضواحيها تمتد على هذا القسم الذي تقارب مساحته الخمسة آلاف هكتار. ونقول، كي تكتمل الصورة، أن هذا الطرف الذي كان يتشكل من نتوء صخري مرتفع - هو عبارة عن جزيرة قديمة اتصلت بالساحل بفضل تجمع طيني - كان يمثل المرساة". غير أن من المؤكد أن المدينة كانت أكبر من ذلك بكثير، وأنها كانت محاطة بضواحي كثيرة تؤمن الغلال والحماية من الجهة البرية للمدينة.

رأت إليسا وفريقها أن الموقع يؤمن مزايا عظيمة لضمان الحماية. ولم يبد السكان المحليون سعادة لنزول هؤلاء القادمين الجدد. غير أنها استطاعت عقد اتفاق معهم على أتاوة سنوية كأجرة للأرض التي تمركزوا عليها. وبدأ فريق إليسا بالحفر بغرض التأسيس لوجودهم. وأخذ الناس يتوافدون من جميع الفواحي المحيطة للسكن في المدينة الجديدة لسرعة نموها وازدهارها.

لما سمع إيارياس ملك المكسيكانيين الأفارقة بقيام المدينة وتطورها وغنى من بناها وجمال ملكتها استدعى بعض كبار أهل المدينة وأبلغهم، تحت التهديد، أن يزوجه ملكتهم. فاستملهوه ثلاثة أشهر، فأملهم. ولما أفصحوا لإليسا عن طلب الملك بعد تردد، أدركت أن رفض الموافقة على طلب الملك سيعرض مستوطناتهم إلى خطر شديد وهي في بداية تأسيسها. فبكت الملكة بكاء مرأً وأخبرتهم موافقتها على طلب الملك لتتخذ قرطاجنة من مصير سن. وبعد مضي المهلة المحددة، أمرت بإقامة محرقة عظيمة عند بوابة المدينة الرئيسية، وقدمت الأضحيات لروح زوجها، وصعدت إلى حافة المحرقة ثم استدارت نحو شعبها وصاحت بصوت قوي قائلة: " هاأنذا طوع رغباتكم، فأنا ذاهبة إلى زوجي"، ثم طعنت نفسها وسقطت وسط النيران المشتعلة.

استمر القرطاجيون بدفع قيمة الاستئجار حتى القرن السادس قبل الميلاد. وما يزال هذا التل يسمى بجلد الثور "Byrsa"، كما لا يزال البعض يعتقد خطأ أن الكلمة Bysra أتية من الكلمة الفينيقية Borsa التي تعني قلعة أو حصن⁽¹⁾.

وحسب سياق الأسطورة، انهزم الملك إيارياس بعقيرة إليسا الحسائية، لكنه لم يسلم بهزيمته أمامها، فعرض عليها الزواج ليتحكم بالمدينة وبالثروة التي تملكها إليسا، وذلك بعد أن شهد بناء المدينة وسرعة تطورها، وإلا فإنه سيعلن الحرب على المدينة. أدركت إليسا أن رفضها الزواج من الملك لن يفيد، فتظاهرت بالموافقة، ثم جهزت محرقة بحجة تقديم القرابين لزوجها الأول لآخر مرة، فطعنن نفسها بالسيف وهي تسقط في لهيب النيران افتداءً لشعبها لتوفر لهم سبل البقاء والعيش. فما كان من الملك، الذي شعر بالغيرة من نجاح إليسا وبإلغيط والأسف لانتصارها، إلا أن يأمر ببناء صرح تعليمي عال يقوم قومها بالتدريس فيه على أمل أن يخرج له فتيات بالفات الذكاء كالإيسا. بعد ذلك تم تأليه إليسا خلال الفترة القرطاجية كلها، لتضحياتها من أجل شعبها.

تبين بالحسابات الرياضية أن إليسا كانت على الغالب تعرف سلفاً أن مساحة الدائرة كشكل هندسي هي أكبر من مساحة أي شكل هندسي آخر بنفس طول المحيط. فإذا أخذنا طول محيط أي شكل هندسي وجعلنا منه في كل مرة شكلاً هندسياً مختلفاً؛ كالاستطيل أو المربع أو المثلث أو المضلع أو الدائرة.. إلخ، فإن أكبر مساحة يشكّلها هذا المحيط يأتي من شكل الدائرة. ولذلك فالشكل الهندسي الذي يعطي أكبر مساحة بنفس المحيط هو الدائرة وليس أي شكل آخر عدا المضلع الكثير الأضلاع والذي تقترب أضلاعه في النهاية من شكل الدائرة تقريباً. وهذا ما أوجدهت إليسا من خلال معرفتها الرياضية بالأشكال الهندسية. حيث يعتقد أن إليسا ابنة الملك كانت على الأغلب قد حصلت على تعليم وتثقيف عالين، لأن الفينيقيين على الساحل السوري كانوا على علاقات تجارية وربما ثقافية جيدة مع المصريين والبابليين الذين كانوا متقدمين بالعلوم والرياضيات حينها. ومن المؤكد إذاً أن الفينيقيين استفادوا علمياً من خلال هذه العلاقات المثينة مع المصريين والبابليين.

إذاً، تفتقت عقيرة إليسا في قياسها لمساحة الأرض بأن مدت سرائد جلد الثور المربوطة ببعضها كحبل واحد صنعت منه نصف دائرة⁽²⁾ على الأرض موضوع الاستئجار، وجعلت نصف الدائرة المفتوح باتجاه البحر، حيث تضاعفت مساحة الأرض مادة عقد الاستئجار.

قامت الأميرة وفريقها بإنشاء مدينتها داخل المساحة التي قاستها سرائد جلد الثور، وذلك سنة 814 ق.م⁽³⁾، وأطلقوا عليها "قרת حدشت" التي تعني بالفينيقية "الأرض أو القرية أو المدينة الجديدة"، وجاءت كلمة قرطاجة من "قرطاجو/Karthago"، وهي اللفظة اللاتينية للكلمة اليونانية Karchedon/قرخيدون المشوهة عن التسمية الفينيقية "قרת حدشت". ولأصولهم الصورية درج هؤلاء القرطاجيون على إحياء ذكرى سنوية لمعبد إلههم ملقارت الموجود في صور. وعلى الدوام نال الاسم نصيبه من التحريف،

(1) - تعرف معادلة ما يماوي مساحة محيط الدائرة بالمقارنة مع ما يقبسه نفس المحيط لأي شكل هندسي آخر بمسألة الأيزريبيمتريك Isoperimetric أو مسألة ديدو، أحياناً، في علوم الرياضيات.

(2) - (Nathan Davis, Carthage and the Romans (Lon. 1861)

فأصبح عند الإغريق "قرخيدون أو كرتاجا"، و"كرتاجو" عند الرومان، و "قرطاجة" عند العرب.

وبالتدريج أخذت قرطاجة بتأسيس استقلالها عن صور الفينيقية على الساحل السوري، فكانت على صلات قوية بصور العاصمة من خلال حكم قضاة صور لها حتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

ومع الزمن، أصبح استيطان قرطاج والتوسع المستمر في الأراضي والبلاد حول شواطئ المتوسط مغامرة ناجحة للفينيقيين الجدد بكل المقاييس، أدت في النهاية إلى صعود قوة فينيقية (بونية/بونيكية) جبارة، وأصبحت معروفة باسمها الجديد؛ قرطاجة والقرطاجيون. وفيما بعد باليونيين/اليونانيين من قبل الرومان إشارة إلى فينيقي البحر المتوسط الغربيين في قرطاجة والثلاثمائة مدينة والأراضي التي سادت سيطرتهم (حسب سترابو) عليها.

أخذت قرطاجة تتطور ويمتد نفوذها شرقاً وغرباً على كل مراكزها التجارية على خط طويل واحد يبدأ من جزر البليار القريبة من الساحل الإسباني إلى منتصف خليج سرت. فضمت جزر سردينية والجزء الغربي من صقلية ومالطا وجوزو ولبيدوزا وبانتلاريا وايزا ومينورقا وماهون (جزيرة ماغو) وجزر البليار.. كما تم تعزيز المراكز التجارية القديمة على طول السواحل الأفريقية الغربية للمتوسط واحتياك مراكز جديدة. فتوسعوا في الداخل إلى الجنوب إلى مسافات لا بأس بها، وتوسعوا فاحتلوا إسبانية أيضاً وجنوب شبه الجزيرة الأيبيرية بالكامل تقريباً، ونجحوا هناك في بناء عدة مدن ومراكز. وحينما بدأت الحرب البونية الأولى كان يتبع لقرطاجة أكثر من مئة مدينة ومركز.

وخلال وقت لم يكن طويلاً أصبحت قواتها البحرية تقوم بالدفاع عن شواطئ أفريقية الشمالية الغربية على البحر المتوسط ضد الغزاة القادمين من الشواطئ الشمالية لهذا البحر ضمن حلقات الطموحات الأتلية المدعومة دائماً بعدوان القوة العسكرية. والذي ظل يدور بين الشرق والغرب منذ الألف الثالثة قبل الميلاد حتى الآن، والذي لن ينتهي في المستقبل.

أسرت إليسا القرطاجيين، فاعتقد الكثيرون منهم أنها صارت إلهة، قدسوها، عرفت بـ "تانيت Tanit".

تاريخ تأسيس قرطاجة

يتم الاعتماد الأساسي في كتابة تاريخ الفينيقيين على المؤرخين الإغريق واللاتين بالدرجة الأولى. فقد نشبت حروب شرسة بين الإغريق والرومان من ناحية، وبين الإغريق والفينيقيين الجدد في الغرب (القرطاجيون) من ناحية أخرى، وبين الرومان والقرطاجيين/البونيين من ناحية ثالثة. استمرت هذه الحروب العنيفة بين هذه الأطراف لقرون طويلة قادمة من أجل السيطرة على مياه وجزر وشواطئ البحر الأبيض المتوسط

ومدنه وأراضيه. وبدأت هذه الفترة العنيفة مع بداية القرن السادس قبل الميلاد بين المستوطنين المتنافسين من القرطاجيين والإغريق في الجزر البحرية اليونانية في المتوسط وعلى شواطئه في شمال أفريقيا، وشواطئه الشرقية عندما نجح الأسكندر المقدوني في غزوه للشرق ومن ضمنه صور على الساحل الفينيقي في القرن الرابع قبل الميلاد، وصولاً إلى الحروب البونية الثلاثة بين قرطاجة وروما، حيث انتصرت روما انتصاراً نهائياً على قرطاجة في معركة زاما سنة 202 ق.م مغلقة بذلك فصلاً مثيراً في التاريخ البشري؛ تاريخ قرطاجة والقرطاجيين سادة البحار. لذلك كانت قرطاجة مركز حضور الفينيقيين في الغرب لعدة قرون حتى سواها الرومان بالأرض سنة 146 قبل الميلاد.

إذن، دامت مملكة قرطاجة منذ بداياتها الأولى حتى انتهت ككيان سياسي وحضاري قرابة ستمائة سنة أو أكثر (814-146) ق.م. إلا أن المؤرخ الروماني أيبيانوس (أبيان) قدر عمر قرطاجة بسبعمائة سنة، في حين قدر المؤرخ الإغريقي تيمابوس تاريخ تأسيسها بعام 814 ق.م، وقدر المؤرخ اليهودي يوسفوس تاريخ هروب إليسا بمائة وخمسة وخمسين سنة من ارتقاء حيرام حليف النبي داود وابنه سليمان، بحيث يتطابق ذلك مع سنة 826 ق.م تقريباً؟ ووضع المؤرخ الصقلي فيلستوس الذي عاش في القرن الرابع ق.م تقديراً بعيداً جداً عن القرن التاسع قبل الميلاد، حيث أرخ تأسيس قرطاجة بأقل من مائة سنة تقريباً قبل سقوط طروادة دون أن يحدد تاريخ السقوط، وهذا يعني أنه كان في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد إذا أخذنا بتاريخ السقوط الفعلي لطرودة، وهذا تاريخ لا يتوافق مع حقيقة التأسيس. ويذكر أن أبيان قدر عمر قرطاجة بسبعمائة سنة بدءاً من خمسين سنة قبل سقوط طروادة الذي وضع له تاريخ 800 ق.م، بذلك يمكن قبول تقدير فيلستوس الذي ربما اعتمد تقدير أبيان (غير الحقيقي) لسقوط طروادة.

ما توصل إليه علم الحفريات والآثار لم يدعم منتصف القرن التاسع قبل الميلاد أو نهايته كتاريخ لتأسيس المدينة، فبعد سنوات من الحفريات والتنقيب نجح الآثاريون بالوصول إلى اكتشاف أقدم بناء في المدينة حيث وجدوا فيه معبداً للصلاة كرس للإلهة تانيت. كما وجدوا في أدنى مستوى من المعبد شكلاً مستطيلاً صغيراً مع بقايا هازات إغريقية التصميم مؤرخة بنهاية الربيع الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد. وتعد هذه الآثار أقدم متروكات بشرية في الموقع. مع ذلك فإن عالم الآثار سينتاكس يعتقد بوجود بقايا تعود إلى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد. بينما يرى معظم الباحثين أن تاريخ التأسيس ربما تمت المبالغة في تقديره، إذ يرجعون 725 ق.م كتاريخ تأسيس للمدينة، بذلك يكون تاريخ سقوط طروادة كما رآه أبيان وفيلستوس في الربيع الأول من القرن السابع قبل الميلاد؟ ولذلك، فإن تاريخ هذا السقوط مشكوك في صحته.

رواية الشاعر اللاتيني فيرجيل في "الإنيادة"

بعد أكثر من سبعمائة سنة من موت إيليسا كتب الشاعر اللاتيني فيرجيل (70-19) ق.م قصتها الأسطورية في ملحمة البطولية الشهيرة التي سماها الإنيادة Aeneid. والإنيادة ملحمة بطولية شعرية مثيرة وملهمة، جاءت في اثني عشر كتاباً، تتحدث الستة الأولى عن ترحال وتجارب آينياس (آينيس) Aeneas بعد سقوط طروادة، ماراً بقرطاجة. بينما تتحدث الكتب الستة الأخرى عن حروب اللاتيوم بين آينياس وتورنوس وأتباعهما. وقد أقام فيرجيل ملحمة على أساس ملحمتي الإلياذة والأديسة لهوميروس، ونجح في إنشاء ملحمة كلاسيكية تتسم بالنضج والشمولية والجمال الأدبي الأسطوري. لكنه جعل القدر والآلهة يهيمن على ما يجري من أحداث، وذلك بأن جعل القدر يتحكم بالصعود الروماني للسيطرة على العالم، وبصراع الآلهة الفردية المتسم بسلوك بشري على هذا القدر.

خالف فيرجيل حقائق التاريخ الزمنية، ليس بسبب جهله بها، فريط الماضي البعيد بالحاضر والمستقبل بشكل أسطوري جعله يقترب من عقل القارئ، وذلك لهدف سياسي متعمد لخدمة خطته وهدفه. فجعل آينياس يتوقف في قرطاجة بعد سقوط طروادة ورحيل هرويه عنها.

سجلت ملحمة الإلياذة لهوميروس أحداث الحرب الدمية بين الطرواديين والمكيين (المسينيين) الإغريق على خلفية اختطاف الأمير الطروادي باريس لهيلين زوجة مينلاوس ملك أسبرطة وشقيق أغاممنون ملك المكيين، مما أدى إلى حصار طروادة لمدة عشر سنوات، لم يستطع المكيون فتحها إلا بحيلة الحصان الخشبي (حصان طروادة)، فقتلوا السكان ودمروا المدينة ونهبوها وأشعلوا فيها النيران. وتتناول ملحمة فيرجيل قصة البطل الطروادي آينياس بن أنخريس وأفروديت إلهة الحب والجمال عند الإغريق ببراعة فائقة. حيث بقي آينياس هائماً لسنوات طويلة بعد سقوط طروادة حتى استقر به المقام في المكان الذي بنيت عليه روما. ويعد آينياس الجد الأول للرومان حسب الأسطورة.

وتتطابق رواية ديدو فيرجيل مع رواية إيليسا التاريخ بهرويه من صور خوفاً من بطش أخيه، فتصل قرطاجة وتستأجر الأرض من ملكها وسكانها، وقد جعل فيرجيل بطله الأسطوري الهارب من طروادة المحترقة والمهزومة يصل إلى قرطاجة ويتعرف على الملكة إيليسا فتقع في غرامه وتحبه حباً عنيفاً يمتلك عليها عقلها وقتلها وجميع حواسها بحيث أنها نسيت واجباتها تجاه شعبها. ولأن الآلهة كانت قد قررت سلباً خطأ لآينياس ليقوم بواجبه المقدس بإنشاء طروادة جديدة، وليكون الجد الأول للرومان. لذلك، واستجابة لقرار الآلهة قرر آينياس خداعها بالرحيل عن قرطاجة تاركاً الحبيبة إيليسا تعاني من جنون حياها له؛ حب إيليسا المرفوض. إذ لم تجد أمام رحيله المحتم إلا أن تلقي بنفسها في أتون النيران المشتعلة، وأنها لم تعد قادرة على تسيير أمور شعبها لطغيان حالة من اليأس

القاتل لفراق آينياس، وأنها لم تكن أمام محنتها في رحيله قادرة حتى على اختيار من يخلفها في إدارة شؤون المدينة! وهنا يظهر التضمين واضحاً ليقول بأن حرص ديدو على سعادتها ومصالحها الشخصية أدت بها إلى الدمار، بينما ضحى آينياس بحبه وسعادته الشخصية على مذهب المصلحة العامة. وهذا درس مبين ابتغاء فيرجيل ليقول بأن على السياسي أن يضحي بكل الروابط الشخصية عندما تقتضي الضرورة ذلك، فلكي تولد المدينة الجديدة (روما) لا بد أن تسقط شعوب ومدن أخرى ضحايا على مذبحها. إذ، قد تتطابق رواية فيرجيل عن إليسا: ديدو في البدايات مع معظم الروايات التاريخية، ولكنها تختلف في النهايات والمعاني!

جعل الشاعر اللاتيني فيرجيل (بوبيوس فيرجيليوس مارو)، وهو يكتب ملحمة في القرن الأول قبل الميلاد، آلهة آينياس تقرر تمديد إجازة هرويه وتطوافه وترحاله لعدة قرون حتى يلتقي بإليسا في قرطاجة. إذ أن حروب طروادة وسقوطها كان في منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد تاريخياً أو ربما أبكر قليلاً، وتأسيس قرطاجة التاريخي كان سنة 814 ق.م تقريباً، أي في السنوات الأخيرة من القرن التاسع قبل الميلاد، وهذا تناقض تاريخي هائل! أو أنه جعل تاريخ حروب طروادة تقع بعد تاريخ وقوعها الحقيقي بأربعمائة سنة تقريباً ليتوافق مع تاريخ ملحمة!

إذا كانت الاعتبارات التاريخية تؤكد حقيقة إليسا التاريخية وليس الأسطورية، فإنها عندئذ ستدحض رواية فيرجيل باللقاء إليسا بآينياس. لأن آينياس شارك في حرب طروادة التي اتفق على تاريخ حدوثها بين القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد، وهذا فرق زمني كبير لبقاء آينياس حياً حتى يلتقي بإليسا. وحتى لو أخذنا التاريخ الذي حدده المؤرخ ديفيد روهل لحرب طروادة في العام 864 ق.م يكون عندها آينياس قد بلغ من العمر سبعة وسبعين عاماً عند هروب إليسا من صور سنة 825 ق.م، وثمانية وثمانين عاماً عندما بدأت إليسا ببناء قرطاجة سنة 814 ق.م. وهذا برهان واضح على خروجه عن منطلق الوقوع في الأسر الرومنسي لأحدهما بالآخر، والذي يتحدث عنه فيرجيل!

لم يكن ينقص فيرجيل إلا أن يقنعنا بجعل الآلهة تقرر راضية تمديد إجازة آينياس لمدة أربعمائة عام أو أكثر يقضيها في جزيرة نائية عليها عروس من عرائس الخيال تحفظ، بجمالها وشبابها وحيويتها كل هذه المدة لإرضاء شباب آينياس المتجدد لهذه المدة الزمنية الطويلة قبل وصوله إلى قرطاجة!

استمد فيرجيل قصة ملحمة من قصة "بعل الفينيقي" التي كتبها نيفيوس في نهاية العصر الروماني الجمهوري. وقد حول فيرجيل قصة إليسا من بطولة ملكة كرست نفسها وحياتها لخدمة أهدافها السامية في بناء مدينة ودولة جديدة لشعبها إلى امرأة مهمومة بحبها المحيط والهروض والياثس لآينياس. وذلك من أجل أن يخدم فكرته الأساسية بأن الحروب والعداء بين الشعبين: الروماني والفينيقي (القرطاجي)، هو بين الحق والباطل،

بين الخير والشر، بين الواجب والرغبة - المقولة الغريبة التي لا تتغير على مر العصور والأزمان- حتى أن الحب السامي الذي حملته ديدو لم يغير من هذا العداء شيئاً! وقد صور فيرجيل انتحار إليسا ليس كموت نبيل من أجل الحب بل صاحبه لعنات إليسا على البطل الطروادي - الثلاثيني الراحل. وهنا يؤمس فيرجيل لأسباب العداء بين روما وقرطاج في حروبهما الطويلة والدامية بوضع اللوم على لعنات امرأة قرطاجية شعرت بإحساس عظيم من مرارة الرفض والإحباط وهذا يعني أن عرض فيرجيل للصورة هو عرض روماني تبريري لأسباب العداء والحروب التي شنتها روما على قرطاج، وأن الرومان كانوا يذافعون عن ذوات أنفسهم وعن مصالحهم ضد القرطاجيين الجشعين المولعين بشن الحروب والقتال! لذلك كان ضرورياً أن يرسم فيرجيل صورة خاصة ومختلفة لإليسا، حتى أنه عمد لتغيير اسمها إلى ديدو (الرحالة وليست المقيمة، مما يعني أن أرض قرطاج ليست أرضاً قرطاجية)، لتلتقي مع رؤيته الرومانية المتناسبة مع ما يريد قوله!

أدخل فيرجيل تعديلات جوهرية في التفاصيل عند إحصار آينياس وفريقه إلى قرطاج، بحيث جعل آينياس وديدو يقمان في الحب بناء على الرغبة المشتركة لجنو وفينوس⁽¹⁾، مع اختلاف أسبابهما. وعندما علم الملك إيارياص المنحدر من نسل جوبيتر، بوقوع ديدو بحب آينياس، وهي التي رفضته، طلب من جوبيتر أن يأمر برحيل آينياس من قرطاج من أجل أن تعاني إليسا من فراقه.. اللقاء لرغبات الآلهة والمتحدرين منها! أرسل جوبيتر ميركوري إله الفصاحة والتجارة ومبعوث الآلهة للقاء آينياس وإعلامه بأوامر جوبيتر، فما كان منه إلا أن يطيع. وقد أبلغ ميركوري آينياس بالأرض الإيطالية الغنية بالسمن والعسل وكل شئ، وما على آينياس إلا أن يحزم حقائبه ويرحل عن قرطاج تاركاً حبيبته لمعاناتها القاتلة.

لم تعد ديدو قادرة على العيش بعد رحيل آينياس، فطلبت من أختها آنا إعداد موقد مقدس كبير متظاهرة بأنها ستقوم بإحراق كل متعلقات وممتلكات آينياس في النيران بما فيها غرفة نومهما.

عند رؤية ديدو آينياس وهو يرحل صبت عليه وعلى جميع نسل طروادة لعناتها، ودعت الآلهة لتأجيج العداء باستمرار بين قرطاج وأحفاد آينياس، كأنما تنذر بوقوع الحروب البونبة بين الطرفين. ثم بدأت بالهبوط نحو النيران الملتهية، وبحركة غير متوقعة ألقت بنفسها فوق سيف آينياس، فارتفعت صرخات الفزع من الحاضرين، وبسرعة سمحت آنا أختها إليسا واحتضنتها وهي تنازع سكرات الموت. فأسرعت جنو بإرسال إيريس Iris إلهة قوس قزح ومرسال الآلهة هابطة من السماء لإنقاذ روح ديدو من جسدها الذي يحترق. وعلى البعد رأى آينياس وفريقه وهم على مسافة في البحر السنة اللهب تنطلق من محرقة ديدو، فقدروا ما كان يحصل!

(1) - كانت جنو من أهم الآلهة الرومانية وزوجة جوبيتر كبير الآلهة في المجمع الوثني الروماني، وكانت فيلوس إله الحب والجمال عند الرومان.

وقد علق بعض الباحثين على تضمين رواية انتحار ديدو بهذه الطريقة إلى التلميح بأن آخر ملكة قرطاجية عند إحراق الرومان لقرطاج ونهبها وتسويتها بالأرض سنة 146 ق.م لاقت المصير نفسه. وأن نهاية قرطاج المحتومة كانت قد قررتها ديدو عند تأسيسها للمدينة، وأن ما قام به الرومان هو أنهم دفعوا أذى القرطاجيين عن روما ليس إلا. ويمكن النظر إلى ما جاء في "الكوميديّة الإلهيّة" لدانتى بما مثلته استمراراً للرؤية الإيطالية في القرون الوسطى بمغزوها الثقافي؛ بأن وضع دانتى ديدو في الدائرة الثانية من الجحيم. فهي ملعونة لعنة أبدية تعاني في قلب الجحيم بسبب شهواتها العدائية العارمة. ويمكن التخمين أيضاً إلى أن ديدو ربما مثلت في الأعين الرومانية القديمة وربما الحديثة⁽¹⁾ الامتعاض وربما الرفض من صفات سيرتها الشخصية بمؤهلاتها الأنثوية الشرعية، وأصولها السامية، والحضارة الآسيوية - الأفريقية التي حملتها.

التقى آينياس بديدو في العالم السفلي، وحاول الاعتذار عما فعله، لكن ديدو لم تلتفت إليه، بل استدارت إلى بستان ينتظرها زوجها سيخايوس فيه. وهذا يعني أن ديدو بقيت في الحاليتين: تاريخياً وعند فيرجيل، وفيه لزوجها سيخايوس، إلا أن فيرجيل جعلها تتعذب استغفاراً لوقوعها بحب آينياس!

إنه الشعر، الملحمية، الأسطورة، التي لا تحتفي بمنطق الحوادث، وإنما برسم صورة وطنية بطولية تخدم بناء تكوين فكرة الدولة- الأمة (الامبراطورية) عند فيرجيل؟ فقد بدأ ملحمة بقوله: "للملاح أغني، وللرجل الذي كان أول من جاء به القدر طريداً من شواطئ طروادة إلى إيطاليا وشواطئ لافينيوم". لقد لجأ الشاعر ببراءة أدبية إلى توظيف الأسطورة في ملحمة وحملها بالكثير من الدلالات التاريخية والسياسية، رابطاً بشكل وثيق بين الأسطورة والتاريخ، فاصلاً بشكل ملحمي وتاريخي للجنس الروماني مستمده من أصول طروادية، وخاصة من السياق الملحمي في أسطورة الإلياذة لهوميروس، فنجح أيما نجاح في دمج واقع تاريخي روماني متخيل بالأسطورة منفتحاً إلى آفاق واسعة على مسار التاريخ الروماني بدءاً من تأسيس روما. وما الشعر الذي وضعه فيرجيل على لسان شبح والد آينياس (الكتاب السادس) إلا تكريساً للصورة التي يريدها فيرجيل أن تكون عليها إيطاليا المستقبل، إذ يقول شبح أنخريس لولده آينياس: "اسمع بابني، لسوف تملأ روما، تلك المدينة المشهورة، الأرض بإمبراطوريتها والسماء بقوتها. فوجه ناظرليك لترى هذه الأمة، الأمة الرومانية، أمتك. فما هو قيصر وجميع سلالة يوليوس التي ستترعرع تحت هذه السماء الواسعة. وهاهو البطل الذي طالما سمعت عنه: أوغسطس قيصر بن المؤله (يقصد أوكتافوس بن يوليوس قيصر بالتبني) الذي سيعيد العصر الذهبي إلى سهول لاتيوم وحقوقه". كما نجح فيرجيل في تصوير نهاية ديدو لتكون من ضحايا قوة وعظمة روما المستقبل. وبذلك فنهاية ديدو هنا إنما تمثل استباقاً مبكراً لنهاية قرطاج.

(1) - نظر لحكم القاضي في لطيفة أيام موسيليني إلى ديدو كشخصية شيطانية معادية للرومان.

من الجدير ذكره أن آينياس لم يؤسس روما، حتى أنه لم يشر إلى نفسه بهذا الوصف، ولم يذكرها أبداً، وإنما هو من أسس مدينة لافينيوم؛ ومن نسله جاء رومولوس بعد أكثر من ثلاثمائة عام ليؤسس روما .

وضع فيرجيل مهمة إخبار قصة إليسا إلى آينياس (آينيس)، بطل ملحمة، على لسان هينوس⁽¹⁾ عند وصوله قرب شاطئ قرطاجة، والتي جعلتهما يلتقيان ويقعان في الحب:

أترى قرطاج التي يقطنها الصوريون؟

إنها مدينة إيجية⁽²⁾، الليبيون العنيفون يشنون غاراتهم على حدودنا .

ديدو ملكة لمملكة تركتها هناك في مدينتها صور

هربت خوفاً من أخيها بعد طول معاناة وأسف مما حدث

مع ذلك، فسأروي قصتها بكل صراحة ووضوح

كانت عروساً لسيخا يوس الرجل الذي عدّ الأغنى

المالك لأراضٍ في صور، والذي أغرمت به المسكينة ديدو

امرأة في عذريتها المزهرة ارتبطت بتمهدها والدها بخطبتها

بزواج ذي نال وضاء؛ لكن أخيها اعتلى ليحكم الصوريين

حكم أخوها الملك بيجماليون على صور كوحش شرير

نشأ نزاع قاس في بيت الملك، وبالجشع أعميت البصيرة

فأهمل حب شقيقته، وتحدى الإله في السماء

فقام بذبح سيخا يوس في مذبح الإله دون أن يراه أحد

وأخفى جريمته لمدة طويلة، وقدم حججاً مختلفة لموته

وبوضاعة ضل شقيقته ومد قلبها المكسور بالأمل

لكن ظهر شبح زوجها في المنام خارج مدفنها

اقترب ورقع راسه بوجه غريب وشحوب غير طبيعي

فأشار إلى بقع الدم على المقام وصدره المطعون بالسيف

وكشف بوضوح عن السر المشين لبيتها وشقيقها

ثم ناشدها أن تسرع في الهرب من البلاد، وأخبرها

بمكان ثروته المدفونة في الأرض لمساعدتها في هربها

ذهب لا يقدر وزنه، وفضة لا تقدر قيمتها

ذعرت ديدو من الحلم. وبدأت تستعد مع فريقها للهرب

فجمعت إلى جانبها كل من يمقت أخيها الطاغية الذي لا يرحم

(1) - Virgil, Aeneid i.335-1.368 (.. من ملحمة فيرجيل: آينيد 1 من 1-335 إلى 1-368).

روى ثوسير في كتابه "أسطورة النساء المشهورات.. ديدو ملكة قرطاجة"، ترجمة سارا جاسمون؛ "صفت ليلوس، دون أن يراها أحد؛ مشيرة إلى كيريد للقيام بولجبه المقدس لإيقاع ديدو في غرام ابنها الخالد آينياس".

The Legend of Dido, The Queen of Carthage, as recorded by Geoffrey Chaucer in "The Legend of Good Women", trans. By Sarah Jasmom.

(2) - جبل فيرجيل من قرطاجة مدينة بينانية! ولليبيين يمتدون علينا فيلاد ديدو في صور وليس في قرطاج

وكل من شعر بالعرب، فضعدوا إلى مركب في الميناء حجزوه
وملؤوه بالذهب، الذي يعده الخسيس بجماليون ذهبه لو أمسك به
وبعيداً عنه طغى على سطح الماء؛ وهذا كله كان من عمل امرأة
حتى وصلوا إلى المكان الذي ترى الآن أسواره العظيمة الفخامة
وأبراجه العالية المنيمة؛ قرطاج المدينة المولودة حديثاً، حيث
اشترى بعد ذلك موقعاً سموه ببرصا⁽¹⁾ توافقاً لمقايضتهم التي
تسمح لهم بتكبر مساحة يسعفهم ذكاؤهم بقدر مساحة جلد ثور

وجدت كتابة على صخرة في جزيرة سردينية (صخرة نورا) قام بترجمتها فرانك مور
كروس، تقول أن الملك بجماليون استخدم هذه الصخرة لتسجيل انتصاره على السكان
المحليين للجزيرة. وقد تبين أن الخط التصويري الموجود على الصخرة يعود إلى القرن
التاسع قبل الميلاد، فإن صحت ترجمة كروس لصخرة نورا فإنها عندئذ تمثل شاهداً
وثائقياً يثبت وجود ملك اسمه بجماليون في صور في القرن التاسع قبل الميلاد. وقد حدد
بعض الباحثين اسم ملك صور بعل آزور (بعل لزر أو بلزيروس جد إليسا) الذي قدم
الجزيرة للملك الآشوري شلمنصر الثالث سنة 841 ق.م. وقد أورد فيرجيل في ملحمة
أسم بيلوس والد ديدو وهي عادة قديمة باختصار الأسماء إلى اسم المقطع المقدس من
الاسم فقط إشارة إلى جدها بعل لزر الثاني أو بلزيروس.

تتطابق رواية فيرجيل بشكل عام مع خلاصة بومبيوس تروغوس الواردة في "التاريخ
النفيلبي"، ما عدا إدخاله لقصة أينياس ومرافقيه إلى قرطاجة والتقاءه بإليسا. كما
يشار إلى والد إليسا بيلوس الذي أطلق عليه الباحثون فيما بعد بيلوس الثاني تفريقاً له
عن بيلوس بن بوسيدون وليبية في الأسطورة الإغريقية. وإذا كانت رواية إليسا تقف على
أرضية واقعية ومتزامنة بشكل أقرب إلى الواقع التاريخي، يكون عندئذ بيلوس هو متان
الأول ملك صور والد إليسا وبجماليون.

تبين دراسة غيرهارد هيرم في كتابه "Die phonizier, 1974"، والتي أسسها على
الأعمال الأدبية الكلاسيكية لفيرجيل وأوفيد وسيلفيوس إتاليكوس، صحة الرواية العامة
لديدو. وهو يرى أن ديدو خلال حياة الترميل كانت محط أنظار الملوك المحليين للزواج
بها. ويستشهد غيرهارد برواية سيلفيوس إتاليكوس (إطاليكوس) من أنها تزوجت على
الغالب من أحد تابعيها الفنيقيين، الذي ربما كان من عائلة برقا / باركا المشهورة في
التاريخ القرطاجي⁽²⁾.

قامت ديدو، حسب نص فيرجيل، بإصلاحات دينية مهمة، وإنحازت للعمل على
تشكيل رؤية سياسية جمهورية في قرطاجة (Virgil, Aenead, 1.426). وقد ألهمت ديدو
بعد موتها حيث أطلق عليها اسم الإلهة "ثانيت" التي استمرت قداستها حتى تدمير

(1) - جلد الثور باللغة الفينيقية. وما يزال الاسم نفسه يطلق على المكان.

(2) - Punica, 1.71f, 2.239

قرطاجة سنة 146 ق.م. وقد انتقلت عبادة تانيت إلى روما خلال فترة الامبراطور سبتيوس سيفيروس (193-211م) ذي الأصول الليبية، الذي ولد في لبتس ماغنا (لبدة الحالية على الساحل الليبي).

عرفت إلیسا بذكائها ودهائها، حيث استطاعت إنشاء دولة فينيقية عظيمة في الشمال الأفريقي عرفت بتجارها الواسعة وسيطرتها على البحر المتوسط. وأمن لها تصاهرها مع البربر عمقاً متيناً مع سكان البلاد فتشكل الشعب البونيقي الذي استعمر سواحل المتوسط وأنجب هانييل.

عرفت إلیسا بعدة أسماء، وذلك حسب الحضارة التي تناولت سيرتها؛ فسميت في إنياذة هيرجيل بديدو، وترجمت إلى العربية باسم ديدون، وإلیسا التي يعتقد أنها كلمة فينيقية تعني أليشات، وعرفت أيضاً بتوحيد الاسمين: إلیسار- ديدون (الرحالة ديدون)، ويسمىها الليبانيون إلیسار أو عليسة (عليشة).

بقيت ملحمة ديدو وأينياس، والتي اتسمت برؤية إنسانية عامة مثلت الصراع بين الحب والواجب، شائعة ومثيرة خلال فترة ما بعدعصر النهضة، وصارت أساساً للكثير من المسرحيات والأوبريات الغنائية، وأوحت قصتها للشاعر الانكليزي كريستوفر مارلو بنظم مسرحيته الغنائية الرائعة "ديدو ملكة قرطاج".

الجدور الاجتماعية والسياسية للدولة الجديدة

بينما كانت قرطاجة تتكون كمدينة - دولة كانت مدينتها الأم صور وقبلها صيدون على الساحل السوري تتعرض لتهديد الغزوات الآشورية في القرن التاسع قبل الميلاد. لذلك وجد الفينيقيون أنفسهم يفرون باحثين عن أماكن آمنة لهم في المستعمرات الفينيقية على شواطئ المتوسط، والتي كان من ضمنها المستعمرة الجديدة قرطاجة التي كانت تزداد اتساعاً وازدهاراً. بحيث ازدهر سكانها من التجارة واستخراج القضة من المناجم الموجودة في شمال أفريقية وجنوب إسبانية. وكان حصولهم على جميع الحقوق المدنية والسياسية يتم بشكل سريع ودون عقبات. فكتب ديودورس الصقلي، في القرن الأول الميلادي، معتمداً على المؤرخ الإغريقي تيمايوس Timaeus (356/340-250) ق.م: "إن الفينيقيين الذين كانوا منذ زمن بعيد يبحرون باستمرار بقصد التجارة، نجحوا في تأسيس مستعمرات ومراكز لهم ابتداءً من الساحل الليبي وعلى امتداد الساحل الأفريقي للمتوسط حتى الأجزاء الغربية الجنوبية من أوربة، وأن ما حققته التجارة كان الحافز الأساسي الذي أدى إلى خلق تلك المستوطنات". وتتفق المصادر الأدبية والأثرية على أن أقدم مستوطنة أفريقية بناها فينيقيو صور، هي أوتيكا، ويعدها قرطاجة، ثم سوسة (هادرمانتوم)، وتيبازة ومرسي مدالج في غرب الجزائر، وبعض المراكز على طول الساحل المغربي على المحيط الأطلسي. كما اتجه الفينيقيون إلى إسبانية، حيث كتب ديودورس الصقلي: "... جمع الفينيقيون ثروات عظيمة؛ وعزموا على مواصلة إبحارهم إلى ما وراء

أعمدة هرقل، في البحر المسمى المحيط، فبنوا أول الأهرمدين غادير (أغادير) على مقربة من المضيق. كما أبحر الملاح القرطاجي الشهير حنون في النصف الأخير من القرن الخامس ق.م إلى أبعد نقطة على الساحل الغربي للسفنال. وقد سجل رحلته "رحلة هانو (حنون) البحرية Hamonis Periplus" باللغة الفينيقية على صفائح الشبهان ووضعها في معبد الإله كرونوس (أيل الفينيقي) في قرطاجة. وقد قام بترجمة هذه الوثيقة عن اليونانية فالكونر سنة 1797م، والتي تعد من أقدم الوثائق التاريخية في علم الجغرافيا. وتبين الوثيقة الغرض من الرحلة / الحملة التي تكونت من ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء أبحروا عابرين مضيق أعمدة هرقل في أسطول مؤلف من ستين سفينة لتأسيس مستعمرات فينيقية على الساحل الأفريقي الغربي الشمالي للمحيط. وأسسوا خلال هذه الرحلة سبع مستعمرات أبعداها إلى الغرب مدينة قرنة على إحدى الجزر القريبة من الساحل المغربي، ثم أكمل مبحراً حتى وصوله إلى بحر يموور بالحيوانات النهرية (ربما كان نهر السنغال). وبهذه الرحلة بدأت تقاليد الحكايات الخرافية عن الوحوش الخرافية الغربية الأشكال والأخطار الموجودة إلى الغرب من أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق). وأبحرت أواسط القرن الخامس قبل الميلاد. بعثة تجارية تحت إمرة البحار القرطاجي عملقون، فبلغ الجزر البريطانية بغرض البحث عن المعادن.



لوحة تمثل ديدو (إليسا) وأبنيايس بريشة الفنان بيير نارسيس غورين عام 1815 م

وقد أشار بعض الباحثين إلى وصول الفينيقيين الغربيين لما وراء المحيط الأطلسي في الأمريكتين^(١).

حافظ الإغريق على تدفق مستوطنهم إلى جزر وسواحل البحر الأبيض المتوسط، واستطاعوا، في البلاد التي أطلق عليها اليونان الكبرى، التغلب على جميع شعوبها، فاضطرت معظم هذه الشعوب، وخاصة الإيطالية منها إلى الاندماج بالإغريق وأقتبسوا عنهم اللغة والحضارة. على أن أهم وأقوى هذه الشعوب في القرن السادس كان الأتروسكيين الذين سكنوا وسط إيطاليا بين نهري التير والارنو في الأساس، وانتشروا إلى مسافات أبعد من ذلك شمالاً وجنوباً. واشتهروا بالثروة والمهارة في التجارة والملاحة والقرصنة. واتصلوا باليونانيين بقصد التبادل التجاري. لكنهم لم يلبثوا أن أدركوا خطر الطموحات اليونانية على مجمل بلاد الجزيرة الإيطالية، فأخذوا يقاومونه، وتحالفوا مع الفينيقيين في قرطاجة. كما تراجع السكان الأصليون في صقلية من المناطق الشرقية، تحت ضغط الإغريق، والتجأوا إلى الزاوية الغربية من الجزيرة المقابلة لقرطاجة محتمين بالفينيقيين الذين بدؤوا يبرزون كقرطاجيين تولوا زعامة الفينيقيين في الغرب. وقد بقي تاريخ النزاع في صقلية لعصور بين الإغريق والفينيقيين (القرطاجيين) قبل أن يتحول ليصبح بين روما وقرطاجة بعد خروج الإغريق من مسرح الصراع في المتوسط.

بدأ الفينيقيون بتأسيس مراكزهم ومستعمراتهم على شواطئ المتوسط الغربية منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد أو ربما أبكر من ذلك، فصارت لهم مراكز هامة في أفريقية وإسبانية ومالطة وسردينية وصقلية، حيث كانوا يحتلون الرؤوس البحرية البارزة والجزر الصغيرة قبل قدوم الإغريق. إلا أن قرطاجة لم تبلغ درجة كافية من القوة تمكنها من مجابهة التوسع الإغريقي في الغرب إلا بعد بدايات القرن السادس قبل الميلاد. والظاهر أن العلاقات الفينيقية الإغريقية كانت على درجة مقبولة من التوافق الحذر؛ إذ لم يذكر القرن السابع ق م أي صدام بينهما، ويبدو أن الطرفين تجنباً المناطق التي يسيطر عليها الطرف الآخر. وهكذا لم يظهر وجود مستعمرات إغريقية في أفريقية الشمالية إلى الغرب من قرطاجة، كما لم يظهر مستعمرات فينيقية في إيطاليا الجنوبية.

بالمقابل شجعت قرطاجة المهاجرين من صور والدول المحيطة بصور، بعد سقوط صور بيد الآشوريين، على تشكيل جبهة موحدة ضد الإغريق. وما أن جاء منتصف القرن السادس قبل الميلاد حتى كانت قرطاجة قد أصبحت جوهرة المتوسط، بحيث استطاعت إحراز انتصارات متعددة على الإغريق، فجعلتهم أصحاب القرار، بينما الإغريق في موقف الدفاع. لذلك استمرت قرطاجة في بناء المراكز على طول سواحل وجزر المتوسط بحيث تطورت هذه المراكز إلى موانئ ومدن من أجل حماية تجارتهم وتوسعهم، حتى أصبحت قرطاجة في نهاية القرن السادس قبل الميلاد العاصمة بدون منازع على المنطقة الساحلية

(١) - فضل النائم: "الفينيقيون... وأمريكا"، ترجمة وتحقيق د. عبدالله الحلو، دار فكر للأبحاث - بيروت. نظر أيضاً كتاب أميل إدو: "الفينيقيون واكتشاف أمريكا"، دار النهار - بيروت.

من الحدود المصرية الليبية من مدينة قرنة الساحلية التي كان يحكمها الإغريق، حتى نوعميدبة (الجزائر). وسجل أول صدام بين قرطاجة والإغريق في صقلية سنة 580 ق.م، بدأت قرطاجة بعدها مهمة إيقاف التوسع الإغريقي في غرب المتوسط. حيث يدل هذا على أن دور قرطاجة في ميدان السياسة أخذ بالبروز في منتصف القرن السادس قبل الميلاد.

فاجأ الملك آشور ناصريال الثاني (884-859) ق.م اقطاعية إرواد وبقية الساحل الفينيقي، ثم نلاه شلمنصر الثالث (859-824) ق.م في جبهة عريضة شملت الفينيقيين حتى نهاية الساحل الفلسطيني والمموريين معاً، ثم جاء تغلات بلاسر الثالث (745-727) يقود جيشه في استعراض مهيب أمام أسوار المدن الفينيقية، وأرغم صيدا وصور وعلبك على دفع الجزية، وفي آخر المطاف تم تدمير صور على يد البابلي نبوخذ نصر الثاني (605-562) ق.م. وكان من نتائج تعرض المدن الفينيقية لهذه الغزوات، أن ركبو سفنهم وغادروا في هجرات جماعية تحت ضغط الآشوريين، الذي استمر لعدة قرون. مبحرين نحو الغرب على طول الساحل الجنوبي للمتوسط، وكما وجدوا مرفأً مناسباً يصلح لرسو سفنهم عرجوا عليه وأقاموا فيه مركزاً تجارياً أو محطة لإصلاح سفنهم وتزويدها بما يلزمها.

اخترقت القبائل الليبية تحصينات الدولة المصرية واستوطنت الدلتا في نهاية عصر الأسرة الفرعونية الحادية والعشرين الضعيفة. واستطاع شيشنق Shishak أكبر وأقوى زعيم للقبائل الليبية أن يستولى على الحكم في مصر وأن ينشئ حكم الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد، ثم جاء حكم الكوشيين بعد ذلك. وقد تمكن حكم الأسرتين لمصر من إنشاء اسطول مرهوب الجانب فرض حمايته على الساحل الأفريقي من جنوب فلسطين حتى المنحنى العظيم عند خليج سرت الحالي. واستمر الليبيون في مصر إلى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد. وكان الإغريق حينها يتقدمون ببطء باتجاه إسبانية بعد أن فرضوا سيطرتهم على سواحل أوربة الجنوبية، ولم يكن ثمة خيارات كثيرة أمام الفينيقيين سوى تجنب الصراع مؤقتاً مع هذه القوى الصاعدة بأن يكتفوا بإلقاء مراسيهم في مناطق الساحل الأفريقي الشمالي الآمنة. وقد بدا موقع قرطاجة لهم، وهم البحارة المهرة العارفين باستراتيجيات المواقع البحرية، موقعاً مناسباً من جميع الوجوه لإنشاء مركزهم البحري الرئيسي عليه.

تمكنت قرطاجة إذاً من أن تصبح تدريجياً عروس المتوسط، ولما صارت مراكز المستوطنين التي أسسها الفينيقيون من اهل صيدا وصور وغيرها في جزيرة صقلية وإسبانية تحت تهديد الإغريق طلبوا الحماية والمساعدة من قرطاجة. ثم أصبحت السيادة بعد ذلك للقرطاجيين في غرب المتوسط، وتم طرد الإغريق من جزيرة صقلية، فأسس الفينيقيون مراكزهم على طول سواحل جزيرة صقلية والجزر المجاورة حتى

شواطئ شبه الجزيرة الأيبيرية الشرقية. وقد اندلعت أولى المعارك بين اليونانيين والقرطاجيين بدأ من سنة 580 ق.م.

تحالف القرطاجيون وملكي صيدا وصور مع الفرس لاجتياح بلاد اليونان. غير أن الحرب أظهرت اليونان على المتحالفين سنة 480 ق.م في سلاميس وهميرة (حميرة) على الشاطئ الشمالي لصقلية بانتصار ساحق خلد في التاريخ الأدبي الإغريقي. وقد أثرت هذه الهزيمة تأثيراً كبيراً على سياسات قرطاجة.

استمرت قرطاجة بنشاطها التجاري المعتاد، وهي تخطلط لحرب جديدة ضد الإغريق في 409 ق.م. لكن الإغريق لم ينجحوا في محاولاتهم العديدة لاستعادة السيطرة بشكل كامل على صقلية فيما بعد، واستمرت الحروب لمائة سنة وفي أوقات مختلفة بين الطرفين. وفي النهاية ظهر الإغناء على الطرفين وبدا أنه يمكن هزيمتهما وإنهاء سلطانهما على البحر الأبيض المتوسط.

احتل الأسكندر المقدوني الشرق سنة 333-330 ق.م ومن ضمنه صور التي عرفت بالغنى العريض والثروة الطائلة والبأس الشديد لمقاومة الخضوع والاستسلام، فاستباحها وذلك معاملها، بعد أن رفضت بإباء شديد السماح له بدخولها. وقتل الآلاف من سكانها وساق عشرات الألوف منهم إلى سوق العبيد لأن المدينة قاومت ببسالة حصاره الذي استمر لسبعة أشهر. ولذلك لم يعد القرطاجيون يأملون بأي دعم يأتي من الشرق بعد ذلك. لذلك، صارت مسؤولية الدفاع عن المستعمرات القريبة تقع بالكامل على عاتق قرطاجة التي استمرت بتحسين مواقعها القديمة وإحداث مواقع ومراكز جديدة، كي تشكل خطوطاً دفاعية عن قرطاجة ضد اليونان، وفيما بعد ضد الرومان الذين بدأ ظهورهم المكثف يشهد حضوراً تدريجياً على مسرح السياسة في منطقة المتوسط.

أجبر هجوم الاسكندر الأكبر الخاطف على الشرق قرطاجة أن تتعني وتبدل من استراتيجيتها، فقررت التمايش مع الامبراطورية الإغريقية الجديدة وخاصة مع البطالمة في مصر ضد طموحات خلفاء الاسكندر في اليونان.

ومن منتصف القرن الرابع حتى منتصف الثالث قبل الميلاد استطاعت روما ضم مناطق عديدة، حتى أنها دخلت إلى جزيرة صقلية التي كانت تحت حكم قرطاجة. وقد عد تاريخياً هذا الغزو الروماني لصقلية بما سمي بالحرب البونية الأولى (264-241) ق.م. وانتهت بانتصار روماني استراتيجي على قرطاجة.

انتشل القائد القرطاجي هملقار قرطاجة من عمق الكارثة: بعد احتلال كامل صقلية وطرد القرطاجيين منها، وذلك بالاستيلاء على مناجم الفضة في جنوب شرق الجزيرة الأيبيرية، بحيث تمكن من إنشاء امبراطورية عسكرية هناك وإعلان نفسه حاكماً مطلقاً عليها، وذلك خلال السنوات 237-228 ق.م. وبعد موته في معركة خاسرة مع القبائل الأيبيرية، نجح زوج ابنته جدر بعل (هاسدرويل) وابنه هانيبعل باحتلال كامل النصف الجنوبي من شبه الجزيرة الإسبانية شمالاً حتى نهر الأيبرو.

أدركت روما خطر قرطاجة على أمنها وخططها الطموحة، فخططت لسلسلة من المعارك العسكرية تمكنت فيها بقيادة القائد الروماني سكيو من احتلال إيسانية، وذلك في السنوات من 210 إلى 206 ق.م.

إن ما ميز قرطاجة عن صور الأم هو نظام سياساتها التجارية والدبلوماسية الذي اتبعته، بحيث لم تبق مدينة- دولة كصور بل مدت نفوذها وسلطانها على كل المراكز والمدن الفينيقيّة والمستعمرات في غرب البحر الأبيض المتوسط حتى إيسانية. واحتفظت بحق الاتجار على سواحل المتوسط الغربي الجنوبي، والقسم الجنوبي من شبه الجزيرة الأيبيرية التي كانت من أغنى الأراضي الإيسانية بمناجم الفضة والزنك. ونجح القرطاجيون بخلق فضاءاتهم ونظامهم الخاصين بهم مع المحافظة على علاقات متينة مع مدينتهم الأم صور على الساحل الفينيقي في سورية، واستمروا في ذلك إلى أن استطاع الرومان انتزاع السيادة على البحر الأبيض المتوسط بشكل مطلق في أعقاب معركة زاما ضد هانيبل سنة 202 ق.م، فصار بحيرة رومانية إلى أن جاء المسلمون العرب في القرن السابع الميلادي فغيروا قوانين اللعب في معركة اليرموك الفاصلة.

سبق القرطاجيون الرومان، بفضل نشاطهم وحيويتهم وبراعتهم التجارية ولاحقاً العسكرية، في القوة والمنعة والملاحاة والازدهار. لكنهم لم يتمكنوا من بناء امبراطورية قابلة للاستمرار والاستقرار. ولذلك أخذت دولتهم بالتراجع والانحدار في الوقت الذي كان نجم روما يرتفع عالياً ويسرعة في سماء العالم القديم حتى أصبحت روما في النهاية سيدة هذا العالم.

كانت قرطاجة مجتمعاً تجارياً بالدرجة الأولى قبل أن تكون مجتمعاً عسكرياً. ولذلك اعتمدوا أساساً على تجنيد المرتزقة لتشكيل جيوشهم، وخاصة من الليبيين والنوميديين والإسبان والفاليين، والإغريق في بعض الأحيان، بينما كان المجتمع الروماني يولي عناية فائقة للإنخراط بسلك الجندية حيث كان يقدم الامتيازات العديدة للجنود وبهية لهم سبل الارتقاء إلى السلطان والجاه والثروة وألقاب الشرف والفروسية والتقدير الاجتماعي، في الوقت الذي كان المجتمع القرطاجي متوجساً على الدوام من النخبة العسكرية ومن طموحاتها، ولذلك وضع لها ضوابط صارمة ليعيقها تحت سيطرته وحكمه، وأسطع دليل على ذلك تصرف مجالس الحكم القرطاجي بالتراخي بالاستجابة لطلب قائدها هانيبل بمده بما يلزم في معركته لاحتلال روما بعد معركة كاناي سنة 216 ق.م في جنوب شرق إيطاليا. كما أن قرطاجة لم تكن ترحم قادتها المهزومين حيث كانت تحكم عليهم بالموت صلباً، ما كان يدعوهم إلى الانتحار تجنباً لمثل هذه العقوبة المهيينة. في حين كانت روما على عكس ذلك تشمر بالتعاطف والتشجيع والمواساة والاحتضان لقادتها المهزومين.

لا نتوقع من الإغريق أن يقوموا بإطراء القرطاجيين لأنهم من حرمهم من استمرار سيطرتهم على مياه وخليجان وشواطئ البحر المتوسط وبعض سواحل شرق المحيط الأطلسي في شمال غرب أفريقية وفي شبه الجزيرة الأيبيرية. هذه البحار التي أطلق

عليها الرومان "البحار الصورية Maria Tyria"، قبل أن يصبح بحراً رومانياً، فيطلق عليه الرومان "بحرنا Mare Nostrum".

التنظيم السياسي في قرطاجة

مر التنظيم السياسي ونظام الحكم في قرطاجة، التي كانت أول مدينة- دولة تنجح في بناء امبراطورية، بمراحل رئيسية ثلاث:

1- المرحلة الملكية التي تشكلت من الطبقة الأرستقراطية بحيث كان يتم اختيار الملك من عائلة ثرية متنفذة (الأسرة الماجوية نسبة إلى ماجو). وقد قدمت هذه الأسرة أربعة أجيال متعاقبة من القادة المعظم الذين تولوا قيادة الحرب ضد الإغريق. ولما استثمرت قرطاج خطر طموحات عائلة ماجو أواسط القرن الخامس أنشأت مجلس هضاء أعلى يتمتع بالسلطة العليا التي تسمح له باستدعاء أي مسؤول مهما علا شأنه للمثول أمامه للمساءلة والحساب.

2- المرحلة الثانية: كانت أقرب إلى النظام الجمهوري على الرغم من استمرار النظام الملكي. حيث ظهر التناقص السياسي بين الأرستقراطية التقليدية والطبقة الجديدة من ملاك الأراضي، إذ تمكنت هذه الطبقة من الاستحواذ على السلطة وانتزاعها من أسرة ماجو في منتصف القرن الخامس، واستمرت هذه المرحلة حتى بداية القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً. وقد تأثرت هذه المرحلة كثيراً بما شابهها في التنظيم السياسي اليوناني والروماني، فظهرت هيئات عديدة مثل مجلس الشيوخ، ومجلس المائة وأربعة، وحكامان يسميان ملكين أو سبطين على غرار نظام القناصل الروماني.

3- المرحلة الثالثة: وتجمع بين المرحلتين الأولى والثانية، واستمرت طوال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. وتركزت فيها السيادة السياسية لآل برقه/برقا التي أنجبت من مشاهير القادة: هملقار وابنه هانيبل، حيث نجحت الأسرة بالجمع بين سلطتها وسلطة مجلس الشيوخ والمجالس الأخرى الخاصة بالشؤون المالية والدينية. فزادت بهاء المدينة ورفعتها عن طريق تحقيق الانتصارات العسكرية. وقد تمتع هؤلاء القادة الذين كان يجري انتخابهم من قبل الشعب بمد ترشيحهم من قبل مجلس الشيوخ، بسلطات شبه مطلقة، كنواب حقيقيين للملك. ولذلك كان هانيبل السيد المطلق في إدارته لشئون الحرب ضد روما.

وبالرغم من عدم استمرار هذا التنظيم فقد عد الدستور القرطاجي في مرتبة الدساتير اليونانية والرومانية، فهو الدستور الأجنبي الوحيد الذي عده الفيلسوف الإغريقي أرسطو في دراساته الدستورية أفضلها جميعاً.

كان المهاجرون الفنيقيون إلى قرطاجة صوريين متمدينين وعلى معرفة جيدة بالثقافة والعرف والعلم والقانون. إذ عينوا وانتخبوا حكاهم ومجالسهم الخاصة لتمثيلهم، وأقاموا حكوماتهم الأوليفاركية (حكم القلة) الدستورية بحيث كان الحكم

يرفعون تقاريرهم إلى ملك صور، وقد اقاموا برلماناتهم الخاصة بهم في فترة لاحقة. واتبع القرطاجيون تقريباً في حكوماتهم الأنظمة الفينيقية التي عرفها الفينيقيون في صور. حيث كتب أرسطو في 340 ق.م عن قرطاجة ودستورها: "عرف القرطاجيون بأنهم منظمون بشكل جيد ودستورهم أرقى وأفضل من دساتير أخرى في مسائل عديدة". وقد كتب بلينيوس الأول: "يعود الفضل للمصريين في الإصلاحات التي أدخلت على النظام الملكي، ولالأثينيين الفضل في الإصلاحات الديمقراطية، وللبونيين (القرطاجيين) ابتكاراتهم في التجارة"⁽¹⁾.

وقد وصف القرطاجيون بنظام حكمهم السياسي الجيد، حيث كان في القرون الأولى من حياة الدولة يعد ملكياً وراثياً وانتخابياً في الوقت نفسه. والذي اختلف بوجوه عديدة عن أنظمة حكم سياسية لدول أخرى حينها. إلا أن نظامها كان يتشابه في بعض سماته بنظام الحكم في أسبرطة وكريت، وعرف القرطاجيون بمؤسساتهم الممتازة العديدة. وكان من أهم مميزات دستورهم على غيره أن المواطنين العاديين يبقون مواليين وملتمزين بالدستور، إذ لم يسجل في تاريخهم ما يشير إلى خروجهم على سلطة حاكمة مستبدة.

ومع استمرار تطور النظام السياسي، كان تعيين أو انتخاب الحكام في قرطاجة بشكل عام يتم بناء على جدارتهم، إذ عد ذلك إنجازاً سياسياً مهماً. كما كان يتم انتخاب مجلس قضاة مكون من مائة وأربعة ممثلين متقدمين في العمر صفاتهم الأساسية جدارتهم وكفاءتهم في العمل العام، وكان يشبه مجلس شيوخ يعاون الملك المختار من أفضلهم بمده بالتقارير عن الرقابة والتدقيق والأمن والمشورة والرأي. وكان المجلس ينتخب هيئة عليا مؤلفة من خمسة قضاة أو حكام أنيط بهم كذلك أن يبتوا برأيهم غير القابل للنقض، على الغالب، بأهم المسائل التي تواجه سياسات الدولة (يشبه مجلس الأمن القومي هذه الأيام). وكان من أهم مميزات دستورهم في القرون اللاحقة أن العرش عندهم لم يكن بالضرورة وراثياً (في حين كان وراثياً في نظام الحكم في أسبرطة)، فمنصب الملك مفتوح للمرشحين من خارج العائلة المالكة، كما لم يكن المنصب خاضعاً للأكبر سناً، وإنما للأكفأ والأقدر على اقتناع الجمهور بمؤهلاته العديدة. وبشكل إجمالي رؤي أن نظام الحكم هذا قد جنب البلاد تصفد اتخاذ قرارات وأحكام غير مناسبة. وكان يحق للملك والمجلس المنتخب، إن كان تم انتخابهم بالأغلبية، أن يقرروا عرض أي مسألة على الجمهور ليقرر فيها ما يراه مناسباً، ولأي مواطن الحق أن يقول رأياً مخالفاً إن رأى ذلك. أما إذا لم يتم الإجماع في المجلس فالشعب الممثل بالمجلس الشعبي أو المجلس الكبير هو المنوط بقرار عرض المسألة على الرأي العام. وتطورت صلاحيات المجلس الشعبي في الفترة الأخيرة من عمر الدولة فاصبح يعين القضاة ومجلس الشيوخ والقادة العسكريين. وإذا قررا الملك أو الحكام أي عمل مُسرف تسرع الغالبية بتبني ذلك.

(1) - فرانسوا بيكره: "قرطاجة أو امبراطورية البحر"، ص 110، ترجمة عزلاين أحمد عزو، تحقيق د. عبدالله الطو، دار الأهالي بدمشق، الذي يشير إلى بلينيوس لكبير أو الأول: (Pliny the Elder (8-9, 57, VII

ابتعد نظام الحكم القرطاجي بقدر ما عن الأرستقراطية التي كانت ممثلة في أسبرطة وكريت واهترب أكثر من النظام الأوليفاركي، إذ لم يكن يتم انتخاب الحكام لكفاءتهم وجدارتهم فقط، بل كانت آراء الناخبين تتأثر في العادة بانتخاب أبناء الطبقات الأرستقراطية وأصحاب الثروة والجاه، إذ اعتقد القرطاجيون أن انتخاب الكفو الفقير بما يحتاجه لا يمثل لهم حكماً جيداً كما يرغبون؛ إلا أن أهم سيئة في دستورهم كانت في تقلد الواحد عدة مناصب عامة في وقت واحد.

وبذلك كانت قيادات الدولة وإداراتها في قرطاجة تحت مراقبة ورعاية ورأي مؤسسات عديدة تضبط عمل الحكام المدنيين والعسكريين والإداريين لتجنب الانزلاق إلى الدكتاتورية والتعسف والظلم أو الفساد. وهكذا، كان الأفضل في نظام حكم قرطاجة يعين أو ينتخب بطريقة مختارة.

تأثر القرطاجيون بالحضارتين المصرية والإغريقية. لكنهم كانوا يتصفون بالخصائص الفينيقية من عقائد دينية قوية ومن شدة وجلد وموهبة نادرة في الملاحة البحرية والتجارة. وتم تتويج هذه المهارات باستعدادهم السياسي والدبلوماسي والعسكري. وجاءت الفنون القرطاجية مطابقة تقريباً للمصرية والإغريقية. لكن كتاباتهم كانت محدودة، حيث كانوا مقصرين في التدوين. لذلك كان من الصعب العثور على تسجيلات خاصة بهم قاموا بتدوينها. ومن هنا جاءت معظم المعلومات عنهم من نتائج تسجيلات حضارات أخرى. وقد عرفت قرطاجة بجيشها الذي كان مشغولاً بالحروب ضد الإغريق والرومان بشكل دائم تقريباً، وأظهرت الحروب البونية الأولى قوة الجيش القرطاجي بقيادة هملقار. كما أظهر احتلاله لإسبانية في 237 ق.م، يعد سلسلة من المعارك ضد القبائل الأيبيرية قتل على أثرها هملقار سنة 228 ق.م، قوة هذا الجيش أيضاً. وفي سنة 218 ق.م عبر هانيبل بجيشه جبال الألب إلى الأراضي الإيطالية. واندلعت الحرب البونية الثالثة سنة 149 ق.م فدمر الجيش الروماني قرطاجة بسكل كامل. ولذلك لم تعرف قرطاجة بفتونها بل بقادتها العسكريين العظام.

وصف مدينة قرطاجة

وجد ميثاءان صناعيان داخل أسوار المدينة التي كانت تثير الدهشة، يربط بينهما قناة. والميناء الأول عسكري كان يضم مائتين وعشرين سفينة حربية تشرف عليه قلعة بيرصا ذات الجدران المنيعه والتي كانت مقسمة إلى أربعة مناطق متساوية وشوارع نظامية الشكل. وقد بلغ طول الأسوار ثلاثة وعشرين ميلاً (34 كم) بالمقارنة مع أسوار روما التي كانت تبلغ خمسة أميال؛ منها ثلاثة أميال يارتفاع ثلاثة عشر متراً وسماكة من ثمانية إلى عشرة أمتار، إذ كان من الصعب اختراقها. ويوجد أبراج موزعة على جسم السور بمسافة ستين متراً بين كل برجين. وقد استخدمت الأماكن الفارغة المصممة داخل جسم السور

كأماكن إقامة للجند والخيول والفيلة والمخازن. ألخ، بحيث يتسع الاسطبل الواحد لثلاثمائة فيل وأربعمائة حصان. وكان يحيط بالأسوار خندق عظيم بمرض عشرين متراً، مما جعل وسائل حماية المدينة في غاية القوة والمنعة، إضافة إلى وجود قلعة داخلية يحيطها سور كبير. وقد اقتبست هندسة هذه التحصينات عن صور الفينيقية التي اقتبستها بدورها عن الآشوريين. كما يوجد مذابح مقدسة للأصحيات، ومقبرة، وسوق تجاري، ومجلس مدينة، ومعابد، وأبراج عظيمة، وبوابات هائلة، وقلعة، ومسرح، وشوارع دائرية مبلطة، وحدائق، وبيوت عظيمة مكون بعضها من ست طبقات. وقد وصفها الجغرافي اليوناني سترابو بـ "المدينة المتألقة". وكانت قرطاجة تسيطر على قرابة 300 مدينة وبلدة في حوض المتوسط. وقدر سترابو عدد السكان حينها (250 ق.م) بحوالي 700 ألف، وهو رقم كبير في قياس ذلك الزمن القديم. إذ ربما كان العدد يضم مجمل سكان المدينة وضواحيها؛ من التجار الذين يحكمون المدينة، والمقيمين، والرحالة والمستكشفين، وأصحاب الأراضي الزراعية وعبيدهم. فكانت هذه حال المدينة خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وذلك عندما أخذت بالسيطرة على تجارة غرب المتوسط، فجلبت معها الغنى والثراء. وكانت المدينة مطمئنة إلى حماية أسطول قوي مدعوم من جيش بري مكون من المرتزقة يشكل أسامي.

ترك لنا ديودوروس الصقلي وصفاً آخذاً لما كانت عليه قرطاجة، وذلك في معرض حديثه عن الحملة العسكرية التي جردها أجاثوكليس على أفريقية في أواخر القرن الرابع ق.م، فيقول⁽¹⁾: "اقترت الأرض فيها: عن الرياض الفيجاء والحدائق الفناء والجنان السندسية التي كانت ترهل بكل جنس ونوع من الثمار، تتساب بينها السواقي وتتخلها الترع المائية حاملة إلى الدقاق منها الدفء والثراء. وكانت المنازل الريفية الجميلة تتناثر أمام مرأى العين ومأوى البصر، على مسافات بعيدة، مناظرة البياض، حسنة البناء تحدث عالياً بغنى ساكنيها ونعماء أهلها. وكانت مغروسات الأرض تتناوح بين الكروم وحقول الزيتون وغير ذلك من الأشجار المثمرة، تملأها في جنبات السهول وسفوح التلال، قطعان الغنم والبقر والماعز بينما الريف القصي، كان ملعباً لقطعان الخيل. وجملة الخبر، فقد كانت الأرض تفيض بالخيرات وتدفق منها المحاصيل على تباين أنواعها، وقد تقاسم ملكيتها سراة القوم من القرطاجيين وأشرافهم يفرغون فيها أيامهم بين اللذائذ والأطياب". وقد اعتمد وصف ديودورس هذا بنقله عن روايات مشاهدات شهود عيان حدثوا بما رأوا وحيزوا مشاهداتهم كتاباً.

(1) - أندريه إيمار وجانين أودوايه: "تاريخ الحضارة العام- روما وإمبراطوريتها"، ص 57، ترجمة يوسف وفريد داغر، منشورات عويدات- بيروت.

حروب قرطاج

تحالف الأتروسكيون والقرطاجيون لتوحيد قواهم لمرد المستوطنين الإغريق من كورسيكا خلال القرن السادس قبل الميلاد. وشمل هذا التحالف المجالات العسكرية والاقتصادية المشتركة. وأشار أرسطو أن الأتروسكيين والقرطاجيين كانوا يظهران وكأنهم دولة واحدة بالنظر إلى تحالفهم العسكري وعلاقاتهم التجارية. وبعد انهيار الأتروسكيين، انحسرت نفوذ كليهما إلى شواطئه. وخلافاً لما كان شائعاً، لم تبدأ العلاقات بين قرطاج وروما بالحرب بل بالتحالف، فقد كان البلدان يشعران، رغم الحذر الذي كان يديه كل منهما تجاه الآخر، بالحاجة إلى الوسائل الدبلوماسية، وخاصة أوقات الأزمات، لإعادة التأكيد على تحالفهم⁽¹⁾.

وتعود أولى المعاهدات التي راعت المصالح لكل دولة بين روما وقرطاج لعام 509 ق.م، ثلثها ثلاث معاهدات أخرى حاول كل طرف منهما الحصول على ما كان يراه مناسباً لمصلحته العامة.

بدأ الصراع القرطاجي اليوناني الصقلي الذي يمكن تقسيمه إلى حلقات ثلاث:

1- بدأت الحلقة الأولى من الصراع في بدايات القرن الخامس ضد الطاغية السراقوزي جيلون الذي جمع بين يديه سلطات واسعة في هميرة على الساحل الشمالي الأوسط من الجزيرة، وهزم القرطاجيين في هميرة سنة 480 ق.م.

2- الحلقة الثانية من الصراع كانت ضد دينيسيوس حاكم سراقوزة ومن سبقه مباشرة، والواقعة على الساحل الجنوبي الشرقي لجزيرة صقلية.

3- الحلقة الثالثة من الصراع ضد تيموليون (341-338) ق.م.

وجدت قرطاج نفسها بعد أن تأسس وجودها الاقتصادي والسياسي مشغولة في سلسلة من الحروب، ما إن تتوقف حتى تبدأ من جديد، ضد محاولات الإغريق للسيطرة على كل الساحل الأفريقي بعد أن احتلوا ليتوس ماغنا على الساحل الليبي، ولم يكد ينتهي القرن السادس ويأتي الخامس حتى كانت قرطاج قد نجحت في العبور من دور الدفاع إلى دور الهجوم، فاشتبكت مع الإغريق أولاً، ثم مع الرومان فيما بعد. في جبهة طويلة امتدت من شواطئ إيطالية الجنوبية وسردينية وصقلية إلى شواطئ قرطاج نفسها. فكانت القوات المحمولة بحراً للطرفين تشكل العمود الفقري للحرب، بحيث أخذت تتكامل فنون التنسيق العسكري تدريجياً بين الأساطيل والجيش البرية. ونوجز هذا الصراع بما يلي:

(1) - فرساو ديكريه "قرطاجة أو امبراطورية البحر"، الصفحتان (155، 156)، ترجمة عز الدين أحمد عزو، تحقيق الدكتور عبدالله الطلو، دار الأملالي بدمشق.

1- أسست قرطاج مركزاً في أيبزا كخط دفاعي أول على ساحل إسبانية الشرقي الجنوبي سنة 654 ق.م، مع ذلك لم تتوقف الاشتباكات بين القوات القرطاجية وعصايات القراصنة الإغريق. وكانت سواحل جزيرة سردينية قد أخذت بالسقوط تدريجياً بأيدي القرطاجيين في مطلع القرن السادس.

ب- في عام 500 ق.م احتلت قرطاج هميرة في جزيرة صقلية وأسست أول قاعدة بحرية لها على الجزيرة. بعدها تحالفت مدن صقلية⁽¹⁾ وحاصرت مدينة هميرة الواقعة في منتصف الساحل الشمالي للجزيرة، غير أن القائد القرطاجي هملقارت فاجأ المحتشدين الإغريق من جهة اليابسة وهزمهم باتجاه الساحل.

ج- لكن الإغريق حشدوا قوات كبيرة في سنة 480 ق.م ونجحوا بتدمير أسطول قرطاج على شواطئ صقلية الغربية، وبالتالي إبعادها عن جبهة المواجهة في شرق المتوسط لمدة سبعين عاماً كاملة (من 480 السنة التي وقعت فيها الهزيمة إلى 409 ق.م). وخلال هذه المدة ركزت قرطاج على مسرح شمال أفريقية وعلى برنامج إصلاح شامل في الدولة:

1- تخلت عن نظامها القديم الذي كان يركز الحكم في أفراد بيت الملك، وتبنت نظاماً شبه جمهوري تمثل في تعيين مجلس قضاة مكون من مائة وأربعة أعضاء مهمته حماية الدولة من طموحات قادة الجيوش وذوي النفوذ الذين جروها إلى حروب خاسرة طوال ثلاثة أجيال بدءاً من القائد الشهير ماجو حتى هملقارت وصديعل (هاسدروبل أو هاسدروبل).

2- تحالفت مع الليبيين في الشرق.

3- أخذت قرطاج تتجه نحو السواحل الغربية حتى أعمدة هرقل وإلى داخل المحيط وصولاً إلى جزر الكناري وسواحل سيراليون وغانا الحاليين.

د - ظهر أسطول قرطاج سنة 409 ق.م على سواحل صقلية مقتتاً الجولة الثانية من المعارك بعد هزيمة هملقارت وتدمير أسطوله في معركة هميرا سنة 480 ق.م. وكان على رأس هذا الجيش حنا بعل أحد أحفاد هملقارت، فأصبحت ثلث أراضي صقلية تحت سيطرة قرطاج. وظلت الحرب من أجل النفوذ في صقلية سجالاً بين قرطاج والإغريق حتى سنة 367 ق.م. ولم تكد قرطاج تفرغ من مواجهاتها مع الإغريق في صقلية حتى بدأ ظهور السفن الرومانية وهي تجوب مياه القسم الغربي من البحر المتوسط وترتاد سواحل الشمال الأفريقي، فيبدأ المسرح يوحى بموجات صراع جديدة بين الرومان وقرطاج.

(1) - تعاقب الإغريق والقرطاجيون (الفينيقيون) والرومان والبيزنطيون والعرب والرومان على حكم جزيرة صقلية. لقد فتح العرب الأغالية صقلية تحت قيادة القتيبة أسد بن الفرات سنة 827 م (213 هـ)، ولم يحكم لها مدة قرنين ونصف (827 - 1091) م حتى تاروخ فتح النورمان للجزيرة.

أمام الظهور الروماني المتزايد في مياه البحر المتوسط ارتأت قرطاجة تجربة أسلوب المعاهدات، فتقدمت في 348 ق.م بمشروع معاهدة إلى روما، جاء فيها:

1- لا يجوز للرومان أو لحلفائهم الإبحار في المياه الإقليمية لقرطاجة أو أن يتاجروا أو يشيدوا مراكز أو مدناً في أراضيها بإسبانية.

2- لا يجوز للرومان أو لحلفائهم أن يتاجروا أو يشيدوا مراكز أو مدناً في ليبيا⁽¹⁾ وسردينية.

3- لا يجوز للرومان أو أحد من حلفائهم أن يقيموا في موانئ ليبيا وسردينية أطول من المدة التي تسمح بالتزود بالمؤن والإصلاح، وفي الحالات القاهرة،

وقد سادت المعاهدة لفترة كان كل طرف يستعد فيها انتظاراً لساعة الحسم. إلا أن الحرب اندلعت فجأة في مكان غير متوقع، حينما اشتعلت الحرب الأهلية في بلاد اليونان، ولم تضع أوزارها إلا بعد نجاح فيليب المقدوني بحسم الصراع الداخلي لمصلحة توحيد اليونان تحت قيادته ومن بعده ابنه الاسكندر الأكبر.

هـ - في العام 378 ق.م خرج بيروس من مملكته غرب اليونان لنجدة المدن الإغريقية الأصل في جنوب إيطاليا، وقبل أن يحرز نصره النهائي على روما كان عليه أن يعود إلى صقلية للدفاع عن المدن الإغريقية الأخرى ضد أسطول قرطاجة. من أجل ذلك اضطر إلى عقد معاهدة مع قرطاجة كي يعود لقتال الرومان. فأنزل به الرومان هزيمة ساحقة في 375 ق.م أخرجت الإغريق نهائياً من مسرح الصراع في القسم الغربي للمتوسط. وفي سنة 323 ق.م كانت قرطاجة ثابتة على أرض سردينية وصقلية، إلا أن تقدم روما بدأ يظهر تدريجياً بكل ثبات إلى مركز القيادة على جبهات الحرب في شمال أفريقية الشرقي.

و- ومنذ اجتياح الاسكندر المقدوني لحلفاء قرطاجة الفرس والفينيقيين في صور أصبحت قرطاجة معرضة لعزلة شبه كاملة في غرب المتوسط، فبات عليها أن تتناضل بكل مألديها كي تحافظ على قواعد المتقدمة في سردينية وصقلية، إلا أن الضغط الإغريقي والروماني لم يتوقف. فأعلن أجاثوكليس اليوناني المنشق عن اليونان، والذي كان قد عينه هملقارت⁽²⁾ حاكماً على سراقوزة في 318 ق.م (تقع سراقوزة على الساحل الشرقي الجنوبي من جزيرة صقلية)، الحرب على قرطاجة سنة 310 ق.م، فحاصر هملقارت سراقوزة، لكن أجاثوكليس وجد منفذاً بين سفن الأسطول القرطاجي وتسلى بستين سفينة واتجه لمحاصرة قرطاجة نفسها، وقام بإنزال جيش مكون من أربعة عشر ألفاً على الساحل إلى الغرب من رأس عناية، ثم أحرق السفن على مرأى من جنوده ليعرفوا أن خلاصهم الوحيد هو عبر احتلال قرطاجة، ساد الارتباك في قرطاجة، خاصة

(1) - كان ينظر إلى ليبيا حينها على أنها تمثل معظم منطقة الساحل الشمال أفريقي.

(2) - كان اسماً هملقارت من الأسماء الشائعة في قرطاجة، وكانت عائلة هملقارت من أكبر العائلات التي حكمت قرطاج منذ بدايتها الأولى، وربما جاء الاسم من اسم الإله السوري القديم "هملقارت".

وأن جيشها كان في سراقوسة. في هذه الأثناء وصلت أخبار انهزام هملقارت ومقتله إلى أجاثوكليس. فزحف أجاثوكليس على قرطاجة حينها، بروح تتسم بالتفاؤل، في محورين: من الغرب بقيادته، ومن الشرق بقيادة أوفلاس حاكم قورينة (التي تقع على الشاطئ الليبي بالقرب من الحدود المصرية). لكن الخطة في الزحف لم تكتمل، إذ دب الخلاف بين القائدين، فقام أجاثوكليس بإعدام أوفلاس وضم جنوده إلى جيشه وبدأ بالزحف على سوسة وأوتيكا وبنزرت، أثناء ذلك وصلته أنباء استمرار محاصرة جيش قرطاجة لسراقوسة رغم مقتل هملقارت، مما اضطره لترك جيشه والعودة سريعاً إلى سراقوسة، فتستغل قرطاجة الفرصة وتشن هجوماً تنجح فيه بتدمير قوات أجاثوكليس الباقية. وبذلك أصبح الوضع في المتوسط بعدها على النحو التالي:

1- أدى انسحاب الإغريق من ميدان الصراع وتراجعهم إلى جزرهم في مدنها الصغيرة المتناحرة، بعضها ينحاز إلى روما وبعضها الآخر إلى قرطاجة، وجميعها مستعدة للمساومة.

2- بمجيء عام 338 ق.م كانت روما قد أكملت تقريباً غزوها لجميع جيرانها في المدن اللاتينية، فظهرت كقوة بديلة للإغريق في المتوسط بعد هزيمتها لبيروس. فصارت جبهة الصدام إلى السيطرة على جزيرة صقلية.

3- تحاول قرطاجة إحكام قبضتها على قواعدها في صقلية وسردينية، وهي تواجه مقاومة داخلية في سراقوسة. وبذلك بدأت الحرب البونية الأولى بين الطرفين على سراقوسة.

ولذلك، بدأ الوجود العسكري اليوناني على طرفي المتوسط بالتراجع، خاصة بعد موت الاسكندر، وهاوت مدنه واحدة بعد الأخرى تحت ضربات روما وقرطاجة اللتين وجدتا أن الوفاق بينهما أنسب الحلول ريثما ينتهيان من اقتسام التركة اليونانية.

ز- في عام 264 ق.م كانت روما قد حازت على كامل حصتها من التركة اليونانية، فبدأت تعد العدة للإنقضاض على قرطاجة، فتعجبت بتحريض حاكم سراقوسة على التمرد ضد قرطاجة وأمدته بالمال والسلاح، فأعلن سراقوسة حليفة لروما في محاولة لاستنزاف قرطاجة.

ابتداءً ميدان القتال على السواحل الصقلية مفتتحاً ما سمي تاريخياً بالحروب البونية الثلاث بين قرطاجة وروما. وقد شكلت هذه الحروب حلقات ثلاث من حلقات الهجوم الشامل الذي افتتحه الإغريق والرومان ضد آسية وأفريقية قبل وبعد الاسكندر الأكبر.

الحرب البونية الأولى (264-241) ق.م

أصبحت جزيرة صقلية، لأهميتها الاستراتيجية، منذ القرن السادس قبل الميلاد وحتى نهاية الحرب البونية الثانية مسرحاً لحروب متتالية أهرقت فيها دماء غزيرة. وقد

استهدفت قرطاجة منذ نهاية القرن الخامس وحتى نهاية الحرب البونيقية الثانية السيطرة على كامل الجزيرة، فتجسدت في السيطرة على بعض أجزائها توسعاً وإنحساراً حسب مسارات الحرب تبعاً لبلوغ المجهود الحربي في صعوده وهبوطه وتدل المصادر على أن أسطول قرطاجة بلغ عام 256 ق.م 350 سفينة حربية كبيرة استمرت بالمحافظة عليها طوال فترة الحرب البونيقية الأولى، مع أنها خسرت خلالها حوالي 500 سفينة، بينما خسر الرومان حوالي 700 سفينة. وعلى الرغم من أن القرطاجيين كانوا أسياداً على البحار، إلا أن الرومان نجحوا في 266 ق.م باحتلال مدينة ميسانا على اللسان البحري الشرقي الشمالي لجزيرة صقلية، والتي كانت قرطاجة تتحكم منها في خطوط الملاحة البحرية في المضيق البحري بين ميسانا وجنوب غرب الجزيرة الإيطالية، وذلك بعد أن استطاعوا بناء أسطول حربي لأكثر من مائة سفينة صممت على نماذج السفن القرطاجية الشهيرة، حتى أنهم طوروها بتقنيات حربية جديدة لم تكن موجودة في السفن القرطاجية، وذلك بتجهيزها بخطاطيف هابطة تستحيل معها المعركة البحرية إلى معركة برية، مما أدى إلى قلب موازين المعارك البحرية المعروفة آنذاك عندما أنزلوها إلى البحر بطواقمها المدربة. وفي العام التالي نجح الرومان أيضاً باحتلال مدينة سراقوزة. كما نجحوا باحتلال مدينة ميلاي بعدها، والتي تقع إلى الشمال من ميسانا. واستمرت روما بإحراز انتصارات بحرية على أسطول قرطاجة إلى أن تمت هزيمته وإخراجه نهائياً من الميدان سنة 241 ق.م. مما اضطر قرطاجة إلى الانسحاب الكامل من صقلية وقبول شروط الصلح القاسية التي فرضتها روما. ثم عاد الرومان فأرغموا قرطاجة على الانسحاب من سردينية وبعد ذلك من كورسيكا. فبدأ واضحاً أن موقف قرطاجة المتسم بالذل لن يمنع الرومان من غزو قرطاجة وأفريقية. وكان من الواضح أيضاً أن سيادة روما على البحر المتوسط أصبحت مطلقة. حيث بدأ أن الطريق أخذ يفتح أمامها إلى المراكز الاقتصادية والاستراتيجية الكبرى في مصر والشام، وربما للتفكير بفتح مصر والشام وغزو بلاد فارس وبلاد العرب، وذلك بفتح جبهة أخرى من الجنوب.

لم يؤد انتصار الرومان في معركة ميلاي البحرية في 259 ق.م، على جزيرة صقلية بالقرب من ميسانا، إلى نتيجة حاسمة. حيث حدثت المواجهة التالية سنة 256 ق.م بين الأسطولين في رأس باكينوس في نهاية الساحل الشرقي الجنوبي لجزيرة صقلية، خسر فيها الطرفان الكثير من سفنهم القتالية، غير أن النصر كان حليف الرومان. لذلك، قرر القنصلان اللذان يقودان الحملة البحرية الرومانية التوجه قدماً نحو قرطاجة على الساحل الأفريقي، ونزلوا في نفس المكان الذي نزل فيه قبل أقل من قرن أجاثوكليس، والذي يقع إلى الغرب من قرطاجة، وأقاموا معسكراً لمراقبة المنطقة، ويدوروا يعيشون فساداً وسلباً في المدن والبلدات والقرى والمزارع المحيطة. وفي 253 ق.م عاد القسم الأكبر من الأسطول الروماني إلى إيطاليا بناء على أوامر من روما، وبقي القسم الآخر بقيادة القنصل ريغولوس حيث نجح الجيش القرطاجي، بعد أن أعاد تنظيم صفوفه، في هزيمة

جيشه وأسره. فأعادت روما إرسال حملة أخرى في السنة التالية، إلا أنها لم تصل الساحل الأفريقي لتعرضها لعاصفة بحرية هوجاء.

لاحقت روما خسائر متعددة في أساطيلها البحرية خلال السنوات التالية، وذلك لعدة أسباب منها: خبراتهم التي لم ترق إلى المستوى المطلوب في شؤون المعارك البحرية، وعدم درايتهم الكاملة بقتون الملاحة، والذي أدى إلى جنوح الكثير من سفنهم إلى التخطم أو الغرق، وفقد الكثير منها في العواصف البحرية. وأمام خسارتها، لمعظم قطع أسطولها قررت روما صرف النظر عن غزو قرطاجة، وأخذت تركز على إخراجها نهائياً من صقلية. فجرت مناوشات بحرية عديدة بين الطرفين، لكن أي منها لم ترق إلى مستوى المعركة.

تولى القائد القرطاجي "هملقار برقا"⁽¹⁾ (والد هانيبل) سنة 247 ق.م، قيادة العمليات في صقلية. ونتيجة لانشغال قرطاجة في حروبها على البر الأفريقي لم يستطع هملقار، رغم محاولاته العسكرية إشغال القوات الرومانية على الجزيرة وكسب مواقع جديدة، أن ينجز أكثر من المحافظة على وضعه في صقلية.

قام الرومان ببناء وتجهيز أكثر من مائتي سفينة حربية أبحرت في صيف 242 ق.م لطرد هملقار نهائياً من جزيرة صقلية لما تمثله من هدف استراتيجي لها. وفي آذار من عام 241 ق.م هاجم الأسطول الروماني الأسطول القرطاجي الذي كان يتجه لإسناد هملقار على الجزيرة، وذلك قبل وصوله إلى مقصده، بالقرب من الشواطئ الغربية للجزيرة، ففقد الأسطول القرطاجي غالبية سفنه في المعركة. ورغم رغبة هملقار بمواصلة المقاومة إلا أنه استجاب لأوامر قرطاجة التي وصلتته بإجراء مفاوضات هدنة مع القائد الروماني. فتم توقيع معاهدة سلام بين القائدين على أن يخلي القرطاجيون جزر صقلية وسردينية وكورسيكا وجميع الجزر الواقعة بين صقلية والساحل الإيطالي، وألا يعودوا إلى هذه الجزر، وأن يدفعوا غرامة مالية لمدة عشر سنوات، إضافة إلى شروط ثانوية أخرى. وربما كان السببان الأساسيان لانسحاب قرطاجة من صقلية بالذات - رغم أن الضغط العسكري الروماني حينها لم يكن قادراً على هزيمة قرطاجة لو أن قرطاجة أحسنت دعم جيشها على الجزيرة وفي البحر بما يلزمه للحفاظ على الجزء الذي يحتله - هما تمرد النوميديين (في الجزائر الحالية) ضد قرطاجة وصعوبة استمرار إمداد المجهود الحربي، فقرطاجة محدودة الموارد مقارنة مع الجمهورية الرومانية، لأن الحرب لسنوات طويلة أنهكت الطرفين، والفائز من يستطيع الاستمرار في تحمل عض الأصابع. بدأ التذمر في قرطاجة وانقسمت القيادة إلى قسمين: قسم يدعو إلى مواجهة روما وآخر إلى مداراتها. واستمر الحال على ذلك في قرطاجة حتى سنة الانسحاب النهائي من

(1) - أورد ميلويوس إيطاليكوس Silius Italicus في كتابه "البونية / 1.71-7 Punica" أن عائلة برقا أو برقا (بارك) التي ينحدر منها البطل القرطاجي (الرومي) هانيبل تدعي أنها تنحدر من الأخ الأصغر لإيليا (ديدر). وتعني كلمة برقا / برقا / باركا باللغة الفينيقية: الصاعقة أو العاصفة.

صقلية في 241 ق.م وقبول شروط الصلح الرومانية المذلة، إلى أن أعلنت ثورة في قرطاجة للإطاحة بالحكومة قادها معطي بعل أو ماتو كما سماه الرومان. ويقال أنه ليبي اهتمته المصادر بأن حركته لم تكن إلا تمرداً من المرتزقة للمطالبة بأجورهم المتأخرة. وقد تم وإد التمرد والقضاء عليه سنة 237 ق.م بقيادة هملقار برقا.

في سنة 237 ق.م، وبعد القضاء على ثورة ماتو، غادر هملقار برقا بعد أن استدعته القيادة العامة في قرطاجة وأسندت إليه مسؤولية القيادة العامة للجيش القرطاجي، مبعراً باتجاه إسبانية بصحبة ابنه هانيبيل الكبير ذي التسعة أعوام. وتخبرنا المصادر اللاتينية أن حقد قرطاجة على روما كان بلا حدود، إذ جعل هملقار الحرب ضد روما عهداً مقدساً يأخذه كل مواطن على نفسه في احتفال مهيب أمام الإله بعل. وقد كانت الكراهية متبادلة بين الطرفين. ورغم تخلي قرطاجة لروما عن جزيرها في المتوسط وسحب أسطولها والرضا بمنزلتها في شمال أفريقية آملة من روما أن تتركها وشأنها على الشواطئ الجنوبية البعيدة، لكنها وهي تراقب بناء روما لقوات ضخمة على الجزر في المتوسط، وخاصة، في صقلية، أدركت أن روما تستعد للقفز من صقلية لاحتلال قرطاجة والساحل الأفريقي.

يعود تواجد الفينيقيين على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة الأيبيرية إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد أو أبكر من ذلك، حيث أسسوا سلسلة من المراكز والمدن على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة مثل قادش في ألبيرة، وأنديرا وكازنة وأنتاس وعشرات المواقع الأخرى، فصارت إسبانية أرضاً يونية خالصة في سنة 535 ق.م تدافع عنها قرطاجة وتحميها. وكان قد تم عقد معاهدة بين قرطاجة وروما في عام 248 ق.م تضمن اعتراف روما الرسمي بسلطة قرطاجة على إسبانية. وكان نص الاتفاق يقول بأنه: "لا يجوز للرومان ولا لحلفائهم أن يبحروا أو يتاجروا أو يؤسسوا مستوطنة في الجانب الأقصى من طرف برومنترى وماستيا أي في جنوب إسبانية بأسرها".

لم يكن أسطول قرطاجة قادراً على نقل الجيش إلى إسبانية، لذلك كان على هملقار أن يزحف بجيشه براً حتى يصل إلى أعمدة هرقل، فيجتاز المضيق باستئجار سفن للعبور إلى الشاطئ الأيبيري مصطحباً معه ابنه هانيبيل البالغ من العمر تسع سنوات، والذي أصر على المرافقة. وقد اشترط عليه والده، حسب رواية المؤرخ اللاتيني تيطوس لبيوس (ليني) (59 ق.م - 17م)، كي يرافقه، بأن يقسم ألا يكون صديقاً لروما مادام حياً؛ حيث أخذه إلى مذبح المعبد وحمله فوق النيران المشتعلة وجعله يقسم أن يكون عدواً لروما مادام حياً. وفي بعض المصادر الأخرى أقسم هانيبيل أمام والده قائلاً: "أقسم، ما دمت حياً، أن أستمع النار والحديد للقضاء على روما".

نزل هملقار بالقرب من قادش فوجد نفوذ قرطاجة في جنوب شبه الجزيرة بكامله خلال تسع سنوات. وفي عام 228 ق.م استطاعت القياثل المحلية القيام بهجوم مأكس قوي قتل على إثره هملقار وهزمت قواته. غير أن زوج ابنته، صديريل الجميل

(هاسدرويل)، الذي تولى القيادة بعد مقتل حميه هملقار تمكن من إعادة النفوذ القرطاجي على كامل شبه الجزيرة الجنوبي وأنشأ مدينة جديدة على الساحل الجنوبي الشرقي دعاها "قرطاجنة" أو "قرطاجة الجديدة"، فأمنت له اتصالاً بحرياً مريحاً مع قرطاجة العاصمة، فأحكم قبضته على مناجم الذهب والفضة والقصدير، فتدفقت الثروات المعدنية الثمينة إلى قرطاجة، فأدخل ذلك الرضى والمواقفة بين أعضاء مجلس الشيوخ وشجعهم على تأييد سياسة الجيش، ويقدّر ما كان الانتعاش والرضى ظاهرين في قرطاجة كان انقلب كامناً في روما التي كانت في مواجهة ضد القبائل الكلتيّة على نهر البو شمال إيطاليا.

اتبع صدريل سياسة توافقية من أجل مصالح قرطاجة في إسبانية، حتى أنه وقع معاهدة مع روما لا تسمح له بالتوسع شمالاً لما وراء نهر الأيبرو مادامت روما لا تتوسع جنوبه، كما اتبع صدريل سياسة الدبلوماسية والمصالحة والتعاون مع القبائل الأيبيرية. ومن أجل ذلك رتب لزواج هانيبيل من أميرة إيبيرية اسمها إمليك Imilce.

اغتنل صدريل سنة 221 ق.م، فأعلن الجيش هانيبيل قائداً لأركان الجيش القرطاجية في إسبانية، وصدقت عليه قرطاجة بعد تردد. وقد وصف ليويوس (ليني) في كتابه "تاريخ روما"، الجزء الثالث، الفتى القرطاجي بعد إعلانه قائداً وظهوره أمام الجند: "... بمجرد وقوفه أمام الجنود القدماء الذين رافقوا والده في مسيرته العسكرية، توهموا كأنما يرون أمامهم هملقار في شبابه يرجع إليهم؛ نفس النظرة الذكية النفاذة، ونفس الإثارة والتصميم في العينين، ونفس سيماء الاتزان والهدوء الماكرين على معالم الوجه، إذ يوحي ألا أحد مثل صاحب هذه الروح الساحرة يمكن أن يواجه معارضة فيما يأمر فيطاع".

وبعد سنتين من قيادة قضاها في تعصيد حكمه وإكمال فتحه لإسبانية حتى نهر الأيبرو، بدأت روما تتحسب لتطور قوته، فتعالت مع سوجنتوم على الشاطئ الإسباني الشرقي جنوب نهر الأيبرو وأعلنتها مدينة تحت حمايتها. فاعتبر هانيبيل أن هذا يمثل خرقاً للمعاهدة التي وقّعها صدريل معها. لذلك خرج هانيبيل، الذي لم يستلح نسيان تسليم صقلية وسردينية للرومان، في العام التالي قاصداً مدينة سوجنتوم الواقعة إلى الشمال من قرطاجة الجديدة فأسقطها بعد حصار دام ثمانية أشهر. وهكذا استقبلت روما أول طعنة رمح من هانيبيل، فقررت إرسال جيش لهزيمة هانيبيل في إسبانية، كما بدأ أسطولهم في صقلية استعداداته لمهاجمة قرطاجة العاصمة. بحيث كانت خطة الرومان تقضي بوضع هانيبيل بين فكي كماشة لطحنه مع جيشه وبالتالي القضاء نهائياً على قرطاجة. فتوقعوا أن يقوم هانيبيل بمواجهة قواتهم الموجهة إلى إسبانية، عندئذ يطبقون على قرطاجة بقواتهم القادمة من صقلية عن طريق البحر. لذا، ترك هانيبيل الجيش الروماني يتقدم باتجاه إسبانية تحت قيادة سكيبو، بينما أسطولهم من صقلية يقصد قرطاجة نفسها، فيطلق بجيوشه قاصداً نقل الحرب إلى قلب إيطاليا، قلب الجمهورية الإيطالية، في مفاجأة من أكبر المفاجآت العسكرية في التاريخ القديم.

في العشرينات من القرن الثالث قبل الميلاد. حشدت القبائل الكلتية⁽¹⁾ قواتها على وادي نهر البو شمال ايطالية بتأييد من القرطاجيين ضد روما. إذ تأكد لروما أن هناك محاولة تحالف كلتي قرطاجي ضدها. لذلك أسرع بشن حرب وقائية سريعة وأحيطت تمرد الكلتيين، وقامت بضم منطقتهم. وقد بدا للرومان أنهم نجحوا بمعالجة التحالف الكلتي القرطاجي الذي توافق فيما بعد مع اغتيال صدر بعل في إسبانية، حيث ركنوا إلى أنهم أصبحوا بآمن من جانب التهديد الكلتي. لكن هانيبعل فاجأهم بعد سنتين تقريباً بإحياء خطة الغزو القرطاجي العالي التي كان قد وضع خططها صدر بعل قبل موته. مثلت هزيمة قرطاجة وإخراجها نهائياً من ميدان الصراع مع روما ومهادنة الصلح المهينة سنة 241 ق.م في نهاية الحرب البونية الأولى إهانة وطنية وشخصية لهانيبعل، حيث أدرك أن القوات البحرية لن تحقق النصر لقرطاجة، كما أدرك أيضاً أن التعايش مع روما غير ممكن. لذا فقد استمد خطته الحربية الجديدة للجولة الثانية من الحرب البونية الأولى.

احتل هانيبعل سوجنتوم سنة 219 ق.م بعد حصار دام أكثر من ثمانية أشهر، وذلك خلافاً لمعاهدة 226 ق.م بين مجلس الشيوخ الروماني وصديريل خليفة والده، والتي نصت على ألا يعبر الجيش القرطاجي نهر الايبرو نحو الشمال. فقدم الرومان احتجاجاً إلى الحكومة القرطاجية، وحاول "حنون الكبير" حاكم قرطاجة حينها أخذ موافقة الحكومة على تسليم هانيبعل إلى روما كاعتذار عن خرق المعاهدة. إلا أن غالبية مجلس شيوخ قرطاجة أيدوا سياسة هانيبعل الذي صار ينظر الشعب بطلاً وطنياً يمثل عودة العزة والكرامة بعد ذل معاهدة الصلح المهينة، وأيضاً، لأن معاهدة الصلح سنة 241 ق.م لم تذكر سوجنتوم.

الحرب البونية الثانية (218-201) ق.م (العبور البري واجتياز جبال الألب إلى ايطالية)

خرج هانيبعل، الذي كان في السابعة والعشرين حينها، من قرطاجة على الساحل الإسباني الجنوبي الشرقي ربيع 218 ق.م على رأس جيش مكون من حوالي ثمانين⁽²⁾

(1) - رغم الغموض الذي يكتنف أصول وتاريخ الشعوب الكلتية فقد أجمع على أن تلك الأقوام كانوا قد استقروا في معظم أجزاء أروبة الجنوبية والغربية وأسية الصغرى، وذلك قبل بداية التاريخ الروماني. وقد بدأوا بالظهور في العصر البرونزي المتأخر (1225-1000) ق.م. وكانوا أولي بأس شديد مولعين بالحروب والقتال، وبلغوا أعلى شأن لهم بين القرنين الخامس والأول ق.م، وخصوصاً في القرن الثالث حينما بلغت موجتهم حدّها الأقصى. غير أنهم لم يستطيعوا رغم اكتسابهم كل هذه الأراضي وبأسهم في القتال أن يؤلفوا لـإمبراطورية متجانسة. لذلك أفل وجودهم في القرن الأول قبل الميلاد بعدما أنهى بوليوس قيصر استقلال غالبية وضمها إلى الجمهورية الرومانية. وقد أطلق قيصر نفسه تسمية الكلتيين على سكان غالبية المستقلة، حيث قال: هؤلاء الأقوام يدعون كلتيين بإسلافهم، أما نحن فنحن عرفناهم باسم غالتيين.

(2) - اختلفت الروايات حول تعداد المشاة والفرسان؛ فبعضهم عدّها أكثر من ثمانين ألفاً بينما روى آخرون أن عدد الفرسان لم يتجاوز اثنتي عشر ألفاً وأصبحت غالبية المصادر على اصطلاحه سبعة وثلاثين ألفاً تقريباً.

ألفاً من المشاة وثمانية عشر ألفاً من الفرسان وسبعة وثلاثين فيلاً حربياً وألاف البغال المحملة بالعتاد الحربي وصناديق الفضة لشراء المزيد من العتاد (لم يزد تعداد جيش هانيبيل في إسبانية عن 20 ألفاً قبل نشوب الحرب البونية الثانية. وكان قوام جيشه عند عبور البيرينييه إلى إيطاليا 59 ألفاً)⁽¹⁾.

عبور الأيبورو والرون والألب

عبر هانيبيل بجيشه نهر الأيبورو في ربيع سنة 218 ق.م، هانهارت الدفاعات الرومانية قبل استكمال استعداداتها التي كانت تجري على قدم وساق، وأخضع في طريقه القبائل الكتلية (الغالية) شديدة المراس، إذ كان من اللازم أن يؤمن ظهره قبل انطلاقه شمالاً وراء جبال البيرينييه، ومن أجل ذلك كان يترك حاميات في مواقع استراتيجية مدروسة، توقف زحف هانيبيل أمام نهر الرون، وأخذ يعد خطته لعبور النهر بسرعة كبيرة وهو يرى كتائب القبائل الغالية على الجانب الآخر تنتظره وهو يعبر النهر، فأمر ببناء طوافات لنقل قبيلته إلى الطرف الآخر، وجعل خيوله تسبح وراء الطوافات المموهة، فكان منظر الفيلة - بمثابة الديابات في ذلك العصر- وهي تندفع خارج الطوافات دون أن يوقفها أحد شيء مرعباً وتنجح خطة هانيبيل في عبور الرون بقواته التي كانت حينها تعد⁽²⁾ حوالي أربعين ألفاً من المشاة وأثنى عشر ألفاً من الفرسان وسبعة وثلاثين فيلاً، ثم عبر نهر "إيزارا"، إلى أن وصل سفوح جبال الألب من طرفها الغربي في الخريف. ووقعت جولته الثانية ضد قبائل الكلت عند مدخل سلاسل الألب حيث أعدت له هذه القبائل كمائن في الجبال وهاجمته تحت قيادة خبراء عسكريين من إغريق مرسيلية وروما، فتمكنت من سد المنافذ الجبلية في وجهه وأشاعت الفوضى في صفوفه وأرهبت أهاليه التي هاجت من فرط الضجيج وأخذت تلقي بنفسها في الوديان. لكن هانيبيل سحب قواته وسارها في ممرات جبلية جانبية، بمعرفة أدلاء يعرفون هذه المسالك الجبلية، أمام دهشة القبائل التي تعلم أنها ممرات مسدودة بكتل صخرية، وأن لا أحد يستطيع عبورها بجيش بهذا الحجم.

شق هانيبيل طريقه في الصخر بحيث أمر جنوده بقطع آلاف الأشجار من الغابات الجبلية المحيطة بالممرات ثم أشعل النار في الكتل الصخرية التي تسد ممر سانت برنار الضيق. ويعد أن انتهت الصخور وتحولت إلى جمر أحمر تم سكب النييد⁽³⁾ والسوائل الحامضية عليها ففعل الحامض فعله في هذه الصخور، فتصاعدت الأبخرة وسط النيران الملتبها حيث شرعت الصخور بالتفتت فاتحة الطريق أمام الزحف، فسارع هانيبيل وجيشه بعبور الممر بشكل أصبح السهل الإيطالي مفتوحاً أمامه نحو الجنوب، وذلك بعد

(1) - أندريه إمار وجانين أويو: تاريخ الحضارة العام - روما وإمبراطوريتها. منشورات عويدات - بيروت.

(2) - يقال أنه تركه حوالي إحدى عشر ألفاً من القوات كحاميات للبلاد التي فتحها، كما مرّح أكثر من هذا العدد من القوات الأيبيرية في منطقة البيرينييه بناء على رغبتهم.

(3) - تيطوس ليفيوس (لغبي) في تاريخ روما: 32-36، Livy, History of Rome, book: 21.

أقل من شهر من بداية عبوره للألب. وقد واجه في عبوره مصاعب هائلة^(١) عالجها بعقريّة واضحة.

وصل هانيبعل بزحفه إلى إيطاليا بعد عبوره الألب، ومعه، حسب ليوبيوس، عشرين ألفاً من المشاة، وحوالي أربعة آلاف فارس، وبعض القيلة؛ فإنّ صحت هذه الرواية يكون قد عبر الألب بنصف قواته عند عبور الرون. ويبدو أنّه قد أعدّ العدة لأداء المهمة دون انتظار وصول إمدادات من إسبانية أو من قرطاجة كما قدر بعض المؤرخين.

وصل زحف هانيبعل إلى تورينو فأحتلها في نهاية أيلول، في وقت كانت فيه روما تدرس نتائج سقوط سوجنتوم. فلما وصلت أنباء عبور هانيبعل الجريء لجبال الألب حيث أصبح الطريق مفتوحاً إلى روما بدأ التحيز لمجلس الشيوخ ولغاالية القادة والشعب الروماني بمثابة حلم مرعب لا يصدق.

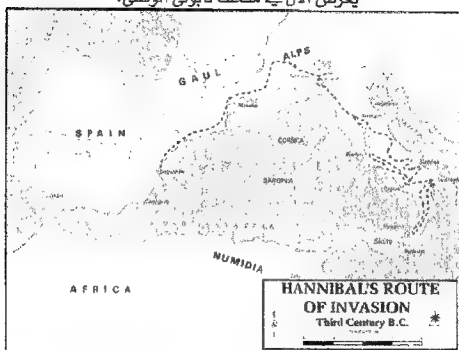
بطعنة رمح هانيبعل الثانية بعبور الألب قرر مجلس الشيوخ الروماني إلغاء هجومه البري على إسبانية وإنهاء الحملة البحرية من صقلية على قرطاجة، فاستدعى جميع جيوشه للعودة من أجل الدفاع عن إيطاليا وروما. وقرار سريع وحركة أسرع استطاعت روما نقل قواتها من إسبانية عن طريق البحر في الوقت المناسب لاعتراض زحف هانيبعل. فوصل القنصل سكيبيو من إسبانية قبل وصول القنصل المكلف في صقلية، ف وقعت أول مواجهة بين الطرفين عند تشينو بالقرب من بافيا، فكانت هذه أول معركة بين قرطاجة وروما على البر الإيطالي، انهزم فيها الرومان برياً لأول مرة أمام هانيبعل، وسقط فيها القائد سكيبيو جريحاً، ولم ينقذه إلا ابنه الذي سيتقابل ثانية مع هانيبعل على أرض المعركة في زاما بالقرب من قرطاجة سنة 202 ق.م. ومع أنّ نصر هانيبعل كان سهلاً إلا أنّه شجّع الغاليين والليغوريين على الالتحاق بالقرطاجيين، فارتفع عدد قوات هانيبعل إلى ما يقارب الأربعين ألف رجل. وتراجع سكيبيو وعسكر وراء نهر تريبيا. ووصل الجيش الروماني بقيادة القنصل لونجوس قادماً من صقلية إلى سهل ألبو للالتقاء بسكيبيو لاعتراض هانيبعل وذلك قبل وصول أخبار هزيمة سكيبيو في تشينو إلى روما. حاول هانيبعل اعتراض لونجوس، لكن الأخير استطاع الإفلات من فخ هانيبعل، ونجح بالالتقاء مع بقية قوات سكيبيو حيث كانت تمسك.

(١) - المصدر السابق نفسه، القسمان الثاني والثلاثين والسادس والثلاثون. وذكر بوليبيوس في تاريخه أن جدلاً هامياً نشأ بين المؤرخين والكتاب حول هذا العبور. انظر:

The History of Polybius, 2 Vol. Trans. By Evelyn S. Shuckburgh (Lon: Macmillan, 1889), I: 246-247.

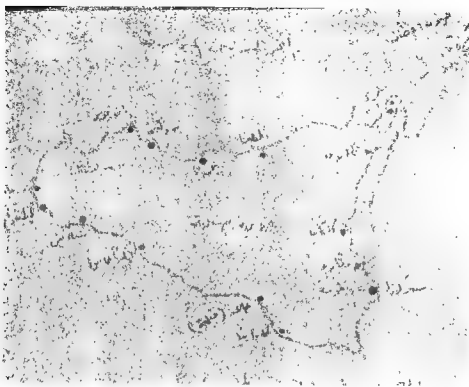


تمثال نصفي من الرخام لهاننيل وجد في كابوا
يعرض الآن في متحف نابولي الوطني.





تشير الأسهم إلى مسار حملة هانيبعل في غزوته لاييطاليا



خريطة صقلية

معركة بلاستيتيا على نهر تريبيا

تمكن قنصل صقلية لونجوس من إهامة دفاعاته وتحصيناته على الضفة الأخرى للنهر قبل حلول الشتاء. ووقعت الجولة التالية في نهاية الشتاء عند نهر تريبيا. حيث طاف هانيبعل أطراف النهر على الجانب الذي كان يعسكر عليه، فاكشف وجود تل على ضفته تحيط به غابة كثيفة، فأمر أخاه ماجو أن يشرف بنفسه على اختيار الفين من الفرسان الأشداء يمكنوا منتظرين على أتم الاستعداد في الغابة. وفي الصباح الباكر والثلوج هبط، أمر هانيبعل جنوده بإشعال النيران ويدهن جلودهم بالزيت الدافئ، ويمد أن سرى الدفء في أوصالهم أرسلهم عبر النهر، فاستقبل الرومان موجة الهجوم دونما إنذار، فبادرت مشاهم إلى الالتحام بالمهاجمين عند ضفة النهر، فأخذ المهاجمون بالانسحاب عبر النهر إلى الجهة التي جاءوا منها طيقاً للخطه، فأنطلق الرومان وراءهم إلى الضفة الأخرى، وخلال ساعة أو أكثر كانت معظم القوات المقاتلة من الجيش الروماني قد عبرت النهر والتحمت في قتال فعلي مع مشاة هانيبعل. وفي مفاجأة لم يتوقعها الرومان انفتحت الغابة وخرج ماجو بفرسانه من وراء الرومان، وأطلقت الفيلة إلى ساحة القتال، فتم سحق عشرات الألوف من الجنود الرومان وقعوا في الفخ المحكم الذي نصبه هانيبعل، واستطاع عشرة آلاف جندي روماني الانسحاب إلى مدينة بلاستيتيا عند مصب نهر البو على الساحل الغربي الشمالي للأدرياتيكى تاركين وراءهم أربعين ألفاً من القتلى والأسرى والمقودين.

معركة بحيرة تراسيمينو

في عام 217 ق.م عبر هانيبعل نهر البو وقضى الشتاء على السفوح الغربية الدافئة، ثم بدأ بالتقدم جنوباً أوائل الربيع حيث اختار طريقاً خطراً للغاية شق إيطالية طولياً إلى نصفين وهو يتجه نحو روما. وأصيب خلال زحفه بالتهاب في عينيه ففقد إحدهما. وفي هذا الوقت كان القنصل فلامنوس قد جمع ما تبقى له من قواته في تريبيا وانسحب بها جنوباً إلى أريزو، التي تبعد مائة وسبعين كيلومتراً عن روما، لإعادة بنائها قبل المواجهة التالية. لكن هانيبعل ظهر فجأة نهاية حزيران 217 في أعالي أثروية. وقرر إغراء فلامنوس إلى معركة ثابتة وذلك بإثارته من خلال تخريبه للمنطقة على مرأى منه. وحسب بوليبيوس: " قدر هانيبعل أنه إن عبر المسكر ثم هبط إلى وراء المنطقة، فإن فلامنوس- نتيجة لانفعاله السريع- لن يقف مكتوف اليدين على ما يقوم به هانيبعل من تخريب، بل سيندفع مباشرة لمطاردته". غير أن خطة هانيبعل لم تنجح في إثارة فلامنوس، ما دفعه للإلتفاف حول خاصرة فلامنوس اليسارية، وبالتالي يقطع عليه الطريق من ناحية روما، فلم يتمالك القنصل فلامنوس إلا أن يبدأ بمطاردة قوات هانيبعل ناسياً جميع خططه السابقة، حيث وجد نفسه يقع في فخ آخر، إذ أخذ هانيبعل ينهزم أمامه إلى الجنوب حتى كورتونا التي أعد فيها قوة صغيرة عند مدخل وادٍ حول بحيرة

تراسيمينو، فأغراه بالمضي في مطاردته إلى وسط الوادي. وهناك انفتحت من أطراف الوادي سحب السهام والرماح والأحجار في معركة لا يظهر فيها من الخصم إلا أصوات استغاثاته وصرخاته. فتخسر الرومان حينها حوالي عشرين ألفاً من جنودهم، منهم خمسة آلاف وقعوا في الأسر، والياقون ماتوا في الوادي ومن بينهم الفنصل فلامنوس نفسه. في حين لم يفقد هانيبعل أكثر من ألف وخمسمائة من جنوده. وقد مثلت هذه المعركة خسارة كبيرة عدت من معارك الخسران الكبيرة في التاريخ الروماني⁽¹⁾. وبذلك أنهى هانيبعل القوة الرومانية الوحيدة القادرة على وقف اندفاعه نحو روما. لكنه كان يدرك جيداً أنه بدون آلات الحصار اللازمة والدعم الضروري لن يتمكن من فتح المدينة، لذلك فضل استغلال نصره بالزحف نحو وسط وجنوب إيطاليا لعله ينجح في تشجيع حركة تمرد عامة ضد سلطة روما العليا. وقد علق هانيبعل بعد معركة البحيرة مخاطباً الايطاليين: " لم آت لمحاربة الايطاليين، ولكنني جئت لمحاربة روما نيابة عن الايطاليين"⁽²⁾.

عين مجلس الشيوخ الروماني فاييوس ماكسيموس دكتاتوراً، هتبنى استراتيجية عرفت باسمه، وذلك بتجنب المعارك المفتوحة مع عدوه، بينما وضع عدة جيوش رومانية صغيرة لناوشة هانيبعل والمحافظة على إشغاله للحد من حركته. قدر هانيبعل السير نحو كامبانية التي تعد من أخصب وأغنى المقاطعات الإيطالية على الساحل الجنوبي الغربي على أمل إجبار فاييوس للقائه، غير أن فاييوس بقي حذراً من المواجهة، حيث أدى ذلك إلى شعور الرومان بالامتناع لاعتبارهم أن خطة عدم المواجهة تعد نوعاً من الجبن. وللتغلب على الخروج من إغلاق المعمرات إلى خارج كامبانية، والتي أغلقها فاييوس، قام هانيبعل بحركة ظاهرها الانسحاب نحو الغابات، وعندما تحرك فاييوس وراء هانيبعل خرج هانيبعل من الممر إلى خارج كامبانية دونما اعتراض، فأصبح فاييوس على مسافة قريبة للاشتباك معه، لكنه أثار الحيرة والحذر لأنه اشتتم رائحة الخديعة والمكر، فاستمر في مكانه. وبعد خروجه من كامبانية وجد هانيبعل أن يرتاح وجنوده على سفوح الأبوليان Apulian. وقد عد هذا الخروج من قيادة عسكرية كلاسيكية وجدت، كما دائماً، نفسها خارجة من معنة عسكرية محققة، خروجاً غير مألوف. حيث مازال هذا التلمص التكتيكي تحت الدراسة الدائمة في الكتب والأكاديميات العسكرية. فجاءت نتيجة المعركة كضربة مؤلمة وقاتلة لفاييوس وسمعته العسكرية انتهت مستقبله السياسي والعسكري.

عمد هانيبال إلى استمالة الشعوب الإيطالية وتشجيعها بالإنضمام إلى قواته وحثها على طلب الاستقلال بخروجها من الاتحاد الروماني وتأسيس حكومات محلية مستقلة. فأخذت مدن الإغريق وجزرها تنتظر دورها بأمل متزايد. وأمام كل ذلك وجدت روما ألا سبيل أمامها إلا الاستمرار بالمواجهة.

(1) - وصلت شعبة التاريخ في الأكاديمية العسكرية الأمريكية القطعة بنقطة تحول مهمة في التاريخ العسكري.

(2) - Comparing Strategies of 2nd Punic war, by James Parker: الاستراتيجيات المقارنة في الحرب البرزنية الثانية، تليف جيمس باركر.

بين حاجة روما إلى القتال وحاجة حكومتها إلى الحذر اختارت روما طريقاً وسطاً، وذلك سنة 217 ق.م، تمثل في مطاردة هانيبعل ومناوشته دونما اشتباك معه، ومحاولة قطع خطوط إمداداته ومواصلاته وإرغامه على توزيع قواته في جبهة متزايدة الاتساع. وتم اكتمال الحشد الروماني نهاية 217 ق.م، بانضمام قوات القنصل باولوس أوائل ربيع 216 ق.م إلى قوات القنصل الثاني غايوس فارو في أبوليا. تقدم الحشد باتجاه كاناي Cannae لمواجهة هانيبعل وقواته في معركة من أهم معارك التاريخ العسكري القديم.

معركة كاناي الشهيرة (216 ق.م)

تعلم الرومان دروسهم بعد موقعة البحيرة، فعين مجلس الشيوخ قنصلين جديدين صفتهم الرئيسية المشتركة كانت: الحذر، هما: غايوس ترينتيوس فارو ولوكيوس إميليوس باولوس. فجهزوا جيشاً جباراً تحت قيادتين سارتا لتجتمعاً في حشد واحد، لملاقاة هانيبعل في سهل أبولينا حيث وجدوه على الضفة اليسرى لنهر أفيدوس.

تقع كاناي على ضفة نهر أفيدوس الشمالي إلى الشرق الجنوبي من روما بمسافة تقدر بـ 250 كيلو متراً. واتخذ الحشد الروماني مواقعه حول كاناي، فكان أكبر جيش حشدته روما حتى ذلك التاريخ، وضمت تشكيلاته أكثر من ستين ألفاً من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان ووحدات خاصة لقذف المنجنيق وأخرى للقيام بغارات ليلية. وتوزعت القيادة بين القنصلين بحيث يتوليا القيادة بالتناوب اليومي. بينما كان جيش هانيبعل يعد حوالي الأربعين ألفاً من المشاة وعشرة آلاف فارس أو أكثر قليلاً.

أحكم هانيبعل خطته بمعرفته للطبيعة التي كان يتميز بها فارو الذي كان يقود الحشد الروماني في اليوم الأول والذي كان واثقاً من هزيمة خصمه هانيبعل، وذلك بنصب فخ تطويق تكتيكي بحيث يمكنه التخلص من ميزة العدد الكبير للجيش الروماني وذلك بتقليص ساحة المعركة بالقدر المستطاع.

صف هانيبعل قواته على جبهة طويلة ويعرض قليل، وكثف مشاته على الجانبين، وترك لهم تنفيذ أهم مرحلة في خطته مبدئاً ثقته بولائهم ومستواهم القتالي الرفيع. فوضع الجنود الإسبان والغاليين في مواجهة تشكيلات قلب الحشد الروماني كي يحصرهم في الوسط لمنعهم من الهرب إن حاولوا ذلك، وهذا قد يعني عدم اطمئنان هانيبعل لولائهم، ثم قام بتوزيع خيالاته على موقعي الميمنة والميسرة، وافتتح المعركة بكتائب رماة المقاليح الذين تقدموا الصفوف فجأة وأمطروا القوات الرومانية بوابل مستمر من الحجارة الصوانية التي كانت تصل إلى الجند الروماني كأنها النصال بسرعاتها العالية وقوة عزمها القاتلة. وبعد ساعة من بداية المعركة بدأ بتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة، وذلك بأن أمر بتراجع القوات الإسبانية والغالية بضع مئات من الأمتار إلى الوراء. وقد مثلت هذه الحركة أصعب جزء في الخطة، إذ أن مثل هذه المخاطرة يصعب حسابها والتعويل على نجاحها في وطيس المعركة. فتهافتت القوات الرومانية

باندفاعها كاسيل الجارف داخل الثغرة للملاحقة القوات المنسحبة بحيث أصبح الزحام على أشده، فتلاحمت الصفوف كثفاً يكتف وصدراً يصدر. وهنا حان دور الطفنة القاتلة بأن أعطى هانيبيل الإشارة المتفق عليها باستعمال مقصه الرهيب بأن شن مهريمل بقوات خيالته النوميديّة المتحركة على يمين الجيش، وهانو بقوات فرسانه الليبين على يسار الجيش هجوماً المفاجئاً والسريع بالاطباق على خاصرتي الجيش الروماني من اليمين واليسار وكذلك من الخلف وإغلاق طريق التراجع عليها. وفيما كان اندفاع فرق الخيالة وهي تحصد الجند الرومان مثلما يحصد الفلاح بمنجله سنابل القمح، تراحم الجند الرومان تحت وطأة الضغط والمفاجأة وتلاصقت صفوفهم إلى حد الاختناق.

كانت نتيجة المعركة خسارة الرومان خمسين ألف جندي، كان بينهم القنصل باولوس-خسر الرومان قنصلين في السنة السابقة- وثمانين من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني البالغ عددهم ثلاثمائة عضو، وتسعة ومشرون تريبوناً من مجموع ثمانية وأربعين، وبعض الممثلين الماليين؛ وجميعهم قد رافقوا الحشد الروماني الهائل ليروا بألم أعينهم النصر الذي كانوا متأكدين من الفوز به، وهذا يعني أن ثلاثين بالمائة من الجسم الحاكم في روما قتل في المعركة. في حين قدرت خسارة البونيين بأقل من ستة آلاف رجل غالبيتهم من الغاليين والإسبان.

تحلّمت قوات روما المسلحة تحت ضربات خطة هانيبيل العبقريّة في كاناي⁽¹⁾. وعدت هذه أكبر هزيمة ساحقة في تاريخ روما القديمة وأكبر معركة دموية في التاريخ الإنساني بالمقارنة مع ما وقع في يوم واحد. ونتيجة لما أحدثته نتائج المعركة من دوي هائل لدى غالبية الشعوب المتضوية تحت راية الاتحاد الإيطالي أو الواقعة تحت احتلاله، فتسارعت هذه الشعوب إلى استقبال الهزيمة الرومانية مطالبة بإعلان الاستقلال. وانضم الكثير من حلفاء روما الإيطاليين إلى هانيبيل ليأسهم من قدرة روما على حمايتهم. وأغري إغريق صقلية على التمرد، كما طلب فيليب الرابع ملك مقدونية الدعم من هانيبيل، فقامت الحرب المقدونية الأولى ضد روما، وقام هانيبيل بتأمين ائتلاف ضد روما مع الملك السلوقي الجديد.

أشار المؤرخ ليويوس (ليني) إلى فزع الرومان بعد معركة كاناي حيث كتب: كانت أمهات الرومان يتدفقن إلى الشوارع مذعورات أمام وصول الأنباء بمسيرة هانيبيل إلى روما، ويركضن يائسات من معبد إلى آخر وهن يرضعن أكفهن بالدعاء للآلهة كي يحفظوا المدينة ومن فيها".

صار الرومان مترددين لملاقاة هانيبيل في معركة ثابتة بعد كاناي، وفضلوا تكتيك حرب الاستنزاف بالاعتماد على ما يمتازون به من خطوط داخلية مؤمنة وإمدادات وقوة تجنيد هائلة ومصادر للمجهود الحربي لا تتضب. لذلك لن يمكن الرومان هانيبيل من القتال في معارك مفتوحة في إيطاليا بعد الآن.

(1) - عز المؤرخ ثيلفن معركة كاناي التاريخية نموذجاً أعلى للنصر حاسم يجتدل الخصم ويبرده تماماً.

مأزق هانيبعل (هانيبال) (هاني بعل)

أرسل هانيبعل إلى قرطاج العاصمة لإمداده بمزيد من الجند والمؤن حيث كان قد خسر الكثير من جنوده وقواته في جميع المواجهات التي خاضها مع الرومان منذ بدأ زحفه من قرطاجة الجديدة. وقدّر أنّ ما يحتاجه من حشد قتالي لحصار روما وفتحها كمدينة محصنة لا يقل عن خمسين ألفاً من جنود المشاة للوقوف أمام بوابات المدينة وأبراجها، وعلى الأقل عشرة آلاف من الفرسان لحماية ظهر الجيش الذي يحاصر المدينة صدأ لأي غارات متوقعة تفاجئ هذه القوات من الخلف، إضافة إلى المئات من آلات المنجنيق والأبراج المتحركة والأسلحة لفتح ثغرات في الأسوار وضرب تجمعات العدو المرابطة فوق الأسوار والأبراج ولتغطية القوات وهي تزحف باتجاه الأسوار لتسلكها.

انتظر هانيبعل إمدادات قرطاجة التي طلبها، ولكن الإمدادات لم تصل. ولما طال انتظاره دون وصول ما طلب أدرك عجز قرطاجة عن إرسال الإمدادات، إن كان لعدم القدرة على تلبية طلباته أو لسياسة مقررّة. فقرر إلغاء الزحف إلى روما والتوجه جنوباً نحو البحر. وقد أثار هذا القرار معارضة شديدة من هيئة أركانه إلى حد أن صرخ أخاه مهريعل قائد الفرسان قائلاً له: " إنك ياسيدي تعرف كيف تكسب معركة، ولكنك لا تعرف كيف تحرّز النصر"⁽¹⁾.

حينما قرر هانيبعل إلغاء الزحف إلى روما والتوجه نحو الجنوب، لم يتوقع أن ينجح الرومان باكتساح إسبانية أو أنّ أخاه صدريعل لن يتمكن من إمداده. لقد بنى خطته منذ البداية على أساس تجنب الالتحام مع الأسطول الروماني وإنما إنهك روما بالمعارك البرية واحتلال موانئها في جنوب إيطاليا تمهيداً لإخراج قواتها البحرية من المتوسط وربط جسر إمداداته مع شواطئ أفريقية وإسبانية.

في نهاية 216 ق.م كان تنفيذ خطة هانيبعل ما يزال يبدو ممكناً لأن الهجوم الروماني جنوب نهر الأيبرو في إسبانية لم يكن قد وقع بعد، وكان هانيبعل ما يزال يسير في الاتجاه الصحيح، حيث نجح بالاستيلاء على الموانئ الإيطالية الجنوبية، وينتظر هناك وصول الإمدادات التي طلبها من جديد. انتظر وصول الإمدادات وهو على الساحل الجنوبي، لكنها لم تأت، وأمام يأسه يضطر مرة أخرى أن يعبر نصف إيطاليا شمالاً. إذ أدرك أن خطة الرومان الشاملة هي في شن هجمات سريعة وخاطفة في جبهات متعددة لتوزيع جيشه على أكبر قدر ممكن من المواجهات وبالتالي تمزيقه في جيوب موزعة على هذه الجبهات. ولذلك لم يبق أمامه إلا العودة إلى روما. ويمر في طريقه بالقرب من كابويا حليفته، والتي كانت تحت الحصار الروماني، لكنه لا يتقدم لإنقاذها بل يعبر النهر أمام دهشة القادة الرومان الذين اعتقدوا أنه جاء لنزألهم.

(1) - John Prevas, Hannibal Crosses the Alps, P.66: هانيبعل يجتاز الألب، جون بريفا، ص 66.

وصلت مسيرة الحرب في ايطالية إلى الوقوع في مآزق اللاحرب واللاسلم تقريباً، حيث بدأ الرومان حرب استنزاف شديدة على هانيبعل وقواته، لتأكدهم أنها الطريقة الوحيدة الباقية لهزيمته، فهاجموا جيشه، الذي كان قد فقد الكثير من رجاله وعتاده، بقوات حربية صغيرة تضرب وتهرب بغية التسبب باهتراء قواته وإثارة التذمر وعدم الرضى بينها .

وجد هانيبعل نفسه في السنوات التالية مجبراً على ممارسة سياسة تأمين التزود بالمؤن المحلية لتأمين زحفه نحو الجنوب، لذلك فقد تقلصت عملياته الصغيرة إلى التركيز حول مدن وبلدات منطقة كامبانية، فوجد صعوبة للحفاظ على مواقعه نتيجة عدم وجود دعم وإمدادات للتعويض عما فقده، وبدعم ما تحتاجه خططه. فأخذ وضعه يزداد حرجاً وحظوظه في فتح روما أخذت بالابتعاد . ومع ذلك كان لا يزال يحرز انتصارات عسكرية جديرة بالذكر، إذ استطاع تدمير جيشين رومانيين سنة 212 ق.م، وفي مرة واحدة قتل قنصلين أحدهما كان ماركوس كلوديوس مرسيولوس في معركة سنة 208 ق.م. إذأ، ترك هانيبعل دون إمدادات من حكومته، وبدعم ضعيف من حلفائه الايطاليين والمقدونيين. فبدأ أمام استراتيجية الرومان الجديدة غير قادر على إحراز نصر عسكري حاسم، بل بدأ أنه يبدأ يخسر أرضه .

في هذا الوقت كان الحكم الحقيقي بيد القلة من مجلس الثلاثين نبيلاً، وبعاونه مجلس القضاة المائة والأربعة، وليس في يد مجلس الشيوخ القرطاجي. وكان هذان المجلسان يتكلمان مع الطبقات الأرستقراطية والعائلات التجارية وملاك الأراضي الكبار معسكر السلام والتعاون مع الرومان، بقيادة هانو الثاني (الكبير)، في مقابل ما يمكن أن يطلق عليه معسكر الحرب بقيادة عائلة هملقار برقا. وقد سجل هانو موقفه ضد إرسال الدعم والمساندة لهانيبعل بعد معركة كاناي. كما أن حكومة الأقلية في قرطاجة أخذت على هانيبعل احتلال سوجنتوم سنة 218 ق.م دون أخذ موافقة قرطاجة مسبقاً، حيث كان معسكر السلام يرى أن مغامرة هانيبعل ستقود حتماً إلى الحرب مع روما، وستؤدي في النهاية إلى فقدان الهيبة والنفوذ في شبه الجزيرة الأيبيرية. ولذا وجدوا أن من الواجهة مد إسبانية بما تحتاج إليه لأسباب اقتصادية على حساب مد حملة هانيبعل في عمق ايطاليا. ولأن الإدارة الحاكمة في قرطاجة هي من يملك المصادر، فقد أهتم هانيبعل بالتزود بما احتاج إليه من إسبانية وشمال أفريقية. ولم يجد بدأ من تعويض خسائره في المعارك بمقاتلين أقل كفاءة وأقل تدريباً وأقل حماسة جندوا من الغال وايطالية خلال حملته الطويلة.

روما تحت الحصار (213 ق.م)

احتلت الجيوش الرومانية ميناء سراقوزة الاستراتيجي الواقع على الساحل الجنوبي الشرقي لجزيرة صقلية سنة 213 ق.م. وفي العام التالي استولى هانيبعل على تارنتوم،

ولكنه لم يستطع السيطرة على الميناء، إذ سرعان ما أخذت الأمور تسير عكس تياره، حيث صمد الرومان حصارين على كابويا وسط شبه الجزيرة الإيطالية التي سقطت في سنة 211 ق.م. واستطاع الرومان احتلال سراقوزة بكاملها، كما نجحت روما بالاتفاق مع صقلية في تحالف ضد فيليب الخامس المقدوني الذي حاول استغلال انشغال روما ضد هانيبعل في إيطاليا للاستيلاء على إثرية (مونتينيغرو وشمال البانية حالياً). وهزم هانيبعل فولفيوس في هيردونيا (أوردونا الحالية) في منطقة أبولية سنة 210 ق.م. وفي سنة 208 ق.م. قضى هانيبعل على قوات رومانية شاركت في حصار لورسي. وبخسارة تارنتوم سنة 209 ق.م، واستعادة الرومان التدريجي للموانئ المجاورة بالمنطقة أصبح وضع هانيبعل صعباً في جنوب إيطاليا. لكنه استطاع سنة 207 ق.م فتح طريق إلى أبولية مرة أخرى انتظاراً لاتخاذ خطوات متناسبة لحشد موحد باتجاه روما عندما يصل إليه أخوه صديعل قادماً من إسبانية مع قواته. فيما كانت بقية جيوش روما توالي زحفها الناجح في جنوب إسبانية، وبعض من وحداتها الفدائية الخاصة تستطلع الطرق والمسالك في شمال أفريقية المطلة على سواحل المتوسط، حيث رسمت روما الخطط للعمل على تشتيت قوات هانيبعل على أكبر مساحة ممكنة. كما أدركت روما في الوقت نفسه السر القاتل الذي حاول هانيبعل إخفاء عنها وهو إخفاق قرطاجة بإرسال الإمدادات له. إذ، كان قطع الإمدادات وتشتيت الجيش القرطاجي على الأرض الإيطالية المولكين للذين سيهدمان ما بناه هانيبعل في إغارته الناجحة والطويلة حتى الآن على إيطاليا.

ظهر هانيبعل تحت أسوار روما سنة 211 ق.م، فكان ظهوره خلف الأسوار مربعاً لسكان المدينة حتى أنّ الأمهات الرومانيات كن يخوفن أطفالهن ليناموا: بأن هانيبعل (الشیطان) يقف وراء الباب (هانيبعل أنته بورتس).

في ذات يوم، وهو يحاصر المدينة، وصلته أخبار من داخلها أن الأرض التي يعسكر عليها بيعت في المدينة بسعرها القديم؛ فيخرج غاضباً باتجاه الأسوار ويقذف بوابة كولن برمحه، ويثب هجوماً شاملاً ويأسس بجيشه. لكنه يدرك الحقيقة والواقع الذي آل إليهما، فيعود لمواجهة الحقيقة المرة بواقعية أكثر فيستدير جنوباً وراء فيله سيروس. كان يعرف أنه لن يستطيع فتح روما دون وصول الإمدادات، مع ذلك كان يبت في قلوب الرومان الرعب بإبقاتهم محيوسين داخل أسوارهم بانتظار وصول الإمدادات. ضاعفت طعنة رمح هانيبعل هذه المرة في الفراغ، فأدرك، ولو متأخراً، أن الرياح تغيرت إلى الجانب الآخر.

في العام 210 ق.م عبر الرومان نهر الأيرو إلى الجنوب واكتسحوا إسبانية فقطعوا الطريق نهائياً على إمدادات هانيبعل، واحتلوا قرطاجة الجديدة نفسها في السنة التالية، وأرغموا صديعل على الانسحاب من إسبانية متجهاً إلى الشمال للحاق أخيه في إيطاليا، فتمكن من الإفلات من كمين سكييو. وقد اتبع مسار أخيه عبر جبال البرينيه فوصل

فرنسة الحالية سنة 207 ق.م، ثم قطع ايطالية وضرب خيامه على ضفتي نهر ميثاورو قرب مدينة فانو الحالية على البحر الأدرياتيكي. ومن هناك بعث صديريل إلى هانيبعل يدعوه للملاقاة في أومبرية. وقد قدر تحقيق نصر شامل للجيش البوني لو نجح صديريل بالوصول والإنضمام لقوات هانيبعل. لكن، ولسوء حظ الأخوين وسوء حظ قرطاجة، وقعت الرسالة بالصدفة في يد القنصل نيرو، فأعد له كميناً على ضفة النهر، دارت فيه معركة حامية قاتل فيها صديريل وسقط كما يسقط الأبطال. وبعد أيام شق فارس⁽¹⁾ متشح بالسود معسكر هانيبعل، وترجل أمام خيمة هانيبعل ليضع رأس صديريل بين يدي هانيبعل كرسالة رومانية باقتراب الوعد الروماني للانتقام وهزيمة قرطاجة هزيمة نهائية. انتحب هانيبعل مردداً: 'وأخيراً، أرى مصيرك يا قرطاج!'.
كان وقع مقتل أخيه صديريل وقطع رأسه، ومقتل أخيه ماغو في السنة التالية في

ليغورية شمال غرب الساحل الايطالي، شديدي الأثر على نفسه.

أكمل سكيبو مهمته بنجاح تام في إسبانية سنة 206 ق.م، فعاد إلى روما لتسقبله استقبال الفاتحين، فجدد مجلس الشيوخ تعيينه قنصلاً في السنة التالية. أبحر سكيبو من قاعدة التجمع القديمة في صقلية ونزل في نفس المكان الذي اختاره أجاثوكليس الإغريقي قبل أكثر من مئة عام، فرسى بالقرب من رأس فارينا إلى الشمال من أوتيك. ودارت حروب سجال بين الطرفين رافقها تبدل في التحالفات، إلى أن تمكن سكيبو من إلحاق الهزيمة بالجيش المشترك الذي واجهته به قرطاجة وإمارة نوميدي (الجزائر الحالية). بذلك كسبت روما موطناً قدم، بحيث بدأت بإحكام قبضتها على السواحل الجنوبية الغربية للمتوسط. أمام كل ذلك استدعت قرطاجة هانيبعل للعودة بقواته من ايطالية إلى قرطاجة.

كان هانيبعل يضرب حصاراً حول ميناء كروتونا المتمرد على نهاية الساحل الجنوبي لاطالنية عندما بلغته أوامر قرطاجة بالانسحاب سنة 203 ق.م. فاضطر إلى فك الحصار وبدأ الاستعداد للعودة إلى أفريقية تاركاً وراءه خمسة عشر عاماً من الجهد المضني والمتواصل في الحرب وطموحات عمر يكامله. لكنه، ترك قبل عودته إلى قرطاجة، سجلاً يروي مهمته في ايطالية محفوراً باللفتين الفينيقيّة واليونانية على ألواح من البرونز في معبد جونو الموجود في كروتونا.

وفي هذا الوقت، وسكيبو يحاصر قرطاجة، جرت مباحثات استمرت لفترة طويلة بين وفد من أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي وسكيبو، وبين هذا الوفد ومجلس الشيوخ الروماني في روما. وكان على مجلس الشيوخ الروماني أن يتراسل مع سكيبو لتحديد شروط المعاهدة.

(1) ذكرت رواية أخرى أن رأس صديريل قطع بعد أن قتل ولحضر عبر ايطالية وثبت ليلاً على أحد أوتاد معسكر هانيبعل كرسالة تحدٍ وحرب نفسية من الجمهورية الرومانية. بحيث يمكن النظر إلى هذه الرواية على أنها أقرب للمنطق من رواية القنصل المتشح بالسود والذي ترجل أمام خيمة هانيبعل.

أدرك هانيبعل أخيراً أنه كان واهماً عند خروجه لضرب دولة هنية مثل روما، بمواردها التي لا تنضب، بذراع قرطاجي محدود القوة والاستمرار. أدرك أخيراً أن انحناء جبال الألب لعبوره لن تجعل كل شئ آخر ينحني أمامه!

وصل هانيبعل في خريف 203 ق م إلى الشاطئ الأفريقي الذي استمر في الغياب عنه لمدة خمسة وثلاثين عاماً منذ سفره مع والده هملقار برقه في عام 237 ق م. واختار النزول قريباً من موسسة (هادروميثم) التي كان يعتمد فيها على أنصار عائلته، والتي كانت تبعد مائة وستين كيلومتراً عن معسكر سكيبو. أثارت عودة هانيبعل روح الحماس والتعدي والرغبة القوية في القتال. وغادر بعدها هانيبعل بقواته ومعسكره في منطقة زاما الواقعة إلى الجنوب الغربي من قرطاجة بمسافة تقارب المائة وستين كيلومتراً. في قرطاجة ويضبط من معسكر الحرب تم تعيينه قائداً عاماً لقواته العائدة معه ولقوات المجتدين الأفارقة. ومن زاما أرسل هانيبعل إلى سكيبو الذي كان ينتظر وصول قوات حليفه النوميدي، ليبدأ التفاوض. فوافق سكيبو على الاقتراح. فمقدت المباحثات بين القائدين قبل يوم من المعركة. حيث عرض هانيبعل على خصمه عقد معاهدة صلح⁽¹⁾: "أنا مستعد أن أترك لروما صقلية وسردينية وإسبانية وجميع جزر المتوسط، وأن أجعل قرطاجة تتعهد بالأنا تحاول استعادة هذه المناطق أبداً". فرد سكيبو: "إن روما قد أخذت مركزها الآن في أفريقية، وأرغمتك على مغادرة الأراضي الإيطالية، وشروطك المقدمة الآن هي في جملتها دون الشروط التي قبل بها وفد قرطاجة قبل حين، وبالنظر إلى المصالح الرومانية يتعذر علي قبولها". ولم يسفر اللقاء عن نتيجة مقبولة لأي منهما، مع أنهما تبادلوا عبارات التقدير والاحترام.

موقعة زاما خريف عام 202 ق م

كان على الرومان أن يعيشوا محنة هزائمهم المتلاحقة طوال الخمسة عشر عاماً الماضية، والتي سجل خلالها هانيبعل مجده العسكري كواحد من ألمع وأعظم قادة الجيوش في العالم القديم. لكن، وعلى خلاف جميع المعارك في الحرب البونوية الثانية، كان للرومان اليد الطولى في هذه المعركة، إذ كانت أعداد فرسانهم أكبر بكثير من أعداد فرسان هانيبعل، وكان عدد مشاة هانيبعل يفوق عدد مشاة سكيبو. ولسوء حظ هانيبعل وقرطاجة كان ماسينيسا أمير نوميدي قد فك تحالفه السابق مع قرطاجة وانضم بفرسانه إلى جانب سكيبو، فكان هذا التحالف النوميدي من أحد أسباب النصر الروماني في معركة زاما.

يقابل سكيبو غريمه هانيبعل، الذي رآه يطارد والده عبر نهر البو قبل ستة عشر عاماً، حيث دار من ورائه بفرق خيالة وأوقعه في الفخ الذي طالما برع هانيبعل في نصبه.

(1) - انظر جرج مصروعة في كتابه "هانيبعل"، ج2، ص (25-28)، الذي يشير إلى "تاريخ بوليبيوس". انظر شروط الصلح في الصفحتين (41-42) من نفس المصدر. (انظر الصفحتين التاليتين...).

يتقدم سكيو الآن لإجبار هانيبعل على دفع الثمن بنفس الخطة التي اتبعها في موقعة نهر البو.

نجح القائد الروماني في جر خيالة هانيبعل إلى مزارات طائشة لا تلبث أن تدفعهم إلى طرف الصحراء يهدأ عن جبهة القتال وهم يطاردون الفرسان الرومان، حيث قام بعد ذلك بقطع الطريق أمامهم ثم التف بحركة مثيرة خلف خطوط الجيش منقولة حرقياً عن كتاب هانيبعل، غير أن المؤلف نفسه كان يقف في هذه المرة على الجبهة الأخرى.

أضاع الفصل الأخير من هذه الحرب سمعة هانيبعل بين مواطنيه. فقد خسر هو وقرطاجة المعركة في زاما. حيث غادر مع بعض فرسانه أرض المعركة إلى سوسة. واضطربت الأمور في قرطاجة رفضاً للمعاهدة وكاد الأمر يقلت من السلطة الحاكمة، إذ بدت مظاهر التمرد تنذر بالأسوأ. وبعد أيام أرسل مجلس الشيوخ يدعو هانيبعل لحضور جلسته، فألقى فيها كلمة مختصرة، قال فيها أن قرطاجة مضطرة إلى طلب الصلح إذا أرادت أن تنجو. وتم إرسال وفد لمقابلة سكيو مكون من ثلاثين عضواً من مجلس الشيوخ طلباً للصلح وعقد معاهدة مع القائد الروماني بما لم تتقدم به روما إلى هانيبعل في ظروف كانت أكثر حرجاً لها. ويعقد مجلس شيوخ قرطاجة وحكومتها صلحاً اعتبر مهيناً بكل المقاييس، بحيث كان شبه وثيقة استسلام، لكنها الحرب، وعلى الخاسر دفع أثمان النصر والخسارة لخصمه. وقد قضت المعاهدة بموافقة قرطاجة على الشروط التالية، حسب كتاب جورج مصروعة "هانيبعل"، ج2، ص41-42:

- 1- تتأزل قرطاجة نهائياً عن كل ما تملك في أوربة.
- 2- لا يحق لها أن تحارب إلا بإذن مسبق من روما.
- 3- تتعهد بالقتال مع روما بقواتها البرية والبحرية إذا طلبت منها روما ذلك.
- 4- تقدم قرطاجة المواد الغذائية لروما عندما تطلبها.
- 5- تحافظ على شواطئها وعلى المدن والأراضي الأفريقية التي كانت لها قبل الحرب، وتسحب حامياتها من المدن الواقعة وراء الأخنادق.
- 6- تعقد الصلح مع مسينيم أمير نوميدية، وتعيد لها كل ما أخذته منها، كما يجب عليها أيضاً ترسيم الحدود معها.
- 7- تسلم جميع أساطيلها الحربية لروما، ما عدا عشرة سفن فقط.
- 8- تسلم كل فيلنها المدرية على القتال إلى روما، وألا تقتني أو تدرب غيرها.
- 9- لا يسمح لها بتجنيد الفالين أو الإسيان.
- 10- عليها تسليم جميع الفارين لديها من الجيش الروماني.
- 11- تدفع غرامة مائتي قدرها عشرة آلاف وزنة من الفضة على دفعات متساوية ومتوالية لمدة خمسين سنة.

12- تدفع قرطاجة نفقات الجيش الروماني على أفريقية حتى يأتي جواب مجلس الشيوخ الروماني بالموافقة على معاهدة الصلح هذه.

13- تسلم قرطاجة مائة رهينة لروما؛ أعمارها بين الرابعة عشرة والثلاثين.

14- يغادر الجيش الروماني الأراضي الأفريقية في مهلة خمسة عشر يوماً ابتداءً من تاريخ توقيع المعاهدة.

وختم سكيبو هذه الشروط بإعلان الهدنة حتى يتسنى لقرطاجة الاتصال بروما والتماس الصلح على أساس هذه الشروط.

أن تتخلى قرطاجة عن جميع أراضيها في البحر وفي أوربة وأفريقية، يعني تراجعها من امبراطورية بحرية إلى مدينة فقط. وهكذا عاملوها كمدينة، وسلبوا أسطولها، وفرضوا عليها غرامة سنوية، وحرموا عليها القيام بأي شكل من أشكال النشاط العسكري بما في ذلك الدفاع عن نفسها دون موافقة روما. وزيادة في الإهانة وضعوها تحت حماية جارتها نوميديا التي كانت على الدوام جزءاً من امبراطوريتها. شروط مهينة كان على الوفد القرطاجي المفاوض قبولها.

غير أن شعب قرطاجة لم يكن من رأي شيوخه الذين عقدوا اتفاق الصلح المهين مع القائد الروماني المنتصر، فقامت الاحتجاجات العنيفة ضد المعاهدة ومن عقدوها، فشن أعضاء مجلس الشيوخ وتيار المعاهدة بالخوف من إفساد العامة لمشروعهم، ففرضوا طلب النجدة من هانيبيل مرة أخرى لإقناع الشعب وواد شرارة العنف والرفض، فهاجب⁽¹⁾ الجماهير قائلاً: "ابتعدت عنكم وعن هذه المدينة وأنا في التاسعة من عمري، وهانذا أعود إليكم بعد مئتي وستة وثلاثين عاماً، واعتقد أنني خبير في الشؤون العسكرية التي أمارسها منذ حدثتني...". وأخذ باقناع الغاضبين للقبول بشروط المعاهدة لعدم قدرة قرطاجة في الدفاع عن نفسها حالياً، فهاجس الغاضبون وانتهى الأمر لأنصار المعاهدة بموافقة مجلس الشيوخ الروماني على تصديق المعاهدة.

ازدادت الأمور في قرطاجة من سيئ إلى أسوأ، فتصاعدت الضرائب على الناس لجمع المال اللازم لدفعه لروما حسب شروط المعاهدة، وأخذت الحالة الاقتصادية تزداد سوءاً وفساداً، وبدأ تذر الناس يظهر تباعاً، وأخذت نذر عدم الرضا والغضب الشعبي تتجمع كقدر العاصفة. فبعود هانيبيل إلى قرطاج تلبية لرغبة حزبه، حزب الشعب، الذي لم يخف نفوذه رغم هزيمة هانيبيل، في محاولة لتغيير نظام الحكم، فيتم انتخابه قاضياً في 200 ق م، وينجح بالانتخاب رئيساً لمجلس القضاء، فيعيد الاعتبار للمنصب الذي كان قد أصبح غير ذي وزن وقيمة. ويقضي السنوات التالية في سعي دؤوب لتغيير قانون الانتخابات والقضاء على الفساد المتفشي وتطهير مجلس الشيوخ القرطاجي من عملاء الرومان والتجار الذين كانوا دائماً مستعدين لدفع أي ثمن، ولو كان مقدساً، مقابل ازدهارهم الاقتصادي، وأن يتم انتخاب المجلس، بدلاً من التعيين الذي كان يتم سابقاً،

(1) - انظر المصدر السابق نفسه على الصفحات (46 - 50).

لمدة سنة واحدة غير قابلة للتجديد إلا لمرة واحدة بدلاً من يقاؤون مدى الحياة. ونجح في سن قانون جديد ينزع حصانة الشيوخ المائة والأربعة بأن جعلهم خاضعين للقانون والنظام والمساءلة. كما أنشأ ديوان التفتيش والمحاسبة العام لتنظيم الضرائب وضبط الجباية، إذ رأى ألا حاجة إلى فرض ضرائب جديدة لدفع الغرامة المالية السنوية إلى روما حسب المعاهدة، بل رأى أن ضبط الأوضاع المالية قادر على تأمين الأموال اللازمة للوفاء بالالتزامات المستحقة.

الهروب إلى الشرق (195 ق.م)

أمام محاولات هانيبيل تطبيق برنامج الإصلاح، وإعادة بمتك وتنظيم القوة وبناء جيش قرطاجي جديد، فكل شيء قابل للحل عنده؛ أليس هو القائل: "سنجد حلاً، سنصنع واحداً". إلا أن بمشاة التجار والأثرياء وقسم من أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي وأصحاب المصالح تلاحقت إلى روما للوشاية والتحريض على التخلص من هانيبيل لخطورة ما يخطط له. ولم يكن يتقص مجلس الشيوخ الروماني، الذي كان ينتظر الفرصة المناسبة، التحريض لوضع حل نهائي لأسطورة هانيبيل، فقرّر إرسال بعثة إلى قرطاجة غايتها الظاهرة حل بعض المشكلات المعلقة بين قرطاجة ومسينيسا أمير نوميدية، بينما غايتها الحقيقية إلقاء القبض على هانيبيل وأخذه أسيراً مقيداً إلى روما. في اليوم السابق لمثل اللجنة الرومانية أمام مجلس قرطاجة توجه هانيبيل إلى خارج أسوار المدينة بأن ركب حصانه بحجة القيام بنزهة، مبتعداً عن قرطاجة فوصل إلى قصره على شاطئ البحر بين أشيلا وتابوس البعيدة عن قرطاج بحدود المئة وعشرين كيلومتراً تقريباً. حيث كانت تنتظره سفينة محملة بمعظم ثروته، فأبحر حتى بلغ شرشينا في الليلة التالية لخروجه من قرطاجة.

أحدث اختفاء هانيبيل دهشة وتساؤلاً كبيرين في قرطاجة، فانتشرت شائعات متعددة لهذا الاختفاء. وتم إعلانه خارجاً على القانون وصودرت جميع أملاكه، إذ يمكن تلخيص المشهد هنا بيت من الشعر العربي الذي قيل بعد ذلك بقرون عديدة:

وظلم ذوي القربى أشدّ مرارة
على النفس من وقع الحسام المهند

إذ تبين أن أصحاب المصالح المذكورين في قرطاجة كانوا أشدّ عداءاً لبلدهم ولواطنيهم من الرومان، ولا غرابة في ذلك، فهذه سيرتهم على مر العصور والأزمان. ويعلق المؤرخ بيكر⁽¹⁾ على ذلك قائلاً: "عندما نستعرض عقلية تجار قرطاجة، ونرى أنهم قضوا على أملهم بالخلاص، لأسباب تافهة واعتبارات هزيلة، لانعود بحاجة إلى البحث والتلقيب لمعرفة العوامل التي أدت إلى إنهاء قرطاجة وزوالها".

(1) - جرج مصروعة في كتابه "هانيبيل"، ج2، ص 73.

الفصل الأخير في سيرة هانيبعل (هاني بعل)

غادر هانيبعل قرطاج سنة 194/195 ق.م إلى الشرق، كي يجنّبها مهاجمة الرومان لها طلباً لرأسه، فوصل أولاً إلى صور، ومن بعدها إلى أنطيوخس الثالث ملك سورية السلوقي الذي استقبله في إفسوس. فحاول إقناعه جاهدأ بنوايا روما العدوانية تجاه الشرق القديم بأسره، وأن من الأفضل قطع الطريق على روما بغزو إيطاليا، وذلك بمده بأسطول من مائة سفينة حربية وعشرة آلاف مقاتل من المشاة وألف فارس للتوجه نحو قرطاج، ثم الأبحار من هناك مع أنصاره باتجاه الساحل الإيطالي ليشنوا هجوماً كاسحاً على روما، ويقوم أنطيوخس بالوقت نفسه بالزحف إلى اليونان لتصبح روما بين فكي كماشة. حتى أن هانيبعل استعرض مع الملك السلوقي الجيش الهائل المجهز لغزو اليونان، ولما سأله الملك عن رأيه فيما يرى، أجاب هانيبعل⁽¹⁾: "نعم، كل هذا سيكون كافياً بما يكفي للرومان، بالرغم من بخلهم وجشعهم الشديدين". غير أن مستشاري أنطيوخس أدخلوا الشك على خطة هانيبعل. كما أن هذه الخطة سرعان ما وجدت طريقها إلى روما من أنطاكية ومن قرطاج. وكان من الطبيعي أن تتحفر روما وتعيد رسم خططها، فأعادت انتخاب سكيبو الأفريقي قاهر هانيبعل في معركة زاما فتهزلاً. واتصل الرومان بهانيبعل عن طريق مبعوثهم سكيبو الأفريقي- الذي كان في مهمة تفاوض مع الملك السلوقي- عارضين عليه الوقوف على الحياد في صراعهم مع السلوقيين مقابل التمسك بالحفاظ على حياته. إلا أن الشكوك ساورت أنطيوخس من جديد لما علم باتصال مبعوث روما بهانيبعل، فبدأ يرسم خطته دون اطلاع هانيبعل عليها، لاعتقاده أنه ليس بحاجة إليه في صراعه مع الرومان، أو ربما اعتقد خاطئاً أن روما ستقدر له موقفه من هانيبعل، وأنها ستعمل على كسب صداقته وربما الاعتراف باستعادة ممتلكات أجداده في أوربة عن طريق التفاوض الذي أعد لها وقدأ عالي المستوى. وما أن جاء عام 191 ق.م حتى كانت القوات الرومانية تحت قيادة مانيوس أسيليوس غلابريو تتجتاح أسية الصغرى وتدحر الجيش السوري في معركة ثيرموبولايا⁽²⁾ Thermopylae وتجبره على الانكفاء إلى أسية الصغرى، وتلاحقه حتى أناتوليا (الأناضول). وبعد سنة⁽³⁾ لاحقت الجيوش الرومانية تحت قيادة سكيبو الآسيوي أنطيوخس ودحرته في معركة مانيزيا على ضفاف نهر هرمس في منطقة تقع إلى الشمال الشرقي من أزمير الحالية. ونتيجة لذلك تراجع أنطيوخس- حسب شروط الرومان بعد المعركة- من أسية الصغرى إلى ما وراء جبال طوروس، وبذلك أخرج من مسرح الصراع.

(1) - رواية أولوس غيلبيوس Aulus Gellius.

(2) - يمرّ يقع بين الجبال والبحر في اليونان على بعد 200 كم إلى الشمال الغربي من أثينا.

(3) - روى سترابو وبلوتارخوس أن الملك السلوقي عين هانيبعل قائداً للبحرية السلوقية سنة 190 ق.م. ولكنه هزم في معركة على نهر يوريميدون Eurymedon River.

لم يكن هانيبعل بحاجة إلى الانتظار ليتأكد أن تسليمه للرومان هو أحد شروط الصلح بعد معركة مانيزيا، فركب سفينته وانطلق بعيداً من خليج بامفيليا قاصداً جزيرة كريت التي كانت ملجأ ومرتماً للقراصنة، فأقام في كورثينا على سفح جبل إيدا. وفي كورثينا ابتكر حلاً سحرياً لسبائك ذهبه؛ حيث قام بملء جرار كثيرة بالرصاص وغطاها بالذهب ثم وضعها علناً وياحتفال رسمي في معبد البلدة وجعلها أمانة في حماية الآلهة، خوفاً من اللصوص، فسر أهل البلدة أيها سرور. أما سبائك الذهب الحقيقية فقد وضعها في أوعية نحاسية عتيقة ألقاها دونها عناية يحفل قريب من منزله.

تلقى هانيبعل دعوة من الملك بروسياس الأول ملك بيثينيا Bithynia - أحد أصحاب الاقطاعات المتناثرة حول البوسفور- الذي كان في حالة حرب ضد حليف روما الملك يومينيوس الثالث ملك برجامة. فسافر إليه وأقام بضع سنوات في كنفه، وعمل كمستشار له في الشؤون العسكرية والسياسية، ووضع خبرته تحت تصرف الملك وأشرف له على تخطيط عاصمته "بروزا"، وهي بروز الحالية، كما أشرف على بناء أسطول تولى قيادته بنفسه. وحقق له انتصاراً بحرياً ضد برجامة التي كانت تقع في غرب آسيا الصغرى إلى الشمال من أزمير الحالية قريباً من شاطئ بحر إيجه، وكانت عاصمة الايتوليين في القرنين الثالث والثاني ق.م، واشتهرت بمؤسساتها الثقافية وبمكتبتها الشهيرة التي أهداها ماركوس أنطونيوس إلى كليوبترا لاحقاً. كل ذلك كان مقابل امتناع الملك عن التعاون مع روما. غير أن الملك بادر إلى خيانة الاتفاق لما طلبت منه روما تسليمها هانيبعل، فلم يجد بروسياس مهرياً من الاستجابة لطلب روما، أشار⁽¹⁾ على الرومان قائلاً: "أنا أحتج على طلبكم لأنه ينتهك حرمة الضيافة في بلادي، وأرفض تسليمه لكم، فإن شئتم فتعالوا واقتضوا عليه بأنفسكم".

كان هانيبعل يدرك، وخصوصاً بعد معركة مانيزيا، أن قدره النهائي قادم لا محالة، فاستعد لمواجهة. حيث كان يقيم في سنة 183 ق.م في ليبيسا Libysa الواقعة على الشاطئ الشرقي لبحر مرمرة، وهو مكان محصن يشرف على شواطئ خليج عميق تطل عليه حصون نيكوميديّة، حين جاء أحد الخدم يقول له أن رجالاً مسلحين يقفون على باب القصر. أطل هانيبعل، فرأى الجنود يحاصرون المكان ويسدون جميع المنافذ، فأدرك أن الساعة التي كان يتحسب لها قد آتت، وأن المقاومة ستنتهي بالقبض عليه وتسليمه إلى روما التي كان يعرف قرارها بعرضه في قفص أمام مواطنيها ثم عرضه طاماً للاسود في الكولوسيوم الشهير في روما. غير أن هانيبعل قرر هزيمة روما في معركتها الأخيرة معه، فاختار إنهاء حياته بيده تاركاً للتاريخ أن يسجل موته الصامت على أن يعرض ذليلاً مهاناً أمام الجمهور الروماني، فحُرب السم وأسلم الروح قبل وصول الفرسان إليه. وهكذا، ببسر وسهولة، رحل هانيبعل من عالم الأحياء بدخول باب الأبدية والخلود. وكان يومذاك في الخامسة والستين من عمره.

(1) - جورج مصروعة: "هانيبعل"، ج2، ص 86، دار المكتوب، 1960/1959.

لا يوجد تأكيد صلب على تحديد السنة التي مات فيها هانيبيل بالضبط، إلا أن رولاند ميللور⁽¹⁾ أشار إلى ذلك قائلاً: "لم تعرف السنة التي مات فيها هانيبيل بالتحديد؛ فهي في 183 ق.م حسب روايتي تيطوس بومبيوس أتيكوس وتيطوس ليويوس (ليفى)، وهي في 182 ق.م حسب بوليبيوس الذي لم يكن زمنياً بعيداً عن الحدث (200-118) ق.م، وهي في 181 ق.م حسب رواية سوليكيوس بليثو.

قيل أن الامبراطور الروماني سيثميوس سيفيروس (193-211م) من أصول ليبية (من لبس ماغنا، وهي لبدة الحالية على الساحل الليبي)، بنى ضريحاً فخماً لمواطنه هانيبيل، إلا أنه لا يوجد الآن إلا بقايا ضريح تحت شجرة سرو في منطقة صناعية متواضعة تقع على تلة صغيرة تبعد حوالي ستين كيلو متراً جنوب استنبول، والمكان الآن ليس أكثر من كومة من الحجارة. حيث نقب عالم الآثار الألماني تيودور فيغاند المكان، لكنه لم يقمض بأنه مدفن هانيبيل؟

الحرب البونيقية الثالثة (149-146) ق.م

في عام 160 ق.م بدأ أمير نوميديا بتضييق الخناق على قرطاجة باتفاق سري مع روما، فاضطرت للوقوف دفاعاً عن نفسها دون أخذ موافقة مسبقة من روما كما جاء في نص وثيقة الاستسلام (المعاهدة) سنة 202 ق.م في أعقاب هزيمة قرطاجة في معركة زاما. فبادرت روما إلى أخذ الحجة وأنزلت جيوشها على الساحل الأفريقي لمحاصرة قرطاجة وفتحها. فسارعت قرطاجة إلى تقديم الاعتذار لروما، غير أن روما رفضت قبول الاعتذار بحجة الخوف من نوايا قرطاجة. فعرض القرطاجيون تقديم ثلاثمائة طفل من أطفال المدينة رهينة لدى روما. ولما تم تقديم الرهائن اشترطت روما لجلاء سكان المدينة عنها بعيداً عن البحر، فكان هذا الشرط المستحيل بمثابة موت لأهل المدينة.

قرر مجلس شيوخ قرطاجة وسكان المدينة مواجهة حقيقة ما طلبه هانيبيل قبل خمسين عاماً، فافلقوا أبواب مدينتهم وقرروا الدفاع عنها حتى الموت. بعد أسبوع من تقديم الإنذار النهائي الروماني الذي يطالب بالجلاء عن المدينة زحفت الجيوش الرومانية بمشاركة من فرسان نوميديا وصدمت أسوار المدينة في الهجوم الأول لفتح ثغرات في الأسوار المحصنة، إلا أن المدافعين عن المدينة صدوا الهجوم بكفاءة لم تكن متوقعة، فتراجع المهاجمون غير مصدقين أن مدينة توقع لهم على وثيقة إعدامها تقاوم بهذا العنف.

(1) Miller, The Roman Historians / ميلر: "المؤرخون للرومان"، ص 70، إصدار 1999.

بدأت عملية "الحل النهائي"، كما سماه الرومان، بالحصار الروماني المستمر للمدينة في سنة 149 ق.م، وظل الرومان يقذفون المدينة بموجات متتالية من الهجمات المنسقة من البحر واليابسة لمدة ثلاث سنوات وقرطاج إليسار وهانيبعل ترد هذه الهجمات بقدرات عالية وغير متوقعة من قيادة الجيش الروماني. وهذا دليل على أن الاستسلام المذل الذي قبل به مجلس شيوخ المدينة وتجارها في 202 ق.م كان قد نجم عن تخاذل أعضاء مجلس الشيوخ وأصحاب المصالح الاقتصادية وليس عن خسارة عسكرية، إذ كان يمكن حشد الجهود للمقاومة حينها وربما إلحاق الهزيمة بالجيش الروماني. لكن الوقت قد فات على استعادة أحداث الماضي والتأمل فيها.

أرسلت روما سكيو الحفيد⁽¹⁾ الذي لاشك قرأ كتاب هانيبعل مع جده وأبيه بالتبني، ومع روما، ولاشك أنه كان يحمل على هانيبعل وقرطاج، وربما اعتبر أن قيادته للحملة لتدمير قرطاجة وتسويتها بالأرض كانت نوعاً من الثأر العائلي المجل، إلى جانب الرؤية الوطنية الرومانية إن جاز التعبير. حيث افتتح سكيو الحفيد هجومه على قرطاجة في سنة 146 ق.م بالتقدم إلى الميناء. وكانت قرطاجة قد فرغت على عجل من بناء ثلاثين سفينة في محاولة لكسر طوق الحصار وتزويد المدينة بالمؤن. نجحت القوات الرومانية بالاستيلاء على السفن القرطاجية في المرفأ. وبعد الانتهاء من نصب آلات الحصار المتعددة أمام الأسوار، اندفعت القوات الرومانية الخاصة لقيادة الهجوم تحت غطاء كثيف من القذائف الحربية للمنجنقات والقذائف المشتعلة.

استمر عنف الهجوم لستة أيام دون توقف. فأدرك قائد فرق الخيالة القرطاجية وحاكم المدينة صدريل أن لا فائدة من المقاومة، فطلب لقاء القائد الروماني وانحنى أمامه طالباً الرحمة للمدينة وأهلها، فلما رأت الزوجة استعطاف زوجها لخصمه لعنته وألقت بنفسها مع طفلها من شرفة معبد إشمون في لهيب نيرانه المشتعل، تماماً مثلما فعلت إلسا قبل سبعة قرون. فاندفع سكان المدينة للقتال من جديد في معركة عنيفة أخيرة يائسة أمام المنظر المهيئ لرفض الزوجة الخنوع المهين للرومان يحذوها إيمان سام بالعزة والكرامة والنفاء. فيما كان القائد الروماني يشرف من موقعه على عمليات قواته الخاصة وهي تنفذ تعليماته في "الحل النهائي" بإشغال النيران في كل بيت وفي كل شئ في المدينة.

انطلقت النيران في المدينة بعد سبعة عشر يوماً من اشتعالها في جميع أنحائها دون استثناء، وختم سكيو معركته بترديد بمضي من أشعار هوميروس، ثم أمر بحرقها ورش أرضها بالملح حتى لا ينبت فيها زرع ولا يمش فيها ضرع.

(1) - تراجع القائد الروماني سكيو للجد: بلبوس كورنيليوس الملقب بسكيو الأفريقي الكبير (249-183 ق.م، مع هانيبعل سنة 218 ق.م، في معركة تينيفيو بالقرب من يافيا، بعد عبور الأخير نهر الرون وجبال الألب، وسقط جريحاً، ولم يلقه إلا ابنه سكيو الذي هزم هانيبعل في معركة زلما سنة 202 ق.م. أما القائد سكيو الحفيد (185-129 ق.م، فهو سكيو أميلونوس الملقب بالأفريقي الصغير، ابن سكيو الابن بالتبني.

سقطت قرطاجة بين أشدق الموت، فدمرت بالتهب والسلب والقتل والنيران حتى سويت بالأرض، وبيع السكان في أسواق العبيد، بعد أن ألفت زوجة حاكم قرطاجة حفيدة إيسار نفسها في لهيب معبد إشمون المشتعل لكي لا تسلم نفسها للغزاة. وحظر على السكان البقاء في المدينة إلى أن تم رفعه بعد سنوات طويلة.

طرح كتاب أندريه ايمار وجانين أوبوايه^(١) السؤال التالي: "هل كان بإمكان قرطاجة أن تنتصرة ربما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.. بعد سبعة قرون طوال من الحياة والانشاط العارم، زالت وتوارت عن مسرح التاريخ دون أن تترك وراءها أثراً عميقاً تردده الأجيال. ومهما يكن الدور التاريخي الذي لعبته المدن الفينيقية ضئيلاً ومتواضعاً، بالنسبة لقرطاجة، فقد طبعت هذه المدن تطور المدنية بأكثر مما طبعت قرطاجة".

هكذا الدهر (أيام التاريخ): "يوم لك ويوم عليك، فإن كان الذي لك فلا تبطل، وإن كان الذي عليك فاصبر، فكلاهما سينحسر"^(٢). عاد العرب إلى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد ثمانية قرون من هزيمتها النهائية على يد الرومان، ثم عادت للفرجة بعد ثمانمئة عام من حكم العرب. فلا تأسفن على مافات، وتأمل بما هوأت.

صورة هانيبال في كتاب التاريخ العام

مثلت قرطاجة، وهانيبال خاصة، في الفكر الغربي أول تحد حقيقي واجه مشاريعه الامبراطورية، ولا تزال دلالات هذا التحدي قائمة حتى الآن في مدارسهم ومراكز أبحاثهم. كان حظ قرطاجة السيء أنها أصبحت عظيمة في الوقت الذي بدأ فيه نجم روما بالصعود.

لم تتطور قرطاجة بشكل أساسي عن المفاهيم والعادات والتقاليد التي حملها معهم روادها الأوائل، والتي أحضرها معهم من صور، فبقيت حاملة لمنابعها الفينيقية الشرقية، لكنها قصرت عن توحيد مراكزها المنتشرة في شمال أفريقية وسواحلها على المتوسط وإسبانية والجزر في عرض المتوسط الغربي في دولة موحدة الأهداف والغايات تثيرها براعة مواطنيها بالتجارة والصناعة والإقدام ويحميها جيشان قويان على التيايسة وفي البحر، وأن تقود انتصاراتها إلى خلق فكرة دولتية مؤسسية متجددة تعتمد على فكرة شعبية واحدة تدعمها مؤسسات دستورية كما فعلت روما، لا أن تعتمد على العائلة والفرد البطل. حتى أن ارتباطها في قاعدتها بالوطن الأم تلاشت ميكراً، بينما بقيت روما دولة متماسكة بمؤسساتها رغم الهزائم الكبيرة والمستمرة على مدى أكثر من خمسة عشر عاماً من صراعها الدموي ضد قرطاجة، وعلى مدى عمرها الطويل. إذ ربما يعود ذلك

(١) - تاريخ الحضارة العام - روما وإمبراطوريتها، ص 39، ت: يوسف وفريد داغر، دار عبيدات- بيروت.

(٢) - الإمام علي (رض). وفي (الأمثي 1: 102، وفي شرح ابن أبي الحديد 4: 154) من وصية أوس بن حارثة لابنه مالك.

بالدرجة الأولى إلى النظام المؤسسي العام الذي كانت تتبعه روما في فترة الجمهورية الرومانية..

في النهاية واجهت قرطاجة روما لوحدها بعدما انقض النوميديون والبربر والليبيون والأفارقة عنها كل يحارب في سبيل أهدافه الخاصة.

1- تقول الأوصاف القليلة التي وصلتنا عن شخصية هانيبال أنه كان رجلاً هادئاً، رصيناً، كامل الاستقامة، متين الأعصاب ورايط الجأش في أصعب الظروف، لا يشرب الخمر إلا قليلاً، مترفعاً مع النساء، عفيف النفس، أتواً، لم يكن إنانياً، قدوة لجنوده، يضع حلاً لكل أمر.. إلا أن بعض المؤرخين من أمثال ليويوس (ليني) وشيشرون اتهموه بالقسوة وحب المال!

2- كان القائد القرطاجي، البوني، الفينيقي، الكنعاني، السوري، عبقرية مثقوفاً قهره تضامن الرجال العاديين في قرطاجة! في الوقت الذي كان فيه القادة والمؤسسات الرومانية منسجمين كلياً في فكرة بناء الدولة - الامبراطورية.

3- طويت صفحة من أكثر صفحات التاريخ الإنساني العسكري إثارة وجراً، وصفة بطولها: 'اسمي هانيبال: أي مكان أرتقي؟ أي عظيم أتقي؟ أي شيء عظيم أن يكون الإنسان موهوباً بهذا الشكل الاستثنائي عند ولادة عبقرية توازي أي طموح إنساني مهما كان نوعه"⁽¹⁾.

4- قيل أن هانيبال علم الرومان معنى الخوف، فبقيت الأمهات الرومانيات لأجيال متتالية يخوفن أطفالهن بخرافات عن هانيبال إن تصرفوا بطريقة ليست مرغوبة أو لجعلهم يذهبون إلى النوم. وكان أعضاء مجلس الشيوخ الروماني يرفعون أصواتهم عند مواجهتهم لصبيبة كبيرة بأن هانيبال أمام الأبواب (Hannibal ante Portas)، وأن هذا التعبير ما زال يستعمل حتى الآن عند مواجهة مشكلة، أي أن المشكلة أمامنا لم تحل. وهذا يفسر رد الفعل النفسي الذي تركه حضور هانيبال إلى إيطاليا على الثقافة الرومانية. استشهد المؤرخ اللاتيني تيطوس ليويوس (ليني) في كتابه: "الحرب ضد هانيبال The war with Hannibal, 26, 8": "...كان بكاء الأطفال يسمع في كل الأماكن. ليس في البيوت الخاصة فقط، وإنما في المعابد إذ كان المتوسلون يبتلعون على أرض المعبد بشموهم المشتعلة وأيديهم مرفوعة بالدعاء إلى السماء في حالة تضرع للآلهة لإنقاذ المدينة من براثن العدو، وأن يحفظ الأمهات والأطفال من الأذى والغضب".

5- يلاحظ في كتابات الكتاب اللاتين، وخاصة تيطوس ليويوس وفرونينيوس وجوفينال، نوعاً من الإعجاب المشوب بالحسد والحقد. وقد بنى الرومان تماثيل عذبة في ساحات روما وشوارعها ترمز إلى هزيمة هانيبال وهزيمة قرطاجة.

6- غالبية المصادر التي أرخت لهانيبال لاتينية، وهم يمدونه أخطر عدو وأجته روما على مدى تاريخها الجمهوري والامبراطوري.

7- بعد انتهاء المعركة، بحث هانيبال عن جثة القنصل غايوس فلامينوس على شفاف بحيرة تراسيميتو فلم يجدها. لكنه أقام احتفالاً جنازياً رسمياً للقنصل لوكيوس إميليوس باولوس، وأرسل رماد جثة مارسيلوس إلى عائلته في روما، وذلك حسب بوليبيوس الذي اتهم بتعاطفه مع هانيبال، بيد أن بوليبيوس الذي عاش رهينة لفترة طويلة في إيطالية اعتمد على مصادر رومانية في روايته.

8- صار اسم هانيبال اسماً مشتركاً في الفنون والأداب والثقافة الشعبية.

9- لم يظهر في جميع المصادر ما يقيد بصورة وإفية عن علاقة هانيبال بالمرأة، غير أنه كان رفيقاً بها.

10- أكسبته انتصاراته شهرة عظيمة خارج حدود بلاده ما يزال تأثيرها كمدرسة عسكرية يدرس في الأكاديميات العسكرية في جميع أنحاء العالم. ويبقى عبوره للألب عملاً عسكرياً استثنائياً في تاريخ الحروب القديمة بحيث استولى على خيال العالم منذ ذلك الحين.

11- أطلق المؤرخ تيودور دوج على هانيبال "أبو الاستراتيجية" في كتابه "تاريخ الفنون الحربية عند القرطاجيين والرومان". ووصفه نابليون، ودوق ولتغنتون الذي هزم نابليون في معركة واترلو سنة 1815م، بالاستراتيجي الموهوب.

12- كان عبور هانيبال للألب عملاً عسكرياً باهراً بكل المقاييس هز عالم البحر الأبيض المتوسط خلال العقدين القادمين، بحيث يمكن اعتبارها حرباً عالمية بمقياس ذلك الزمن وطلت ثلاثة أرباع سكان العالم القديم: اليوناني- الأفريقي- الروماني. والقليل من شعوب المتوسط التي استطاعت الإفلات من ويلات هذه الحرب التي أفقدت كل أسرة في روما فرداً أو أكثر من أفرادها.

13- روى شيشرون أنه بينما كان هانيبال يستمع لمحاضرة الفيلسوف فورميو في مجلس أنطيوخس الثالث، وفي نهاية المحاضرة، سأل هانيبال عن تعريفه للقائد العسكري الكفؤ، فأجاب: " لقد رأيت في حياتي الكثير من الحمقى، غير أن الذي تسألوني عنه هزمهم جميعاً".

14- يروي المؤرخ اليوناني أبيان Appianus الذي عاش في القرن الثاني، أن هانيبال عمل كمستشار عسكري وسياسي للملك السلوقي أنطيوخس الثالث، حينما التقى بسكيو في مدينة الألعاب الرياضية بأنطاكية وتبادلا الأحاديث والآراء عن كفاءة القائد العسكري، حين سأل سكيو هانيبال عن يعبثه أعظم قائد عسكري؟ رد هانيبال: الاسكندر المقدوني، أيد سكيو ما قاله هانيبال، ثم سأل ثانية، ومن يأتي بعد الاسكندر؟ رد هانيبال: بانيروس الإبيروسي لأنه اعتبر الجرة في المقام الأول. شعر سكيو بالاحتياط الذي استطاع كتمانها، وسأل هانيبال من جديد، ومن يأتي في المركز الثالث متوقفاً أن يجيب هانيبال بتسميته، لكن هانيبال رد قائلاً: أنا نفسي، لأنني عندما كنت صغيراً فتحت إسبانية، وعبرت الألب بجيشي، وكنت الأول بعد هرقل، فغزت إيطاليا، وأدخلت

الرعب إلى قلب كل واحد منكم، وفتحت أكثر من أربعمائة مدينة وبلدة، ووضعت عاصمتكم روما في خطر شديد، علماً أن الأموال والإمدادات لم تصلني خلال كل هذا.. ولأن سكيو لاحظ استمرار هانيبيل في افتخاره بنفسه، ضحك مقاطعاً وسأل: وأنت يا هانيبيل، أين تضع نفسك، إن لم أكن قد هزمتك؟ أدرك هانيبيل غيرة سكيو، فرد: في هذه الحالة سأضع نفسي قبل الاسكندر، واستمر يفتخر بنفسه، ثم أخذ بطري سكيو بطريقة لطيفة مضمناً أنه قهر الأقوى من الاسكندر. وفي نهاية الحديث دعا هانيبيل سكيو إلى مائدته، إلا أن سكيو اعتذر قائلاً: يسعدني ذلك لولا وجودك في يلاط أنطيوخس- الذي لم يكن الرومان يتقون به- وهذا يظهر أن الاثنين تصرفا كقائدين عظيمين وضعا عداواتهما جانباً بنهاية الحرب. وقد وردت هذه الرواية في كتاب آبيان تاريخ الحروب السورية، وفي كتاب ماري ماكريغور "موت هانيبال وقصة روما".

15- مقالة ماكسيميليان أوتيسمارك كاسباري، 1911 (الموسوعة البريطانية):

في الحديث عن تفوق عبقرية هانيبال العسكرية؛ لا يوجد رأيان! إنه الرجل الذي استطاع الامساك بقوة، وهو في الخامسة عشر من عمره، بأراضي أعدائه ضد عدد من الجيوش الجبارة وتوالي القادة العسكريين الكبار القادرين، بحيث يجب أن يوصف بأنه صاحب تفوق تكتيكي هائل. كما لم يضارعه أحد من جميع القادة القدماء في رسم الاستراتيجيات والمكامن والخدع الحربية. كانت إنجازاته مذهلة، إذ يجب علينا أن نُعجب به أكثر عندما نضع في الميزان الحسد والاهمال الذي لقيه من قرطاجة. وكمحارب قديم، كان قادراً وكفافة عظيمة على تنظيم التجديد وحشد الجيش عندما دعي لذلك. لم نسع بأي تمرد في قواته، رغم أن جيشه تكون من أعراق مختلفة: القرطاجيين، الأفارقة الشماليين من الليبيين والنوميديين والبربر والموريتانيين، الأيبيريين، الغاليين، واليونانيين. ومرة أخرى نحن نعرف كل شيء عنه من المصادر المعادية له. ولقد شعر الرومان بالرعب والخوف منه وحقدوا عليه بشكل كبير حتى أنهم لم يكونوا واقعيين بالحكم عليه. ويتحدث مؤرخهم تيطوس ليفيوس (ليفي) عن كفاءته ومنزلته الرفيعة، كما يضيف أن رذائله كانت عظيمة أيضاً، حيث يروي خيائته ومكره وقسوته الإنسانية. وإذا أخذنا اتهام ليفيوس له بالخيانة والمكر، حيث يشير ضمناً إلى براعته في نصب الكمائن والشرار القاتلة، فهذه مبررة في الحروب. وبالنسبة لقسوته، فنحن نعتقد أنه لم يتصرف في الأزمات أكثر مما أمثله عليه روح المسؤولية في القيادة. وفي بعض الأحيان كان يتعامل مع أعدائه بطريقة إيجابية ونبيلة، ولم يرو عن قسوته ما يُلطخ سمعته كما فعل كلوديوس نيرو الذي قطع رأس صديقه بعد أن قتل في المعركة، ثم زرعه ليلاً على أحد أوتاد معسكر هانيبيل. ويقول بوليبيوس أن الرومان هم من اتهموا هانيبيل بالقسوة، وقادة قرطاجة من شعر نحوه بالحسد والغيرة. وأعداؤه هم من كانوا قساة، وكانت حياته نضال مستمر ضد الأقدار من أجل غايات صلبة لتنظيم القدرات والتفوق والإنجاز والبراعة العسكرية العالية حيث لم يكن له مساوٍ. حتى أن مؤرخي الرومان اعترفوا بقيادته

المسكرية الفذة: " .. فهو لم يطلب من أحد تحقيق ما لم يكن هو نفسه قادراً على تحقيقه".

وحسب رواية بوليبيوس في تاريخه: 23، 13، ص423: "برهن هانيبال أنه كان على درجة شخصية عالية من البراعة والقوة بحيث أنه كان قائداً حقيقياً بالطبيعة والفطرة، ولم يجاره أحد من رجال الدولة علماً أنه أمضى سبعة عشر عاماً يحارب في ساحات القتال وعبر الكثير من الدول البربرية، واستخدم لخدمته الكثير من الرجال الذي كانوا يأسين، والكثير من المميزين والمغامرين من بلاد ولغات مختلفة، حتى أن أحداً من هؤلاء لم يفكر بالتمأمر أو الخروج على قيادته، أو أن أحداً انضم إليه ثم انشق عنه أو هجره أو خذله، بل استملاخ ببراعته تطعيمهم وصهرهم وإدماجهم لتحقيق خطته، فعرف كيف يستفيد من كل هذا اللميم إلى أقصى حد، فكان جيشه من أكفأ الجيوش في التاريخ القديم.

16- المؤرخ تيودور أيرولت دوج: "امتاز هانيبال بتكتيكاته الحربية. ولا يوجد معركة في التاريخ كقتال تكتيكي أكثر من معركة كاناي. لكنه كان عظيماً أيضاً في التنسيق العسكري والاستراتيجية ولم يحدث أن تقدم قائد إلى الأمام والخلف وسط جيوش الأعداء والحشود التي تكبر بكثير جيشه ومعداته، فكان بارعاً ومخيفاً للجميع يقود ضباطاً محترمين بقدرات عالية من الكفاءة والبراعة في الخدع العسكرية".

أخيراً تحققت نبوءة هانيبال: "وأخيراً، هذا هو مصيرك يا قرطاج

الحروب البونيه ودور هانيبال (هاني بل) وسقوط قرطاج

ق.م	الجهة الخارجية	الجهة الداخلية
264 - 241	الحروب البونيه الأولى: قادها هملقار والد هانيبال. ونشبت على جزيرة صقلية بين قرطاج والرومان. ونجح الرومان باحتلال مدن ميسانا سنة 266، وسراقوزة 265، وميلادي 259، استمر احتراز روما انتصارات بحرية فأخرجت قرطاج من كامل صقلية وسردينيا وكورسيكا في سنة 241.	تمرد نوميديا ضد قرطاج. وانقسام القيادة القرطاجية بين من يدعو إلى مواجهة روما، وبين من يدعو إلى مهادنتها. واستمر الجدل حتى تم الانسحاب النهائي سنة 241. هاعلن معطي بل الليبي تمرد. وتم وأد تمرد سنة 237 بقيادة هملقار برقا.
218 - 202	الحروب البونيه الثانية: قادها هانيبال. غادر هملقار قرطاج إلى إسبانيا بصحبة ابنه هانيبال الكبير سنة 237 ق.م. ونجح هملقار في بسط نفوذه على كامل جنوب شبه الجزيرة. قتل هملقار سنة 228 على إثر هجوم القبائل المحلية، فتولى زوج ابنته	احتل سوجتوم سنة 219 ق.م بعد خضار دام أكثر من ثمانية أشهر، وذلك خلافاً لماهدة 226 ق.م بين مجلس الشيوخ الروماني وصدر بل خليفة والده، والتي نصت على ألا يعبر الجيش القرطاجي نهر الايبرو

<p>نحو الشمال، فقدم الرومان احتجاجاً إلى الحكومة القرطاجية، حيث حاول "حنون الكبير" حاكم قرطاجية حينها أخذ موافقة الحكومة على تسليم هانيبيل إلى روما كتكفير عن خرق المعاهدة، إلا أن غالبية مجلس شيوخ قرطاجية أيدوا سياسة هانيبيل الذي صار ينظر الشعب بطلاً وطنياً يمثل عودة المزة والكرامة بعد ذل معاهدة الصلح المهينة، وأيضاً، لأن معاهدة الصلح سنة 241 ق.م لم تذكر سوجنتوم.</p> <p>ماسينيسا أمير نوميديا يخلف والده غايا وينهزم أمام سيفاكس الذي يعود للتحالف مع قرطاجية</p> <p>ماسينيسا يتحالف مع الرومان عشية معركة زاما ويشارك في الحرب على قرطاج وسيفاكس يعمل لإقامة دولة في شمال أفريقية.</p>	<p>صدربيل الجميل الذي اغتيل سنة 221، فأعلن الجيش هانيبيل قائداً عاماً للقوات.</p> <p>1- 219: احتلال سوجنتوم.</p> <p>2- 218: عبور جبال البيرينييه (البرانس).</p> <p>3- 218: عبور الأيبرو والرون والألب.</p> <p>4- أيلول 218: احتلال تورينو.</p> <p>5- 218: معركة تشينو مع سكيپو الأب.</p> <p>6- 218: موقعة بلاسنتيا على نهر ترييا.</p> <p>7- 217: موقعة بحيرة تراسيمينو.</p> <p>8- 216: موقعة كاناي التاريخية.</p> <p>9- 212: استيلاء هانيبيل على تارنتوم.</p> <p>10- 211: روما تستعيد كابويا.</p> <p>11- 211: حصار هانيبيل لروما.</p> <p>12- 210: هزيمة الرومان في أبولية.</p> <p>13- 209: هانيبيل يخسر تارنتوم.</p> <p>14- 208: انتصار هانيبيل في لوسي.</p> <p>15- 207: معركة فانو.</p> <p>16- 206: الرومان يزعفون على إسبانية بعد هزيمة صدربيل في أومبارية، وقرطاج عاجزة عن إمداد جبهة القتال في إيطاليا.</p> <p>17- 203: هانيبيل يعود إلى أفريقية.</p> <p>18- خريف 202 ق.م: هزيمة هانيبيل في معركة زاما على البر التونسي.</p> <p>19- 201: قرطاجية توقع معاهدة مع روما بعد هزيمتها في معركة زاما، وتتخلى بموجبها عن أراضيها في أفريقية</p>
<p>ماسينيسا أمير نوميديا بعد حدوده من خليج سرت إلى موريتانيا في دولة أفريقية واحدة.</p>	<p>194- هانيبيل يفادر قرطاجية سنة 195/194.</p> <p>160 يموت هانيبيل منتحراً في الشرق سنة 183/181</p>
<p>الرومان يضمون أيديهم على الشمال الأفريقي فيصبح جزءاً من الجمهورية الرومانية</p>	<p>149- الحرب البونيه الثالثة:</p> <p>146 يبدأ الرومان بحصار قرطاجية، فيفتحوها ويدمروها تدميراً كاملاً.</p>

الفصل الرابع

كليوبترا (Cleopatra) ملكة مصر

المحطات الرئيسية في حياة كليوبترا

- 1- 69/70 ق.م: ولادة كليوبترا.
- 2- 58 ق.م: طرد بطليموس الثاني عشر (الملقب بالزممار) ومعه ابنته كليوبترا من مصر، حيث التجأ إلى روما.
- 2- عودتها مع والدها إلى الاسكندرية سنة 55 ق.م، بعد أن عقد والدها صفقة مع قيصر ويومبيوس لإعادته إلى العرش.
- 4- 51 ق.م: وفاة بطليموس الثاني عشر، وولاية كليوبترا وأخيها بطليموس الثالث عشر على عرش مصر.
- 5- 48/49 ق.م: هرب كليوبترا إلى الصعيد ومنه إلى الحدود الشرقية ووصول قيصر إلى مصر.
- 6- 47 ق.م: ولاية كليوبترا مع أخيها بطليموس الرابع عشر على العرش، وولادة ابنها بطليموس قيصر (قيصرون) من يوليوس قيصر.
- 7- 46 ق.م: رحلتها إلى روما وحلونها بإحدى قصور قيصر في إحدى ضواحي روما.
- 8- 44 ق.م: اغتيال قيصر وعودة كليوبترا إلى الاسكندرية، وموت بطليموس الرابع عشر الغامض، وإعداد ابنها بطليموس قيصر من قيصر للحكم معها.
- 9- 41/42 ق.م: ماركوس أنطونيوس (مارك أنطوني) ينتصر في معركة فيليب على قتلة قيصر، ويستدعي كليوبترا إلى إفسوس.
- 10- 40 ق.م: هجوم البرثيين الفرس على أسية الصغرى وسورية. وزواج أنطونيوس بأوكتافيا أخت أوكتافوس، وولادة توأمي كليوبترا البنات من أنطونيوس.
- 11- 37 ق.م: أنطونيوس يعيد زوجته أوكتافيا من محل إقامتها في أثينا إلى روما، ويجتمع بكليوبترا في أنطاكية. ويضم أراض واسعة إلى مملكتها.
- 12- 36 ق.م: فشل حملة أنطونيوس على ميدية (شمال سورية وجنوب تركيا الحالية). ولادة ابن كليوبترا الثالث من أنطونيوس، والذي سمي بطليموس فيلادلفوس.
- 13- 34 ق.م: نجاح حملة ماركوس أنطونيوس على أرمينية. وإعلانه وصية الاسكندرية.

- 14- 32/33 ق.م: نشوب الخلافات بين أنطونيوس وأوكتافيوس. وأنطونيوس وكليوبترا يمضيان الشتاء في إفسوس. وطلاق أنطونيوس من زوجته أوكتافيا .
- 15- 31 ق.م: أجريبا، قائد قوات أوكتافيوس يحتل ميثون، واحتدام المعركة في أكتيوم. وهروب كليوبترا وأنطونيوس البحري إلى مصر.
- 16- 30 ق.م: دخول أوكتافيوس منتصراً إلى الاسكندرية. وانتحار أنطونيوس وكليوبترا. وإعدام بطليموس قيصر من كليوبترا ويوليوس قيصر.

أصول كليوبترا واعتلائها العرش

ينتهي تاريخ مصر الفرعونية بالاحتلال اليوناني لها سنة 332 ق.م. لكن مجئ الأغريق أول مرة إلى مصر لم يكن مع الاسكندر، وإنما من قبله بزمان طويل، حيث كانت العلاقات بين الطرفين ترجع إلى نهايات الألف الثاني ق.م. إذ أيدت النقوش المصرية القديمة والحقائر الأثرية مستوى هذه العلاقات، وبخاصة التجارية منها. لكن مستوى هذه العلاقات انخفض إلى أدناه خلال فترة القرون الثلاثة الأولى من الألفية الأولى ق.م نتيجة الاضطرابات والفوضى التي تعرضت لها بلاد اليونان، كما تعرضت مصر في نفس الفترة تقريباً إلى أحداث عنيفة أدت إلى الاحتلال الليبي لها، ثم الفارسي فيما بعد. إلا أن الاتصال بدأ من جديد بين الطرفين في أواخر القرن السابع قبل الميلاد حين بدأ عصر الاستقرار في مصر في ظل الأسرة الفرعونية السادسة والعشرين صاحبه استقرار في العالم اليوناني. فتدفق اليونانيون بأعداد كبيرة إلى مصر من أجل التجارة والانخراط كمرتزقة يقاتلون الليبيين والفرس إلى جانب المصريين. وقد وجد المصريون والأغريق أنفسهم يواجهون عدواً مشتركاً هو العدو الفارسي الذي كان من أقوى الامبراطوريات في العالم القديم في القرن السابع قبل الميلاد. وبذا وجد الطرفان أن مصلحتهما الاقتصادية والسياسية تقتضي تعميق علاقتهما إلى مستوى أقل من مستوى التحالف بقليل.

بدا للأغريق، من خلال تراكم معرفتهم التجارية الوثيقة، غنى مصر كمستودع غلال يدركون أهميتها الاستراتيجية لبلادهم خاصة مع النجاح بنشوء الدولة اليونانية بتوحيد معظم بلاد اليونان في القرن الرابع ق.م، والتي صاحبها نشوء ثورة معرفية وثقافية هائلة وجهت أفكار النخبة إلى التفكير بالتوسع نحو مجاليها الحيوي باتجاه الشرق. وهذا ما حققته عبقرية الاسكندر المقدوني في حملته السريعة والمظفرة على عموم الشرق القديم (333-332) ق.م، حيث أدرك مبكراً أهمية مصر الاقتصادية لبلاد اليونان ولطموحاتها العسكرية، ولهذا وجد نفسه مدفوعاً لاحتلال مصر بدلاً من ملاحقة ملك الفرس المنهزم نحو عاصمته في الشرق، وذلك بالتوجه جنوباً، حيث احتل سورية وفينيقية وفلسطين بعد معارك عنيفة حول صور وغزة، ثم اتجه إلى مصر فدخلها دون مقاومة تذكر بعد أن استسلم الوالي الفارسي، خاصة وأن المصريين كانوا قد ألفوا التعامل مع الأغريق

كأصدقاء وحلفاء ضد الفرس. لذلك رحب المصريون بقدوم الاسكندر كجبال ينقذهم من الحكم الفارسي.

اعتمد الاسكندر في تخطيطه لغزو الشرق على الصرح العظيم والاستعدادات والتجهيزات العسكرية والإدارية التي أقامها والده فيليب في مقدونية، إذ سهلت له الكثير مما كان ينوي القيام به، كما أسهمت اسهاماً كبيراً في فوزه برئاسة تسالية وكورنثية بعد أن قضى على جميع المنافسين على عرش مقدونية أو المطالبين بالانفصال.

ترى الاسكندر تربية مميزة لم يحصل عليها أي ملك من ملوك مقدونية، إذ تولى تعليمه الفيلسوف الإغريقي الكبير أرسطو (384-322 ق.م)، فورث الجلد والعزم والمهارة عن أبيه، وقوة العاطفة والانفعال السريع والخيال عن أمه. وكانت لتعاليم ومبادئ أرسطو كبير الأثر في تضججه واتساع أفاقه وسمو تفكيره، والتي رأت في المدينة- الدولة الأساس السياسي والحضاري الإغريقي. بحيث شجنته دعوات فلاسفة الإغريق وخطبهم المستمرة بأن أفضل وسيلة لحفظ بلاد الإغريق من خطر البرابرة الشرقيين الفرس وغيرهم هو غزوهم وسحق حضارتهم وإنشاء النموذج الإغريقي في بلاد البرابرة بعد احتلالها.

بالغ مؤرخو الغرب بتضخم وتقوى قوة الفرس تقوفاً هائلاً إمعاناً بإضفاء المزيد من أوصاف القوة الخارقة التي لا تقارن على انتصارات الاسكندر السريعة والناهرة، وذلك من أجل تصوير الغرب والحضارة الغربية بأنها المتقوفة على كل ما عاها على مر الأزمنة والعصور.

عبر الاسكندر مضيق الدردنيل في ربيع 334 ق.م ومعه من الجند ما يربو على ثلاثين ألفاً من المشاة وأكثر من خمسة آلاف من الفرسان بعد أن ترك قوة من المشاة والفرسان برئاسة القائد أنتيباتروس لتصرف الأمور في مقدونية والإشراف على بلاد الإغريق، فاستسلمت له معظم مقاطعات ومدن آسية الصغرى، وتم الاستيلاء على الممرات المؤدية إلى سهل أسوس، حيث جرت وقائع معركة أسوس، التي تعد من أعظم معارك التاريخ، في تشرين الأول سنة 333 ق.م، حيث استطاعت الفيالق المقدونية إثبات قدراتها القتالية بتكتيكاتها العسكرية الثورية ضد الأنماط التقليدية للحرب القديمة للجيوش الفارسية، وقد تمت هزيمة الجيش الفارسي بقيادة الملك دارا (داريوس) هزيمة منكرة فتفرقت قواته في كل الأنحاء. لكن الاسكندر لم يقتف أثر دارا، بل اتجه صوب فينيقية في حركة التفاف لتعطيم الاسطول الفارسي المسيطر على بحر ايجة.

وصل الاسكندر إلى مدينة مريانديوس الفينيقية القديمة وأسماها الاسكندرية (الاسكندرونة)، وأكمل زحفه نحو الجنوب فاستسلمت له جبيل على الساحل الفينيقي ورحب به سكان صيدا، ثم تابع زحفه جنوباً فاستقبله وفد من أهالي صور. وعرضوا عليه استسلام المدينة في غياب ملكهم المرافق للأسطول الفارسي بشرط عدم دخول

مدينتهم ليقدم القرابين لجدّه الأول "ملقارت"^(١)، فاضطر لضرب حصار حول المدينة لسبعة أشهر إلى أن استطاع اختراق الأسوار في تموز 332 ق.م عن طريق بناء جسور معلقة للوصول إلى أعالي الأسوار، فقتل ما يربو على الثمانية آلاف من سكان المدينة وأسر أكثر من ثلاثين ألفاً بيعوا كعبيد، واستسلمت دمشق بدون قتال لبارميون أحد قادته. ونتيجة لسقوط صور ووصول الإمدادات إلى الاسكندر فقد الاسطول الفارسي أفضل قواته البحرية ولم يعد يشكل خطراً يخشاه الاسكندر.

في طريقه^(٢) إلى مصر احتل الاسكندر مدينة غزة بعد شهرين من الحصار فقتل الكثير من أهلها وأسر الباقين، ووصل إلى مصر في تشرين الأول 332 ق.م، فاستسلم له والي مصر الفارسي بعد أن علم بهزيمة ملكه دارا وسيطرة الاسكندر على فينيقية وسورية. وهكذا صارت مصر إلى الاسكندر بدون قتال.

كان المصريون يكرهون المحتل الفارسي، مما سهل الأمور على الاسكندر. وكان أول ما قام به في العاصمة ممقيس هو إظهار الاحترام الشديد للديانة المصرية القديمة، فقدم القرابين في معابد الآلهة المصرية ورسم نفسه فرعوناً حسب طقوس الديانة المصرية آنذاك.

قام الاسكندر بتأسيس وبناء مدينة الاسكندرية والإقامة فيها لفترة، ثم سار غرباً بمحاذاة الساحل إلى مرسى مطروح (باريتونيون)، فدخل في الصحراء قاصداً معبد الإله آمون في سيوه، والذي كان يفوق في أهميته أعظم معابد الوحي اليونانية. وربما كان الاسكندر يهدف من وراء ذلك إلى ربط نسبه بالآلهة ومباركة آمون له بما ينوي القيام به معتبراً نفسه الملك الإله الذي يطمح لتكوين إمبراطورية عالمية عظمى.

نظم الاسكندر البلاد المصرية تنظيمًا جيدًا، فوضعها تحت إمرة حاكمين أحدهما مصري، وجعل من كليومانس النقراطيسي مسؤولاً عن تحصيل الضرائب والأموال ووكله بالإشراف على متابعة إنشاء الاسكندرية.

رحل الاسكندر عن مصر في ربيع 331 ق.م، بعد أن أنهى مهامه هناك، قاصداً بابل لمواجهة الجيش الفارسي ثانية بعد أن أعاد الملك الفارسي تنظيمه بنفسه.

أطلق الاسكندر، بعد أن رفض عروض داريوس بالتصالح، بعبور الفرات بدون مقاومة واتجه بقواته إلى حيث كان يعسكر دارا بجيشه شمال مدينة أربيل في العراق، فدارت معركة ضارية انتصر فيها الاسكندر، وقر دارا هارياً، فزحف الاسكندر واحتل بابل، واستمر في زحفه نحو الشرق إلى أن قُتل داريوس، فنزلت بالفرس النازلة وتفرق شملهم وطويت صفحتهم إلى حين. وهكذا أصبح الاسكندر سيد آسيا، فقدم له الولاة المعينون

(١) - ملقارت إله فينيقي شهير يمثّل هرقل في الديانة الوثنية اليونانية القديمة. وقد ادمى الاسكندر ان ملقارت هو الإله الذي اندحر منه. يرى بعض المؤرخين أن رفض سكان صور لزيارة معبد ملقارت سبباً إن تمت اعتراف الإله بحق الاسكندر بأحقّيته بحكم المدينة.

(٢) - ذكر ثلورخ اليهودي يوسفوس زيارة الاسكندر لمدينة القدس، إلا أن معظم المؤرخين المعاصرين يشكون في صحة هذه الزيارة؟

من الفرس فروض الطاعة والولاء، فعفى عنهم وأثبتهم في مناصبهم. ثم اتجه شمالاً فاحتل باكترية (شمال أفغانستان الحالية وبعض جوارها) ولايات الهند-الشمالية والشمالية الغربية.

شعر المصريون والبابليون والفرس أن الاسكندر أصبح ملكاً آسيوياً لإيمانه بأن التفرقة بين الناس يجب أن تقوم على أساس فضلهم وليس على أجناسهم، وأنه من الممكن تحضير هذه الشعوب إلى مستوى الحضارة الإغريقية. وقد مثلت هذه الأفكار تناقضاً للأفكار والتعاليم التي كان ينادي بها معلمه أرسطو.

عاد الاسكندر إلى بابل ربيع 323 ق.م، وأخذ بإعداد الخطط الحربية لغزو بلاد العرب. لكن مرضاً خطيراً داهمه فأقدمه عن الحركة فمات في تموز عام 323 ق.م، وكان عمره ثلاثة وثلاثون عاماً، منها اثني عشرة عاماً في الحكم.

تبين سيرة الاسكندر المقدوني أن المثل العليا لم تكن تهمه كثيراً بقدر ما كانت تهمه رياح الحرب والقتال والمجد العسكري والمثال البطل في التاريخ. إذ لم تبين هذه السيرة أنه كان يملك رؤية كلية لخير البشرية تجعلها تحتوي العالم في وحدة واحدة من أي نوع. ولم يعمل لإقامة جمهورية فاضلة، ولم يدع إلى إصلاح اجتماعي معين، ولم يكن همه ماذا تفعل الشعوب كي يصبح العالم أمة واحدة متعايشة وأفضل، بل كان حلمه الفاضل الذي اجتهد لتحقيقه بعد إغارته العظيمة على الشرق سطعياً ومؤقتاً ظهر بتقديسه الآلهة المصرية المحلية في زيارته الشهيرة إلى معبد آمون، وعقود الزواج الجماعية - التي امتعض غالبية قادته منها- بين قادته والأميرات الفارسيات. وبغض النظر عما روي عن شذوذه الجنسي- إن كان صحيحاً- فقد انطلق بعزم إنساني استثنائي لإنجاز حلمه الذي سرعان ما تهشم بعد موته إلى قطع متناثرة كما لو كان تحفة عظيمة رائعة مصنوعة من الموزاييك وصانعوها يقومون، عن عمد، على تحطيمها إلى قطع صغيرة متناثرة.

بعد وفاة الاسكندر عقد قادة جيشه مؤتمراً في بابل لتقرير ولاية العرش ونظم الحكم في الامبراطورية المقدونية، فبدات تظهر ملامح الطموح والأمال لكل واحد منهم، واحتدم النقاش وكاد السلاح أن يكون الحكم بين الفرسان والمشاة إلى أن تم الاتفاق على تعيين ابن فيليب الضعيف اراهيدايوس على العرش باسم فيليب الثالث، والاعتراف بحق جنين روكسانا زوجة الاسكندر الفارسية إن جاء ذكراً في مشاركة الملك الجديد بوصفهما شريكين تحت الوصاية. كذلك قرر المؤتمر تعيين برديكاس اقوى حواد الاسكندر نفوذاً قائداً عاماً للجيش ومديراً لشؤون الامبراطورية، وتعيين كراتروس وصياً على العرش وعلى جنين روكسانا ابن الاسكندر بعد ولادته. كما فصل المؤتمر في توزيع ولايات الامبراطورية على قادة الاسكندر الكبار ليحكموها بوصفهم ولاة معينون من قبل العرش المقدوني. ومن أجل نجدة أنتيباتروس في الحرب الهلينية أو اللامية لإخماد الثورة التي أعلنتها أثينة بعد موت الاسكندر طلباً للاستقلال، قام كراتروس بتقديم المساعدة. ولكن سرعان ما وقع الصدام بين كراتروس وأنتيباتروس. في الوقت الذي قام برديكاس باغتصاب الولاية على العرش.

هكذا بدأ الاضطراب في امبراطورية الاسكندر الأكبر وبدأت تفقد بريق مجد صاحبها نتيجة الصراع المسلح العنيف بين الطامعين من كبار أركانها، فاستقل سلوقس نيكاتور بعد استقالته من منصبه كقائد للفرسان مقابل تعيينه والياً على بابل، بحيث تمكن من توسيع ملكه بالاستقلال وتأسيس حكم الأسرة السلوقية سنة 312 ق.م. بينما استقل بطليموس بولاية مصر ويرة بداية من 323 ق.م.

كان بطليموس على علم تام بفنى مصر ومكانتها حين اتخذ قراره بمناصرة برديكاس في الصراع الدائر على اقتسام تركة الاسكندر مقابل تثبيتته على مصر.

ينتمي بطليموس بن لاغوس إلى أسرة من صغار أوأواسط النبلاء في مقدونية. وقد تعلم وترى في صباه بالقصر الملكي مع الاسكندر، وكانت أمه أرسينوا ابنة عم الاسكندر. وقد أصبح أحد أعضاء الحرس الخاص بالاسكندر ومستشاراً في هيئة أركان حربه أثناء الحمله على الشرق، فأخلص أشد الإخلاص في خدمة الاسكندر، كما أظهر تفوقاً حريياً في قيادة المعارك، وكان إلى جانب ذلك يتمتع بثقافة عالية ومعرفة بالتاريخ وذوق أدبي رفيع. وألف كتاباً عن سيرة الاسكندر أثناء الحمله، لكن للأسف لم يصل إلينا الكتاب بشكل كامل، وإنما وصلنا أجزاء منه عن طريق بعض المؤرخين، حيث كان من أهم من اعتمد عليه أريانوس في كتابه عن سيرة الاسكندر. ويتضح من أعماله أنه كان شخصية حازمة ذو عزيمة وإرادة قوية وقدرة عظيمة على الاحتمال والعمل بعيداً عن المبالغة والغرور، إذ كان يتصف بالواقعية السياسية، فركز جهوده منذ بداية ولايته على مصر لتأمين سلطانه في الحكم ولم ينخدع بالجري وراء الأحلام الإمبراطورية كما انخدع رفاهه من خلفاء الاسكندر. لذلك أخضع لسلطانه المناطق المجاورة على الحدود الغربية والشرقية لمصر تقادياً لغزوها عن طريق البر، كما حقق لنفسه مناطق نفوذ بحرية في جزر بحر إيجة. وكانت أول مخالفة قام بها هي استيلاؤه على التابوت الذي كان يضم جثمان الاسكندر أثناء نقله إلى مقدونية عن طريق سورية بناء على أوامر برديكاس، حيث أعاده إلى مصر ودفنه في منف وبنى له صرحاً عظيماً في الاسكندرية، وبقي جثمانه هناك إلى أن فقد بالعصر الروماني، ولم يعرف مكان مدفنه حتى هذا التاريخ.

قام بطليموس بضم برقة في 322 ق.م. ونتيجة لاستمرار الصراعات المسلحة بين المتنافسين على عرش اليونان وجد الفرصة سانحة للاستيلاء على سورية الجنوبية التي كانت تشمل فلسطين وجنوب سورية وفينيقية سنة 319 ق.م، إلا أن انتيغونس، أحد قادة الاسكندر الكبير، الذي جعل من أسية الصغرى مركزاً له استطاع طرد بطليموس وقواته من سورية سنة 316 ق.م. لكنه أعاد الكرة سنة 312 بالاستيلاء على فلسطين وفينيقية عن طريق غزة، غير أنه سرعان ما انسحب في عام 311 ق.م عائداً إلى مصر تحت ضغط القوات اليونانية.

إذن، انقسمت امبراطورية الاسكندر الأكبر آخر الأمر إلى ثلاث ممالك رئيسية مستقلة تحكمها الأسر الثلاث التالية: الأسرة البطلمية في مصر، والسلوقية في أسية

الصغرى وسورية، والأسرة الأنتيقونية في مقدونية. مع ذلك استمر النزاع على مناطق النفوذ بين هذه الممالك، وخصوصاً بين أبناء العمومة المقدونيين السلوقيين والبطالمة حيث دارت رحى خمسة حروب بين الطرفين معظمها كانت على مساح سورية الجنوبية، إلى أن جاء الاحتلال الروماني للشرق في القرن الأول قبل الميلاد ليضع نهاية لحكم هذه الأسر.

تركزت إقامة الجاليات اليونانية في مصر خلال حكم البطالمة في أربعة مدن رئيسية: الأولى في نقرامليس (رشيد الحالية) عند مصب النيل الغربي، والثانية في يشوي في الصعيد، والثالثة في بارياتونيم عند السطوم الحالية، والرابعة الأهم؛ وهي الاسكندرية. وقام في كل مدينة إغريقية من هذه المدن مجلس خاص لتسيير شؤون المدينة، إذ لم تكن الأعراق الأخرى غير الإغريقية تمثل في هذه المجالس. وكانت تلك الأعراق تتشكل من المصريين واليهود والعبيد. وقد كان الغزو الإغريقي لمصر احتلالاً واستقر استيطاناً شاملاً للأرض والحياة، وبذلك لم تكن مملكة البطالمة مصرية بل إغريقية أو بطلمية إغريقية، وملوكها كانوا ملوكاً أجانب من الإغريق أو اليونانيين أو البطالمة، وقد بقي المصريون طبقة غريبة ومهيضة الجناح في هذه المملكة. وقد ذكر بعض المؤرخين نفور المصريين من هؤلاء الدخلاء، وخاصة طبقة الكهنة التي كانت تعبر عن روح الوطنية المصرية حينذاك.

أصبح بطليموس الأول (سوتر: المنقذ) ملكاً وفرعوناً على مصر سنة 304 ق.م بحيث سَمَّى نفسه بالملك الإله ابن الإله. وهذه التسمية لم تكن غريبة على المصريين، إذ إن مفهوم السلطة والملكية في مصر القديمة كانت تعد وظيفة سياسية منصهرة بالقوتين الدينية والروحية ومطبوعة بطابع ديني متين صاغه قدماء الكهنة المصريون حيث كانوا يرون أن الآلهة هي التي غرست بذرة الأسر الملكية الحاكمة، وأن الملكية البشرية هي نوع من الإرث القانوني والشرعي الممنوح من الآلهة معتبرة أن الملك يمثل الإله على الأرض، ويألوقت نفسه لم تكن هذه الرؤية المركبة جديدة على النظام المقدوني، لذلك وجدت التسمية قبولاً عند بلالط بطليموس الأول وعند الشعب المصري. ومن هنا نشأت عبادة الملوك الرسمية في حكم الأسرة البطلمية.

اتبع بطليموس سياسة تشجيع هجرة الإغريق إلى مصر، فهاجر الجنود والكثير من أفراد الطبقات المتوسطة والفقيرة، كما حضر الكثير من أصحاب الموانئ في الفنون والآداب والعلوم من أمثال الفيلسوف والسياسي الأثيني ديمتريوس الفاليري الذي قام بتأسيس متحف الاسكندرية الشهير، وثيموتيس والشاعر كاليماخوس والجغرافيين إرانستيس. وقد شجعت هذه السياسة منذ البداية إشراك الجاليات اليونانية الجديدة على التطبيع مع المصريين والاندماج بهم مما سهل الأمر على الأسرة الحاكمة باستمرار حكم البلاد لفترة طويلة.

مات بطليموس الأول (سوتر) في 285 ق.م فخلفه على العرش ابنه فيلادلفوس الذي لم يكن رجل حكم على شاكلة والده. وهكذا استمر حكم العائلة الوريثي حتى بدأ الضعف

يدب في أوصال الدولة في نهاية العصر الذهبي للبطلمية (نهاية القرن الثالث قبل الميلاد)، مما شجع ملك سورية السلوقي^(١) للإتفاق مع ملك مقدونية على أن يوسع كل منهما ملكه على حساب الدولة البطلمية. وهكذا استمر الضعف في جسد الإدارة الحاكمة في مصر حيث بدأت فترة النزاعات

الأسرية (180-51) ق.م. ونتيجة لموت الملك أخذ تنازع الأبناء والأوصياء على العرش يزداد، فكثر المؤامرات وانقسم ولاء الجنود وعامة الشعب، فقامت الحروب الأهلية بين أذعياء العرش أكثر من مرة، فازداد ضعف الدولة على ضعفها، وصار التذمر الشعبي سائداً، فنشأ الكثير من حركات التمرد، وأصبح إصلاح الأمر بعيد المنال، وصارت الدولة نهبا للمطامع الخارجية التي كان أخطرها الطموحات الرومانية، خاصة وأن روما تمكنت من الانتصار على القرطاجيين وحسمت أمر قرطاج نهائياً في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. ويحدثنا سترابو بأن البطلمة الذين جاءوا بعد بطليموس الثالث كانوا ملوكاً عابثين أقسدهم الرذائل، وكان أسوأهم جميعاً بطليموس الثامن والثاني عشر. وقد أضاف الأخير إلى عبثه وفجوره ولعاً شديداً بلعب المزمار وأنه كان فقوراً بمواهبه الموسيقية إلى حد أنه كان لا يخجل من الاشتراك بالمسابقات الموسيقية التي يقيمها في قصره. ومن أجل ذلك اشتهر بلقب الزمار.

كافاً بطليموس العاشر (اسكندر الأول) روما على تأييدها له بتنازله عن مملكته لروما بعد وفاته، إلا أن روما لم تعمل بوصيته، ولم تحتل أو تضم مصر بعد وفاته، وأعدت إلى العرش بطليموس التاسع (سوتر الثاني)، فظهر التدخل الروماني في الفترة الأخيرة من حكم سوتر الثاني سافراً. فلما مات سوتر، الذي شارك الحكم مع والدته الملكة كليوبترا الثالثة بين 116-107 ق.م، وحكم كملك من 88 إلى 81 ق.م، اختارت روما للعرش بطليموس الحادي عشر (اسكندر الثاني). وارغم الدكتاتور الروماني سولا بطليموس الحادي عشر على الزواج بزوجة أبيه وابنة عمه كليوبترا الرابعة بيرنيس، لكنه لم يطلقها إلا أياماً، وقام بقتلها. فهب إغريق الاسكندرية وقتلوا الملك وولوا بدلاً عنه سنة 80 ق.م بطليموس الثاني عشر. ويموت بطليموس التاسع بدأت المرحلة الأخيرة من تاريخ البطلمة، التي أصبحت فيها مصر في عيون السياسات الأساسية لأطماع روما، وصار التدخل الروماني السياسي والعسكري صريحاً ومافراً في الشؤون المصرية (انظر لائحة السلالة البطلمية، الصفحة 41).

أصبح بطليموس الثاني عشر أحد أبناء سوتر الثاني غير الشرعي ملكاً على مصر، واشتهر بلقب الزمار، لكن لقبه الرسمي كان ديونيسيوس الصغير (حكم من 80-58، ومن 55-51) ق.م، فتزوج من كليوبترا السادسة التي ربما كانت أخته. لكن روما لم تعترف

(١) - توالى الحروب العسكرية بين ملوك سورية الساروقيين وملوك مصر البطلمية على مدى فترة حكمهم حتى بلغت أكثر من خمسة حروب عسكرية دامية تخللها فترات من الاتفاق والمصالحة والمصاهرة والتحالف في بعض الأحيان، لكن سرعان ما كانت تنقضي بالعودة إلى الصراع العسكري المصلح بين الطرفين.

بالزمار ملكاً بحجة الادعاء بوصية بطليموس الحادي عشر (اسكندر الثاني) الذي حكم سنة 80 ق.م، والتي تقول بأن مصر ستؤول بعد موته إلى الشعب الروماني. ولم يجد الملك المصري الضعيف والفارق في ملذاته سوى الخضوع لرغبة روما وسياساتها لشراء اعترافها بملكه على مصر.

في نهاية عقدي الستينات وبداية الخمسينات من القرن الأول قبل الميلاد كان الصراع السياسي والشعبي على أشده في روما، حيث كان يوليوس قيصر زعيماً للحزب الشعبي وقبضاً في روما، وكانت مسألة ضم مصر إلى روما من ضمن برنامجه السياسي. فنتفى بطليموس الثاني عشر الذي رأى في قيصر وبومبيوس قوة سياسية صاعدة، إلى تبنيهما عن برنامجهما لضم مصر مقابل ستة آلاف تالنتوم، والذي عد مبلغاً هائلاً في قيمة ذلك العصر، إضافة إلى تنازله عن قبرص، وبيرينقة على الساحل الليبي، فأعلن قيصر وبومبيوس اعتراف روما ببطليموس هذا ملكاً على مصر، وأعلنوه حليفاً وصديقاً لروما. وأعلنت روما ضم قبرص رسمياً إليها سنة 58 ق.م دون اعتراض من بطليموس، فثار شعب الاسكندرية ضد ملكه أمام هذا الخنوع المشين، فهرب الملك مع ابنته كليوبترا (السابعة) إلى روما وبقي هناك حتى سنة 55 ق.م. وقد ذهب وفد من أغريق الاسكندرية إلى روما مؤلف من مائة عضو محاولاً أن يوضح للرومان فساد الزمان، إلا أن رشاي الزمار أفلحت في النهاية بتسيير حملة رومانية لإعادته إلى عرش مصر.

حكمت كليوبترا الخامسة بمشاركتها لكليوبترا السادسة إيفانا. (58-55) ق.م لمدة عام تقريباً، ماتت بعدها بظروف غامضة، حيث أشارت بعض المصادر التاريخية إلى أن كليوبترا السادسة ربما قامت بتسميمها لتتفرد بالحكم. وبفض النظر عن تحري أسباب الوفاة، فقد أكملت إيفانا حكمها حتى عودة بطليموس الثاني عشر عام 55 ق.م حين قررت روما إعادته إلى العرش في مصر تحت حماية جيش روماني يقوده جابينوس حاكم سورية الروماني مقابل مبلغ عشرة آلاف تالنتوم تكاليف الحملة، وفي هذا الجيش ظهر ماركوس أنطونيوس (مارك أنطوني) لأول مرة على أرض مصر حيث كان قائداً لفرسان هذا الجيش الذي قضى على جميع ادعاء العرش وثبت وحمى بطليموس الزمار على العرش. فتم وضع إيفانا في السجن ثم أعدمتم بعد فترة وجيزة وأرسل رأسها إلى البلاط الملكي بناء على أوامر الملك. وأثناء إقامة القائد الروماني الشاب في قصر الملك بالاسكندرية رأى كليوبترا كبرى بنات الزمار ذات الأربعة عشر ربيعاً والجمال الفتان الآتي، والتي ستصبح عما قريب ملكة مصر الشهيرة التي شاركت والدها الحكم حتى وفاته. ويقال أنها أثارت عواطف أنطونيوس حينها.

لم تعرف من كانت والدة كليوبترا على وجه الدقة، ويعتقد بشكل عام أنها على الغالب كانت كليوبترا الخامسة تريفانية Tryphania المصرية؛ أخت أو ابنة عم بطليموس الزمار وزوجته، وربما كانت ابنة بطليموس العاشر من زوجته كليوبترا (برتيقية) الثالثة، والتي كان والدها من سلالة أحد مساعدي الاسكندر الكبير؛ بطليموس الأول لوالديه أرسينوا

ولاغوس المقدونيين. ويأتي المؤرخ الألماني B.Werner برأي آخر في كتابه "نسب كليوباترا فيليبواتور/ Die Herkunft der Kleopatra Philopator, P 191-203: "طلت والدة كليوباترا غير معروفة على وجه التحديد، إلا أنه يعتقد على وجه العموم أنها كانت من عائلة مصرية معروفة، تزوجها بطليموس الثاني عشر بعد طلاقه من زوجته الأولى كليوباترا الخامسة. وأنجب منها كليوباترا وشقيقتها أرسينوى وأخوها بطليموس الثالث عشر وبطليموس الرابع عشر.

لم يختلط الملوك البطالمة بالمصريين، بل قصرُوا مصاهراتهم على أبناء عموماتهم من سلوقي سوريا. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا والد كليوباترا السابعة بطليموس الثاني عشر، الذي كان- كما يعتقد- نتاج علاقة غير شرعية بين أبيه بطليموس التاسع، والذي لقب بلاثيوس (حية البازلاء) وإحدى جاريات قصره. وتزوج والد كليوباترا من أخته كليوباترا الخامسة تريفانية (على عادة المصريين القدماء)، وارتقا العرش معاً سنة 80 ق.م. وأطلق عليه إغريق الاسكندرية اسم (ناتوس أي ابن الحرام، وأوليئس أي لاعب الأوبو أو الزمار). وقد أنجبت كليوباترا الخامسة من زوجها الزمار ابنتها الكبرى وسمتها كليوباترا السادسة، ثم بيرنيس الرابعة، ثم كليوباترا السابعة، اختفت بعدها الأم من الحياة العامة ولم يعد يسمع عنها شيئاً، كما لم يعرف عمن تلاها من زوجات أو خيلات كان اختارهن الزمار لانجاب ابنته أرسينوى سنة 65 ق.م وولديه بطليموس الثالث عشر سنة 61 ق.م وبطليموس الرابع عشر سنة 59 ق.م. وقد أكد المؤرخ اليوناني سترابو أن الابنة الشرعية الوحيدة للزمار من أخته وزوجته كليوباترا الخامسة تريفانية هي ابنته كليوباترا السابعة. فإن كان ما جاء به سترابو صحيحاً يكون بقية أبنائه الخمسة قد ولدوا من زوجاته أو خيلاته التاليات.

أخيراً ودع بطليموس الزمار الدنيا في آذار سنة 51 ق.م، فخلّفه على عرش مصر، بناء على وصيته، ابنته كليوباترا السابعة الأكبر من البنات الباقيات (لقبت تبرا نيوتيرا)، ذات الثمانية عشر ربيعاً بالمشاركة مع أخيها بطليموس الثالث عشر الذي كان له من العمر اثني عشر عاماً. وقد تضمنت وصية الملك الآب أن ترعى روما تنفيذ وصيته على ما أوصى به. فأصبحت كليوباترا وأخوها شريكين في عرش مصر البطلمي تحت إشراف وتوجيه رجال ويطانة القصر (عصبة الأوصياء) الذين تصرفوا في شؤون الدولة كما أرادوا بحجة أن الورثيين مازالوا تحت سن الرشد وقلة الخبرة في إدارة شؤون الدولة.

شهدت كليوباترا منذ طفولتها محاولات روما الساهرة والمتزايدة للتدخل في شؤون الحكم في مصر وإخضاعها لسياسة وهادة روما. فشهدت الفياق الرومانية بقيادة القائد الروماني الشهير يومبيوس في حملته على الشرق وهي تقضي على مملكة السلوقيين في سورية سنة 64 ق.م، وتنتهي الدولة اليهودية في فلسطين. فاستوعبت مبكراً حقيقة اعتماد الحكم البطلمي بشكل يكاد يكون كاملاً على الرومان. وعلى رأي غالبية المؤرخين فقد فاهت كليوباترا في المداينة والخداع والعناد والقسوة في سبيل تحقيق أغراضها أساليب

والدها . لكنها كانت أوسع إدراكاً لإقامة تحالف ثابت الأركان بينها وبين الرومان من أجل تحقيق حلمها في إقامة امبراطورية واسعة تعادل بل تفوق امبراطورية الاسكندر الأكبر.

كانت الاسكندرية عند ارتقاء كليوباترا العرش أعظم وأجمل مدينة في حوض المتوسط. حيث كان فيها مدرسة فلسفية وتاريخية هامة تزعمها الفيلسوف فيلوستراتوس والمؤرخ نيقولا الدمشقي. وكان فيها مدرسة طبية متقدمة تميزت في دراساتها وخبراتها بعلم السموم، وشهد لها جالينوس أعظم الأطباء الإغريق، وفيها صناعات الروائح والدهانات والأصباغ والورق والزجاج والفزل والنسيج.. وقد نظمت شوارعها ومبانيها ومعابدها وفتارها ومتحفها ومكتبتها وضريح الاسكندر على الطراز الإغريقي. وكانت مصر أكبر مزرعة للقمح في العالم القديم، وكان ملوك البطالمة يمتلكون جميع الأراضي الزراعية ما عدا المعابد، ويحتكرون أهم الصناعات. فقاموا بتطوير أنظمة حكم الفراعة حيث أخذوا منهم أفضل بيروقراطية حكومية في العالم القديم. وكان يتولى الحكم في أنحاء مصر ثلاثة حكام: واحد في الصعيد، وآخر وسط مصر والقيوم، والثالث في الدلتا. وكان يعاون كل واحد منهم موظفون وخبراء في الري والشرطة.

وهكذا جرت السنوات الثلاثة الأولى من الحكم صعبة نتيجة المصاعب الاقتصادية التي واجهت البلاد، حيث تعرضت مصر نتيجة الجفاف لنقص في المأوى والطعام فعمت المجاعة، واشتد الصراع السياسي بين كليوباترا وعصبة الأوصياء الذين كانوا يتصرفون في أمور الدولة على هواهم. إلا أن الملكة كانت تزداد معرفة وخبرة ونضجاً في سياسة الحكم، فرات أن الاستمرار على هذا الحال يريك سياسة تسيير أمور الدولة ويعرضها لخطر طموحات رجال القصر، فقررت استخدام ذكائها وشخصيتها الطموحة في أن تجمع إدارة الحكم والسياسة بيدها. لكن رجال القصر لم يقفوا مكتوفي الأيدي بل استبقوها بإشاعة سعيها لقتل أخيها والإنفراد بالعرش مخالفة لوصية والدها. بذلك أصبح الصراع مكشوفاً بينها وبين هؤلاء المنتفذين الذين اتخذوا جانب أخيها لمعرفتهم بالقدرة على تسييره بسهولة على عكس الملكة التي بدأت تشعر بقدرتها على إدارة الأمور، وبذلك شعرت عصبة القصر بتهديد مراكزها، فاستغلت سوء الأحوال الاقتصادية التي واجهت البلاد حينها في حشد الجيش والشعب وراءها. وهكذا بدأ الخلاف يظهر بين الأخ وأخته رغم زواجهما المعلن. لذا قررت كليوباترا عدم الانتظار واستباق الأمور فأعلنت أنها صاحبة القرار النهائي بإدارة دفة البلاد.

تطورت الخلافات بين الطرفين إلى صراع مكشوف اضطر كليوباترا إلى إلغاء اسم بطليموس الثالث عشر من جميع الأوراق والمعاملات الرسمية وأبقت على صورتها فقط على القطع النقدية، إذ عني هذا انفادها بالحكم مما يمثل تهديداً مباشراً لتنفيذ القصر من عصبة الأوصياء الذين نجحوا بإثارة الجيش وشعب الاسكندرية بالانقضاة ضد الملكة كليوباترا ما اضطرها إلى الفرار من الاسكندرية نحو الأطراف الشرقية الشمالية للبلاد. وهكذا انتهى الحكم الاتفرادي للملكة كليوباترا بنجاح حفنة من رجال الحاشية الملكية بزعامة إنوك يوتيتيوس Eumuch Pothinius بإزاحة كليوباترا وتثبيت

أخيها بطليموس الثالث عشر حاكماً وحيداً على مصر في نهاية عام 49 ق.م. فهيرث كليونترا إلى شرق البلاد (جنوب سورية)، وتمكنت هناك من أن تجمع لنفسها جيشاً لاسترداد عرشها في الاسكندرية. فصارَت الحاشية باسم أخيها الملك بطليموس الثالث عشر لملاقاتها وسد الطريق عليها عند بلوزيوم Pelusium قريباً من بور سعيد الحالية. في هذه الأثناء كانت تدور على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض معركة هائلة في فارسالنوس انتصر فيها قيصر على بومبيوس، ففر الأخير هارباً إلى مصر آملاً أن يجد فيها ملجأً وعناً، خاصة أنه كان من أصحاب الفضل في إعادة بطليموس الثاني عشر مع كليونترا إلى عرش مصر. فنزل بالقرب من معسكر الملك في بلوزيوم، حيث تم اغتياله أثناء نزوله إلى الشاطئ لإدراك الأوصياء أن الأمور قد تحولت إلى قيصر، ومن الحكمة الوقوف إلى جانبه ضد عدوه الخاسر.

لمحة سريعة عن روما عند مجئ يوليوس قيصر

كان شمال ووسط شبه الجزيرة الإيطالية خاضعاً لسيطرة الأتروسكيين⁽¹⁾، في حين كان جنوبها وما يحيط به من جزر البحر الأبيض المتوسط يقع تحت نفوذ وسيطرة الإغريق والقرطاجيين.

بدأت روما في الأساس كقرية صغيرة تقع على تلة من التلال المحيطة على ضفة نهر التيبر، وذلك قبل منتصف القرن الثامن ق.م. وكان السكان يعيشون في مساكن بدائية، وكان عليهم من أجل بقائهم واستقرارهم أن يقاتلوا جيرانهم المولعين بالحروب والقتال. وتدرجياً تحجوا في التغلب على من كان حولهم، فاستطاعوا توسيع دائرة أراضيهم، وأسسوا مملكة روما سنة 753 ق.م⁽²⁾، فحكم ملوكهم المناطق المحيطة بروما خلال المائتين والخمسين سنة الأولى من تاريخ التأسيس حتى بداية القرن الخامس قبل الميلاد. لكن

(1) - كتب د. محمد محفل في كتابه تاريخ الرومان، ص 110، ما يلي: (بدأ الأتروسكيون. يلعبون دوراً حاسماً في تاريخ شبه الجزيرة الإيطالية اعتباراً من القرن السابع قبل الميلاد، وصمدت تأثيرهم خلال قرون عديدة وحتى نهاية العصر الجمهوري. وإذا كانت سيطرتهم السياسية قد انحسرت تدريجياً اعتباراً من القرن الخامس قبل الميلاد أمام المنافسة الإغريقية خاصة والقرطاجية أحياناً، لظلوا فيما بعد تحت ضربات الفايق الرومانية، فإن تأثيرهم الحضاري في إيطاليا الرومانية لم يندثر كلياً بعد سقوط المدن الأتروسكية الواحدة تلو الأخرى بيد روما، سيدة إيطاليا الجديدة). وأصل الأتروسكيين كما ذكر محفل في الصفحة 113 من الكتاب نفسه: (أجمع القدماء على رأي شبه موحد معتمدين على رواية المؤرخ اليوناني هيرودوت، والتي مفادها أن الأتروسكيين هاجروا من أسية الصغرى إلى الغرب حتى استقروا في إيطاليا.. ونظريتي ديونيسيوس الهاليكارناسي دافقت عن منبتهم لمحتل توسكلنة).

ويرى كثير من دارسي التاريخ القديم أن شعوب إيطاليا واليونان القديمة هي أصل امتزاج من شعوب البحر الأبيض المتوسط، شرقه وجنوبه وشماله، بحركتها الدائمة بالترحال والانتقال والاستقرار، ولأبواب متعددة كثيرة. فقد مرت الحضارتان اليونانية والرومانية بكل ما اكتسبناه وأنجزناه بنور متمدن لا يمكن إنكاره، وأن وراء الغرب الظاهر شرق خفي جلى من الأزمنة والعصور. وفكرة الفلسفة اليونانية عند فيتشه كما جاء في كتابه "إرادة القوة"، ص 151، هي: "أنها أول تركيبة كبرى لكل ما هو شرقي".

(2) - يشك بعض المؤرخين بأن تأسس روما كان في عام 753 ق.م. ويقولون أنه كان في الحقيقة بعد مائة عام أو أكثر كلاً من هذا التاريخ؟

هذه المملكة وصلت إلى نهاية عهدها بإعلان الجمهورية بعد عام 500 ق.م، حيث تسارع سلفانها بتوسيع دائرة الأراضي الرومانية. وما أن حل عام 250 ق.م إلا وكانت جميع أراضي إيطالية تحت حكم الجمهورية الرومانية. واتسمت هذه الفترة بأن كان بناء الدولة يتحول بالشجاعة والإقدام والقدرة العالية على الاحتمال والإخلاص والتضحية والنفاء بالغالي والنميس من أجل بناء الدولة التي كانوا يطمحون إليها. إلى ذلك كانت أسماء الأبطال الرومان القدماء نبراساً ومثالاً عظيماً لكل الأجيال اللاحقة.

وقد قسم المؤرخون تاريخ روما القديم إلى ثلاثة عصور تقليدية:

- 1- العصر الملكي: من تأسيس روما سنة 753 ق.م إلى 509 ق.م (250 عاماً).
 - 2- العصر الجمهوري: بدأ بثورة وطنية (509 ق.م - 27 ق.م = 500 عام).
 - 3- العصر الإمبراطوري: حيث بدأ بـ 27 ق.م وحتى تاريخ سقوط روما سنة 467 م (500 عاماً)، وذلك بعد تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية (الإمبراطورية البيزنطية) عاصمتها القسطنطينية، وإلى غربية في روما.
- استمرت الإمبراطورية الرومانية بعاصمتها الجديدة: القسطنطينية التي أعاد بناءها الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير بين الأعوام 324-330، والتي كانت أساساً مدينة إغريقية قديمة أنشأت في القرن السابع قبل الميلاد على نهاية الطرف الجنوبي من مضيق اليوسفور، وكان اسمها بيزنطة (استنبول حالياً)، حيث اتخذ منها فيما بعد اسماً للإمبراطورية الجديدة. وقد بدأت الإمبراطورية البيزنطية بالتقلص والانكماش مع قيام الدولة العربية الإسلامية، حتى سقطت نهائياً سنة 1453م على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

ثم تبقّى الإمبراطورية الرومانية في الغرب، والتي بقيت عاصمتها روما، محافظة على النظام الأوغسطس⁽¹⁾ (الإمبراطوري) طيلة تاريخها القديم، بحيث طرأت عليه تعديلات جوهرية في التنظيم والدين غيرت من شخصيتها تغييراً بعيداً. لذلك اتفق المؤرخون على تقسيم هذه الفترة إلى مرحلتين متميزتين:

- 1- المرحلة الأولى: ابتدأت من 27 ق.م وانتهت في بداية فترة ديوقليانوس الذي يعتبر المؤسس للمرحلة الإمبراطورية الثانية (284-305) م.
- 2- المرحلة الثانية (284-410) م: أسس ديوقليانوس لهذه المرحلة، بإعادة تنظيم الإمبراطورية. غير أنّ بعض المؤرخين يؤثرون اعتبار فترة حكم قسطنطين الكبير (305-

(1)- بعد اغتيال يوليوس قيصر سنة 44 ق.م تشكل الائتلاف الثلاثي من ماركوس أنطونيوس وأوكتافيوس ابن القيصر بالثني ولبيدوس للانتقام من قتل القيصر، ولمنعهم من إعادة النظم الجمهورية الديمقراطية للشعب الروماني دون غير الرومان. انتصر هذا التحالف الثلاثي، واستطاع أوكتافيوس بعد حسم خلافه مع ماركوس أنطونيوس أن يؤسس لإعلان الإمبراطورية الرومانية سنة 27 ق.م، وأعلن نفسه إمبراطوراً على روما. وبذلك أصبح أول إمبراطور روماني، ومنح لقب أوغسطس، الذي يعني المقدس أو المبهل. بذلك أطلقت التسمية على النظام نسبة إلى "الأوغسطس الأول" "أوكتافيوس".

337) م تأسيساً للمرحلة الثانية: والذي اعتنق المسيحية⁽¹⁾ التي أعلنت فيما بعد ديناً رسمياً للدولة في نهاية القرن الرابع.

لكن وقبل العودة للاستطراد في موضوعنا الأساسي، يقتضي الأمر أن نخرج مرة أخرى وبسرعة على تاريخ الاحتلال اليوناني لمنطقة المشرق سنة 332 ق.م، الذي تم على يد الاسكندر المقدوني (356-323) ق.م، والذي كان ملكاً على مقدونية، وذلك بعد أن خلف والده الملك فيليب الثاني سنة 336 ق.م. والذي عرف بالاسكندر الكبير، أو الاسكندر المقدوني. وقد فتح في حملته على الشرق فارس، مصر، سورية، ما بين النهرين (ميزوبوتامية)، باكترية (شمال أفغانستان)، وبلاد البنجاب، واهتم الفاتح الجديد بمصر اهتماماً خاصاً فأقام فيها وبنى مدينة الاسكندرية على ساحلها الشمالي، وجعل منها مركزاً ما لبث أن أصبح من أهم منارات الحضارة والثقافة الهلنستية في محيط البحر المتوسط وفي عموم الشرق القديم وآسية الصغرى. فازدهرت الثقافة اليونانية ازدهاراً عظيماً في هذه الفترة التي دامت حتى هزيمة كليوبترا سنة 30 ق.م على يد القائد الروماني أكتافينوس وريث يوليوس قيصر (سيزر).

مات الاسكندر بعد أن أسس ملكاً واسعاً وعظيماً، مات كما يموت الغالبية من العظماء، فيخلفون، غالباً، وراءهم قيادات ليست على مستوى القائد المؤسس، إذ لم يكن بينهم من يدانيه، من بعيد أو قريب، في نبوغه الحربي والثقافي، أو رؤيته للعالم الواحد. فسرعان ما بدأت الخلافات التي لن تحلها إلا المؤامرات والحروب والافتتال للإمساك والتحكم أو اقتسالم الإرث الذي تركه القائد وزعماء. فاستقل سلوقس نيكاتور أحد ضباط الاسكندر الكبار، بعد أن تم تعيينه حاكماً على سورية، وأسس حكم الأسرة السلوقية على سورية والجزء الأعظم من آسية الغربية وأصبحت أنطاكية عاصمتها، وذلك اعتباراً من 312 ق.م حتى 64 ق.م تاريخ الاحتلال الروماني للمشرق بقيادة القائد العسكري الروماني بومبيوس الكبير. بينما استقل بولاية مصر الجنرال المقدوني بطليموس، الذي كان من أخلص أصدقاء الاسكندر ومساعديه، وذلك بعد موت سيده. إذ أعلن نفسه ملكاً على مصر سنة 304 ق.م، وبذلك أسس حكم الأسرة البطلمية نسبة له، والتي امتد حكمها حتى الاحتلال الروماني وهزيمة كليوبترا سنة 30 ق.م.

سادت الثقافة الإغريقية منطقة المشرق وأسست مراكز ومنازل إشعاع حضاري امتدت لقرون لاحقة بعد الاحتلال الروماني. فكانت الثقافة الرومانية التالية بشكل أو بآخر لاحقة لما أسسه الإغريق، حيث تأثر المشرق بمعظم مناطقه وبلدانه فدخل في بوتقة الثقافة اليونانية من آداب وفنون وفلسفة وعلوم...الخ.

قامت الجمهورية الرومانية سنة 509 ق.م على أنقاض النظام الملكي الذي استمر لمائتين وخمسين عاماً. واستمرت عاصمتها روما التي كانت أساساً واحدة من عديد من

(1) قيل بأنه قيل العماد المسيحي الكثني وهو على فراش الموت، ولكنه لم يعتنق المسيحية في حياته - المحقق.

المدن الرومانية الشبيهة لها في إقليم اللاتيوم. ومع تطور المدينة ونموها بدأ الصراع على النفوذ والثروة بين طبقة الأشراف والعامّة، واستمر الصراع لمدة قرنين تقريباً (494-284 ق.م، وأنتج أول دستور ديمقراطي في نهاية فترة الصراع هذه، بحيث أصبح لكل طرف قنصلًا يمثلّه. لكن على صعيد الممارسة والواقع سارت الأمور بخلاف ذلك، إذ كانت جميع مناصب الحكم وعضوية الشيوخ وقيادة الجيوش قاصرة على طبقة الأشراف، بحيث كانت جميع هذه المناصب شرفية دون أجر، إذ لم يكن هناك جيش نظامي، وإنما جميع المواطنين من الذكور البالغين مطالبون بالخدمة العسكرية وقت الحرب، وكان على كل واحد منهم تسليح نفسه، حيث كانت الطبقات الثرية أكثر قدرة على أن يتجنّدوا كفرسان مقاتلين.

استطاعت روما توحيد جميع إيطالية تحت سيادتها بعد معركة "تارنتوم" سنة 265 ق.م، بدءاً من نهر الروبيكون في الشمال حتى أقصى شبه الجزيرة جنوباً. ودخلت بعد ذلك، في سلسلة من الحروب العالمية وراء حدودها (الحروب البونية)⁽¹⁾، والتي انتهت باستيلاء روما على جزيرة صقلية وإسبانية وشمال أفريقية ومقدونية، ومن ثم بقية المدن اليونانية حتى شمل نفوذها آسية الصغرى سنة 132 ق.م. وقد استمر الصراع السياسي بأشكال متعددة بين طبقة الأشراف والعامّة إلى أن ظهر على مسرح الحياة السياسية الرومانية شخصيتان خطيرتان هما يوليوس قيصر وبومبيوس الكبير، وهما المنحدران من أعرق الأسر الرومانية، وهما من سيتقرر على أيديهما مصير الجمهورية الرومانية النهائي.

ولد يوليوس قيصر⁽²⁾ في عام 102 ق.م نيبلاً بالمولد والطبع وحيداً لأبويه. فقد زعم في إحدى خطبه السياسية أن عائلته تنحدر مباشرة من فينوس ربة الجمال والحب والتناسل عند الرومان وهي أم إينياس (آينيس)؛ البطل الطروادي الذي هرب من طروادة بعد أن فتحها وخربها المكينيون، وهو مؤسس السلالة التي أنشأت وحكمت روما. ويقال أن اسم العائلة "قيصر" Caesar" لقب اكتسبه أحد أجداده بعد أن قتل فيلاً في الجيش الفرطاجي، أي أنه اسم مأخوذ من اللفظ الدال على "فيل" في اللغة الفينيقية بقرطاجة. ويفضل ما حقق من انتصارات وأمجاد عسكرية وسياسية، وما تركه من أثر مسيطر في عالم الفن والخيال، الأدب والمسرح، الموسيقى والشعر، والرسم والنحت، اكتسبت شخصيته التاريخية مسحة أسطورية منذ عصره حتى يومنا هذا. ولعل من ضمن أسباب خلود هذه الشخصية تعدد جوانبها؛ فصاحبها رقيق الحس، لطيف المعشر، يتمتع بحس

(1) - أصل كلمة البونية Punic من اللاتينية Punicus من Puni أو Pzni، والتي تعني القرطاجيون، وأصل القرطاجيون فينيقيون كنعانيون من الساحل السوري هاجروا إلى شمال أفريقية وأسسوا ممالك هناك... انظر الحروب البونية في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(2) - (1984، Lon. Hamish Hamilton, Julius Caesar; The Pursuit of power, Emile Bradford, وصف سويتونيوس 45 (Suetonius, life of Caesar)) قيصر في مطلع شبابه بأنه كان ذو بشرة صفراء، طويلًا جميل القسماط والمجهاً وجذع متماق ووجه وسيم أقرب إلى الطول، وعيون سوداء حادة البؤبؤ.

الفنان وقلب العاشق الوهّان^(١). فقد كان شغوفاً بجمع واقتناء الأحجار الكريمة والأعمال الفنية مثل التماثيل واللوحات، كما كان خبيراً في اللؤلؤ، وكان شديد الشغف بحب النساء الجميلات، وحسب رواية سويتونيوس فإن قائمة عشيقاته قيصر كانت تضم الكثير من زوجات أصدقائه الذين كان بحاجة إلى مساعدتهم. إلى جانب هذه الصفات، كان قائداً عسكرياً طموحاً وصارماً يخوض غمار الحروب جنياً إلى جنب مع جنوده، حيث لم يكن يعبأ بالمخاطر والصعاب^(٢). وكان صاحب عبقرية سياسية وعقل قادر على إجادة التخطيط والتنفيذ. كما كان مؤلفاً له أسلوب متميز ساحر في أشعاره أو كتاباته التاريخية أو خطبه الفصيحة^(٣)، إلى حد منافسة لخطيب روما المفوه في تلك الأيام 'ماركوس شيشرون'، حيث كانا على طرفتي نقض سياسي، إذ كان شيشرون يتبنى قضية الحزب الأرستقراطي Optimates، حزب السناتوس، في الوقت الذي كان فيه قيصر يتبنى قضايا الحزب الشعبي Populares وكان يقوم بوظيفة البريتور (القاضي: الحاكم) سنة 66 ق.م. ورغم الاختلاف بين الإثنين لم ينس شيشرون أن يشيد بأسلوب قيصر الخطابي (Cicero, Brutus, 252).

استولى حزب الأرستقراطيين (السناتو) بزعامة سولا (83-78) ق.م على السلطة فانتخب دكتاتوراً، فتغيرت الأحوال، إذ أصبح قيصر في الجانب الضعيف، فاضطر للهرب، ولم يتجو إلا بعد رشوة كبيرة ومساعدة بعض النبلاء الذين توسطوا له عند سولا للغفو عنه. وقد قال سولا لمن توسط له، حسب رواية ديو كاسيوس: "أحذروا هذا الشاب الذي لا يتنطق بحزاهم جيداً ويتركه مرتخياً، ويرتدي مثل النساء أكماماً مطرزة من المعصم". كما يروي عن سويتونيوس أن سولا رد على الذين طلبوا الصفع لقيصر بقوله: ".. احتفظوا به كما أردتم، ولكن بودي أن تعرفوا أن هذا الشاب المهم بالنسبة لكم الآن سوف يطيح يوماً بحزينا الذي خضتم أنتم بجانبي حرباً دامية دفاعاً عن مبادئه، ففي هذا الشاب العديد من الماريوسيين"^(٤). فلما مات سولا سنة 78 ق.م عاد قيصر إلى روما وبدأ في ممارسة مهنة المحاماة. وكان أول انخراط له في الجيش الروماني على جبهة آسية حيث منح إكليل المدينة على أدائه القتالي.

(١) - تزوج قيصر مرات ثلاث: الأولى كانت من كورنيلية بكتير من صمنه بوليا، حيث كان زوجاً سياسياً. إلا أن قيصر أصبح معجباً بكورنيلية خاصة بعد أن أنجبت له ابنته بوليا. ولثانية كانت من بومبيا، وبتمت الثالثة في عام 47 ق.م من ابنة بيسو من كالبرينا، وهو العام الذي تزوج فيه بومبي من بوليا ابنة قيصر، التي كانت قد بلغت السابعة عشر للتر.

(٢) - يذكر المؤرخ سويتونيوس قللاً: عندما كان قيصر في قلادش رأى تمثال الاسكندر الأكبر في مجد هرقل، فزفر زفرة طويلة ربما كانت تلمييحاً بنوع من الصراحة لأنه قد بلغ السن التي هزم بها الاسكندر العالم القديم، وهو لم يحقق شيئاً من طموحاته بعد (Suetonius, De Vita Caesarum Iulii 35,52).

(٣) - في مطلع شبابه، نظم قصيدة في منيح هرقل، وألف مأساة عن أوديب، كما كتب سبعة أجزاء عن الحرب الغالية ولشرها سنة 51 ق.م.

(٤) - كان غايوس ماريوس عم يوليوس قيصر سياسياً وعسكرياً مهماً وزعيماً لحزب الشعبي للروماني. وقد نشبت حرب أهلية في روما بين أتباع الحزب الشعبي بقيادة ماريوس والحزب الأرستقراطي بقيادة سولا.

وقف السناتوس (حزب الأرستقراطيين) ضد ترشيح قيصر لمنصب القنصلية في عام 60 ق.م، كما رفضوا ترشيح بومبيوس في وقت سابق لقيادة أسطول روماني كبير للقضاء على القراصنة في شرق البحر الأبيض خوفاً من طغيانه على الرغم من أنه كان زعيم حزب السناتوس وأحد كبار قيادة سولا. أدرك قيصر بحسه السياسي الفرصة السانحة بسرعة فاتصل ببومبيوس للعمل سوياً، فتشكل سنة 60 ق.م الائتلاف الثلاثي الأول First Triumvirate الذي ضم قيصر وبومبيوس، وكراسوس ذي الثراء العريق، ضد حزب السناتوس. وكان قيصر قد عمل كمستشار لكراسوس، فأغوى زوجة تيرتولا سيثة السمعة بأن تصبح عشيقته. وتم ترشيحه للقنصلية في 59 ق.م، أي بعد تشكيل الائتلاف الثلاثي الذي شكل أول وأهم ضربة معول بمغيب شمس الجمهورية الرومانية. ويبدو أن انتصارات قيصر وتكتيكاته العسكرية في معاركه وسيطرته على بلاد الغال حتى نهر الراين، والتي استمرت لثماني سنوات، وعبوره لنهر الراين بفياقه وفرسانه فوق جسر بناء في أقل من عشرة أيام يطارد القبائل الجرمانية، إضافة إلى اقتسامه السيادة مع شريكه في الائتلاف الثلاثي الأول في مؤتمر لوكا سنة 55 ق.م، وعبوره بأسطوله إلى الشاطئ البريطاني. كل ذلك جعل من قيصر أسطورة تحاكي أسطورة الاسكندر الأكبر. بيد أن هذا الائتلاف انتهى بمصرع كراسوس سنة 53 ق.م إثر هزيمته في معركة كارهي (حران) التي كان يخوضها ضد البريثيين الفرس في ذلك التاريخ. فعجل موت كراسوس المنافسة بين بومبيوس وقيصر، خاصة أن ابنة قيصر يوليا زوجة بومبيوس ماتت وجنينها في الأم المخاض. فتزوج بومبيوس سنة 52 من ابنة أحد كبار الحزب الأرستقراطي الذي كان من أكثرهم مغالة في عداة قيصر. فأنحاز بومبيوس إلى جانب حزب الأرستقراطيين الذي كان زعيماً له في الأساس، وذلك أصبح أصدقاء الأمس أعداء اليوم، حيث تواجهها عسكرياً في تسالية عند فارسالوس صيف 48 ق.م، وذلك بعد فشل محاولات قيصر المتعددة لانتزاع بومبيوس من تحالفه الجديد مع الأرستقراطيين، فانتصر القيصر بانضمام أنطونيوس له، رغم أن قواته كانت نصف قوات بومبيوس، ففر الأخير إلى مصر وقتل هناك.

انتخب قيصر دكتاتوراً في خريف سنة 47 ق.م، فأصبح سيداً للدولة الرومانية بأسرها دون منازع بعد أن قضى على جميع معارضيه السياسيين. ومع كل ما تحقق لقيصر، ظل عدد من الأشراف والسناتوس ينقمون عليه ويتوقون إلى استعادة سلطاتهم القديمة، خاصة وأن سياسة قيصر اتخذت طابعاً دكتاتورياً مطلقاً. فاتهم السناتو قيصر بأنه كان يسعى لتحويل الجمهورية إلى مملكة على نمط الممالك الشرقية، يكون هو ملكها وكليوبترا ملكتها. وكان قد التقى كليوبترا بعد مقتل بومبيوس، فأصبعا عشيقين منذ لقاءهما الأول. وقد ناصر قيصر كليوبترا ضد بطليموس الرابع عشر، فنصبت ملكة على مصر. وحملت منه، فأنجبت له بعد رحيله بمدة وجيزة بطليموس الخامس عشر، وسمته "قيصر"، بينما أطلق عليه المصريون سخرية لقب قيصرورن، أي القيصر الصغير.

تألفت ضد قيصر مؤامرة من ستين عضواً من السناتوس (مجلس الشيوخ) بقيادة بعض أعضائه، حيث أحاط به المتآمرون في 15 آذار سنة 44-ق.م بينما كان يدخل المجلس وطمعوه حتى الموت فسقط عند أقدام تمثال بومبيوس. لكن الجمهورية لم تعد إلى روما أبداً، بينما بقي اسم قيصر خالداً، إذ أصبح لقباً للأباطرة في روما، ولاحقاً، لقباً لأسر ملكية كثيرة في العالم القديم والحديث.

بعد موت قيصر مباشرة، نجح القنصل ماركوس أنطونيوس ومعه لبيدوس قائد سلاح الفرسان في إحباط تحرك حزب السناتو نحو السلطة، كما أن موقف المتآمرين أصبح حرجاً لاصطفاف العامة من أهل روما ضدهم، حيث كسبهم أنطونيوس لتعاطفهم مع وصية قيصر التي ألغاها على مسامعهم بأسلوب خطابي تحريضي مبطن بليغ، فكان شديد التأثير بالعامة، بحيث كسب تعاطفهم بإعلامهم أن قيصر قد منحهم وصيته بتوريثها لهم.

تشكل الائتلاف الثلاثي الثاني من حفيد قيصر لأخته وابنه بالتبني غايوس يوليوس قيصر أوكتافىوس Gaius Octavius الذي كان في الثامنة عشرة عند مقتل قيصر. ومن أنطونيوس ولبيدوس. وصدر هذا الاتفاق كقانون في 27 تشرين الثاني سنة 43 ق.م متخذاً صفة شرعية لازمة لمدة خمس سنوات.

بعد هربهم إلى الشرق، تجمع الكثير من أعضاء حزب السناتوس واستعدوا لمواجهة قوات الائتلاف الثلاثي، فكانت الموقعة الأخيرة بينهما عند "فيلبي" سنة 42 ق.م، وكان النصر لحليف أوكتافىوس وأنطونيوس. وتم عقد اجتماع جديد في نفس السنة في "برنديزي" لتجديد الاتفاق بينهما، فاتفقا على أن يكون حكم الشرق من نصيب أنطونيوس، والغرب لأوكتافىوس، على أن تكون شمال أفريقية من نصيب لبيدوس، وبقيت إيطالية شراكة بين الجميع بالرغم من إقامة أوكتافىوس بها. وقد استمرت هذه الاتفاقية لمدة ثلاث سنوات، عاد الفتور بعدها بين أوكتافىوس وأنطونيوس، فاتفقوا على الاجتماع في "تارنتوم" بجنوب إيطاليا سنة 37 ق.م، وقرروا تمديد الاتفاق خمس سنوات أخرى. وقد حقق أوكتافىوس خلال هذا العام عدة انتصارات على آخر معتلي السناتوس، وعلى لبيدوس الذي انشق عليه، فأصبح سيد القسم الغربي من الإمبراطورية دون منازع. وفي 36 ق.م تطورت العلاقة بين أنطونيوس وكليوبترا، فأقاما حفلة زواجهما، وذلك بعد انتصار أنطونيوس على البرثيين في أرمينية. وبإتهام أوكتافىوس لأنطونيوس بأنه يريد تحويل الإمبراطورية الرومانية إلى مملكة شرقية يحكمها مع كليوبترا - وهو نفس اتهام السناتوس لقيصر- فتمكن أن يجمع حوله القوى الرومانية في الغرب، وطالب إيطالية والولايات أن تقسم له يمين الولاء ليكون قائدها ضد كليوبترا وأنطونيوس.. فنشب الصراع الأخير بين الاثنين في معركة "أكتيوم" البحرية سنة 31 ق.م، والتي تقع عند خليج أكتيوم على الساحل الغربي لليونان. وظهر منذ البداية أن الغلبة ستكون لأوكتافىوس، فلاذت كليوبترا مع أسطولها بالفرار من المعركة، وما لبث أن لحق بها أنطونيوس. وبعد

عام من ذلك، قاد أوكتافيوس قواته عن طريق سورية وفلسطين واحتل الاسكندرية، فانتحر أنطونيوس ولحقت به كليوبترا، وهكذا تم احتلال مصر التي كانت تتمتع بما يشبه الاستقلال، وسقط حكم العائلة البطلمية بآخر ملوكها كليوبترا السابعة.

تولت الألقاب على غايوس أوكتافيوس، فكان أول لقب اتخذه هو "قيصر"، الذي اقترن بالجد والسلطان والحكم المطلق، وجاء لقب "امبراطور" تالياً بحيث صار جزءاً من اسمه الرسمي. ثم فاجأ أوكتافيوس مجلس الشيوخ بعد تطهيره بمرضه التتحي عن جميع سلطاته، فكان رد فعل المجلس على هذا الموقف الدرامي أن رد سلطاته إليه على معظم أرجاء الامبراطورية. وبعد ثلاثة أيام اجتمع المجلس فعبّر عن شكره وامتنانه لأوكتافيوس باعتباره باعث الجمهورية، وأضفوا عليه لقباً جديداً يفوق جميع الألقاب السابقة هو لقب "أوغسطس" الذي يعني المعظم أو المقدس والمبجل، وقد درج اقتصار هذه التسمية سابقاً على بعض الآلهة، إذ أصبح بعد الآن يخاطب بهذا اللقب ويعرف به. رد أوكتافيوس التحية إلى المجلس بأن أعاد إليه إشرافه على الشؤون المالية، كما منحه بعض سلطات القضاء المالي في ولايات المجلس، وسمح له بإصدار قرارات لها قوة القانون دون إقرار الجمعية القبلية لها، وهكذا أصبح المجلس شريكاً رسمياً في الحكم. إلا أن المؤرخين تاكيتوس وديو كاسيوس لم يريا في هذه الإجراءات أكثر من واجهة دستورية لنظام امبراطوري اقترّب من الحكم الفردي المطلق. ولعل أكثرية أعضاء المجلس لم يكونوا راغبين حقاً في إعادة الجمهورية، لمعرفتهم بما آلت إليه من الفوضى والحروب الأهلية، ولعرفتهم أيضاً بأن التحكم بمشكلات الدفاع عن الامبراطورية، كانا يبدوان مهمتين مستحيلتين لأكثر الأعضاء. وهكذا بدأ النظام الامبراطوري الجديد سنة 27 ق.م، وذلك بعد أن أرسى أغسطس أسس هذا النظام بإدخال إصلاحات إدارية ومدنية واجتماعية إلى الدولة، فكان أول امبراطور يتبوأ عرش الامبراطورية الرومانية (27 ق.م-14م) التي سيطرت على معظم بلاد أوربة الغربية ومعظم البلاد المطلة على البحر الأبيض الذي سماه الرومان "بحرنا/ Mare Nostrum"، وأطلق عليه العرب المسلمون "بحر الروم". وكانت كلمة الامبراطور هي العليا التي لا تناقش. ومات أوكتافيوس موتاً طبيعياً سنة 14م.

كليوبترا بين المتخاصمين الرومان

كانت كليوبترا السابعة آخر ملكة (فرعونية) من أصول يونانية تحكم مصر، إذ بدأت بحكم مصر بمشاركة والدها بطليموس الثاني عشر (الزمار)، وبعد ذلك بمشاركة أخوها بطليموس الثالث عشر ثم بطليموس الرابع عشر، حيث تزوجت بهما خلال مشاركة كل منهما لها في الحكم، إلا أنها استقلت بالحكم منفردة بعد ذلك إلى أن شاركت ابنها من قيصر في السنوات الست الأخيرة من حكمها.

كُلف الدكتور مصطفى العبادي^(١) صورة كليوبترا بالتلخيص التالي: " يعتبر الفصل الأخير من تاريخ الدولة البطلمية في مصر من أغرب الفصول في تاريخ الإنسان. إذ لم يشهد التاريخ امرأة استخدمت أنوثتها بهذه القوة وهذه المهارة كما استخدمتها ملكة مصر الجديدة كليوبترا. فحين اعتلت العرش بعد وفاة والدها، كانت مصر دولة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، قد فقدت جميع ممتلكاتها لروما، ولا يستقر لها ملك إلا باعتراف روما ووجود جيش روماني يسنده في الاسكندرية، ونظير تقبل روما هذا الخضوع من الملك البطلمي كانت تتقاضى أحشى الأثمان. من مركز هذا الهوان الشديد خرجت كليوبترا على العالم كامرأة سافرة بدير جيش أو مال فاقتحمت معترك السياسة العالمية، لتواجه بشخصها المجرد أقوى دولة في العالم القديم".

كتب الكثير مما نعرفه عن كليوبترا بعد موتها حيث جاء أكثره لتبرير ما شكلته هذه الشخصية من خطورة على روما واستقرارها. ولذلك، فربما جاءت بعض هذه الروايات على قدر من المبالغة أو فيها بعض أو الكثير من التحريف. فديو كاسيوس، المؤرخ اليوناني الشهير الذي كتب "التاريخ الروماني" في ثمانين كتاباً بدأ فيه من تاريخ روما في 753 ق.م حتى وفاته في منتصف القرن الثالث الميلادي، وكان أهم مصدر قديم يؤرخ فترتها وتاريخها لخص قصتها بما يلي: " أسرت أعظم قائدين رومانيين في عصرها، وبسبب الثالث دمرت نفسها". ومن الكثير الذي قيل فيها: " لم يكن جمالها فقط يأسر من يراها وإنما الانطباع الفاضل الأسر الذي لا يمكن تجنبه عند الالتقاء بها؛ في جاذبيتها المؤثرة وهي تمشي، في الجو المثير الذي يحيط بها وهي تتحدث، حيث الاستماع إلى نغمات صوتها كأنه يصدر ممن يتحكم في عدد من الآلات الموسيقية المتاعمة حسبما تقتضيه المناسبة^(٢)". وكان أكثر ما يثير في شخصيتها جاذبيتها الشديدة وقدرتها على إثارة حب الرجال، وكانت على درجة عالية من الثقافة والإحاطة بعديد من اللغات. وكانت تبدو كأنها إيزيس تحنو على المصريين، ولم تكن تتحرج أو تشعر بالإثم من أي شيء، وكانت قادرة على أن تثير من تختاره صديقاً يكن لها أعمق مشاعر الولاء. وإذا كانت تمتلك طاقة كبيرة وشجاعة وجاذبية وذكاء، فقد كرست حياتها لتحقيق هدفين: تثبيت دعائم مكانتها ومكانة أسرتها في مصر، وأن تشارك في السلطة المركزية لروما. وقد كان الهدف الأخير يملئ قلوب أعدائها من الرومان بالحق والكراهية. بالمقابل قادت علاقاتها مع قادة روما إلى نوع من الفضائح. وما زالت مأساة موتها مثيرة لخيال الفنانين وكتاب الروايات والمسرحيين وصناع الأفلام والرومنسيين في شتى أنحاء الأرض.

وبدلاً من انتظار قادة روما حتى يغزوا مصر، عولت هي على غزو قلوبهم وتحويلهم إلى أدوات طيعة بين يديها. واستطاعت عن هذا السبيل أن تمد نفوذها الملكي إلى آفاق أبعد كثيراً من آفاق مصر، وكادت أن تصبح امبراطور العالم القديم بأسره ممثلاً

(١) - مصطفى العبادي: "مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي"، ص 99، مكتبة الأنجلو المصرية.

(٢) - مقتطفات من وصف بلوتارخوس.

بالامبراطورية الرومانية ذاتها، إلا أن روما والرومان تيقظوا لما آل إليه الأمر وتم في النهاية وإد السحر الأنثوي المبين الذي مارسته كليوبترا على قادتها، وذلك بأن نجح أوكتافوس بتوحيد الجهد الروماني خلف قيادته، فهزم كليوبترا وأنطونيوس، فانتحرا بعد هزيمتهما. ولا يسعنا هنا إلا الاستشهاد بما جاء على لسان عمرو بن العاص في القرن السابع الميلادي، الذي وصفهم: "... إن فيهم لخصالاً أربأ: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف".

كليوبترا ويوليوس قيصر

لتلقى قيصر وهو في بريطانية أنباء مزعجة عن حدوث اضطرابات خطيرة في بلاد الغال التي كان قد أخضعها خلال حملاته على مدى سنوات، كما بدأت عرى الائتلاف الثلاثي الأول بالاهتزاز بعد هزيمة وموت كراسوس في معركة حران على الجبهة الفارسية سنة 53 ق.م. كما ماتت يوليا ابنة قيصر وزوجة حليفه بومبيوس مع طفلها في مخاض الولادة بنفس الفترة، مما أدى إلى شعور قيصر وبومبيوس بأسى كبير لانقطاع صلة الرحم بينهما بموت يوليا وجنينها. وساعت الأحوال في روما فطرح فكرة تنصيب بومبيوس دكتاتوراً، إلا أنه تم اعتراضها من بعض السياسيين المتفذين. في هذه الأثناء (53-52) تزوج بومبيوس من ابنة ميتيلوس سكيبو أحد أتباع الحزب الأرستقراطي وأشدّهم عداء لقيصر. وهكذا انتهى الائتلاف الأول. وتم استدعاء قيصر للقيام بالقضاء على ثورة الغالين، فحقق انتصاراً مذهلاً سنة 51 ق.م. وكان من نتائج ذلك أن عمل قيصر على استيعاب العنصر الغالي في نسيج الحضارة الرومانية التي ستبدأ بأخذ شكل جديد من الآن فصاعداً، ودون أن يرجع قيصر إلى مجلس الشيوخ في روما بدأ يشرع للولاية الغالية وسمح للغالين بنوع من السيادة، ودربهم أن يكونوا محاربين أشداء في صفوف القوات الرومانية.

اشترط مجلس الشيوخ في روما عودة يوليوس قيصر إلى روما كمواطن عادي إذا أراد أن يرشح نفسه لقتضلية عام 49 ق.م. فتم تقديم اقتراح عودة قيصر، وبومبيوس الذي تحالف مع أعداء قيصر، كمواطنين عاديين لتعزيز فرص السلام في روما. وهذا يعني ترك قيصر لولاية الغال وترك بومبيوس لولاية إسبانية التي كان يديرها من روما. فقبل بومبيوس الاقتراح لقوة مركزه في روما بفضل تأييد حزب الأرستقراطيين له. وكان من الطبيعي أن يرفض قيصر الاقتراح. وبحجة رفض قيصر الاقتراح أعلن مجلس الشيوخ قيصر عدواً للأمة واتهمه بحشد قواته على الحدود الغالية-الاطيالية، وعين بومبيوس قنصلاً وسيبر لمحاربة قيصر دهقاً عن الأمة الرومانية، مما دفع نقبيي العامة ماركوس أنطونيوس وكاسيوس إلى الهرب من روما والالتحاق بقيصر. ولما علم قيصر بقرار مجلس

الشيوخ في 10 كانون الثاني 49 ق.م استيق وعبر نهر الروبيكون بعد تردد لمعرفته بأن دخول قوات رومانية إلى روما بدون موافقة مسبقة من مجلس الشيوخ يعد بمثابة إعلان حرب على روما. وقد رُوي عن قيصر وهو يعبر النهر استعارته لقول الشاعر مانديروس: لقد ألقى الزهر، دمه يطير في الهواء، إذ يعني هذا إدراك قيصر أن عبوره النهر إلى روما إنما هو مغامرة خطيرة. بيد أن المغامرة ربما كانت تعيش داخل قميص يوليوس قيصر!

ساد الذعر في روما نتيجة سقوط المدن أمام زحف قيصر من شمال إيطاليا إلى جنوبها قاصداً روما، فأرسلت وفود تتفاوض متتالية إلى قيصر، وعند عودة هذه الوفود إلى روما لم تجد بومبيوس هناك إذ كان قد ارتحل من روما مع بعض القناصل ومجلس الشيوخ إلى اليونان. إذ لم يكن الشرق فقط يخضع له وإنما أيضاً أفريقية وإسبانية مقابل خضوع إيطاليا وبلاد الغال لقيصر.

تمكن قيصر من إيقاع الهزيمة بفرق بومبيوس الإسبانية ونجح في القضاء على التمرد الذي وقع في قواته بجنوب إيطاليا قطارت أنباء انتصاراته إلى روما التي قرر شعبها تعيين يوليوس قيصر دكتاتوراً نظراً لحدوث فراغ سياسي بهروب القناصل مع بومبيوس. وكانت هذه هي ضربة الحظ التي كان ينتظرها قيصر بعد عبوره نهر الروبيكون، بأن يحوز على الشرعية. أما وقد تم له ذلك، فقد واجه، بعد ما قام بمناورات المعتادة لايهام بومبيوس بالهروب بقواته وقرسانه الأقل عدداً من قوات بومبيوس المحتشدة في سهل فارمالوس بتاريخ 9 آب من عام 48 ق.م. وكان يدرك أن قرسانه الألف لن يستمروا في الصمود أمام فرسان بومبيوس السبعة آلاف، فوضع خلف قرسانه قوات احتياطية كبيرة وحسنة التدريب وأمرهم أن يقاوتوا فرسان بومبيوس ويضعونهم في وجوههم، وخطب فيهم قائلاً: "لم يعتد هؤلاء الأرستقراطيون الدللون خوض المعارك والجراح بل اعتادوا على أن يزينوا انفسهم بالورود وأن يطلقوا شعورهم الطويلة على أكتافهم، وهم يحرسون في المقام الأول على حماية جمال وجوههم وزينتهم أكثر من أي شيء آخر، ولن يصبروا على رؤية السيف ويريقها يلعب في عيونهم...". وكما توقع قيصر لم يحتل فرسان بومبيوس الهجوم المباغت، الذي علق عليه بلوتارخوس قائلاً: "لأنهم لم يتحملوا الضربات الموجهة إلى وجوههم فقطوها وأداروا رؤوسهم لحماية انفسهم...".

انتهت المعركة لصالح قيصر، الذي يعرف دوماً كيف ينتزع النصر، فشرع بمطاردة فلول جيش بومبيوس التي ما لبثت الآلاف منهم بالاستسلام له، وكان منهم ماركوس بروتوس الذي كان استسلامه وانضمامه مكسباً كبيراً للمنتصر.

أكمل بومبيوس هروبه إلى الشرق وأصطحب زوجته كورنيليا إلى مصر التي كانت تحكمها كليوبترا السابعة بالاشتراك مع أخيها الأكبر وزوجها بطليموس الثالث عشر. فحطت سفينة عند شاطئ بلوزيوم حيث كان أخيلاس قائد قوات بطليموس الثالث عشر، شريك الملكة كليوبترا في الحكم، يعسكر استعداداً لصد زحف كليوبترا وجيشها

القادمين من الشرق لاستعادة ملكها الضائع في الاسكندرية نتيجة الخلافات بينها وبين حاشية القصر وأخيها، حيث كانت قد هربت من الاسكندرية نحو شرق البلاد لجمع الأنصار والعودة إلى الاسكندرية. وبعد مشاورات وجدال شديدين بين مستشاري الملك الصغير، الذي كان يبلغ من العمر حينها خمسة عشر عاماً، استقر الرأي على التخلص من بومبيوس لكي لا يتخذ قيصر من وجوده ذريعة لدخول مصر بجيشه. لذلك، وبعد صعودهم إلى ظهر سفينة بومبيوس واستقباله بحفاوة بالغة طعنوه حتى الموت وهو ينزل من السفينة إلى الشاطئ حسب الخطة.

بعد أربعة أيام من مقتل بومبيوس وصل قيصر إلى الاسكندرية وهو يطارد بومبيوس للقضاء عليه. فتم تسليم رأس وخاتم القاتل إلى قيصر عند وصوله، فبكي قيصر موت خصمه بومبيوس وأظهر غضبه على مقتل قائد روماني عظيم كان قنصلاً في روما وزوجاً لابنة الوحيدة بوليا التي ماتت خلال مخاضها في الولادة. لم يفت الحدث الدرامي قيصر، فقدم بإرسال خاتم القاتل إلى روما ليعلمها بنهاية بومبيوس الأبدية. وبدلاً من استعداده للرحيل عن مصر دخل الاسكندرية بشارات الحكم الروماني الرسمية وأقام في القصر الملكي. حيث وجد المدينة خالية من الملكة والملك، وكان على علم بقصة خلافهما، فأعلن نفسه حكماً لحل الخلاف بينهما بتنفيذاً لوصية والدهما الراحل بطليموس الثاني عشر الملقب بالزمار.

ورغم محاولة إغريق الاسكندرية إقناع قيصر بتركهم وشأنهم بالرحيل إلى روما فقد أصر على استدعاء المستشار الملكي للشؤون المالية، كما استدعى حضور الملكة كليوبترا والملك بطليموس الثالث عشر المتحاربين على الحدود الشرقية لمحاولة التوفيق بينهما. لم يطل الوقت ببطليموس حتى حضر مجلس قيصر قادمًا من بلوزيوم، لكن انتظار قيصر لحضور كليوبترا طال كثيراً. إذ كان حلفاء الملك قد سدوا عليها جميع المنافذ من شرق البلاد إلى الاسكندرية، للحيولة بينها وبين دخول الاسكندرية للوصول إلى مجلس قيصر لتوقعهم بتأثير سحرها ومنطقها على قيصر.

تفتحت عبقرية كليوبترا، بعد أن دخلت الاسكندرية بظلمة الليل مستقلة مركباً صغيراً حتى مياه المدينة ثم تسللت في قارب أصغر إلى داخل الميناء، ورشت بعض ضباط أخيها كي يسمحوا لها بالدخول للمثول أمام قيصر. وقيل أيضاً أن أحد تجار السجاد القبارصة أخفاها وسط سجادة كبيرة دخل بها لعرضها على القيصر، وما أن وضع السجادة على الأرض وأخذ ينشرها حتى خرجت منها كليوبترا وهي في أبهى الصور. وقيل أيضاً أنها أمرت حاشيتها الخاص أن يلفها في سجادة ويحملها على كتفه ويدخل بها القصر كواحد من الخدم⁽¹⁾. وهكذا مثلت كليوبترا أمام ناظري قيصر بأن أفردت السجادة فخرجت منها

(1) يشك بعض الدارسين برواية بلوتارخوس 49. 1-3 "Plutarch, Caesar" التي تقول أن كليوبترا عملت على تهريب نفسها في سجادة ملفوفة إلى القصر الملكي الذي ترأس فيه قيصر إجراءات حل الخلاف على العرش بين المتنافسين كليوبترا وأخيها بطليموس الثالث عشر. وذلك أن الأخ والمتحالفين معه سدوا جميع المنافذ والطرق لمنع وصول

الفترة الملكية تملأ المكان، فأدرك قيصر على الفور أنه أمام شخصية يجمع بينها وبينه الكثير من المشتركات. ويغض النظر عن صحة هذه الروايات، فقد امتازت خطة كليوبترا بغايتها في الجمع بين البراعة والمغامرة والجرأة. وسرعان ما أصبح قيصر ابن الاثنين وخمسين عاماً وكليوبترا ابنة الواحد وعشرين عاماً عاشقين متيمين. وجاءت نتيجة المثل أن أقر القيصر الملكة كليوبترا على العرش على أن يشاركها أخوها في العرش. لكن أخيها وشريكها في الحكم خرج من القصر مقتاضاً وهو يصرخ: لقد خانوني! وأخذ يطالب أعوانه بالثورة والانتقام فتجمع إغريق المدينة مع أفراد من الجيش وحاولوا اقتحام القصر حيث قيصر، لكن جنود قيصر تمكنوا من ردهم على أعقابهم وظفروا ببطيالموس الثالث عشر وأدخلوه عنوة إلى القصر وأحكموا إغلاق الأبواب.

أدرك ساسة القصر وعصبة الأوصياء تأثير كليوبترا على قيصر منذ اللحظات الأولى، فحاولوا عدم تنفيذ إرادته عن طريق استخدام القوة، خاصة، أنهم كانوا يعرفون ضعف مركز قيصر وقلة عدد جنوده إلى عدد جيوشهم الكبيرة، فاعلنوا الحرب باسم الدولة ضد المحتل الأجنبي⁽¹⁾.

وبعد أن هدأت الأمور لفترة قرر أخيلاس قائد الجيش البطلمي احتلال الاسكندرية دون حساب كبير لقيصر وجيشه القليل العدد باستثناء منطقة القصر والميناء التي احتلها قيصر وجنوده. استقبل سكان المدينة أخيلاس وجنوده استقبال الأبطال وساعدوهم على حصار القصر. ودارت المعارك التي عرفت بحرب الاسكندرية، والتي استمرت قرابة الستة أشهر بين الطرفين حتى كاد قيصر أن يقعد حياته في إحدى مراحلها، لكنه بقي مسيطراً على منطقة القصر الملكي وميناء المدينة لأجل سهولة الاتصال بقواته خارج مصر. وكان قيصر يحتفظ بأبناء بطليموس الثاني عشر الأربعة (كليوبترا وبطيالموس الثالث عشر وبطيالموس الرابع عشر والابنة الصغرى أرسينوى) كرهائن داخل القصر. وقد حاول قيصر أثناء ذلك السيطرة على الجسر المؤدي إلى جزيرة فاروس للتحكم بشارع الاسكندرية، إلا أنه فشل وفقد حوالي أربعمائة من جنوده، وكاد هو نفسه أن يقتل معهم

كليوبترا من المثل أمام القيصر للتحكم بينهما خوفاً من تأثير الملكة على قيصر. إلا أن السؤال يبقى قائماً: كيف وصلت كليوبترا إلى مجلس قيصر إذا ؟

(1) - أشار د. مصطفى الحادي على الصفحة 102 من كتابه " مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي " إلى وصف بوليبيوس قيصر الثقيل، المأخوذ من المصدر: Caesar, Bell, Civ, III, pages 110- 111، لعائلة الجيش والولاء المصرية حينها بما يلي: " لم يكن جيش أخيلاس بالدرجة التي يستهان بها من ناحية الحجم ونوع الجنود وخبراتهم القتالية. لقد كان لدى القائد أخيلاس عشرون ألفاً تحت السلاح يتألفون من جنود جانيبوس الذين استمروا حياة الحرية المفتوحة في الاسكندرية لأنهم نسوا النظام الروماني ومضى انتسابهم لشعب روما فتزوجوا وأنجبوا الكثير من الأطفال. أضف إليهم الكثير من اللصوص وقطاع الطرق الذين جاؤوا من سورية وكيليكية والمناطق المجاورة، وانضم إليهم الكثير من المجرمين والمثليين، فكل من كان يفر من حينئذ كان يجد له ملائداً مأموناً وحياتاً مطمئنة في الاسكندرية ما داموا يسجلون انفسهم في عداد الجنود. وقد كان هؤلاء الجنود يطالبون بقتل اصحاء الملوك وينهبون أملاك الأثرياء ويحاصرون قصر الملك لزيادة رواتبهم، ويطردون بعض الملوك ويميلون بدلاً منهم على العرش، جرياً في الواقع على عادة قديمة لجيش الاسكندرية. وكان إلى جانب هؤلاء ألقاب من القربان. وقد شاخ هؤلاء الجنود في حروب الاسكندرية المتعددة، حينما أعادوا بطليموس الثاني عشر إلى عرشه وعظما قتلوا ابني بيوليوس، وأثناء حروبهم ضد الشعب المصري، هكذا كانت خبرتهم الحربية".

لولا أنه ألقى بنفسه في الماء وسبح ناجياً حتى وصل إلى سفينته. اضطر بعدها للعودة إلى القصر والتمركز فيه انتظاراً لوصول الإمدادات. وقد نجحت أرسينوى بالهرب إلى حيث قوات أخيلاس فأخذت مكان أخيها الملك بطليموس الثالث عشر كضامنة للثورة ضد المحتل الروماني. واشتدت قبضة الحصار على قيصر وقواته لأن الأسطول المصري كان يحرس الشواطئ ويمنع الإمدادات الرومانية من الوصول إليه وهو محاصر داخل منطقة القصر والميناء. وقد وصلت السنة الذهب التي شُيِّدَ بالقصر من الساحل إلى أطراف مكتبة الاسكندرية فأحرقت جانباً منها كما أحرقت بعض سفن قيصر وأخيلاس.

استطاع قيصر القضاء على خصومه والاستيلاء على كامل المدينة بعد أن وصلته قوات رومانية عن طريق سورية؛ والتي منها نجدة ملك الأنباط مالك الأول. وأثناء ذلك غرق ملك مصر الصغير بطليموس الثالث عشر وهو يحاول الهرب بعبوره النيل نحو الشرق بعد أن نجح في الهروب⁽¹⁾ من القصر إلى جانب قواته، بينما أرسلت أرسينوى أسيرة ليزين بها قيصر عرض انتصاره في روما على عادة الفاتحين الرومان.

أعلن قيصر كليوبترا من جديد ملكة على عرش مصر بالمشاركة مع أخيها وزوجها الجديد بطليموس الرابع عشر وذلك في شهر كانون الثاني من عام 47 ق.م، وعين أخيها مجلس وصاية من أتباع كليوبترا، وثبتهما ملكين على مصر وقبرص. بعد ذلك استمتع قيصر وكليوبترا برحلة نيلية على ظهر يخت كليوبترا الملكي بمصاحبة أربع مائة سفينة إضافية إلى جنوب البلاد طوال بقية الشتاء حيث كان تأثير جمال ومرح وثقافة كليوبترا كبيراً على قيصر بحيث استطاعت أن تملأ قلب الرجل وعقله معاً إلى الحد الذي أثر فيه لتأجيل العودة لمباشرة أمور الحكم في روما. ويعتقد أن كليوبترا تمكنت من إقناع قيصر بالتنازل لها عن جزيرة قبرص تعزيزاً لموقفها أمام المصريين. كما يعتقد بأن قيصر أحجم عن ضم مصر وجعلها ولاية رومانية بسبب حبه لكليوبترا إلى حد إهدائها مائتي ألف مخطوط تعبيراً عن حبه لها وتقديراً لتفكيرها الراقى ودكاثها العالي⁽²⁾ وقد زار قيصر في هذه الرحلة الآثار الفرعونية وأطلع على طريقة حياة الفراعنة من خلال ما رآه في مدافنهم في الأقصر. إلا أن قيصر لم يستجيب لمحاولات كليوبترا، خلال رحلتهما النيلية، بضم مملكة الهيروديين اليهودية في فلسطين إلى مملكتها، بل قام بكفالتهم بالسماح بممارسة حريتهم الدينية وإقامة المعابد، وأعاد لهم سلطتهم السابقة التي كان بومبيوس قد قضى عليها.

غادر قيصر الاسكندرية إلى سورية في نيسان بعد أن ترك حامية رومانية لضمان استقرار الأحوال في مصر على نحو ما رسم. ومن أجل أن تبرز كليوبترا حملها من قيصر اعتبرت نفسها إيزيس الجديدة وأعلنت أن قيصر كان قد نودي به في إفسس كحفيد

(1) - يقال أن كليوبترا أشارت على قيصر أن يسهل هروب بطليموس الثالث عشر لأن ذلك سيشجع في الاتفاق بينه وبين أرسينوى ومستشاريهما، إذ حدث ما توقعه كليوبترا، حيث انتهزت إطلاق سراح أر هرب أخيها فطلقته، وهي تعلم أنها تحمل من قيصر.

(2) - د. أحمد أبو زيد: "عالم الفكر" الكويتية، ج 9، العدد 4، ص 7.

لأريس من أفروديت إلهاً مجسداً ومخلصاً للبشرية. وأشيع أن قيصر هو التجسيد الحي للإله آمون. وكان غرض كليوبترا من كل ذلك أن تبدو علاقتها بقيصر كزواج مقدس بين كائنين إلهيين، وليست علاقة زنا، وبالتالي فإن المولود عندما يأتي سيكتسب أيضاً صفة القداسة. وبعد رحيله، وضعت كليوبترا طفلها من قيصر في صيف 47 ق.م وأسمته قيصر، فأطلق عليه أهل الاسكندرية لقب قيصرين على سبيل السخرية.

في طريق العودة إلى روما من قيصر بأسية الصغرى فأحرز نصراً سهلاً على هارناكيس ملك بونطوس على بحر البلطيق في معركة زيللا. فكتب، من هناك، لأحد (روى النعمان أنها وجهت إلى مجلس الشيوخ) أصدقائه العبارة التالية التي عدت أول برقية في العالم: "أتيت Veni، نظرت Vidi، وانتصرت Vici".

بعد أن وصل قيصر إلى روما عائدًا بعد غياب دام أكثر من عام ونصف، لحقت به كليوبترا وابنها وأخوها بطليموس الرابع عشر، واتخذت لها مقاماً في حدائقه⁽¹⁾ على ضفة نهر التيبر وليس في منزله حيث زوجته، وعاشت معه كمشيقة على الرغم من وجود زوجته الشرعية، حيث لم يكن القانون الروماني يسمح بالزواج إلا من رومانيات، مع ذلك لم تكن علاقة قيصر بكليوبترا تعد في العادة الرومانية علاقة زنا. وقد أحاطها قيصر بكل أنواع الرعاية والتكريم، وأعلن اعترافه بابنه منها؟ كما أقام لها تمثالاً من الذهب الخالص في المعبد الجديد الذي بناه لألهة الحب والجمال فينوس التي كانت تعتبر أم الرومان جميعاً، مما أوحى للرومان على أنه يؤهلها تمهيداً للزواج بها. إلا أنه لم يستجب لرغبة كليوبترا بإعلان زواجه منها رسمياً وتسميته ابنه منها وريثاً له، بل أعلن أوكتافيوس ابن بنت أخته وريثاً وحيداً له، بالرغم من نقل أنطونيوس اعتراف قيصر ببنة ابنه منها إلى مجلس الشيوخ. وهكذا عاشت كليوبترا في روما باعتبارها سيدة روما المقبلة. وبذلك كان نبلاء الرومان يكرهونها ويتزلفون إليها بذات الوقت، فكانت تتعالى عليهم، بل إن شيشرون حدثنا أنها عاملته بطريقة مشينة. ويروي أن كليوبترا أقامت مجلساً أدبياً كان يحضره الكثير من النخبة الرومانية عند انعقاده خلال زيارتها الطويلة لروما.

استطاع قيصر بمهارته السياسية تحقيق نصر نظيف في نيسان 46 ق.م على ابني بومبيوس اللذين كانا قد حشدا جيشاً كبيراً في شمال أفريقية مع انضمام كثيرين من قادة الفرق الرومانية إليهما. كما استطاع إحراز نصر على قوات سكيو وكاتو الإبن في معركة ثابسوس، حيث قتل الأول وانتحر الثاني. ولاحق قيصر البقية الباقية من معارضي تحالف أبناء بومبيوس إلى إسبانية وهزمهم في معركة موندنا سنة 45 ق.م فأصبح قيصر الزعيم الأوحده في روما، وأطلق عليه مجلس الشيوخ ألقاب الشرف الروماني، والتي منها "المشرف على الأخلاق" حيث أتيح له التدخل في حياة المواطنين العامة والخاصة. وقد أقيم له تمثال في معبد الكابيتول وهو يمتطي عربة النصر وخريطة العالم تحت قدميه.

(1) - 42. 44 Dio Cassius, RH (Roman History) and Suetonius, Caesar 35. 1.

لم يتم قيصر بملاحقة أعدائه وحرمانهم من حقوقهم بل قام بمنحهم جميعاً عفواً عاماً، بحيث لم يظهر بعدها أثر لوجود معارضة. وقد أقيمت في موبدا احتفالات على شرف انتصار قيصر. لكن الرومان لم يكونوا سعداء بهذه الاحتفالات لأن الاقتتال كان بين رومان، وذلك حسب رواية بلوتارخوس عن قيصر..

خلال عشرة أيام من شهر تموز عام 46 ق م أقيمت احتفالات النصر لقيصر في روما وبلاد الغال ومصر وبلاد بونطوس على البحر الأسود وفي أفريقيا. وقد شاهدت كليوبترا احتفالات النصر من على نفس المنصة التي كان يشرف منها قيصر على موكب النصر في روما، حيث سارت خلف الموكب الأميرة أرسينوى مقيدة بالحديد. وقدمت ولائم ضمت أكثر من عشرين ألف مائدة لأكثر من مائتي ألف مدعو مع تقديم هدايا وهبات لا حصر لها. كما أقيمت مختلف المباريات والألعاب الرياضية ومختلف وسائل المتعة والتسلية. لكن ما أثار خيال الرومان المعادين كان الموكب الأسطوري الملكي لكليوبترا. بالمقابل أثار موكبها بنصر حبیبها قيصر حفيظة وضمينة الطبقة السياسية العليا من مجتمع روما التي رأت في الصورة التي ظهرت فيها الملكة نوعاً غير مأثوف من التعالي والكبرياء، أو هكذا تخيلوا؛ كل لأسبابه المتعددة، وقد اشتكى الخطيب الروماني الشهير شيشرون⁽¹⁾ من ذلك، والذي ربما رأى في موكب قيصر وكليوبترا دكتاتورية مطلقة قادمة أجلاً وتأسيساً ملكية وراثية رومانية يكون قيصر ملكها وكليوبترا ملكتها، حيث كان هذا يمثل هاجساً مرعباً لنخبة الحزب الأرستقراطي الروماني وللرومان بشكل عام، مع ذلك أعلن يوليوس قيصر دكتاتوراً مدى الحياة، فازدادت أساليب التفاق لقيصر حتى أن تماثيله انتشرت في جميع أنحاء روما وفي المعابد والساحات العامة. وهكذا بدأ التأسيس لعبادة الحاكم التي ستصبح قاعدة في العصر الإمبراطوري القادم قريباً.

قام قيصر بعد عودته إلى روما في أيلول عام 45 ق م، بينما كان يقضي بعض الوقت مع كليوبترا في ضيعته جنوب روما، بكتابة وصيته وتسمية ابن بنت أخته غايوس أوكتافوس وريثاً شرعياً له في كل شئ، حيث لم يكن لقيصر أبناء إلا ابنته يوليا زوجة بومبيوس التي توفيت مع جنينها في مخاض الولادة سنة 52 ق م، وابنه قيصر من عشيقته كليوبترا. ورغم اعترافه بقيصر من كليوبترا إلا أنه لم يوص له بشئ، كما لم يوص بشئ لماركوس أنطونيوس قريبه ونائبه في القنصلية ومناصره الأول. وقد ذكر قيصر في وصيته بأن يرثه ماركوس بروتوس إذا مات أوكتافوس قبل موته هو. وقد تحير بعض المؤرخين من عدم ذكر قيصر لابنه من كليوبترا أي شئ! إذ ربما غير قيصر رأيه بالاعتراف بابنه دون أن يعلن ذلك؟ أو قد يكون السبب في معرفة يوليوس قيصر أن القانون الروماني لا يجهز لغير الروماني وراثته الروماني؟ إذ نولا ذلك لجعل قيصر من ابنه من كليوبترا وريثه الشرعي الوحيد وريثاً لحكم الدولة الرومانية بدلاً من أوكتافوس حفيده من جانب أخته؟

(1) Dio Cassius, RH. 43.3 ; Cicero, Letters to Atticus 15.15.2 -

سرت شائعات قوية في روما بأن قيصر سيطلق زوجته كالبورينا ويتزوج من كليوبترا، وقيل أيضاً أنه ربما يتقدم لمجلس الشيوخ بمشروع يبيح الزواج باثنتين، وأنه سينقل العاصمة روما إلى الاسكندرية ويميش هناك مع كليوبترا!

كان قيصر يعد العدة للتأهب لقيادة حملة جديدة عبر مقدونية لاستعادة الهدوء والسلم ضد تهديدات ملك داكيا في البلقان، وهو يتجه في وجهته الأساسية نحو الجبهة الفارسية ماراً بأرمينية. وروي أنه ربما كان يفكر بعد النجاح في حملته تلك، أن يكمل زحفه إلى الخليج العربي وإلى الهند ثم يلتف بطريق العودة عبر القوقاز وجنوب روسية وسهول الدانوب للقضاء على عدوه الفارسي. لذلك حرص أعداء قيصر على تغذية واستغلال الشائعات بأنه يحلم بنقل مركز الحكم الروماني إلى طروادة أو الاسكندرية ليتم السيطرة الكاملة على العالم القديم⁽¹⁾. وسرت هذه الشائعة في روما كما النار في الهشيم من ضمن شائعات أخرى جعلت جميعها معارضة القيصر تسارع في حشد جهودها التآمرية للقضاء عليه بأسرع ما يمكن. فسرت شائعات في روما عن مؤامرة لاغتياله، والغريب أن بعض من كان ينسج خيوط هذه المؤامرة كانوا من أصدقائه وخلصائه. وكان قد اتفق أن يحدد مجلس الشيوخ جلسة ليبحث خطط قيصر المقبلة.

وجد المدافعون عن النظام الجمهوري من نخبة ورجال الحزب الأرستقراطي (السناتوس) في إقامة الملكة كليوبترا في روما كمشيقة لقيصر وتحت رعايته ضالتهنم لانتقاده وتغيير صورته أمام الرومان، فبدؤوا بنشر الشائعات حول طموحاته وأهدافه السياسية بأنه يرمي إلى تحويل النظام الجمهوري الروماني إلى نظام ديكتاتوري ملكي وراثي على غرار الممالك الهلينية الشرقية في اليونان ومصر بحيث يكون هو ملكها وكليوبترا ملكتها. وكانت الأهداف الحقيقية لرجال الحزب الجمهوري هي التخلص بأسرع ما يمكن من أسطورة قيصر وبرامجه القريبة من رغبات الشعب الروماني خوفاً من طموحاته التي لا تحد، والتي لا يمكن التنبؤ بها، خاصة وأن بعضهم كان على تناقض وعداء سياسي معه منذ بداية ظهوره على مسرح السياسة والجندية الرومانية. لذلك كان رجال السناتوس على عجلة من أمرهم للتخلص من قيصر، فحاكوا مؤامرة اغتياله في اليوم الذي كان مقرراً لمجلس الشيوخ الروماني أن يخلع على قيصر لقب ملك قبل مغادرته روما نحو الشرق لتنفيذ حملته على بلاد فارس، خاصة أن النبوءة قالت أن الجيوش الرومانية لن تغلح في غزو بارثية (بلاد فارس) إلا بقيادة ملك، وقد انتشرت بسرعة كبيرة. وقد ورد الكثير من روايات المؤرخين عن علامات الشؤم التي سبقت أو واكبت مقتل قيصر.

في يوم 15 آذار من عام 44 ق.م هب الجميع وقوفاً يؤدون التحية لقيصر وهو يدخل مجلس الشيوخ، وبمجرد أن جلس اقترب منه المتآمرون متظاهرين بتقديم الولاء، وتحلقوا حوله حتى أخفوه تماماً عمن كان داخل المجلس، فكان أول من اقترب منه توليوس كيمبر

(1) - تهدد هذه الشائعات إن صحت حينها محاكاة لما قام به الاسكندر المقدوني قبل ثلاث مائة سنة تقريباً.

الذي بدأ يتوسل لقيصر أن يأمر بعودة أخيه من المنفى، وأمام رفض قيصر مد كييفر يديه ضارعاً ثم سحبهما بسرعة غاضبة إلى الخلف ساحباً عباءة قيصر الأرجوانية من على كتفيه حيث كانت هذه علامة المتآمرين المتفق عليها للإلتصاض عليه وهو بردائه البسيط دون شارات القيادة والسلطة المطرزة على العباءة. صرخ فيهم قيصر: لما كل هذا العنف؟ سدد كاسكا الذي كان يقف وراء قيصر الطعنة الأولى التي استهدفت رقية قيصر إلا أنها أصابت كتف الضحية التي استدارت وأمسكت بذراع كاسكا وضربتة بريشة الكتابة قائلاً: أيها الوغد كاسكا ماذا أنت فاعل؟ فعاجلته ضربة أحدهم بطعنة في الجنب. أما كاسيوس فقد سدد ضربيته مباشرة إلى وجه قيصر. انهال جمع المتآمرين بطعنات جتوت قاتلة حتى أنهم أصابوا بعضهم بعضاً، فسقط قيصر مضرجاً بدمائه داخل مجلس الشيوخ الروماني تحت أقدام تمثال يوميبيوس خصمه القديم رغم محاولته الدفاع عن نفسه، إلا أنه غطى وجهه بعبائه وهم يتناوبون على طعنه عندما رأى بروتوس ضمن القتلة، حسب رواية بلوتارخوس. وقد ذهبت عبارته لبروتوس- الذي كان قيصر يعده كابنه، وكان قد أوصى له في وصيته بعد وريثه أوكتافيوس، والذي ربما كان كذلك لأنه ابن سرفيليا أحب عشيقات القيصر إلى قلبه- مثلاً خالداً في تراث المأساة الإنسانية على القدر وعدم الوفاء: "حتى أنت يا بروتوس؟". كانت هذه الجملة آخر ما نطق به قيصر حسب روايتي بلوتارخوس وسويتونيوس، إلا أنهما ألقيا ظلالاً من الشك على الرواية. وكان المتآمرون قد قرروا قتل أنطونيوس بعد التخلص من قيصر إلا أن بروتوس لم يوافق على ذلك، لكنهم اتفقوا على إشغاله خارج المجلس كي لا يهب لتجدة قيصر في لحظة ارتكابهم الجريمة.

وحسب رواية بلوتارخوس: تقدم بروتوس بعد أن سقط قيصر صريعاً، وأعلن على رؤوس البقية من زملائه أعضاء مجلس الشيوخ: "نحن الآن أحرار من جديد". انطلق حشد المتآمرين إلى الكابيتول وهم يهتفون بحياة وحرية مدينتهم الحبيبة روما. إلا أن مظاهرة القتلة لم تلق صدى من شعب روما، التي اختفت جماهيره بسرعة كبيرة، وran صمت رهيب ينطق بقموض مخيف على أحياء العاصمة، وشائعات متعددة عن مقتل قيصر. انطلقت بعدها الجموع الهادرة من الطبقة المتوسطة التي كانت ترى في قيصر بطلها ضد تعسف الأرستقراطية الرومانية، فازدادت غضباً على غضب خلال تشييع جنازة القتيل، خاصة بعد تأبين أنطونيوس، فاشعلت النيران في الساحة العامة وبعض الأبنية المحيطة.

سمح المتآمرون لأنطونيوس برثاء قيصر، فقام خطيباً وهو يحمل الجثمان مطلقاً على الساحة العامة المليئة بالجموع، فلاحظ تأثر الجماهير الشديد بكلمات رثائه، فقرأ وصية قيصر وتوزيع جزء من ثروته عليهم. وأنهى خطبته برفع رداء قيصر، الذي مزقته الطعنات، إلى الأعلى، وأثار الدماء عليه، وصاح بأعلى صوته بأن من قام بهذه الفعله هم

سفلة وقاتلون، فثارت الجموع⁽¹⁾ الهائجة المتحلقة حول الجثمان وأشعلت به النيران على عادة الرومان بحرق جثث موتاهم، ثم سحبت بقايا الأخشاب المحترقة ومطارت تهاجم منازل المتأمرين.

فر المتأمرين من روما لما رؤوا هياج الجماهير بعد خطاب الرثاء المثير، فاجتمع مناصرو قيصر حول ماركوس أنطونيوس، وقامت زوجة قيصر كالبورينا بوضع ثقتها بأنطونيوس وأودعته معظم ممتلكات يوليوس قيصر التي كانت في حوزتها بما فيها مذكراته وقراراته ومراسيمه. فقام أنطونيوس بدوره بأخذ زمام المبادرة وعين بعض الحكام والكثير من أعضاء مجلس الشيوخ كما عفى عن بعض المنفيين وأطلق سراح بعض المسجونين. والمهم أن أنطونيوس قام بدور القنصل كرجل دولة حقيقي فعين أخاه غايوس قاضياً عاماً وأخاه الثاني تريبوناً (نقيباً للعامة).

في هذه الأثناء وصل أوكتافىوس وريث القيصر إلى روما قادماً من أبولونية التي كان يتم تعليمه في أكاديميتها العسكرية، فاستقبله ماركوس أنطونيوس بطريقة لم تكن لائقة، كما روى بلوتارخوس، إلا أنهما اتفقا بعد أن عقدا اتفاقاً تصالحياً في الكابيتول لمدة خمس سنوات. وسرعان ما تشكل الائتلاف الثلاثي الثاني من ماركوس أنطونيوس وغايوس أوكتافىوس حيث انضم إليهما لبيدوس فيما بعد. وكان شيشرون يقف مع البعض من أعضاء مجلس الشيوخ إلى جانب أوكتافىوس، ضد أنطونيوس الذي نجح بعدها بقطع رأس شيشرون الذي تسبب في إعدام زوج أمه في تاريخ سابق عند نشوب الخلاف بين ماريوس وسولا. وقد جرت معارك واقتتال بين الائتلاف الجديد وائتلاف قتلة قيصر بروتوس وكاسيوس. وفي هذا الوقت خلال الحرب الأهلية التي نشبت بعد مقتل قيصر أثبت أنطونيوس أنه قائد عسكري ممتاز.

أدركت كليوبترا بسرعة بحسها السياسي أن روما لم تعد مكاناً آمناً لها فعزمت المغادرة⁽²⁾ بالخفاء إلى مصر. ويقول شيشرون أن حزنها الكبير أدى إلى قلق أكبر جعلها تنقد حملها الثاني من قيصر. ويعد أن استقر مقامها في الاسكندرية بفترة مات أخوها بطليموس الرابع عشر الذي كان يشاركها العرش في ظروف ليست واضحة الأسباب حتى عد موته عن تدبير ربما كانت كليوبترا ورائه⁽³⁾. فأعلنت لاحقاً أنها قيصر من يوليوس قيصر ملكاً يشاركها الحكم، ولقب بطليموس الخامس عشر. ونتيجة لجريمة مقتل قيصر اندرامية انقسم الرومان، فهامت الفوضى ونشبت حروب أهلية طاحنة بين قتلة قيصر بقيادة ماركوس يوليوس بروتوس وغايوس كاسيوس لونجيتوس اللذين هريا إلى اليونان وحشداً قواتهما هناك، وبين مناصريه بقيادة ماركوس أنطونيوس وأكتافىوس ولبيدوس.

(1) - Plutarchus, Parallel Lives, P 171 سير النظراء لبلوتارخوس.

(2) - Dio Cassius, RH, 51.22.3

(3) - ذكر المؤرخ اليهودي يوسفوس أن كليوبترا قتله بالسم؟

وقفت كليوبترا، رغم حيرتها المعلقة، بحكمة عجيبة على الحياد خلال الصراع الذي نشب على السلطة بعد موت قيصر مباشرة، بحيث لم تتحز كما كان متوقفاً إلى أنصار قيصر، وآثرت الانتظار حتى تتجلي النتائج. وقد دل مسلكتها على أنها كانت تفكر بعقلها لا بعواطفها وتعمل طبقاً لمصالح ملكها ومملكته. مع أنها كما يروى كانت تميل إلى الانحياز لمعسكر بروتوس وكاسيوس لأنها قدرت أنهما سيكونان الرابحين، ولم ينقذها من حيرتها المعلقة إلا ائتلاف أنطونيوس وأكتافيوس.

قرر كاسيوس غزو مصر للاستيلاء على ثرواتها ومعاقبة كليوبترا التي تعللت بسوء الحالة الاقتصادية في مصر لعدم قدرتها حالياً على تزويده بالمؤن، وقد وعدته بأنها ستحاول تأمين كل ما تستطيع من دعم ومساندة، ولظنه بتحالفها مع قائد قوات الائتلاف في الشرق، ولنمعا من إرسال الإمدادات اللازمة لتتحالف أنطونيوس وأوكتافيوس كما اعتقد. إلا أنه لم يستطع تنفيذ مخططه بغزو مصر لاستدعاء بروتوس له إلى مدينة سميريا التي كانت تقع بالقرب من مدينة أزمير التركية الحالية. وقد روى المؤرخ اليهودي يوسفوس أنه بدلاً من ذلك أرسل قوات بحرية لاعتراض أسطول كليوبترا الذي أبحر من الاسكندرية بمحاذاة الساحل الليبي للإنضمام لقادة قوات الائتلاف الثلاثي فتعرض لعاصفة بحرية هوجاء أوقعت به الكثير من الأضرار إلى جانب مرض كليوبترا قائدة الأسطول المبحر، مما دعاها إلى العودة إلى الاسكندرية قبل اعتراض قوات كاسيوس البحرية لها⁽¹⁾. ويحل بعض المؤرخين صحة هذه الرواية بأنها كانت سيناريو محكم من كليوبترا لشراء الوقت.

اندحرت قوات بروتوس وكاسيوس في فيليبي سنة 42 ق.م، فالتحز كاسيوس وبروتوس، وكانت آخر كلمات الأخير: "أيتها الفضيلة ما أنت إلا كلمة مجردة".

كانت محصلة علاقة كليوبترا مع قيصر قد أدت بشكل واضح لعودة مصر للظهور من جديد كقوة دولية على مسرح السياسة في العالم القديم، وذلك بعد فترة من الضعف انتابتها. وكانت كليوبترا تأمل بحملها من قيصر أن يتيح لها وراثة حكم العالم بعد اعترااف قيصر بابنه قيصر منها وريثاً لحكم روما والعالم القديم. وقد كان هذا من الأسباب الأساسية التي عجلت بتنفيذ مؤامرة الاغتيال. وقد مثل مقتل قيصر ضربة الحظ السيئة بل القاتلة لطموحاتها.

عانى قيصر، حسب بلوتارخوس في تاريخه عن مشاهير اليونان والرومان، من مرض الصرع نتيجة إصابته بالملاريا في السنوات المبكرة من عقده الثالث، حيث بدأت مظاهر نوبات هذا المرض تزداد في سنواته الأخيرة، وقد سارع اغتيال قيصر بإنهاء الجمهورية التي امتد عمرها لخمسائة عام.

وضع قيصر التقويم الميلادي سنة 46 ق.م وقام بتوزيع أراض على خمسة عشر ألفاً من جنوده السابقين، وحدد السنة بـ 365 يوماً، وحدد أيضاً مجئ السنة القمرية كل أربع

(1) Josephus, Antiquities of the Jews 15.89 / جريغوس، تاريخ اليهود القديم. 15. 89.

سنوات، وسمى شهر تموز "جولاي" أو "جولي" / "يوليو" بعد (يوليوس/جوليوس). وتم بعد ذلك بزمان طويل تعديل التقويم القيصري من قبل البابا غريغوري الثالث عشر سنة 1582م إلى التقويم الميلادي الذي يأخذ به العالم اليوم.

كليوبترا وماركوس أنطونيوس (مارك أنطوني)

ارتبط جد ماركوس أنطونيوس، الخطيب أنطونيوس، بحزب سولا، حزب الأرستقراطيين الرومان، ومن أجل ذلك نفذ فيه حكم الإعدام من قبل ماريوس، عم يوليوس قيصر الذي كان زعيم حزب الشمعيين حينها. وكان والد أنطونيوس بريطوراً متحداً للسناتو سلطة بروقتصلية غير محدودة لمحاربة القراصنة الذين عاثوا فساداً في البحر المتوسط، لكنه فشل في مهمته، ولقي هزيمة كبرى أثناء هجومه على معقل القراصنة في كريت، ومات هناك. وأما والدته جوليا فكانت من عائلة يوليوس قيصر، لذلك كان قريباً لقيصر من ناحية الأم. وبعد موت والده تزوجت أمه من لنتولوس الذي تم إعدامه بمساع ودعم من شيشرون لمشاركته بمؤامرة كاتيلينا⁽¹⁾. وكانت هذه الحادثة وراء الكره العنيف الذي كان يكته أنطونيوس لشيشرون، حيث سينجح بالانتقام منه لاحقاً.

عاش أنطونيوس حياة ماجنة أيام شبابه الأولى، فكان سكيراً شنيع السلوك، تستهويه غواية النساء، مسرفاً بشكل غير محسوب، فإذا أعطى أعطى دون حساب، وعندما كان يدرك أنه ارتكب خطأ كان يعتذر لمن أخطأ بحقه، يتأثر سريعاً بالمديح، يقضي النهار في النوم أو في التسكع برأس مهووس وموجوع، ويقضي الليالي في صخب ومجون أو في حفلات الزواج والخطوبة أو حفلات البهاليل والمهرجين. وبشكل عام كانت البساطة مميزة لشخصيته. لكنه بعد ذلك ذهب إلى اليونان وقضى بعض الوقت في تعلم الممارسات القتالية وأساليب الخطابة. وقد استطاعت زوجته الثانية فولفيا ترويض شخصيته المتمردة والقلقة، حيث يمكن القول أن كليوبترا مدينة لفولفيا التي استطاعت تربيته على طاعة الزوجة والحبوبة.

وصف بلوتارخوس ماركوس أنطونيوس بالتالي: " .. اكتسب أنطونيوس مظهراً نبيلاً بلحية أنيقة وجبهة عالية وأنف معكوف كأنف تمثال هرقل، حيث كان مظهره رجولياً حتى يخيل للناظر إليه أنه يرى الإله هرقل. إضافة إلى أن الاعتقاد الروماني القديم كان يرى أن اسم أنطونيوس ينحدر من أنطونيوس بن هرقل. وكانت عادة أنطونيوس أن يضم عيافته الواسعة حول وسطه ويدلي منها سيفاً كبيراً وخنجرأ ثقيلاً بطريقة استعراضية، حيث كانت هذه المظاهر تحط من قدره عند خاصة الرومان، إذ كانوا يرون العظمة في

(1) - كاتيلينا Catilina هو نبيل روماني خطط وقاد مؤامرة للاستيلاء على الحكم سنة 63 ق.م. وقد قتل في معركة إترورية Etruria، وتم إعدام رفقاء المشاركين في المؤامرة.

نفسه والتفاخر في حديثه والحميمية مع من حوله، وفي جلوسه وطعامه ولهوه وفي ازدرائه للطعام وهو واقف خفة. مع كل ذلك كانت هذه الصفات غير المتكلفة هي التي تفرقه من رجاله على الدوام فيسعدون به وسطهم". وأخذ عليه البساطة والمرح والسخرية والبطء في فهم من يقابلهم والكسل عن النهوض واهتبال الفرص والمواقف، وذكر شيشرون إفراطه في الشراب حيث يحيل جلساته إلى مساخر. كما قيل أنه اشتهر بالشذوذ في شبابه، إلا أنه اتجه بعد ذلك إلى النساء، إذ قيل أنه لم يكن يشبع منهن قط؛ لكنه أثبت قدرات قتالية عالية وتكتيكات ناجحة في المواجهات، لذلك منح نوط الشجاعة والشرف، وكان جنوده يرونه مثلاً لهم، إذ كان يشاركهم التدريب والحياة في مواقعهم، كما كان كريماً معهم إلى أبعد الحدود، لكنه كان قاسياً عندما تقتضي الضرورات ذلك.

عندما أبحر جابينوس إلى سورية حاول إغراء أنطونيوس بالإبحار معه في مهمته، فاشتراط أنطونيوس تعيينه قائداً للفرسان في حملة جابينوس لإنهاء التمرد اليهودي في فلسطين، وقد شارك أنطونيوس في هذه الحملة الرومانية التي أيضاً أعادت بطليموس الثاني عشر إلى عرش مصر، حيث كانت المرة الأولى التي يأتي بها إلى مصر ويقابل كليوباترا.

انحاز أنطونيوس إلى حزب الشعبين عندما نشبت الأزمة في روما بين هذا الحزب تحت قيادة قيصر وحزب الأرستقراطيين تحت زعامة بومبيوس، وذلك بتأثير من صديقة كوريو. وقد عينه قيصر تربيوناً، فشكل دعماً قوياً له. وبعد انتخاب قيصر قنصلاً للمرة الخامسة عين أنطونيوس كزميل ونائب له.

هرب أنطونيوس بلباس خادم إلى حيث يعسكر قيصر في بلاد الغال بعدما أعلن مجلس الشيوخ قيصر عدواً للشعب وبومبيوس حامياً وقنصلاً عليها. وبناء على معلومات أنطونيوس التي قدمها لقيصر عما كان يجري من هوضى في روما، قرر قيصر اهتبال اللحظة التي تطابقت مع ما كان يخطط له فزحف من بلاد الغال باتجاه إيطاليا، وذلك في كانون الثاني عام 49 ق.م. وكتب شيشرون عن ذلك قائلاً: "كانت هيلين السبب المباشر في حروب طروادة وأنطونيوس في الحرب الأهلية الحالية". إلا أن هذا الاتهام لم يكن صحيحاً لأن قيصر لم يكن لين العريكة أو يتأثر برد فعل سريع، بل كان رجل دولة من الطراز الرفيع، دقيق التخطيط والتنفيذ. إذ تقدم نحو روما وهزم بومبيوس في معركة فارسالوس، فالتجأ الأخير إلى مصر وقتل هناك. وكان أنطونيوس يقود الجناح الأيسر لقوات قيصر بينما كان قيصر على الجناح الأيمن. وبعد أن أصبح قيصر دكتاتوراً عين أنطونيوس قائداً عاماً لسلاح الفرسان في الجيش، حيث كان هذا المنصب يعد تالياً إن كان الدكتاتور في المدينة، وأولاً إن كان خارجها.

مثل مصرع يوليوس قيصر في 15 آذار سنة 44 ق.م ضربة قاصمة لأمال وطموحات كليوباترا بأن تصبح ملكة العالم القديم في روما عاصمة الدنيا إلى جانب ملكها يوليوس قيصر. إلا أن حظوظ هذه المرأة المميزة لم تنته عند ذلك الحد بل بدأت تستقيم

باقدارها مع القائد الروماني الشهير ماركوس أنطونيوس فبعثت في طموحاتها الأمل والحلم من جديد .

بعد انتهاء الحرب الأهلية التي نشبت بين الائتلاف الثلاثي الثاني وبين قتلة قيصر بقيادة بروتوس وكاسيوس بانتصار تحالف أوكتافيوس وأنطونيوس في معركة فيليبي (وهي مدينة مقدونية قديمة كانت تقع على الساحل الشمالي الشرقي لبحر إيجه) في 42 ق.م، اقتسم المنتصرون البلاد بينهم، حيث صارت الولايات الغربية لأوكتافيوس والولايات الشرقية لماركوس أنطونيوس، والتي من ضمنها مصر. وكانت مصر وقتها تعد دولة مستقلة من الناحية الرسمية بالرغم من دوراتها الفعلي في ذلك روما ، فأراد أنطونيوس أن يرسم سياسة جديدة لمصر. وبعد اندحار قوات بروتوس وكاسيوس في معركة فيليبي الفاصلة استدعى أنطونيوس، الذي عهد إليه تنظيم شؤون الشرق، كليوبترا وملوك وحكام الشرق الذين حامت الشبهات حول موافقهم بعد مقتل قيصر للمثول أمامه في إفسوس Ephesus التي وصل إليها بعد انتهاء الحرب الأهلية. وعندما وصل ديليوس مبعوث أنطونيوس إلى كليوبترا لاحظ رقتها وحده ذكائها وعقلها اللامع فأدرك أن أنطونيوس لن يقدم على إيذاء هذه المرأة أبداً، بل على العكس سيكون لها تأثير عظيم عليه. فغير من لهجة خطابه للملكة وأغراها بقاء قائده. رأت كليوبترا في هذه الدعوة أملاً جديداً لإحياء ما كانت تخطط لحدثه مع قيصر. إلا أنها لم تلب طلب أنطونيوس في الحال وتركته ينتظر إلى حين، فأرسل لها رفيق مجونه يستحثها للقائه، فصرخت تخطط من أجل الاستيلاء على لب سيد روما الجديد كما سليت لب سيده السابق. فضمت إليه بسلاحين ماضيين؛ جمالها وأوتيتها الفاتنة وذكائها الشديد، حيث كانت تعرف نقاط ضعف الرجل. فاستقلت مركباً صنعت مقدمته من الذهب، وقلاعته من القماش الأرجواني، ومجاذيفه من القضة، فوصلت على ظهره وسط العطور العبقية والموسيقى الشجية بين غوان يمثلن إلهات الحب وعرائس البحار، حيث دعت أنطونيوس للقائها بدلاً من الذهاب إليه؟ أخذ لب أنطونيوس ما رأى فوقع في أمر غرامها حيث سيكون مصير روما رهناً بمشيئة كليوبترا، واستطاعت بسهولة نفي الشكوك التي أثرت حول موقفها من الحرب الأهلية وأنها بريئة مما نسب إليها بالانحياز إلى معسكر بروتوس وكاسيوس. وبعد أن قضت كليوبترا مدة مع أنطونيوس أبجرت عائدة إلى الاسكندرية.

يصف بلوتارخوس كليوبترا في أول لقاء لها بأنطونيوس في تاريخه " سير النظراء، أنطونيوس". ص197، بالتالي: "كان جمالها غير قابل للمقارنة بآخر كما روي لنا، إذ لم يكن جمالها فقط المؤثر بمن يراها بل جاذبية حديثها الذي لا يمكن مقاومتها، وكان حضورها وأسلوب حديثها المقتنع والشخصية التي كانت منصهرة في سلوكها مع الآخرين؛ كله يوحي بالإثارة والاحترام. طلاوة في نغمات الصوت واللسان. وكانت تجيب على جميع الأسئلة وتجري الحديث بأي لغة من لغات منطقة المشرق يقتضيها الموضوع". وإلى جانب لغتها اليونانية التي كانت تتكلمها الأرستقراطية اليونانية، اشتهرت بأنها ربما كانت الحاكم الوحيد من السلالة البطلمية الذي يتعلم اللغة المصرية القديمة، إضافة إلى أنها

تبنّت المعتقدات المصرية والآلهة المصرية القديمة حينها، والتي كانت راعيتها الآلهة إزيس، فتقمصت وأندمجت بدور آلهة الحكمة المصرية. كما كانت مهمة بطلب العلم منذ صغرها، فتعلمت عدة لغات، كما كانت أيضاً مفرمة بالفلسفة والرياضيات والشعر.

في شتاء 40/41 لحق أنطونيوس بكليوبترا إلى الاسكندرية فدخلها كمواطن روماني عادي صديق في ضيافة ملكة يطلمية، ف عاشا أوقاتاً جميلة، وترسخت علاقتهما من خلال تعدد وإطالة فترات اللقاء بينهما سواء في مصر أو خارجها بناء على مقتضيات أماكن تواجد أنطونيوس في منطقة المشرق. في هذا الوقت كانت فولفيا زوجة أنطونيوس تتناضل في روما للحفاظ على ثروة زوجها ضد أطماع أوكتافىوس، وكان الجيش الفارسي يستعد لغزو سورية وآسية الصغرى، فوصلته أخبار حرب زوجته وأخيه لوكيوس من ايطالية بعدما اشتد خلافهم مع أوكتافىوس. ووصلته رسائل زوجته بعد مغادرته مصر في ربيع 40 ق.م عند وصوله الساحل القينيقي فاصداً مقر قيادته في أنطاكية وأثينة لحشد القوات استعداداً لمصد الغزو الفارسي، فاستدار مبحراً بمائتي سفينة نحو ايطالية، في الوقت الذي توفيت فيه فولفيا بعد مرضها وهي تبخر للقائه. في هذا الوقت أيضاً أرسل البرثيون الفرس إلى كليوبترا للتعاون معهم لكنها رفضت العرض.

عندما وصل أنطونيوس ايطالية استقبله أوكتافىوس استقبالاً حسناً، وأثمرت مساعي الصلح بينهما عن عقد معاهدة برنديزي لحكم البلاد مناصفة، حيث أصبحا سيدا الدولة الرومانية؛ إذ عهد الشرق حتى شواطئ البانبة لأنطونيوس، والغرب لأوكتافىوس، بينما احتفظ لبيدوس بشمال أفريقية. وتأكيداً لتمتين عرى الاتفاق تزوج أنطونيوس من أوكتافيا أخت أوكتافىوس، رغم عدم نفي علاقته بكليوبترا، بل اكتفى بنفى زواجه منها. وقد تم أخذ موافقة مجلس الشيوخ على الزواج مخالفة للقانون الروماني الذي يقول بانقضاء عشرة أشهر على وفاة الزوج قبل زواج الزوجة من جديد. وقد عد هذا الزواج زواجاً سياسياً لضمان مدة المعاهدة ولإبعاد ماركوس أنطونيوس عن كليوبترا. وخلال وجوده في ايطالية عقد القادة أوكتافىوس وأنطونيوس وسيكستوس بومبيوس اتفاقاً في عرض البحر يقضي بمنح ابن بومبيوس جزيرتي صقلية وسردينية.

بعد مدة من ولادة أوكتافيا لابنتها أنطونيا من أنطونيوس في صيف 39 ق.م بارحوا ايطالية إلى أثينة التي اتخذها أنطونيوس مقراً له لإدارة الشرق. فبقي في أثينة مع زوجته لمدة سنة ونصف يعيش حياة هانئة، أرسل خلالها قادته على رأس جيشه فطردوا البرثيين من سورية.

وهكذا بدا كأن كليوبترا قد أصبحت خارج المشهد في الوقت الذي أنجبت فيه توأماها من أنطونيوس نهاية عام 40 ق.م، وسمتهما: اسكندر هليوس (الشمس) وكليوبترا سباني (القمراً)، وأعلنت على الملأ أنها ابنا ماركوس أنطونيوس.

أرسل أنطونيوس إلى كليوبترا خريف 37 ق.م، بعدما سفر زوجته أوكتافيا إلى روما متعللاً بحملها واقتراب وضعها وبأنه سيكون منشغلاً بوضع الترتيبات النهائية لحملته

المقبلة على بارثية الفارسية، وهو في طريقه من أثينة إلى سورية، أن توافيه في أنطاكية. وكان قد انقضى ثلاثة أعوام منذ آخر لقاء بينهما. فوافته إلى أنطاكية بعد وصوله، فقام بإجراءات حفل الزواج منها واعترف بابنيه هليوس وسيلني، فأصبحت كليوبترا في نظر الجميع شرقي البحر الأدرياتيكي زوجة أنطونيوس الشرعية، لكن الرومان رفضوا الاعتراف بهذا الزواج لعدم تطبيق أوكتافيا، ولأن القانون الروماني لا يسمح بالزواج من غير الرومانية.

قدم أنطونيوس سورية المجوفة بما فيها دمشق ودمبلوك ومعظم شواطئ فلسطين وفينيقية باستثناء صيدا وصور لاحتفاظهما باستقلالهما، وقبرص وكليكية وكريت، جميعها كهدية زواج لكليوبترا بحيث أصبحت الأراضي التي تحت حكم كليوبترا كما كانت الامبراطورية البطلمية في بداياتها الأولى، ولم يمنع عنها إلا المملكة التي كان يحكمها هيروودوس الآدومي بدعى حاجته إلى اليهود في معركته المقبلة مع بارثية. وقد تهدت كليوبترا أن تقدم له جميع أنواع الدعم من أموال ومؤن ومساعدات وأن تبني له السفن التي يحتاجها لغزو الامبراطورية البرية التي كان يخطط لها. وقد روى بلوتارخوس في "سيرالانظراء، أنطونيوس، ص219"، ما كان يريده أنطونيوس في سياق الكرم الروماني: إن عظمة الامبراطورية الرومانية ليس بما يأخذه الرومان، بل بما يمنحونه، وأن العائلات النبيلة تكبر وتتوسع من خلال إنجاب الكثير من الملوك".

أنجبت كليوبترا من أنطونيوس مولودها الثالث سنة 36 ق.م بعد عودتها إلى الاسكندرية وسمته بطليموس فيلادلفوس تخليداً لذكرى استعادة الامبراطورية التي كانت قائمة في عهد هذا الملك. حتى إذا جاء عام 35 ق.م شن أنطونيوس حملة فاشلة على البربيين الفرس، فاضطر إلى انسحاب كلفه خسائر فادحة في العتاد والجنود. فلما علم أنطونيوس أن زوجته أوكتافيا تركت روما تتوي للحاق به في سورية ومعها أموال وإمدادات ومعونات جمعتها للجنود المهزومين، وكانت قد أنجبت له ابنتها الثانية قبل مبارحتها روما، وكانت كليوبترا معه عند ورود هذه الأخبار، فحسبت أن حضور أوكتافيا سيشكل تهديداً لتأثيرها على أنطونيوس وعلى سمعتها، فاستخدمت تأثيرها على أنطونيوس لمنع حضور أوكتافيا، فكتب لها من مكان إقامته في سورية أن تعود أدراجها إلى روما فوراً وأن ترسل له ما تحمله إلى سورية، مما أدى إلى غضب أخيها أوكتافيوس. وقد رأت أوكتافيا في رغبة زوجها نوعاً من الاحتقار لها، إلا أنها لم تستجب لرغبة أخيها بترك بيت أنطونيوس. في نفس الوقت وعدت كليوبترا أنطونيوس بتقديم مساعدات مالية ولوجستية كبيرة لإعادة بناء جيشه المهزوم.

وفي سنة 34 ق.م أخضع أنطونيوس أرمينية وجعلها ولاية رومانية، وخطب ابنة ملك ميديا لابنه من كليوبترا اسكندر هليوس وقرر منحه أرمينية. ثم احتفل بانتصاره على أرمينية في الاسكندرية بدلاً من روما كما جرت العادة، حيث اعتبر الرومان ذلك إشارة لنيته بنقل العاصمة من روما إلى الاسكندرية. وقد قدر بعض المؤرخين أن ذلك لم يرق لكليوبترا التي كانت تتوق إلى حكم الدولة الرومانية من عاصمتها روما، وكانت تردد عند

إصدارها الأحكام والمراسيم بأنها ستصدرها يوماً ما من الكابيتول في روما. ومن يتابع سيرة كليوبترا يجد نفسه أمام امرأة حكيمة يسيطر عليها العقل على الجسد والعواطف، وأنها إنما كانت تستخدم الجسد والعواطف لخدمة أغراضها السياسية العامة. فقد كانت تعلم أن مثل أنطونيوس لم يكن يستطيع الزواج المعترف به في روما إلا من رومانية، وأنه إذا فعل ذلك فلن يستطيع الاحتفاظ بمركزه أو العودة إلى روما، وهو ما لم تكن تقبله منه في هذا الوقت.

بعد أن ترك أنطونيوس كليوبترا في سورية وهو في طريقه لإخضاع المملكة الأرمينية، زارت كليوبترا بعض المدن السورية في طريق عودتها إلى الاسكندرية وعلى رأسها دمشق، ثم عرجت على مملكة الهيرودين فاستقبلها الملك هيرودس استقبالاً حسناً. وقد وصف المؤرخ اليهودي يوسوفوس بن كريون، وهو من أعظم كهنة اليهود (37-103م)، محاولة كليوبترا إغراء هيرودس جنسياً، فرفض إيعااتها واحتقرها وأراد قتلها، إلا أن مستشاريه نصحوه بعدم التعرض لها بسوء مخافة انتقام أنطونيوس؛ ويعتقد أن هذه الرواية ضعيفة ولا يمتد بها إذ لا حاجة لكليوبترا لإغراء هيرودس وهي من هي لإمبراطور الشرق أنطونيوس؛ والاعتقاد السائد أن كراهية اليهود لها كان بسبب طموحاتها في ضم المملكة الهيرودية لها لتعود كما كانت عند بداية الامبراطورية البطلمية.

عندما عاد أنطونيوس بعد انتصاره على البرثيين باستعادة ميديّة وأرمينية في خريف 34 ق.م أعدت له كليوبترا موكباً هائلاً في اجتماع حاشد في استاد الاسكندرية دعي إليه القادة والجنود وشعب الاسكندرية، حيث أقيم على منصته الرئيسية عرشان مرتفعان جلس عليهما أنطونيوس وكليوبترا، وعلى مستو أدنى أمام المنصة جلس على عروش أخرى قيصررون، اسكندر هليوس، بطليموس فيلادلفوس، فلكيوبترا سيلنى. خاطب أنطونيوس الحضور (عرف هذا الخطاب باسم وصية الاسكندرية) بأن كليوبترا كانت زوجة ليوليوس قيصر وقيصر هو ابن قيصر الشرعي، ثم أعلن كليوبترا ملكة الملوك وقيصر ملك الملوك على أن يحكما معاً مصر وقبرص وتمتد سيادتهما على ممالك أبناء كليوبترا الآخرين، وأعلن تقسيم الولايات الشرقية التي يحكمها على أبنائها من كليوبترا. ويذكر أن أنطونيوس لم يوص لابنه أنتليوس من زوجته فولفيا بشيء، والذي كان في العاشرة من عمره، وكان وريثه الشرعي الوحيد حسب القوانين الرومانية. ونظر في الاسكندرية إلى زواجهما بعد هذا الاحتفال على أنه زواج إلهي؛ زواج ايزيس بأوزيريس، وأفروديت بديونيساس.

شعرت النخبة السياسية الرومانية بالقلق والحيرة لاحتفالات نصر أنطونيوس في مدينة الاسكندرية بدلاً من روما كما هي العادة، وتساءلت لما ذلك؛ ولما يظهر أنطونيوس كإله إغريقي وليس روماني؟ وقد نظر بعض المؤرخين إلى وصية الاسكندرية كبداية النهاية لأنطونيوس، ونقطة التحول التي بدأت تميل لمصلحة أوكتافيوس في الصراع الدائر بينهما على حكم الجمهورية الرومانية التي ستصبح الامبراطورية الرومانية قريباً.

عاد أوكتافىوس، من حربه الثانية الناجحة في البلقان، إلى روما سنة 34 ق.م، وسمع بأخبار وصية الاسكندرية، فالتزم الصمت لمدة، إلا أنه بدأ بانتقاد أنطونيوس علانية في بداية 33 ق.م. فأرسل له أنطونيوس رسالتين؛ الأولى رسمية ومقتضبة، والثانية طويلة وصريحة، أهم ما فيها أنه لم يبدد ممتلكات الدولة الرومانية ثمناً للجسد الذي قدمته كليوبترا.

انشغل أوكتافىوس بحربه الثالثة في شبه جزيرة البلقان، فانتصر فيها انتصاراً كاملاً. فبدأ بتجديد حرية الكلامية ضد أنطونيوس وسياساته، وأخذ أنصاره يقارنون بين نجاحاته وإخفاقات أنطونيوس ويذكرون الرومان بسوء صحة أنطونيوس وكسله وإفراطه في الشراب ودعته إلى كل مائذ وطاب بدل الاهتمام بالشأن العام لهام وظائفه، وبأنه أهدى أملاك روما لمن ضاجعها، ودون أن يكلف نفسه مسألة المشورة أو حتى إعلام مجلس الشيوخ، كما أنه استخدم الجنود الرومان لخدمة أطماع عشيقته البطلمية. وبالطبع لم يسكت أنصار أنطونيوس، فبدأت حرب تشهير مسمورة بين الطرفين اندرت فيها أمور الدولة الرومانية العظيمة إلى هذا الدرك!

في خريف 33 ق.م أرسل أوكتافىوس إلى أنطونيوس رداً جافاً ومقتضباً على اتهاماته، في الوقت الذي خرج فيه أنطونيوس لصدد هجوم البرثيين الوشيك على أراضيه. وبدلاً من أن يتصرف أنطونيوس بحكمة ويضع الأمر بين يدي مجلس الشيوخ لكسبهم إلى جانبه، ذهب بعد ذلك إلى آسيا الصغرى وقضى مع كليوبترا شتاء 33 و 32 ق.م في مدينة إفسوس حيث أشرفا على حشد الجيوش والأساطيل. وأثناء ذلك أهدى أنطونيوس إلى كليوبترا مكتبة برجام الشهيرة وفيها مائتي ألف كتاب ومجلد تعويضاً عن الكتب التي ذهبت طعاماً للنيران أثناء حرب الاسكندرية بين قيصر والجيش المصري سنة 48 ق.م. ثم كتب لمجلس الشيوخ الروماني خطاباً يعلمه بانتصاراته الحربية الأخيرة وعن الفوائد السياسية لروما من وصية الاسكندرية، ثم عرض على المجلس أن يتنازل هو وأوكتافىوس عن حقوقهما في الحكومة الائتلافية ويتركا الأمر للمجلس، لكن المجلس لم يحرك ساكناً. وفي نهاية 33 ق.م عندما انتهت فترة اتفاقية تارتونوم (جنوب ايطالية) لتقاسم البلاد، والتي عقدت سنة 37 ق.م لمدة خمس سنوات، تظاهر أوكتافىوس وأنطونيوس بالتنازل عن سلطانهما، لكنهما استمررا يحكما من مواقعهما، بل إن الصراع أخذ يشتد مما انعكس بالتنازع بين أعضاء المجلس. وقد جاءت محاسن الصدف التي لم يستطع أنطونيوس اقتصارها كالعادة، ذلك أن المجلس انتخب قنصلين⁽¹⁾ رومانيين جديدين في أوائل عام 32 ق.م- بعد انقضاء فترة الشريكين- كانا من مؤيدي أنطونيوس، وهما:

(1)- حل محل الملك في رئاسة الدولة في النظام الجمهوري حكامان ينتخبهما مجلس الشعب سنوياً هما القنصلان. وكان لكل منهما مطلق السلطة يباشرها كلهما شاء، وإن كان للقنصل الآخر الحق في الاعتراض على ما يتخذ من قرارات، حيث يقترب على هذا الاعتراض تعطيل القرار الذي اتخذ أحدهما منفرداً. وكانت هذه السلطة تنقص عن سلطة الملك بالتراسة الدينية فقط.

أينوبارياس وسوسيان. فطالب سوسيان القائد البحري الشهير المجلس بسحب الثقة من أوكتافقيوس، إلا أن أوكتافقيوس ألقي خطاباً قوياً أمام المجلس، وحرسه من حوله، وجه فيه هجوماً شديداً وسافراً ضد خصمه أنطونيوس، بحيث لم يستطع أحد من مناصري أنطونيوس، وفي غيابه، الصمود أمام استبداد أوكتافقيوس، فبدؤوا بترك المدينة، حيث ذهب أكثر من مائتين منهم إلى معسكر أنطونيوس في إفسوس.

كان لإعلان أنطونيوس طلاقه من أوكتافيا أخت شريكه أوكتافقيوس في الائتلاف الثلاثي الثاني في تموز سنة 32 ق.م، إضافة لإعلان زواجه سابقاً من كليوبترا واعترافه بشرعية أبنائه منها وتقسيم ولايات الشرق بينهم، بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، والتي كان ينتظرها أوكتافقيوس لانهاء الصراع على الاستقلال بحكم روما منفرداً. وقد قيل أنّ كليوبترا من حرص أنطونيوس على الطلاق، لأنها اعتقدت بانتصاره وأن حسم الأمور لمصلحته بات قريباً، وأن زواجهما سيصبح رسمياً بعد أن يؤول العرش الروماني لأنطونيوس.

بدأ كليوبترا أنها نجحت في خططها بكسب زعيم روما المقبل لقضيتها، فما هو يتبنى قضية بنو ابنها من قيصر، وقد رسمت الخطط وأحكمت تنفيذها لتجريد روما في النهاية من امبراطوريتها ونقل عاصمة العالم إلى الاسكندرية وهي على راس هذا العالم. بيد أن أنطونيوس خسر الغالبية من الرومان بسبب هذا الطلاق، فأخذ الكثير من أنصاره يتكفون إلى أوكتافقيوس، وكان من ضمنهم السناتور الروماني المتنفذ بلانكوس الذي سارع إلى روما وألقى خطاباً حافلاً بالمجلس كال فيه اتهامات كثيرة، منها الحقيقي وبعضها كاذب، لزعيمه السابق أنطونيوس. وادعى بلانكوس وتيطوس أنّ أنطونيوس أودع وصيته في معبد الكاهنات العذاري في روما- على عادة العرف الروماني فذهب أوكتافقيوس وأخذ الوصية بالقوة مخالفاً العرف الروماني، وأطلع المجلس على فعوى وصية أنطونيوس التي أكد فيها أن بطليموس قيصر بن يوليوس قيصر وكليوبترا هو الابن الشرعي الوحيد لقيصر الأب وبالتالي فهو وريثه الشرعي في حكم روما، وأن أبناء أنطونيوس الثلاثة من كليوبترا هم وريثه الشرعيون، وطلب بدفته بعد موته في الاسكندرية وليس في الفوروم الروماني، حتى وإن مات في روما.

أثارت هذه الوصية جدلاً واسعاً بحيث أجمعت نار الحقد والكراهية في نفوس الرومان، وذكرتهم بخوفهم القديم من نقل عاصمتهم روما إلى الاسكندرية، ومن ارتباط أنطونيوس بالشيطانة البطلمية وتأثير سحرها عليه.

كان ما قام به أنطونيوس يمثل تهديداً مباشراً وغير مسبوق بخطورته على مستقبل الدولة الرومانية الواسعة على أراضيها وأقاليمها وممالكها التي عما قريب ستصبح الامبراطورية الرومانية. لذلك، بدأ أوكتافقيوس الحاكم في روما وفي الغرب الروماني بحشد النخبة السياسية الرومانية والشعب الروماني خلف قيادته، وشن في البداية حملة منظمة للتشهير بأنطونيوس وكليوبترا. اتهمهما بأنهما يخططان إلى غزو روما وإعلان الملكية وتتويج أنطونيوس ملكاً وكليوبترا ملكة عليها. كما فعلاً بتحويل الولايات الشرقية

إلى مملكة هو ملكها وكليوبترا ملكتها وأولادهما يرثون من بعدهما، وأنهما يونان نقل العاصمة من روما إلى الاسكندرية. وقد اجتهد أوكتافىوس بإظهار ما فعله أنطونيوس وما يخطط له كخيانة عظمى لروما وللدولة وللشعب الروماني، فنجح في تأليب الراي العام الروماني على أنطونيوس وكليوبترا معاً. كما نجح أيضاً في جعل الرومان يرون أن أنطونيوس أصبح أسير امرأة ليست رومانية يخطط لجعلها ملكة عليهم، فاجتهدوا بتوجيه أشكال شتى من المويقات والمثالب لأنطونيوس، مما سارع في الاصطفاف والاستعداد لمشاركة الولايات الرومانية في الهوف إلى جانب أوكتافىوس وحرمان أنطونيوس من جميع سلطاته وحقه في تولي منصب أحد القنصلين، فتم إعلان الحرب على كليوبترا وليس على أنطونيوس، وذلك بعد نجاح أوكتافىوس بحشد مجلس الشيوخ وجماع الشعب بأنه المدافع عن مصالح الدولة الرومانية في الوقت الذي يقوم أنطونيوس بتمزيقها.

طالب بعض أنصار أنطونيوس إبعاد كليوبترا عن إفسوس، لكن قائد أركان أنطونيوس* كانيديوس كراسوس ذكر الحاضرين بتضحياتها الكثيرة وخيراتها الواسعة وإنها لا تقل بشئ عن بقية الملوك والقادة الموجودين، بحيث أيد أنطونيوس ذلك.

ترك أنطونيوس وكليوبترا إفسوس إلى جزيرة ساموس اليونانية ربيع 32 ق.م. وأقاما فيها احتفالات واسعة، ثم ذهبا بعد ذلك إلى أثينة فبقيا فيها حتى نهاية الصيف. وقد أخذ جيش أنطونيوس يتجمع على أطراف بحر إيجه الشرقية فوق شبه الجزيرة اليونانية، فتكون من 75 ألفاً من الجنود تنظمهم 30 فرقة، ويساعدهم 25 ألفاً من الرماة و12 ألفاً من الفرسان، ويوازهم في البحر زهاء 500 سفينة حربية نصفها لكليوبترا، و 300 سفينة تجارية. وكانت غالبية هذا الجمع من اليونان وآسية الصغرى وسورية ومصر، إذ حرم انقطاع أنطونيوس عن ايطالية من تجنيد الرومان في هذا الحشد. وقد تضمنت رواية بلوتارخوس وغيره أن عدة أنطونيوس الحربية كانت وقيرة وتفوق عدة خصمه أوكتافىوس الذي عانى من صعوبات كثيرة في تجميع السفن وحشد الأموال اللازمة، وأن جيشه لم يزد على ثلثي جيش خصمه، ولم يتجاوز عدد سقنه أكثر من 400.

أشار بلوتارخوس إلى أن تأخر المواجهة أساء كثيراً إلى أنطونيوس، إذ كان عليه أن يغزو ايطالية لمحاربة خصمه وإثليل منه بدلاً من انتظار مهاجمته له على الساحل اليوناني في أكتيوم. واستشهد بلوتارخوس بما قاله الشاعر اللاتيني هوراس: .. كان الايطاليون في ثورة بسبب الضرائب التي فرضها أوكتافىوس لتمويل الحرب، وكانوا يتوهون إلى هجوم أنصار أنطونيوس، ويحسبون له ألف حساب. وذهب بعض المؤرخين إلى أن تقاعس أنطونيوس وتأخره عن شن الهجوم المتوقع يعود إلى كليوبترا، لكن آخرين رؤوا أنه لم يكن يستطيع نقل أعداد جنوده إلى ايطالية عبر موانئها المزدحمة ليشق طريقه إلى روما. مهما يكن، فقد أخطأ أنطونيوس باختيار موقع المعركة حسب بعض المؤرخين؟

نجح أوكثافيوس قبل نهاية عام 32 ق.م في عزل أنطونيوس من منصبه ومسئوليته واعتبره جندياً رومانياً سابقاً خرج على طاعة روما وذهب يخدم ملكة أجنبية معادية لمصالح الشعب الروماني. ثم طالب أنصاره بيمين الولاء له، مما دفع أنطونيوس بالمطالبة بنفس اليمين من أنصاره. لكن الأسابيع التالية شهدت هروب أعداد كثيرة من أنصار أنطونيوس في إيطاليا إلى أوكثافيوس، وهروب أنصاره من اليونان للانضمام إلى جيش أوكثافيوس في إيطاليا. مع ذلك، لم يعلن أوكثافيوس الحرب على أنطونيوس، بل على كليوبترا التي أصبحت عدوة روما الشرقية اللدودة التي أغوت أحد قادتها وأفسدته بالبدخ والخمر والجنس!

تضمنت رواية المؤرخ بلوتارخوس في تاريخه " Parallel Lives / سير النظراء"، وفي غيرها، تفاصيل دقيقة لسير المارك البرية بين الطرفين على شواطئ البحر الأدرياتيكي. ففي بداية عام 31 ق.م اخترق الجزء الأكبر من أسطول أوكثافيوس بقيادة أجربيا البحر الأيوني واحتل قاعدة أنطونيوس في ميثون، ثم أخذ أجربيا يهاجم من ميثون مراكز أنطونيوس البرية والبحرية المتناثرة حوله. فبعث استيلاء أجربيا على ميثون اليأس في نفوس أنصار أنطونيوس، وأتبع أوكثافيوس ذلك بنقل الجزء الأكبر من جيشه إلى شاطئ البحر الأيوني في محاولة التقاف حول قوات أنطونيوس من الشمال، وبذلك سيطر أجربيا على نقطتين هامتين هما ميثون وكوركيرا، ثم تقدم منهما باتجاه الجنوب على البر والبحر حتى أصبح على مرمى البصر من أكتيوم.

فرض تقدم قوات أوكثافيوس على أنطونيوس وكليوبترا نقل معسكرهما إلى أكتيوم، فأصبح واضحاً أن قوات ماركوس البرية والبحرية أصبحت محاصرة بين قوات أوكثافيوس البرية إلى شمالها، وسفنه في البحر وخليج أمبريسيا إلى جنوبها. فآخذ أنصار أنطونيوس يتركونه.

في أوائل آب أرسل أنطونيوس بعض قواته لفك الحصار المضروب عليه من الشرق، كما حاول قائد آخر الخروج بجزء من الأسطول من خليج أمبريسيا إلى عرض البحر، غير أنه لم ينجح في ذلك فاضطرت سفنه للعودة إلى داخل الخليج. كما أرسل أنطونيوس بعضاً من كتائب الفرسان لفك الحصار البري، إلا أن قائد هذه الكتائب الملك أميناس انضم بمن معه إلى معسكر أوكثافيوس، كما أعلن حاكما كريت وقبرص تركهما لأنطونيوس وانضمامهما لأوكثافيوس.

طلب القائد كانديوس كراسوس من أنطونيوس سحب جميع قواته البرية إلى مقدونية واستدراج أوكثافيوس لخوض المعركة الفاصلة على الأرض، حيث أكد له تفوقه لكسب المعركة البرية التي ستقرر أمر الدولة حتى ولو خسر جميع سفن أسطوله، إلا أن أنطونيوس لم يأخذ برأي قائده هذا في الحال. وسيضطر أنطونيوس إلى الأخذ بهذا الرأي لاحقاً، ولكن بعد فوات الأوان، حيث ستكون خطة أنطونيوس النهائية بعد سير المعارك واتضح نتائجها إلى سحب جيشه إلى مقدونية، والخروج بالسفن إلى الاسكندرية.

حسمت معركة أكتيوم البحرية الصراع بين الرجلين لصالح أوكتافيوس. حيث دارت المعركة الفاصلة بين الطرفين عند أكتيوم البحرية على الشواطئ اليونانية الغربية في أيلول سنة 31 ق.م. وقد حشدت كليوبترا أسطولها وهي على رأسه إلى جانب أنطونيوس في هذه المعركة. وبدا تفوق قوات أوكتافيوس يظهر سريعاً بعد التحام السفن ببعضها بعد خروج سفن أنطونيوس من الخليج، فأسرعت كليوبترا من الخلف مندفة بسفنها الستين الباقية والناشرة أشجعها للفرار باتجاه مصر، فلاحق بها أنطونيوس بعد أن بدل سفينة بأخرى. استسلمت بعدها بقية سفن أنطونيوس في عرض البحر أو في الخليج بعد أن غرق منها 40 سفينة ولم يقتل في المعركة أكثر من 500 جندي غالبيتهم من رجال أنطونيوس.

بعد ثلاثة أيام وهو في طريق انسحابه البحري إلى مصر أرسل أنطونيوس إلى قائده كانديوس كراسوس أن يكمل انسحابه سريعاً إلى آسية عن طريق مقدونية، ولم يكن يعلم أن كراسوس قد قبل شروط أوكتافيوس للتناوضية للاستسلام.

اختلف المؤرخون والباحثون حول موقف كليوبترا من هذه المعركة؛ فمن قائل أنها خانت أنطونيوس بانسحابها غير المحسوب من المعركة؟ ومن قائل آخر أن انسحابها كان خطة اتفق عليها مع أنطونيوس؟

ويرى بلوتارخوس في روايته أن أوكتافيوس كان متفوقاً في البحر بينما كان أنطونيوس متفوقاً في البر. لكن أنطونيوس على عكس رغبات بعض ضباطه، انصاع لرأي كليوبترا بأن قرر خوض المعركة الفاصلة في البحر. كما يرى بلوتارخوس أن كليوبترا غدرت بأنطونيوس عمداً وعن تصميم، حيث حرصته على خوض المعركة في البحر، وبدلاً من القتال إلى جانبه لكسبها أعدت نفسها للهرب طلباً للسلامة. إلا أن بعض الباحثين يرون أن كليوبترا وأنطونيوس كانا يشكان في كسب المعركة قبل وقوعها، وأن المعركة البحرية التي قررا خوضها كانت خطة للانسحاب يحرأ إلى مصر؟

وتدعو جملة هذه التبريرات إلى طرح السؤال التالي: ما هي الأسباب الحقيقية التي كانت وراء قرار كليوبترا وأنطونيوس بالذهاب لمواجهة جيش بقيادة أوكتافيوس في معركة أكتيوم البحرية؟ ما الذي أعمى بصيرتهما؟ ألم يدركا أنهما كانا ذاهبين إلى مصيرهما النهائي، خاصة وأنهما كان يدركان أن أوكتافيوس استطاع بنجاح كامل تجيش روما وشعبها وجيشها ضدّهما، وأن استعداداته العسكرية كانت شبه كاملة لسحقهما؟ أم أن الأحقاد والطموحات والكبرياء والغرور والإزدراء الذي صنعه قضية عشقهما من أظلم الرؤى لكليهما؟ ربما تجيب قصة حبهما ضد متطلبات الواجب عن هذه الأسئلة؟ همتى لم تكن قصة الحب والغرام إلا أحد الأسباب الرئيسية وراء خسارة الصراعات التاريخية؟ هذا إن سلمنا بأن علاقتهما لم يشبها الكثير من المبالغات المسرفة.

صور المؤرخون، وخاصة الفرييون منهم، أن معركة أكتيوم كانت معركة تاريخية كبرى قررت سياسة الغرب على الشرق لقرون طويلة قادمة، مع أن المعركة لم تكن كبرى بمقاييس المعارك، ونتائجها كانت مقررّة سلفاً، فروما كانت قادرة في النهاية على أن تكرر بعد أن تفر لو

نجح أنطونيوس وكليوبترا في مساعهما وانتصار أوكتافقيوس التهاثي سيكون حتماً حتى لو جرت المعركة على الأرض الايطالية أو المصرية بدلاً من اكنيوم!

عاد أنطونيوس إلى مصر في حالة يرثى لها من الاحباط على عكس ما روي عن كليوبترا التي كان عقلها يعمل بسرعة ويدبر الخملط لقهر أوكتافقيوس، إلى الحد الذي فكرت فيه بالابحار لاحتلال إسبانية، أو تكوين دولة على الشواطئ الهندية، وذلك بمحاولة نقل أسطولها البحري براً من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر وقد توقف أنطونيوس لأيام عدة في السلوم خوفاً من ملاحقة أوكتافقيوس له، ثم لحق بكليوبترا إلى الاسكندرية، وكان حزناً ومنطوياً حيث لازم أبراج الميناء ولم يذهب إلى القصر. ويروي المؤرخ ديو كاسيوس أن الاضطرابات استقبلت كليوبترا عند عودتها إلى الاسكندرية، لكنها واجهتها بشدة وحزم وتضاهرت بأن النصر كان حليفها ووضعت إكليله فوق رأسها وأمرت بتنظيم أناشيد النصر بمصاحبة قرع الطبول ونفخ الأباوق.

كليوبترا وأوكتافقيوس وانتحارها مع أنطونيوس

1

سار أوكتافقيوس قاصداً مصر عن طريق البر لينهي ما بدأه في اكنيوم. ويقال أن كليوبترا أرسلت له وهو على السواحل السورية ثلاث مرات ترجو الاتفاق معه، وأهدته في المرة الأولى شعاريلاتها (التمساح)، وأبدت استعدادها للتنازل عن عرشها لأبنائها. وفي المرة الثانية أرسلت له انتقيوس بن أنطونيوس الشرعي من زوجته المتوفية فولفيا، والذي كان خطيب ابنه أوكتافقيوس، فأعلمه بنية والده اعتزال الحياة العامة. وفي المرة الثالثة أرسلت له مربي أولادها مع قدر كبير من المال رجاء موافقته تولى أحد أبنائها حكم مصر. فآخذ أوكتافقيوس المال والهدايا ولم يعلق بكلمة واحدة كما في المرتين السابقتين.

وصل غالاس قائد أوكتافقيوس السلوم عن طريق البحر قبل وصول القوات البرية القادمة عن طريق سورية، فتصدى له أنطونيوس بأربعين سفينة خسرهما إلى جانب السلوم فعاد مهموماً ومحبطاً إلى الاسكندرية، في الوقت الذي كان أوكتافقيوس يتقدم من حدود مصر الشرقية عبر الدلتا ومعه عدو كليوبترا اللدود هيرودوس الأدومي.

أخفت كليوبترا كنوزها في مقام مدفنها الشامخ الجميل الذي بنته إلى جانب معبد ايزيس. وقد جاء في رواية بلوتأرخوس عما قامت به كليوبترا بعد أن أصبح أوكتافقيوس على أبواب عاصمتها: ".. كانت كليوبترا قد أقامت لنفسها عدداً من التماثيل والتوابيت الجميلة إلى جانب معبد ايزيس، حيث وضعت فيه أثمن ما تملكه من ذهب وفضة وجواهر ولؤلؤ وزمرد وعاج وشن الفيل وخشب الأبانوس والكمون، ووضعت بجانبها أخشاباً كثيرة ومشاكل خشبية". فقلق أوكتافقيوس عندما علم بذلك، فأرسل لها وهو يقترب من الاسكندرية رسلاً يطمنئونها إلى نيته بمعاملتها معاملة حسنة، مغافته أن تحرق هذه الثروة العظيمة في ثورة غضب أو نوبة يأس.

في أوائل صيف 30 ق.م وصلت طلائع جيش أوكتافوس إلى ضواحي الاسكندرية فشن عليها أنطونيوس هجوماً ناجحاً بدها. ويروي بلوتارخوس في وصف ذلك: "عاد أنطونيوس إلى المدينة وقد استشعر الفخار، فأخذ يسير في شوارعها في خيلاء قدخل القصر على كليوبترا فعاتقها وهو بكامل عدته الحربية، وقدم لها أحد فرسانه الذين ابلا بلاء حسناً في القتال، فأعطته كليوبترا هدية عظيمة، لكن هذا الفارس ترك إلى معسكر أوكتافوس في نفس المساء". أخذ أنصار أنطونيوس بتركه وحيداً عند محاولة حشدهم للقتال في اليوم التالي. وقف أنطونيوس صباح اليوم التالي وأخذ يراقب بهدوء قواته من المشاة أمام المدينة، ويراقب سفنه الحربية وهي تقوم بالهجوم على أسطول أوكتافوس حيث أمل أن تحقق قواته إنجازاً مهماً. غير أن أطلق سفنه رفعوا مجاديفهم عند اقتراب سفن أوكتافوس منهم بإشارة تعني انضمامهم إليه.. فاجتمعت سفن الأسطولين في واحد ثم اتجهت نحو المدينة. بعد ذلك رأى أنطونيوس قوات خياله يتعازون إلى قوات أوكتافوس فانتابته حالة من الهياج العارم فعاد إلى المدينة وهو يصرخ بخيانة كليوبترا له بعد كل ما عمله من أجلها. أحست كليوبترا بالخوف والخطر من أنطونيوس بعدما بلغهتها حالته الهستيرية، فأسرعت إلى مقامها وأغلقت الأبواب وأرسلت إليه ليعلموه بموتها.

عند دخول جيش أوكتافوس المدينة كانت كليوبترا في مقامها وقد أغلقت أبوابه ونوافذه وتحصنت بداخله مع كوزها، وكان يرفقها مصففة شعرها ابروس، ووصيفتها شارميون، وأحد خصي القصر المقربين. وكانت قد أرسلت لأنطونيوس من يبلغه بانتحارها. فدخل غرفته وخلع درعه، وأخذ يردد قائلاً: "لست حزينا لأن أحرم منك، فانا قادم للانضمام إليك، ولكي حزين أن امبراطوراً مثلي أغرم بأن يكون أدنى من شجاعة امرأة، وطلب من تابعه أروس أن يقتله بالسيف، لكن التابع الأمين فضل الانتحار على قتل سيده، فما كان من أنطونيوس إلا أن قام بيقربطنه، لكنه قيل أن يسلم الروح جاءت رسالة كليوبترا بأنها ما زالت على قيد الحياة، فقام خادمين بنقله إلى خارج المقام الذي كانت داخله، فأنزلت مع وصيفتها حبلاً رفعن أنطونيوس بها عبر النافذة إلى داخل المقام في الطابق العلوي. ويحدثنا بلوتارخوس قائلاً: "وبعدما نجحت كليوبترا والوصيفتان بباليغ الصعوبة رفع أنطونيوس إلى الداخل عبر النافذة، طلب قدحاً من النبيذ، ثم رجا كليوبترا بعدم لومه على سوء طالعها الذي أودى به في النهاية، وأن تعتبره سعيداً لأنه حقق انتصارات تحدث بها العالم، وأن تتذكر أنه قد حصل على المجد والشهرة اللتين لم يحققهما أحد، ولهذا فليس من العار أن يموت كروماني قهره روماني آخر". عانى أنطونيوس سكرات الموت في أحضان كليوبترا، فشقت ثيابها ونذبهته وبكته بكاءً مراراً، فمات في أحضانها كما كان يشتهي!

أرسلت كليوبترا خطاب رجاء إلى أوكتافوس في 12 آب لكي يوافق، بعد دخوله المدينة دون مقاومة تذكر، على دهنها إلى جانب أنطونيوس. وطبعي أن يشعر أوكتافوس بالقلق من هجوى الخطاب، فأصدر أوامره إلى بروكليس بالإسراع إلى كليوبترا لإغرائها بالبقاء حية بوعده أن يعاملها القائد المنتصر معاملة لائقة، غير أنها رفضت تسليم نفسها، وهي

محصنة داخل مدقتها، إلا إذا وافق أوكتافىوس على وعد بمنح عرش مصر لأحد ابنائها. وفي أثناء إلقاء بروكليس كليوبترا بالحديث تسلق أحد الضباط مع جنديين النافذة المفتوحة، ثم هبطا إلى الحجرة التي كانت تتحدث منها كليوبترا مع بروكليس، فقبضوا عليها وأخذوها أسيرة إلى حيث أوكتافىوس. وقد روي أنها حاولت قتل نفسها عندما أحسّت بالجنود يدخلون عليها، إلا أن الضابط كان أسرع بمنعها وسحب الخنجر من يدها وهي تهم بطنن نفسها.

مرضت كليوبترا بعد القبض عليها، فأمر أوكتافىوس بنقلها إلى القصر الملكي، ولم تلبث بعد مقابلة ودية خاصة مع أوكتافىوس أن تأكدت أنه سيقودها ذليلة إلى روما لعرضها في موكب النصر الذي سيقمه هناك درجاً على عادة القادة الرومان المنتصرين. لجأت كليوبترا إلى سلوك طريق الانتحار، فجعلته بصورة تتناسب مع دورها الملكي في التاريخ كملكة مصرية، وللتحضير لانتحارها، اجتهدت بتجربة جميع أنواع السموم على السجناء المحكومين بالإعدام بمراقبة كيفية موت الضحية، حيث لاحظت أن السم القوي ذي المفعول السريع أظهر ألماً وتقلصات عنيفة، بينما السم خفيف المفعول بطئ وبأخذ وقتاً حتى تموت الضحية. كما قامت بتجربة أنواع من الحيوانات السامة على حيوانات أخرى غير سامة. حتى أنها مارست هذه التجارب يومياً تقريباً. فوجدت بنتيجة هذه التجارب أن عضه أفعى الناشر (asp)، وهي أفعى صغيرة، والوحيد التي تجعل عضتها الضحية تفرق في سبات من النوم دون أي تقلصات أو شعور بالألم، ما عدا تمرق لطيف على الوجه، في حين تبدأ القدرات العقلية للضحية بالشعور بالراحة والاسترخاء اللطيف كمن يذهب في النوم من شعور بالنعاس، فيجس براحة ولطف شديد.

ارتدت كليوبترا ثيابها الملكية ووضعت التاج المصري الشهير⁽¹⁾ وفي مقدمته برفنغ رأس الأفعى الذي كان المصريون القدماء يعدونه خادم إله الشمس، وجعلت الأفعى تلدغها لدغتها القاتلة فماتت على أثرها ميتة هادئة دونما شعور بالألم السم. وفي 30 آب من 30 ق.م وجدوها مستلقية على كتبة ذهبية تحتضر وهي بكامل أناقتها الامبراطورية، وعند قدميها مصفغة شعرها ميتة، بينما وصيفتها شارميون تحتضر وهي تحاول تركيز وضع التاج فوق رأس سيدها.

وقد روي أنها تمتمت قائلة: "ويليك بملكة تنحدر من صلب كل هؤلاء الملوك".

يذكر سترابو⁽²⁾ روايتين منقولتين عن كيفية موتها، الأولى: عضه الأفعى، والثانية: في

(1) - جاء في كتاب أبلوس بل "مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي"، ص 87، ترجمة د. عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية، بيروت، للتالي: "كان لاختيار كليوبترا للشبان كي يخلصها من الأسر تصرف له مغزاه: كان هذا الشبان هو الكويرا المصرية، الشبان المقدس في مصر السفلى، وكفرعونة وسيدة الأرضين، لبست كليوبترا التاج المزودج، تاج العقاب لمصر العليا، وتاج الكويرا لمصر السفلى. وكانت الكويرا خادمة لإله الشمس، ولدغتها لا تمنح الخلود فحسب، وإنما الأوهية أيضاً. سلكت كليوبترا إلى الموت طريق الملوك، ولحقت بزمره الإكهة. ولم يبق لأركتافىوس من بعد إلا أن يضم مصر إلى ممتلكات الشعب الروماني".

(2) - أنقى مترابو المؤرخ المعاصر للأحداث "Sraho, Geography, XVII 10" بظلال من أشك على انتحار كليوبترا بالسم، أو بأنها قتلت!

استخدامها لدهان سام. وقد لاحظت رواية بلوتارخوس عدم وجود جروح أو خدوش أو كدمات على ظاهرها، ماعدا خدوش بسيطة على ذراعها. ويقول جالينوس بعد قرنين، أنها خدشت جلدها ووضعت السم فيه. كما ذكر بلوتارخوس أنها كانت تحمل سم الأفعى داخل تجويف مشط شعرها. ويعود بلوتارخوس ليروي أن الحية أدخلت إليها وسط سلة تين أو داخل دورق أو في وسط باقة من الزهور... فقي الموت، لا فرق كيف! يرى الكثير من المؤرخين والباحثين أن أوكتافيوس بما عرف عنه من دهاء وحكمة سياسية وبصيرة نافذة أراد الإحياء لكليوبترا بطريق غير مباشر أنه سيعرضها في موكب نصره في روما ليدفعها لقتل نفسها بيدها، حيث نُقلت إليها نية أوكتافيوس بنقلها إلى روما مع أولادها بعد ثلاثة أيام، وهو يعلم بأنه بتسريب هذا الخبر يدفعها لقتل نفسها. كما قيل أيضاً أن أوكتافيوس أمر حارسها أن يغمض عينيه إذا ما رآها تحاول قتل نفسها.

وهكذا وصلت سليلة البطالمة الإغريق، التي كانت من دونهم جميعاً تعتبر ملكة مصر لأنها عملت على تحقيق حلمها الشخصي بأن تكون سيدة العالم، إلى نهايتها. وما علينا هنا إلا أن نستذكر قول المؤرخ اليوناني- اللاتيني ديو كاسيوس: "أسرت كليوبترا أعظم شخصيتين رومانيتين يزماتهما، ويسبب الثالث قضت على نفسها".

بدخول أوكتافيوس وجيوشه المنتصرة مدينة الاسكندرية، وانتحار أنطونيوس وكليوبترا، دخلت مصر رسمياً تحت حكم روما، فصدر مرسوم بضمها وجعلها ولاية رومانية. وقد منع أوكتافيوس جنوده من نهب واستباحة المدينة، وألقى في مواطنيها خطاباً باليونانية أعلن فيه العقو عن جميعهم. ولكي يتخلص أوكتافيوس من آخر شخصية يمكن أن تسبب له المشاكل مستقبلاً أمر بإعدام قيصر (قيصرن) ابن كليوبترا من يوليوس قيصر والدّه بالتبني! أما أولاد أنطونيوس من كليوبترا فبعتهم إلى أخته أوكتافيا (بناءً على طلبها حسب رواية بلوتارخوس) لكي تقوم على تربيتهن كابنائها.

أصبحت مصر ولاية رومانية، ونظراً لتاريخها العريق وخطورة موقعها ودقته وغناها حينذاك واعتماد روما على إنتاجها من الحبوب، حيث وضعت لها أحكام خاصة ليكون للقيصر الروماني سلطة استثنائية عليها حيث اعتبرها من أملاكه الخاصة⁽¹⁾ حتى أنه منع أعضاء مجلس الشيوخ بروما من التدخل بشؤونها وحرّم عليهم ولاية شئ من أعمالها، ومنع الرحلة إليها إلا بإذن خاص منه.

2

كره الرومان كليوبترا كرهاً شديداً، فنددوا بشخصيتها وسلوكياتها وبلاطها، وحاكوا الأساطير حول غوايتها لأحد أبطالهم، واتهموها بنيتها المبيتة للقضاء على دولتهم ومجدها العظيم وينقل زعامة العالم القديم من عاصمتهم روما إلى الاسكندرية. لكن

(1) "المختصر في تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الاحتلال البريطاني"، تحقيق وتعليق د. علي عبد المنعم شعيب، ص 89، دار ابن خلدون- بيروت.

تتديدهم بها توقف بعد موتها، بل أخذ شعراؤهم يشيدون بمظمتها، فتظم شاعر روما الكبير هوراس قصيدة عظيمة بحقها. وبقي تمثالها الذهبي الذي أقامه يوليوس قيصر على حاله في معبد فينوس في روما.

وكما كره المؤرخون الرومان كليوبترا في حياتها كراهية عمياء، كرهوا تعلق قيصر وأنطونيوس بها، إذ اشتط بعضهم بانهامها بالعهر والفسوق. وإن خفت حدة كراهيتهم لها بعد موتها، فإن كراهية المؤرخين اليهود لها كانت شديدة استمرت حتى بعد وفاتها، لظنهم أنها طمعت في حكمهم وضم يهودا إلى مملكتها.

حاول المؤرخ والفيلسوف الإغريقي بلوتارخوس (46-120م)، الذي عرف بأشهر عمل تاريخي له هو "سير النظراء" *Parallel Lives* التي تعني بمسرد تاريخ المشاهير من الإغريق والرومان، إنصاف أنطونيوس وكليوبترا، حيث لم تميزه المهارة الأدبية في روايته، لكن ما أعوزه كان الدقة في الرواية، إذ أخذ عليه جنوحه إلى خياله الواسع في بعض الأحيان. وقد عاش معظم حياته في معبد أبولو في كيرونياكتسيس، وقيل أنه زار الاسكندرية زيارة قصيرة. واعتمد في سرده على الروايات التي نقلها عن جده لامبرياس الذي سمعها هو الآخر بدوره من طبيب اسكندري عاصر كليوبترا هو فيلوتاس.

من القسوة اتهام كليوبترا بالشذوذ والشهوانية والشيق الجنسي أو العهر والفسوق، إذ أنها لم تعرفه كما تؤكد روايات المؤرخين، غير رجلين في حياتها وهبت قلبها لهما، هما: يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس، وكليهما كانا يفوقانها خبرة وتجربة في هذه الأمور، وكليهما عرف عدداً كبيراً من النساء، وقد قيل أن أنطونيوس كان يشيد بقوته ورغبته الجنسية تشبهاً بالإله الإغريقي الروماني هرقل، وأنه كان يحلو له الحديث المكشوف والنكات الجنسية. فإذا قلنا أنها وهبت قلبها لهذين الرجلين مقابل تحقيق طموحاتها في مجد تراه مشروعاً، فماذا يكون الحب في المفهوم الإنساني إن لم يبن على عوامل عدة؟ من ضمنها تحقيق المصالح. في حين يتهمها البعض أنها استغلت جسدها لتحقيق أغراضها من دون اتباع قلبها، وأن هذا سلوك الماهرات، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: كم من النساء - وكم من الرجال أيضاً - في كل زمان ومكان يتبعن قلوبهن، وليس أغراضهن في اختيار من يشاركن حياتهن؟

حكمت كليوبترا على نفسها ونفذت حكمها بيدها وليس بيد غيرها، كملكة عزيزة، كي لا تمر تحت أقواس النصر الرومانية في روما ذليلة خائفة، بحيث لن تكون سليلتها زنبوبا قادرة على فعل الشيء نفسه بعد ثلاثمائة سنة تقريباً.

ماتت كليوبترا بالسم أو بغيره، ولسان حالها ربما ردد في لحظاتها الأخيرة: حل ظلام ظهيرتك أيتها الشمعة الضئيلة، ألا انطفئي فما الحياة إلا ظلٌ يمضي! لكن ظل كليوبترا ما زال يمضي على غلال من حرير بكل ألوان الطيف! ففي الواقع والتاريخ قد يكتسب المهزوم، في بعض الحالات، رفعة وشرفاً عظيمين في الموت!

بهذه النهاية المأساوية أغلق عصر كليوبترا بشخصيتها وحياتها وسيرة حكمها المثيرة، حيث كانت خاتمة عصر في تاريخ مصر مثلت فيه الأسر الإغريقية الأجنبية دور الملوك الفراعنة لفترة قاربت الثلاث مائة عام هو عصر الأسرة البطلمية.

3

كان نشاط كليوبترا محدوداً في السياسة الداخلية، إلا أن نشاطها في مجالات السياسة الخارجية عده المؤرخون والباحثون بأنه من أغرب مفاخرات التاريخ الذي استخدم فيه سلاح الأنوثة بنجاح لتحقيق أغراض سياسية بحتة كادت تتجح بتغيير مسار تاريخ العالم القديم.

كانت مصر في العصور الأخيرة من حكم البطالمة في غاية الضعف والضمحل والانحطاط في جميع أمورها، إلى أن جاءت كليوبترا بحكمها وسيرتها كما يجن البرق ليشق الظلام بالضوء ثم ينطفئ ليعم الظلام من جديد.

فقد تحولت مصر من دولة مستقلة يحكمها البطالمة إلى ولاية رومانية. لكن كليوبترا بقيت أسطورة من أساطير التاريخ الإنساني المثير لخيال الشعراء والفنانين والكتاب والعامّة ترددها الألسن في مختلف العصور والأزمان. وألفت عنها عشرات المسرحيات وأكثر من مائة وخمسين أوبرا وعدد من الباليات، تتناول شخصيتها وسيرتها.

تعد الملكة كليوبترا الشخصية الأكثر شهرة بين حكام مصر البطالمة، بل هي الأكثر شهرة بين ملكات مصر جميعاً. وقد انبثقت سيرة هذه الشخصية من خلال روايات مستقاة من مؤرخين غربيين قداماء ومحدثين، ولم تأت من جانب مؤرخين مصريين أو من وثائق منقوشة أو مكتوبة. لذلك تراوحت سيرتها الشخصية بين الجذب والشد، بين الخلعة والمجون ومسؤولية الدولة، بين الغواية والهدف السياسي من أجل مملكتها، بين الإرضاء والتحقيق. وقد نشط الكثير من الكتاب والمؤرخين في تأجيح موضوع الجدل السياسي في إطار من الحب اللاهب بين البطل الروماني والعالقة المصرية. ففي اجتماعهما ينتصر الحب على السياسة في شخص قيصر، بينما يؤدي موت أنطونيوس بالعالقة، ويجعلها تختار ميتة رومانية درامية لفشلها في التأثير على أوكتافيوس. إذ، لم تكن سيرة كليوبترا وهماً انشوائياً ينسجه الخيال أو زيفاً يبعث على الاستهزاء والهزل، ومع ذلك دارت حول علاقتها بروما وقيصر وأنطونيوس تفسيرات وتأويلات كثيرة ووجهات نظر متنافرة كانت أكثرها ترسم صورة لسيدة على غاية من الفتنة والجمال والشبق تبحت فقط عن إرضاء رغباتها الحسية كامرأة مع القادة الرومان الكبار. لكن تدقيق الروايات التي كتبها المؤرخون القدماء أمثال: بلوتارخوس وسويتونيوس وديو كاسيوس وسترابو وبلينيوس الكبير، رغم ما اعترأها من تصوير نمطي غربي عن الشبق والإغواء الشرقي، بغض النظر عن الهدف، يتضح أنها استطاعت عن معرفة ويقين توظيف جمالها وذكائها وحيويتها وصلابة أهدافها في علاقتها مع قيصر وأنطونيوس من أجل مصلحة مملكتها، وليس ذلك فقط، وإنما محاولاتها الواعية إقناع القائدين الرومانيين بتبويجها ملكة على روما إلى جانب كل منهما على حده. وخاصة أنها كانت تدرك أن حالة الضعف

التي كانت عليها مصر لا يمكن إصلاحها في فترة وجيزة، وإنما من خلال فن الممكن الذي رآته في التحالف العاطفي والسياسي مع قيصر، وأنطونيوس، حتى أن محاولتها إغراء القائد الروماني أوكتافقيوس بما أغرت به سابقه لم يكن من أجل المجون والمتعة الجسدية وإنما من أجل مملكتها ومن أجل مصر. وللأسف، فصورة كليوبترا وسيرتها في التاريخ الحديث رسمتها بالدرجة الأولى الأعمال الفنية والأدبية الغربية. بالشكل النمطي المعروف: امرأة لموب على درجة عالية من المكر والقوابة والمجون، والجد مع الهزل، والاستخفاف في مقام الاتزان. وهذا قد يكون حكماً متسرعاً!

بدت صورة كليوبترا بشكل دائم بما ملكته من جمال وفتنة وقدرات مشهودة في التأثير على الجنس الذكوري من القادة الفاتحين من مشاهير الرومان لتسخيرهم لرغباتها السياسية إلى حد تمكنت فيه من تغيير تاريخ العالم في زمنها، حتى أن بعض الدارسين يقولون لو كان أنف كليوبترا أقصر قليلاً لكان تغير وجه العالم إلى صورة غير التي بدلت به كليوبترا. ما زالت أسطورة كليوبترا تمثل صوراً ساحرة في عيون الأجيال، إذ لم ينته تمثيل شخصيتها وجمالها واستثنائيتها في كافة وسائل الفنون والآداب والإعلام المحكية والمكتوبة والمرئية حتى الآن.

وربما يكون بعض ما نعرفه عن كليوبترا مبالغاً فيه أو تم تقديمه بطريقة محرفة من قبل بعض المصادر. فديو كاسيوس كان أحد المصادر القديمة التي قدمت روايتها عن كليوبترا بالتلخيص التالي: " لقد أسرت أعظم شخصيتين رومانيتين بزمنهما، وبسبب الثالث قضت على نفسها".

وأخيراً: أين يرى القارئ: الصالح والطالح والقبيح في سيرة شخصية مميزة؟ عاشت في ثوب امرأة اسمها كليوبترا!

4

لم يملك الرومان في كل تاريخهم الخوف الشديد إلا من شخصيتين أحدهما رجل والآخر امرأة: هانيبال (هانيبل) القرطاجي وكليوبترا ملكة مصر البطلمية. وقد ثمن التاريخ الروماني انتصار أوكتافقيوس على كليوبترا، كما ثمن من قبله انتصار سكيو على هانيبل في معركة زاما سنة 202 ق.م. واعتبر التاريخ الروماني أن أوكتافقيوس رجل مقدس لدخوله الاسكندرية وتخليصه روما من أشد المخاطر والمحن التي واجهتها، فقرر مجلس الشيوخ الروماني اعتبار يوم دخول الاسكندرية عيداً رومانياً وطنياً وبداية للتقويم المحلي، فخلع على قيصر لقب أوغسطس، وبذلك سمي الشهر بأغسطس. ولم يلبث أن أصبح إلهاً تقام له المعابد. لكن أوكتافقيوس قيصر حقق ما أباه الرومان على والده بالتبني يوليوس قيصر، بأن وضع نهاية للجمهورية الرومانية وأسس عهد الامبراطورية. وقد تميز بالصرامة والقدرة على العمل المتواصل إذ نجح بإعادة الوحدة العسكرية والسياسية والاجتماعية للعالم الروماني. فقد لخص المؤرخ تاكيتوس دوره بالعبارة التالية: التحمت الجيوش والطبقات والولايات جميعها بعضها ببعض.

كانت آخر عبارة تطلق بها الامبراطور والأغسطس وأب الأمة والقيصر أوكتافقيوس قبل موته: " والآن وقد أتقنت دوري فصفقوا بأيديكم واخرجوا من المسرح وأنتم تصفقون"، ثم

عانق زوجته، وقال: " تذكرى عشرتنا الطويلة يا ليفيا، الوداع". فمات موتاً طبيعياً عن عمر يناهز الستة والسبعين عاماً.

يطلق على عصر أوكتافيوس العصر الذهبي الروماني حيث وصلت فيه الامبراطورية إلى أكبر اتساع لها، فانتشر السلام والأمن في معظم ربوعها، فأطلق عليه "السلام الأوغسطسي" الذي استمر لمائة عام بعد موته. وتمكن من انقاص حجم الجيش، إلا أنه أصبح ملكية شخصية للامبراطور يستخدمه كيفما يشاء، فمنح أفراداً أرضاً من ممتلكاته الشخصية. وقد تحلى أوغسطس بالخارف والحلي التي كان يرتديها الملوك الشرقيون، إلا أن سنوات حكمه الأخيرة اتسمت بالبساطة في العيش إلى حد التقشف، والاعتدال والتواضع الحقيقي الذي لم يشبه زهولاً زدهرت البلاد وانتشرت الآداب والفنون والكتب.

الفصل الخامس

جوليا دومنا الحمصية Julia Domna Of Homs

الاحتلال الروماني للبلاد السورية وآثاره

افتتحت المرحلة السلوقية، التي حكمت جزءاً من آسية الصغرى الجنوبية شمالاً إلى أقصى جنوب سورية حتى الحدود الشمالية للجزيرة العربية، وعلى مدى 247 عاماً (312-64) ق.م، المجال لدول ودويلات المنطقة أن تمارس فترات من الاستقلال والإدارة والتطور. واستمرت هذه الدول بالمساهمة في البناء الامبراطوري الروماني بعد فتح سورية والمشرق بقيادة القائد العسكري الروماني المشهور بومبيوس (بومبي) الكبير سنة 64 ق.م. لم يكن دهاء روما السياسي أقل من حنكتها الحربية عند احتلالها كامل البلاد السورية (استفسر كتاب "روما والعرب"⁽¹⁾) في الوكالات السياسية التي منحتها روما لوكلائها العرب خلال القرنين الأولين من تاريخ احتلالها المنطقة)، حيث لم تجد من الحكمة أن تسرع في قلب الأوضاع التي كانت عليها مجمل المنطقة أواخر الدولة السلوقية، خاصة، أن السكان كانوا قد وصلوا إلى مرحلة تكاد تكون عامة لرفض الاستمرار السلوقي الذي وضع المنطقة ومصالح البلاد تحت رحمة التحالفات والصراعات الدمية الدائمة والمستمرة بين أفراد هذه السلالة، بحيث لم تترك للمنطقة فرصة استقرار سياسي واقتصادي لتطور شعوبها. كما أن حكم السلالة السلوقية لم يكن لديه خطة استراتيجية عامة لتحقيقها على مدى فترة حكمهم؛ وهو بناء دولة- أمة، حيث كان الانتماء العرقي العام لشعوب هذه المنطقة من العالم سيسهل الأمر على حكام الدولة السلوقية لبناء مثل هذا الكيان الوطني العظيم لو تم، الذي كان يمكن أن يتطور إلى دولة- أمة (امبراطورية)، وليس هذا بمستحيل، إذ كيف تمنى للرومان بناء دولتهم، وتحويلها تدريجياً إلى أعظم امبراطوريات التاريخ البشري، بالرغم من أن الرومان لم ينحدروا أساساً من عرق أو جنس واحد، وإنما اثقلوا تدريجياً من أجناس وأعراق وشعوب وثقافات مختلفة. والدليل على ذلك أن الكثير من الأباطرة الذين حكموا روما لم يكونوا بالمعنى العرقي رومان أصلاً. ولسنا هنا بصدد الحديث عن الأعراق والأجناس، لكن التحليل التاريخي يمكن أن يقدم لنا معايير قياسية للأخذ بها.

(1) - "روما والعرب"، تأليف: عرفان شهيد، دار نوبلارتون لوكس، والاندن العاصمة، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان، دمشق، 2008.

لذلك لم يجد الفاتح الجديد أسباباً عملية لخدمة أغراضه السياسية والاقتصادية والأمنية العامة لتغيير القائم، وخاصة، أنه لم يتعرض لمقاومة أو معارضة تذكر على امتداد الفترة الرومانية الأولى وحتى أواخر النصف الثالث من القرن الميلادي؛ قرن الأزمة التي عصفت بالامبراطورية الرومانية في معظم ولاياتها، وسمي قرن الأزمة الامبراطورية. لهذا حافظ الرومان على سياسة الوكلاء التي كلف بها ملوك وأمراء ومشايخ المنطقة المحليين. فظهرت تحت سيادة ورعاية روما وبموافقتها عدة كيانات إدارية وسياسية في سورية بما يشبه الاستقلال الداخلي، فتألفت حكومات وطنية لإدارتها؛ كالرُّها/ إديسا في أقصى الشمال الشرقي من سورية تحت سيادة الأسروينين، ويهودا في الجنوب، وسورية المجوفة في الداخل السوري (منطقة الوسط)، ولكثرة ما نشب من خلافات وصراعات بين الأهلين وحكوماتهم الوكيلية لسلطات الأباطرة الرومان في روما، خاصة في فترة هيرودوس الأدومي الكبير، قررت روما حسم الصراع مع استقلال يهودا، بأن أبدعت زعيم المعارضة أرخيلاس عام 11م، فاصبحت بعده يهودا إقليماً رومانياً ساسه أربعة عشر من الحكام المعينين رومانياً، حتى قيام الثورة اليهودية على الرومان طلباً للاستقلال، انتهت بهدم أسوار القدس سنة 70م بقيادة وإسبسيانوس Vasbesianus وابنه طيطوس. بينما دخلت سورية الشمالية هذه المرحلة بحيث حكمها عدد من الوكلاء يربو عددهم الأربعين وكيلاً حتى نهاية العهد القيصري الأول سنة 14م.

بعدما توطدت أقدام الامبراطورية الرومانية وأحست من نفسها القدرة الكاملة على تعميم سيطرتها على جميع أقاليمها وولاياتها، وجدت أنه أصبح لازماً عليها أن تجعل من سورية الكبرى Syria Salutaris إقليماً رومانياً واحداً، حيث بدأ الرومان تدريجياً تطبيق سياساتهم الجديدة بالضم والإلحاق الكامل بروما اعتباراً من بداية القرن الميلادي الأول حينما قرر أوغسطس وضع أربعة فيالق عسكرية تحت إمرة الوالي في سورية. وهكذا توالى سياسة الضم والإلحاق التي انتهت بضم المملكة النبطية ودمشق وتدمير عام 106م، واختتمتها بضم ولاية أوسرونية وعاصمتها الرُّها (إديسا) في عام 200 م. وهكذا سرى التطبيع والقوانين والأنظمة الرومانية على سائر المناطق السورية.

وبما امتزج السوريون تدريجياً بالوحدات الإغريقية الجديد بعد الفتح اليوناني، كذلك فعلوا مع الفاتح الروماني. فبدأ التطبيع الروماني يعطي نتائجه بعد مئات السنين من الاتصالات الوثيقة والهجرات المستمرة إلى روما ومن ثم العودة إلى بلادهم الأصلية، فظهرت مشاركة العرب السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية في بناء الدولة الرومانية، وخاصة بعد إصدار مرسوم كراكلا Constitutio Antoniniana سنة 212م، والذي منح حق المواطنة لجميع رعايا الامبراطورية الرومانية الأحرار. ومع حفاظ العرب، شعوب المنطقة، على تقاليدهم وعاداتهم وأعرافهم، فقد شاركوا مشاركة فعالة في صناعة التاريخ الروماني، فخدموا في الفيالق الرومانية، خاصة فرق الفرسان الخيالة الذين كانت شهرتهم مشهودة في مكونات الفيالق الرومانية. وظهر الكثير من أبناء المنطقة

الذين أسهموا مساهمة فاعلة وعظيمة في الثقافة والأدب والفكر والفلسفة والخطابة وجميع أنواع الفنون الأدبية الأخرى. كما ارتقوا سياسياً وعسكرياً إلى أرفع المناصب والمراكز العليا في الامبراطورية الرومانية، حيث ارتقى العديد منهم إلى مرتبة لابي الأرواب الأرجوانية؛ سدة العرش الامبراطوري الروماني، كما ارتقى لاحقاً العديد منهم إلى المركز البابوي الأول بعد سيادة الإيمان المسيحي رسمياً على الدولة الرومانية. وتطبع الكثير منهم بالمعادن الرومانية، وتكونوا بأسمائهم، لكنهم استمروا بالمحافظة على كل ما اتصفت به محليتهم. والملاحظ أن التطبيع الروماني على شعوب المنطقة كان يظهر أقوى كلما اقتربنا من الشواطئ بينما كانت قوة المحافظة على شخصيتهم وصفاتهم وعاداتهم وثقافتهم الأصلية تظهر أكثر كلما ابتعدنا عن السواحل.

وتشهد الأسماء اللاتينية التي تطبع بها السوريون على قبولهم الطوعي لجانب من العادات والتقاليد الرومانية، إذ كانوا قد درجوا على ذلك مع اليونان. وإن دل هذا فإنما يدل على تحضير متعمد لرؤية مرسومة للتطور في عالم جديد يتقبل شيئاً فشيئاً أشكال وصور الحياة الجديدة. وقد أدى ذلك إلى الاحتكاك المباشر مع كل أشكال الحضارة التي جلبها الفاتحون معهم، حيث قاد هذا إلى موجة مستمرة من التماهي والمباراة بينها وبين أصحاب العقول الثيرة من أبناء المنطقة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر بعضاً من المساهمات العسكرية العربية في خدمة الجيش الروماني؛ كالفرقة الأوغسطسية الثالثة التي تألفت من الجنود السوريين، وكانت تعسكر في نوميديا (تونس والجزائر)، كما أن واسيسيان نقل فرقته السورية معه إلى روما عند اعتلائه عرش الامبراطورية سنة 69 م. وقد روى المؤرخ تاكلتوس أن الفرقة الغالية التي ناصرت واسيسيان كان أفرادها يحيون الشمس عند شروقها، وتلك كانت من طقوس عبادة إله الشمس الحمصي؛ بل. كما أن غالبية أفراد الفرقة التراجانية الثالثة التي أقامت في الاسكندرية كانوا عرباً سوريين، كما تركت سرية الرماة الحمصيين الألف التي انتدبت لتعسكر في بانونية (المجر حالياً) أثراً مكتوباً بالسريانية واليونانية تدل عليهم. وكان معظم أفراد الجيش الذي جرده سيفيروس على ألمانيا من عرب المشرق. وإذا أردنا التفصيل في هذا المجال، فخير معين لنا في ذلك هو كتاب "روما والعرب"، مؤلفه عرفان شهيد وترجمة قاسم سويدان، في مراجعة الفصل الخامس من الكتاب بعنوان لائحة المقامات Notitia Dignitatum التي تسرد بالتفصيل مشاركة الوحدات العسكرية العربية في الجيش الروماني في المشرق؛ على النخوم المصرية وفي شينيقية وسورية والفراتية وفلسطين وأوسرونية وما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وولاية العربية.

مثلت حمص⁽¹⁾ منذ القديم مركزاً مهماً من مراكز الإسهام الحضاري والمدني والديني في منطقة المشرق العربي. فقد ذكرت المصادر والحواليات التاريخية المختلفة ما قدمته حمص من مساهمات في التاريخ، ابتداءً من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد

(1) - لم يكن اسم حمص كمدنية معروفاً حتى القرن الأول الميلادي، وكانوا يذكرونها باسم إمسين Emsene (حاصنة) .. ولا نجد ذكراً لاسم حمص في العهد الآرامي كحماة وحطب ودمشق... إلخ - المحقق.

حتى الآن، مروراً بكل الأزمنة التي مرت عليها، ابتداءً من العماليقة والعموريين، الحثيين، الفينيقيين والآراميين، الآشوريين والكلدانيين والفرس، السلوقيين، عائلة سمي-غيراموس الحمصية، الأسرة السقيرانية، الأسرة القدمرية، النصرانية، والإسلام. اكتسبت حمص أهمية خاصة، في منطقة المشرق، لأسباب عديدة، أهمها أنها كانت مركز عبادة إله الشمس التي كانت منتشرة في المشرق، والتي تواصلت من استمرار الطقوس السامية والسومرية والبابلية والآشورية القديمة، ثم انتقلت إلى روما لتصبح عبادة روما الوثنية في مطالع القرون الميلادية الأولى. فقد مثلت عبادة الحجر الأسود الموجود في هيكل إله الشمس- الحمصي في حمص ملاذاً مقدساً للمتعبدين، حيث دلت الآثار والمؤرخون على ما للحجر الأسود المحفوظ في الهيكل من أهمية وهدسية، في الوقت الذي لم تكن عبادة الحجارة السوداء أمراً غريباً، فقد ورد في المخطوطات السامرية ذكر لسبعة أحجار سوداء، كانت تعبد في هيكل أرك في اليونان. وقد عثر على مصكوكات سورية وسلوقية وأوسرونية عليها صورة الحجر.

تولت سدانة معبد إله الشمس- الحمصي تسلسل من الأسر الشريفة للقيام بخدمة المعبد، بحيث انتهت كهانتها في نهايات القرن الأول ويدايات الثاني إلى عائلة من أشرف أهل البلاد الأصليين. فاشتهر منهم الكاهن الوثني الجليل باسيانوس Bassianus، والذي طبقت شهرته الأفاق لعلمه وأخلاقه العالية وآدابه السامية، وسياساته الحكيمة. فمثل كاهن المعبد ما كان ينظر إليه على أنه إنما كان يتقمص فيه دور الإله، إضافة إلى دور الملك، حيث كان خادماً ومعلماً تلوو سمات من الوفاق الكهنوتي، ما جعلته جميعها موضع احترام وإجماع، مهدت لذريته تسنم أعلى المراكز في الامبراطورية الرومانية، إلى حد أطلق عليه المؤرخون وصف "حكم الأسرة السيفيرانية الحمصية" التي تبوأ مركز العرش الامبراطوري الروماني لمدة تربو على الاثني وأربعين عاماً (193-235) م، أسهمت فيها بإنجازات مختلفة على صعيد الإدارة والعسكرية والفلسفة والقانون والآداب والفنون والمعتقدات الدينية سواء كانت وثنية أم مسيحية.

ورغم كثرة المصادر الأدبية، فإنه لا يوجد الكثير الذي ينصف تاريخ المنطقة. إذ أن أهم مصادر هذه الفترة، باتساع روايتها، هي "التاريخ الأوغسطي"، والذي يشار إليه أحياناً بتاريخ سير الأباطرة الرومان، أو سير الأباطرة المقدسين Augusta Historia. وبالرغم من أن تاريخ هذه السير كان من عمل ستة مؤلفين كتبوه في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع، إلا أنه ينظر إليه الآن على أنه ربما كان من تأليف كاتب واحد، وليس ستة مؤلفين، كتبها في نفس الفترة وأكملها آخر في نهاية القرن الثالث؛ وقد عاصر المؤرخ المشهور ديو كاسيوس هذه الفترة وأكملها. خصوصاً، فترة حكم الأسرة السيفيرانية، حيث غطى تفاصيلها إلى حد ما. ولسنا ندري في حقيقة الأمر إلى أي درجة كان ديو محايداً في تغطيته لتاريخ وسيرة هذه الأسرة التي امتدت لفترة اثني وأربعين عاماً متواصلة- ما عدا فترة مكريانوس التي استمرت لأشهر معدودة. فالمؤلفون الذين كتبوا عن تاريخ هذه الفترة نقلوا بالدرجة الأولى عن "التاريخ الأوغسطي"، وتاريخ روما الموسع History of Rome لديو كاسيوس.

الأسرة السيفيرية (السيفيرية / الساويرية) على عرش روما

ابتدا حكم الأسرة السيفيرية بالامبراطور سيفيروس (لوكيوس سبتيموس سيفيروس بيرتيناكس) Lucius Septimius Severus Pertinax الذي ولد في مدينة ليدية Leptis Magna على الساحل الليبي في 11 نيسان سنة 146م، والتي كانت مستعمرة فينيقية قديمة يسكنها مهاجرون أتوا من صيدا وصور اللبانيين، وقد بقيت المدينة مرتبطة بشكل واسع بالمؤسسات الفينيقية وبكل ما هو فينيقي، وذلك بعد سقوط قرطاجة. فكانت اللغة الفينيقية لغته الأصلية التي تربي عليها وبقي يستعملها. تعلم سبتيموس وتتق في البلاغة والقانون وأكمل دراسته في روما وتولى عدة مناصب حكومية خلال عهدي الامبراطورين ماركوس أوريليوس وابنه كومودوس الذي شاركه الحكم (161-180) م. وانتسب إلى الجيش، فصار قائداً عسكرياً كفواً أخلص له الجند لاهتمامه الشديد بأحوالهم ومصالحتهم. لكنه كان شديد الصرامة. فقد جاء في تاريخ روما "لديو كاسيوس المقطع التالي: "كان سبتيموس سيفيروس حاكماً صارماً حيث شغل منصب القنصلية مرتين، أصبح بعدها والياً على أفريقية ثم حاكماً على دلاشية وبانونية وذلك قبل انسحابه إلى البثنية لبدأ بكتابة تاريخه الامبراطوري". وقد روي أن جده لوكيوس سيفيروس كان شخصية مهمة في بلده ليدية أهدى إليه الشاعر ستاس إحدى قصائده على أثر اعتبار ليدية مستعمرة رومانية في عام 110م. وقد شغل الجد منصب قاض في المدينة، ثم انتقل لاحقاً إلى روما ليصبح قاضياً فيها وأحد أعضاء مجلس التشريع العشري. وقد أقام سيفيروس تمثلاً لوالده عام 201 م في مسرح ليدية مدلاً على ولائه لأسلافه. وكان أخوه بوبليوس سبتيموس جيتا مسؤولاً عن مالية كريت وبرقة، وبعد ذلك حاكماً على داكية سنة 195، ثم تقاسم منصب القنصلية مع ابن بلده بلوتيانوس عام 203 م.

اعتلى عرش روما كلوديوس أوريليوس، الذي اشتهر بلقب كومودوس، خلفاً لأبيه (180-192) م. فكلّف سيفيروس بالتوجه بجنوده إلى حمص سنة 179م لإخماد تمرد هناك ألقى السلطات الامبراطورية. فلما وصل سيفيروس بجنده طوق المنطقة التي اعتصم بها الثوار، وحال دون وصول المؤن والإمدادات، حتى قضى عليهم. فترك ما أنجزه تأثيراً مالياً في روما.

أثناء وجوده في حمص، وقع نظر سبتيموس سيفيروس على جوليا ابنة الكاهن الحمصي باسيانوس، وكانت في حينها في حدود الثالثة عشر عاماً من عمرها، وكانت أختها ميسا بحدود الخامسة عشر أو أكثر قليلاً. وبعد سبع سنوات ماتت زوجة سيفيروس الأولى، فعاد إلى حمص وطلب يد جوليا دومنا، حيث سحره جمالها الخلاب

ومال ميلاً عظيماً إليها. فبدأ يعد للاقتران بها بعد أن عرف من تكون، ويعد أن تأكد من حسن خلقها إلى جانب جمالها. حيث كانت قد وصلت إلى مرحلة عالية من الثقافة والعلوم الفلكية والطبيعية. وكانت دومنا تصغر سيفيروس بعشرين عاماً تقريباً. ويقال أن رواية إحدى العرافات كانت ضمن الأسباب التي شجعت على الاقتران بها، والتي تقول: إن هذه الفتاة حظ وحسن طالع عظيمين، وسيقترن بها يوماً ما رجل العالم الذي سيعتلى عرش الامبراطورية الرومانية. وربما كانت قراءة العرافة مجرد إطرء لدومنا مقابل المقابل، أو مقابل ما كانت عليه العائلة من جاء وثرء، أو ربما كان سيفيروس يؤمن بالخرافات وقد سمع بمثل هذه النبوءة من خلال الأحاديث المتداولة. وقد قدمت سير التاريخ الأوغسطي روايتها على الشكل التالي: " فقد سيفيروس زوجته في ذلك الوقت، والآن، يرغب بالزواج من جديد. فقام باستطلاع المنجمين ليخبروه عن بروج نساء في سن الزواج، فعلم من قراءاتهم أنه يوجد في سورية فتاة تنبؤوا في برجها أنها ستزف إلى ملك العالم. فبحث عنها لتصبح زوجته. وقد تم هذا الزواج بواسطة بعض الأصدقاء. بذلك أصبح أباً بعد مدة قصيرة⁽¹⁾. المهم، تم الوفاق على الزواج، وبذلك أصبحت جوليا دومنا Julia Domna زوجة لسيفيروس الذي كان في عمر الأربعين، بينما كانت جوليا في العشرين أو الواحد والعشرين من عمرها. وقد تم زواجهما في عام 186م. فراقته في مهمته الجديدة إلى مقاطعة غالية الايونية، على الرغم من حظر القانون الروماني بعدم مرافقة زوجة الحاكم له وبقائها في روما لكي تكون رهينة مأمنة لأي محاولة تمرد أو عصيان. فزقزا كراكلا الذي ولد سنة 188م في ليون، فسماه باسم جده الحمصي سبتيميوس باسيانوس، بما يعني بقاء الرباط مع سورية. وقد سمى كراكلا نفسه لاحقاً ماركوس أورليوس سيفيروس أنطونينس، ولم يطلق عليه لقب كراكلا⁽²⁾ إلا مؤخراً إذ غلب عليه خلال خدمته العسكرية. بينما ولد جيتا (الإبن الثاني) في صقلية سنة 189م، عندما كان سيفيروس حاكماً عليها، وسمي باسم عمه بوليوس سبتيميوس جيتا. كان على الزوجة أن تترك حمص وترافق زوجها في سلسلة من المهمات العسكرية التي كان يكلف بها، حيث كان يرى أن نجاحه في تحقيق هذه المهمات سيكون جوازمروره إلى سدة العرش الروماني. فراقته أولاً إلى مدينة ليون Lugdunum في بلاد الغال على الضرف الغربي من الامبراطورية.

اغتيال كومودوس بالسم في نهاية عام 192م. وكان نبأ الاغتيال مصدر راحة للعائلة، لأن كومودوس كان قد وضع العيون لمراقبة سيفيروس، وداوم بالتالي على نذبه إلى مهام بعيدة عن روما نظراً لحوفه من طموحاته. فأنقذ مكانه القائد الانضباطي بيرتيناكس Pertinax الذي كان والياً على سورية، والذي كان على وفاق وصداقة مع سيفيروس، لذلك رحب سيفيروس بالقاد الجديد إلى العرش الأمبراطوري الروماني.

(1) - انظر "التاريخ الأوغسطي" (Loeb Library, H.A, Severus, 3, 9, Tran. By D. Magic)
(2) - كراكلا كلمة لاتينية تعني المعطف طويل الأكمام والمتصل بغطاء للرأس.

في مهمته الجديدة وهو يعسكر على الدانوب، أبلغت جوليا دومنا أن الحرس الامبراطوري قد قضى على بيرتيناكس في روما . وكان ذلك في آذار من العام التالي لتوليها. وأن القتلة قاموا بوضع عرش الامبراطورية على طاولة المزاد العلني المفتوح لمن يدفع أكثر. حيث استقر المزاد على رجل روماني واسع الثراء يدعى ديديموس يوليانيوس. وفي الحال نودي به امبراطوراً بعد أن نقد للجند ما قيمته حوالي 400 ألف ليرة انكليزية بتلك الأيام. فانتابت الفياق الرومانية المنتشرة في جميع أصقاع الامبراطورية وقياداتها ثورة من الغضب والمهانة لما لحق بسبعة العرش الروماني، فتأدى كل جيش بقاؤه امبراطوراً.

حانت لحظة تحقيق الحلم لامبراطور قادم على غاية عالية من النباهة والذكاء. إذ كان سيفيروس قائداً يعسكر بقواته، كما ذكرنا، على الدانوب، فأعلنته قواته امبراطوراً في الثالث عشر من نيسان سنة 193م. في نفس الوقت أعلنه مجلس الشيوخ عدواً للشعب. فأسرع بقواته المؤلفة من ثلاثة فيالق ودخل روما بموكب عظيم. وقد كان له من العمر حينها ثمان وأربعون عاماً. وخلال زحفه الخاطف إلى روما كان يقضي على كل مخالف له بكل قسوة. لذلك استيق مجلس الشيوخ، الذي كان قد أعلنه خائناً للشعب، إرسال موفدين لمقابلة سيفيروس طلباً للعفو والرحمة. أما الحرس البريتوري الذي كان يتمتع بسلطة سياسية طاغية على روما، والذي مثل في العهود المتأخرة سيقاً مسلطاً على رقبة الامبراطورية حيث كانت كتابته من يقوم غالباً بتغيير الأباطرة بين حين وآخر. لذلك أصدر سيفيروس أمره لهم بالالتحاق به دون إبطاء. وهناك أمرهم أن يخلعوا بزاتهم العسكرية الأنيقة ويلبسوا بدلاً منها ثياباً مدنية، عندها أحاط بهم جنود سيفيروس وأجبروهم على تسليم خناجرهم المرصعة التي كانوا يحملونها شعاراً للفيالق الذي ينتسبون إليه. ثم طردوا من الخدمة وهددوا بالموت إن عثر على أحدهم.

دشن سيفيروس عهده بإذلال مجلس الشيوخ، وبالتخلص من العدو الأكبر المترصص دائماً بالأباطرة: الحرس الامبراطوري الذي كان يعتبر نفسه الحامي للمؤسسات الرومانية، والذي كان تجنيدهم يتم بناء على عنصرهم الإيطالي والمقاطعات التي اتحدت مع روما منذ زمن بعيد. ويبدو أن سيفيروس كان قد أعد لحسم الموقف مع الحرس منذ أمد ليس بالقصير. وأحل محلهم الإليريون (الإرية: مونينغرو وشمال ألبانية الآن) الأشداء الذين وثق بهم سيفيروس. وكان دخوله إلى روما في موكب عظيم تم تنظيمه وترتيبه بعناية ودراية احتفاءً بالسيد الجديد. وقد نظم موكب دخول الامبراطور إلى روما بمهارة فائقة بحيث يظهر سلوك الامبراطور الجديد ممزوجاً بالتواضع والبساطة بالاعظمة والتسامح والعدالة. وعلى أبواب روما ترجل سيفيروس عن صهوة جواده كإشارة احترام لشعب روما. وكان أول مرسوم أصدره المجلس الروماني هو حكم الإعدام على ديديموس يوليانيوس والانتقام من قتلة بيرتيناكس الذي حزن عليه الجميع. ولتعزيز سلطته قام بوضع حد لكل القادة الكبار الذين ادعوا العرش، فانتصر على خصمه بيسكينغوس نيجر Pescennius Niger في سورية الشمالية وأسية الصغرى في عام 194م، وبعده على صديقه القديم كلوديموس ألبينوس Clodius Albinus في الغرب بالقرب من ليون على

نهر الرون، وذلك سنة 196 بعد أن أعلن نفسه امبراطوراً. وكان ذلك خلال عودة سيفيروس من أسية. هو وجنوده مكللين بالتصرعلى القريس. حيث اتبع المكر والدهاء الفينيقي للتقلب على البينوس إذ أرسل له رسالة ملؤها المحبة والصدقة، وبنفس الوقت اقنع الجيش بخطاب بليغ عن الموقف الذي وقفه البينوس بعد أن أشركه سيفيروس في حكم الامبراطورية، فكان مما خاطب به جموع الجند: " لقد أشركت في امبراطورية أنتم من جعلتموني مالكها الوحيد، وهي قسمة لا أظن حتى الأخوة يوافقون عليها". وهكذا، أصبح سيفيروس امبراطور روما القوي دون منازع، بل أحد القياصرة الرومان العظام في سيراتاريخ الروماني، فظهر بمظهر الامبراطور المهيب، على غير ما كان عليه أيام الشباب. وكان دائم البحث للإحاطة بكل علم إن أمكنه ذلك.

حاول سيفيروس في بداية حكمه امتصاص ضغينة مجلس الشيوخ بعدم تعيين خليفة له كما هي العادة، وذلك لادخال الطمأنينة إلى قلوب وعقول أولئك الذين كانوا يتحسبون من إقامة أسرة مالكة على العرش الروماني. فبدأ مستقبل المنصب الروماني الأول غائماً. فهو ما زال في عنفوانه وكراكلا لم يزل صغيراً. كما أنه، على الجانب الآخر، خاطب مجلس الشيوخ الذين كانوا قد اصطقوا إلى جانب البينوس، بكتاب أظهر فيه قبضته الفولاذية في قفازه الحريري. وهكذا أعلن باسيانوس (كراكلا) قيصرًا وأميرًا للشباب سنة 196م. وفي سنة 197 قاد سيفيروس فيالقه بنفسه فحقق النصر على البينوس وحمل راسه إلى مجلس الشيوخ، ووجهت تهمة الخيانة العظمى إلى أكثر من ستمين شيخاً نفذ حكم الإعدام بنصفهم. ونتيجة لكل ذلك أصبح سبتميموس سيفروس حاكم الامبراطورية الرومانية الأوحده، إلى أن أدخل عليه لاحقاً مشاركة ولديه كراكلا وجيتا ليصبح حكماً ثلاثياً.

لم يكن أحد يعلم كيف كانت الأمور تناقش بين سيفيروس وزوجته وكيف كان تأثيرها على قرارته، إلا أنه من المؤكد أن خططهما وتصميمهما كانا يدوران حول استمرار الحكم في الأسرة، وذلك رغم إدراك الأب تقصور في كفاءة الوريث لصيانة الوصول إلى ما يخططان إليه والاستمرار فيه؟

استغل البرثيون الفوضى الحاصلة في روما وأخذوا بهاجمة الأطراف الشرقية والمحاذية لهم من الامبراطورية الرومانية، وخصوصاً بين النهرين (ميزوبوتاميا). حيث كان سيفيروس مسؤولاً عن هذه الجبهة في الماضي.

بعد أن زطد القيصر الجديد أموره داخل البيت الروماني قام في عام 197م بتجهيز حملته لمواجهة الاعتمادات البرثية والانتقام من البرثيين الذين كانوا قد تحالفوا مع نيجر، واصطحب معه زوجته وولديه، فعقد معاهدة مع أرمينية من أجل حماية مؤخرة جيوشه، واجتاز الفرات مع جيشه، الذي كان من ضمن تشكيلاته كتائب الفرسان والهجانة التدمريين، متدفعاً إلى بابل وطيوسفون (المدائن) عاصمة الدولة الفارسية فنهبا جنوده وعاثوا فيها خراباً واقتادوا منها الأسرى، وبذلك أعيدت ميزوبوتاميا مرة أخرى إلى روما. وكان هذا الانتصار بمثابة تحقيق وعد مقدس بالنسبة للفيالق الرومانية. وقد

أطلق لقب الأوغسطس والتريون على كراكلا، ولقب القيصر على جيتا. ونتيجة لمرافقة جوليا دومنا لزوجها في هذه الحملة حصلت على أول لقب كان من أرفع ألقاب الشرف الروماني: "أم المخيمات العسكرية والجنود على جبهات القتال Mother of the Camps"، وشُرفت بالنقوش والصور على القطع النقدية خلال هذه الفترة. وبموته إلى روما زين انتصاره باضفاء ألقاب جديدة على نفسه، منها: العربي، البرثي الأعظم، وبايوس نسبة إلى الامبراطور أنطونيوس بايوس (التقي: 138-161م)، الذي أعطى اسمه لفترة حكم الأنطونيين الذين أطلق على عصرهم "عصر السلام الروماني".

بعد أن قضى سيفيروس فترة في إدارة وتنظيم سورية وبلاد المشرق قرر الذهاب إلى مصر التي أخذت جانب بيسكتوس نيجر خلال الصراع على السلطة الامبراطورية. فآخِر في نهاية عام 199م نحو مصر، حيث قوبل دخوله إلى الاسكندرية بطريقة احتفالية وسط الهتاف والتهليل، بحيث بدأ عليه الإعداد والتخطيط المسبقين، فقام بجولة تفقدية على البلاد المصرية وشارك في الاحتفالات الدينية المصرية، واتخذ قرارات إدارية واجتماعية وقضائية. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على عناية ورؤية خاصة لمستقبل مصر الذي فتنت اليونان وما زالت تثير خيال الرومان بسحرها وأساطيرها وملوكها وملكانها ومسارح الفتنة والجمال والحب التي أثارها كليوباترا بقصصها مع يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس، إضافة إلى ما كانت تمثله مصر من مستودع عظيم لغلال روما. وكانت زيارة سيفيروس إلى مصر تبدو في ظاهرها استجماماً للزوج الامبراطوري من عناء غبار المعارك وصليل السيوف، إلا أنها كانت إلى جانب ذلك نوعاً من التأمل في محاولة لرفع الغطاء لمعرفة حقائق ما لا يعرف. فقد كان سيفيروس كما وصفه المؤرخ المعاصر ديو كاسيوس: "كان سيفيروس يبحث بشكل دائم لمعرفة كل شيء، خصوصاً تلك التي أخفيت بإحكام". وقد اكتشف اسم سيفيروس مكتوباً بالهيروغليفية بين أسماء الملوك المصريين الخالدين⁽¹⁾. وفي نهاية 201 م أبحر إلى أنطاكية المدينة التي لجأ إليها خصمه نيجر، ما دعى الأنطاكيين لإظهار ندمهم وتوبتهم على ذلك، وبالتالي اعتراهم بلاوديكا (اللاذقية الآن) عاصمة لمنطقة المشرق بدلاً من مدينتهم بعدما منحها سيفيروس الحقوق الايطالية وأطلق عليها لقب سبتيم. ومنح الحقوق الايطالية لبعليك والسامرة وصور. عاد سيفيروس وعائلته إلى روما سنة 202 م بعد جولته المشرقية، فتميزت عودته باحتفالات وأعياد عظيمة تصادفت مع الذكرى العاشرة لاعتلائه العرش، سك على اثرها نقوداً ذهبياً يظهر على أحد وجهيه صورة دومنا ولديها. كما تم زفاف زواج بلوتيليا ابنة بلوتيانوس الواسع الثراء إلى كراكلا. وتميزت حفلة الزواج بمهرجان باذخ إلى أبعد الحدود، مما جعل بعض المؤرخين ينتقد هذا الإسراف.

(1) - ربما تمكنوا حينها من فك شفرة للغة الهيروغليفية حتى يأمر بكتابة اسمه بين أسماء الخالدين بتلك اللغة؟ ذلك قبل اكتشاف شامبلون بزمن طويل، والذي كان قد سبقه، بثمانية قرون، ابن وحشية في كتابه "شوق المستهام في معرفة رموز الأكلام". إذ أن الأدب المصري القديم دون بالخطوط الهيروغليفية للتصويرية منذ المصور الفرعونية المبكرة، واستمر بذلك حتى نهاية القرن السادس الميلادي.

استقر أمر السلطة الامبراطورية بشكل كامل لسيفيروس بعد أن حقق انتصاراته في معارك رئيسية ضد خصومه الطامحين، إضافة إلى نجاحاته العسكرية على التخوم الشرقية للامبراطورية. بذلك أشرقت شمس العائلة السيفيرية - السورية على روما سيدة العالم. وختم مجلس الشيوخ الروماني موافقته المتحفظة الصامتة على سلطان هذا الجندي الذي لم تعرف الهزيمة طريقها إليه. فقد كان سيفيروس يتمتع بعقلية باردة على غاية من التخطيط والتنظيم والتنفيذ، حيث درس مبركاً أخطاء من سبقوه من الأباطرة دراسة تحليلية، فوضع الخطط لتجنب الوقوع في مطاياها، وانتهج سياسة اجتماعية ناجحة لتقديم الطعام للفقراء والمحترمين، كما اهتم بالعطايا السنوية للألاف من رجال الحماميات. لذلك كانت المتح التي يقدمها تأتي لخدمة ضرورات الحكم والسياسة، كما كانت إغراءات الحملات العسكرية تشكل وعداً بفنائم النهب والسلب لرغائب الجند وإحاراميات، إلى جانب ما كان يتبعه من تقديم الأعطيات الكبيرة لقادة الجيوش والكتائب شراءاً لمواقفهم.

جوليا دومنا ودائرتها الأدبية

خلال حكمه، كان سبتيوس سيفيروس متأثراً إلى حد كبير بقائد حرسه الامبراطوري الإفريقي كايوس فلوفيوس بلوتيانوس الذي كان يتمتع بسلطات واسعة بناءً على معرفة الامبراطور. كما أن بلوتيانوس زوج ابنته إلى كراكلا، ولكنه لم يكن يخفي امتعاضه من نفوذ دومنا. لذلك، ولسوء حظ العائلة، بدأ صديق ورفيق سيفيروس من أيام النضال والودعة، وقائد حرسه الامبراطوري بلوتيانوس بزبح الشكوك حول مسلك دومنا الأخلاقي. وربما فبركت هذه الاتهامات بسبب من نفوذها القوي على البلاط، وعلى زوجها، أو ربما كان- كما أكد كراكلا لاحقاً- يدخل في باب التآمر للاستيلاء على العرش الروماني. وربما ما كان يثيره بلوتيانوس صحيحاً إلى حد ما في البداية، تجاهل سيفيروس هذه الاتهامات، لكن الزوجة لم تستطع الاستمرار في استثمار فوز زوجها بالعرش بسبب ادعاءات بلوتيانوس، حتى بعد أن قتل بلوتيانوس بعد انكشاف نبأته التآمرية. وقد أشيع أنها كانت وراء مقتله وتشويه سمعة ابنته بلوتيل زوجة كراكلا. ورغم ادعاءات بلوتيانوس التي أدت إلى اهتزاز ثقة سيفيروس بها، بقيت جوليا تعيش في القصر الملكي مع أفراد أسرتها، وحضرت الألعاب الاحتفالية الرومانية القرنية الشهيرة التي أقيمت سنة 204، فتألفت فيها الأسرة الامبراطورية السيفيرية، وبدا حضور جوليا دومنا الامبراطوري مبهراً وقائماً للمتفرجين. وترأست كأوغسطا المناسبات الاحتفالية النسائية التي كانت تضم في عضويتها نساء أهم العائلات الرومانية النبيلة، إضافة إلى أختها ميسا التي حازت على لقب السيدة الأولى في طبقات الفارسات الرومانيات.

وقد علق على ذلك المؤرخ المعاصر لتلك الفترة ديو كاسيوس بما يلي: "كان بلوتيانوس ذا تأثير عظيم على سيفيروس في كل شيء، حتى أنه كان في كثير من الأحيان يتصرف مع

الأوغسطا جوليا دومنا بطريقة شائنة؛ إذ لم يكن يخفي مشاعره العدائية ضدها إلى الحد الذي كان يسبب معاملتها بمعرفة زوجها. كان بلوتيانوس يشرف على التحقق من سلوكها، إضافة إلى جمعه معلومات ضدها بإتهامها أنها كانت تقوم بالضغط على نساء العائلات الرومانية النبيلة. أمام ذلك بدأت بالاهتمام بالفلسفة وقضاء أوقاتها مع الصوفيين⁽¹⁾. فظهرت نشاطاتها في هذا المجال بشكل عزز من صورة الاحترام للعرش الامبراطوري، خاصة في فترات الفراغ التي كانت تأتي بين الحروب. وقد روي أن رعايتها للدائرة الأدبية كان له جانب سياسي. ويظهر أن التيارين المتناقضين والمتصارعين خلال السنوات الأولى من فترة حكم سيفيروس سيؤديان حتماً إلى انفجار يؤدي إلى اختفاء أحدهما لا محالة؛ الأول يمثل بلوتيانوس المستشار الطموح الحازم على ثقة الامبراطور، والثاني سوري تمثله الامبراطورة جوليا دومنا الأكثر ملوحاً ودهاءاً وتخطيطاً ومعرفة بالتاريخ وتحليلاً نفسياً وبصيرة نافذة لا تخطئ ولا تروم، تجعلها قادرة على كيفية رؤية الرجال ووزنهم بدقة بحيث يكون توقعها بالنجاح بالغ الدقة والكمال.

أتاحت تنقلات جوليا مع زوجها التعرف على الكثير من الناس مختلفي العادات والتقاليد والثقافات والعقائد والتجارب، إضافة إلى ما بذله أبوها كاهن الشمس ليقدم لها ولأختها جوليا ميسا كل ما في وسعه من ثقافة رفيعة خلال تربيته وتهذيبه لهما في صباهما تحت رعايته في حمص، مما مكّنها من صهر جميع ما اكتسبته بذكاء وحكمة في توسيع وإغناء دائرتها الأدبية والثقافية والإدارية، بحيث مكّنها كل ذلك من معرفة طرائق تفكير الأباطرة الرومان وكيفية صنع مكونات الخطط لتنفيذ ما تتطلبه من حشد كل ما يمكن وراء عرش زوجها، وفيما بعد خلف ابنها كراكلا، فقد كانت تخطط لاستمرار توارث العرش الروماني وبقائه في العائلة.

ونظراً لنقص دور جوليا دومنا في الشؤون المؤثرة في سياسات البلاط الامبراطوري، إن كان بسبب مكائد بلوتيانوس أو غيرها، فقد بدأت بتأسيس سمعتها كسيدة مثقفة ورعاية للأدب والفلسفة والفنون. فأخذت تهتم برعاية الفلاسفة والكتاب المشهورين بتشجيعهم على الانضمام لدائرتها الأدبية. وربما كان ذلك نتيجة استيعابها الواعي والمبكر للنهضة إلى قلب وعقل الامبراطورية الرومانية. لذلك كثفت جهودها لتوسيع دائرتها الثقافية (شهد اهتمامها هذا مثيله أول مرة خلال حكم أوغسطس؛ 27 ق.م-14م)، فاستقطبت في دائرتها الأدبية والثقافية المتعددة الأفكار والاهتمامات العديد من مشاهير تلك الفترة، أمثال:

1- الصوفي الوثني فيلوستراتوس Philostratus الذي ألف "سيرة أبولونيوس الطلياني" بناءً على تكليف منها كدعاية ضد المسيحية لخدمة أغراض الدولة، لأن سيفيروس وجوليا كانا يحاريان المسيحية واتباعها، وكانا شديداً الحماس للوثنية. وكان تأثيره كبيراً إلى حد أنه كان يمارس نوعاً من الفتنة الحقيقية على عقل جوليا وفي بلاطها الأدبي،

(1) - ديو كاسيوس: "تاريخ روما" Dio cassius, History of Rome, LXXVI. 15

كونه كان صديقاً مقرباً منها. وقد هارن الوثنيون هذا النبي المتجول بالسيد المسيح لمعرفته الواسعة وحكمته العالية التي اكتسبها من الفلاسفة الهنود خلال ترحاله إلى الهند.

2- مواعظنا الحمصيان: ألبان وبابنيان (Ulpian and Papinian)، اللذان أحاطت بهما زوجها. فقد كانا رفيقي دراسة في مدرسة بيروت الفقهية. فكانت لألبان مكانة مميزة في عهد سيفيروس الأول وكراكلا. إلا أن الإغابالوس (إلاغال) أبعد عن روما وذلك بسبب محاولاته المستمرة بالتعاون مع ميسا لإصلاح تصرفاته انشائية، إلى أن أعاده القيصر اسكندر سيفيروس وولاه زعامة الحرس الامبراطوري وجعله مستشاراً خاصاً له. وقد ترك ألبان عدة أسفار فقهية في التشريع تقارب العشرة. بحيث استمد الامبراطور يوستينيانوس (جوستيان) (527-565) الكثير من تشريعات ألبان الحمصي. بينما كان بابنيان من أنسباء جوليا دومنا، وكان رفيق تلمذة مع سيبتيميوس سيفيروس الذي استوزره فيما بعد وجعله قائداً لحرسه البريتوري ومستشاراً خاصاً له، وذلك لضمان ولاء الحرس وتعزيز التشريعات القانونية. وقد وثق به القيصر إلى حد أن عهد إليه الاعتناء بعائلته والمحافظة على وحدتها بعد موته. لكن كراكلا لم يراع وصية والده، وأمر الفقيه القانوني بابتيان أن يصدر فتوى يبرر بها قتله لأخيه جيتا، إلا أن بابنيان رفض الانصياع لأمر الامبراطور رغم إدراكه بأن هذا الرفض سيكلفه حياته، وقد أجاب بما صار بعد ذلك قولاً مأثوراً: "إن فعل جريمة القتل أخف وطأة من تبرير ارتكابها". وقد دفع حياته مقابل رأيه، حيث أصدر كراكلا أمراً بالتخلص منه. والفقيهان القانونيان كانا من الأعضاء المؤثرين في دائرة دومنا الأدبية. ويعتقد أن من كان وراء إصدار مرسوم كراكلا، الذي منح حق المواطنة لكل مواطني الامبراطورية الأحرار هم دومنا ودائرتها الأدبية، وخاصة ألبان وبابنيان، وليس ذلك الجندي الخشن كراكلا. ويذكر معظم المؤرخين أن القانون الروماني الكلاسيكي- الذي كان بالأساس من وضع هذين الفقيهين القانونيين ألبان وبابنيان- كان ذا تأثير عظيم على القوانين الأوروبية والأمريكية اللاتينية في العصور التالية.

3- إيليان Aelian: مؤلف وجامع للقصص والحكايات القريبة والخيالية عن الحيوانات، والذي ساهمت قصصه فيما بعد في تطور الحكاية الشعبية الأوروبية.

4- المؤرخ اليوناني الشهير ديو كاسيوس Dio Cassius: كان مؤرخاً أميناً ولد سنة 155م في مدينة نيقية، شمال غرب آسيا الوسطى. وشغل عدة وظائف سياسية وإدارية في فترات بيريتيناكس وميقيروس ومكريانوس. ونال درجة الفئصل. ألف تاريخ روما، الذي بدأ فيه منذ تأسيس روما (753 ق.م) وانتهى فيه إلى زمن اسكندر سيفيروس. وأمضي في جمع مواد تاريخه حوالي عشر سنوات. واعتمد على جميع المؤرخين الذين سبقوه، وعلى السجلات والوثائق الرسمية التي كانت بين يديه خلال توليه مناصب إدارية، إلى جانب خبرته في ممارسة العمل العام. اكتسب تاريخه أهمية خاصة لأنه استمد معلوماته

من عدة مصادر معاصرة. وقد كتب باعتماد ملحوظ، ويموضوعية يشهد له بها. وانتصر ليوليوس قيصر ضد بومبيوس في تاريخه. ولسوء الحظ، فقدت الأجزاء التي أرخ فيها لحكم الأباطرة منذ واسبسبانوس (69-79). وجاء تاريخه في ثمانين جزءاً، لم يبق منها سوى عشرين جزءاً كاملاً، وستة أجزاء ناقصة، وتنت متفرقة من البقية. ومما وقع في تاريخه موضع استغراب المؤرخين المحدثين، وصفه لليهود بالقسوة، وأنهم كانوا يأكلون لحوم قتلاهم ويشربون دماءهم ويتمنطقون بأعنائهم ويلتفون بجلودهم، وكانوا يقومون بشرط الكثيرين من رؤوسهم إلى أقدامهم.. أنخ؟

بلوتيانوس الحليف والعدو

لم تنس جوليا دومنا بأنها طلعت في كبرياتها من ادعاءات بلوتيانوس، فأنى لشخصيتها العنيدة أن تخضع وتستسلم داخل الدائرة التي رسمها مستشار زوجها، هوقفت تبين لزوجها الأخطار المحدقة لما قد يحدث من ضياع ما بنياه نتيجة لهذه الإدعاءات، وخاصة بعد أن بدأ يظهر طموح بلوتيانوس إلى العلو، فطال الامبراطور نفسه بدعوى أن تأثير دومنا عليه كان لا حدود له، وأن إشاعة مظاهر تبجيل دومنا إلى حد التآليه كان يلاقي آذاناً صاغية لدى الرومان الذين لا يعترفون بنظام الأمومية الشرقية، وسيطرة الأنثى كانت منفرة لنفوسهم.

كان تخطيط بلوتيانوس بالإنضمام للعائلة يتصف بالبراعة والحنكة، إذ بدأ مريباً لكراكلا وجيتا، ثم رئيساً للحرس الشخصي للامبراطور، ثم عضواً في مجلس الشيوخ، وقنصلاً لمرتين. ومع ذلك لم يدم زواج كراكلا وبلوتيليا أكثر من ثلاث سنوات (202-205)، إذ كانت أمزجتهما على طر في نقيض، حيث كان الشقاق بينهما لهيباً دائماً الاشتعال، حتى أن كراكلا رفض العيش معها في مسكن واحد، وكان يمارس إهاناته الدائمة عليها، إلى الحد الذي لم يكن يخفي اشمزازه منها ومن والدها، وربما كان عقل جوليا البارد يغذي سلوك كراكلا المهين لبلوتيليا ووالدها، وهكذا بدأ كراكلا يقتنع بما تحطط له أمه. وأخيراً استطاعت جوليا من خلال صب سخطها على بلوتيانوس أن تجعل سيفيروس يرى الخطر بعيون مفتوحة حتى نطق بأن بلوتيانوس عدو للشعب. لكن مهارة بلوتيانوس لم تخنه حيث تمكن من إقناع سيده الذي سامحه واعترف أنه غير قادر على الإساءة إليه. لكن جوليا لم تستسلم، فبدأت بإثارة النمام ضد بلوتيانوس الذي مجه الناس لتباهيه بالثراء الفاحش. فكان رد فعله على ذلك توجيه تهمة الخيانة الزوجية للامبراطورة، حيث لم يجد الامبراطور بداً من أخذ القضية إلى المحكمة الامبراطورية. ورغم إحضار العديد من الشهود الذين رقب لهم بلوتيانوس ليشهدوا إلى جانب ادعاءاته في المحكمة، فقد كانت نتيجة الحكم بطلان الدعوة لعدم ثبوت الأدلة. ومع تبرئة الزوجة من التهمة، إلا أن نتيجة المحاكمة قد أدت إلى انسحاب دومنا من المشهد مؤقتاً.

ظهرت جوليا دومنا من جديد إلى جانب زوجها بعد أن تم الصفع عنها. وتمكن سبتيوس جيتا شقيق سيفيروس وهو على فراش الموت من إقناع الامبراطور أن بلوتيانوس يدبر أمراً بالإنقلاب على الامبراطور. ولم يكن كراكلا وأمه غائبين عن ذلك. فاتفق كراكلا مع قائد المائة (السنطوريون) بأن دفعه لمقابلة الامبراطور، وأبلغه أن حاكم المعسكر يتأمر على حياته وولديه، وقدم رسالة يأمر بلوتيانوس فيها بتنفيذ خطة الاغتيال. أرسل الامبراطور باستدعاء بلوتيانوس. وعند حضور بلوتيانوس وجه إليه سيفيروس السؤال التالي دون أن يظهر عليه أي انفعال أو غضب: "من الذي أوحى إليك بخطة قتلي؟". وقبل أن يجيب بلوتيانوس انقض عليه كراكلا ونزع سيفه وأهانته، وسأله: "لما أتيت مدرعاً إن لم تكن لديك نوايا شريرة؟". ويسرعة خاطفة، يبدو أنها كانت معدة سلفاً، أصدر كراكلا أمره إلى جندي من حملة الفؤوس بذبح الحاكم وذلك قبل أن يتمكن سيفيروس من التدخل، ولم يعبر عن اعتراضه بأية إشارة ممانعة. ألقيت جثة القتيل إلى الشارع معروضة أمام الجمهور حتى أمر الامبراطور بدفنها بشكل لائق بعد ذلك. وقد تمت عملية القتل هذه في العشرين من حزيران عام 205م. وهكذا، تخلصت جوليا دومنا من كابوسها المرعب بأن أرسلت شبحه المخيف إلى العالم السفلي.

اعتقد الغالبية من المؤرخين القدماء أن أسس استمرار الارتباط بين الزوجين يقوم الآن على الإرادة المشتركة لتحقيق القوة والسلطان وصيانة استمرارهما في الأسرة. وقد عبّر بناء القبة السماوية (السيبيزونيوم) بأروقتها وأعمدتها الرائعة وفي انسجامها كسمفونية ساحرة الأنغام عن تماسكهما في سبيل هدف واحد، حيث لم تكن جوليا بعيدة عن قيام هذا الصرح العظيم. وتم تشييد التماثيل والنصب والمعابد في روما وفي مختلف الولايات لأفراد العائلة بحيث بدا يظهر نوع من تأليه الامبراطور وزوجته جوليا دومنا.



Head of Julia Domna
Munich, Staatliche Antikensammlungen

صورة تمثال لرأس جوليا دومنا
التمثال معروض في المتحف الوطني في ميونخ

موت سيفيروس واعتلاء كراكلا

اصطحب سيفيروس زوجته وولديه برجلة إلى أفريقية في نهاية العام 203م ومعظم العام الذي يليه، وأعاد الزيارة إلى أفريقيا سنة 207م، بحيث تمت مراسيم الاستقبال بما يليق، وحفرت ذكرى إحدى الزيارتين على الحجر في لامبير تعبيراً عن الإخلاص والوفاء. وفي زيارته لمدينته لمدة أقام أبنية فخمة منها: البازيليك والفوروم وقاعة الثلاثين عموداً ومتحف الجوريات، والحمامات، وقوس النصر بواجهة الأربعة الأعمدة الذي خلده مع ولديه القيصرين وزوجته الملقبة بالأوغسطة وأم القياصرة وأم المعسكرات. ودومينا أي السيدة البالغة الجلال.

رغم أن سيفيروس لم يكن حمصي المولد إلا أنه كان حمصي الهوى، مع أن أصله كان فينيقياً من أحفاد الكتانين⁽¹⁾. حيث قام برد الاعتبار لقبر هاتيميل وبناء تمثال له من المرمر كإهداء إلى أكبر رجل يجذب في التاريخ القديم، وهذا ربما يعني أنه كان يعتبر نفسه تجسيداً لهذا القرطاجي العظيم الذي كان اسمه يبعث القشعريرة في أوصال الجمهورية الرومانية. وقد ذكر بعض المؤرخين أن الرجل يستعبد الدؤوب للسلطة كان قليل الاهتمام بالروح الوطنية الرومانية⁽²⁾. وكان لزوجته أثر كبير في الدولة، حيث أقامت منتدى خاصاً على شكل معهد علم وأدب وفن وسياسة، وكانت هي نفسها تشرف على إدارة المنتدى الذي كان يؤمّه أشراف الرومان وأعيان البلاد السورية، كما مزق قبل قليل، وهذا ما سجله لها معظم المؤرخين القدماء الذين أكد معظمهم أنها لطفت كثيراً من أخلاق سيفيروس الصارمة، مما ساعد على إطالة مدته على العرش وإعطاء صورة مبجلة عن العرش الروماني في فترة بدأت فيها الأزمة الامبراطورية تطل برأسها. وبعد أن وطد سيفيروس سلطاته في الغرب وقضى على القبتن جميعها، غزا الشرق، فتجحجج في ضم ولاية بين النهرين (ميزوبوتاميا) إلى الامبراطورية.

رافقت جوليا دومنا زوجها الامبراطور ومستشاره القانوني بابنيان، الذي كان صديقه الشخصي ورئيس حرسه، في حملته العسكرية الأخيرة على شمال بريطانيا سنة 208م لقمع الاضطرابات التي اندلعت هناك، وأخذ معه ولديه كراكلا وجيتا بحجة إبعادهما عن القصاد في روما. وربما كانت مرافقة جوليا له في حملته هذه ويقاؤها معه حتى مات خير دليل على أن الإشاعات التي أطلقها بلوتيانوس كانت مغرضة ولم تستند إلى حقائق. وكانت صحة سيفيروس على غير ما يرام حيث كان يعاني من مضاعفات مرض النقرس. فمات في يورك أوائل سنة 211م بشكل غير متوقع. وظهرت رؤيته

(1) - درج المؤرخون القدماء على تسمية ميثيموس سيفيروس بالأفريقي، وكليلاً ما تشير إليه أنه من أصل فينيقي، وقد أخذ بذلك معظم المؤرخين المحدثين. إلا أن لحرثان شهيد رأي آخر، انظر كتابه "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، الصفحة الأولى من الفصل الثالث، والصفحة الثالثة من الفصل الثامن (ص 195).

(2) - انظر المصدر السابق نفسه، ص 91، الملاحظة الهامشية رقم 3.

السياسية المستقبلية بين ولديه، وريثي عرشه، بأن كانت آخر كلماته لهما، وهو على فراش الموت، كما روى ديو كاسيوس: "حافظا على السلام بينكما، واحكما سوياً كإخوين، اهتمما بحالة الجند العامة، وأنسيا الآخرين". وهذا يعني أن الأب كان يدرك سوء العلاقة بين الإخوين. فقد كان منح لقب أوغسطس إلى الإخوين يجعلهما متساويين في السلطة والحكم عملاً بعيداً عن القسوة السياسية التي اتصف بها سيفيروس وجوليا كسياسيين بعيدي النظر، كونهما كانا يدركان مدى التناقض والعداء الشديدين الذين لا يمكن إصلاحهما بين الإخوين لكنها الرغبة الأبوية والأمومية العاطفية الأبدية التي من الصعب عليها الاعتراف بما ستؤول إليه الأمور في هذه الحالة.

لم يعد كراكلا يستطيع تحمل سلطة والده المعجوز والعليل، إذ روي أنه دبر محاولة فاشلة للتخلص منه. وقد ترددت الحكايات عن محاولة اغتيال كراكلا لوالده خلال الحملة على كاليدونية، حيث سمعت صرخات استنكار من فرسان الحرس جعلت سيفيروس وهو على صهوة جواده يتقدم الجنود يلتفت نحو الخلف ليرى كراكلا شاهراً سيفه بيده، حيث توقف كراكلا وأعاد السيف إلى غمده. لم ينبس سيفيروس بشيء وتابع إلى المعسكر رابط الجأش. وهناك استدعى كراكلا وكشف له عن صدره قائلاً: "إضرب، وإن كنت لا تجرؤ فمر بابنيان بأن يضرب، ألسنت الامبراطورة". لا أحد ممن شهد اللحظات الأخيرة من حياة سبتيوس يستطيع أن يجزم بأن موته كان طبيعياً. لكن ربما سبق الاتهام ضمناً بتسميم كراكلا للامبراطور ضمن سياق عصر اتسم بتضخيم الروايات عن نهايات غالبية الأباطرة الرومان بالسُم أو بالسيف، سيان!

فرض النظام العسكري الذي أنشأه سيفيروس سياسات صارمة فيها شيء من الليونة عندما تقتضي الحاجة ذلك، إذ حافظ على تقوقه أمام جميع المتنافسين. وكان حضور الهيئة التي صنعها تجعل تأييد الفئاليق الرومانية حاضرة أيضاً. لذلك، كان شعار سبتيوس سيفيروس للحفاظ على فيالقه متماسكه: "اهتم بالجنود، وأنسى ما تبقى"، وكان هذا الشعار جزءاً من وصيته. فقد حافظ على تقديم الأعطيات للجند وقادتهم واهتم بكل ما كانوا يحتاجون إليه. واعتمد بشكل رئيسي على المشاة والفرسان المجندين الأشداء من مقاطعات آسيا الرومانية ومن المشرق وداشية وإسبانية، ومن القبائل الجرمانية والقرانك والقوط والالان والهون. بحيث قاد كل ذلك إلى سياسة الاندماج والمواطنة خاصة بعد إصدار مرسوم كراكلا الشهير في 212 م، فكان من نتيجة ذلك أن بدأ الاندماج القومي الروماني يفقد بريقه تدريجياً، ما أدى إلى وصول الكثير من الأباطرة من أصول ليست رومانية إلى عرش روما. من هنا نرى تحاملاً غالبة المؤرخين الذين سجلوا تاريخ الامبراطورية، اعتباراً من نهاية القرن الثاني وما بعد، على هؤلاء الأباطرة كونهم لم يكونوا من أصول إيطالية.

كانت إدارة سيفيروس عالية في مستوى أدائها، فحقق السلم العسكري والاجتماعي للدولة. ومات سنة 211 م بعد أن بلغ من العمر 65 عاماً سلخ فيها من الحكم 18 عاماً أمضاها في حرب وحشية متصلة وسريعة قضى فيها على كل منافسيه وغزاً بارثية

الفارسية واستولى على طشقونة وضم بلاد ما بين النهرين وانتصر على الاسكتلنديين في شمال بريطانيا في عدة مواقع، ولما جاء الموت قال: " لقد نلت كل شيء، ولكن ما نلت كان لا قيمة له".

بعد موته، تشارك الشقيقان كراكلا وجيتا الملك معاً لمدة عام تقريباً. وقد كان الفرض من منحهما لقب قيصر تقادياً لتغلب أحدهما على الآخر. غير أن الملك صفته كالعادة؛ لثيم غادر، غل حاقده، لا يرضى ذمة ولا إخوة أو بنوة أو صداقة أو تحالف، أو حتى مصلحة مشتركة، أو مصلحة بلاد؛ إذ سرعان ما طفت نيران الحقد والغضب والاضغينة على الشقيقين في نوبات متكررة، حاولت الأم إصلاح الأمر بينهما. فرتبت لانعقاد مؤتمر مصلحة واتفاق بينهما برعاية مستشارين كبار من أعضاء مجلس الشيوخ للإبقاء على وحدة الدولة. حيث أصرت الأم بعدم الموافقة على تقسيم الامبراطورية بينهما، وكان جوابها لهما: "إذا كنما نستمعان باقتسام الامبراطورية كلها بينكما، فهذا لا يكفي؛ إذ يجب عليكما أن تقسما أمكما بينكما أيضاً. يالشقايا! ماذا علي أن افعل؟ أقسم نفسي بينكما أنتما الإثنين؟ اقتلاني أيها القاسيان الجاحدان، قطعاً جسدي، وليضع كل منكما قطعة منه في امبراطوريته بحيث تكون هذه هي الطريقة الوحيدة لأكون ضمن هذه القسمة المشؤومة التي تبغيانها".^(١) انتهت إلى حين فكرة الاقتسام، لكن الآتي سيكون أعظم. إذ لو أن دومنا تبنأت بالآتي المريع لكانت ربما وافقت على اقتسام الدولة بين الأخوين. ففي العام 212 استطاع كراكلا أن يقنع والدته أنه مستعد للمصالحة، ورجاها أن يتم الاجتماع في بيت العائلة وتحت رعايتها دون حضور أحد سواهم الثلاثة.

اختلفت بعض المصادر القديمة في أن كراكلا قد قرر الاحتفاظ بيمتة طعن أخيه حتى الموت، أو أنه كلف قتلة آخرين لقطعنه؛ لكن جميع المصادر تتفق على أن جيتا مات بطعنات السيف وهو في حضن والدته حيث أغرقها بدمائه، فأغرقت روح دومنا إلى الأبد مع روح ابنها. ففي نوبة من الغضب العاتي أقدم كراكلا على قتل شقيقه جيتا وهو في حضن أمه. وقد لقب المؤرخون الرومان كراكلا بالمتوحش. ويقدم لنا ديو كاسيوس المؤرخ الذي عاصر الأحداث الرواية على النحو التالي: "خطط أنطونينس كراكلا لقتل أخيه جيتا في مناسبة احتفالات أحد الأعياد الرومانية، لكنه لم يستطع تنفيذ خطته لأن نياته الشريرة لقتل أخيه كانت معروفة. لذلك، فقد استمرت الخلاطات والمؤامرات والمكائد بينهما. ولقصلهما عن بعضهما البعض وضعت الأم عدداً من الجنود والرياضيين الأشداء لحراسة جيتا بشكل دائم ليلاً ونهاراً، داخل القصر وخارجه. لكن كراكلا استطاع إقناع

(١) - أثريت القراءات من بعض الكتاب أن كراكلا لم يكن لهناً لجوليا دومنا، بل هو ابن موفوريوس من زوجته الأولى، وأنه تزوج (نومنا) امرأة أبيه بعد موت الأب، حسب رواية سبارقيان المثيرة للإشمئزاز. إذ لا يوجد أي أثر لسند تاريخي يثبت ذلك. كما أن المؤرخ ديو كاسيوس الذي عاصر تاريخ الفترة وقبلها لم يقل أي شيء عن ذلك أبداً. إضافة أن مثل هذه الإقراءات لم تكن لتسر مرور الكرام على شقيقة دومنا جوليا ميسا أو على بناتها جوليا سوسيا وجوليا ماميا، أو حتى على اللواتي النفيية، والإثاعات الرومانية، بما فيها ادعاءات بلوتياروس. ولو كان ذلك حقاً لكان ديو كاسيوس نكرو في تاريخه الذي استمر في كتابته لما بعد 235 م.

والدته دومنا بترأس اجتماع عائلي يتم في مخدعها، دون حضور آخرين، بينه وبين جيتا لأنه يريد التوصل إلى اتفاق نهائي معه. وثيقة جيتا بأمره وافق على الاجتماع. وحال وصولهما مخدع أمهما هوجئ جيتا وأمه بدخول سريع لفصيل من الجند كان قد أعدده كراكلا، فقاموا بطعن جيتا الذي اندفع إلى حضن والدته وطارق عنقه بضرارعه، وهو يستجعد بها قائلاً: من يدفع عني .. من ينجيني.. أنا مقتول⁽¹⁾. وقد ضمن ديو أن كراكلا درج على تدبير المكائد لجيتا حتى قبل سفر العائلة إلى بريطانيا، حتى أنه حاول مرة الاعتداء الجسدي على والده الامبراطور أو ربما قتلها، وكان بين الفينة والأخرى يهدد بقتل أخيه وآخرين معه.

لقد ظهر طاعون السلطان الروماني على أشده في حياة هذه العائلة. أخيراً، انتهى كراكلا- حسب الروايات إن كانت صادقة- لأن يكون قاتلاً لأبيه وأخيه! كان ذلك عقاباً مؤجلاً سيلاقه القاتل بطعنات السكاكين الطويلة تقطع أوصال جسده! وقد وصف المؤرخون القدماء شخصية كراكلا بالمتوحشة.

عاش كراكلا بقية عمره في تبكيت ضمير مستمر على طعن أخيه جيتا حتى الموت وهو في حضن والدته. قاده تسنم المنصب الأول في الامبراطورية إلى الفطرسه والعجب بنفسه، فأصبح سريع الانفعال تتنابه نوبات من الغضب الشديد. كما بدا يظهر عليه فقدان الاهتمام بشؤون الدولة، بحيث كانت مهمات دومنا القيام بسد الفراغ الذي كان يتركه كراكلا.

لم ينته الأمر، بالنسبة للأمر عند هذا الحد، إذ لم يُسمح لها أن تتعي ولدها المذبوح. فقد روى ديو كاسيوس الذي كان قريباً من كل ما حدث: " أجبرت الأم على إظهار الفرح والابتهاج كما لو كانت المناسبة مناسبة فرح حقيقي. وأعطيت الأوامر لمراقبة كلامها وإيماءاتها وتغيير ملامحها بشكل دقيق كي تستمر في إظهار الابتهاج ولا تعطي أي انطباع بالحزن". على كل حال، كانت شخصية دومنا الفريدة، وليس غيرها، قادرة على أن تمسك بدموعها وأثوابها ما زالت مبللة بالدماء الغالية. وربما أصاحت السمع لأوامر ابنها القاتل من أجله لا من أجلها! غرق بيت الأسرة السورية الحاكمة على العرش الامبراطوري الروماني بالدماء، كما كان قد تنبأ وسيط الوحي بهذه النهاية المأساوية، حسبما ورد في رواية المؤرخ ديو كاسيوس: " سينتهي بيتهم غارقاً بشكل كامل بالدماء"⁽²⁾.

صحيح أن جوليا دومنا ارتقت إلى أعلى مراتب الشرف الامبراطوري الروماني خلال فترة حكم كراكلا- الذي أصبح سيد روما المطلق بدون منازع- فكانت تحكم العرش الروماني بالنيابة عنه خلال غيابه الطويلة، لكن هذا لا يعني أنها كانت عديمة الإحساس أو أنها كانت قادرة على تقبل رشوتها بمثل هذا السلطان العظيم! ولنا ندرى إن كان وصف تورتنون Turton صحيحاً، والذي كانت مجمل رواياته أميل إلى الخيال منها إلى الواقعية، حيث وضع صورة دومنا بشكل جيد ومرة واحدة، معلقاً: " كانت جوليا دومنا

(1) - ديو كاسيوس: تاريخ روما، (History of Rome, 78.2, war, Dio Cassius)

(2) - المصدر السابق نفسه (HR, 79, Dio)

امراة عظيمة تتمتع بقدرة عقلية هائلة ترفض أن تجعل من مشاعرها الشخصية سبباً لإفساد قراراتها السياسية. حيث وقفت بكل حزم ممكن ضد تقسيم الامبراطورية، وكرست نفسها لتقديم أفضل الخدمات وأنسبها للدولة وللمجتمع الامبراطوري الروماني. ومن ذلك، استطاعت جوليا دومنا إخفاء مشاعرها المريرة وآلامها، فاستمرت بمساعدة ابنها القيصر كراكلا بالإشراف على الإدارة الامبراطورية، فكان اسمها يقرن إلى جانب اسم الامبراطور في المراسلات إلى مجلس الشيوخ وعلى المستندات والوثائق الرسمية. وكانت تقوم بالنيابة عنه في كل شيء بكل فطنة وحسن إدراك للأمور وذلك خلال غيابيه خارج روما على رأس الجيوش. وهكذا وجد كراكلا في أمه المستشار والحامي الأول الذي لن يخون، ومرة لامته أمه على تذييره وإسرافه المفرط على الجيوش والأبنية الفاخرة.. إنخ، معترفة نه بدرجة الإرهاق التي أوصلت إليه ميزانية الدولة، فأجابه ويده على مقبض السيف: "لا تهتمى لذلك يامام، فطالما نملك هذا لن نحتاج إلى شيء آخر". بدون شك؛ هذه ليست إجابة رجل دولة!

وليس ثمة ما يحملنا على الافتراض أن سيفيروس الأب الذي تربى في ظل من ثقافة الحقوق والبلاغة في صدر شبابه، وجوليا دومنا الأم بثقافتها الرفيعة، يمكن أن يضطربا في تهذيب وتربية ولدين كانا يخططان لهما أن يرثا عرش الامبراطورية في مستقبل الأيام. لقد كلفوا نخبة من المعلمين من أمثال أنتيباتر الهيرابوليسي (من منيج)، وهو مؤلف كتاب "تاريخ سبتيموس سيفيروس" المفقود، للقيام بتتقيف الأخوين. كما أن مرافقة كراكلا وجيتا لوالديهما في أسفارهما وحروبهما، لا شك، أنها فتحت، أو وجب أن تفتح، أمامهما آفاق واسعة من المعرفة والخبرة والحنكة في التاريخ والإدارة إلى جانب فنون القتال والعلوم العسكرية، خصوصاً في السنوات الأولى للحكم ولفترة طويلة نسبياً، حين أظهرت العائلة السيفيرية تماسكاً مشهوداً.

كما مر، حاول كراكلا أن يبرأ نفسه من جريمة قتل أخيه، فجرت محاولات تأليهه ربما كتوع من التعويض عما اقترفت يده، وذلك بعد أن كان قد أمر بحذف اسم جيتا وصورة من جميع الأماكن الحكومية العامة، وكان يردد جملة شيشرون الخطيب والشاعر اللاتيني المشهور: "ليكن إلهاً بين الأموات أفضل من كونه إنساناً بين الأحياء".

لقي كراكلا نفس الجزء الذي لاقاه جيتا، بسكاكين حرسه الامبراطوري الطويلة التي مزقته شر ممزق، والذي قاده رئيس حرسه مكريانوس النكوميدي وذلك في عام 217، فهات وماتت جوليا بعده حزناً على كل ما جرى. وقد صور المؤرخون مسلك الرجل بالمشين، إلا أن أجمعهم هذا لم يفيطه حقه فيما أتاه من حسنات، خصوصاً في الفترة الأولى من حكمه:

1- إصدار مرسوم كراكلا بمنح حق المواطنة لجميع رعايا الامبراطورية الأحرار، والذي أدى إلى آثار اقتصادية وسياسية وعسكرية إيجابية هامة على الامبراطورية، ولو أن كثيراً من المؤرخين عزوا إصدار المرسوم إلى والدته، حيث قال بعضهم: لم يكن هذا

الجندي العنيف على مستوى إنجاز مهم كهذا لكن آخرين يقولون أن كراكلا كان في سنته الأولى على وفاق مع ما تطلبتته مهمات الدولة من تشريعات ومراسيم.

2- أتم، حسب رواية معاصره المؤرخ ديو كاسيوس، إنشاء الرواق والساحة أمام هيكل المشتري في بعلبك.

3- أقدم على إصلاح في نظام الجيش يتناسب مع شروط الحرب في المشرق، حيث كان وراء تشكيلات الفرقة المقدونية المؤلفة من ستة عشر ألفاً، والذين تدريباً على مشية الإوزة. وقد تم استخدام هذا النظام لاحقاً.

وأخيراً، جاء وعد كراكلا، فقتل في عام 217 م، وذلك بعد أن دخل بجيشه طيسفون العاصمة البرثية وعرضها للنسب والنهب. هارتجل بعدها إلى مدينة حران أعالي بين النهرين ومعه كوكبة من الفرسان. وفي الطريق انتحى جانباً وترجل عن صهوة جواده لقضاء حاجته، فجري إليه مارسيل أحد قواد المائة، الذي كان كراكلا قد قتل أخاه وأهانه إهانة بالغة، وطعنه بخنجر بين كتفيه من الخلف وهو يقضي حاجته في الخلاء، فوقع ميتاً على الفور. بذلك نجحت خطة ماكريانوس بالقضاء على الامبراطور. لكن سرعان ما ارتدى ماكريانوس فوق جثة المغدور وهو ينتحب، وقام بإحراق الجثة بكل احترام ووقار وأرسل رماحها إلى جوليا دومنا التي كانت في أنطاكية. وهكذا استطاع ماكريانوس إلى حين تبرأة نفسه من المؤامرة.

هتف مجلس الشيوخ لمكريانوس، هذا المجلس الذي شتم مكريانوس بأقذع الأوصاف في الماضي القريب. وكان من الحكمة لمكريانوس أن يعامل دومنا باحترام إذ لم يكن من المناسب إظهار خصومته للعائلة في هذا الوقت، فترك لها حرسها الامبراطوري.

أدركت جوليا دومنا أن حظها الأخير ينكشف أمامها كما الشمس الساطعة، فأحسّت بأنها أضاعت كل شيء؛ الزوج والولدين، العائلة، وفوق ذلك العرش. شاركت دومنا زوجها وولديها ببناء وصناعة كل هذا المجد الضائع الآن. وهي ترى الاضطراب والعنف القادم الآن، وربما الموت على يد القيصر الجديد مكريانوس Macrianus. فأرسلت إلى أنطاكية لتعيش في عزلة مع أختها ميسا، بعد أن أبلغ الجواسيس سيدهم الجديد بنية دومنا الانقلابية. وكانت حينذاك في الخمسين من عمرها. وقد ادعت بعض المصادر القديمة أن فقدانها ممارسة السلطة والتأثير وفقدان كراكلا ليس كإبن، بل رأت في موته وفقدان السلطة تحطيماً لآمالها الكبيرة في استمرار السلام والاستقرار والأمن في الامبراطورية، وتأمين الإرث الامبراطوري للبقاء في العائلة. وإن دل هذا فإنما يدل على رؤيتها الشخصية لبناء الدولة الامبراطورية العظيمة، والتي أثرت عليها تأثيراً عظيماً لأكثر من عشرين عاماً.

انتقلت جوليا دومنا للعيش قرب أنطاكية بعد مقتل كراكلا. وروى ديو كاسيوس عن هذه الفترة، قائلاً: "استقرت جوليا بالقرب من أنطاكية. وخططت للقيام بمحاولة انقلاب على مكريانوس من أجل أن تصبح هي نفسها امبراطورة على العرش، لكن شعورها بالمرض منعها من تنفيذ المحاولة. إذ أن السرطان الصدري الذي أصابها، وآساها على النهاية العنيفة لولديها، وإضاعة سلطان الحكم، ربما جعلتها جميع هذه الأسباب تقرر

صرف النظر عن متابعة خططها وذلك بوضع حد لحياتها بتجويد نفسها حتى الموت بدلاً من السقوط لما أصبحت تراه قادماً .

أصبحت هذه المرأة العظيمة ضحية مرارتها وفشل مشروعها الشخصي والعائلي . فابتليت بمرض السرطان الصدري، وأصرّت على رفض تناول الطعام حتى قضت سنة 217 . وليس من المعروف إن كان امتناعها عن الطعام بسبب المرض فقط، أم لرغبة داخلية عارمة في الرحيل، أم للسبيين معاً؟

وصف ديو قائلاً: " لا يمكن لأحد أن يرى، في ضوء ما كانت عليه جوليا دومنا، إن أي ممن أحرزوا سلطة عظيمة إلا أن يكون سعيداً، شرط أن تكون هذه السعادة حقيقية وكاملة وليست زائفة". هكذا كان قدر دومنا . تم نقل جثمانها إلى روما ووضع في مدفن غايوس ولوكيوس، ثم نقلت عظامها وعظام أختها ميسا وعظام جيتا إلى فناء مدفن الأنطونيين⁽¹⁾.

لخص معاصرها ديو كاسيوس حياتها بالوصف التالي: " .. ارتقت هذه المرأة من بين الجموع إلى أعلى المراتب، وعاشت حكم زوجها غير سعيدة بسبب الإشاعات التي أطلقها بلوتيانوس ضدها، وهي التي احتضنت ولدها الأصغر وهو يذبح في أحضانها، وهي التي كانت تحمل امتعاضاً دائماً من ولدها الأكبر خلال حياته، والذي بالنهاية استحق نفس الجزاء العنيف لاغتيال أخيه، هذه المرأة سقطت من أعلى عليائها فماتت"⁽²⁾.

اعتلاء الإغابالوس (الإغابال؛ من الجبل) عرش روما

اعتلى مكريانوس العرش الروماني لأربعة عشر شهراً فقط، فأبعد جوليا ميسا أخت جوليا دومنا وابنتها سوميا وماميا عن روما، فرجعن إلى حمص موطنهن الأصلي . ولم يكن مكريانوس على قوة كافية لتوطيد نفسه وابنه دياكوميتان كوريث على العرش طالما بقي سوريات لم يسلمن بهزيمتهن بعد .

فقد تربت هؤلاء النسوة في بيت السلطان والملك، لذلك كن جميعهن يتمتعن بقسط عظيم من الذكاء والحصافة والخبرة والطموح والغاية والتصميم إلى جانب امتلاكهن لثروة عظيمة لم ييغلن بها من أجل طموحن، بل بذلن الغالي والنفيس في سبيل المجد والسؤدد والانتقام .

ترملت سوميا وماميا كل عن ولد واحد؛ فكان أفينوس باسيانوس بن سوميا، واسكندر بن ماميا . في حمص، قبضت الخالدة ميسا - التي كانت قد تمكنت خلال حياتها من المحافظة على ثروة المعبد في حمص كونها كانت وأختها الصغرى جوليا دومنا ابنتي كاهن المعبد باسيانوس، واستمرارهما في رعاية السدانة عليه - على مفاتيح هيكل إله - الشمس بحمص، وأقامت باسيانوس، الذي كان قد بلغ من العمر حينها أربعة عشر عاماً، كاهناً للهيكل ووارثاً لجدّه باسيانوس . أدركت الامبراطورات السيفيرانيات وهنّ في حمص

(1) - ديو كاسيوس: تاريخ روما المربع، (Dio, HR, LXXIX. 24)

(2) - ديو كاسيوس في المصدر السابق.

أن المال الوفير يغطي كل عيب ويحمل كل نجاح، ويجعل البعيد قريباً والمستحيل ممكناً إن أحسن الإعداد. فكان تخطيط ميسا إيثار التاج على الثروة، إذ قام فريقاً بأسبانوس بالتسلل إلى معسكر الفيلق الثالث (غالليكا) بالقرب من حمص بعد أن تركهم الجنود المكلفين بالحراسة يمشون دونما اعتراض، فقامت ميسا تحطّط بالجند الذين التقوا حولها وأخذوا بفصاحة هذه المرأة الجريئة. كان التأثير على الجند عارماً، خاصة بعد أن بدأ توزيع أكياس الذهب عليهم، وتم أخذ قسم الولاء منهم. وعند الصباح نادى الجند بباسبانوس ملكاً عليهم. وكان ذلك في 16 أيار 218 م. والذي لقب نفسه مرقس أوريليوس أنطونيوس لإغابالوس.

حاول أوليبوس غوليانوس أحد نواب مكربانوس وقائد الحامية الرومانية المراقبة بجوار حمص أن يحبط الانقلاب، غير أنه لم يفلح إلى ذلك سبيلاً، بل على العكس انضم جنود الحامية إلى معسكر بباسبانوس عندما رأوا أكياس الذهب مرفوعة بأيدي جنود المعسكر. وقد التقى جيشاً لإغابالوس ومكربانوس على تخوم سورية الشمالية. وعندما دارت المعركة الفاصلة بين الطرفين بدأ النصر قريباً لمكربانوس، عندما حقزت ميسا من عربيتها وبسرعة المقاتلين الأشاوس تقدمت الصفوف مهيبة بالهاريين من معسكرها بالثبات، حيث بدأت تتغير نتائج المعركة، فانهزم مكربانوس وقتل. بذلك أصبح كاهن إله الشمس الحمصي امبراطوراً على روما في حزيران 218 م. كانت ميسا تدرك مقدماً أنّ لإغابالوس لن يكون على مستوى مسؤولية المنصب، إلا أنها كانت تدرك أنه أقل عناداً من كراكلا، وهي لذلك ستكون مديرة أعماله اليومية بحيث لن يثبها ضعف أو ملل.

لم يطل الأمد لإغابالوس Elagabalus، وقد كان في الخامسة عشر من عمره، إذ لم يحسن التصرف بإدارة شؤون العرش الروماني. ورغم محاولات جدته ميسا بجعله يتصرف كامبراطور روماني إلا أنّ جميع محاولاتها باءت بالفشل. أدركت ميسا بمعرفتها لخفايا المطبخ السياسي الروماني أنّ لإغابالوس لن يعمر طويلاً على العرش نتيجة لتصرفاته الغريبة والشاذة، فأشارت عليه هي وخالته ماميا أن يسمي أسكندر قيصرًا، وأن يتبناه ليماونه في تسيير أمور الدولة. وبعد مدة حاول لإغابالوس التخلص من ابن خالته الذي اتفقت الأراء على رجاحة عقله، إلا أنه لم يفلح في ذلك. ونتيجة لتصرفات الامبراطور غير المسؤولة، نهافت الجند إلى القصر الملكي، فانقسموا إلى فريقين متحازبين انتصر فريق أسكندر، وقتل لإغابالوس، وذلك في آذار من 222. أعلن الجيش بعدها أسكندر امبراطوراً باسم مرقس أوريليوس أسكندر سيفيروس.

وقد أخذ المؤرخون المحدثون بوجهة نظر تتراوح بين مؤامرة اغتيال لإغابالوس على يد الحرس البريتوري كان مفاجئة عنيفة لجدته ميسا، وقد حاولت منعها، إلى أنها من كان وراء المؤامرة للتخلص منه ومن أمه سوميا التي هي أختها. وربما تأتي حقيقة اغتيال لإغابالوس بين وجهتي النظر هاتين. وربما تكون ميسا قد أدركت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ لإغابالوس غير قابل للاستمرار والحياة على العرش، لكنها كانت مهتمة لإبعاد أختها سوميا عن هذه النهاية الدرامية. وقد أدلى المؤرخ المعاصر ديوكاسيوس بدلوه بوضع اللوم

على أختها ماميا بأنها كانت وراء التحريض الذي تم في مخيم الحرس الامبراطوري، بالادعاء أنها كانت عدائية بشكل صريح لأختها سوميا. وبدلاً من أن تهرب سوميا، حاولت حماية ابنتها بجسمها من طعنات الحرس البريتوري، فماتت معه. وتم سجل جثتيهما في الشوارع.

تسبم اسكندر سيفيروس سدة العرش في روما

ولد اسكندر سيفيروس في عرقا بلبنان سنة 205 م من أبوين فاضلين هما : كاسيوس ماركيانوس من عرقا وماميا باسيانوس بنت ميسا أخت جوليا دومنا التي كانت معروفة بطهارتها ونقاها. قامت ماميا بالإشراف على تهييب ولدها وتثقيفه ثقافة عالية، فأعدته لهام ملكية عليا، كما لو كانت تقرأ المستقبل. كانت ماميا تشبه إلى حد ما خالتها دومنا، حيث كانت ميالة إلى الفلسفة والاهتمام بشؤون الدولة أكثر بكثير مما كانت عليه شقيقتها سوميا. وكان في نية ماميا أن تجعل من اسكندر سيفيروس ملكاً فيلسوفاً كما أراد أفلاطون للملك أن يكون (الملك الفيلسوف). فدرّب اسكندر كي يظهر بشخصية مبدعة أمام أركان الدولة والمجتمع. ومقابل رشا مالية كبيرة قدمت من جدته وأمه⁽¹⁾ أقر مجلس الشيوخ بالموافقة على اسكندر امبراطوراً.

ونظراً لأن القانون الروماني حينها كان يمنع دخول النساء إلى مجلس الشيوخ، شكلت الجدة والأم فريقاً استشارياً خاصاً من بعض مجلس الشيوخ، حيث تكون مجلس الوصاية هذا من ستة عشر شيخاً دون أي تفويض رسمي له من مجلس الشيوخ، والذي كان يقدم استشاراته ليس فقط خلال أعمال انعقاد مجلس الشيوخ وإنما خلال عطلاته أيضاً أو عند عدم إمكانية دعوته للانعقاد. وذلك من أجل القبض بشكل كامل على مجريات الأمور في الدولة. ولم يظهر على هاتين السيدتين انزعاجهما من ذلك، بل على العكس أظهرتا حماساً لتشجيع مجلس الشيوخ للتعاطي والمشاركة في أعمال الدولة. حيث كانت سلطة مجلس الشيوخ الحقيقية غائبة بشكل شبه كامل إلا ما كان يخدم الأباطرة أنفسهم. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على احترام لائق لمجلس الشيوخ بعد فترة طويلة من الممارسات المتعسفة ضد المجلس من قبل الأباطرة السابقين. فكان ذلك الاحترام جديداً لحكم جديد. مع كل هذا احتفظت ميسا وماميا باليد العليا على الحكومة والإدارة والسياسات العامة والجيش، إضافة إلى أنها حافظتا على إبعاد الامبراطور بكل صرامة عن الدنس الذي عاش فيه إلاغابالوس. والمفارقة، كما روى لامبريد الذي ألف كتاب "حياة اسكندر سيفيروس" كسيرة قديس حقيقي، أمتدح اسكندر لأنه رفض بتواضع ولباقة مثيرة للإعجاب إلحاح مجلس الشيوخ لإضافة اسم أنطونين إلى اسمه، وأشار لامبريد إلى رفض القيصر لأي شكل من أشكال التملق أو الفرور: "إذا رأى

(1) - اختلف المؤرخون في هذه الرواية، فمنهم من روى أن مولقة مطس الشيوخ الروماني كانت حقيقية، وكثير منهم صدقوا على هذه الرواية.

من يحيي راسه أمامه أو يحاول تملقه، كان يطرده من مجلسه إذا كانت صفة هذا المجلس تسمح له بذلك، ويضحكة ذات معنى احتجاجي إن كانت صفة المجلس لا تسمح بطرده". كان أسكندر سيفيروس ذكياً لين العريكة على شيء من الحزم مع طلاقة في الوجه والمحياء، وهذا ما مكن جدته ميسا التي كانت لها اليد الطولى، وأمه ماميا من التخطيط بهدوء وروية لإدارة شؤون البلاد، كونهما أميرات سابقات تمتعن بخبرة المطبخ الامبراطوري السديدة. فعالمًا تسنم أسكندر العرش بدأ يوضع الخطط لإصلاح ما أفسده أسلافه من الفساد والخلل، فانتخب، بمشورة جدته وأمه، ستة عشر خبيراً من أعضاء مجلس الندوة صهرتهم خيرة الدهر وشهد لهم بالفضل في حكمتهم وحصافتهم، فألف منهم ديوان مشورته. ولم يقرب من ديوانه أصحاب المسرة واللادين، بحيث وضعت ترتيبات صارمة على باب القصر كي لا يسمح بدخول أي شخص مشبوه بالانحلال الأخلاقي. وقد نصحته جدته وأمه أن يستقدم أولبيان الفقيه الحمصي الذي كان قد نفاه الإغابوس، ويعينه رئيساً للحرس الامبراطوري، ومستشاراً، فكان خير عون له في إدارة شؤون الدولة وحماية العرش. كما أقام ما يشبه المجلس البلدي للعاصمة روما مؤلف من أربعة عشر عضواً، مهمته معاونة والي روما في معالجة قضايا المواطنين في أحياء المدينة الأربعة عشر، ومنعه من الاستبداد برأيه. كما أنشأ ندوة نسائية ترأسها جدته ميسا ثم أمه ماميا بعد موت الأولى، ومنحها سلطات واسعة للارتقاء بالمرأة وتهذيبها وحثها على المشاركة بالهيئة الاجتماعية. حارب سيفيروس الثاني الخلاعة والتبذير والمرايين والمتلفين. واعتنى شخصياً بأمر جنوده، مما أسهم بحبهم له. وعلى العموم، فقد كال له المديح كتاب مسيحيون ووثيون على السواء.

ماتت ميسا وهي في حوالي الستين من عمرها أو أكثر قليلاً، وذلك بعد تولي أسكندر بأربع سنوات تقريباً (226 م)، فأقيمت لها جنازة امبراطورية، وتم تكريمها في مصاف الخالدين. وربما كانت من بين السوريات اللاتي حكمن في روما الأكثر صبراً وأناة ومهارة وصلابة. كان موتها خسارة عظيمة للعائلة، فقد كانت هذه السيدة العظيمة تتمتع بصفات عظيمة من الرؤية والروية والتخطيط والهدوء والديناميكية في الحركة والعمل. ويعتقد بعض المؤرخين القدماء، الذين يعرفون سيرتها، من أنها لو كانت ما تزال على قيد الحياة عندما صفت الأزمة بأسكندر سيفيروس سنة 235 لكانت بكل تأكيد تجتنب حدوثها.

لم يبق من أفراد العائلة الآن إلا أسكندر وأمه ماميا التي كانت من أكثر نساء العائلة ثراءً ومقدرة، لكنها لم تكن تملك الإرادة الحديدية والصرامة التي كانت تملكها أمها ميسا في الإعداد واتخاذ القرار والتفويض. إذ لم يكن حضورها يحظى بنفس القدر من الاحترام والتقدير والأهمية التي كانت تحظى به أمها.

تركت الآن ماميا، وهي مفعمة بالأمجاد، وحيدة مع ابنها بعد موت أمها ميسا. فهي الآن الأوغسطة، وأم العالم لكل النوع الإنساني، وأم الجنود، وأم المعسكرات، وسميت إحدى كتائب فرسان الحرس الامبراطوري باسمها. لذلك شعر الجميع بأن أوقات السلم الحولة والجميلة قد عادت إلى ربوع روما. ولم يكن يتم أي شيء دون موافقة مجلس

الشيوخ وتوجيهاته الرسمية، بحيث شعر المجلس بالاحترام والتقدير بعد طول تعسف واستهزاء بما كان يمثل. كما عامل اسكندر الحرس الامبراطوري بكل احترام وتهذيب، وأمن متطلبات الفئاليق والجند بشكل دائم. وبالإجمال اتفقت جميع قوى الدولة ومؤسساتها في جميع أنحاء الامبراطورية على الرضا والمواقفة.

ورغم أن ماميا تزوجت للمرة الثانية بعد ترملها من مواطنها السوري ماركيانوس، فقد بقيت محافظة على مكانتها الامبراطورية، وقلبها وعقلها يعودان إلى ابنها الامبراطور من زواجها الأول.

أظهرت ماميا وابنها الامبراطور فهماً وتعاملاً مع المسيحية، بحيث كان اسكندر يعضى بعضاً من وقته بحالة من الورع الغامض متاملاً صحة الفلاسفة والأنبياء والأديان، يبحث عن القوة المطلقة للخلق والخالق. وكان يردد حكمة فلسفية لها أريج عطر إنساني يرتقي إلى تعاليم السماء: "لا تصنع للأخرين مالا تريد أن يصنعه الآخرون لك". بذلك وجد المسيحيون أنفسهم على التقويض مما عانوه سابقاً من عسف واضطهاد شديدين. وقد استمعت أمه ماميا إلى اللاهوتي الشهير أوريجين⁽¹⁾ بعدما استدعته إليها وهي في أنطاكية سنة 232 م، فاعتقد الناس أنها اهتدت إلى الديانة الجديدة. وقد جرى تناقض وجدل بين الكثير من المؤرخين في مسألة إيمانها بالمسيحية؛ فمن قائل أنها اهتدت فعلاً، ومن قائل آخر بعكس ذلك، وكل فريق يجادل بما يقدم من الأدلة والبراهين. والذين يدعون بعدم اعتناق الامبراطور وأمه للمسيحية يدللون بأن سياسة التسامح الامبراطوري التي اتبعت حينها تجاه المسيحيين لا تعني بالضرورة⁽²⁾ أنهما أمتا بالمسيحية. بينما نرى على الجانب الآخر إضفاء مديح لا ينقطع من الكتاب والمؤلفين المسيحيين الذين دافعوا بالقول أن الاضطهاد ضد المسيحيين لم ينقطع فحسب، بل صار ينظر إليهم باحترام وتقدير، إذ يسوقون زيارة البابا يوليوس أفريكانوس في سفارته من القدس إلى روما، وقد كلف ببناء مكتبة كبرى فيها، وأهدى الامبراطور موسوعة المزيكشات⁽³⁾، وهي مجموعة مؤلفة من أربع وعشرين كتاباً.

في 231 م جهز الساسانيون الفرس، الذين كانوا قد وصلوا إلى سدة الحكم في بلاد فارس بعد انتصارهم على البرثيين سنة 226 م، حملة لاستعادة بلاد الرافدين وبعضاً من آسية، فرد اسكندر بتجهيز حملة للدفاع عن حدود الامبراطورية الشرقية، ورافقته أمه في حملته، فاسترد المناطق التي كان قد احتلها الفرس.

(1) - ولد أوريجين (أوريجينوس) بالأسكندرية (185-254)، وهو معلم ولاهوتي مسيحي. وكان صله الأكثر شهرة هو "هكسيا Hexia"، وهي إضافة إلى العهد القديم من ستة أو سبعة نسخ مقارئة. وقد رفضت الكنيسة الأرثوذكسية بشكل جوهري لاهوته المؤسسة على الأفلاطونية الحديثة (الجنيدة)، وبالرغم من إسهامه الكبير في إغناء التراث المسيحي القديم، هرب أوريجين من الاسكندرية إلى قبرصية فلسطين على أثر المذابح التي ارتكبتها كراكلا. ثم عاد إلى الاسكندرية سنة 230 بناء على طلب الكنيسة.

(2) - رفض الامبراطور منح أصحاب حانات مطعة أرض عامة في المدينة كان يرغب بها المسيحيون، متعللاً بأن قال: "إن مكان إقامة للصلاوات خير من إقامة مكان للزينة".

في العام 235 م ثارت القبائل الجرمانية التي لم تكن تهدأ ثوراتها حتى تشتمل من جديد، وقطعوا الطرق المؤدية إلى بلاد الغال (فرنسة الحالية)، فتوجه بجيشه مع أمه لقمع التمرد، فخيم على الراين. ونجح الهجوم الروماني المعاكس على الألمان، إلا أن هذا الهجوم لم يستمر باندفاعه وراء القبائل الألمانية لتحطيم قواتها، كما أراد له قادة قواته. بل على العكس اتجه أسكندر إلى التفاوض مع قيادات المتمردين وتقديم تسهيلات وأعطيات مالية وأراضٍ لإغرائهم بوضع السلاح وعقد معاهدة سلام معهم^(١). مما دفع أحد قادته الكبار، مكسيموس التراقي، الذي كان يتحين الفرص للانقلاب على القيصر وتنصيب نفسه مكانه، إلى إثارة الجنود ضده بحجة أن الأولى بهذا المال وهذه الأعطيات هم الجند الرومان وليس الأعداء، فتأثر الجند بادعاءاته وتنادوا به ملكاً عليهم بدلاً من أسكندر. وقد لقيت ادعاءات مكسيموس صدى بالغاً لدى الجند لامتعاضهم سابقاً من تخفيض الموازنة المالية السنوية للحرس الإمبراطوري الذي كان يراسه الفقيه القانوني أليبيان، والذي كان بنفس الوقت المستشار الأول للقيصر. كما أن شائعات سابقة كانت قيد التداول بضعف الإمبراطور وأن أمه من يدير شؤون الدولة. لذلك كله بدأت مشاعر عدم الرضا عند القوات تظهر لتلغى حول القائد التراقي مكسيموس. ويروي ديو كاسيوس أن الفوضى نشأت في أعقاب حفلة شراب (ربما كانت معدة)، مما جعل التحريض يأخذ مساراً مباشراً، حيث لاحق الجند الثائرون البيان الذي احتسى بخيمة الإمبراطور، على خلفية تقديره الشديد عليهم. ولما اقترحوا من الخيمة أشارت ماميا على ابنتها الإمبراطور أن يأمر الحرس الإمبراطوري بإلقاء القبض عليهم أو منعهم من الدخول، غير أنه لم يستجب لنصيحة والدته لاعتقاده بقدرته على إقناعهم بوجهة نظره، فقاموا بقتله وأمّه في الحال. وكان ذلك في آذار من عام 235 م، حينما كان عمر أسكندر سيفيروس (سيفيروس الثاني) 30 عاماً. وقد شهد له معاصروه بأنه كان أفضل من تسنم عرش روما من عهد أوريليوس حتى دقلتيانوس (180-284).

وبذلك انتهت فترة الأسرة السورية التي حكمت روما لأثنين وأربعين عاماً (193-235)، بالرغم من الحروب والثورات والمؤامرات التي تعرضت لها. وهذا ربما يعود بالدرجة الأولى إلى الجهد الاستثنائي الذي كشفت عنه عبقرية سبتيموس سيفيروس السياسية وموهبته العسكرية، إذ جعل من تزاوج السيين أداة من أدوات تثبيت النظام في الدولة. إلا أنه يجب الإشارة إلى أن انتهاء حكم الأسرة السفيريانية السورية قد بدأ تسارعاً عملياً بظهور الأزمة الإمبراطورية، أزمة القرن الثالث الروماني، وظهور حكم الأباطرة الثلاثين الطغاة حتى مجيء الإمبراطور ديوقلتيانوس الذي أعاد للإمبراطورية ألقها من

(١) - يدعي بعض المؤرخين أن العروض التي قدمها أسكندر للمتمردين رفضت بطريقة مهينة، مما جعل الجيش يحس بالإهانة. من هنا بدأ التمرد الذي قاده التراقي (ثراقية أو Thrace بلاد تقع الآن بين تركيا وبلغارية واليونان) مكسيموس ثراكس باقتحام خيمة القيصر وقتله.

جديد، ولكن إلى حين. وقد سجل معظم المؤرخين أنّ نهايات النصف الأول من القرن الثالث الميلادي هي بداية الإنحدار والسقوط الروماني⁽¹⁾. غربت شمس الأسرة السيفيرية السورية بعد أن أشرقت على العرش الروماني وعلى الامبراطورية الرومانية لمدة اثنين وأربعين عاماً استطلعت فيها المحافظة على وحدة الدولة وتأمين استقرارها والمساهمة في وضع أسس تشريعاتها وقوانينها.

في العرض والتحليل

تمتعت الأميرات السوريات سليلات بيت كاهن إله الشمس الحمصي (الإله بعل)، بيقظة دائمة وتصميم واستبسال حنيدتين لحكم الامبراطورية الرومانية، وعلى الخصوص، اعتباراً من تاريخ ظهور فقدان كراكلا الرغبة في إدارة شؤون الدولة سنة 213 م، وذلك بعد مقتل أخيه جيتا، وحتى مقتل اسكندر سيفيروس سنة 235 م. إذ يمكن اعتبار فترة هذه السنوات فترة استراحة غير عادية، إلى حد ما، في التاريخ الروماني، كما يمكن القول أن هذه الفترة لم تكن غير سعيدة في حياة الامبراطورية الرومانية. كما يمكن الادعاء أن الأسرة السيفيرية السورية غير مسئولة عن إحياء وإنعاش القيادة الإيرانية الجديدة بتأسيس الأسرة الساسانية سنة 226 م على أنقاض الأسرة البرثية الإيرانية، وأنها ليست مسئولة عن الحراك والهجرة الجماعية الشعبية من أواسط آسية متجهة نحو الغرب، حيث بدأت القبائل الألمانية اندفاعها إلى مناطق الدانوب والراين.

لقد أظهرت سير التاريخ أن الرجال المميزين في المؤهلات والخبرة والتجارب السياسية والعسكرية هزموا بوجود المشكلات المتراكمة والمداخلة. ومن وجهة نظر مخالفة، قد يقول قائل ممن يؤمنون بنظرية التعليل التاريخي في التحدي والرد: في مثل هذا التشابك يظهر الأبطال وتصد الأمم!

وأخيراً نقر بأن الجوليات الحمصيات السوريات قد تركن ميراثاً عظيماً على أوربة، خاصة في مجال الفقه القانوني التشريعي الذي أسس وأغنى القانون الروماني الكلاسيكي في العصر الذهبي للفقيهين السوريين أبنيان وألبيان.

الامبراطورة السورية جوليا دومنا على عرش روما، السورية الحمصية، ابنة كاهن إله الشمس الحمصي (بعل) باسيانوس، زوجة الامبراطور سبتيموس سيفيروس، والدة القيصرين كراكلا وجيتا، أخت ميسا جدة الامبراطورين إلأغابالوس واسكندر سيفيروس، وخالة سوميا وماميا، الأوغسطة (العظيمة)، التي رسمت مصادر سير "التاريخ الأوغسطة" - والتي عدها كثير من المؤرخين مصدراً لا يعتد برواياته كثيراً - شائعات عن اندفاعها، هسوتها، مناوراتها،

(1) - للزيادة، يمكن العودة إلى المؤلف الكبير للتاريخ الإنكليزي إدوارد غيبون: "انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية / The Decline and the Fall of the Roman Empire" بمجلداته الإثني عشر، والتي تم تأليفها في نهايات القرن التاسع عشر.

مكائدها، الزعم بعدم وفائها، جشعها .. إلخ. والتي ربما كانت جميعها أو بعضها إشاعات⁽¹⁾ من أحاديث مجالس النخبة في ذلك الوقت، أو قد تكون على قدر من الصحة المبالغ بها. لكن، بالمقابل عرفت جوليا دومنا بجمالها وذكائها وحبها للمعرفة، وبفرائدها السياسية المدفوعة بالقيادة والبقاء والاستمرار. وعلى غير عادة امبراطورات روما، تحملت عبء الحياة العائلية القاسية من عام 193 إلى 217، والتي كانت فيها عضد زوجها القيصر، وفيما بعد ولدها كراكلا، حيث أدارت من خلف الستار شؤون الامبراطورية الواسعة في الأوقات العصيبة التي كان يطول فيها غياب كراكلا في جبهات القتال. وأثبتت جوليا دومنا، مع أختها ميسا التي جيلت من نفس المادة النفيسة، أنها كانت قادرة على الوقوف بثبات في زحمة الفهم السياسات الامبراطورية وطموحات القادة الكبار ومطامح الحروب، بتمتعها بالقدرة الفولاذية المطلوبة لمباشرة التجارب الامبراطورية. ومع النجاحات والكبوات التي مرت بها، لن نرى في مستقبل الأيام القريب من يضاهيها في ذلك إلا زونيبا ملكة تدمر الباسلة التي انطلقت من سماء الصحراء السورية كما ينطلق الشهاب في ظلام الليل البهيم، فجوليا دومنا، كما إليسا مؤسسة قرطاج، كما ميميراميس ملكة آشور وبابل، كما نيتوكريس، وكما كليوباترا؛ ملكات جئن من ماضي المشرق البعيد كما تجيء الأساطير، فتفوقن على الرجال، ونجحن في الحصول على تقدير واحترام ومحبة شعوبهن بذكائهن وجمالهن وإيمانهن ويسالتهن وتضحياتهن.

إن مثلت جوليا دومنا دور الأم الغضوب، فإن الجدة والخالدة الشرسة جوليا ميسا لم تكن تليق عند تنفيذ الخطط إلا ما تقتضيه هذه الخطط، بحيث كانت تبدو قادرة دائماً على الإقناع بكرمها خصوصاً على الجند، وبقدرة ذهنها المتوقد والمتحيز لوضع الإجابات السريعة لكل طارئ. فقد تمتعت جوليا ميسا بشخصية الزعيم الذي خرج من نفس الرحم الذي خرجت منه جوليا دومنا، حيث اكتسبت مكرها السياسي ومعرفتها العميقة بمكائيد الطبقة الرومانية العليا خلال إقامتها الطويلة بقرب البلاط الروماني الذي كان لها مهارة الاندماج فيه منتظرة اللحظة المناسبة للصعود. فتأتى لها معرفة وخبرة أكثر بالنفسية الرومانية فيما تحب ومما تنفر. فكانت فرص نجاح خططها أعلى من تلك التي لمكريانوس، ذلك الجندي قليل التهذيب، والذي كانت مؤهلاته لا تتناسب مع جسمه العملاق.

وإذا كانت جوليا دومنا الإرادة المنتظمة والمتسامحة أحياناً، وميسا القسوة المندفعة بحساب إلى حد التضحية بمن لم يكن جديراً بالسلطان، ولا سُمياً الشريكة المتواطئة من أجل ابنها الإغاثابولوس، فإن ماميا كانت تمثل الزهد والتعشف، لكنهن كلهن، وبسبب من الصفة الوراثية المكتسبة من ديانة بلدهن، والسيطرة النسائية لأسلافهن ولهن قد علمتهن سياسة التفوق والسيطرة. لذلك كان تيوأ هؤلاء النسوة الشرقيات للسلطة الامبراطورية الرومانية قد أحرز نجاحاً مدهشاً لا يقارن بما أحرزته بقية الامبراطورات الرومانيات،

(1) - إذا كان ديو كاسيوس (المؤرخ المعاصر) وآخرين قد قدموا جوليا دومنا على أنها فتاة مبتذلة من عامة الشعب، فإن علينا ألا نرى في ذلك إلا تعبيراً سيئ النية صدر عن شهود أعينهم نفوذها وإرتقاع مكانتها.

لقد عززت عبادة إله- الشمس الحمصية (الشرقية) جذورها القوية في البلاد اللاتينية في فترة الأسرة السيفيرية. وكان عليها أن تهض من جديد بشكل حاسم بعد خمسين عاماً مرتدية حلة رسمية لا تيس فيها في عهد الامبراطور أورليانوس، حينما أظهر نصره على التدمريين بالأصاحي التي قدمها لإله الشمس عرفاناً منه بالجميل على منحه هذا النصر. كان سيفيروس فينيقياً من بلدة ليدة على الساحل الليبي، فأصله فينيقي، بينما كان ولده كراكلا وجيتا نصف عربيين. أما الجوليات دومنا وميسا وسوميا وماميا فكانوا عربياً من حمص.. فميسا كانت زوجة لمواطنها يوليوس أفينوس الذي كان والياً في آسية، ثم نديه كراكلا إلى قبرص. وإلا غابا لوس كان عربياً بالكامل لأن والده ووالدته كانا عربيين، حيث كان أبوه سورياً من أهاميا واسمه سيكستوس فاريوس ماركيلوس، وقد عينه سبتيموس سيفيروس مندوباً على جيش أفريقية. بينما تزوجت ماميا من أحد مواطنيها الذي كان الوالي كاسيوس ماركيلوس من عرفا في لبنان.

كان حب دومنا لعائلتها، ولأسباب سياسية ويقدر ما عاطفية، والمصلحة التي تربطها بشدة إلى زوج أصبحت تمارس عليه سلطة واضحة، وولديها اللذين كانا عذابها وهوانها. وشعوراً ملكياً كان يخيب دائماً حيث ما تلبث أن تتقذه ببطولة مشهودة، كل تلك الأسباب تبدو كافية لإبعاد تهمة القصور التي ألحقها بها بلوتيانوس، حيث لم يورد المؤرخون أي دليل مادي على ما يثير الشك في مسلكها الأخلاقي. ولو كان هناك دليل لما كان التزم المؤرخون الصمت بعد انتهاء حكم الأسرة، وخاصة ديو كاسيوس.

كانت دومنا شديدة الحماس للوثنية⁽¹⁾، وبالتالي فقد كانت واضحة في عداؤها للمسيحية. لكن بعض المؤلفين المتحمسين للمسيحية أشاروا إلى أنها كانت نصيرة تؤيد المسيحية في الخفاء، وعللوا ذلك بأن طبيعتها الرسمية كانت تمتعها من الإعلان عن ذلك، لأن مثل هذا سيقسر على أنه إنكار للامبراطورية ذاتها، حيث كانت المسيحية حينها في نظر الرسميين الرومان وفي نظر الكنيسة الوثنية الرومانية ليست أكثر من بدعة وهرطقة مخزية آتية من الشرق. والشاهد أنه لا يوجد ما يدعم هذا الادعاء، كما تبين دراسة سيرتها، بعدم وجود أي دليل على تعاطف سري مع الديانة الجديدة ؟

(1) - انظر شهيد عرفان في "روما والعرب"، الفصل الثالث: العامل العربي في التاريخ الروماني خلال القرن الثالث الميلادي، ترجمة قاسم سويدان، دار كيولن - دمشق.

الفصل السادس زنوبيا ملكة تدمر Zenobia of Palmyra

تدمر الموقع والتاريخ

1

تدمر: القديمة الحديثة، التاريخ المجيد والحاضر المتواضع، الأسطورة والحقيقة، المدينة المحاربة وسكون القنطرة الحالي، مركز التحدي العظيم لسطوة روما الامبراطورية العظمى والمركز المنسي إلا في كتب التاريخ، عاصمة الامبراطورية التدمرية ومركز المنطقة الإداري الحالي، مركز وملقى تجارة الشرق القديم والبلدة الهادئة الوداعة على أطراف بادية الشام، مركز إبداع عمراني وفني قديم وتواضع حاضر فقير، مدينة الأوابد التاريخية العظيمة والأطلال المبعثرة الباقية، مدينة أذينة وزنوبيا التاريخ ومسكن أحفادهما الريفي البسيط. تقع على بعد 230 كم إلى الشمال الشرقي من دمشق عاصمة سورية، و155 كم إلى الشرق من مدينة حمص وسط البلاد. تتوسط تدمر طريق الفرات إلى سواحل بلاد الشام. وهي مركز ناحية تدمر وقرائها، وناحية السخنة، التابعة لمحافظة حمص. وهي على ارتفاع 400 م عن سطح البحر، حيث منحدرات سلملة من هضاب الحوار الممتدة من أطراف الفرات الغربي حتى مشارف الشام الشرقية.

يختلط الحلم بالواقع، السراب بالحقيقة، وأنت تقطع الطريق إلى تدمر، وأمام ناظريك واحة ترسمها روائع الأطلال وسط بيئة يسودها الخلاء والسكون، حيث تتساءل: هل أنت أمام حلم أم مجرد سراب قريب يبتعد وسط البادية؟

تشغل الأطلال المبعثرة أسفل القلعة العربية المعروفة بقلعة فخر الدين مساحة تقدر ببضعة كيلومترات مربعة، يحيط بها حزام من أشجار النخيل من ناحية الجنوب، ويظهر إلى الشرق منها دور ومساكن تدمر الحاضرة.

بنيت تدمر حول واحة وسط الصحراء، فكانت تزرع بأشجار النخيل التي أخذت اسمها اليوناني منه (بالميرا). أصبحت تدمر مدينة رئيسية في القرن الأول قبل الميلاد تزدهم بالقوافل التجارية، فكانت نقطة تقاطع الطرق بين روما وفارس، بين عموم الشرق والغرب، فائتلفت وامتزجت عاداتها من العادات المختلفة بمناصرها الثقافية اليونانية والرومانية والفارسية والمصرية والبدوية الصحراوية. حيث تطورت إلى مدينة صاخبة مليئة بالحياة والحركة والنشاط انشغلت بشكل طبيعي بالتجارة والعلاقات الدبلوماسية الأجنبية. وحافظت على استقلالها عن الحكم الأجنبي بالرغم من موقعها بين قوتين عظيمتين متنافستين على الدوام (روما وفارس).

ظهر اسم تدمر مراراً في النقوش الآشورية منذ مطلع القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وعرفت المدينة باسم تدمر، وهي كلمة آرامية تعني "الأعجوبة" أو "الجميلة" أو "الأعجوبة الجميلة"، وارتقت هذه التسمية إلى العهد الكنعاني في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ومع ما جاء ذكره في النصوص الآشورية عن تدمر في مطلع الألفية الثانية ونهايتها، تدعي التوراة أن النبي سليمان بن داوود⁽¹⁾ أمر الجن ببنائها وتشبيد قصورها بالعمد والرخام. وقد ذكر جواد علي⁽²⁾ ما ملخصه: (أن تمار أو تامار هي في الأصل اسم موضع يقع اليوم إلى الجنوب من البحر الميت، وأن خطأ وقع فيه كتيبة أسفار أخبار الأيام في التوراة في معرفة موضع تامار، فظنوا أنه تدمر التي كانت مدينة عامرة شهيرة، فكتبوه تدمر بدلاً من تامار، فصارت تدمر- خطأ- في جملة المدن التي بناها سليمان. ويجوز أن تكون الشهرة التي اكتسبتها مدينة تدمر في أيام كتيبة "أسفار أخبار الأيام" هي التي حملتهم على إضافتها إلى أعمال سليمان، لأنها يميني سليمان الباق وأنسب من موضع صغير هو تامار، فأنضافوا هذه المدينة الشهيرة إليه، لتدل على شهرته وعلى مدى بلوغ ملكه في أيامه. وقد ذهب المؤرخ اليهودي "يوسفوس فلافيوس" هذا المذهب أيضاً، فنسب بناء تدمر إلى سليمان، حيث أخذ رأيته هذا من التوراة). وقد نسب النابغة الذبياني في أبيات له أسطورة بناء جن سليمان لتدمر، لكن، لا يصلح شعر النابغة أو غيره من الشعراء أن يكون حجة في مثل هذا المقام، لأنه على الغالب أخذ فكرته من أهل الكتاب أو من تناقل الروايات الشفاهية. ويعتقد أهل تدمر أن بناء مدينتهم كان قبل سليمان بزمان طويل.

احتفظت تدمر باسمها منذ العصور الغابرة، إذ تجده في النصوص المسامرية المسطرة في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. كما ورد ذكرها في الأرشيف الملكي لمدينة ماري على الفرات الأوسط. وتقول بعض الروايات أن كلمة "تدمر" في الأساس هي "تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع بن يزيد بن عميلق بن لاذ بن سام بن نوح". وذكر معجم البلدان، ج2، ص 17، قصة تنقيد في العثور على قبر "تدمر بنت حسان"، حيث ربط ياقوت الحموي بين فتح مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين لأحد القيور، ومقتله وتفرق جيشه وزوال ملكه عنه، على لسان اسماعيل بن محمد بن خالد بن عبد الله القسري، قال: كنت مع مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية حين هدم حائط تدمر، وكانوا خالفوه عليه، فقتلهم وفرق الخيل عليهم تدوسهم وهم قتلى، فطارت لحومهم وعظامهم في سنابل الخيل، وهدم حائط المدينة، فأهضى به الهدم إلى جرف عظيم، فكشفوا عنه

(1) - أخبار الأيام الثاني 4/8 من العهد القديم. وأيضاً في كتاب د. أحمد سوسة "العرب واليهود في التاريخ"، ص 208، الذي يقول: (...لم تصل حدود مملكة سليمان (ع) بشهادة التوراة نفسها، في يوم من الأيام إلى دمشق، فكيف تجاوزتها إلى تدمر النائية عن حدود مملكة سليمان؟ لذلك فأسطورة بناء الملك سليمان أو جنة لتدمر لا تستند إلى وقائع تاريخية، وإنما أسطورية بقصد تمجيد للتاريخ اليهودي. ويرى أكثر الباحثين أن المقصود بتدمر هنا إنما "تامار" البلدة الكنعانية القديمة التي تعود إلى زمن إبراهيم الخليل (ع)، والتي كانت تقع إلى الجنوب الغربي من البحر الميت كما وصفت موقعها التوراة، وليست مدينة تدمر الشهيرة).

(2) - جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، الفصل 35، تحت عنوان "مملكة تدمر".

صخرة فإذا بيت مجصص كان اليد رفعت عنه تلك الساعة، وإذا فيه سرير عليه امرأة مستلقية على ظهرها وعليها سيمون حلة، ولها سبع غداثر مشدودة بخلخالها، وإذا في بعض غداثرها صحيفة ذهب مكتوب فيها: "باسمك اللهم! أنا تدمر بنتا حسان، أدخل الله الأذل على من يدخل بيته هذا". فأمر مروان بالجرف فأعيد كما كان، ولم يأخذ مما كان عليه من الحلي شيئاً. قال: فوالله ما مكثنا على ذلك إلا أياماً حتى أقبل عبد الله بن علي فقتل مروان وفرق جيشه واستباحه وأزال الملك عنه وعن أهل بيته. وهذه قصة ربما تكون من وضع الإخباريين والرواة. إذ لا يمكن أن يؤخذ هذا على محمل حقيقي إلا من باب تسمية تدمر بنت حسان على اسم المدينة فقط، وليس العكس، وقد مر بتدمر أوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر أوس الذي في البصرة، وهو يقصد يزيد في الشام، فنظّر إلى تمثالي فتاتين مصنوعين من الرخام، فاستحسنهما، فأنشد فيهما شعراً، هذا بعض منه:

فتاتي! أهل تدمر خيراني ألّا تسأما طول القيام ؟
قيامكما على غير الحشايا على جبل أصمّ من الرخام

كما ذكرهما محمد بن الحاجب وأبو الحسن العجلي في شعرهما .

أطلق على تدمر اسم "بالميرا Palmyra" أي مدينة النخيل- خلال العهدين: الروماني والبيزنطي، وأشار إليها بلينيوس الكبير (القديم) في " التاريخ الطبيعي 88,XXI,V". فذكر أنها مدينة شهيرة تقع بين امبراطوريتين عظيمتين: روما وفارس. وأطلق عليها اسم "فينيكوبولس Phenicopolis"، أي أنها مدينة فينيقية، وسميت أم الولايات "ميثروكولونيا". وسماها الأمبراطور الروماني هادريانوس (أدريانوس:هادران) لما زارها في مطلع القرن الثاني الميلادي على اسمه "بالميرا أدريانا".

استقى المؤرخون والمؤلفون معارفهم عن تاريخ تدمر بشكل أساسي من كتب المؤلفين اليونان والرومان والسريان، ومن سجلات المجامع الكنسية وأخبار التلمود. وأكثر ما عرف عن المدينة جاء مما كتب بعد الميلاد.

2

تأتي أهمية تدمر وشهرتها وصيت عظمتها في الشرق والغرب من تاريخها القديم حينما كانت من أغنى مدن العالم القديم. وقد أصبحت في الوقت الحاضر مرجعاً مهماً لدراسة تاريخ سورية القديم في إحدى عصوره المجيدة، إذ بينت الحفريات الأثرية الحديثة مساهمة تدمر الحضارية في تاريخ سورية الكبرى.

بدأت شهرة تدمر التجارية بالنمو التدريجي في سماء المشرق حتى أصبحت مركزاً تجارياً مهماً في مطلع القرن الأول قبل الميلاد، بحيث أهلها موقعها لأن تصبح نقطة التقاء بين الشرق والغرب، ومحطة تجارية وسط الصحراء ونقطة اتصال برية وبحرية رئيسية على طريق الحرير بين ساحل البحر الأبيض وما بين النهرين من بلاد آشور وبابل، وطريق عبور لقوافل التجارة، ذهاباً وإياباً، من الصين والهند وفارس شرقاً ومصر غرباً وجنوباً، إضافة إلى أنها كانت مركزاً للتوقف والراحة والتزود، فكانت أول ما

يصادفهم بعد اجتياز الصحراء. فاعتاد أهلها تقديم المساعدات الكافية مقابل فوائد معلومة، وهكذا أخذت تدمر تكبر وتتطور وتزدهر كما كانت البتراء قبلها، وكما نشأ كثير من المدن التي كانت مراكز للتجارة. لذلك، فقد نافست الاسكندرية في تجارة البحر الأحمر، وشمال أفريقية وبلاد الرومان غرباً وشمالاً، ناقلة العطور والبخور والحجارة الكريمة من الهند والحرير من الصين ومنتجات ولاية الحربية من الزجاج والأقمشة الأرجوانية الفينيقية والأخشاب من سواحل بلاد الشام والحديد من طوروس والنبيذ من أنطاكية، وازدهرت تجارة الذهب والفضة، فصارت مركز تجميع لل بضائع حيث يتم توزيعها إلى أركان الأفاق الأريمة. كما اشتهرت بصناعة الأصبغة والدباغة والجلود والنسيج، وصناعة الأواني الزجاجية والمعادن والأسلحة والحلي والعطور، ونتاج الزيوت والخمور والتين والجوز والأجبان. فكنت ترى التجار من الصين والهند وفارس وما بين النهرين وسواحل بلاد الشام وأفريقية وأوربة يؤمونها بشكل دائم، إلى جانب كل هذا، ساهمت تدمر بنصيب من إغناش الحضارات في مصر والهند والصين وفارس وروما. كما تبين اهتمام تدمر بالزراعة من خلال آثار القنوات والسدود المكتشفة. وتدل بيوت تدمر الحجرية وشوارعها الفسيحة المزدانة بالأقواس والأعمدة الحجرية، تعلوها التيجان المنحوتة بأشكالها الفنية الرائعة، على طرفيها، وآثار قصورها الفخمة، على غناها واثرائها المادي والفني والحضاري.

ارتقت تدمر باستمرار خلال القرن الأول قبل الميلاد والقرون الثلاثة الأولى بعده إلى أن صارت في أوج مجدها وازدهارها الحضاري والتجاري وقوتها العسكرية في القرن الميلادي الثالث، بحيث بلغ ثراؤها مستوى فاحشاً بعد أن أصبحت مملكة مستقلة تحكم نفسها بأبنائها. وقد وصفها هلموت أوليخ في كتابه "طريق الحرير"، 1990، بأنها: "كانت نقطة التقاء جميع الشعوب. فحافظت على غناها وازدهارها التجاري لمئات السنين، وكانت من أغنى وأجمل المدن في العالم القديم على طريق الحرير، إذ تبرهن على ذلك آثارها العظيمة التي ما زالت قائمة حتى اليوم. إنها بحق مدينة الآلهة". استمرت تدمر في كل مراحل تطورها، وخاصة في القرن الثالث، بالمحافظة على استقلالها وحريتها وتجاريتها مؤمنة طريق التجارة العالمية، مستفيدة من الصراع القائم بين روما وفارس. اقتضت أعمال التجارة الواسعة التي كانت تديرها تدمر من خلال موقعها تكوين علاقات سياسية واقتصادية وحتى ثقافية مع الفرس والرومان، ومع القبائل العربية في البداية التي لم يكن من الممكن مرور القوافل في أراضيها بسلام ما لم يتم الاتفاق مع ساداتها على دفع إتاوات سنوية مرضية لحمايتها.

وتدريجياً، بدأ سادة المدينة بجمع فلول المسرحيين من الجيش الروماني، ومن الذين تركوا الخدمة العسكرية لأسباب متعددة، ومن الشباب الطموح والمغامر، هائلوا جيشاً حسن التدريب والطاعة والنظام، فصار قوة مقاتلة تفوقت على جميع الأعراق، وتمكنوا من الهيمنة على أبناء البادية وتجنيد الكثيرين منهم مستفيدين من حيوية هؤلاء الأعراق

ومن رشاقة حركتهم ومناوراتهم البارعة، وتواضع مطالباتهم. فتنضموا للحاميات في كل المراكز الضرورية لتأمين حماية طرق القوافل التجارية بين الشرق والغرب.

امتازت مدينة تدمر بموقعها الإستراتيجي الهام بين امبراطوريتين عظيمتين جبارتين متنافستين ومتنافرتين ومتعاديتين، هما: الرومانية في الغرب والفرسية الساسانية في الشرق. بذلك، شكلت تدمر منطقة دفاعية عازلة لكل منهما ضد الآخر. وغدت محط أنظارهما، فحاول كل منهما خطف وجهها وجذبها إلى جانبه لتصبح تابعة أو حليفة له لمعاونته في صراعه وحروبه شبه الدائمة ضد الآخرين. وقد ساعد موقعها المنعزل في وسط الصحراء وإدراكها الدائم لأن تكون مستقلة وذات سيادة من عدم تمكن أي من الامبراطوريتين من الإملاء أو الاستيلاء عليها، فكان جيش تدمر يحمي بلاده بنفسه، ويساهم أيضاً في معارك الرومان ضد أعدائهم عندما تقتضي أحوال التحالف ذلك.

وقد سجلت كتب الحوليات والسجلات العسكرية الرومانية والنقوش التدمرية التي عثر عليها وصفاً دائماً عن براعة التدمريين في إدارة معارك الصحراء، وعن براعة رماة السهام، وبخاصة رماة السهام الفرسان منهم، والذين نالوا بشجاعتهم وإقدامهم إعجاب القادة الرومان، وصار لهم مراكز رفيعة في الجيش الروماني، وأصبحت لهم فرق خاصة عرفت بـ فرق فرسان الرمي التدمريين⁽¹⁾، وكانت من أشهر الفرق وأحسنها بلاء في الجيش الروماني. فقد كون الرومان فرقاً من الجنود التدمريين الذين التحقوا بالجيش الروماني، حيث استفادوا منهم في قتال الصحراء والبادي التي كانوا بارعين فيهما، كما استخدموهم في قتال الفرسان ومن كان في خدمتهم من الأعراب. وقد تم تجنيدهم في الجيش الروماني، بعد سقوط تدمر، في حروب شمال أفريقية، كما عثر على كتابات أثبتت أنهم كانوا ضمن الفرق الرومانية التي كانت تعسكر في بريطانيا.

امتزجت القبائل التدمرية الآرامية بالقبائل العربية التي درجت على الهجرة المستمرة من خزان الهجرات العظيم في الجزيرة العربية. وكان بيت الحكام على الدوام من أصول آرامية-عربية⁽²⁾. والراجح أن غالبية التدمريين وأسراهم الحاكمة هم أصلأ من البادية من بقايا العمالقة، مارسوا مهنة التجارة كأبناء عمومتهم الأنباط، فغلبوا على أهل المدن

(1) - ذكر خالد الأسعد مدير آثار ومناحف تدمر السابق والبروفيسور لوفه ويدبرغ- معهد اللغات السامية في جامعة أوريغون في اللمارك، في كتابهما "أرمينيا ملكة تدمر والشرق"، ص58، بوجود شجرة نسب مؤرخة بالملحة الأولى قبل الميلاد تقدم تصوراً عن أسرة تدمرية عاشت خلال هذه الفترة، وهناك كتابة ثانية على لوح حجري مؤرخة بعام 44 ق م قدمها كهنة معبد "أل" إلى الإله باسم شيخهم "جذيمة بن نبو زيد". والشجرة واللوح محفوظان في القاعة الأولى في متحف تدمر.

وقد حدث خلاف بين الباحثين في أصل الأنباط وتدمر، فبعض من قال أنهم عرب، وآخرون قالوا أنهم آراميون، إذ بني الاختلاف على أن كتاباتهم الرسمية كانت بالآرامية، فهم إذاً آراميون، لكن لغتهم اليومية كانت العربية، فهم إذاً عرب. وقد دعاهم مؤرخو اليونان المعاصرون بالعرب. وثلث أسماؤهم عليهم. وقد روى ابن مسعود وابن خلدون عن الجد الأعلى للأميرة المالكة في تدمر؛ السموذج، ما ملخصه أن أول الحروب التي تمالى أولها بين السموذج ويوشع بن نون كان في أيلة (السفة)، وقد نظمها سعيد للجريفي في شعر، جاء فيه:

ألم ترى أن المملتي بن هوير بايلة أسس لحمة قد تمزعا
كاعتت إليه من يهود جحافل ثلاثون ألفاً حاسرين ودرعا...

حتى صاروا ملوكاً. وقد امتزج العرب الناطقون بالآرامية بالسكان الساميين هناك. فنشأ عن الخط الآرامي القديم شكل جديد، حيث اكتشفت كتابات ونقوش كثيرة بالخط التدمري الجديد أو القلم التدمري، وهي المتأثرة باللغة العربية لفظاً، إذ بدأت اللغة العربية الدارجة تحل تدريجياً محل الآرامية، غير أن الآرامية بقيت لغة الخطاب الرسمي والدبلوماسي في تدمر كما كانت عند الأنباط. وقد تأثرت لغة التدمريين باليونانية مع الفتح اليوناني حتى أصبحت اليونانية اللغة الدارجة نطقاً وكتابة⁽¹⁾، كما أصبحت لغة الآداب والفلسفة. وكذلك كانت لغات عديدة متداولة في تدمر، كالفارسية واللاتينية، بسبب التجارة العالمية وطرق المواصلات والتقاء حضارات متعددة على أرضها. وقد سادت اللهجة التدمرية الآرامية حتى بداية العصر البيزنطي. كما انتشرت اللغة السريانية حينها.

ويحدثنا تاريخ الرومان عن استقلال تدمر الذاتي في القرن الثاني الميلادي، فيشير إلى أنه كان لها مجلس شيوخ من مواطنيها وله رئيس وأمين ويختص بسن القوانين، كما كانت سلطتها التنفيذية بيد شيوخ من شيوخها يعاونهما مجلس من عشرة أعضاء، كما كانت سلطتها القضائية توضع بمسؤولية وكلاء وموظفين معينين. وهكذا، إلى أن برزت في حياة تدمر السياسية أسرة عربية في القرن الثالث حكمت فيها، واشتهر من رجالها أذينة بن وهب اللات بن نصر الذي اغتاله الرومان أواسط القرن الثالث لسعيه الدائم للاستقلال، فخلعه ابنه أذينة - على اسم والده - فانتصر للرومان في حربيهم مع الفرس وأبلى فيها بلاء حسناً، واسترجع المناطق التي احتلها الفرس، إذ استعاد منطقة الجزيرة ونصيبين وحاصر عاصمتهم المادائن مرتين حتى أصبح سيد المشرق الروماني ولقب بملك الملوك وحامي كل المشرق ومستعيده Rex Regum, Imerator and corrector totius Orientis، ففرض سلطته على سورية وسائر جنوب بلاد آسية الصغرى وتسمى حاكماً عاماً عليها في العام 264 م⁽²⁾. وكانت زوجته زنوبيا تنوب عنه في إدارة شؤون الدولة بكل جدارة واقتدار كلما خرج لحرب أو غاب عن تدمر، حيث تميزت بالشجاعة والهيبة والدهاء. وعندما أصبحت ملكة تدمر صارت تجالس قواد جيشها وكبار رجالها وتباحثهم في شؤون الدولة وتقابل الوفود الأجنبية، وكانت تمتطي صهوة جوادها وهي بلباس الحرب وعلى رأسها الخوذة الحربية الرومانية المرصعة بالجواهر.

وعندما احتل الاسكندر سورية الكبرى إثر حملته على الشرق سنة 332 ق.م، أصبحت سورية بما فيها تدمر تدريجياً يونانية الثقافة، فبدأت بعد موت الاسكندر⁽³⁾

(1) - نقلت بنود التعرّف الجغرافية والتسمية واليونانية على حجر ضخم، أبعاده 2x5 م، من 400 مائة، أصدرها مجلس الشيوخ والشعب في تدمر عام 137 م. ويحضر الآن في متحف الأرميتاج - بطرسبرغ - روسيا.

(2) - عرفان شهيد: "روما والعرب"، ص 96، ترجمة قاسم مويان، دار كيوان - دمشق.

(3) - أسس حكم العائلة السلوقية ملوقس نيكاتور Seleucus Nicator، الذي كان من ضباط جيش الاسكندر الكبير، وذلك بعد موت الاسكندر، حيث استقل بحكم معظم آسية الصغرى، سورية، فارس، وبكترية. وكانت بكترية بلاداً قديمة في وسط آسية تشكل الجزء الشمالي من أفغانستان الحديثة. وقد كانت مركزاً لمملكة حكمها تحالف إغريقي - هندي في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. واستمر حكم العائلة السلوقية من عام 312 ق.م حتى الاحتلال الروماني للشرق

تزدهر باضطراب، وخاصة خلال الحكم السلوقي لسورية. وبقيت تدمر تمارس استقلالها إزاء الفرس والرومان إلى ما بعد الاحتلال الروماني سنة 64 ق.م، إلى أن تم فتحها ونهبها على يد القائد الروماني المشهور ماركوس أنطونيوس Marcus Anonius (صاحب كليوترا) سنة 41 ق.م، وتم إلحاقها بروما سنة 19 ق.م. غير أنها حظيت بنظام إداري مستقل، فكان يحكمها ويدبر شؤونها مجلسا الشيوخ والشعب. وقد مثل ذلك مزيجاً من النظام المشترك (الحضري- البدوي)، إلا أن روما أنهت استقلال تدمر الإداري والحكم الذاتي الذي تمتعت به وألحقها مباشرة بالعاصمة روما سنة 79م. غير أن الإخضاع الروماني لم يصبح كاملاً إلا سنة 106م بعد إسقاط امبراطورية الأنباط على يد الامبراطور تراجانوس (Trajanus)، وتم نقل عاصمتها من البتراء إلى بصرى الشام التي أصبحت عاصمة⁽¹⁾ "ولاية العربية".

استفادت تدمر من توقف نشاط البتراء فسيطرت على معظم الطرق التجارية، خاصة بعد زيارة الامبراطور الروماني هادريان/أدريانوس (117-138) سنة 120، وأنعى عليها بصفة المدينة الحرة، فقامت بسن قوانينها وضرائبها بنفسها. وعرفنا أنها بهذا الجميل أطلقت على نفسها اسم "بالميرا أدريانا"، فازدهرت عمرانها ازدهاراً عظيماً، ووسعت معابدها وجملت، وأنشأت سوقها العامة "الأغورا" وشارعها الرئيسي المشهور بأعمدته وتيجانها الحجرية. وتمركزت فيها حامية رومانية، وعين لها مندوب روماني سام يمثل الامبراطور، ويقوم بجباية الضرائب. وفي فترة حكم الأسرة الامبراطورية السيفيريانية السورية⁽²⁾ التي حكمت روما ازداد ازدهار تدمر بشكل متسارع لأنها اعتبرت مستعمرة رومانية، وأتبعت لولاية فينيقية، وتم إعفاؤها من الضرائب. كما جعلها الكسندر سيفيروس قاعدة للجيش الرومانية في المنطقة، مما أضاف إلى ازدهارها أهمية ومكانة جديدة في لعب دور تجاري وعسكري رائد في تلك الامبراطورية الرومانية وفي معتزك الصراع السياسي والعسكري الروماني- الساساني.

ساهمت شبكة الطرق البرية والبحرية الواسعة والممتدة من الصين إلى الهند وبلاد فارس والجزيرة العربية ومصر واليمن في الشرق والجنوب إلى روما وإسبانية حتى ساحل المحيط الأطلسي الأوربي عبر البحر الأبيض، فوّرث التدميريون نشاطهم التجاري فوق هذه الشبكة من أسلافهم الفينيقيين والآراميين. وبذلك أصبحت تدمر خلال فترة حكم أسرة أدينة وزنوبيا (235-273) قوة يحسب الفرس والرومان حسابها بما ملكته

عام 63/64 ق.م. وكانت لطاكية عاصمة السلوقيين. كما استقل الجنرال بطليموس Ptolemy المقدوني- الذي كان من أخلص ضباط الاسكندر الكبار- بمصر بعد موت سيده، فأسس حكم العائلة البطلمية بإعلان نفسه ملكاً على مصر، إلى أن انتهى حكم العائلة بانتحار كليوترا عند احتلال الرومان لمصر عام 30 ق.م. للمزيد، ارجع إلى التمهيد التاريخي، والفصل الرابع، من هذا الكتاب.

(1) - جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج 3، ص 48-49، ص (62-63). وفي "موسوعة تاريخ العالم: العلم: History of the World, Vol., VI, P. X, Ency., I, P. 765."

(2) - انظر الفصل الخامس "جوليا دومنا" في كتابنا هذا.

من علاقات تجارية إقليمية وعالمية وتطور عمراني هائل. فأصبح أذينة ملكاً على تدمر، فمنحه الرومان لقب حاكم كل الشرق ومصلحه ومستعيده، لانتصاره على الفرس، حيث لقب نفسه بملك الملوك والامبراطور والأوغست (المعظم). وبعد موته تبوأ زوجته زنوبيا العرش كوصية على ابنها القاصر وهب اللات، فوسعت مملكتها على كامل المشرق وشمال الجزيرة العربية ومصر والأناضول وأرمينية في آسيا الصغرى. فأصبحت تدمر امبراطورية عظيمة تحكمها زنوبيا (الأوغسطا) كإمبراطورة للشرق كله، حيث تركت نقوشها وكتابات وأثار وأبدها تأثيرات مشهودة على الدانوب وروما وأفريقية. فأصبحت زنوبيا بحق أسطورة عالمية تلهب خيال الفنانين والكتاب والشعراء والباحثين والمؤرخين.

وقد روى السمعاني عن تاريخ تدمر القديم (المكتبة الشرقية): أن يهوذا بن يعقوب الملقب لبائوس (لبى) ذهب إلى تدمر لتبشير سكانها بالمسيحية، حيث بدأت بعده النصرانية بالانتشار. وذكر أن تدمر أصبحت أسقفية خلال فترة حكم السلالة الأنطونية، الذي استمر لمائة عام (96-193م)⁽¹⁾. وقد عاش المسيحيون خلال هذه الفترة في شبه هدنة عما تعرضوا له من اضطهاد شديد خلال حكم الامبراطورين دوميتانوس وتريانوس (دوميتان وتراجان)، حيث لم يشعروا بالاضطهاد إلا في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي خلال عهد الأباطرة السيقيانيين (السوريين)، وفيليب العربي الحوراني. وبعد موت فيليب مباشرة، شن الامبراطور الجديد دكيوس سنة 250. وأرليانوس (270-275م)، حملات عنف رهبة على المسيحيين، واستمر الامبراطور ديوقلتيانوس وخلفه في تسعير الحملة إلى أن جاء قسطنطين قاصدر مرسوم ميلانو سنة 313، الذي أتاح للمسيحيين حرية العبادة والدعوة.

ورغم ديانة تدمر الوثنية قبل وخلال عهدي أذينة وزوجته الملكة زنوبيا، فقد ساند العديد من المسيحيين السوريين زنوبيا في حروبها ضد روما، فحظيت المسيحية بمكانة مرموقة وفريدة في بلاطها، إذ كانت المناظرات بين دعاة النصرانية والوثنية تتعقد في مجلس الملكة زنوبيا وبحضور مستشارها الأول الفيلسوف لونجينوس وبمشاركتها. لذلك، تزايدت أعداد المسيحيين في تدمر، حيث عينت الملكة بولس السمساطي التدمري المولود، الذي تحالف معها ضد روما فيما بعد، أسقفاً على تدمر. ثم ساندته مع زوجها فأوصلته إلى السدة الكنسية الأنطاكية حيث صار أسقفها (261-268). وإن دل هذا، فإنما يدل على تسامح زنوبيا ومن قبلها أذينة على احترام الأديان، واحترام الحريات الفردية في اختيار المعتقد الذي يرغب به الفرد دون خوف أو اضطهاد. فتمكن أتباع

(1) - ذكر د. محمد محفل في كتابه "دمشق: الأسطورة والتاريخ.."، من إصدارات الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية 2008، ص 193: (.. إن السلالة الأنطونية، هي السلالة الرومانية الثالثة. وقد أطلق عليها اسم سلالة السلام الروماني Pax Romana "وسماه آخرون القرن الذهبي للإمبراطورية". ولا ندرى حقاً إن كانت التسميتان منمعتين لواقع الحال، ذلك أن الإباطرة الستة: نروا، ترفيانوس، هاريانوس، أنطونينوس النقي Antoninus Pius، ماركس أوريليوس، كومودوس Commodus، الذين حكموا خلال قرن تقريباً، لم تربط أغلبهم صلات قرابة ورحم..).

المسيحية من بناء الكنائس والأديرة والصوامع والمعابد وألبيع، ومن التبشير وممارسة شعائر دينهم بلا عوائق، ونتيجة لهذا التسامح انتشرت المسيحية في تدمر، حتى سادتها قبل نهاية القرن الثالث، وذلك رغم حملات الاضطهاد التي كانت تشن على المسيحية في بلاد الرومان. وقد أقيم مريانوس التدمري مطراناً على القدس، ثم ساس أبرشية تدمر (بالميرا) أسقفها بعد إعلان مرسوم ميلانو⁽¹⁾. وتبعت أسقفية تدمر في العصر البيزنطي ميثروبوليتية دمشق التي كانت حاضرة فينيقية الثانية⁽²⁾، وحضر أسقفها مازان مجمع نيقية المسكوني الأول سنة 325 م⁽³⁾. وشاركت تدمر بعد ذلك مشاركة فاعلة في تاريخ الكنيسة. وعندما أصبح الحارث بن جبلة الغساني المسيحي سيداً على كل القبائل العربية المنتشرة في المناطق الواقعة بين حران شمالاً والبتراء جنوباً جعل من تدمر أحد مراكز الفساسة المهمة، وبجوارها وحولها العديد من القبائل العربية.

دخل خالد بن الوليد تدمر محرراً عام 636 م، حيث فتحها صلحاً، وذلك أنه لما مر بطريقه من العراق إلى الشام، تحصن أهل تدمر منه، فأحاط بهم من كل وجه، فلم يقدر عليهم، فلما أعجزه ذلك وأعجله الرحيل، قال: يا أهل تدمر، والله لو كنتم في السحاب لاستنزلناكم ولأظهرنا الله عليكم، ولئن أنتم لم تصالحوا لأدخلن مدينتكم حتى أقتل مقاتليكم وأسبي ذراريكم؛ فلما ارتحل عنهم بعثوا إليه وصالحوه على ما أودوه له ورضي به⁽⁴⁾.

انتهت إمارة الفساسة وملكتها جبلة السادس (ابن الأيهم) بالتحجير العربي الإسلامي لساخر بلاد الشام (636-637). فعمد المحررون إلى تقسيم بلاد الشام إلى أجناد جديدة، فدخلت تدمر في جند حمص. وجدير بالذكر أن زلزالاً عنيفاً ضرب تدمر أوائل القرن العاشر فهدم العديد من مبانيها التاريخية الباقية وهلك الكثير من سكانها تحت الانقاض⁽⁵⁾.

استأثرت تدمر بتراتها وبمبانيها العظيمة وما بقي منها باهتمام الرحالة والبحاث والزائرين. وكان أول من تبه هؤلاء في الغرب إلى أوابدها الرحالة الأندلسي بنيامين

(1) - أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير (305-337) م " مرسوم ميلانو" سنة 313 م، والذي يقضي بمنح المسيحيين حرية العبادة في جميع أنحاء الامبراطورية لرومانية.

(2) - فينيقية الثانية هي فينيقية الشرقية، التي كانت تقع إلى الشرق من سلسلة جبال لبنان الشرقية، بينما فينيقية الغربية كانت إلى الغرب بمحاذاة الساحل اللبني.

(3) - نيقية Nicene نسبة إلى مدينة نيقية (نيقا Nicaea) في آسيا الصغرى، ونسبة إلى المجمع المسكوني الأول الذي انعقد فيها تحت رعاية الامبراطور قسطنطين الكبير عام 325 م. وقد انعقد مرتين؛ الأولى بإشراف البابا سيلستر الأول لمناقشة الهرطقة الآريوسية (معتقدات آريوس Arius -الذي عاش بين 250-336) م- وهو أسقف الاسكندرية من أصل ليبي، تعلم في أنطاكية وأصبح أحد رجال الكنيسة في الاسكندرية. وقام بتدريس تعاليم مدرسته التي تعلمها في أنطاكية؛ بأن المسيح لم يكن من نفس المادة الإلهية، بل من أفضل المخلوقات الموجودة، وأن الإله يوجد دائماً لا يمكن إدراكه، وأن الابن لا يمكن أن يكون لها نفس المعنى، فوجوده لاحق لوجود الإله، وبالتالي فإن الإله الأب لا يقل الانقسام لنفسه...).

(4) - معجم البلدان، ج2، ص 19.

(5) - النجوم الزاهرة 5 / 35.

الطليطلي في رحلته وكتاباتة في الربع الأخير من القرن الثاني عشر، فتتابعت رحلات البحاة والرحالة الأوربيين إليها مع بداية عصر النهضة الأوربية. وتكتفت أنشطة بعثات التنقيب الأثرية من فرنسية وألمانية وإنكليزية ودانماركية وسويسرية وبولونية وروسية ويابانية، إلى جانب ما قامت وتقوم به المديرية العامة السورية للمتاحف والآثار من أعمال كشف وترميم. وبالإجمال، فقد كشف النقاب عن إبداعات الفن التدمري وعن أطلال المباني الأثرية، هرممت بعض المباني، وتسخت الكتابات الحجرية وفكت رموزها، فصارت قبلة الأنظار من الباحثين والسياح والزائرين من شتى أنحاء العالم.

تعد تدمر من المدن السورية التي كانت منيعة التحصين. إذ اتبع في إنشائها تخطيط المدن الإغريقي- الروماني من توفر المرافق العامة، بما فيها الأغورا (السوق والساحة العامة)، المعهودة في المدن الهلينية والرومانية. لكن معظم ما بني فيها كانت مادته من الصخور والحجارة، حيث جسد فنانوها روحهم الفنية ونمطهم المعماري الحضاري التدمري. فبدا الفن والهندسة، بإجماع الباحثين والمثقفين والعلماء، فناً محلياً تدمرياً سورياً بالرغم من بعض التأثيرات الفريغو رومانية (الإغريقية- الرومانية). وكان فنانوها على إطلاع بفنون الهند والصين ومصر. ومن هنا جاء الانسجام واضحاً في فن العمارة التدمرية.

الفن التدمري

يعتبر النتاج الفني التدمري الرفيع الذي تدل بقايا آثاره عليه بأنه، بالأساس، نتاج محلي شرقي خصب تأثر بالأساليب الهلينية الرومانية، فلم يخرج كثيراً عن التقليد الفني السوري المعروف في تلك الأزمنة. وإذا كانت الظروف السياسية والاقتصادية والتجارية قد نقلت إلى تدمر مؤثرات غربية واضحة، إلا أن هذه المؤثرات انصهرت في بوتقة طابع الفن المشرقي، فتأثرت فنون تدمر في بداياتها بالفنون والثقافة الفراتية القادمة من الشرق عندما كانت العلاقات القوية تربط بينها وبين بلاد بين النهرين وحضارتها. لكن تأثر التدمريين كان واضحاً بالأساليب اليونانية في التخطيط العمراني والمدني، بينما بقيت الآثار الفنية كالزخارف والمنحوتات محافظة على أسلوبها المشرقي الأصل.

تتنوع الفنون التدمرية على طيف واسع من الانجازات الفنية الرفيعة - مدنية كانت أو دينية - والتي كانت تتوجها لخصوبة ونضوج فكري وإيمان روحي وديني زاوج بين المادة الفكرية والروحية والبيئية تأثرت بغنى إنساني عام من المحلي ومن الشرق والغرب، بحيث تمكن الفنان التدمري من مغازلة الصخور الصلدة المحيطة بالمنطقة لصياغة أجمل الروائع وأرقى الفنون في مجالات العمارة والتحت والزخرفة المدنية والدينية. إذ قد تحدد هذه الإنجازات المعيار لما يمكن أن تقوم عليه دراستها للتعرف على الوجه الحضاري للمدينة ومن حكمها في تلك الفترة. ويمكن تصنيف الفنون التدمرية إلى:

فنون النحت: ويتفرع عنها المنحوتات المدنية، الدينية، والمنحوتات الجنائزية.

هنون العمارة: ويتفرع عنها هنون العمارة المدنية، هنون العمارة الدينية، وهنون العمارة الجنائزية (المدافن).

ويمكن إجمال أوابد المدينة ومرافقها المدنية العامة وقنونها المتنوعة ومبانيها التاريخية والدينية الوثنية والمسيحية بما يلي:

أولاً: المرافق المدنية العامة

1- السور: يلف المدينة سور دفاعي كبير بطول ستة كيلومترات تقريباً، ويشبه بمخطوطه شكل السلحفاة. وقد بني من الأحجار الضخمة المنحوتة، وهو مدعم بأبراج مربعة الشكل. وقد تم تجديده في عهد يوستنيانوس (جوستنيان) في القرن السادس على أنقاض سور تدمر الذي هدمه أورليانوس سنة 273 م، وشمل بعضاً من دور تدمر التي كانت خارج الأسوار، ويحيط هذا السور بمعسكر ديوقلتيانوس من جهات ثلاث. ويعتقد أن السور الأصلي الذي هدمه أورليانوس قد بدأ التدمير في بنائه في بداية القرن الأول الميلادي لحماية المدينة من الطامعين. وقد عزز السور بأبراج مربعة الشكل، إذ يبعد كل منها عن الآخر بسبعة وثلاثين متراً. وينسب تدعيمه إلى ديوقلتيانوس في نهاية القرن الثالث عندما أدخل تحسيناته على خطوط الدفاع الشرقية للامبراطورية. بينما أضاف إليه العرب الفساسنة في عهد يوستنيانوس أبراجاً مستديرة ومفرغة بين كل ثلاثة أبراج مربعة. كما يوجد سور آخر من اللين دعي "سوق الجمارك".

2- الشوارع: أهمها الشارع الرئيسي (الطويل المستقيم) الذي بني في القرن الثاني وأدخلت عليه تعديلات في القرن الثالث. وهو يطول يزيد على 1250 متراً، حيث يمتد بين قوس النصر (البوابة الضخمة) وهيكل الموتى، وتتفرع عنه شوارع عرضانية فرعية. ويقدم على طرفيه صفان من الأعمدة ينسبط على جانبيهما رواقان كانا مسقوفين ومبطنين؛ عرض كل منهما سبعة أمتار تقريباً. وعلى طول جانبيه كانت تتوزع المحال التجارية. وتنطلق عظمة الشارع بقوس النصر المؤلف من بوابة ذات ثلاثة مداخل معقودة فوق الأقواس (مدخل كبير كبوابة، ومدخلان جانبيان صغيران). ويحضر القوس بأنواع من الزخارف والمنحوتات، وتزين أقواس المداخل نقوش هندسية ونباتية، ويعلوها جبهة مثلثة جميلة. وعلى جانبي الشارع تنتصب أعمدة شاهقة يلتصق بجذع الكثير منها قواعد بارزة كانت مخصصة لحمل تماثيل كبار شخصيات تدمر. حيث لا يزال عموداً أذينة وزنوبيا قائمين، وأمامهما أعمدة أخرى على إحداها نقش باسم والد زنوبيا يوليوس أورليوس زنوبيوس أو زياي كحاكم على تدمر، والذي استقبل امبراطور روما السوري اسكندر سيفيروس عند زيارته لتدمر سنة 232 م. كما توجد كتابة باليونانية والآرامية منقوشة على عمود الملكة زنوبيا الموجود إلى الشرق من المصلى في الشارع الطويل، والتي تقول: "هذا التمثال هو لسيتيميا زنوبيا (بت زياي بالنص التدمري) الملكة المعظمة التقية النورة. ورفع القائدان العظيمان سبتيموس زيدا القائد الأعلى للجيش وسبتيموس زياي

قائد موقع تدمر هذا التمثال لسيدتهما في آب من عام 582⁽¹⁾، بينما كانت تنتظم على طرقي الشارع المستقيم المباني والمنشآت الضخمة مثل المسرح والأغورا ومجلس الشيوخ وسيل الماء ومعسكر ديوقلتيانوس، والمعبد القيصري المخد الذي كانت تجري فيه عبادة القيصر، وأمامه حوض الحوريات عرائس الماء.

3- الأبواب الأربعة (الترايبيل): المكونة من تقاطع الشارعين الرئيسيين في المدينة في الشمال الغربي من الشارع المستقيم، ويشكل صرح ومعلم مركز المدينة، وهو مصمم من مصطبة ضخمة تقوم في زوايا الأربعة قواعد عالية تحمل كل منها أربعة أعمدة سامقة من حجر الغرانيت الصلب، يعلوها سقف له طبق وأفرز، ووسط المصطبة كان يقوم على قاعدة تمثل ضخماً بأربعة وجوه ليرى من كل الاتجاهات، وهو على درجة عالية من الأبهة والفخامة. وتتألف المصطبة من أربعة قواعد أو مصطبات مربعة الشكل يحمل كل منها أربعة أعمدة غرانيتية عملاقة تعلوها تيجان كورنثية وسقوف وأفاريز مزخرفة.

4- المسرح: يعتقد أن بناء المسرح اكتمل خلال ولاية الإمبراطور كراكلا. ويتميز بناؤه بالمرج بين الأساليب الشرقية والإغريقية-الرومانية. ويحتل مركز المدينة فيتوسط السوق العامة. ويفضي الشارع المستقيم إلى رواق المسرح الشمالي. ومن طرفه الشرقي يوجد رواق آخر يشكل ربع دائرة. وتبلغ أطوال خشبة العرض 48×10م، وقطر الأوركسترا المستديرة بين الخشبة والمسرح 20 متراً، ولها أربعة أدراج وخمسة أبواب مزخرفة، ولجدار الخشبة واجهة بديعة قوامها المحاريب والأعمدة (خمس وثلاثون عموداً) ذات تيجان كورنثية وأفاريز وكرانش في تصميم دقيق غاية في الروعة والجمال. وللمسرح جبهة محمولة على أعمدة تحمل جبهة مثثلة الشكل عليها قرص الشمس الذي يتفرع منه أغصان مزهرة ترمز للنور والخصب والحكمة، بينما تنتصب أمام منصته الأوركسترا، التي تشكل أكبر من نصف دائرة بقليل. وتحيط بها درجات جلوس المشاهدين. والباقي من المدرج ثلاثة عشر صفاً، وهو مقسم إلى أحد عشر قسماً بدرجات لا تسمح إلا بالصعود أو الهبوط.

5- الأغورا (السوق العامة أو الميدان الرئيسي وسط المدينة): يعتقد أن بناءه قد تم في القرن الثاني، ويقع إلى جنوب غرب المسرح. وهو معد للاحتفالات العامة، حيث يشكل باحة مربعة الشكل أبعادها 84×71 متراً، ويقوم على جهاته الأربع رواق تحمله أعمدة، وله إحدى عشرة بوابة، وكل رواق مخصص لفئة من الشخصيات التدمرية؛ فالرواق الشمالي لمطبقة الموظفين، والغربي لرجال الجيش، والجنوبي لرؤساء القوافل، والشرقي لأعضاء مجلس الشيوخ. وقد بلغ عدد التماثيل فوق حوامل الأعمدة مائتي تمثال. وخصص باب الرواق الشرقي لتمثيل أسرة سبتيميوس سيفيروس وأباطرة سوريين رومانين آخرين⁽²⁾. وكانت لوحة التعرقة الجمركية توضع إلى جانب الأغورا.

(1) - 582 بالتقويم السلوقي تقابل تاريخ نيسان 271 م. غير أن كلمة سلوقي لم ترد في النص - المحقق.

(2) - "ترويا ملكة تدمر والشرق" لخالدة الأسعد وأوفه ويديرخ، ص 112، إذ أشارا إلى أن هذه الأعمدة تحمل تماثيل نصفة لأباطرة السوريين سيفيروس وإبنه كراكلا والإغاباوس وفيليب العربي وجوليا دومنا ولختها.

6- صالة الولائم الدينية: يقع المبنى في الزاوية الغربية من الأغورا، وتقام فيه الحفلات والولائم الدينية.

7- مبنى مجلس الشيوخ: بناء مستطيل الشكل، له مدخل وباحة تحاط بأروقة مرفوعة على أعمدة، وصدر البناء على شكل حنية (انحناءات رشيقة)، وله مدرج لجلوس الأعضاء. يقع بقرب الأغورا وسط باحة محفوفة بالأروقة.

8- دار الأموات: وتقع في نهاية الشارع المستقيم، وهي مقبرة على هيئة دار، تتقدمها عتبة ذات رواق معمد وجبهة مثلثة بقي منها أعمدة وجزء من واجهتها.

9- باب دمشق: يقع في نهاية باحة بيضاوية الشكل لها بوابة بثلاثة مداخل أطلق عليها اسم بوابة دمشق.

10- معسكر ديوقليتيانوس (دقلديانوس): يتفرع شارع عن الشارع المستقيم في اتجاه الجنوب الغربي، محاط بالأروقة المحمولة على أعمدة. وكان يقوم في هذا الشارع الفرعي معسكر يشبه تصميمه المعماري تصميم قصر ديوقليتيانوس الباقية آثاره في سبوليتو في يوغسلافية الآن. وقد أنشئ هذا المعسكر خلال فترة العهد الرباعي⁽¹⁾ في نهاية القرن الثالث. وهو يشبه القصر المحصن، ويحيط به سور المدينة من جهاته الأربع. ويمكن الدخول إليه من باب الحراس الذي يليه نصب شبيه بالتراويل، ثم تأتي باحة تحتوي على "معبد الأعلام" الذي يؤدي فيه الجند الشعائر الدينية. كما كان يوجد معبد آخر كان مكرساً لعبادة اللات.

11- الفوروم: ساحة عامة واسعة تستخدم للنقاش والمناظرة أبعادها 44x62 م.

12- الدور التدمرية: شمل سور يوستيانيوس (جوستيان) بعضاً من دور تدمر خارج السور، والتي نشأت خلال فترة الازدهار في القرن الثالث خلال عصري أذينة وزنوبيا. وتقع تلك الدور إلى الشرق من معبد "بل"، وبداخلها كشف النقاب عن عدد من الغرف المفروشة بالفسيفساء.

13- وثيقة التعرف الجمركية: يعود تاريخ هذه الوثيقة الهامة التي عثر عليها قرب الأغورا إلى عام 137م. وهي كناية عن حجر ضخمة عرضه خمسة أمتار، محفور عليه مرسوم أصدره مجلس شيوخ تدمر يحدد قيمة الضرائب والمكوس، كما يحدد مقدار الرسوم لمن يريد الانتفاع من مياه نبع أفقا ونبع السراي. ويتألف النقش من أربعمائة سطر. وتعد هذه الوثيقة من أوضح الدلائل على الدور الهام الذي كانت تلعبه تدمر في حركة التجارة الدولية في ذلك الزمن، وذلك بعد أن ضم تريبانيوس (تراجان) دولة الأنباط.

(1) -العهد الرباعي هو الائتلاف الرباعي الحاكم برئاسة الامبراطور ديوقليتيانوس وعضوية كبار ضباط الجيش، حيث قام ديوقليتيانوس بتقسيم الامبراطورية إلى أربعة أقاليم إدارية كبرى، على رأس كل قسم منها حاكم إداري عام يتمتع إما بلقب أوصطس أو قيصر، ويمتيز الواحد منهم شريكاً للامبراطور في حكم الامبراطورية. وقد تمكن هذا الحكم الرباعي أن يخوض الحرب ضد الفرس، كما استعاد النظام ولهزمه في جميع أنحاء الامبراطورية، وأدخلت خلاله إصلاحات إدارية على أنظمة الدولة.

وعاصمتها البتراء إلى الامبراطورية الرومانية في 106م، وأنشأ بدلاً عنها ولاية العربية وعاصمتها بصرى، فتولت تدمير بشكل كامل شؤون التجارة التي كان يديرها الأنباط.

14- القلعة: مشيدة على التل المشرف على تدمير من ناحية الشمال الغربي. وقيل أنها بنيت في عهد الأمير فخر الدين المعني (1583-1635م). ويعتقد أنه لم يبق إلا بإدخال تعديلات عليها وترميمها، بينما يعود بناؤها إلى الفترة الأيوبية بين القرنين الثاني والثالث عشر.

15- نبع أفقا الكبرى (مخرج الماء والشروق): ومعناه بالدمرية: البداية أو الفجر. ويقع في جنوب غربي المدينة، فتدمر هي هبة نبع أفقا. ويعد النبع سبب نشوء المدينة وشریان حياتها. وهو الذي جعل منها واحة خضراء ومحطة استراحة للقوافل بين الشرق والغرب مما جعلها تحتل الموقع الأهم على مركز تقاطع طرق التجارة الدولية القديمة. وكانت مياه النبع تتدفق بين الصخور بحرارة ثابتة (33°م) على مدار العام، عبر كهف يمتد لمسافة نصف كيلومتر في جوف جبل المنطار. لكن مياه النبع جفت في العام 1994.

16- المدافن: اهتم التدمريون اهتماماً عظيماً بفن العمارة الجنائزية، وذلك ببناء صروح قبور موتاهم كأنها القصور، لاعتقادهم أن القبر هو المستقر الأبدى وهو دار المقام والنعيم، فاطلقوا عليه بيت الأبدية الذي تاوي إليه الأرواح بعد استقرار الأجسام فيه بسلام واطمئنان بعد أن تكون هذه الأرواح قد تركت أجسادها عند الموت. ويوضح لنا هذا مقدار إيمان التدمريين العميق بخلود النفس والبعث في الحياة الثانية الأبدية بعد الموت. لذلك، فقد بالغوا في العناية الفائقة بمدافنهم وقبورهم إلى درجة التقدير والقداسة.

تنتشر المدافن خارج المدينة والأسوار في الشمال والشمال الغربي والجنوب الغربي والجنوب الشرقي للمدينة. ويظهر من دراسة هذه المقابر أن التدمريين قد اهتموا بالمدافن رغبة منهم في دفن موتاهم في مقابر لائقة تنصف بالآبهة والفخامة. ومن تلك المقابر ما هو عائلي (المدفن البيت)، ومنها ما هو جماعي، أو فردي. واتخذت أشكالاً مختلفة؛ فمنها ما هو على هيئة سرداب (مدافن الكهوف)، ومنها المدافن الأرضية، ومنها ما هو على هيئة برج (المدفن البرج) متعدد الطوابق ويبلغ الارتفاع، والذي بقي عدد منها قائماً في أفضل حال حتى الآن.

ومن أهم هذه المدافن: آثار دار الموتى وقبر مارونا من القرن الثالث. وكلاهما لأفراد أقارب. وهناك أيضاً مدفن الإخوة الذين تظهر أسماءهم منحوتة بالخط التدمري على سقف باب حجري، وهو يقع إلى الجنوب الغربي من المدينة ويرتقي إلى عام 144م، ويحتوي على رسوم ملونة على الجدران في نهاية الممرات الثلاثة. وتصميم هذا المدفن السرداب جاء على شكل حرف T. وفي الممرات الثلاثة توجد ستة حفر مستطيلة غائرة في قلب الصخر تظهر بعد كل متر تقريباً. وقد خصصت هذه الحفر لاحتواء جثمان الأموات، وبلغ عدد تلك الحفر أو المعازب 390 معزية. وهناك توابيت حجرية منحوتة. ووجد في عدد من مدافن تدمر منحوتة كبيرة تمثل الميث راحلاً إلى عالم الأموات.

مستلقياً على سرير ومستنداً على وسادات وهو يتناول وليمة الأموات مع الأحياء من أسرته.

وتقع أهم المدافن البرجية في الجانب الغربي من تدمر، أي في وادي القبور. وهذه المدافن مربعة الشكل ومؤلفة من عدة طوابق، إذ يحتوي كل طابق على العديد من المآزب، وهناك درج من طابق لآخر. وزينت هذه المدافن بالألوان والزخارف والصور المنحوتة. ويعود أقدمها إلى القرن الأول الميلادي. ومن أشهرها مدفن جابليك المؤرخ في 83 م، والواقع على سفح تلة أم القيس.

من خلال إيمان التدمريين الديني العميق بالخلود والأبدية بعد الموت، وذلك بمودة الروح إلى الجسد، اهتموا بالمحافظة على الجسد بأفضل صورة ممكنة انتظاراً لعودة روحه إليه، وذلك من خلال عملية التحنيط لهذا الجسد. حيث دلت حملات التنقيب الأثري في المدافن التدمرية على وجود موميات شبه كاملة، وبعضها ناقصة، وبعض المكتشف منها نقل إلى فرنسا خلال فترة الانتداب على سورية، وبعضها موجود في بعض المتاحف الأوربية، وبعضها الآخر يمرض حالياً في متحف تدمر الوطني. إلا أن ممارسة التدمريين لفن التحنيط لم يرق إلى ذلك الذي كان عند المصريين، لا من حيث المستوى ولا الانتشار.

17- القصر: اكتشفت البعثة اليابانية في عام 1990 جناحاً من قصر بلغت فيه مظاهر الفن التدمري أرقى درجاته.

18- الأعمدة التذكارية: وهي أعمدة موزعة في أماكن مختلفة من تدمر، أقيمت بمرسوم صدر من مجلس الشيوخ والشعب لتكريم الشخصيات التي ساهمت في خدمة وازدهار المدينة وحمايتها.

ثانياً: المبانى الدينية الوثنية

كُرس معابد تدمر لعبادة بل ويعلمشمين ونيو بالدرجة الأولى. ويتجلى في أديان تدمر نماذج من الأفكار الدينية أتت من أماكن مختلفة ليس من السهل تحديد مصدرها وهويتها. وقد يصل أعداد الآلهة في تدمر إلى الستين: فالآلهة بل ويعلمشمين واللات انتقلت من شبه الجزيرة العربية، وبعضها جاء من آلهة اليونان، والآلهة أنارغيتس، والآلهة نيو، والمعبد الامبراطوري الذي يؤله القيصر الحاكم، ومعبد اللات، ومعبد أرسو.

1- معبد بل: أهم وأكبر معبد في تدمر، بني فوق تلة، ويعود تاريخه إلى النصف الأول من القرن الثاني الميلادي. وتدل بعض النقوش على أن هذا المعبد بني فوق معبد سابق، حيث بني أيضاً فوق معبد أقدم يعود إلى الفترة الممورية في بدايات الألف الثانية قبل الميلاد. و "بل" هو إله تدمر الأكبر، وهو رأس الأرياب، وهو الإله البابلي مردوخ، وهو يعادل الإله زيوس عند اليونان وجوبيتر عند الرومان. فقد كان بل يمثل رأس مجمع الأرياب التدمريين. وكان يعبد في معبد بل الثالث التدمري (بل - يرحبول - عجلبول).

ويزين الجدران الخارجية للمعبد عضادات كورنثية⁽¹⁾ ملتصقة بالجدار. ويخترق الجدران الأربعة بانتظام نواخذ مستطيلة الشكل ومثلثة الجبهات. وللمعبد مدخل رئيسي في السور الغربي يتقدمه درج عريض يصعد إلى رواق خارجي له ثمانية أعمدة، ويفضي إلى بوابة جميلة لها ثلاثة مداخل كانت تغلق بأبواب من البرونز المذهب، وعلى طرفيها برجين مزخرفين. بحيث يدخل الشعب منها إلى ساحة مربعة الشكل مفروشة بالبلاط ومغلقة بسور، وأبعادها 205×210م. وعلى جنبات الساحة أروقة ظليلة يحملها صفان من الأعمدة الكورنثية نصبت على حواملها تماثيل أعيان المدينة. ويوجد إلى يسار المدخل نفق مفتوح يصعد إلى مستوى باحة المعبد وينتهي عند مذبح التقادم والأضاحي، وتقوم إلى الجنوب من المذبح بقايا دار مخصصة للولائم وفيها حوض ماء للتطهر والغتسال. وتقودنا بوابة جميلة إلى مبنى الهيكل أو قدس الأقداس المستطيل الشكل (ناووس أوسيل)، والذي يحيط به رواق تحمله أعمدة مخددة كانت تتوجها تيجان كورنثية من البرونز المذهب. وفي ضلعي الشمال والجنوب من الحرم توجد محاريب كانت تنتصب في داخلها تماثيل الأرباب؛ فمحاريب الشمال مخصصة لتماثيل الآلهة (بل ويزحبول وعجلبول)، بينما محراب آخر في الجنوب مخصص لتمثال الإله بل لوحده. ويعج سقف كل محراب بالزخارف والزينة التي تثير الإعجاب.

2- معبد بعلمشين: كان بعلمشين يمثل سيد السموات والعالم والخلود. والرأس الثاني لمجمع الأرباب التدمريين. واختلطت مهماته وصفاته بمهمات وصفات الرب، ووصف بأنه رب الخصب والعواصف والمطر، وبأنه الطيب والكبير والمثيب والرحمن. أقيم المعبد سنة 130م فوق معبد أقدم. ويحتوي المعبد كل مستلزمات العبادات الوثنية من عتبة وأروقة وباحة ومذبح، وتتألف ردهته من ستة أعمدة كورنثية؛ على أربعة منها قواعد بارزة لوضع تماثيل لشخصيات تدمرية مشهورة. وما تزال لوحة كتابية مؤرخة بالعام 115م أمام المذبح.

3- معبد الإله نبو⁽²⁾ (المعبد الكورنثي): يعود تاريخ المعبد إلى النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، ويقع قرب مدخل قوس النصر (الشارع المستقيم)، فقد كان الإله نبو معبوداً في بابل، وهو ابن الإله مردوخ، وبالتالي فهو الابن البكر للإله بل واسمه في البابلية (نبووم) التي تعني النبي أو الرسول، حيث كان يمثل رسول الحكمة وأمين سر الأرباب الذي يسجل المقادير في اللوح المحفوظ، وهو سيد القلم ودعامة العالم، وكانت شعبيته كبيرة في

(1) - تعود التسمية إلى أسلوب وطريقة مدينة كورنثوث الإغريقية القديمة في فن المارة وتصميم وبناء الأعمدة الحجرية والزخامية التي ينتج في تصميمها المزج بين التصميم الكلاسيكي الثابت والبسيط، حيث يطروا تاج مربع كليل المنظر يرتاح فوق كائس حجري مربع الشكل، وبين شكل الدرج أو على شكل لفة ورق البردي المفتوحة في وسطها والمفلوطة من طرفيها، وبين أشكال من الزخارف الغنية الرقيقة والدقيقة في ترتيب كلاسيكي جذاب تتداخل معه أشكال متعددة من أوراق الأهرال والنباتات المنحوتة. وللمزج بين الأساليب الثلاثة في العمل يجعل من تصميم الأعمدة الكورنثية المنصوبة وتيجانها منظرًا بديعاً في تساق ولينسجام جمالي وخلق في رفيع مثير للإعجاب والتأمل.

(2) - انظر نبو (نبو) الإله البابلي - الآشوري في سيرة سميراميس (الفصل الثاني من هذا الكتاب).

بلاد الرافدين وفي سورية. فقد كان في نظر الإغريق والرومان نظيراً للإله أبولو. وبالدخول إليه بقودنا قوس ضخمة ببوابة لها برجان إلى باحة كبرى مطوقة بالأروقة الظليلة. ويوجد مذبح مربع يتقدم قدس الأقداس، وفي كل زاوية من زواياه ثلاثة أعمدة. ويقوم الهيكل (قدس الأقداس) بشكل شبه منحرف فوق مصطبة مدرجة، وتطوف به أروقة ظليلة تحملها تيجان كورنثية الطراز. وفي المعبد كتابتان تشيران إلى عبادة هذا الإله. وتقع الحمامات التي شيدت في عهد المملكة التدمرية بأعمدها الضخمة إلى الشمال من معبد نبو.

4- معبد اللات: هو معبد الربة العربية، الآلهة الأم عند العرب، الذي كشفت عنه البعثة⁽¹⁾ البولونية برئاسة ميشال غاهليوفسكي سنة 1975. ويعود تاريخ مباشرة بنائه إلى منتصف القرن الأول ق.م، وأعيد توسيمه بعد نصف قرن تقريباً. وتم اكتشاف منحوتة التمثال المرمري للربة اللات، والذي يحاكي الصورة الرائعة للربة اليونانية أثينا التي نحتها الفنان فيدياس في القرن الخامس ق.م، وتمثال أسد اللات الذي يظهر قائماً على يديه فاغراً فاه وهو يمسك بين يديه بحيوان المها يقف اليوم في مدخل متحف تدمر الوطني، وعلى ساعده الأيسر الكتابة الآرامية تقول: " تبارك اللات كل من لا يسفك الدماء في المعبد"، فكل من دخل المعبد هو بسلام آمن. وهو نص عربي قديم لتحريم الحرب والقتال لأربعة أشهر معينة في السنة. وقد شدد القرآن على تحريم القتال في هذه الأشهر الحرم: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين)⁽²⁾.

5- معبد أرسو: معبد الإله أرسو (الرب رضا عند العرب)، وكان يطلق عليه الرحمن الرحيم؛ فهو إله القوافل وحاميها في تدمر. ووجد إلى الغرب من الأغورا، ودلت عليه كتابة منقوشة على مذبح ومكرسة للإله أرسو. وتمثله بعض التماثيل وهو يمتطي جملأ كإله للقوافل. وقد كشفته بعثة سورية من السادة خالد الأسعد وعلي الطه في عام 1980.

لم يتم العثور على معبد أثارغيتس (آلهة الخصب عشتاروت) إلى الآن. ولم يتم العثور على مكان الغابة المقدسة التي تتحدث عنها بعض المصادر القديمة. بينما عثر في مدخل نبع أفقا على مجموعة هامة من المذابح الحجرية النذرية التي تكرس لإله الشمس وحامي النبع، الإله يرحيول.

ثالثاً: الآثار المسيحية

عثر على مخطط وبقايا لكنيستين في قلب السور البيزنطي بين معبد بعلمشين والمعبد الضريحي في طرف السور، حيث توجد منطقة سكنية منظمة مدنياً.

(1) - خالد الأسعد وروبيرغ هاتسن: "لبنيا ملكة تدمر والشرق"، الصفحات (113-119).

(2) - التوبة، الآية 36.

1- الكنيسة الكبرى (الكاتدرائية): وتقع على بعد 130 متراً إلى الشرق من معبد بعلشمين وفندق زنوبيا الحالي. والمعبد كنيسة بازيلكية ذات أسواق ثلاث: السوق الأوسط منها أكبر من الجانبين. والكنيسة مستطيلة وكبيرة، فيها حنية ومن جانبيها الدياكونيكون والبروتيسيس. وعثر فيها على ناووس يحتوي بقايا من عظام شهداء، وناووس آخر لأحد القديسين. ولم يبق منها أي أثر اليوم.

2- الكنيسة الصغرى: أصغر من الكبرى، وهي على بعد مائة متر تقريباً إلى الغرب منها. وكانت ذات نمط بازيلكي، أي فيها ثلاثة أسواق: الأوسط منها يمتاز باتساعه من الجانبين. وشكلها مستطيل، فيها حنية وإلى جانبها داران، هما: الديكونيكون والبروتيسيس⁽¹⁾. لم يبق منها أي أثر اليوم.

تحولت بعض المعابد الوثنية إلى كنائس بعدما سادت المسيحية جميع ربوع الامبراطورية البيزنطية. وقد منح يوستينيانوس (527-575م) مقوم الشرق الثفة لتجديد تدمير وكنائسها، فحول مبعدي بل وبعلشمين الوثنيين إلى كنيستين. وفي القرن الثاني عشر حولت الكنيسة إلى مزار ومصلى ومسجد للمسلمين.

أصول وبدايات زنوبيا

نتيجة للغموض الذي يلقي بظلاله على بدايات زنوبيا رفض المؤرخون المحدثون الاستجابة لملء الفراغ بالتفاصيل الضائعة عن حياة الأعراب الذين عاصروا مملكة تدمر منذ بدء نشوئها بصعود نجم أذينة كحاكم وقائد لتدمر في نهاية الربع الأول وبداية الثاني من القرن الثالث. إلا أن واحدة من القصص الشعبية تحدثت عن والد زنوبيا كزعيم صحراوي تنعم بأكثر من زوجة، ورزق بعدد من الأبناء الذكور وابنة وحيدة هي زنوبيا. وعلى عادة العرب قبل الإسلام بعدم الشعور بالرضا لقدم البنات، والقيام بوأدهن في أحناء كثيرة، حاول والدها أن يتخلص منها وهي مازالت صغيرة. لكن شاء القدر أن يتم إخفاؤها عنه في بيت عاشت فيه مع أغلبية من الصبيان وأقلية من البنات حتى بلغت مبلغ الشباب، فاكتمت مبكراً مواهبها ومهاراتها في الصيد والقنص ومشاركة الصبيان في التدريب على امتلاك قدرات ومهارات الاحتمال الجسدي العالية، مع محافظتها الدائمة على أن تكون نداءً وخصماً عنيداً لأقرانها من الأولاد والصبيان، وصونها لنفسها من التسليم لأحد منهم، وكأنها كانت تستوحي قدرها المستقبلي المثير. وهذا لم يكن إلا القليل المعروف عن فترة طفولتها وصدر شبابها المبكر للإضاعة على قوة وقدرة هذه المرأة التي عادت بقدراتها القدرات الذكورية بل ويزتها.

(1) - الديكونيكون هو المكان الذي تحفظ فيه الأواني والأوعية التي تستخدم في الكنيسة. والبروتيسيس: المكان الذي تتم فيه الإعدادات التهييضية للقران المقدس.

لا يعرف على وجه التحديد تاريخ ولادة زنوبيا بدقة. ولكن يعتقد أن ولادتها كانت في السنوات الأخيرة من الثلث الأول من القرن الثالث. وقد سميت باسمها العربي: زينب أو الزياء بنت عمرو بن الظرف بن حسان بن أذينة السميدع، وفي مصادر أخرى: زينب، وبت زياي^(١)، أي بنت زياي بن سليم أو يوليوس أورليوس زنوبيوس^(٢). وتم العثور على لوحة مكتوبة باللغتين النصرية واليونانية تؤرخ مناسبة زيارة الامبراطور الروماني اسكندر سيفيروس لتدمر في 231-232م، وجدت على عمود يقع في آخر الرواق الشمالي مقابل عمود زنوبيا الواقع في الشارع الطويل، إذ تشير الكتابة إلى يوليوس أورليوس زنوبيوس، أو زياي والد زنوبيا، حاكم تدمر عند زيارة الامبراطور.

نسب جواد علي في "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، ص 103 وما تلاها، أحاديث وقصص عن الزياء^(٣) عزاها للإخباريين العرب (الطبري، ابن الأثير، ابن خلدون..)، واسمها عندهم: نائلة، وعلى زعم آخر الزياء، وفي ثالث ليلي بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوير العميلقي: من العماليق. وكانت تشتت في قصر أختها (زيببة) الحصين على شاطئ الفرات الغربي. وكان لها جنود من بقايا العماليق والعاربة الأولى، ويزيد وسليح ومن كان معهم من قضاة. كما زعم بعض هؤلاء الإخباريون أن الزياء من بني قطورة من أهل مكة.. وأوردوا أحاديث وروايات عن اقتتال شديد بين والد الزياء ومالك بن فهم حروب هلك عمرو في بعضها، وكان مالك على ما يصفه الإخباريون رجلاً قديراً يغير على ملوك الطوائف حتى غلب على كثير منهم، وهو في نظرهم أول من ملك من عرب الضاحية. وكان منزله مما يلي الأنبار. وقد ملك بعده أخوه عمرو بن فهم، فلما هلك تولى من بعده جذيمة الأبرش أو الوضاح الشهير في تاريخ الحيرة، الذي بدوره استمر في العداء لوالد الزياء فقتله، فأجمعت الزياء للأخذ بثار أبيها، فعمدت إلى الحيلة والمكر بالتصالح مع جذيمة، فاستدرجته إلى عاصمتها وقتلته. فطلب قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس بن ربي بن نمارة بن لخم، وكان أريباً حازماً أثيراً عند جذيمة بن الأبرش، الإذن من خليفة جذيمة على الحيرة لقتال الزياء، فأحجم أمير الحيرة الجديد عن ذلك. فلما رأى قصير ذلك قرر أن يأخذ هو بالثار، فذهب إلى الزياء مدعياً أنه مضطهد ممقوت من قومه بحجة مساهمته في مقتل جذيمة، فاطمأنت

(١) جاء في كتاب د. محمد محفل ممشق... الأسطورة والتاريخ، ص 207: ((إن اسمها النكري، كما جاء في الكتابات النصرية المنقوشة على الحجر - النقش رقم 3947 للرواد في جامع القنوش السامية- هو بت زياي.. وتعلم أن اسم زنوبيا قد اختلط لدى الإخباريين للعرب مع اسم الزياء صاحبة رولية جذيمة الأبرش وقصير بن سعد.. أما اسم زنوبيا فهو من أصل يوناني مركب من كلمتين: زين Zen وهو اسم الإله زيوس في اليونانية، وبيا Bia بمعنى للقدرة والجهير)).

(٢) Queen Zenobia's Last Look Upon Palmyra, by Herbert Schalz, p. 11

تطبع النكريون، كثيرهم من سكان البالد المحتلة، بأسماء يونانية ورومانية خلال الفتحين اللاتين والروماني.

(٣) - انظر أيضاً رواية أبو سعيد الحيري في كتابه "الحوار الحين"، تحقيق كمال مصطفى، دار آزال- بيروت، ص (354-358)، عن قصة جذيمة والزياء. وقد وردت قصتهما أيضاً في كتاب الأمثال للمفضل الضبي، الذي حققه إحسان عباس. ولا تستند روايات الإخباريين إلى أسس تاريخية إن قصصوا بذلك زنوبيا ملكة تدمر.

له الزياء ووثقت به وأعطته تجارة لتصريفها عند قومه، فعاد بأرباح كثيرة لها، فزادت ثقفتها به فتكررت رحلاته التجارية لصالحتها، حتى إذا ما وثق من اطمئنانها عاد إليها رجال أشداء من بني قومه ومعهم عمرو بن عدي أمير الحيرة، وضعهم في جوالق كبيرة، فلما توسطوا المدينة أنزلت الجوالق وخرج الرجال منها، فوضعوا سيوفهم في رقاب أهل المدينة. فلما رأت الزياء ذلك أرادت الهرب، غير أن عمرو اعترض طريقها، فلما رآته الزياء مصت خاتمها، وكان فيه سم، قائلة: بيدي لا بيدك يا عمرو.. إلى آخر القصة المروية عند جواد على كما يرويها عن الإخباريين العرب. وهذا مناقض ومخالف للحقائق التاريخية المعروفة عن زنوبيا، كما أن الرواية تبدو ساذجة إلى حد ما.. اللهم، إلا إذا كانت مثل هذه الروايات عن شخصية أخرى؛ لكن، يمكن القول أن الأسطورة هنا تختلط بالواقع التاريخي عند بعض الإخباريين العرب، إذ يتكرر اسم الزياء على أنها زنوبيا التاريخية!

دانت سورية الكبرى، من ضمن بلاد شرقية أخرى، للفتح اليوناني الذي قاده الأسكندر المقدوني سنة 332 ق.م. وبعد موته اقتسم أركان جيشه الإرث الذي خلفه قائدهم، فاستقل سلوقس نيكاتور بسورية وفارس وغالبية آسية الصغرى وبأكرتية (أفغانستان الحالية)، وأقام الدولة السلوقية التي دامت من 312 ق.م حتى تاريخ الفتح الروماني بقياده القائد العسكري والسياسي الروماني بومبيوس⁽¹⁾ Pompeius سنة 64 ق.م. وكانت لغة وثقافة الدولة السلوقية هي اللغة والثقافة اليونانية، حيث سادت مع الزمن ربوع الدولة السلوقية، بما فيها تدمر. وبعد الفتح الروماني بدأت اللغة والثقافة اللاتينية تسود في جميع أنحاء ولايات الامبراطورية. فاثرت الثقافتان اليونانية والرومانية، ضمن من أثرت عليهم، على تدمر ومجتمعها تأثيراً عميقاً، فتكنت الطبقات العليا خاصة، بأسماء وألقاب يونانية ولاتينية. فسميت زنوبيا بالاسم اليوناني Septimia Zenobia /سبتيما زنوبيا، وأخسینوبيا Xenobia، ثم أضيف إلى اسمها، سبتيميوس أو زيناتوس، بعد زواجها من أذينة. وعرفت بالاسم اللاتيني: Julia Aurelia Zenobia /زنوبيا أورليا أورليا. كما كان يطلق على والدها اسم زياي بن سليم أو لولياس Zabaii ben Selim or Lulias، يوليوس أورليوس زنوبيوس. وقد ذكر أن والدها كان رئيساً أو شيخاً على تدمر في 229 م⁽²⁾. ويظهر من اسم والدها التيبيل أورليوس أن أسلاف عائلتها قد منحوا المواطنة الرومانية إما خلال فترة الامبراطور أنطونينوس بايوس

(1) - بومبيوس (106 - 48) ق.م. اسمه اللاتيني غنافيوس بومبيوس ماغنوس Gnaeus Pompeius Magnus، جنرال وسياسي روماني عرف باسم بومبيوس الكبير (بومبي)، شارك بإقلمة التحالف الثلاثي الأول سنة 60 ق.م (First Triumvirate)، وذلك بعد عودته منتصراً من الشرق. وقد تم هذا الاتفاق بين يوليوس قيصر صاحب الشخصية الديناميكية العنيدة التي كانت تزداد عزماً وتصميماً أمام التحديات، والعقل المدبر والطاقة التي لا تتلذذ، وبين بومبيوس صاحب المجد العسكري العريض والفتوحات في لأفريقية والبحر الأبيض والشرق، ومعهم كراسوس السياسي الروماني ذو الثراء العريق. حيث كان تحالفهم هذا موجهاً ضد مجلس الشيوخ الروماني الذي كان يخشى على سلطاته من طموحات قيصر وبومبيوس.

(2) - انظر خالد الأسعد وأولفه ويبرغ في كتابهم " زنوبيا ملكة تدمر والشرق" ص (157-158).

(131-161)، أو خلال فترة حكم الامبراطور ماركوس أورليوس أو ابنه كومودوس (161-180) م.

أظهرت المخطوطات التي وجدت في تدمر أن اسم والد زنوبيا أنطيوخس Antiochus كان اسماً يونانياً، بينما ورد اسمه في سفر (التاريخ الأوغسطي / AH, Aurel.312) الذي يؤرخ لسير بعض الأباطرة الرومان، بأنه أشيلوس/ أخيلوس، وأن من تمشيخ على سورية بعده سمي أنطيوخس⁽¹⁾. ولم يعرف بالتحديد أسلاف زنوبيا القريبين منها زمنياً، إلا أن أسلاف والدها من ناحية أجداده الذكور تعود إلى ستة أجيال منهم: Sempisigeramus سيمييسي-غيراموس⁽²⁾ مؤسس العائلة المالكة في حمص.

وبالإجمال، فللمؤرخين آراء كثيرة عن أصل ونسب⁽³⁾ زنوبيا، فمنهم من ذهب على أنها مصرية أو من أم مصرية وأب عربي، ومنهم من قال أنها من العماليق (آيشهورن)، ومن قال أنها من أصل أدوم من نسل هيرودس (المؤرخ اليهودي كريتس)، ومنهم من ذهب إلى أنها من أب عربي ولكنها من دم مصري من ناحية الأم (رايت وأبردك). ويدعي "التاريخ الأوغسطي- تاريخ الطغاة الثلاثين: 27-30" أن زنوبيا ملكة تدمر في القرن الثالث الميلادي تنحدر من سلالة إليسا وسيميراميس وكليوترا. لكن أكثرهم ذهب مذهب أصلها العربي. وتجتهد بعض الروايات بالقول أن والدة زنوبيا كانت مصرية ربما تنتمي بأصولها القديمة للعائلة البطلمية التي كانت تحكم مصر، وكان آخر ملوكها الملكة المصرية المشهورة كليوترا⁽⁴⁾ (السابعة). من هنا قد يأتي إلزام زنوبيا باللغة المصرية القديمة، وميلها الشديد نحو الثقافة المصرية، وإفترارها بالانتساب إلى الملكة كليوترا. فقد أصدرت زنوبيا أمراً ملكياً⁽⁵⁾ أو مرسوماً امبراطورياً سنة 269 م، بعد احتلالها لمصر، تخاطب فيه مواطني الإسكندرية وتصف المدينة (الإسكندرية) بأنها "مدينة أسلافي"، حيث ظهر هذا الإعلان منسجماً مع ما يهيج لوهب اللات بن زنوبيا. لكن ادعاء زنوبيا لم ينحصر فقط بنسبها إلى كليوترا والعائلة الحمصية المالكة، وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث ادعت بالعودة بهذا النسب إلى الأميرة الفينيقيّة إليسا (ديدو) مؤسسة وملكة قرطاج في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد. كما رأت زنوبيا نفسها في المجلدات التاريخية العشرة عن تاريخ

(1) Zos.1.60.2 -

(2) - عريان شهيد: "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، الصفحات 50-51 (..). في حمص والريسن في وادي العاصي حكمت مجموعة من العرب تحت سلطة سيمييسي غريلموس الذي تحالف مع جاره عزيز إلى الشمال متخذاً في شؤون الأمرين السلوقيين الأخيرتين، حيث كان هذا من ضمن التعاون الدائر بين الأمر العربية الحاكمة في المنطقة في هذا العصر..)

(3) - ربما كان الانتساب زنوبيا إلى سلالات ملكية متعددة يعد نوعاً من سياسة صنع المصادقات، وهذا من أهداف الدعاية السياسية والثقافية والاقتدار. إلا أن جميع المصادر التاريخية لم تذكر ما ذهب إليه زوسيموس من ادعائها بالنسب إلى السلوقيين ومحاولتها تأسيس مملكة هلنستية خارج حدود زمانها؛ من مصر حتى آسيا الصغرى. ويبدو أن نسبها إلى ديدو وسيميراميس روي قصة متحررة من القوود التقليدية تمثلت بالبالغة اللاتينية المتكررة في التاريخ الروماني بمحاولة النسب لكل ما هو عظيم.

(4) - انظر الفصل الرابع، كليوترا من هذا الكتاب.

(5) - التاريخ الأوغسطي.

الاسكندرية، والتي كتبها مؤرخ البتراء كالينيكوس وأهداها إلى كليوبترا. وربما أتى انحدار زونوبيا بأصولها من خلال السلالات الثلاثة الحاكمة البارزة التي مر ذكرها من طرف الأميرة دروسيللا الموريتانية حيث كانت دروسيللا ابنة ملك موريتانية البطلمي وأمها ملكة موريتانيا جوليا يورانيا. ومن المحتمل أن جوليا يورانيا جاءت من العائلة الملكية الحمصية. كما كانت جدة دروسيللا لوالدتها الملكة كليوبترا الثانية سيلين Cleopatra II Selene ملكة على موريتانية، التي كانت ابنة الملكة البطلمية المصرية كليوبترا السابعة من والدها القائد العسكري الروماني الشهير ماركوس أنطونيوس. كما كان جدها لوالدها جوليا الثاني ملكاً على موريتانية، والذي كان ينسب إلى شقيقة أو أخت القائد العسكري القرطاجي الشهير هانيبال⁽¹⁾، إذ أن عائلة هانيبال (آل برقا) تنحدر من طرف الأخ الأصغر للملكة القرطاجية إليسا (ديدو). وهؤلاء جميعاً، ما عدا طرف كليوبترا المصرية، ينحدرون من أصول فينيقية كنعانية.

وصفت زونوبيا⁽²⁾ بجمالها الآخاذ وذكاؤها الحاد وملاحظاتها النافذة، وامتازت ببشرة شديدة الاسمرار كان يشع منها بريق وضاء ساحر، وكانت أسنانها ناصعة البياض مصقوفة كأنها حبات اللؤلؤ، وعيونها شديدة السواد والبياض تشع لمعاً، وذكاء، وكان وجهها بمفئته التناقض والجمال والجاذبية مفعماً بالحياة والبهاء. وقد كانت العادة أن تلف جسمها الرشيق المكروب بأثواب من الحرير القرمزي الألوان والمرصع بالجواهر والحلي. وكان صوتها نقياً معشوق النغمات، وفيه الكثير من السحر والترنيم، لكنه قوي وصارم عندما يقتضي الحال ذلك، كما وصفت بالعفة والنقاء. وكانت قدراتها على الاحتمال النفسي والجسدي تبرز قدرات الرجال؛ صارمة كدكتاتور، كريمة كامبراطور. وكانت تستمتع برياضة الصيد والقنص بمطاردة الأسود والثعور والحيوانات البرية الأخرى في الصحراء بحماسة تضاهي حماسة وجلد وقوة احتمال لم يقدر على تجاوزها إلا الرجال الأشداء. فقد كانت معتادة على تحمل المشاق وهي على صهوة جوادها في الهيئة العسكرية. وكثيراً ما كانت تتقدم الحشود سيراً على الأقدام، ومع كل هذه الأوصاف كانت تتصف بالحكمة والاتزان والحصافة والحلم. وإجمالاً، وصفت زونوبيا بأنها مقدامة كديانا وجميلة كفيثوس⁽³⁾.

أجمعت معظم الروايات والحواليات والمصادر التاريخية والكنسية القديمة على أن ثقافة زونوبيا العالية لم تكن محل شك، إذ كانت تتحدث اليونانية والآرامية والمصرية القديمة وبعض اللاتينية، إلى جانب العربية لفتها الأم. كما اهتمت اهتماماً كبيراً بالتاريخ

(1) - Lucan, Pharsalia 8, 287.

(2) - أشار المؤرخ البريطاني إدوارد غيبون في الصفحة 408 من الجزء الأول من كتابه في اللغة الانكليزية: "The Decline and the Fall of the Roman Empire" / انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية" إلى وصف بوليبي لزونوبيا في "التاريخ الأوغسطي" (Pollio, AH, p.192,198).

(3) - ديانا Diana: أسطورة رومانية قديمة تقول أن ديانا كانت إلهة الصيد والقصص والعفة والأدب. وهي تماثل آرتيميس Artemis عند اليونان. وتقول أسطورة فيثوس بأنها كانت إلهة الحب والجمال عند الرومان، حيث تساهبها أفروديت عند اليونان.

والفلسفة وبأعمال هوميروس وأفلاطون وكتاب يونانيين آخرين. واستقدمت إليها من أثينة لونجينوس الفيلسوف الحمصي الأصل فجعلته معلمها ومستشارها الأول، كما استقدمت أيضاً بولس السيميماطي من أنطاكية.

كانت زنوبيا بديعة الجمال رائدة القسمات أنيقة الهدام، إلا أن جمالها لم يقدها إلى الانسياق وراء رغبات حسية، كما كان حال سابقتها كليوبترا، بل التزمت جانب العفة والطهارة والسمو، فصانته شخصها من الانحدار والسقوط. إلا أنها امتلكت قلباً لا ترعبه الأهوال. وعقلاً طموحاً إلى المعالي والمؤدد، بعيداً عن صفات الأشياء والأمور، حيث جعل هذا التميز والحضور الشخصي والأدبي والفلسفي والإداري منها الشخصية المركزية التي التف حولها الجميع.

العالم الروماني قبل مملكة تدمر⁽¹⁾

اشتد الصراع والحروب بين الطامحين الرومان للانفراد بحكم روما من ناحية، وبين هؤلاء والمطالبين بالعدالة الاجتماعية لتنفيذ الإصلاحات السياسية والاقتصادية. فتم اغتيال ممثلي الشعب الأخوين كراكوس؛ بحيث أدى اغتيال طبريوس سنة 133 ق.م إلى نشوب اضطرابات طبقية، وأعقبه بمسنوات اغتيال شقيقه غايوس في 121 ق.م. شن سولا وماريوس حرباً مشتركة ضد جوغورثا النوميدي بين سنوات (111-105) ق.م. ونشبت الحرب الاجتماعية بين روما وحلفائها بين سنوات (91-89) ق.م، وأعلنت روما الحرب ضد الملك مثریداس الخامس شمال آسية الصغرى بين (89-65) ق.م. وحسم بعدها الخلاف بين ماريوس وسولا سنة 82 ق.م، فاحتل سولا العاصمة روما وأعلن دكتاتوراً، فأعاد الدستور وقام ببعض الإصلاحات. وجاء انتصار بومبيوس في إسبانية سنة 72 ق.م، والقضاء على ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس سنة 71 ق.م، بعودة حزب الشعب إلى السلطة، فيصبح بومبيوس وكراسوس قنصلين. وهكذا تجري الحوادث سراعاً فيتم تشكيل الائتلاف الثلاثي الأول (60-59) ق.م، والذي ضم بومبيوس ويوليوس قيصر وكراسوس، فهاضخ قيصر غاليا، وقتل كراسوس على الجبهة الفارسية سنة 53 ق.م. ويعبر يوليوس قيصر بقواته نهر الروبيكون نحو روما فتتشب الحرب بينه وبين بومبيوس في معركة فارسالوس (49-48) ق.م، والتي توجت بانتصار قيصر وفرار بومبيوس إلى مصر حيث قتل هناك. وهكذا يصبح قيصر دكتاتوراً وحيداً على روما في سنة 48 ق.م، فيتم اغتياله وسط مجلس الشيوخ سنة 44 ق.م، فيتشكل إثر ذلك الائتلاف الثلاثي الثاني سنة 43 ق.م من غايوس أوكتافيوس وماركوس أنطونيوس ولبيديوس للانقسام من قتل قيصر، فتتصر قوات الائتلاف الثلاثي على قوات المتأمرين بقيادة

(1) - انظر لائحة الأباطرة الرومان في هذه الفترة التاريخية، ص 26.

بروتوس وكاسيوس في معركة فيلي سنة 42 ق.م، ليتم بعدها تقاسم حكم البلاد بين أوكتافيوس وأنطونيوس، فيشتد الخلاف فيما بعد بينهما إلى أن حسمه أوكتافيوس بالانتصار على تحالف كليوبترا وأنطونيوس في معركة أكتيوم البحرية (30 ق.م)، فيصعد أوكتافيوس بعدها إلى الأرجوان ويسبغ عليه مجلس الشيوخ لقب الأوغسطس، والامبراطور الأعظم، والكاهن الأعظم، وأبو الأمة.

أعاد أوكتافيوس الاعتبار لمجلس الشيوخ، وأصدر قانون يوليان (جوليان) الذي ينظم شؤون الحياة الاجتماعية للمواطنين وذلك بتعزيز الأخلاق العامة ومحاربة الزنا وتنظيم شؤون الزواج. والأهم إرساءه نظام الحكم الامبراطوري الجديد على أنقاض الحكم الجمهوري القديم، فأصبح أول امبراطور روماني يتبوأ عرش الامبراطورية الرومانية (27 ق.م- 14م).

تأسست الأسرة الامبراطورية الحاكمة الأولى (اليوليو- كلاودية) في روما، والتي بدأها يوليوس قيصر، والذي سقط مضرراً بدمائه وسط مجلس الشيوخ. لكن عصر الامبراطورية الأول بدأ، عملياً، بأوكتافيوس (27 ق.م- 14م) الذي تلاه، ابن زوجته ليويا من زوجها الأول: طبريوس Tibrius، على العرش حتى عام 37 م عند مقتله على يد قائد حرسه الامبراطوري "ماكرو"⁽¹⁾. وقد كان طبريوس حاكماً كفؤاً إلا أنه لم يكن محبوباً. فخلفه كاليجولا الذي اتهم بالاختلال العقلي، إذ كان عقله يتنقح عن فتون رهيبة في التعذيب والاستبداد والتصرفات الغريبة والغرائز الجنسية، فكرهته الرعية كرهاً شديداً، وكان هو نفسه يشير إلى ذلك بقوله: "فليكرهوني، شريطة أن يخافوني". واغتاله، بعد أربع سنوات، أحد أفراد الحرس الامبراطوري. فخلفه كلاوديوس Claudius الذي استمر من عام 41 إلى 54، فاحتل بريطانيا، وأظهر حكمة سياسية رغم تردده وضعفه أمام زوجاته، ومات مسموماً على يد آخرهن "أغريبا". قتلاه نيرو/ نيرون Nero (54- 58) م، حيث اشتد الصراع بينه وبين مجلس الشيوخ معقل ملاك الأراضي والعقارات. وقد اتهم بالنفسيان والجنون معاً، فأشعل النار في روما وأخذ يتفرج عليها. انتحر أو نُحر لا فرق. وكان الخامس والأخير في السلالة الامبراطورية الأولى: السلالة اليوليو- كلاودية (27 ق.م- 68 م)، وقد جسدت هذه السلالة الأرستقراطية وطبقة النبلاء الرومان.

جاءت الفترة الانتقالية بعد انتحار نيرون (68- 69) م، بتولي السلطة ثلاثة أباطرة: القائد العسكري جاليا الذي حكم لمدة سبعة أشهر قبل اغتياله من بعض أنصاره. تلاه أوتون الذي انتحر بعد خمسة وتسعين يوماً من جلوسه على العرش، فخلفه ويتيلوس الذي حكم لأشهر قليلة، وقضى على يد القوغاء.

جاء واسبسيانوس Vespasianus في نفس العام الذي سقط فيه أباطرة الفترة الانتقالية فاتحاً الطريق أمام السلالة الفلاوية (السلالة الثانية)، التي مثلت الروح

⁽¹⁾ - المؤرخان: سوتونيوس (69- 125) م، وتاكيتوس (55- 120) م.

البرجوازية الإيطالية-الرومانية وطبقة الفرسان. واستمر حكمه حتى سنة 79م. وكان قد كلفه نيرون بقمع حركات التمرد ضد السلطة الرومانية، فأخمد حركة التمرد اليهودية في فلسطين، وبدأ بالسيطرة على الولايات الشرقية حاملاً علم بموت نيرون ونشوب الفتن والحرب الأهلية، فأمر بقطع الإمدادات عن روما حتى يتسنى له التغلب على منافسيه، فأعلنته الفرق الرومانية العسكرية في مصر امبراطوراً. قام بإصلاحات مالية وعسكرية وبدأ بإنشاء المباني العامة الضخمة التي كان من أهمها الكلوسيوم. وخلفه ابنه تيطوس (79-81). وخلف دوميتيانوس بعد أخيه تيطوس حتى 96م، فبني الأسوار الدفاعية على الجانب الألماني من الدانوب. واشتهر بحزمه وبمركزيته الصارمة، إلا أن فترته انتهت بالإرهاب، فاتهم بالاستبداد، وكانت زوجته من ضمن المتآمرين على اغتياله.

جاءت السلالة الثالثة (السلالة الأنطونية) ⁽¹⁾، التي حكمت من 96 حتى 192م. وسميت هذه الفترة تاريخياً "القرن الذهبي للإمبراطورية الرومانية"، وسميت أيضاً "سلالة السلام الروماني Pax Romana"، والتي بدأها الامبراطور ماركوس كوكايوس نيروا Marcus Cocceius Nerva، والذي كان شيخاً مسناً في مجلس الشيوخ الروماني، فأعاد الحكم الدستوري والليبرالي في أعقاب حكم سلفه دوميتيانوس الذي انصف حكمه بالأتوقراطية والاستبداد. فعُكِمَ نيرفا بالتوافق مع مجلس الشيوخ، وأوصى قبل موته لتراجان/تريانوس، الذي تولى سنة 98 م، واشتهر بإنجازاته العامة، وقضى على التمرد في داكية، وألحقها بالإمبراطورية، كما احتل مملكة الأنباط وعاصمتها البتراء، وأطلق عليها اسم "ولاية العربية Provincia Arabia" وجعل عاصمتها بصرى. وفي عام 117م، وقبل موته، أخذ تراجيانوس موافقة مجلس الشيوخ على تعيين مندوبه الامبراطوري على سورية هادريانوس Hadrianus خلفاً له على العرش. وكان هادريانوس من أصول أيبيرية كترايانوس. فطاف بأنحاء الولايات وعزز جميع حدود الامبراطورية، وأقام "سور هادريان" وسط بريطانيا لصد هجمات الاسكوتلنديين، وزار تدمر. ويقول بعض المؤرخين العرب أن تراجيانوس وهادريانوس كانا من أصول عربية من ناحية أمهما ⁽²⁾، لكن ذلك يحتاج إلى أدلة تاريخية موثقة. خلف هادريانوس، بعد موته في عام 138م، أنطونيوس التقي الذي استمر امبراطوراً إلى 161م، وكان من أصول رومانية، وحظيت فترة حكمه بالهدوء على معظم حدود الامبراطورية. اعتبر التقي امبراطوراً وحاكماً مدنياً بامتياز، فكان حكيماً وحليماً وتقياً، ومن هنا جاءت تسميته بالتقي، ومن اسمه أيضاً جاءت تسمية السلالة الأنطونية التي حكمت الامبراطورية الرومانية لمدة مائة عام تقريباً. وقضى مرقس أنطونينوس Marcus Aurelius Antoninus Augustus فترة حكمه الممتدة من 161 إلى 180م في حروب طاحنة ضد هجمات قبائل البرابرة الألمان، وضد البرثيين على الحدود

(1) - نسبة إلى حكم الإمبراطور الرومان Antoninus Pius أنطونين/ أنطونيوس التقي وماركوس أوريليوس.
(2) - ربما ترجع أصولهما من ناحية الأم - إن صح ذلك - إلى الوجود القرطاجي في شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الميلاد؟
انظر الفصل الثالث: إلهام ملكة قرطاج - غزو إسبانية وحروب هانيبل.

الشرقية، وشاركه ابنه كومودوس الحكم من 177 إلى 180م. وكان التقى شديد التأثير بالفلسفة الرواقية، ومتأملاً في مذاهبها. خلفه بعد موته ابنه كومودوس من عام 180 إلى 192م، والذي كان على النقيض من والده، سريع الغضب، ومجالداً في حلبات المصارعة، وممروفاً بشذوذه الجنسي. وقتل على يد الحرس الامبراطوري. فخلفه بريتانكس لأشهر، والذي قتل بدوره على يد الجند، ليخلفه بعد ذلك ديدايوس يوليانيوس الذي قضى عليه مؤسس السلالة السورية سبتيميوس سيفيروس.

استهل حكم الأسرة السورية - من الأباطرة الرومان - بالقائد سبتيميوس سيفيروس (ساويروس)، وذلك بعد اغتيال ديدايوس يوليانيوس سنة 193م. واستمر حكم هذه الأسرة من عام 193 إلى 235. ولد مؤسس حكم الأسرة سنة 146م في ليبس ماغنا (لبدة الليبية حالياً) على الساحل الليبي. وتزوج من جوليا دومنا ابنة كاهن إله الشمس الحمصي لإغابالوس. ومنح مدينة تدمر مرتبة المستعمرة الرومانية، وأدخل العديد من الإصلاحات على الإدارة الامبراطورية وعلى الجيش الروماني، وقاد حملة عسكرية على بريطانيا سنة 208 لإخماد التمرد في شمال البلاد، ومات في مقاطعة يورك في سنة 211م، ليخلفه ابنه كراكلا امبراطوراً حتى مقتله سنة 217. وأصدر كراكلا سنة 212 م مرسوم المواطنة (مرسوم كراكلا) Constitutio Antoniniana، الذي منح حق المواطنة الرومانية لجميع الرعايا الأحرار في الامبراطورية. وبمساعدة جدته جوليا ميسا، بعد أن قضى على قائد الحرس، أصبح لإغابالوس باسيانوس امبراطوراً (218-222)، واتخذ اسمه من إله الشمس القينقي- الحمصي "إله الجبل"، لأنه كان يقوم بدور كاهن هذا الإله. وقتله الحرس الامبراطوري مع والدته، فخلفه ابن خالته جوليا ماميا اسكندر سيفيروس سنة 222 م، فأعاد إلى مجلس الشيوخ مشاركته في الموافقة على جميع القرارات والمراسيم. وكان اسكندر سيفيروس متسامحاً مع المسيحيين والدعوة المسيحية. قتله الجند سنة 235 م. وبذلك انتهى حكم الأباطرة السوريين الذي حكموا روما لمدة 42 عاماً.

بدأ تسارع الأزمات، فانتشرت الفوضى والقلق في كثير من أنحاء الولايات الرومانية، وبدأت تجمعات قبائل البرابرة القوط والجرمان بشن هجماتها العنيفة في الغرب ضد سلطة روما المركزية، وهي تواجه الخطر الفارسي على حدودها الشرقية، فظهر الوهن على مركزية النظام الامبراطوري في روما. وبدأ تاريخياً ما سمي "الأزمة الامبراطورية الرومانية": أزمة القرن الثالث. وقد تناول هذه الفترة وما بعدها بالدراسة والتحقيق والتحليل العديد من علماء التاريخ⁽¹⁾ الغربيين الذين عدوها من أسباب الانحدار الروماني.

(1) Edward Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire / انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية، الذي صدرت مجلداته الإثني عشر بين الأعوام (1767-1788)، وتمت مراجعتها سنة 1845.

بإنهاء حكم الأسرة السورية بمقتل آخر أباطرتها، صعد مكسيمينوس الأول^(١) لي
العرش سنة 235، وكان من أصول بريرية قوطية، فبقي عليه إلى 238م حيث جاء بعده
الغوردريان الثلاثة^٢ الذين حملوا الاسم نفسه؛ فأعلن غورديانوس الأول، الملقب بالأفريقي
Africanus، امبراطوراً سنة 238 م، فأشرك ابنه غورديانوس الثاني في الحكم، لكنهما
قتلا بعد وقت قصير في معركة نوميديا في الجزائر، فخلعهما غورديانوس الثالث ابن
الأول، والذي عين فيليب العربي قائداً لحرسه الامبراطوري. وقتل سنة 244م على
الجبهة الفارسية من قبل جنوده الذين تمردوا عليه مطالبين برجل يقوم على قيادتهم،
وليس ياهماً غراً، إذ أنه كان صغير السن وضعيف الشخصية وقليل الخبرة، فانتشرت
الفوضى في صفوف الجيش إلى أن حسم الجند الأمر بإعلان فيليب العربي^(٢) امبراطوراً
على روما، وهو مازال على جبهة القتال الشرقية، فاعتترف به مجلس الشيوخ، فعقد
صلحاً مع شابور الأول ملك الساسانيين الفرس، وعاد إلى روما بطريق البحر مروراً
بأنطاكية. وقد اتهم بعض المؤرخين الغربيين فيليب بالتآمر على قتل غورديانوس
(غوردريان)، إلا أنه لا توجد دلائل مادية على دعم هذا الاتهام.

تولى فيليب العربي (الحوراني) على العرش الروماني من سنة 244 إلى 249م،
فأعاد الاعتبار لمجلس الشيوخ. وأشرف على الاحتفال الأسطوري الوثني بمرور ألف عام
على تأسيس روما. وشهد عهده تسامحاً وليناً مع المسيحية والمسيحيين إلى حد أن اعتبره
بعض المؤرخين أول امبراطور روماني مسيحي^(٣). وقام فيليب بإصلاحات عامة اجتماعية
واقتصادية وأمنية. وقُتل مع ابنه فيليب الثاني^(٤) في معركة "فيرونا" خريف 249، وهو
يقاقل دكيوس، الذي أعلنه الجند امبراطوراً، حيث شن حملة اضطهاد منهجية عنيفة ضد
المسيحية والمسيحيين في أنحاء الامبراطورية في فترة حكمه التي استمرت حتى 251م،
اعتقاداً منه أن الديانة الجديدة كانت من أهم أسباب الانحدار الروماني.

تعتبر فترة الأزمة الامبراطورية التي مرت بها روما بعد الاسكندر سيفيروس وحتى
ديوقليتيانوس أزمة عنيفة من الفوضى والحرب الأهلية، والغارات التي شنها البرابرة

(١) - د. محمد محفل، تمثيق: الأسطورة والتاريخ، ص 205.

(٢) - ولد فيليب العربي Philip the Arab (ماركوس يوليوس فيليبوس) في حزيران عام 200 م لأب كان أحد شيوخ
العرب الأنباط. خدم فيليبوس العربي في الجيش الروماني وتدرج فيه إلى أن عين قائداً للحرس الامبراطوري في امم
243 م.

(٣) - دار سجل شديد بين الكثير من المؤرخين الغربيين، كديمأ وحنينا، حول مسيحية الامبراطور فيليب العربي؛ فمن
قائل أنه لم يؤمن بالمسيحية، بل بقي على وثنيته، ودليلهم في ذلك إشرافه على الاحتفال الأسطوري الروماني بمناسبة
العهد الألفي لتأسيس مدينة روما، إلى قتل أنه الامبراطور الأول الذي تسامح مع المسيحية والمسيحيين كونه نشأ في
الشرق مهبط الديانة، وأن المسيحية ليست غريبة عليه، إلى رأي ثالث يقول بأنه آمن بالمسيحية، وكان الامبراطور
المسيحي الأول، وليس قسطنطين الكبير الذي يحده الغرب الامبراطور المسيحي الأول والمؤسس الرسمي للديانة
المسيحية الغربية. ويمكن الرجوع إلى عرفان شهيد في دراسته لمسيحية فيليب بتفصيل مدروس وثائقي في فصله السادس
من كتاب "روما والغرب"، دار دومبارتن لويس الأمريكية، ترجمة كاسم محمد سويدان، دار كيوان بدمشق.

(٤) - تؤكد المصادر أن فيليب قتل في معركة "فيرونا". وتقول بعض المصادر أن ابنه فيليب الثاني قتل وهو يقاقل معه
في المعركة، في حين يؤكد بعضها الآخر أنه قتل في روما من قبل الحرس الامبراطوري.

المتوردون الألمان والغالين، وحركات التمرد طلباً للاستقلال، والحملات الفارسية المتعددة على ولايات الامبراطورية الشرقية، والاختلالات والحكام العسكريين الفرديين الطغاة، الذي ما إن يستقر الواحد منهم حتى ينتهي بالاغتيال، وخاصة، بعد الفترة التي تلت الاحتفال الألفي لتأسيس روما في عام 248 م وحتى موت غالينوس سنة 268 م. أضافت تدمر، يطموحها واستقلاليتها وتوسيع رقعة مملكتها من دجلة شرقاً حتى مصر غرباً وأنطاكية شمالاً، شرخاً كبيراً آخر إضافة إلى الشروخ المتعددة التي ذكرنا. وكادت هذه الأزمات المستمرة تقريباً أن تطيح بالصرح الروماني العظيم في تلك الفترة. وقد تعاقب على حكم فترة الأزمة الامبراطورية هذه سلسلة من الأباطرة الرومان، هم: فيليب العربي، دكيوس، غالوس، أميليانوس، فاليريانوس، غالينوس، كلاوديوس، أورليانوس، تاركيتوس، برويوس، كاروس وولديه، ديوقلتيانوس والمتحالفين معه: ماكسيميان، غاليريوس، وقسطنطين. وعدت الفترة التي بدأها ديوقلتيانوس فترة استعادة جديدة لروح الامبراطورية.

العالم الفارسي ومملكة تدمر⁽¹⁾

حكمت السلالة الأخمينية فارس بداية من 553 ق م وحتى 332 ق م، تاريخ سقوط الامبراطورية الفارسية على يد الأسكندر المقدوني عند احتلاله لمعظم أجزاء الشرق القديم، والذي استمر بحكم إيران لعشرات السنين. وقد بدأ حكم الأخمينيين بالمؤسس سايروس الأول، وانتهى بداريوس الثالث Darius III، الذي انهزم أمام الأسكندر الأكبر. انبعث الحكم الفارسي مجدداً بقيادة البرثيين، وذلك بعد الاحتلال الإغريقي بزمان طويل نسبياً، إذ أسسوا حكمهم بدايةً من 250 ق م إلى 226 م، وحكموا امبراطورية امتدت حدودها من الفرات حتى الأندوس (نهر السند) المنحدر من هضبة التبت ماراً بكشمير والباكستان إلى بحر العرب.

وجاء الساسانيون إلى الحكم في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الميلادي (226م)، إذ اندلعت ثورة قادها الكاهن الزرادشتي الفارسي ساسان سنة 220 م، ونجح في بسط نفوذه على أجزاء كثيرة من المملكة البرثية. وقد تمكن أردشير الأول من هزيمة خصمه أرطبان الخامس آخر ملوك السلالة البرثية سنة 226 م. واستمر الساسانيون في الحكم حتى الفتح العربي الإسلامي لكامل بلاد فارس سنة 651.

ويعد "ساسان" الجد الأول لأردشير. وتم تصليب أردشير الأول سنة 226 م في العاصمة طيسفون (المدائن)، فسمى نفسه ملك الملوك (شاهنشاه). وتعد الفترة الأولى التي بدأ الساسانيون يشقون طريقهم نحو الحكم غير معروفة التفاصيل، لأن المعلومات

(1) - انظر لاحقي الأباطرة الرومان والقرن في التمهيد التاريخي، الصفحة 25 وما بعدها ...

المتوفرة مشتقة ومتناقضة المصادر عندما وجه أردشير قادة جيوشه نحو أرمينية وأعالى بلاد الرافدين بوقت واحد، فاحتل بين النهرين (ميزوبوتاميا) سنة 230. ورداً على ذلك الهجوم توجه الإمبراطور الروماني اسكندر سيفيروس سنة 231 نحو آسية الصغرى، واتخذ من أنطاكية قاعدة لنشاطه العسكري ضد الفرس، وحاول حل النزاع بين الطرفين بالطرق الدبلوماسية إلا أن أردشير رفض العرض. لذلك وضع الرومان فيالقهم العسكرية المهاجمة على ثلاثة جبهات؛ إلى أرمينية، وإلى الفرات وبابل، والثالثة لمهاجمة المناطق الفارسية مباشرة، فتجح باجبار الفرس على التراجع إلى ما وراء الفرات الذي صار الحد الذي يفصل بين الطرفين.

وعاد سيفيروس إلى روما سنة 233 م ليحتفل بانتصاره على الفرس باسترداده للمناطق الشرقية التي كان احتلها أردشير الأول. وخلف شابور الأول والده أردشير في 240/241 م. حيث أعلنت أرمينية وحران التمرد والعصيان بعد موت أردشير. غير أنه تم سحق تمرد أرمينية بسرعة وسهولة. ولكن الأرمن لم يسعوا لتحرير بلادهم إلا بعد سنوات عديدة. بينما احتملت حران الحصار الذي ضربه الفرس لمناعة أسوارها ولأن الفرس لم يكونوا على دراية عسكرية كافية لإدارة حروب المدن ذات الأسوار المنيع. وحسب سياق الأسطورة⁽¹⁾: "تمكن شابور من فتح المدينة بمساعدة ابنة ملكها (النضيرة). التي كانت تخطط للزواج منه، إذ حصلت على وعده بالزواج منها إن هي ساعدته على اختراق أسوار المدينة المحاصرة. وهذا ما تم فعلاً، حيث استسلمت المدينة".

(1) - نقل أبو سعيد الحميري في "الحر العين"، تحقيق كمال مصطفى، ص 351، عن اليربوعي رواية منقوطة حران على يد شابور ذي الأكتاف، حيث كان ملكها الضيزين بن معاوية، قال: ثم كان أهل الحضر (يقصد حران حيث ساءها حاضرة الموصل عند التأليف في القرن السادس) من بعد (السايطون ابن لعلطون ملك السريانيين) تنوخ؛ ومعهم: بنو مالك بن فهم بن أمد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وسليخ بن عمرو بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، ويزيد، وحيذان بنو عمرو بن الحاف بن قضاعة. فغزاهم سابور ذو الأكتاف بن هرمز الملك الفارسي. وملكهم يميئز الضيزين؛ فحاصرههم سابور، فلم يقدر عليهم لامتناع حصونهم، حتى أشرفت النضيرة بنت الضيزين يوماً من الحصن فرأت سابور فحشقه؛ فأرسلت إليه إن كنت ضمنت لي أن تزوجني وتقدمني على نسائك دللتك على فتح هذا الحصن، فأجابها سابور إلى ذلك، فأرسلت له إن كنت ضمنت لي أن تزوجني وتقدمني على نسائك الماء، ثم اتبع ذلك الثمن، فأدخل الرجال في الموضع الذي يرغب فيه الثمن، فدخلت إلى الحصن، ففعل سابور ذلك؛ وصعدت النضيرة فأسكرت أباهاء، وأرسلت إلى سابور أن أدخل الليلة، فأدخل سابور الرجال من ذلك السرب، فظفر بالحصن، وقتل أهله، ودعا بالنضيرة فبات معهما بها، فجمعت تتعلم على الفرائس ساهرة؛ فقال لها سابور: مالي أراك مسهدة؟ فقالت: جنبي يتجالي من فرثك هذا!! قال: ولما؟ ففراها ما نامت الملوك على أوطأ منه ولا ابن، وإن خشه زربع النعام!! فلما أصبح نظر فلاناً ورقة أس بين غصنيتين من غصنها، فسأل موضعها دماً؛ فقال لها: ثم كان أبوك وعذرك؟ فقالت: بآلتي والمخ والشهد، وصغر للضر!! فقال سابور: إذا لم تصلحي لأبوك، وكانت هذه حالك عندهما؛ فأنت أجدر ألا تصلحي لي، وما ينبغي لي أن أمك، ولا ألق بك؛ فأمر بها فشدت ذرايعها بين فرسين ثم خلى عليها ققطعاها، وقد تكررت ذلك الشجرة: أبو داود الأندلسي، الأعشى، وعدي بن زيد، وغيرهم. حيث قال أبو داود:

ألم يحزنك والأبناء شلى	بما لاهت سراًة بني العبد
ومقتل ضيوزن ويدي أبيه	وأخلص القتل من يزيدي
أتاهم بالخيول مجلات	وبالأبطال سابور الجند
فهم من يروج الحضر مسخراً	كان قتلة زُر الحديد

صمم شابور على أن يكمل مشروع والده الجريء بتوسيع دائرة ملكه، وذلك بشن الحرب ضد الولايات الرومانية الشرقية بقصد احتلالها وضمها إلى ملكه⁽¹⁾، حيث اعتقد أن الفوضى والارتباك الذين سادا الامبراطورية الرومانية يقدمان له فرصة ذهبية للفوز، خاصة أن الامبراطور الروماني اسكندر سيفيروس قتل على يد ماكسيموس ثراكس⁽²⁾ الذي حكم روما بطريقة همجية. حيث انتفض الرومان ضده بعد ثلاث سنوات من المعاناة الشديدة، وأغتالوه، فأعلن بعده امبراطوران لفترة قصيرة، تبعها انتخاب مجلس الشيوخ لاثنتين أخريين هما: غورديان الأول وولده غورديان الثاني، ثم تبعهما إعلان غورديان الثالث امبراطوراً بعد أن قتل في معركة "نوميديا". فرأى شابور حينها أن غورديان الثالث لن يكون قادراً على مواجهته نصفر سنه (15 عاماً) ولعدم خبرته. لذلك أسرع شابور بالعمل على تنفيذ خطته قبل فوات الأوان، فاجتاز دجلة بقواته وهاجم المستعمرة الرومانية نصيبين Nisibis (جنوب شرق تركيا)، ففتحتها رغم قوة ومناة دفاعاتها، واستمر في زحفه إلى حران وإديسا، وهاجاً عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية أنطاكية بدخوله إليها.

أظهر الرومان تصميماً وإعداداً جيدين لم يكن متوقعاً منهم في تلك الفترة، حيث قاد غورديان الثالث الحملة ضد شابور بجيش ضخم بإشراف قائد الحرس الامبراطوري تيمسثيوس الذي تزوج غورديان من ابنته حديثاً، فاستعاد غورديان أنطاكية وعبر الفرات نحو الشرق واستعاد حران Hatra وهزم شابور عند رأس العين Resaina سنة 243، ثم استعاد نصيبين، وتقدم بقواته خلف سلسلة التراجعات الفارسية، فعسكرت قواته على ضفاف دجلة وأقامت حاميات عسكرية في عدد من مدن ما بين النهرين، فأصبحت طيسفون (المدائن) العاصمة الغربية للساسانيين تحت تهديد القوات الرومانية. فرأى غورديان حينها أن قائد جيشه يستطيع إحراز انتصارات أخرى، فكتب إلى مجلس الشيوخ بروما للموافقة على استمرار الزحف لما وراء دجلة. لكن المرض أو ربما الاغتيال عجل بنهايته، ولم يستطع الرومان تحقيق انتصار يذكر بعد موته.

مات غورديان الثالث بسبب المرض أو الاغتيال - المصادر التاريخية - خلال العمليات الفارسية المعاكسة ضد الفيالق الرومانية، حيث ثار الجند الرومان بعد انسحابهم فقتلوا غورديان، وأعلنوا فيليب العربي قائد الحرس امبراطوراً. فهدد فيليب معاهدة صلح مع شابور بأن تركت أرمينية للفرس، وأعيد بين النهرين لروما. وترك فيليب الشرق مسرعاً إلى روما ماراً بطريقه في أنطاكية.

(1) - استطاع الساسانيون توسيع ملكهم نحو الشرق بشكل كبير، حيث ضمت إمبراطوريتهم: فارس، أذربيجان، أفغانستان، العراق، أرمينية، جنوب القوقاز بما فيه وسط جنوب آسيا، أجزاء من تركيا وسورية، بعض من سواحل شبه الجزيرة العربية، وبعض من أجزاء باكستان الشمالية الغربية. وقد شهدت فترة الحكم الساساني إنجازات حضارية هامة أثرت بشكل مهم على الحضارات للرومانية والهندية والصينية والأفريقية، ولعبت دوراً مهماً في تشكيل الفنون الأوربية والآسيوية في العصر الوسيط.

(2) - أصله من تراقية / ثرايس Thrace، وهي بلاد قديمة تقع إلى الغرب من البحر الأسود والشمال من أيجيه. وهي تتوزع الآن بين تركيا واليونان وبلغارية.

افتعل شابور- الذي عايش ستة أباطرة رومان ضعاف خلال فترته: قتل أربعة منهم بطريقة عنيفة، واستمرت غارات القبائل البربرية الغريبة حول الدانوب مهددين بوضع نهاية للإمبراطورية- الحرب مع روما بعد سنوات قليلة من توقيع المعاهدة، فقام بحملة لاحتلال ما يستطيع من المناطق الرومانية الشرقية، فهزم الرومان في (1) Barbalissos سنة 252، وأخذ أنطاكية، وكانت الحرب بين الفرس والرومان خلال هذه الفترة تزداد اشتعالاً وخفوتاً واشتعالاً، فتقدم القوات الساسانية ثم تتراجع أمام الاندفاع الروماني، وهكذا دواليك. واستمرت الحرب بينهما من عام 229 إلى 232 خلال عهد أردشير، بينما شهدت ولاية شابور سلسلتين من الحروب: الأولى بين 241 و 244 م، والثانية بين 242 و 261 م.

قام شابور سنة 258 بحملة جديدة، فهاجم الولايات الرومانية الشرقية، ودخل ميزوبوتاميا، واحتل حران ونصيبين واديسا (الرها)، وعبر الفرات، وهاجاً أنطاكية مرة أخرى باحتلالها، وأخذ أسقفها إلى بلاده، وأسر عشرات الآلاف من الجنود الرومان. فأسرع الإمبراطور الروماني واليريانوس Valerianus على رأس جيشه لاستعادة الولايات الشرقية وحمايتها، فتمكن في البداية من تحقيق بعض النجاح، وذلك باستعادة أنطاكية وجعلها مركز عملياته. لكن رياحه تغيرت بعد أن أسند مهمة العمليات الأساسية لقائد حرسه ماكريانوس، الذي كان يثق بولائه ومؤهلاته. لكن ماكريانوس كان قد عقد العزم على أن يكون الإمبراطور القادم، لذلك عمد إلى وضع العراقيل والصعوبات في طريق نجاح واليريانوس المسن، فحُشِر الجيش الروماني بوضع لا يستطيع الانسحاب بالرغم من محاولاته المستميتة لاختراق خطوط العدو، فأصبح استسلامه مسألة وقت، فبدأت المجاعة والأمراض تحصد الجند. فوجد واليريانوس نفسه مجبراً على عرض معاهدة سلام على شابور مقابل كمية هائلة من الذهب، لكن شابور الذي كان واثقاً من نصره، رفض العرض وانتظر ليتم إنهاك عدوه تماماً. ثم دعاه لعقد مؤتمر لبحث الاتفاق، وقام بأسره عند حضوره. فاستسلمت الفياق الرومانية، وتشتت شمل الباقي (2)، واستبيح الكثير من المدن.

سار ماكريانوس، بعد أن ادعى العرش، ببقية الحشود الرومانية ضد غالينوس الذي كان قد تركه والده فاليريان في الغرب لإدارة الحكم. ولجعل الأمور صعبة على الإدارة الإمبراطورية الرومانية، قام شابور (3) بتنصيب مريادس أحد رعايا أنطاكية بجعله فيصراً في الشرق يدعي ملك الإمبراطورية.

(1) - باراليسوس هي الامم القديم لبلدة مسكنة إحدى ضواحي مدينة حمص السورية - المحقق.

(2) - أظهرت مخطوطات ونقوش شابور Inscription of Shapur أسره لسبعين لئناً.

(3) - احتل شابور بانتصاره بنقشه على جدار صخري هائل (نقش رستم Nagash-Rustam)، ويوجد في مدينة بيشابور Bishapur رموز تخلد هذه الانتصارات، إضافة إلى النقوش التذكارية باللغتين الفارسية واليونانية في مدينة بيرسيبوليس Persepolis، وهي مدينة إيرانية قديمة تقع إلى الشمال الشرقي من شيراز، وقد وجد في خرابتها الكثير من الأكنز والكتابات المعمارية القديمة التي تتحدث عن العلاميين والأكديين.

ترك احتلال الرُّها الطريق مفتوحاً أمام شابور لاحتلال كامل أسيّة الرومانية، إذ لم يترك هذه الفرصة تقوته، فعبر الفرات واحتل أنطاكية من جديد، فهرب قسم من السكان، ورحبت الغالبية التي لم تغادر بالفتاحين. واستمرت الجحافل الساسانية بالاندفاع نحو أناضولية، فاستولت على كبادوكية وممرات طوروس، والمدن الواقعة على طريق تقدم القوات، والتي لم تكن تحتفظ بدفاعات رومانية قوية، فاحتل قيصرية التي كانت من أهم هذه المدن رغم مقاومتها بقيادة حاكمها الروماني ديموستين. فأصبحت أسيّة الصغرى الآن مفتحة الأبواب أمام شابور. وبدأ من الصعب فهم لماذا لم يحاول شابور الاندفاع إلى الأمام. وقد اضطر في النهاية إلى الانسحاب والتراجع بعد هزيمته أمام التحالف الروماني- التدمري. وكانت نتيجة المعركة، التي أبلى فيها أذينة وجيشه بلاءً عظيماً، أن تمكن من أسر حريم شابور، واستعاد الأراضي التي كان شابور قد احتلها. فأسبغ الرومان على أذينة "لقب ملك وحامي الشرق ومستعبد". وهكذا، حافظت الحروب على سعارها بين الطرفين على طول الجبهات المشتركة بينهما، بين كَر وهر، ما أن تخبو حتى تستمر من جديد، إلى أن انتهت بالفتح العربي الإسلامي في النصف الأول من القرن السابع، ليبدأ فصل جديد في رسم السياسات العالمية، بعدما أصبح العرب المسلمون فيه سادة العالم الجديد.

ويمكن تلخيص حملات شابور الكبير (الأول) ضد الرومان بثلاث:

- 1- الحملة الأولى: لاحتلال بلاد الرافدين، قتل فيها الإمبراطور غورديان الثالث سنة 244 م، وحل فيها فيليب العربي محله، فعقد صلحاً مؤقتاً مع شابور.
- 2- الحملة الثانية: بدأها شابور سنة 252، واستمرت حتى العام التالي، واستولى فيها على أنطاكية والعديد من المدن السورية على مجرى نهر العاصي. وتحدثنا حوليات مللاس عن نهاية هذه الحملة: "حشد وقاد كاهن إله الشمس الحمصي سمسي-غيراموس⁽¹⁾ جموع الفلاحين والسكان إلى جانب جيش أذينة فتصدوا لشابور الذي كان قاب قوسين أو أدنى من هزيمة الرومان، وهزمه شر هزيمة، واستولى أذينة على غنائمه وأسر حريمه، فانهزم شابور مصرعاً بعبور الفرات". ويعتقد أن تحالف أذينة مع الرومان ضد شابور قد جاء نتيجة رد الفعل المكابر والعنيف من شابور على وقد أذينة لعقد تحالف أو صداقة معه.

- 3- الحملة الثالثة: تمكن فيها شابور من أسر الإمبراطور الروماني فاليريانوس (فاليريان) سنة 260 م، وتمكن فيها أذينة من ضرب حصار على طيسفون (المدائن) مرتين؛ الأول سنة 262، والثاني بين عامي 266-267 م.

(1) - كان سمسي غيراموس كاهن معبد إله الشمس وملك حمص (إمسين) (أورتيوس ميغروس أنطونيوس، وبالآرامية شمسي غيرام الذي يعني إله الشمس؟).

نشوء مملكة تدمر بين الجبارين

عندما كان الرومان والفرس، في القرن الثالث الميلادي، يعيشان مواجهات عسكرية متواصلة تقريبا، تنقضي بين كبر وفر وتقدم وتراجع، ضم واسترجاع، على جبهات القتال، ما أن تهدأ حتى تبدأ من جديد، حقق الفرس اليد الطولى فب المراحل الأولى من القتال، في الوقت الذي كانت فيه روما تقع في فوضى الحروب الأهلية، وكان أباطرتها يسقطون بالسكاكين الطويلة بسبب صراعهم على العرش، كانت تدمر قد بدأت تثبت وجودها وذاتها من خلال معرفتها ما كانت تريد.

في هذه الأثناء تزوج أذينة من ابنة عمه زنوبيا، الجميلة والذكية، فوجد خلف جمالها وجمال عينيها إرادة من حديد، حيث أثبتت سريعا قدرتها على الانتقال من وظيفة الزوجة الملكية إلى المشاركة الحقيقية في صناعة سياسات الدولة الجديدة، ومن ثم الوصاية على ابنها بعد وفاة زوجها، لتصبح صاحبة السلطة الملكية المطلقة في عموم سورية ومصر ومعظم آسيا الصغرى.

تميزت زنوبيا⁽¹⁾ بقدرات احتمال جسدية عظيمة مع جمال ساحر أخاذ، وثقافة عالية، وعفة وطهارة، وطموح لا يحد. بحيث وصفها "التاريخ الأوغسطي/تاريخ سير الأباطرة الرومان" بما يلي: "كانت امرأة عفيفة إلى درجة أنها كانت تعاشر زوجها طلبا للإنجاب وليس للمسرة" وكانت تظهر أمام جنودها بزي الأباطرة الرومان والخوذة على رأسها وهي ترتدي الثياب الأرجوانية الموشاة بالجواهر وهي تربط خصرها بعقد من الأحجار الكريمة على شكل هندسي حلزوني، بينما تبدو ذراعها عاريتان. وكانت بشرتها حنطية مضروبة بسمرة شديدة الجاذبية، وعينيها واسعتان يشع منهما بريق وضياء. وتمتعت بذكاء إلهي خارق ويفطنة مدهشة. وتظهر أسنانها بيضاء بحيث يظنها الرائي لؤلؤا وليست أسنانا. وكان صوتها واضحا يحمل نبرة الرجال، فكانت صارمة في موضع الحزم، وإنسانية في موضع اللين. وكانت سيدة فطنة ومطاعة. وقد كانت تستخدم عند ركوها عربة حربية من عجلتين وأحيانا من أربعة. لكنها على الغالب كانت تمتطي جوادا، أو تسير مع جيشها ورجالها على الأقدام لمسافات طويلة، كما أنها كانت تهوى رياضة الصيد والقنص، وكانت تشارك ضيوفها المائدة... "إلا أن تاريخ هذه الفترة، الذي كتبه المؤرخون اليونان والرومان، لم يشفع لكل ما أنجزته، حيث وضعوها في موضع الشك والاتهام بالخيانة في مقتل زوجها، ويعد نقص التفاصيل في السنوات التاريخية

(1) - ذكر أحمد حسين في "موسوعة تاريخ مصر"، ج1، ص 296، التالي: "يصف المؤرخون أن زنوبيا كانت سمرام هفاه ذات أسنان لؤلؤية وعيون جللاء، وكان صوتها قويا وموسيقيا في الوقت نفسه، وكانت تجيد التكلم باليونانية والسريانية والعبرية، وتقدم اللاتينية، وكانت محبة للدراسات الأدبية والفلسفية، وتحب الرياضات العنيفة حيث كانت تمسح زوجها في حفلات صيد الأسود والتمور وغيرها من الحيوانات للبرية الضارية. ويحزو الكثيرون نجاح زوجها في معاركه الحربية إلى خطيئها ومشورتها، وإلى جواب كل هذا كانت تتمتع بصفات نادر على كل من كان في مركزها".

الخمس من حياتها، بعد موت زوجها (267-273)، السبب الرئيسي في غموض شخصيتها، وعدم إلقاء ضوء كامل لمعرفة التفاصيل الحقيقية لسيرة هذه الشخصية التاريخية⁽¹⁾.

أرخت مخطوطات التاريخ الأوغسطي / *Historia Augusta* سير الأباطرة الرومان، وهي في اللاتينية: *Scriptores Historiae Augustae*⁽²⁾، بحيث تبدأ من 117 إلى 284 م (من تولي هارديانوس إلى ديوقلتيانوس)، وكتبها عدد من المؤلفين. ويزعم جامعها أنها وضعت في عصر ديوقلتيانوس وقسطنطين، ومن المحتمل أنها كتبت أو جمعت بعد ذلك. وهي، في جزء منها، قيمة لاعتمادها على مصادر جيدة حتى عصر كراكلا، أو حتى 238 م. أما بعد ذلك، فتفتقد، حتى فترة ديوقلتيانوس، للمصداقية. إذ من الواضح أن السير المتأخرة (238-284) م لم يكن لديها مصادر معاصرة لتواريخ حدوثها ليستمد منها المؤرخون مادتهم التاريخية. وقد أطلق واضعوها لخيالهم العنان لملء النقص والفراغ في معلوماتهم، لذا من المفيد التعامل معها بحذر محسوب⁽³⁾. وقيل أن مؤرخين ستة أروها، بينهم: تريبلوس بوليو Trebellius Polio، وفلافيوس فوبيسكوس Flavius Vopiscus المعاصران لزنوبيا. وقد أدى التعارض بين روايتهما إلى صعوبة عزل زنوبيا عن الأسطورة التي أحاطت بها.

كما أسلفنا، استفادت تدمير من السياسات المرنّة التي اتبعتها الأباطرة الرومان تجاهها، بدءاً من هادريانوس وحتى فيليب العربي (117-249)، وذلك بتوطيد دعائم حركتها الاقتصادية والسياسية شبه المستقلة والمتحالفة مع روما. بالمقابل وظف الرومان المقاتلين التدمريين لبراغتهم بحروب الصحراء، فكونوا منهم وحدات وكتائب عسكرية لحماية وتأمين طرق القوافل التجارية، وتأمين حدود الإمبراطورية الشرقية ضد الأطماع الفارسية. من ذلك كان التدمريون قادرين على إنشاء مدينتهم- الدولة بخضى تدريجية وثيدة ومستمرة، فنجحوا في إنشاء تدمر كمركز تقاطع تجاري رئيسي للعالم القديم بين شرقه وغربه إلى مشيخة يحكمها ويدير شؤونها أسرة عربية عريقة وفق السياسات الرومانية وإرادة قيادتها، مع منحها هامشاً استقلالياً كان يتسع ويضيق تبعاً للظروف السياسية، إلى أن وصلت إلى مستوى عال من النضوج السياسي والاقتصادي والإداري والعسكري والفني، بحيث بدأت ترى في نفسها نداءً مساوياً للفرس والرومان. وهذا ربما كان من أهم أسباب مقتل تدمر وتخريبها، إذ لم تكن مؤهلاتها كدولة تؤهلها للعب دور

(1) - يعد الطبري في "تاريخ الأمم والملوك" المصدر الأدبي العربي الرئيسي عن زنوبيا، فنقل روايته عنها من ابن الكلبي، ونقلت عنه معظم الروايات العربية للمتأخرة. ومن المصادر الكلاسيكية الرئيسية التي كتبت عن زنوبيا: .

(2) - الترجمة العربية: محرو (كتاب) التاريخ الأوغسطي - المحقق. (HA., Try., Tri., & V., Aur. & Vita Zenobia. & Zos, NH)

(3) - أورد كثير، بل معظم المؤرخين المحدثين، حذرهم العديد من الاعتماد على مخطوط سير الأباطرة هذا. انظر د. محفل في تاريخ الرومان، ص 17، وانظر شهيد في "روما والعرب"، ص 76 للترجمة العربية. انظر أيضاً مصطفى العبادي في المصادر التاريخية من كتابه "الإمبراطورية الرومانية".

مستمر يمكن المحافظة عليه بين الجبارين في ذلك الوقت. وقد قيل: طموح تدمر الهائل كان سبب مقتلها!

انتهى حكم البرثيين في نهاية الربع الأول من القرن الثالث (224-226) م بانتصار أردشير بن بابك بن ساسان على الملك أرتبان الخامس آخر الملوك البرثيين، فبدأ حكم السلالة الساسانية. وكان من نتائج هذا التغيير وظهور الدولة الجديدة أن بدأت سلسلة من الحروب الجديدة بين الروم والفرس.

أحسنّت قيادة تدمر توظيف النزاع الفارسي الروماني لخدمة مخططاتها، وذلك بالتحالف مع روما، فتالت مركزاً عالياً بكسب ود الأباطرة الرومان ومدهم لها بالقوة والمعونات وعطفهم عليها ومنح زعمائها الألقاب والأوسمة والمال أحياناً، إلى ما يشبه الاستقلال في إدارة شؤون البلاد. وكان زعيم الأسرة المعروفة التي حكمت تدمر أذينة⁽¹⁾ السميديعي العماليقي، والذين تولى رجالها الزعامة على تدمر منذ بداياتها الأولى، حيث ذكرت الكتابات التدمرية أسماء بعض من زعماء هذه الأسرة، منهم: نُصُور / Naswar، وهو الجد الأول لأذينة. إذ يشير الاسم إلى الاسم العربي نصر، ناصر، نصور، أو نصرو، وهو أقدم من وصل إلينا من أسماء الأسرة التي حكمت تدمر، والذي ربما كان من سادات القبائل التي استقرت بالمكان، أو ربما يكون له صلة بنصر الذي ينسب أهل الأخبار ملوك الحيرة إليه، فيقولون: إنهم من آل نصر⁽²⁾.

حكم حيران على رأس مجلس مدينة تدمر حيث تمكن من تثبيت حكم أسرته والهيمنة على شؤون المدينة وتوسيع تجارتها وتحالفاتها مع الرومان، فاكسب بذلك منزلة عند التدمريين والرومان. وقد رافق حيران الإمبراطور الروماني سبتيموس سيفيروس (193-211) م في حروبه ضد الفرس، وتلقب بسيفيروس حيران (الأول) على عادة المطيعين مع الغالبين.

وعثر على كتابة يرجع تاريخها إلى حوالي 235 م، ورد فيها اسم أذينة بن حيران بن وهب الثلاث بن نصور. فحيران هذا هو سبتيموس حيران، وأذينة هو أحد أبنائه، الذي تلقب أيضاً باسم سبتيموس أذينة. وقد نال حيران عضوية مجلس الشيوخ الروماني، ولقب نفسه بلقب ملك Rex، وذلك حوالي عام 250 م. ونجح بجمع الناس حوله، بيد أن القيصر أوعز لقتله والتخلص منه تحسباً من خطورة طموحاته على مصالح روما. والحقيقة أنه لا توجد أدلة قاطعة على التسلسل الهرمي لحكام تدمر، لذلك نجد تناقضات كثيرة تعترض هذا التسلسل، إذ يرى أويرديك أن روفينوس الذي كلفه القيصر بقتل أذينة، هو من قتل سبتيموس حيران الابن الأكبر لأذينة الأول. فيكون حيران (الثاني) هو ابن أذينة الثاني. وتولى أذينة الثاني الحكم بعد مقتل أبيه حيران، فيكون عندئذ

(1) - أذينة في العربية تصغير للاسم أذن، والتصغير عادة معروفة عند العرب بقصد التحبيب غالباً، وكانوا يضرّبون المثل بالأذن الجميلة.

(2) - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، الصفحتان (90-91).

سبتيوس حيران الثاني هو هيرودس بن أذينة الثاني^(١)، واللذان قُتلا في حمص (إمسين) سنة 267 م.

كان أذينة فارساً شجاعاً وجسوراً ألف حياة البداوة، مغرمًا بصيد الحيوانات المفترسة، تولى قبل انتقال الحكم إليه قيادة الجيش التدمري وحماية القوافل. وترأس على قبائل البادية التي مكنته جميعها من رفع مكانة تدمر في أعين مواطنيه التدمريين والرومان والفرس. وقد حمل لقب قنصل خلال فترة حكم الامبراطور الروماني فاليريانوس (258م). ولم ينس أذينة مقتل أبيه، فحاول الانتقام من روهينوس قاتل أبيه إن مكنه فاليريانوس من ذلك، لكن القيصر لم يأخذ بشكوى أذينة، مما حمل أذينة على الاتصال بالملك الساساني شابور وذلك بعد سقوط القيصر أسيراً في أيدي الفرس في معركة الرها سنة 260 م.

أرسل أذينة رسلاً إلى شابور محملين بالهدايا وعرضاً بمصالحة الفرس والتحالف^(٢) معهم ضد الرومان. بيد أن شابور الذي أسكرته انتصاراته على الروم أظهر احتقاراً شديداً لمبعوثي أذينة وأمرهم بأن يبلغوا أذينة بأن يأتيه طائماً ويدها مغلولتان إلى ظهره لكي يصفح عن جرائمه في مخاطبته كند له، وإن لم يفعل فسينزل الموت والدمار به ويأسرته ومدينته، ثم قام بتمزيق الرسائل وألقى بالهدايا تحت قدميه.

وعلى إثر ذلك قرر أذينة الأخذ بالثأر من هذا المتطعس، فجمع القبائل بظاهر تدمر، وضم إليها فرسان تدمر بقيادة زابداس قائد جيشه، وحشد معهم بعض الكتائب الرومانية من بقايا جيش فاليريانوس المهزوم، وسار على رأسهم قاصداً المدائن عاصمة الساسانيين. في هذه الأثناء كان شابور منشغلاً بغزو الأنحاء الشرقية للامبراطورية الرومانية، حيث اعترضه القائد الروماني كاليستوس، فاضطر الجيش الفارسي إلى الانسحاب وهو محمل بغنائم كثيرة، وبدأ يحس بثقل ووطأة الإعاقة التي تسببها له غنائمه وأسراة الرومان، فصارت حركته بطيئة وثقيلة نحو الفرات. بدل أذينة - الذي جمع قواته أساساً من محيطه في سورية - خططه فاتجه مسرعاً لملاقاة شابور، قاطعاً عليه طريق العودة إلى المدائن قبل أن يتمكن من عبور الفرات. فتاورت قوات فرسان أذينة حول تجمعات الفرس غرب الفرات فشردوها وأخذوا بالاستيلاء على غنائمها، وأسروا

(١) - جاء في كتاب خالد الأسعد والبروقسور أوفه ويدبرغ هاتسن " زنوبيا ملكة تدمر والشرق"، ص 148: لم تكن حدود مملكة تدمر بالضبط كالتي كانت في عام 1958 تتعدى أذينة الكبير وأذينة الصغير، أو أذينة الأولى وأذينة الثاني، حيث يكون أذينة الصغير أو الثاني زوج زنوبيا هو الكبير، وقد تغير هذا كلياً بعد أن اكتشفت البعثة، المشكلة من خالد الأسعد مدير متحف آثار تدمر السابق، وميخائيل غابوليوفسكي مدير البعثة البولونية بتكم، كتابة نادرة منقوشة على فترة عود في الرواق الجنوبي غربي المصلى مؤرخة بسنة 252 م (إنشاء مشروع ترميم أعمدة الشارع وإعادة بنائها)، وهي مكتوبة باللاتين التدمرية واليونانية، ومكرمة إلى "سبتيوس أذينة بن حيران بن وهب الثلاث بن نصور المعظم والأشهر Exarch بين التدمريين"، (الحواشي الأثرية العربية السورية، المجلد 36-37).

(٢) - لم يكن عرض أذينة للتحالف مع شابور ضد الرومان السبب الوحيد، وإنما لأسباب تجارية أيضاً لأن فتح شابور لخراسان قد عزل طريق المواصلات بين تدمر والهند، وذلك من أجل حل المشاكل المتعلقة بالمصالح التجارية لتدمر، إضافة إلى رعي تدمري بكامل الإمكانيات العسكرية والدور الموسمي المدينة خاصة المنطقة الشرقية من الامبراطورية.

حريم الملك الفارسي⁽¹⁾، ولم يشعر شابور بالأمان إلا بعد عبوره الفرات إلى الضفة الأخرى.

كتب أمير تدمر أذينة إلى الامبراطور الروماني الجديد غالينوس (وريث وابن اليرانيوس أسير شابور) يخبره بهزيمته لشابور وجيشه، وبإخلاقه لروما، فسر القيصر سروراً عظيماً وأنعم عليه بصفة القائد العام لجميع جيوش المشرق Imperator and Corrector totius Orientis، وحامي كل المشرق ومستعيده، ولقب بملك الملوك Rex Regium، تشبهاً بملوك الفرس. وشجعه القيصر على مواصلة الحرب لإنقاذ والده الأسير فاليريانوس⁽²⁾. وهذا يعني موافقة روما على نوع من استقلال تدمر وقدرتها على التحكم بالدفاع بشكل فعال عن الجبهة الشرقية للامبراطورية، وعلى سورية بشكل خاص. فكان كل ما فعله أذينة يؤدي لتقوية مركز تدمر لدى روما.

لم تنته المشاعر العدائية لأذينة ضد شابور، حتى بعد عبور بقواته إلى شرق الفرات. ونتيجة لحالة الفوضى والارتباك الروماني والهروب الفارسي، صمم أمير تدمر استغلال هذه الفرصة الذهبية المناسبة لتأسيس مملكته التي حلم بها؛ سورية وفلسطين من ناحية، وميزوبوتاميا من ناحية أخرى. ولايات بدت قريبة من إطباق قبضته عليها. لكن ميزوبوتاميا بقيت تحت سيطرة الفرس كجائزة لهم بانتصارهم على فاليريانوس ولا يمكن استعادتها إلا بالحرب. لذلك، بقي أذينة يتحين الفرص لتنفيذ مخططاته للاستيلاء على شرق الفرات، إلى أن بدأت بوادر الاضطراب تظهر على الأطراف الشرقية للامبراطورية الفارسية.

في العام 263 م، وجد أذينة أن الوقت أصبح رائباً، فعبّر بقواته إلى ما بين النهرين (ميزوبوتاميا)، فآخذ حران Hatra ونصيبين، وهزم شابور وشنت قواته ولاحقهم حتى أسوار المدائن، عاصمة الفرس الغربية، حتى أنه غامر بضرب حصار حول المدينة، فنصب المنجنيقات وآلات الحصار لفتحها، وكاد شابور أن يلتبس من أذينة الأمان لولا وصول النجذات من الولايات الفارسية البعيدة، إضافة إلى حدوث سبب رئيسي أجبر القائد التدمري على التفكير في الانسحاب، وهو خروج مكريانوس Macrianus - القائد العسكري الذي كان السبب في وقوع فاليريان في الأسر الفارسي - على القيصر الروماني غالينوس وتتصيب نفسه امبراطوراً على آسيا الصغرى ومصر وفلسطين وسورية. لذلك عجل بالانسحاب عائداً إلى تدمر لاتخاذ الخطط اللازمة إزاء الوضع الجديد. حيث لم يتم اعتراض انسحابه وهو محمل بالفنائم والأسرى الذين كان بينهم عدد من حكام المناطق الفارسية (Straps). واستمر بالاحتفاظ بأجزاء من أراضي بين النهرين، والتي شكلت جزءاً مهماً من مملكة تدمر حتى أسر أورليانوس لنزوييا (273 م).

(1) - نسبت رواية " التاريخ الأوغسطي: حياة غالينوس XXXI" النصر الذي حققه أذينة على القوات الساسانية وتهديده للعاصمة الفارسية، إلى القائد الروماني Ballista، الذي وصفته بأنه جمع الفرائق العسكرية الرومانية الشرقية - التي كان شردها الملك الفارسي - وهزم شابور وكسر نساءه.

(2) - راجع العنوان "العالم الفارسي ومملكة تدمر" في الصفحات السابقة.

أعقبت نجاحات أذينة سنة 263 فترة من الهدوء، إذ بدا أن طموحات أذينة اكتفت ببسط سلطانها على البلاد الواقعة من دجلة شرقاً حتى البحر الأبيض المتوسط غرباً. ففتح الإمبراطور الروماني غالينوس Gallienus أذينة لقب الميجل Augustus والقيصر وملك الملوك وقائد قوات الشرق، وكل ألقاب الشرف الرومانية التي نقشها أذينة على القطع النقدية المتداولة في مملكته. وقد اتخذه غالينوس شريكاً له في الامبراطورية بعد ما حققه من انتصارات بجهوده الذاتية بهزيمة الجيش الفارسي بإغارته على سورية، ولتعبه حتى دجلة، وأرخ أنه عبر النهر وحاصر المدائن، كما شارك في دحر مكريانوس وبعده بالستا اللذين أعلننا نفسيهما إمبراطورين.

في زحف أذينة إلى حمص لمنازلة مكريانوس الذي ادعى العرش الروماني، جاءت له الأخبار بمقتل مكريانوس وتصيب ابنه كياتوس، بحيث أعلن السوريون ولائهم لأذينة وخروجهم معه لمحاصرة حمص، حصن كياتوس. وبعد أن اشتد الحصار ومال، قتل القائد الروماني كاليستوس سيده كياتوس ورمى برأسه من فوق الأسوار تحت قدمي أذينة، ثم فتح له الأسوار. إلا أن كاليستوس أعلن نفسه ملكاً بعد فترة، فاضطر أذينة للقضاء عليه، ليصبح المشرق كله تحت إمرته.

سار أذينة، بعد أن عين ابنه البكر سبتيوس هيرودس من زوجته الأولى نائباً عنه لإدارة شؤون البلاد، إلى طيسفون (المدائن) أوائل عام 266، فحاصرها زمناً، أظهر فيه شايور استداداه لعقد صلح بشرط عدم فك أسر واليريانوس الذي اشترطه أذينة. لكن الصلح لم يتم، مما اضطر أذينة لفك الحصار، مرة أخرى لأسباب خارجية عن إرادته، إذ وصلت أخبار انتصارات قبائل القوط وزحفهم نحو الشرق قاصدين الاستيلاء على آسية الصغرى وبلاد الشام. فاتجه ميكراً، بعد فك حصاره عن المدائن، لملاقاة القوط بالاشتراك مع القوات الرومانية، مما جعل القوط ينكفئون عائدين نحو الغرب. وبينما كان أذينة في حمص أعد وليمة للاحتفال بعيد ميلاده، فأقدم من وعصابته على قتل عمه أذينة مع ابنه هيرودس بحجة اغتصاب عمه للملكة الذي كان يجب أن يؤول إليه بعد مقتل والده سبتيوس حيران على يد الرومان، وأعلن نفسه ملكاً على مملكة تدمر. ولم يطل المقام لعن، إذ سرعان ما أقدمت سيوف أهل حمص على قتله قبل أن يجف دم عمه القاتل.

وأياً كانت الجهة وراء اغتيال أذينة، فمن المؤكد أنه كان من تدبير مؤامرة سياسية لا بد من وجود محرضين خلفها، سواء كانت رومانية، أو شخصية، أو وطنية تدمرية، أو ربما اجتمعت كلها لتنفيذ المؤامرة.

وضعت أكثر من رواية لتفسير مؤامرة اغتيال أذينة في حمص؛ فمن قائل أن أذينة كان ممالاً وشديد الحماس للرومان، فكان للحزب الوطني التدمري الذي كان يكره الرومان ضلع في مؤامرة الاغتيال، ومن قائل أن الرومان تحسبوا من نجاحات أذينة وخطورة ظهوره كقوة هتية جديدة، فقررروا وضع حد لطموحاته التي كانوا يخشونها، وخاصة أنه نجح في جعل أهل المشرق يصطفون خلفه، ومنهم من رأى أن زوجته زنوبيا كانت وراء

الاغتيال لأنها صاحبة المصلحة الأولى هي وابنها وهب اللات لقطع الطريق على ولاية هيرودس بن أذينة من زوجته الأولى. روايات متناقضة وتقرير ضائع عن كان خلف القاتل الحقيقي؟ لكن رواية إدوارد غيبون ترجح أن الاغتيال تم بسبب من تقييد واحتجاز أذينة لمن. وقد روي أن شائعات سرت تتحدث عن حوار جرى بين روفينوس القائد الروماني في حمص والقيصر غالينوس تظهر أن روما كانت وراء مقتل أذينة، وذلك بتحريض الأمير ممن لقتل عمه طمعاً في تنصيبه ملكاً على تدمر.

أظهر أذينة مقدرة فائقة⁽¹⁾ بكل ما تقلد من مسئوليات، فكان جيشاً قوياً من المشاة والفرسان والخيالة جملة بارعاً في إدارة معارك الصحراء، والأهم أنه استطاع بكفاءة نادرة وبسرعة قياسية أن يجمع من الواحة الصحراوية البسيطة كياناً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وليداً يحاكي قوة الجبارين في زمنه. مما جعلها مملكة يحسب حساب مستقبلها بعيون خائفة وعقول متأمرة من جانبي الفرس والرومان. والذي يبدو أن سيرة أذينة لم توثق تفاصيلها في المصادر التاريخية، فجاءت مقتضبة إلى حد ما، وخاصة تاريخ سيرته في سنوات حكمه الأخيرة.

زنوبيا ملكة تدمر

تزوجت زنوبيا من أذينة فيما بين 258/257م كزوجة ثانية. وقد عثر على مخطوطة في تدمر تسجل تمجيداً بأذينة وزوجته: "القنصل المشهور، سيدنا أو ملكنا.. وزوجته زنوبيا..". وقد رزقا بولدهما الأول بعد مدة من زواجهما، فسمياه وهب اللات (هبة الألهة أو هبة الله). فانتقل الملك إلى القاصر وهب اللات⁽²⁾ بعد مقتل والده سنة 267. لذلك تولت أمه الوصاية عليه وعلى العرش، فبدأت بتأهيله وتأديبه بأدب الملوك، وسعت لتهديب الدولة وتوسيعها وبسط نفوذها على أماكن واسعة لم تكن تخضع لها، لذلك كان لا بد من حدوث الصدام بين الدور السياسي الجديد والطموح لتدمر زنوبيا وبين الرومان.

منذ بداية وصايتها على ابنها وعلى العرش ضمت زنوبيا إلى مجلسها في الحكم العديد من أفضل الكفاءات من مشاهير رجال الفكر في زمانها، فمثل الفيلسوف السوري الأصل كاسيوس ديونيسيوس لونجينوس (210/213-273)، والذي كان

(1) - لم يشر الإخباريون العرب والمسلمون - على رأي جواد علي - إلى حروب أذينة ضد الفرس على أهميتها، ويلاحظ العاصمة الفارسية أكثر من مرة. وهذا أمر يدعو إلى الاستغراب؛ إذ كيف يهملون مثل هذه الأحداث الخطيرة؟ فهل كانت المصادر الإخبارية التي جاء معظمها من مصادر فارسية، أوروبية تميل إليهم؟

(2) - يروي جواد علي في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، ص 103: أن أذينة خلف ثلاثة أبناء من زوجته زنوبيا، هم: وهب اللات، حوران، وتيم اللات، إضافة إلى ابنتين؟ ويعتقد أن وهب اللات وتيم اللات (تيمولاس) هما منجبين واحد، حيث تشير المكتشفات الأثرية لاسم وهب اللات فقط، بينما لم يشر بمثل ذلك لاسم تيم اللات الذي ورد اسمه في (تاريخ سير الأباطرة الرومان / التاريخ الأرضي).

فيلسوفاً على مذهب الأفلاطونية القديمة، علماً أن المدرسة الأفلاطونية الحديثة⁽¹⁾ كانت سائدة في عصره، حيث بقي أميناً لمبادئ الفلسفة الأفلاطونية القديمة. وكانت شهرته مبنية في الأساس على امتياز به فن الخطابة والنقد والفلسفة. كما ظهر في بلاطها العديد من الشخصيات المميزة، من أمثال: كالينيكوس دوتوريوس Callinicus Dutorius من عرب الأنباط، وهو الذي ألف تاريخ الإسكندرية في عشرة أجزاء مهداة للملكة زنوبيا، وكان من أشهر فلاسفة الرواقية، ونيكوماخوس Nicmachus من الكتاب المؤرخين والفلاسفة المتضلعين، الذي كتب باللغة الإغريقية، والكاثب المؤرخ كليكراتس الصوري، وكذلك اللغوي والفيلسوف لوبوكوس البيروتي، والمؤرخ الدمشقي بوزانياس، والأسقف المسيحي بولس السيمساطي الذي كان له منزلة عالية عند الملكة⁽²⁾. إذ يظهر هذا درجة التسامح الديني واضحاً في البلاط التدمري⁽³⁾، رغم وثنية الدولة الرسمية. وقد زعم القديس أناسيوس والمؤرخ فوتيوس أن الملكة كانت تدين باليهودية، وذكر فيلاستريوس أن الذي هوذ الملكة هو السيمساطي⁽⁴⁾. وربما كان السبب الرئيسي لقول البعض أن زنوبيا تأثرت باليهودية هو تأثير السيمساطي عليها، والذي اتهمته الكنيسة الأرثوذكسية بالهرطقة والنزوع إلى اليهودية، إذ كانت الجالية اليهودية في تدمر تمارس نشاطها التجاري بحرية.

(1) - الأفلاطونية الحديثة مدرسة فلسفية تجمع بين أفكار أفلاطون وأرسطو وفيتاغورس والرواقية في المذهب الشرقي للنصوف، وهي مبادئ تلمسية دينية طورها تلاميذ الفيلسوف المومس بلوتينوس Plotinus في القرن الثالث الميلادي (ينحدر باوليونيوس/ أفولون، على الغالب، من أصول رومانية، وقد قام بجمع كتاباته تلميذه فرغوريوس، وكان الاثنان من تلامذة المعلم لونجينوس الذي كان على مذهب الأفلاطونية القديمة)، سادت الفلسفة الأفلاطونية الحديثة في أوروقة الوثنية حتى بداية القرن السادس الميلادي، وكان تأثيرها كبيراً على كتاب القزرة المسيحية المبكرة، وعلى كتاب ومفكري المراحل المتأخرة من العصور الوسطى، وعلى عصر النهضة، وعلى الثقافة الإسلامية. وترى المدرسة أن النفس الإنسانية تعلو فوق القزرة المادية للإنسان، وذلك من خلال ممارسة الفضيلة والتأمل في ذات الخلق والخالق حتى تتعلم النفس العودة إلى المبدأ والاتحاد بالنور العظيم للخالق.

(2) - كان هؤلاء المفكرون الفلاسفة أول ضحايا الامبراطور الروماني أورليانوس في محاكمته التي عقدها في إمسين (حمص)، حيث حكم عليهم بالموت.

(3) - يدل البعد الكبير من المعابد الدينية المختلفة في تدمر وفي دورا أوربوس (لصالحية على الفرات) على تسامح ديني لا نظير له في ذلك العصر، بينما كان الرومان يضطهدون ويحبسون كل من ثبتت عليه تهمة الانتماء إلى غير عقيدة الامبراطور الوثنية، وخاصة أتباع الديانة المسيحية.

(4) - من مدينة سمساط الواقعة في أعالي الفرات إلى الشمال من حمص والشرق من حلب، عين أسقف على أنطاكية سنة 260، وتعرض للمضايقة بسبب أولئك الابتداعية المخالفة للتصووص الدينية المسيحية. حيث كان جميع الأساقفة الكنيسي الذي انعقد سنة 264 قد أوجب تحجته عن منصبه كأسقف، لأتهامه بترويج الأفكار الابتداعية المتعلقة بتعاليم الثالوث المقدس، وكان بول يرى أن الرب هو القوة الوحيدة، وأن وحدة المثيلة الإلهية تقوق كل شيء، ويرى أن السيد المسيح إنما هو إنسان قبل كل شيء، وبني مميور من قبل الروح القدس. وصفه المؤرخ الكنيسي أوسيبوس بأفزع الأوصاف. وقد أخذ الأنطاكيون موثقاً من زونوبيا لمناصرتها بقاء الأسقف وعدم السماح بتجنيته. وقد أحزن بولس توبته ونمته في أعقاب قرار جميع الأساقفة السكوني الذي انعقد سنة (268 / 269) م، وانتهى به المطلف في بلاط زنوبيا.

انظر:

A History of Antioch in Syria from Seleucid to Arab Conquest, Princeton, 1861, by G. Downy. See also Millar, Paul Samosata.

وحسب الرأي الكنسي العام، كانت أفكار بولس لاهوتية متهرطقة معادية لمفهوم التثليث. حيث كان متأثراً بشدة بعقل ومنطق هلنستي فيما يخص طبيعة السيد المسيح البشرية التي قامت عليها كلمة الله (اللوجوس Logos)، كما كان مؤيداً للختان. فمثلت أفكاره اللاهوتية توافقاً لأجواء تدمير الدينية المكونة من اليبثات اليهودية والمسيحية، ومن الأفكار الهلنسية السورية التي كان يمثلها الفيلسوف لونجينوس، ومن المانوية، ومن المسيحية التي كان يمثلها المركز المسيحي لإديسا (الرّها). حيث شهد بلاطه زنوبيا حواراً حراً بين جميع هذه الأفكار. وربما كان تأثير السيمساطي في بلاط الملكة قد أدى إلى ما يمكن أن يوصف بالمحاولة الأولى للتقارب بين الدولة والكنيسة.

وتعيين بولس السيمساطي أسقفاً على أنطاكية يعد موت أسقفها يعني أن أنطاكية كانت بطريقة ما تحت تأثير الحكم المباشر لتدمير.

ثم تدخل الملكة لصالح السيمساطي عندما حكم مجمع أنطاكية سنة 269 م بعزله عن الأسقفية. ويروي تيودوريت أن الأسقف السيمساطي أخذ آراءه في التالوث من آراء الملكة المتأثرة باليهودية؟ ويرى بعض المؤرخين أن خبر تهود زنوبيا خبر مخلق، إضافة إلى أن الأدبيات الدينية اليهودية تبين بوضوح شديد تمنياتها بأن تتخسف الأرض بتدمير ومن فيها، إذ سجل على لسان الحبر اليهودي يوحنا بن رئيس أكاديمية طبرية والمعاصر لأذينة وزنوبيا قوله: "مخلدٌ وسعيد من يدرك نهاية أيام تدمير". ويبدو بغض اليهود إلى آراء الملكة الفلسفية وآراء الفلاسفة الذين أحاطوا بها، إذ نفذت هذه الفلسفة نقداً كبيراً بين يهود تدمير والقرات، كما أن حروب أذينة وما تلاها من حروب بين فارس وروما ألحقت ضرر كبيراً بالجاليات اليهودية التي كان معظمها يديرون تجارتهم بين الدولتين إذ أثار كل ذلك عندهم حقد الأحبار والمتدينين والمتنفذين والتجار على تدمير والتدميرين. لكن الأهم، هو أن هذا الحشد من المفكرين والفلاسفة والعلماء واحتضانهم في دائرتها الأدبية يدل بشكل واضح وجلي على ميل الملكة الفلسفية والأدبية والثقافية العالية، وعلى مستوى التسامح الديني الذي كانت عليه. وعلى الغالب، فقد كانت زنوبيا بشكل عام متسامحة مع التيارات الدينية والثقافية الواحدة مع القواهل كاليهودية والمسيحية والمانوية، إضافة إلى الديانات الوثنية التي كانت سائدة وراسخة في ربوع تدمير والمناطق المجاورة.

رغم وصفه بالفيلسوف الإغريقي، إلا أن لونجينوس كان على الغالب، سوري الأصل من حمص، غير أن مولده غير معروف على وجه الدقة، فالبعض يعتقد أنه ولد في حمص، وآخر يقول: إنه ولد في تدمير، ومنهم من يعتقد أنه ولد في أثينة من أمه السورية، فكان خاله لأمه فرونتو الحمصي Fronto of Emesa يُدرس فن الخطابة في أثينة. ومن الممكن جداً أن خاله اهتم بتعليمه وتهذيبه اهتماماً عظيماً، وأورثه وصيته بعد موته. تعلم لونجينوس في الاسكندرية ما استطاع على يد أمونيوس ساكاس Ammonius Saccas وأوريجين الوثني Oregin the pagan تلميذ ساكاس، وعلى فلاسفة آخرين التقى بهم خلال تنقلاته العديدة. واستقر لفترة طويلة (ثلاثين سنة) في أثينة، وأبدى حماساً في

تدريس تلامذته هناك - ومن أشهرهم تلميذه فورفوروس الصوري- فحاضر في مواضيع النقد والفلسفة والخطابة وفقه اللغة. لذلك كانت معارفه واسعة وعميقة، فأطلق عليه عدة أوصاف، منها: الجامعة المتحركة، المتحف المتجول، والمكتبة الحية. وكان أكثر ما اشتهر به: النقد الأدبي والفني، حتى صار تقديره السليم يضرب به كمثال على الكمال.

ألف لونجينوس العديد من الأعمال في الفلسفة والنقد ضاع معظمها، وكانت محل تقدير عال وكبير، وأهمها: "بحثه في السمو Treatise on Sublime"، وعمله "المحادثات الفلسفية Philosophical Discourses"، و"شذرات على النهايات الجوهرية On the Chief Ends التي حفظت في كتاب هرفوريوس الذي يتحدث عن حياة بلوتينوس حيث كان لوتجينوس معلماً ل كليهما.

أظهرت زنبيا مقدرة فائقة في إدارة شؤون الدولة، فاتبعت سياسة التقرب من الأعراب والتودد إليهم، كما تقربت إلى العناصر العربية المقيمة في المدن والحوضر، وراعت مصالحهم الاقتصادية جميعاً وجعلتهم يشاركون في أعداد الجيش التدمري. والذي يبدو من سيرالحوادث أن الملكة زنبيا لم تقتنع بالمركز الممتاز والثراء العريض اللذين كانت تتمتع بهما تدمر، بل أرادت إقامة مملكة عربية مشرقية تعتمد أساساً على العنصر البشري المحلي المشرقي، خاصة أنها كانت تدرك أن الأعراب الأشداء يمكن أن يكونوا قوة يعتد بها إن نظمت هذه القوة ووظفت توظيفاً جيداً، فبدأت بالعمل على تكوين هذه القوة. فأصبحت قادرة على توسيع مملكتها باحتلال كامل سورية الطبيعية وشمال الجزيرة العربية⁽¹⁾، ثم جهزت حملة كبيرة وسارت على رأسها نحو الشمال فاحتلت البيثينية⁽²⁾ في آسية الصغرى، بعد مقاومة شديدة. فتوجس منها الرومان خيفة. ويتحريض مجلس الشيوخ الروماني عزم الامبراطور غوثيكوس القضاء عليها قبل استفحال أمرها، فألقى قرار اعتراف غالينوس بوهب اللات على تدمر، وأعد حملة عسكرية إلى الشرق بقيادة هرقليانوس، تظاهرت بالتصميم بأنها متجهة إلى الشرق لمحاربة شابور الكبير، إلا أن الملكة زنبيا علمت بأمر الحملة الحقيقي، فاستعدت لها بالخروج، فانتصرت عليها انتصاراً باهراً، فولت القوات الرومانية الهرب تاركة وراءها قائدها القتيل، وذلك سنة 268 م.

وقع قتال خلال عامي 269-270 بين القوات التدمرية وبين قبائل تنوخ القوية التي كانت تقيم في جنوب غرب وشرق تدمر وتمتد مرابعها إلى غرب الفرات وفي المناطق الشمالية من ولاية العربية حتى مدينة الحيرة. وقد كان جد تنوخ الأول: مالك بن فهم بن

(1)- أشارت حواريات ملاس إلى ذلك بالقول: ".. أخضعت زنبيا كامل الجزيرة العربية، التي كانت بعض أطرافها خاضعة لسلطة الرومان، حيث تغلبت على القائد الروماني ترويس وجيوع قواته التي كانت تحت إمرته في عهد الامبراطور كلوديوس".

(2)- البيثينية Bithynia منطقة جبلية في آسية الصغرى على الجبال السوداء ويحدها ممرقة قاصعتها برونا. أما Batanaea فيلاد مجاورة لحوران والجلان ما وراء الأردن كانت قاصعتها أذرعات (درا) - المحقق.

تيم اللات من قضاة من حمير. ومن أشهر ملوكهم في الحيرة كان جذيمة الأبرش الذي ظهر اسمه في وثيقة يونانية في موقع أم الجمال الواقعة إلى الجنوب من بصرى الشام داخل الأردن الآن. وقد مرت زنبوبيا وجيشها من هنا وهم في طريقهم إلى مصر. حيث وجدت صفة التكريم على العديد من أميال الطريق بين عمان وبصرى وهي تصف انتصار وهب اللات وزنبوبيا على المنطقة والقبائل المعارضة والتتوخين، فتصف وهب اللات بـ "العربي الكبير Arabicus Maximus". وربما كانت هذه الأميال تعني أيضاً من ضمن ما تمنيه دليلاً للملكية وليس فقط تعريفاً بالطريق. وقد ناصرت تنوخ أورليانوس في حملته على تدمر بعد ذلك بثلاث سنوات⁽¹⁾.

خضعت سورية الكبرى لسيطرة تدمر قبل شروع زنبوبيا بحملتها لفتح مصر عبر العربية (العرايبا) وفلسطين. وبذلك نجحت بالسيطرة على العربية وتأمين الطريق الممتد على طريق تيراينا الجديد (طريق تراجان الجديد). ففرض التوسع التدمري إلى مصر سيطرة أمنية على القوافل التجارية المارة عبر شمال العربية من تهديدات التتوخين. وضعت الملكة زنبوبيا الخطط للاستيلاء على مصر، حيث بدأت بالتمهيد لدى المصريين بالدعوة إلى مصريتها وأنها من نسل الملكة كليوترا، بحيث لم يغيب عن بالها مستوى التقارب الذي خلقه تشابك العلاقات التجارية والمصالح المشتركة الطويلة بين الإسكندرية وتدمر، واللذان تشاركتا معاً في التجارة الشرقية، لذلك، أخذت زنبوبيا تترقب الفرص لتنفيذ مخططاتها.

تعرضت الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث (الأزمة الامبراطورية) إلى أزمات شبه مستمرة في الصراع على السلطة وفي كثرة الانقسامات السياسية، إذ كان تدخل الجيش يحسم الصراع لفترة لصالح أحدهم، ثم ما يلبث أن يتقلب من جديد لصالح آخر، وهكذا. مما كان يغري هذه الولايات، وخاصة، البعيدة عن المركز في روما بمحاولة الاستقلال. ولم تكن تدمر ومصر وأجزاء من آسيا الصغرى بعيدة عن هذا المراد، إذ شهدت مصر انتفاضات وثورات متعددة خلال فترة هذا القرن للتخلص من الرومان والاستقلال عن روما وتكوين الدولة المصرية التي يطمحون إليها، لكن الفيلاليق الرومانية كانت تحسم الصراع بالنهاية لصالح روما. وقد بلغت الفوضى السياسية والعسكرية أوجها في الفترة بين 249-269 حينما وصل الصراع بين أدعياء العرش إلى أشده، فانقسم ولاء الجيش مما زاد في إضعاف سلطة المركز في روما، فاستغل كثير من الولايات، بما فيها مصر، الفرصة للانفصال وإعلان الاستقلال.

بعد اغتيال القيصر غالينوس Gallienus سنة 268 م واعتلاء كلوديوس غوثيكوس العرش وجدت زنبوبيا أن الفرصة أصبحت مواتية للسير نحو مصر، فجهزت جيشاً ضخماً قوامه سبعين ألف مقاتل⁽²⁾ بقيادة زيداً (زيداس) أرسلته لاحتلال مصر بناء على

(1) - عزان شهيد: "روما والعرب"، الصفحة 76، ترجمة كاسم سويدان، دار كيوان بدمشق.
(2) - 1.44 - 2 Asconians, Zosimus 1, Historia Nova / التاريخ الجديد لروميوس.

اتفاق مسبق مع بعض زعماء مصر المحليين الذين كان من أبرزهم تيماجينس Timagenes وفيرموس، حيث استغل الوطنيون المصريون المعارضون لحكم الرومان انشغال الحاكم الروماني على مصر (بروبوس Probus) الذي كان قد خرج إلى عرض البحر، بناء على أوامر القيصر، لمطاردة المتمردين القوط ومنعهم من الهرب عبر المضائق البحرية في شمال المتوسط، فكتبوا إلى الملكة يشجعونها على تحرير مصر وتولي الحكم فيها، ووعدوا بتقديم الدعم المادي ويكل ما يستطيعون إن استجابت لهم. استطاع زيدا أن ينتصر على الجيش الروماني الذي ترك في مصر بعد خروج بروبيوس لملاقاة القوط. وبعد استقرار الوضع قرر زيدا العودة إلى تدمر بعد أن ترك حامية تدمرية صغيرة مؤلفة من حوالي خمسة آلاف جندي تحت إمرة تيماجينس كنائب للملكة زنوبيا على مصر.

عاد بروبيوس مسرعاً إلى مصر، فجمع جيشاً من المصريين المواليين لروما، إضافة إلى القوة الرومانية التي كانت معه، وزحف على الأسكندرية وأعمل السيف في الحامية التدمرية وحفاظتها من المصريين. فلما سمعت زنوبيا بذلك، أمرت زيدا بالعودة إلى مصر لاستعادتها وطرد الرومان منها، فجرت معارك بين الطرفين بالقرب من مشارف بابلون Babylon (الفسطاط) وعلى حصنها توجت بانتصار زيدا وتيماجينس، وذلك بعد أن كاد النصر ينقلب للقائد الروماني لولا حركة الالتفاف التي قام بها تيماجينس نتيجة لكفائه ومعرفته بالأرض، حيث أحرز النصر على القوات الرومانية.

وبذلك تم استعادة مصر لتشكل الجزء الرئيسي من مملكة تدمر. وقد جرت الأحداث الأخيرة صيف 270 م في آخر أيام كلوديوس الثاني الذي خلفه شقيقه كونتيوس الذي اغتيل بعد تنصيبه قيصراً بشهر واحد، ليحيى أورليانوس.

كانت الخسارة التي ألحقتها زنوبيا بالجيش الروماني بالغة الأثر في نفوس الرومان. وقد مثل إلحاق مصر بالملكة التدمرية ضربة قاسية للامبراطورية الرومانية، لأن مصر كانت تمثل درة التاج الروماني ومصدر غذائها الأول. لكن، ونتيجة للأزمة التي تعيشها الامبراطورية في مواجهة الثورات المتعددة في الشرق والغرب وعلى الأطراف الشرقية مع الفرس، ارتأى الرومان التعايش مع الوضع الجديد إلى حين، فتم عقد اتفاقية بين الطرفين، في أواخر حكم كلوديوس، وافقت فيها روما على بقاء جيش تدمر وسيطرته العسكرية على مصر، والسماح لتدمر بمد وكالتها على أرمينية، وذلك مقابل اعتراف تدمر بسيادة روما على مصر وأرمينية. ودام هذا الاتفاق خلال الفترة الأولى من تولي أورليانوس على العرش الروماني (270م). وتم سك وجهي قطع النقد المعدنية بصورة مزدوجة لوجه القيصر أورليانوس، موصوفاً بأغسطس، مع وجه وهب اللات بوصفه القائد الأعلى للجيش Dux Romanorum، إضافة إلى لقب نائب الامبراطور الذي ورثه عن والده، حيث تشير الصورتان على وجهي القطع النقدية إلى حكم مصر المزدوج بين الرومان والتدمريين.

لم يدم هذا الاتفاق طويلاً بين الطرفين، نتيجة للضغط والتحريض المستمرين من جانب مجلس الشيوخ والجيش وسادة الدولة وأشرفها، لاعتقادهم بأن الإهانة التي

لحققت بهم من تدمير وملكتها لا يمكن نسيانها، وأن احتلال تدمر لمصر وأطماعها في بقية سورية الكبرى وأجزاء من آسيا الصغرى يعد تصدعاً خطيراً في جسم الامبراطورية. لذلك، بدأ الامبراطور أورليانوس بتجهيز حملته إلى الشرق لاستعادة سلطان روما على مصر وتدمير وبقية مناطق آسيا الصغرى وسورية حتى حدود ولاية العربية الجنوبية لوضع حد لطموحات زنوبيا وإنهاء مملكتها، وذلك بعد أن يقرغ من إنهاء تمرد الغاليين وبعض القبائل الجرمانية في الغرب. فقام بسك نقوده الخاصة ووضع عليها صورته يحيط بها العبارة التالية: مسترد الشرق ومستعيد.

لما علمت زنوبيا بنية أورليانوس بالقدوم إلى الشرق على رأس حملة عسكرية كبيرة للقضاء عليها وإعادة كل البلاد والأراضي التي استولت عليها، أخذت بالاستعداد، وألغت الاتفاق الذي عقده مع روما خلال فترة حكم الامبراطور كلوديوس، وألغت صورة أورليانوس عن النقود تأكيداً على فك الارتباط مع روما، وضربت صورة وهب اللات وحده على العملة النقدية⁽¹⁾، وعلى الوجه الآخر صورته، وأطلقت على نفسها لقب الأوغسطا: لقب القيصر الروماني، وأعلنت استقلالها بشكل نهائي عن روما، فشكل ذلك تحدياً صريحاً وواضحاً لقيصر روما ولوحدة الامبراطورية.

استبقت زنوبيا ما بلغها من نية أورليانوس بغزوها بعد أن ينهي قمع التمرد في الغرب، فأرسلت مبعوثيها للاتفاق مع وكثوريا/ فكتوريا Victoria زعيمة الغاليين في الغرب لتوحيد الخطط والجهود لمهاجمة الامبراطورية الرومانية في عقر دارها روما واقتسامها بينهما. لذلك، وبعد أن سحبت معظم جيشها الذي كان يعسكر في مصر معتمدة على الاتفاق مع المصريين ليقوموا بالدفاع عن مصر إذا هاجمها الرومان، أرسلت قواتها نحو الغرب من آسيا الصغرى في جزئها الشمالي الغربي المشرف على البحر الأسود وبحر مرمرة، للملاقاة زحف جيش أورليانوس، واستمرت بالتقدم دون مواجهة حقيقية حتى بلغت Chalcedon/ خلقيدون على البوسفور بإزاء القسطنطينية. حتى أن الملكة أمرت بصنع عربة ملكية فاخرة للدخول فيها إلى روما بعوكب نصر كانت تخطط له. وربما كان تقدم زنوبيا باتجاه البوسفور قد أملت الضرورات الدفاعية بعيد احتلال مصر لمواجهة رد الفعل الروماني المتوقع، وذلك بتحسين وإحكام طرق الدخول إلى سورية. وجاء تقدم زنوبيا باتجاه البوسفور (بداية 271م) في الفترة التي كان أورليانوس منشغلاً في حملته على البلقان ضد القوط، وفي نهاية 271 وبداية 272 تقدم أورليانوس بعد أن وضع حداً لتمرّد القوط، فوصل إلى بيزانسيوس عبر البحر وتقدم حتى أنقرة وهايانا في كبادوكية الجنوبية الغربية مقترباً من المدن التي كان قد احتلها التدمريون.

انتهرز أورليانوس فرصة انسحاب القوات التدمرية من مصر، فأرسل حملة عسكرية كبيرة بقيادة بروكوبيوس إلى مصر، فوقعت معارك بين قوات زيدا القائد التدمري- الذي

(1) - تعد المسكوكات التي ضربتها زنوبيا باسمها وباسم ابنها وهب اللات، والألقاب الامبراطورية التي اتخذتها لنفسها ولابنها، بمثابة استقلال سياسي واقتصادي عن الامبراطورية.

عاد مسرعاً إلى مصر لمساعدة نائب الملكة المصري فيرموس Firmus بعد عودة قوات بروبوس⁽¹⁾ - والقوات الرومانية كاد النصر أن يكون حليف زيدا والمصريين لولا استمالة جماعة من المصريين إلى جانب القائد الروماني، فاندحر زيدا ومن معه تاركين مصر للرومان، وذلك في صيف 271م. فكانت هذه أول نكبة حقيقية تنزل بزنوبيا. ولا شك أنها وقعت وقعا عظيماً عليها، بحيث فتحت الطريق أمام الفياق الرومانية لتهديدها عسكرياً من الجنوب عن طريق مصر ومن الشمال لهاجمة قواتها المتوقفة عند خلقيدون، مما حتم عليها وضع خطط جديدة للانتقال من الهجوم إلى الدفاع. والاعتقاد التاريخي السائد أنه لو كان باستطاعة زنوبيا حسم المعارك ضد روما عسكرياً، وذلك باستمرار الاندفاع نحو الغرب، لما تأخرت في ذلك. لذلك، وأمام الانكسار في مصر وخسارتها وعدم قدرة قواتها على التقدم نحو الغرب واندفاع القوات الرومانية الضخمة عن طريق البوسفور، قررت التراجع بعد عبور الفياق الرومانية للبوسفور للاشتباك مع قواتها في البيثينية أواخر 271 وأوائل 272، ومتايمة اندفاعها إلى غلاطية وكبادوكيا وأنقرة. وقد تطرق زوسيموس في "التاريخ الجديد" إلى ذلك قائلاً: "بعد أن وضع أورليانوس حداً لنفوضي في الغرب، تهيأ بجيشه لغزو تدمر التي سيطرت على مصر وكل منطقة المشرق، فوصلت إلى أنقرة في غلاطية والبيثينية وخلقيدون شمال غربي آسيا. لكن، ما أن سمع سكان البيثينية بزحف أورليانوس نحو الشرق حتى بدؤوا يتحركون ضد سلطة تدمر".

تقدم أورليانوس بقواته نحو الشرق، ولم يواجه مقاومة حتى وصل إلى مدينة طايانا Tyana التي أغلقت أبوابها بطريق قدومه بناء على أوامر زنوبيا. صرخ القائد الروماني وهو على أبواب المدينة - كما روى هوييسكوس: "لن أترك حياً ولو كان كلباً". لكنه، وفي اليوم التالي، قرر المحافظة على المدينة بعد دخولها، مما أدى لامتعاض الجند، فجاء رده عليهم: أن اقتلوا جميع كلاب المدينة، وذلك بعد تذكيرهم له بوعده في اليوم السابق. وحسب رواية هوييسكوس في التاريخ الأوغسطي، قام الإله أبولونيوس Apollonius، ابن زيوس، بزيارته الفاعضة والمشهورة لخميرة الامبراطور وهو على أبواب طايانا زائراً على شكل طيف في الليلة التي وصل فيها القيصر المدينة، طالباً منه الحفاظ على المدينة؟ في هذه الأثناء كانت زنوبيا تعبر بجيشها المدينة نحو أنطاكية معتقدة أنها ستختار أرض المعركة لمواجهة الفياق الرومانية ودحرها هناك.

وصلت زنوبيا بجيشها إلى أنطاكية قبل وقت من وصول أورليانوس، وأخذت بإقناع سكان المدينة بأنها وقائد جيشها زيدا⁽²⁾ سيتمكنان من حماية المدينة من الرومان. اقتربت

(1) - نادت فرق الجيش الروماني في مصر بروبوس والي مصر إمبراطوراً، وذلك بعد أن اغتال الجنود الإمبراطور ثلوريانوس في أيلول 276 م، فايدتها فرق الجيش التابعة لها في سورية، وتبعها فرق الجيش في الدالوب وإيطالية، فذهب بروبوس إلى روما حيث نادى به مجلس الشيوخ إمبراطوراً (انظر ص 25).

(2) - ذكر د. عريان شهيد في كتابه "روما والغرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان بدمشق، الصفحة 239: ((... وإضافة إلى ثرق القيادة الرومانية على القائد للتكمري للمتوسط الكفاءة العسكرية زليداس (زيدا)، يمكن تحليل الهزيمة العربية بحقيقة أن قوة التدمريين العرب كانت تعتمد بالكامل على مدينة واحدة فقط، إضافة إلى أن الفرق الرومانية لمحاربة كانت مقنطرة على صفها الإمبراطوري بكل ما يعنيه ذلك من معنى)).

فرق الرومان من الجهة الشرقية للمدينة واستعدت معسكرة خارج أنطاكية على نهر العاصي. وكان من تجهيزات الجنود التدمريين، وبخاصة فرسان الخيالة، أن يتسربلوا بالحديد والدروع، والذي كان يسبب يظماً بالحركة وشعوراً بالتعب والإرهاق بعد وقت من سير المعارك والمناورات التي تجري على أرض المعركة. كان القيصر يعلم كفاءة فرسان تدمر، لذلك وضع خطته⁽¹⁾ على غير عادته في خوض المعارك الإستراتيجية، وذلك بتشكيل خيالاته ضمن مجموعات صغيرة متفرقة، ويعيداً عن المشاة، وأمرهم بعدم الاشتباك المباشر مع جنود تدمر، وأن يناوروا بالتراجع لإيهام التدمريين بالهزيمة أمام اندفاعهم، وذلك لتشيتتهم باتجاهات مختلفة بعيداً عن مراكز قواعدهم. فوضع فيالق مشاته على طول النهر، ثم حرك خيالاته بدلاً من الاشتباك مع العدو، بحيث تظاهرت بالانسحاب أمام خيالة زنبوبيا. مما دفع زياداً وخيالاته للملاحقة المسعجين لمسافة بعيدة (بالقرب من بلدة إما Immae)، حيث سببت الملاحقة وحرارة شهر آب تعباً وارهاقاً شديدين للخيالة التدمريين وهم تحت ثقل دروعهم. حتى إذا تم ذلك، انكسرت سلسلة القيادة في جيش زنبوبيا، فالتقت خيالة أورليانوس- حسب الخطة التي أعدها للقتال، وهي تحمل أسلحة ودروعاً خفيفة بغية سرعة الحركة والمناورة ضد جنود وخيالة ورماة زنبوبيا الثقليين بالأسلحة والدروع- بالقيام بهجوم معاكس وصاعق من قوات فرسانها التي كانت تنتظر في الأطراف، وهي قوات خفيفة الحركة بالمقارنة مع فرسان تدمر الثقليين بالأسلحة والمعدات، فانقلبت الكتائب الرومانية بسرعة خاطفة على كتائب الفرسان التدمرية عماد جيش زنبوبيا، وأتبع ذلك بشن المشاة الرومان هجوماً سريعاً على تجمعات المشاة التدمريين، فأعملت بهم القتل، فتمكنوا من الإطباق عليهم، مما أدى إلى فرار البقية من جيش تدمر. وبذلك كانت هزيمة منكرة لزنبوبيا وجيشها.

انسحبت زنبوبيا وقواتها إلى داخل مدينة أنطاكية، وادعوا بانتصارهم وأسرههم للقاءد الروماني أمام السكان المحليين، وعرضهم شبيه أورليانوس في شوارع المدينة، لخوفهم من انتفاضة السكان ضدهم. وربما كان ذلك لتغطية انسحابهم من المدينة ليلاً قبل أن تصحو فتجد نفسها معرضة لدخول الرومان دون حماية.

بالتشاور مع أركان جيشها ومستشاريها، قررت الملكة زنبوبيا ترك أنطاكية والانسحاب منها بسرعة، لرؤيتها عدم الجدوى من الاستمرار في المواجهة، وذلك لأسباب متعددة، منها وجود جالية رومانية كبيرة في المدينة كانت ترى في حكم الرومان لها قضالاً على حكم التدمريين، إضافة إلى أن الأنطاكيين النصاري كانوا ضد زنبوبيا ضمناً لأنها وققت موقفاً موالياً لبؤوس السمسامطي، الذي كان عزله مجمع أنطاكية من وظيفته، بأن جعلته الرئيس الديني والدنيوي على أنطاكية، كما أن يهود المدينة كانوا أيضاً على خلاف مع الملكة لأسبابهم. فانسحبت زنبوبيا مع جيشها من المدينة متجهة إلى حمص. فدخل أورليانوس المدينة في اليوم التالي ومنحها الأمان.

(1) HA.. V, Aur, 25, 1 and Zos. 1, 50, 3 -

مرة أخرى ظهر طيف وسيط الوحي أبولونيوس في حضرة أورليانوس طالباً منه الحفاظ على المدينة، كما في الليلة السابقة لفتح طايانا.

وضعت الانتصارات الرومانية في أسية الصغرى زنبويا ورجال حكمها في وضع لا يحسدون عليه، إذ بدأت المدن والبلد التي كانت إلى جانبها تأخذ جانب الرومان لإدراكهم عزم الرومان على القضاء على حكم تدمير وإخضاعها لحكم روما، خاصة أنهم يسمعون عن جيش أورليانوس الهائل القادم لهذا الغرض، وأن إرادة الآلهة قد قضت بذلك، إلى نهاية ما بثته دعاية الرومان وأعداء تدمير للتأثير على معنويات زنبويا وجيشها.

تعقب أورليانوس زنبويا وقواتها متجهاً إلى حمص، فاستولى على عدد من المدن وهو في طريقه إلى حمص. وكان جيش تدمير يستمد لمواجهة الرومان في منطقة خالية فسيحة تقع إلى الشمال من مدينة حمص. وقد كان هذا الاختيار مستغنياً، في حين كان بمقدور زنبويا الاعتصام وراء أسوار مدينة حمص وقلمتها. ولوفعلت ذلك، فلربما تغير مسار المعركة؟ اشتبك الفريقان في معركة حامية الوطيس كسب فيها التدمريون الجولة الأولى، لكن قيادة زنبويا لم تتعلم من أخطائها في معركة أنطاكية بعدم الاستمرار بملاحقة الفرسان الرومان بعيداً عن مراكزهم، والبقاء قريبين من مشاتهم. مما جعل القيادة الرومانية بخيراتها القتالية المتراكمة (الطرق القتالية المتعددة والمفاجئة؛ تشكيلات فيالق المقدمة، قوات التحالف، والوحدات الاحتياطية..) عبر العصور أن تستغل هذا الضعف، فقررت مهاجمة تجمعات المشاة التدمريين عند ابتعاد فرسانهم عن تجمعاتهم وهم يطاردون خيالة الرومان التي- حسب الخطة الموضوعية- أوهمت الخيالة التدمريين بالهرب، فبدؤوا بمطاردة الخيالة الرومان بكل ما أوتوا من قوة وسرعة، وكأنهم غير مرتبطين بخطة قتالية معدة، فأصابهم التعب وهم مشلولون بدروعهم وأسلحتهم الثقيلة، فانكسرت سلسلة القيادة مرة أخرى كما حدث في أنطاكية. وهكذا قامت فيالق الرومان بالإطباق على مشاة زنبويا، فمزقوها شر ممزق، فجلت الهزيمة بجيش تدمير، مما اضطرها للانسحاب بسرعة وترك حمص، متجهة إلى ملاذها الأخير داخل أسوار تدمير. وقد جاء في رواية زوسيموس تعليقاً على هذه المعركة: "إن الكثير من فرسان تدمير وقعوا في أسر المشاة الفلسطينيين الذين شكلوا فكي كماشة، فكانوا بأسلحتهم الخفيفة أقدر وأسرع في الحركة والمناورة".

نجت زنبويا وبقية جيشها من معركة حمص متجهين إلى تدمير التي تبعد 160 كم. وبدؤوا يتحصنون داخل أسوار المدينة العالية المنيعة والمعدة بشكل دفاعي جيد لمقاومة الحصار.

حصار تدمر

دخل أورليانوس بجنوده مدينة حمص، وكان أول شئ قام به الذهاب إلى معبد إله الشمس الحمصي، حيث قدم له الشكر والامتنان لانتصاره على زنبوبيا وعلى التدمريين⁽¹⁾. وقرر وهو على رأس الجيش الزحف بسرعة إلى تدمر قبل أن تتمكن الملكة زنبوبيا من استكمال تحصين المدينة والاتصال بالقبائل العربية المحيطة بالمنطقة وتحشدها، أو حتى الاتصال بالفرس لعقد التحالف معهم للتصدي للزحف الروماني. وصل حشد أورليانوس إلى أطراف تدمر- رغم الصعوبات التي لاقاها لأنه كان يحث السير مسرعاً، وقد اعترضه الكثير من الأعراب- وألقي الحصار على المدينة الحصينة، بحيث أحاطت الفرق الرومانية معسكرة في جميع أطراف مدينة تدمر، وبدأت بالاستعداد للهجوم بعد راحة مقررّة من عناء زحفها السريع من حمص إلى تدمر. وفي الوقت الذي كانت زنبوبيا تقوم بتفقد مستويات الدفاع على الأسوار، كان المدافعون قد فرغوا من إعداد الآلات الحربية والمنجنيقات والقذائف والرماة فوق الأسوار وعلى الأبراج، وهم يهزؤون بالقوات الرومانية التي تحاصر الأسوار كما لو أنّ استيلاءها على المدينة أمر مستحيل (Zos. 2-3, 1, 53).

بدأ الجيش الروماني باقتحام الأسوار، فرد المدافعون بمواجهة القوات المهاجمة بشدة وضراوة بإلقاء الحجارة والقذائف وكتل النيران المشتعلة عليهم. وهكذا، استمر الحصار على المدينة دون أنّ يستطيع القيصر الروماني اختراق الأسوار رغم تكرار محاولات الاقتحام، حيث ظهر أنّ القيصر لم يكن على دراية تامة بدفاعات المدينة من داخل الأسوار وعليها. حتى وصلت الأخبار إلى روما، التي أخذت تسخر من عجز القيصر عن فتح المدينة والتغلب على امرأة، مما أدى إلى ضيق أورليانوس الشديد من ذلك، فاقسم على فتح المدينة وهزيمة زنبوبيا مهما كلفه ذلك. مع ذلك كتب مخاطباً مجلس الشيوخ الروماني لرد التهمة عن نفسه: " قد يسخر مني البعض لمحاربتني امرأة، اعلموا أنّ زنبوبيا قتلت أفضل من أشجع الفرسان".

تكبد الرومان الكثير من الخسائر من قبل الرماة دون مقابل في الجانب التدمري واندفعت قواتهم بالهجوم من كل الجبهات وبوقت واحد، وهي تحت دروعها انقاء رماة الأسوار والقذائف، وتكررت محاولاتهم مرات عديدة، خلال أيام، إلا أنها ردت جميعها على أعقابها متكبدة خسائر كبيرة. انضح للإمبراطور أنّ اقتحام الأسوار غير مجد، فبدأ بتغيير خطط الهجوم أكثر من مرة؛ فحفر خندقاً دائرياً خلف عساكره لحمايتهم من مفاجئات حلفاء تدمر من القبائل العربية على أطراف تدمر البعيدة، وبإقامة جدار باستعمال أشجار النخيل المحيطة مقابل الأسوار وأمام قواته من ناحية المدينة، وبناء ممر

(1) - المقشق، السنة الأولى، للجزء 22، ص 1036، لعام 1898م.

معلق يمدّه فوق الجدار لتسهيل هجومه، وبناء أبراج متحركة، فكان المقاتلون التدمريون يقومون ليلاً ونهاراً بتخريب ما بناه الرومان. لكن الرومان، بعد أن قطعوا معظم الأشجار المحيطة، نجحوا في بناء أبراجهم الهائلة والمختلفة الأحجام وإعدادها وتجهيزها مع آلات المنجنيق لبدء الهجوم الضاري، وذلك بعد أن تم استكمال جميع الاستعدادات، إلا أن النتيجة لم تتغير إلى ما خطط له أورليانوس، بل على العكس شعر التدمريون بقدرتهم ونجاحهم بكفاءة برد جميع محاولات الهجمات المتكررة. ورأى كل من الفريقين المتحاربين أن استمرار الحصار سينهك الخصم ويقوده لطلب الاستسلام أو الانسحاب، مع ذلك استمر في عض الأصابع، في الوقت الذي لم ينقطع فيه تدفق الإمدادات العسكرية والتموينية إلى القوات الرومانية من حاميتهم المعسكرة في أنطاكية.

طال الحصار دون أمل بفتح المدينة. فبدأت مظاهر التعب والإرهاق تظهر تباعاً على جيش أورليانوس، والشعور بالغضب من الفشل في اختراق الحصار، ومن رؤية رفاقهم من الجنود يسقطون الواحد بعد الآخر بفعل بالمقذوفات النارية والحجرية وبرمح وسهام رماة تدمر المنطلقة من فوق الأسوار، حيث كان الرماة فوق الأسوار يمارسون براعتهم في قتل الجنود الرومان وهم تحت أقدامهم. بدأت مظاهر الهرج والمرج والتدمر بين صفوف الرومان احتجاجاً على هذا الوضع وهم يرون رفاقهم يسقطون أمامهم. أدرك الامبراطور أن استمرار الحصار سيؤدي في النهاية إلى تناقص شديد في المؤن داخل الأسوار. لإحكامه الحصار خارج الأسوار لمنع أي مؤن إلى داخل المدينة. وبدأت التقارير تصل إليه عن ازدياد النقص في الغذاء والماء والمؤن داخل المدينة، مما جعله يمدد الحصار فترة أخرى.

وضع أورليانوس الخطط للقيام بالهجوم وفتح المدينة مهما كلفه ذلك، إذ أنه كان يرى أن سمعته وتاريخه كقائد عسكري وامبراطور لروما سيدة العالم في الميزان أمام مجلس الشيوخ الروماني وأمام مواطنيه وأمام التاريخ، خاصة أن امرأة هي من يقف في طريق تحقيق أهدافه. لكنه قبل أن يقوم بالهجوم قرر أن يعطي الملكة زنوبيا فرصة للاستسلام، ولتوفير خسائره نتيجة للهجوم المزمع تنفيذه، بأن كتب رسالة⁽¹⁾ باليونانية إلى الملكة يطلب منها الاستسلام مقابل الإبقاء على حياتها وأفراد عائلتها، وجاءت كما يلي: " من أورليانوس، امبراطور العالم الروماني ومستعيد الشرق، إلى زنوبيا وكل الآخرين المرتبطين بالتحالف معها في الحرب. يجب عليك أن تختاري بإرادتك الحرة ما أملكه في كتابي هذا، إذ أمرّك بالاستسلام، متعهداً بالإبقاء على حياتك أنت وأولادك، إذ ستقيمون في المكان انذي أقرر، وسأقوم بذلك كأعظم ما يتفخيه أنبل عضو في مجلس الشيوخ. كما يجب عليك أن تسلمي مجوهراتك وذهبك وفضتك وحريرك وخيولك وإبلك، كله، إلى خزانة الدولة الرومانية. وعلينا المحافظة على حقوق الناس في تدمر".

(1) - رواية هوميوس في مخطوطات "التاريخ الأرغسلي".

رغم معرفتها أنها في النهاية لن تستطيع هزيمة أورليانوس، لكنها لن توافق على الاستسلام. وكان رأي بعض مستشاريها الموافقة على ما طلبه أورليانوس بالتخلي عن الأقاليم التي احتلتها (مصر وأرمينية وآسية الصغرى) والإبقاء على مدينة دمر والمناطق المجاورة وسورية، لكن لونجينوس مستشار الملكة الأول لم يوافق على ذلك، وذلك لإدراكه من محريات التاريخ وخاصة تاريخ الشخصية الرومانية وتاريخ أورليانوس، بأنه لن يكفي بذلك بعد تنفيذ شروطه. فكان السؤال المطروح للنقاش في مجلس الملكة هو: إما الاستسلام أو الاستمرار بالمقاومة (المصدر السابق). قامت زنوبيا بالرد، بعد التشاور مع مستشاريها وأركانها، بالرسالة⁽¹⁾ التالية التي كتبها نيكوماخوس باللغة الآرامية كما أمثلتها عليه الملكة، وتم ترجمتها إلى اليونانية لإرسالها إلى أورليانوس: .. من زنوبيا ملكة الشرق، إلى أورليانوس العظيم Aurelianus Augustus: لم يتجاسر أحد من قبل بالكتابة لي: أن أثمر بما تطلبه الآن. تريدني أن استسلم لك. أنسيت أن الغلبة تكون بالشجاعة والبسالة لا بتسويد الصفحات، ألا تعلم أن كليوبترا أثرت الموت على حياة الذل بالاستسلام والأسر. فما أنا منتظرة حشود حلفائنا من الفرس والآرمن والعرب آتية من كل صوب، فإنك عندئذ، وبكل تأكيد ستترك غطرك هذه التي تأمرني الآن بالاستسلام⁽²⁾.

تكررت هجمات الفيلق الرومانية بمختلف أنواع تجهيزاتها واستعداداتها دون تحقيق نتائج مرجوة. بيد أن نقص المواد التموينية الشديد بدأ يقلق الملكة ومعاونيها، إلى حد أصبح الاستمرار على تلك الحالة غير ممكن لأن المتبقي من المواد الغذائية بات لا يكفي إلا أياماً معدودة، وإلا قائلنا داخل المدينة قد تبدأ بالتعرض للجوع. وأن انتظار قدوم قوات التحالف من الأعراب والآرمن الذين يمسكرون بعيداً عن أطراف المدينة قد طال. وقد بعث أورليانوس رسولاً إلى قادة التحالف من الأعراب والآرمن للتفاوض معهم واقناعهم بالتحالف معه بدلاً من تحالفهم مع ملكة مهزومة لا محالة، فتمكن من إنجاز الاتفاق لمصلحته.

استمر الحصار حول المدينة⁽³⁾، في الوقت الذي كانت زنوبيا تعمل على كيفية تأمين المساعدة من جانب الفرس الذين كانوا أعداء مشتركين لتدمير رومما. وخرجت زنوبيا من المدينة عن طريق ممر سري، وتم ترتيب الاستعدادات عند نهاية الممر السري وراء خطوط الرومان مع إبل السباق والمرشد الصحراوي، وقصيلة من الفرسان المعروفين بإقدامهم وبأسهم. حيث كان قد تم الاتفاق على اللقاء أفراد الفريق وهم متفرقون عند نهاية الممر السري. كما تم وضع فريق آخر مزود بالقوارب اللازمة على ضفة نهر الفرات الغربية لحمل أفراد الفريق والإبل معهم لاجتياز النهر إلى الجانب الشرقي منه. عبرت الملكة

(1) - أصبحت صياغة هذه الرسالة التاريخية موضوع خلاف شديد بين المؤرخين والدارسين؛ بين من يرى أن كان وراء هذه الصياغة هو لونجينوس، مستشار الملكة الأول، وبين رأي آخرين أنه حاول أن يثني الملكة عن كتابة رد بمث هذا التحدي؟

(2) - فويسيكوس: "التاريخ الأوغسطي"، 26، 27.

(3) - ذكر بعض المؤرخين أن حصار أورليانوس لتدمر استمر لأربعة أشهر تقريباً؟

وبعض من فريقها الممر السري ليلاً، واجتمعوا عند نهايته الأخرى، فشدوا الرحال السريع نحو شاطئ القرات الغربي لاجتيازه إلى الضفة الشرقية على ظهر المراكب التي كانت تختبئ وراء الأشجار الكثيفة في المكان المتفق عليه.

ظهرت فرقة الجنود الرومان الخاصة المكونة من مائة جندي مع قائدهم (Centurion) ⁽¹⁾ فجأة عندما كان فريق الملكة يصعد إلى المراكب، فأنطبقوا على زنوبيا ومن معها، ثم اقتادوا الجميع عائدين إلى معسكر أورليانوس حيث مثلوهم أمام الامبراطور في خيمته. ومن غير الواضح حتى هذا التاريخ كيف علم القيصر بخطة زنوبيا. حينما كانت تهم بعبور القرات، على قارب، أسرها الجنود الرومان الذين ربما كانوا ينتظرونها هناك، أو ربما كان توقفاً واستيقاظاً من القيصر. وافق مجلس المدينة المحاصرة بعد مشاورات كثيفة على شروط أورليانوس دون قيد أو شرط ما عدا المحافظة على حياة زنوبيا وابنها، وتقديم وعد شفهي بالمحافظة على المدينة والأسوار والسكان، وذلك بعد أن علموا بأسر ملكتهم ⁽²⁾، ففتحوا البوابات وأعلنوا الاستسلام وذلك في بداية عام 273.

ثم يرسل الفرس الماسانيون نجدهم ومدمهم من أجل نصرة ملكة تدمر- بل من أجل هزيمة الرومان أعدائهم التاريخيين لو فعلوا- لأنهم كانوا متشغلين بأمورهم الداخلية بعد موت شابور الأول سنة 271، حيث تولى بعده هرمز الذي كان ملكاً ضعيفاً، وعزل بعد سنة من حكمه، فبدأت الفتنة الداخلية تطل برأسها، ولذلك لم يكونوا في الوضع الذي يسمح لهم بفتح مواجهة جديدة مع الرومان. أما قبائل الأعراب التي كانت تعول عليهم زنوبيا فقد انقلبوا على تحالفهم معها وانضموا إلى أورليانوس الذي أقنعهم بهزيمة زنوبيا الحتمية وأغراهم بوعوده إن وقفوا إلى جانبه، وإلا سيلحق بهم الغضب الامبراطوري ⁽³⁾.

(1) - قائد الفصل أو الفرقة من مائة جندي في الجيش الروماني. ولكيفية إلقاء القبض على زنوبيا، انظر: HA, V, Aur, 26, 1-4.

(2) - أروحي المؤرخ اليوناني الأصل زوسيموس في "التاريخ الجديد": أن الخيانة في معسكر زنوبيا كانت وراء أسر الملكة على ضفاف القرات. علماً أن زوسيموس كان متأخراً على "التاريخ الأوغسطي" الذي أخذ منه معظم المؤرخين اللاحقين. فقد كتب "التاريخ الأوغسطي" في القصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، بينما كتب "التاريخ الجديد" في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع. ويروي عرفان شهيد في كتابه "روما والعرب"، ص 193، الحاشية رقم 2، ترجمة قاسم سويدان، بأن مصادر زوسيموس في "التاريخ الجديد" عن قليل العرب كانت في معظمها من ديكسيبوس Dexippus، ومعظم مصادرهم من زنوبيا ومالوية من يونايبوس Eumapius. كما ذكر شهيد في كتابه المشار إليه في الصفحة 197، كائلاً: (كانت تدمر زنوبيا هي ما استفاض زوسيموس في الحديث عنه، بحيث وضع لها رواية بولغ في طولها حتى أغنت التي حشر قسماً من الكتاب الأول من "التاريخ الجديد": 1، 44، 50، 61).

(3) - ذكر شهيد في كتابه "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كنوان، ص 76، الحاشية رقم 1، كائلاً: (من الصعب القول من كانت هاتين الوجدتين من اللغزمان السريين. لكن المؤثر حقاً هو الاعتقاد لهما كائلا الوجدتين اللتين جارتا معه ضد التدمريين (مع أورليانوس) وللتان لم تكونا إلا من عرب التوحيين الذين كانوا على هداه متأسل مع التدمريين).

وكتب جواد علي في "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، ص121: (وأما القبائل فأمرها معروف، إنها مع لغوي ما دام قروياً، فإذا ظهرت عليه علامات الضعف، صارت مع غربي. تحرض قسم منها بجيوش الزويان المحاصرة للمدينة وهاجمتها، غير أنها منيت بصائر فاحشة، فركبت التحريض للمحاصرين. ورأى قسم منها الاتفاق مع القيصر،

ويقال، حسب رواية "التاريخ الأوغسطي"، أن أورليانوس منع جنوده الغاضبين من استباحة المدينة. وقيل مفادرتة ترك فيها حامية رومانية من ستمائة رجل وأمر عليهم ساندريون Sandarion، ثم غادر تدمر باتجاه الغرب.

وحسب رواية زوسيموس في كتابه "التاريخ الجديد"، ورواية فوبيسكوس عن أورليانوس في "التاريخ الأوغسطي"، أجريت محاكمة زنوبيا ومساعدتها في حمص، فأبقى أورليانوس على حياتها لعرضها في مكعب النصر العظيم الذي كان يخطط لإقامته في روما. وأجريت محاكمة لونجينوس ونيكوماخوس والبقية، لأن زنوبيا ألفت باللائمة عليهما أنهما كانا وراء صياغة الرسالة إلى الإمبراطور، وأنهما من كانا وراء تمرد تدمر ضد القيصر⁽¹⁾. ذهب البعض بعيداً بأنها وضعت اللوم كله على لونجينوس، إلا أن آخرين رأوا أنها أكدت بالأدلة خلال المحاكمة على عدم مسئولية أي من مستشاريها⁽²⁾. وقيل إن القيصر وضع اللوم على المستشارين عن عمد ومعرفة للإبقاء على حياة زنوبيا. وقيل أيضاً إن القيصر لم يرغب برؤية لونجينوس خلال المحاكمة خشية أن يحمله منظره الوقور عن الإحجام عن قتله؟ ويروى أن زنوبيا طلبت من القيصر العفو عن لونجينوس، فأبى، فطلبت أن تعذب بدلاً منه، لكنه رفض ذلك أيضاً؟ وقيل أن القيصر كان يعني نفسه بموافقة زنوبيا على الزواج منه؟ أو أنه أراد الإبقاء عليها لعرضها في عيد النصر في روما، كما أسلفنا؟

استقبل لونجينوس الموت بشجاعة كفيلسوف، فلم ينس بشكوى أو استعطاف، ولم يبد أي نوع من الخوف أو الرهبة، وهون الأمر على أصدقائه الحاضرين بتفويض إعدامه بثبات سقراط الهادئ وهو يتبع جلاديه، فمات كرجل شجاع لم يشعر برهبة الموت. ولم يدرك القيصر الروماني أنه بإعدامه لونجينوس إنما يعدم أهم وأنفس ثروات تدمر والعالم، كما لم يدرك أيضاً أنه حرر روح لونجينوس الفيلسوف من المهانة، وهنا يصدق قول المؤرخ وايت هيد معلقاً على مقتل الرومان لأرخميدس في القرن الثالث قبل الميلاد على مقتل لونجينوس أيضاً، حيث قال: " لقد كان الرومان من سلالة عظيمة، إلا أنهم ابتلوا بالعقم إذ انصرفوا عن التأمل واهتموا بشؤون الحياة".

وصلت الأخبار إلى أورليانوس وهو في مدينة تراقية بطريقه إلى روما، تعلمه بتمرد تدمر وقتل قائد وأفراد الحامية التي تركها هناك، وإقامة أنطيوخس بن حيران أخ أذينة ملكاً عليها. فقرر العودة مسرعاً إلى تدمر، حيث فاجأها بسرعة عودته، فأسلم المدينة لجنوده يميثون فيها هدماً ودماراً وتخريباً في كل ما كانوا يصادفونه من البشر والنجس،

كما الذي يجنيه سادات القبائل من ملكة محاصرة لم يبق من ملكها غير مدينة في باحة وثروة سيستولي عليها الرومان...
لذلك اصطفاوا مع الرومان).

(1) - فوبيسكوس، "التاريخ الأوغسطي": حياة أورليانوس Historia Augusta, Vita Aurelianus.
(2) - جاء في "روما والعرب"، عرقان شهيد، ترجمة كاسم سويدان، ص 198، دار تكوين بدمشق، جاء لزم زنوبيا لنفسها من خلال العرض الشرعي المعلن (1-56 من تاريخ زوسيموس الجديد Historia Nova) بأنهم أصدقائها بمن فيهم لونجينوس الذي كان المحرض على الثورة التي قادت إلى الوقوع في حبس التقدير، وبما يعني تضمين الخيانة: أنها كانت تنهي على أصدقائها في أوقات اليسر وتخرجهن في أوقات العسر.

فهدموا روائع المدينة، ودكوا الأسوار وهدموا الأبراج وقوضوا الأبنية وجعلوها خرائب تدمر التي ما تزال تشهد على جهل من سمح لهم بذلك.
توجه القيصر إلى مصر، التي كانت قد أعلنت العصيان على سلطان روما طلباً للاستقلال، فاحتل الأسكندرية وقبض على فيرموس قائد التمرد، وحكم عليه بالصلب.

أورليانوس قاهر زنبوبيا

ولد أورليانوس^(١) Lucius Domitius Aurelianus سنة 214 م لعائلة فقيرة. وكان والده أجنبياً يعمل في أرض لعضو من مجلس الشيوخ يدعى السيناتور أورليانوس، فتكنت عائلته بالاسم. وقتل في عام 275. ترقى أورليانوس من جندي عادي فصعد التسلسل العسكري خلال خدمته في الجيش الإمبراطوري، وحصل على درجة الامتياز العسكري على جبهة الدانوب، حتى وصل إلى أعلى الرتب العسكرية. وفي عام 268 قاد أوريلولوس Aureolus تمرداً ضد الإمبراطور غالينيوس، في الوقت الذي كان أورليانوس يقود فرقة من الخيالة في شمال إيطاليا، حيث كان يشارك في حصار ميلانو تحت قيادة الإمبراطور، وهناك على أطراف مدينة ميلانو شارك بمؤامرة اغتيال الإمبراطور. فقد كان صاحب فكرة إطلاق إشارة التحذير ليلاً لدفع الإمبراطور للخروج من خيمته حيث تم اغتياله. كان أورليانوس منافساً قوياً لماء العرش الإمبراطوري الذي فرغ للتو بمقتل الإمبراطور، فتم اختيار كلوديوس غوتيكوس إمبراطوراً. ولأن أورليانوس كان معروفاً بالزماء بتطبيق النظام والتسلسل العسكري الصارمين قام كلوديوس الثاني بتعيينه بمنصب سيد الخيالة في الجيش الروماني، فاعتبر حينها أقوى شخصية عسكرية في الجيش الروماني. وعند موت كلوديوس الثاني غوتيكوس سنة 270، أصبح التاج، بعد خلاف مثير للجدل، من نصيب كونتيلوس Quintillus شقيق الإمبراطور السابق. وبناءً على الأوامر، تحرك أورليانوس على رأس حملة عسكرية للقضاء على تمرد القوط الذين كانوا يحاصرون Anchialus Nicopolis. وبعد انتهاء الحملة (آب 270) وعودته إلى قاعدته في سيميوم Simium أعلن أحقيته بالعرش الإمبراطوري، حيث لم يجرؤ حينها أحد على معارضة ادعاء أقوى رجل عسكري في الإمبراطورية. وبسرعة تم اصطفااف القادة وراء القائد الدانوبيي الصارم- الذي أطلق الجند عليه لقب: القابض على السيف - تاركين وراءهم الإمبراطور لوحده في Aquileia، فأقدم على الانتحار.

سار أورليانوس بقواته للقضاء على عبور قبائل الجوت ممر Brenner في شمال إيطاليا، حيث فاجأهم بسرعة ووصله، فانهزموا شر هزيمة قبل أن يتمكنوا من عبور الدانوب، فوقع معهم معاهدة بشروطه. عاد بعدها إلى روما، فصادق مجلس الشيوخ على تعيينه إمبراطوراً، وبقي كذلك إلى أن تم اغتياله من قبل كبار ضباط جيشه سنة 275 م.

^(١) Vopiscus: Aurelianus' Conquest of Palmyra. XXV-XXXIV, Historia Augusta -

لم يضع القيصر الجديد الكثير من الوقت في روما، إذ سار مباشرة إلى الشمال لهزيمة تحالف البرابرة الفاندال والسرماطين الذين عبروا الدانوب، فهزمهم سنة 271، ثم سمح للفاندال بالعودة إلى موطنهم بعد أخذه 2000 فارس من خيالاتهم لينضموا إلى الجيش الروماني. ومع استمرار البرابرة: الجوت، الماركوماني، والبرابرة المنحدرين من مناطق الألب، بتمردهم وصعوبة القضاء عليهم، بادر مجلس الشيوخ في روما إلى الإعلان عن الإطاحة به. ولارتكاب البرابرة خطاهم القاتل بتقسيم قواتهم إلى فرق صغيرة للتوسع باحتلال الأرض، قدموا لأورليانوس دون أن يعرفوا فرصته الذهبية لتمزيق قواتهم المتفرقة الواحدة بعد الأخرى. واضطر بعدها للعودة مسرعاً إلى روما، فسحق تمرد المشايخين دون رحمة، وقام بقتل المناوئين والمحرضين من أعضاء مجلس الشيوخ ومصادرة أملاكهم، فمات الآلاف. بعد ذلك قام ببناء سور حول روما، وسماء سور أورليانوس. ولم تواته الفرصة منذ اعتلائه العرش، حيث قضى معظم وقته في قتال البرابرة والمتمردين الذين سرعان ما انتهى من أمرهم. غير أن التهديد الحقيقي استمر من جانب الامبراطورية الغالية في الغرب، ومن جانب زونوبيا في الشرق، فقرر سحقهما. ورأى أن يبدأ بتدمير باعتبارها تشكل التهديد الأخطر، التي توسعت بسرعة باحتلالها مصر التي كانت تشكل مصدر الغلال والمؤن لروما، وكامل سورية، وميزوبوتاميا، ومناطق شاسعة من آسية الصغرى. لذلك جهز حملته واتجه نحو الشرق في ربيع 272 م، فتغلب على عصابات النهب والسلب من القوط خارج تراقية (غربي البحر الأسود) وعبر الدانوب. ثم أكمل زحفه ضمن آسية الصغرى دون تحد يذكر، إلى أن وصل إلى مدينة طايانا، فدخلها بعد مقاومتها. ولم يسمح لقواته بنهب المدينة ليقدّم مثلاً لأي مدينة أو منطقة يفتتحها إن عادت أو تعاونت في العودة إلى الامبراطورية، فكان سلوكه حكيماً وملمهاً. وبذلك استرجع العديد من المدن الإغريقية، وكامل ولاية مصر بدون قتال يذكر.

وصف المؤرخ الروماني فوبيسكوس (أحد المؤلفين الستة لسير للتاريخ الأوغسطي) أورليانوس بـ: "الرجل الوسيم، الأقرب للطلول، المقتول العضلات، الذي يمتلك رشاقة وكياسة رجل شجاع، المغم بالشراب والطعام..". كان أورليانوس على خلاف الأباطرة الرومان الذين سبقوه مباشرة موهوباً ومفعماً بالنشاط والحيوية، إذ كان قائداً مدرباً محترفاً رد حملات البرابرة التي هددت الجزيرة الإيطالية على أعقابهم، وبنى أسوار روما، وقتل جميع أعضاء مجلس الشيوخ المناوئين له. وفي الوقت الذي أتمت فيه زونوبيا بناء امبراطوريتها، أحيا أورليانوس قوة روما السابقة في حوض المتوسط، فاطلق عليه لقب "منظم الدنيا".

عاد أورليانوس إلى روما بعد انتصاره على زونوبيا وتدمير، فدخل بواباتها الامبراطورية دخول الفاتحين، وأقام عرض نصره يمرور الأسرى والغنائم، ومنهم زونوبيا، أمام جمهور روما. فمنحه مجلس الشيوخ الروماني أرفع درجات الشرف والامتياز. وقد أشار فوبيسكوس إلى ذلك في "التاريخ الأوغسطي، حياة أورليانوس" بوصف مسهب للمشاهد: "... بأنه كان من أروع المشاهد: عربات تجرها الخيول، حيوانات برية، أسود

ونمور، قطعاً متوحشة، فيلة، أسرى، مجالدون.. جميعهم ساروا في شوارع روما، وكل فريق منهم يرفع لائحة ظاهرة في المقدمة تعرف الأسرى والغنائم من ستة عشر بلداً مفتوحاً ليُشاهد أهل روما.

وكانت إحدى اللوائح المرفوعة تعرف بعمرة أذينة، وأخرى بعمرة زنوبيا الفارغة، بيد أن زنوبيا سارت في العرض على قدميها دونما لائحة تعريف، لأن جماهير الزحام التي تشاهد العرض توقفت دون عناء من تكون.

وصف فوبيسكوس زنوبيا وهي تسير في العرض بالتالي: ".. زُينت زنوبيا بالمجوهرات بشكل هائل، وقد بدا عليها التعب من أثر هذا الكم الكبير من الحلي والزخارف، فكانت هذه المرأة الشجاعة تتوقف بين الحين والآخر تنوء بحملها مقيدة بالأصفاد، وقدماهما مكبلتان بالخلاخيل الذهبية، وذراعاهما وساعديها محملتان بالأساور الذهبية، حتى أنهم وضعوا قلائد ذهبية حول عنقها. وهذا ما خطط له أورليانوس الذي رأى في انتصاراته إهانة كبيرة لزنوبيا، إلا أن ما فعله لم يستطع أن يهزم روحها، فقد رفضت أن تصبح امبراطورة القيصر الذي كان قد عرض عليها الزواج لإعجابه بجمالها وعقلها وشجاعته، إذ رفضت العرض متعللة بأنها "لا يمكن أن تتزوج من عدو شعبي". وقد هددها بعرضها ذليلة في شوارع روما بمناسبة عيد نصره إن رفضت. فلو صحت هذه الرواية يكون اتهام المؤرخين لزنوبيا بأنها من كانت وراء مقتل زوجها، وأنها ألفت باللائمة على مستشاريها، وخاصة لونجينوس، خلال المحاكمة التي أجراها أورليانوس في حمص، وحكم فيها بإعدام لونجينوس وآخرين، باطلة. ويعتقد أن الرواية لفقت عمداً للإساءة لأخلاق زنوبيا وتاريخها. إذ من الصعب على شخصية كانت على درجة عالية من الفلسفة والثقافة والفن ونبل المقاصد، وفوقها جميعاً إيمانها بمشروع لإقامة امبراطورية مشرقية مستقلة عن تأثير وسلطان روما وفارس إن لم تكن عربية! ولأب سابستيان روزنتفال رأي في روايتي زوسيموس وفوبيسكوس، بحيث أبعد الخيانة والاثام عن ملكة كانت على جانب عظيم من سمو الأخلاق والعفة والثقافة. ولشهود، أستاذ التاريخ العربي قبل الإسلام في جامعة جورج تاون، وصاحب مؤلفات عديدة تبحث في هذا التاريخ، رأي تحليلي يتفق مع رأي روزنتفال، ذكره في كتابه "روما والعرب"، ترجمة مؤلف هذا الكتاب.

أرسل أورليانوس رسالة إلى مجلس الشيوخ، خلال عرض النصر الذي أقامه، ليبرر فيها سمعته بعرض عمل غير رجولي بالانتصار على امرأة، قال فيها: "كانت زنوبيا زعيمة عظيمة استلهمت الشجاعة والإقدام وهي تحرز انتصاراتها العظيمة؛ قائدة خططت بحكمة، وقبضت بشكل حازم وثابت على إدارة جيشها، وعرفت أين تستخدم النظام والضبط والريط، وأين تكون كريمة وأين تكون صارمة".

أطلق عليه الكثير من معاصريه: القبضة الحديدية *Manu ad Ferrum*، وأطلق عليه مجلس الشيوخ مستعيد العالم *Restitutor Orbis*، وأطلق على نفسه، بعد هزيمة تدمر، لقب التدمري الكبير *Palmyrenicus maximus*.

خاتمة

أدت هزيمة تدمير إلى أن أصبح القيصر حراً بالتعامل مع امبراطورية الغال المتمردة، إذ تمكن في 274 من هزيمتهم بقيادة زعيمهم تتركوس في معركة Campi Catalaunni. وبذلك استطاع أن يدير أمور الامبراطورية من خلال انتصاراته العسكرية في جميع مناطق التمرد والانفصال، فوحد جميع أراضي الامبراطورية من الشمال إلى الجنوب والشرق. وقام بإصلاحات اقتصادية ووضع مقاييس وإجراءات لمحاربة الاختلاس والابتزاز والاعتصاب والفساد في جميع الولايات والمناطق الإدارية، وضبط توزيع أسعار المواد الغذائية، وتم إصلاح الأراضي الزراعية، فاستعادت روما بعضاً من ألقها القديم، إلا أنه يسجل على الرجل حملات اضطهاد شديدة شنّها على أتباع المسيحية.

في نهاية عام 274 وبداية 275 اتجه أورليانوس على رأس حملة عسكرية لاستعادة ميزوبوتاميا (بين النهرين) من الفرس. وفي الطريق، لميس بعيداً عن أسوار بيزنطة، عسكر لبعض الراحة في مكان يقال له Caenophurium، وهي مدينة تراقية تقع بين بيزنطة وبيرينثوس Perinthus، حيث اكتشف فساد مستشاره الخاص منيسثيوس Menestheus، فتوعدّه بأنزال عقوبة الإعدام. ولخوف المستشار من العقاب أبغى عدداً من ضباط الحرس الامبراطوري أنّ الامبراطور ينوي التخلص منهم، بأن أطلعهم على وثيقة من صناعته تضم أسماءهم، زورها بتوقيع أورليانوس. ونجحت خطته بدفع هؤلاء الضباط بقيادة قائد الحرس الامبراطوري موكابور Mucapor التراقي باغتيال القيصر في خيمته بطعنه حتى الموت، ودفن في نفس المكان. وقد استمر حكمه لمدة خمس سنوات كانت إنجازاتها عظيمة، مع أنه شن حملة اضطهاد ضد أتباع المسيحية، وبعد موته، عظمه مجلس الشيوخ الروماني.

لم يعرف كم عاش وهب اللات⁽¹⁾ بعد أسره مع أمه. وقد انتشرت الشائعات أن أورليانوس عفا عن زنوبيا ووضعها في فيلا في تيبور⁽²⁾ إحدى ضواحي روما، فتكيفت مع حياتها الجديدة بالزواج من أحد أعضاء مجلس الشيوخ وعاشت كعقيلة رومانية في فيلتها في جو من الرخاء، فأصبحت فيلسوفة مشهورة ونجمة من نجوم المجتمع⁽³⁾. قدّمت لها فيلا تيبور من الامبراطورية التي ناصبتها العداء والتمرد. وأنجبت من زوجها عدداً من البنات تزوجن من رجال عائلات رومانية نبيلة. وتقول رواية أنها انتحرت تجنباً لمهانة عرضها في روما، وذلك بالإمتناع عن المأكّل والمشرب وهي في طريق أسرها حتى ماتت. إلا أن رواية الانتحار غير معتمدة، فقد عاش أحفادها في القرنين الرابع والخامس، وتأكد

(1) - تناولت روايات عديدة أقدار وهب اللات مثلما تناولت أقدار أمه، فمن قتل لأنه غرق مع بعض رغبته في البوسفور خلال حير قوت أورليانوس، ومنهم من قال أنه عاش في روما، ومنهم من قال أن بنتاً زنبياً من زواجها الروماني زوجها من بعض أعيان رومان... إلخ.

(2) - Edward Gibbon, 'The Decline and the Fall of the Roman Empire'

(3) - Herbert Scholz, 'Queen Zenobia's last Look Upon Palmyra'

وجودهم في روما بشواهد مخطوطة وجدت في روما، تكتي زوجها الروماني بالاسم على شرف أذينة زوجها الأول، فنقول:

(Babilla Tyri Nepotilla Odenathiana Lucius Septimia Palaviaia) ⁽¹⁾

والتي تعني: تكتي زوجها الروماني بالاسم على شرف أذينة زوجها الأول: التدمري سيبتيموس أوديناثوس. ويرى بعض المؤرخين (من بينهم شهيد في "روما والعرب") أن القديس زنبوبوس الفلورنسي Zenobius of Florence ما هو إلا أحد أحفادها من زوجها الروماني، والذي كان أسقفاً مسيحياً في القرن الخامس.

كان قدر تدمر- التي كان يبلغ تعداد سكانها حينذاك بين 150 إلى 200 ألف نسمة تقريباً- قد تفرمق قدر ملكتها زنبوبيا، حيث أعادها الامبراطور الروماني إلى خرائب في الصحراء، إلى مبانيها وعراشها القديمة. مع ذلك بقيت تدمر مختلفة حتى يومنا هذا، وذلك ببقاء آثار أوابدها الرائعة، كما بقيت أسطورة ملكتها زنبوبيا حية في عيون وقلوب العالم كواحدة من أكثر الملكات فتنة وسعراً وجمالاً وثقافة وجسارة وإدارة ملكية، ومن أكثر قصص التاريخ إثارة وإشراقاً وروعة وتميزاً.

لا يقلل سقوط زنبوبيا النهائي من شهرتها وما حقته من الطموح والحكم والقوة وما تطلبتة مسؤوليات هذه القوة. فخلال مسيرة التاريخ البشري يظهر الكثيرون ممن فشل في النهاية، بمن فيهم القائد القرطاجي هانيبعل ونابليون بونابرت... لكنهم ظلوا عظماء في سجل التاريخ العام!

يبقى تاريخ زنبوبيا حتى اليوم مناسبة احتفالية متجددة في بلاد الشام والشرق، وتبقى روايتها حية ومثيرة، ولكن بعيدة عن الاكتمال لحياة شخصية ديناميكية وطموحة، حصلت على شهرة عظيمة وواسعة في العالمين القديم والحديث. غير أن تاريخ حياتها وسيرتها ينقصه الكثير من التفاصيل الموثقة. فمعظم الروايات التي تتحدث عنها أخذت من مصادر سيئة السمعة، وربما عنصرية، وغير موثوق بها كـ "التاريخ الأوغسطي"، التي تركت روايات قليلة ولكن فيها إسراف ومبالغة، كذلك الحال في "التاريخ الجديد" H.N. لزوسيموس الذي كان من أهم من أرخ لهذه الفترة (عن زنبوبيا وحملات أورليانوس)، حيث أسس معظم رواياته على "التاريخ الأوغسطي" الذي أئمه ستة مؤلفين لاتين، اثنين منهم: هما: تريبلوس بوليو وفلافوس فوبيسكوس Trebellius Polio and Flavius Vopiscus، اللذان كتبوا عن زنبوبيا وأورليانوس، بحيث بدا الاختلاف واضحاً بين هذه الروايات إلى حد تتداخل فيه سيرتها الحقيقية بين الأسطورة والواقع. فقد قدم زوسيموس صورة سلبية عن شخصية زنبوبيا من خلال رواية مطبنة في الطول (كتب تاريخه الحديث في بدايات القرن الرابع)، بحيث اتهمها بإلقاء اللوم على لونجينوس في الثورة، وربط نظريته عن أسباب الانحدار الروماني في القرن الثالث إلى البربرية- التي تمثل زنبوبيا إحدى مكوناتها - والمسيحية.

(1) - المصدر السابق. انظر أيضاً شهيد، ص 172، حاشية رقم 5، الترجمة العربية "روما والعرب".

طلعت تدمر سريعاً، لكنها هبطت هبوطاً درامياً وسريعاً. فقد كانت بوقت واحد عاصمة ومدينة التجارة والقوافل والصروح المعمارية والقوة العسكرية المنظمة. فتحت حكم أدينة أنقذت المشرق كله لصالح روما، وتحت زنبوبيا أصبحت امبراطورية، ثم ألحقت بروما. جاء أورليانوس فمسحها من فوق وجه الأرض، وبذلك فكك المؤسسة العربية العسكرية وأنهاها. عملية سبقها سقوط ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) إلى شابور الثاني، وأديسا (الرها) إلى غوردیان الثالث قبل ثلاثة عقود من ذلك، وقد نتج عن انتهاء المملكة التدمرية النتائج التالية:

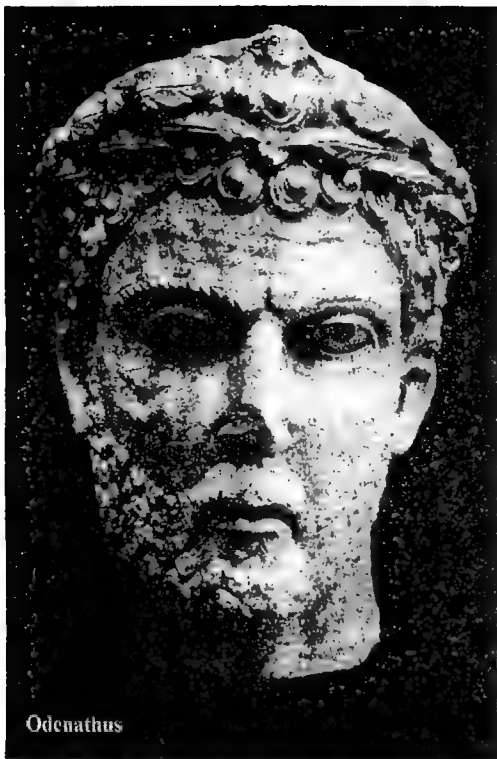
1- نشوء فراغ سياسي وعسكري جعل المواجهة بين الساسانيين والرومان وجهاً لوجه. وبذلك أصبحت المشكلة المشرقية مشكلة لروما بعد أن كانت مشكلة للفرس، وذلك بعد أن كان العرب يكياناتهم السياسية الوكيلة لروما يشكلون عاملاً مهماً في التايخ الروماني، أصبحوا الآن عنصراً مهماً من عناصر البرنامج البيزنطي.

2- اقتصادياً، تحول المركز من تدمر وميزوبوتاميا إلى غرب ولاية العربية، حيث أنشأ ديوقلتيانوس الطريق الذي ستماء باسمه "طريق ديوقلتيانا" المحمي بالقلاع والتحصينات العسكرية على طول مساره، حيث كان من ضمن التحسينات العسكرية التي قام بتنفيذها في المشرق.

3- مثل الانتقال من البتراء إلى تدمر في بداية الاحتلال الروماني للمشرق، وكما يظهر من وصف الحكاية البيزنطية خلال القرون الثلاثة التالية لسقوط تدمر بدءاً من تحسينات ديوقلتيانوس، ومروراً بالتحالف البيزنطي- العربي المتتابع (التحالف التتوخي، تحالف صالح، والتحالف الفساني) الذي اعتمد أساساً على الشكل العام للتنظيمات السياسية في العربية الشمالية قبل الإسلام، والتي اعتمدت بالدرجة الأولى على العرب المقيمين وليس على الأعراب المتنقلين أو شبه المتنقلين الذين شكلوا الغالبية العظمى من أعداد القبائل في تاريخ شبه الجزيرة العربية، إذ ارتبط تاريخ العرب جميعاً بشكل مباشر بإنشاء الطرق التجارية المارة في ولاية العربية وإحلال وتغيير هذه الطرق تبعاً للظروف السياسية والعسكرية. وعلى العكس من كل هذا، فقد شكلت القوة الرئيسية من مقاتلي القبائل العربية المتنقلة شوكة الرمح الرئيسية في ديناميكية الحركة العسكرية الإسلامية في القرن السابع.



زنوبيا ملكة تدمر
(على أحد وجهي قطعة نقدية وعلى الوجه الآخر صورة وهب اللات)



صورة تمثال لرأس أذينة ملك تدمر والشرق وزوج زنوبيا

الفصل السابع

الملكة ماوية ملكة العرب التنوخيين (ملكة الأزد)

Queen Mavia

الإمبراطورية الرومانية - البيزنطية في القرن الرابع



بدأت الأزمة الإمبراطورية تتشكل خلال القرن الثالث الميلادي بانعدام النظام وسيطرة النخبة العسكرية، فأصبح عزل الأباطرة وتنصيب آخرين حدثاً مألوفاً. وصارت الفرق العسكرية تتحكم في اختيار قادتها، وذلك بعد أن كان الجيش خادماً مخلصاً لتنفيذ السياسات الإمبراطورية. مما جعل الأباطرة ومجلس الشيوخ العوبة بأيدي رجال الجيش. ومع هذا ظهر في هذا القرن قادة أكفاء على الرغم من نزعتهم الاستبدادية؛ فَنَظَر إلى فترة حكم سبتيميوس سيفيروس على أنه كان مرحلة تحول في التاريخ الإمبراطوري والنظم الرومانية، حيث استطاع من خلال أدائه مهام منصبه تأجيل حلول الأزمة الإمبراطورية. ظهر القائد ديوقلتيانوس (دقلديانوس) في وسط الفوضى والاضطرابات التي بدأت تعصف بالدولة؛ من استبداد يعتمد على الجيش إلى ضغط القبائل الجرمانية على جبهتي الرأين والدانوب، إلى ظهور نزعات انفصالية مثلما حدث في ظهور قوة إمبراطورية جديدة ومنافسة في تدمر، إضافة إلى الخطر الفارسي في آسيا الصغرى، وسوء الحالة الاقتصادية واستشراء الفساد، وقد جاء الجندي ديوقلتيانوس من أصل دلماشي متواضع، فاعتلى العرش (284-305)، وقام بأهم عملية ترميم في البناء المتداعي بأن وضع أولاً حداً لحركات الانفصال في الغرب والشرق. ثم وجه جهوده الإصلاحية بهدف تقوية⁽¹⁾ نفوذ الإمبراطور، وتجديد نظام الجيش، وإنشاء قوة عسكرية مجهزة للمهام القتالية السريعة والحاسمة وفق رغبة الإمبراطور، وإعادة تنظيم الجهاز الحكومي، كما قام بإعادة تقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقاليم أو أقسام إدارية كبرى، جعل على رأس كل واحدة منها حاكماً إدارياً عاماً سمي أوغسطس أو قيصرًا يشاركه في حكمها، بينما احتفظ لنفسه بالسلطة العليا والإشراف العام على جميع شؤون الإمبراطورية. فاختار ماكسيميانوس أولاً ليشاركه الحكم، ثم مضى بعدها خطوة أبعد لاقتسام الحكم فاختار غاليريوس ومنحه لقب قيصر وزوجه ابنته وعهد إليه بحكم ولاية الدانوب، وكان الرابع في مجلس الحكم الرباعي قسطنطيوس كلوروس والد قسطنطين، فطلب منه ديوقلتيانوس تطليق زوجته هيلانة التي كانت تدين بالمسيحية حينها للزواج من ابنة زوجة

(1) - أطلق على هذه الفترة عصر النهضة الإمبراطورية على الدولة، والتي انقضت من 284 حتى 364 م.

ماكسميانوس لتدعيم الروابط بينهما. وبذلك أصبح قسطنطين المرشح الأول لوراثة منصب والده. وتعهد ديوقلتيانوس وماكسميانوس باعترال الحكم بعد عشرين سنة ليخلفهما خليفتهما. وقد أراد ديوقلتيانوس بهذا الترتيب أن يسد الطريق على حروب المطالبين بوراثة العرش بحيث يكون الحكم موزعاً في أربعة مراكز على رأس كل مركز منها قيصراً أو أغسطساً، لتكون على استعداد دائم لمواجهة أخطار أي تمرد أو ثورة. وكان كل قانون يصدره أي حاكم من هؤلاء الأربعة يصدر باسمهم جميعاً ويطبق في سائر أرجاء الامبراطورية دون حاجة لمصادقة مجلس الشيوخ. وقسمت ولايات الامبراطورية الرومانية تقسيماً جديداً فأصبحت ستة وتسعين ولاية إدارية. وأطلق على هذا العصر تسمية (الحكم الرباعي) الذي ضم: ماكسميانوس، قسطنطيوس كلوروس والد قسطنطين الكبير، غاليريوس، وعلى رأسهم ديوقلتيانوس (دقلديانوس).

بعد أن استبد المرض بديوقلتيانوس وشعر أنه أدى واجبه تنحى عن العرش وهو في الستين من عمره (305م). كما تنحى بنفس الوقت ماكسميانوس وفاءً لتعهده مع ديوقلتيانوس بالتنحي بعد عشرين عاماً من الحكم. وباستقالتهم لم يبق إلا غاليريوس وقسطنطيوس اللذان بدا التنازع بينهما يأخذ طابع الصراع الذي أدى في النهاية لنشوب حرب أهلية استمرت سبعة عشر عاماً، برزت خلالها شخصية قسطنطين الكبير الذي أعلنه الفرق العسكرية التي كانت تحت إمرة والده الذي مات، امبراطوراً، فتغلب على جميع خصومه ومتنافسيه، ونجح في النهاية، بين 323-324م، بتوحيد الامبراطورية، وأخذ على عاتقه إتمام الإصلاحات التي بدأها ديوقلتيانوس.

غيرت الأحداث الكبرى والتطورات التي زامنتها في القرن الرابع وجه التاريخ السابق في الامبراطورية الرومانية، وإن استمرت معالم هذا التاريخ إلى ما بعد هذا القرن. فقد شهد هذا القرن الأحداث الرئيسية التالية:

1- اعتراف الإدارة الامبراطورية بالديانة المسيحية، حيث أصدر قسطنطين الكبير مرسوم ميلانو سنة 313م، والذي سمح لاتباع الديانة المسيحية بالدعوة وممارسة شعائريائهم.

2- نقل قسطنطين العاصمة روما إلى بيزنطة سنة 330م، وسماها القسطنطينية.

3- تزايد خطر القبائل الجرمانية على كيان الامبراطورية، خاصة بعد معركة هادريانا بولس (أدريانوبول) (أدرنة الحالية) الشهيرة سنة 378م، وحصار القسطنطينية بنفس العام.

4- ثورة العرب التنوخيون الأولى والثانية (375-378، 383) بقيادة معاوية.

5- إعلان الديانة المسيحية ديانة رسمية للامبراطورية سنة 392م.

6- أدى كل هذا إلى تقسيم الامبراطورية الرومانية الكبرى سنة 476م إلى قسمين رئيسيين: غربي وشرقي؛ إذ صار الشرقي يسمى رسمياً الامبراطورية البيزنطية، والغربي الامبراطورية الرومانية الغربية. وبقي العالم الغربي بدون امبراطور حتى تنويع شارلمان

سنة 800م. وقد أدى هذا تدريجياً إلى تطور الممالك الجرمانية الناشئة (ممالك: أودوكار في إيطاليا، الوندال في شمال أفريقية، القوط الغربيون من اللوار حتى مضيق جبل طارق، البعنديين في وادي الرون والساوون، دولة الفرنجة على الميز والموزل والراين الأدنى، السويضي في البرتغال وغاليسية...) من ناحية، وتطور المؤسسة البابوية من ناحية أخرى.

قدر للقسم الشرقي (الامبراطورية البيزنطية) البقاء والاستمرار، إذ لم يتعرض لقوة وعنف الغزوات الجرمانية الخطيرة التي تعرض لها القسم الغربي إلا في نهاية القرن الرابع، كما أن السياسة التي اتبعتها أباطرة بيزنطة شجعت وسهلت الأمر للقبائل الجرمانية بالتدفق نحو الغرب من أجل الاستقرار والاستيطان هناك لإدراك القبائل مناعة القسطنطينية الاستراتيجية.

وظهر، منذ إعلان قسطنطين القسطنطينية عاصمة للامبراطورية البيزنطية سنة 330م، استخدام تعبير بيزنطة أو روما أو الامبراطورية البيزنطية أو الرومانية بتداخل وتواتر كبير بحيث كان يعني أحدهما الآخر في أحيان كثيرة. ولذلك، ظهر نوع من الارتباك بين مرامي هذه الاستخدامات.

ويمكن تلخيص تاريخ القرن الرابع باعتباره تاريخ بداية تشكل التحالف العربي البيزنطي الأول، فمرت العلاقات العربية البيزنطية في فترات الأباطرة الرومان-البيزنطيين الستة (306-395م): قسطنطين الأول، قسطنطيوس، يوليانوس (جوليان)، يويانوس (جوفيان)، والنس (فالينز)، ثيودوسيوس الكبير.

1- قسطنطين الكبير (306-337) م: كانت طموحات قسطنطين عظيمة في الشرق، حيث أحدث الانتقال من روما على التير إلى بيزنطة على البوسفور، وبنى الديانة الشرقية: المسيحية، وعزم على شن الحرب ضد العدو الوثني الساساني الفارسي في الجبهة الشرقية. وقد كان العرب يشكلون جزءاً من هذا المشرق وشمال شبه الجزيرة العربية، حيث شكلوا مع بيزنطة تحالفاتهم الرئيسية الثلاثة على مدى القرون الأربعة التالية.

افتتحت العلاقات العربية-البيزنطية من خلال عرب التحالف⁽¹⁾ بقيادة ملكهم امرئ القيس الذي مات سنة 328م في إقليم ولاية العربية، هُدفن في النمارا جنوب سورية، وسُجلت مآثره على شاهدة قبره في "وثيقة النمارا"، التي تحدثت عن فتوحاته في شبه الجزيرة العربية حتى نجران، مع ذلك لم يكن مستقلاً عن سلطة بيزنطة. فكان ملكاً على شعبه لكنه كان وكيلاً وحليفاً للرومان يحصل على المساعدات والهبات السنوية مقابل ما يقدمه من خدمات للامبراطورية. واستمر أبناؤه الذين وضعوا على رؤوس القبائل، فقادوا فرسان الخيالة العرب في خدمة روما بعد وفاته، وتحت قيادة سلاح الفرسان الروماني

(1) - يرمز مصطلح التحالف تبعاً لبيغانيول في كتابه "الامبراطورية المسيحية" إلى المجموعات الحثيثة التي أدخلها النظام الامبراطوري (الروماني-البيزنطي) لخدمة المصالح الامبراطورية في القرن الرابع، وهم من البرابرة المستقرين ضمن الحدود الامبراطورية، والذين يقتلون تحت قيادات زعمائهم في حروب الرومان.

في المشرق، وكانت وظيفتهم الأساسية حماية أطراف الإمبراطورية الجنوبية من غارات عرب الجزيرة وتأمين طرق المواصلات والحفاظ على الأمن في مناطقهم.

تقلب قسطنطين، حسب متطلبات سياساته، بين الأريوسية والأرثوذكسية، فأخذ جانب قرارات مجمع نيقية عام 325م، فنفى الأساقفة الأريوسيين، ثم انقلب إلى جانب المذهب الأريوسي في نهاية حياته، فنفى أسقف الأسكندرية الأرثوذكسي أثناسيوس سنة 336م، وسمح بإعادة الأساقفة الأريوسيين المنفيين إلى ممارسة صلاحياتهم الكنسية على مذهبهم الأريوسي، واتبع سياسة حسنة في علاقاته مع العرب من خلال ملكهم امرئ القيس في إقليم العربية، ونجح أيضاً في علاقات تحالفاته على أنهار الراين والدانوب والفرات مع الفرنجة والقوط والأرمن.

2- قسطنطيوس (337-361): استمر في اتباع سياسات والده قسطنطين في دعم المذهب الأريوسي، وفي الحرب على الجبهة الفارسية، وفي العناية بسير سياساته في المشرق.

قام المتحالفون العرب بالثورة سنة 337م، سنة تولي قسطنطيوس العرش، وذلك بعد أن وضعت نهاية المعاهدة التي كان أبرمها والده قسطنطين معهم، والتي لم تجدد. لذلك أعلنوا العصيان والثورة على الإمبراطور قسطنطيوس. بيد أن قسطنطيوس نجح في تهدئة الثورة بعد أن أعاد أساقفة مجمع نيقية الذين كان والده قد عزلهم ونفاهم (الأساقفة الأرثوذكس).

3- يوليانيوس (جوليان) المرتد (361-363): أدى خيلاء وسلوك يوليانيوس المتعالي إلى تحييد عرب التحالف، مما أدى إلى نوع من الاحتكاك والاختلاف في وجهات النظر بين الطرفين. فانضم العرب في البداية إلى حملة الفارسية على الفرات عند الرقة بالمشاركة بفرقة احتياطية من سلاح الفرسان في الجيش الروماني، وكانوا متحمسين للانضمام ليوليانيوس لتصفية حساباتهم مع شابور، فشاركوا في حملته على المدائن لاحتلالها. غير أن الفرس تمكنوا من رد الهجوم، فانكفأ يوليانيوس منسحباً إلى الخلف. وقامت فرقة الفرسان الخيالة الاحتياطية العربية خلال الهجوم الفارسي المعاكس بقطاع انسحاب الفرق الرومانية. ورافقت يوليانيوس قوات احتياطية أخرى مؤلفة من القوط والأرمن إضافة إلى العرب، لكن التركيز كان على القوات الاحتياطية العربية.

بدأت علامات عدم الرضا تظهر بين العرب ضد يوليانيوس بعد انسحابه بعيداً عن أسوار المدائن إثر رفضه دفع رواتب الفرسان العرب المشاركين وأعطياتهم المقررة. كما وجه لهم إهانة برفضه لمشاركتهم من حيث المبدأ، واحتقاره الذي لم يكن يخفيه، خاصة أنه رأى أن لاجابة إليهم بعد انسحابه. ولو أنه اتخذ موقفاً إيجابياً منهم وقدر إمكاناتهم في مثل هذه الحرب الصحراوية لكانت النتائج المأساوية التي حدثت على الجانب الروماني قد تغيرت.

لم يحسب للعرب مشاركتهم في حملة يوليانيوس على المدائن، بل ذهب إلى أبعد من ذلك باتهامهم بأنهم كانوا وراء مقتله. إذ قالت رواية المؤرخ ليبانيوس بأن أحد المقاتلين العرب الذين كانوا إلى جانب يوليانيوس، وبترخيص من مجموعة مسيحية، هو من أطلق الرمح (السهم البرثي Parthian Arrow) الذي أصاب مقتلًا من يوليانيوس. وإذا سلمنا بصحة هذه الرواية، يمكن القول عندها إن من قام بذلك إما أن يكون من مجموعة عربية كانت تتحين الفرص للانتقام منه لرفضه إعطائهم روايتهم ومكافئاتهم ولرؤيته الفوقية عليهم، أو أنه كان من العرب المتعصبين لمسيحييتهم ضد وثنية يوليانيوس، أو أن السببين معاً كانا وراء ذلك، وقد أيدت روايات المؤرخ المدني أميانوس الذي كان مرافقاً ليوليانيوس في حملته اتهام العرب بأنهم كانوا وراء مقتله.

4- يوليانيوس (جوفيان) (363-363): كان قائد جيش يوليانيوس في الحملة الفارسية، أعلنه الجند الرومان المنسحبون امبراطوراً بعد مقتل يوليانيوس، فعمد صلحاً مع الفرس على حساب روما، وأقنع المتحالفين العرب بالعودة إلى التحالف من جديد، إذ كان على مذهب العرب الأرثوذكسي. مات مقتلاً بالمدائن.

5- والنس (فالينز) (364-378): أعاد عرب التحالف تحالفهم مع الامبراطور الجديد المسيحي يوليانيوس. لكن لم يطل المقام ليوليانيوس حتى يبرسي دعائم هذا التحالف من جديد. حيث اعتلى العرش الروماني والنس الأريوسي كأغسطس مسؤول عن الشرق إلى جانب أخيه الامبراطور والنتيانوس (فالتيانوس). فبدأ باتباع سياسات ليست على وفاق مع العرب نتيجة لسياساته المذهبية. وحدثت اضطرابات في السنوات الأولى من حكم والنس في منطقة خلقيس وأفاميا وما حولهما أثارها السكان على أسس مذهبية أرثوذكسية وأسباب أخرى. لكن سرعان ما وضعت القوات الرومانية سنة 369 حداً لهذه الاضطرابات. لذلك كانت فترة السنوات العشر (365-375) فترة من الترقب والعلاقات الصعبة بين الطرفين، خاصة بعدما تأكد للمسيحيين العرب الأرثوذكس انحياز والنس للأريوسية. وهي الفترة التي بدأ تجمع العاصفة فيها بين والنس بعد تسنمه سدة العرش بعد وفاة شقيقه سنة 375 والملكة ماوية خليفة زوجها (الحواري) بعد موته بنفس السنة، حيث أعلنت الثورة التي امتدت إلى عموم المشرق تقريباً، فهزمت بقواتها من عرب التحالف التنوخي حاكمي فينيقية اللبنانية وقلسطين، ووصلت بنشاطاتها العسكرية إلى شرقي النيل، ثم تسببت في هزيمة قائد الجيوش الرومانية في المشرق في معركة ثابتة في نهاية عام 378، مما دفع والنس إلى طلب الصلح وعقد معاهدة سلام بعد استجابته لمطالبها.

6- ثيودوسيوس (387-395): ورث ثيودوسيوس من والنس عرب التحالف المسيحيين الأرثوذكس وهم على ولائهم للامبراطورية بعد توقيعهم لمعاهدة الصلح مع والنس، لكن لسوء حظ العرب شهد حكم ثيودوسيوس التزلزل بالعلاقات النمرية البيزنطية إلى أدنى مستوى على خلاف المتوقع بنشوء علاقات توافق بين الطرفين كونهما

على مذهب مسيحي واحد؛ الأرثوذكسية. مما أدى في نهاية القرن الرابع إلى سقوط أول تحالف عربي تنوخي مع بيزنطة. فقد انتهت المعاهدة التي عقدها العرب مع والنس بموته في نهاية عام 378 م. فبدأ عرب التحالف يشعرون بميل ثيودوسيوس إلى القوط على حساب مصالحهم، وذلك بإعطاء القوط مناصب عليا في الدولة والجيش، متجاهلاً العرب الذين أحسوا بأنهم يستحقون حتى أكثر مما تم منحه للقوط لأنهم من دافع عن الامبراطورية في أوقات معنتها مع القوط. ورأى ثيودوسيوس بأنباعه هذه السياسة أنه لا يستطيع إلا أن يستوعب ويسترضي القوط لدفع خطرهم، في حين أن العرب لم يعودوا يشكلون خطراً مستقبلياً، إضافة إلى أن ثيودوسيوس لم يكن يتمتع بمعرفة جيدة عن العرب، وكان يراهم بصورة سلبية، خاصة في مرارة ثورتهم خلال فترة والنس، واتهامهم بأنهم كانوا وراء مقتل يوليانيوس.

نتيجة لاستمرار تجاهل ثيودوسيوس لمتطلبات حلفاء بيزنطة العرب قاموا بالثورة الثانية سنة 383 م، إلا أن ثورتهم هذه أخمدت بسرعة وبفلس السنة. وقد أعيد فشل الثورة إلى عدة أسباب، أهمها: الوضع الهادئ على الجبهات بين الفرس والرومان، وكذلك الوضع الهادئ بين بيزنطة والقوط، إضافة إلى أن قوة العرب نتيجة خسائرهم الكبيرة في معركة هادريانابولس (أدرينوبل) والقسطنطينية قد تناقصت كثيراً. ولذلك تم دحرهم بسهولة على يد القائد الوثني الجرمانى ريخومر. فوجدوا أنفسهم بدون نصير في الإدارة الامبراطورية، خاصة أن صديقيهم وصهرهم وكثير (فكتور) كان قد استقال في السنة السابقة، ربما لأسباب تتعلق بالخلاف مع ثيودوسيوس بخصوص سياساته مع العرب. كانت سياسات ثيودوسيوس الجديدة تتبع من مصلحة بيزنطة، لأن المصالح هي من يحكم سير الأحداث وليست العواطف والصداقات، بحيث اتبع ثيودوسيوس سياسات قسطنطين باحتواء البرابرة في جسم الدولة، والقضاء على أي إمكانية لنشوء خطر يهدد الدولة مستقبلاً من قبل هؤلاء البرابرة، حيث كانت تجربة بيزنطة مع ماوية والقوط ماثلة بالذهن الامبراطوري، بالرغم من انتماء الطرفين العربي والبيزنطي في ذلك الحين إلى المذهب الأرثوذكسي.

كانت نتيجة الثورة الثانية سقوط التحالف التنوخي بقيادة الملكة ماوية. لكن تحالف تنوخ لم ينته في المشرق حتى بعد صعود عرب صالح خلال القرن الخامس، بل استمروا بلعب دورهم ضمن تحالف صالح في القرن الخامس وتحالف غسان في القرنين السادس والسابع.

شهدت إدارة ثيودوسيوس إدخال العديد من التحسينات على الإدارة العسكرية الامبراطورية، وذلك بإعادة تنظيم المشرق، ربما بسبب الثورة التنوخية الأولى والثانية، حيث قام بفصل ولاية مصر عن المشرق، وجعل فلسطين الثانية وهيثقية اللبنانية ولايتين جديدتين، والمثلين كان قد تم مهاجمتهما من قبل ماوية خلال ثورتها الأولى والثانية.

شكلت العلاقات العربية-الرومانية، والعربية- البيزنطية- خلال سبعمئة عام من الاحتلال، بداية من 64 ق.م بقيادة القائد الروماني يومبيوس، أشكالاً متعددة من النصر الروماني على العرب. وكان العدو الفارسي دائم الحضور في النصر الروماني كمدو شرس وطموح، في حين مثل العرب فيه حليفاً دائماً الحضور في التخطيط الروماني مع ما اعترضه من محاولات للثورة والتمرد طلباً للحرية والاستقلال. وأخيراً جاءت معركة اليرموك في 20 آب سنة 636 م كمقدمة بارزة في تاريخ الصراعات البشرية لانتهاء الوجود الروماني في المشرق ومنطقة المتوسط ومصر وشمال أفريقيا والقسم الشرقي من آسية الصغرى، وذلك على خلاف ما كان يعتقد الأباطرة والمخططون الرومان والبيزنطيون من أن الخطر الأساسي على امبراطوريتهم في المشرق^(١) لا يأتي إلا من جانب الفرس، إذ لم يتصوروا أبداً أن تشكل جيوش تخرج من سراب جوف الصحراء العربية في خاصرة آسية الجنوبية الغربية لتهديد العالم الروماني الواسع ودحره إلى الشمال والغرب بسرعة غير متوقعة. وما سجله التاريخ للعرب المسلمين هو امتلاكهم لروح الإيمان والقوة والجسارة على مهاجمة الامبراطوريتين العظيمتين في النصف الأول من القرن السابع وبوقت واحد تقريباً، فجاءت انتصاراتهم في معركتي القادسية واليرموك كمن يخطف الخطفة فيفوز بها كلها وفي مرة واحدة. وروي^(٢) أن هرقل خرج إلى الرها بعد أن ينس من أمر الشام، ووقف على مرتفع وألقت نحو الشام قائلاً: السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك بعدها رومي إلا خائفاً.

عندما اندفع العرب المسلمون من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع نحو الشمال لم يكن لديهم إرث حضاري شامل بالمعنى العام قياساً بالإرث الحضاري الإغريقي-اللاتيني، أو الفارسي. إلا أنهم امتلكوا، كما أثبتت وقائع التاريخ اللاحقة، قوة هائلة وروح وثابة وسرعة في استيعاب وتشرب حضارات الآخرين، إذ تعهدوا الحضارة الهلينية-اللاتينية بالحفظ والعناية والاهتمام، ثم أضافوا من الحضارات الشرقية: ما بين النهرين، والفارسية والهندية والصينية والمصرية، فغدت الحضارة العربية الإسلامية مجعماً هائلاً انصهرت فيه جميع هذه الحضارات فأنتجت حضارة جديدة نضت على العالم. وضدت اللغة العربية، لغة الكتاب المقدس (القرآن الكريم)، الوسيلة الأساسية للترجمة والربط في جميع نشاطات الحياة، مما جعل التميز في طابعها العربي العلامة الرئيسية الأولى التي قامت على دعامين أساسيتين هما: الدين واللغة، فكانت سرعة انتشار اللغة العربية لغزاً محيراً للدارسين، وأي لغز مخير في هذا إن كان الإيمان العقائدي الديني هو المحرك الأساسي وراء كل هذا الانتشار.

(١) - تعني منطقة المشرق Oriens بالمصطلحات العربية الإسلامية، والمصطلحات اليونانية واللاتينية: بلاد الشام، بين النهرين، الجزيرة العربية، ومصر. وقد شهدت هذه المنطقة معارك فاصلة انتصر فيها المسلمون العرب على الجيوش الفارسية، وعلى الجيوش البيزنطية والمتحالفين معها في النصف الأول من القرن السابع.

(٢) - القلقشندي: صبح الأعشى، ج 5، ص 397.

بدأ الإشراف العربي الإسلامي يسطع على العالم بعد بزوغ فجر الدعوة الإسلامية واتسع أطراف امبراطوريتها حتى غدت هذه الحضارة شامخة البناء. مقابل ذلك كانت الحضارة والأدوار الغربية في تراجع وانكفاء مستمرين، حيث دخل عالم الغرب فيما يشبه حالة من السبات الدائم خلال هذه الفترة الطويلة لما اصططح على تسميته تاريخياً بعصر الظلمات أو القرون الوسطى^(١). ولكن، مع بداية القرن الثاني عشر بدأت أوروبا تستفيق من سباتها، فأخذت تنهل من المعين الزاهر والفياض للحضارة السائدة. حيث بدأ الغرب بترجمة الآثار العربية الإسلامية في العلوم والفلسفة والرياضيات والطبيعة والهندسة والطب والفلك والجغرافية وجميع ألوان النشاط الفكري والعلمي إلى اللغات الأوربية حتى أصبح نفوذ وتأثير العرب الحضاري على أوربية في القرنين الثاني والثالث عشر وما تلاهما يفوق بكثير نفوذ وتأثير الامبراطورية البيزنطية.

لا يعني ما تقدم، أن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم إرث حضاري يصفهم بصفته، إذ إن إرثهم الحضاري لم يزدهر في جميع مراحل وحلقات تطوره تحت سلطة إدارية سياسية واحدة تعطيه هويته الفريدة بحيث يمكن وصفه في أدبيات الإرث الإنساني العام بالإرث الحضاري العربي، وذلك لأن الحضارات المتعاقبة التي مرت على المنطقة وصفت بحضارات دولها التي تشكلت في حينها. وكانت هوية العرب العامة ما تزال في بدايات تشكلها الأولى. وقد سبق هذا التشكل حضارات بين النهرين المتعددة والمتعاقبة التي كانت تراكم بعضها وحضارات بلاد الشام والساحل الفينيقي وحضارة وادي النيل وجنوب الجزيرة العربية التي كانت بدورها متداخلة مع ما أنتجته حضارات ما بين النهرين ومصر. وتقتضي حقائق التاريخ القول أن معين الحضارة الهلينية جاء أساساً من هذا الشرق، إذ قد تعد الحضارة الهلينية حضارة مشرقية في أساسها.

الهجرات العربية القديمة

لو أردنا ويسرعة تلخيص رواية أصل العرب لوجب أن نلتمس ذلك عند النسابة العرب الذين هالوا: إن سكان الجزيرة العربية الأصليين كانوا من قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وإرم وجرهم وغيرهم، التي بادت جميعها، ولذلك سميت بالعرب البائدة. ثم

(١) - عرف د. سعيد عبد الفتاح عاشور العصور الوسطى في كتابه "أوربية العصور الوسطى، التاريخ السياسي" بالتالي: (.. وكثير من المؤرخين لبناء المدينة القديمة يتخذون من عام 476 م حداً فاصلاً بين نهاية العصور القديمة والوسطى سنة سقوط القسطنطينية عام 1453م، وانتهت فيها حرب المائة سنة بين إنجلترا وفرنسة، حداً فاصلاً بين العصور الوسطى والحديثة. إلا أنه لا يمكن اعتبار سنة بعينها حداً فاصلاً لتحديد نهاية عصر وبداية عصر جديد). غير أن بعض المؤرخين، من أمثال بيرين الذي أصر على اتخاذ حركة الفتح العربية الإسلامية (Pirenne; Mohammed) 1924. Charlemagne, محمد وشارلمان)، في القرن السابع، وليس سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب في أواخر القرن الخامس، حداً فاصلاً بين العصور القديمة والوسطى. فالتاريخ عادة لا يتجزأ بخطوط تقسيم حادة من هذا النوع.

جاءت العرب الباقية من جديهم قحطان وعدنان، اللذان انحدر منهما العرب العاربة والعرب المستعربة. وقد غلب على قحطان اسم عرب الجنوب بحكم موطنهم الجغرافي في اليمن، بينما عرف العدنانيون بعرب الشمال لأنهم سكنوا الحجاز. لكن يبدو أن عدم وضوح هذه النظرية لم يقنع الكثير من المهتمين بكتابة التاريخ، فقالوا بوجود جد ثالث للعديد من قبائل العرب كتتوخ وتقلب وجهينة التي هي قضاة، حيث لا ينسبونه إلى شمال أو جنوب، وبذلك صار أجداد العرب الباقية ثلاثة: قحطان وعدنان وقضاة. ورواية النسابة العرب هذه قد تؤيدها مسيرة الأحداث التاريخية التي رافقت انتشار القبائل العربية قبل وبعد الإسلام.

وبالانتقال من رواية النسابة العرب على مختلف آرائهم إلى المتروكات الآثرية والكتابات الأدبية للمصريين القدماء والآشوريين واليمنيين والإغريق واللاتين نوجدنا أن مختلف التسميات والألفاظ التي أطلقت على سكان الجزيرة العربية تقيد أن كلمة عرب⁽¹⁾ وجزيرة العرب تعني الجزيرة العربية الحالية وبلاد الشام والهلال الخصيب الذي يضم الساحل السوري وما بين النهرين وجنوب تركيا الحالي وسبئاء وشرقي النيل من مصر إلى البحر الأحمر.

لكن رواية التوراة في سفر التكوين تقدم لنا رؤية أخرى، إذ يبدأ الكون عندها من نوح وأبنائه الثلاثة الذين انحدر منهم الجنس البشري بعد قصة الطوفان، إذ عمر ابنه سام وأحفاده منطقة المشرق، فانقسم أبناؤه وأحفاده إلى قبائل عديدة عرفت بالقبائل السامية، ليس العرب إلا بعضاً منها. وقد بقيت هذه النظرية مقبولة حتى بداية القرن العشرين. غير أن العلماء لم يتوقفوا عند ذلك، فوصلوا من خلال بحوثهم ودراساتهم المتعددة إلى القول: إنه لا يوجد أصلاً ما سمي بالجنس أو العرق السامي وإنما وجدت لغات سامية شقيقة مشتركة الخصائص أصلها واحد، وتتميز عن غيرها من اللغات الأخرى.

اثبتت وسائل العلوم والبحث المتعددة أن صحاري شبه الجزيرة العربية وصحاري شمال أفريقية كانت كثيفة السكان خلال ما سمي بالعصر المطير. وكانت أرضها خصبة غنية بكل أنواع النباتات والحيوانات والمجاري المائية والشروط الزراعية المناسبة لكل شروط الحياة والاستقرار. جاءت بعدها دورة مناخية طويلة توقف هطول الأمطار وأجذبت الأرض وتغير حالها من خصب وغنى ووفرة إلى شح وجذب وفقر، الذي دفع السكان إلى التماس تحقيق شروط حياة أفضل في المناطق الغنية المجاورة حيث الأمطار والأنهار والأراضي الصالحة لتأمين أسباب الحياة. وقد مثلت الهجرة السكانية من جزيرة العرب في معظم الحقبة التاريخية ظاهرة طرد بشري إلى المناطق الأكثر خصباً وغناً.

(1) - ذكر جراد على في "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج 1، ص 21، "المسند إلى الموبتعة الإنجليزية"، ج 1، ص 271 و 273: أن أول من ذكر العرب من اليونان هو أشيولوس (525-456) ق.م، ثم كلا هيرودوت وديوج الموزيني (484-425) ق.م. كما أن مخاطبة القرآن الكريم للعرب في مواضع متعددة من الآيات (12 آية) تدل بشكل واضح وصريح على أن العرب كان لهم حص ولادهم لذلك المعنى قبل الإسلام.

مثل قلب الجزيرة العربية، خلال فترات التاريخ المتعاقبة، خزاناً دافقاً ونبعاً فياضاً يغذي أطراف الجزيرة العربية الشمالية والغربية بالموجات البشرية ذات الأصل الواحد^(١). والأقوام التي أنشأت دولاً وحضارات على سواحل بلاد الشام ودخلها وفي وادي الرافدين ووادي النيل كان موطنها الأول جزيرة العرب، حيث هجرته لأسباب وعوامل طبيعية وبشرية متعددة، فاستوطنت هذه المناطق الجديدة الأكثر خصباً وغنى، فأكسبتها واكتسبت منها، إلا أنها حافظت على أصالة أرومتها. وما السومريون، الأكديون، المموريون، البابليون، الآشوريون، والكلدانيون، الكنعانيون، والفينيقيون، الآراميون، والأنباط، الأسروينيون، التدمريون، التتوخيون، اللخميون، الفساسنة، والمناذرة، إلا أنهم جميعاً مجموعات بشرية هاجر أجدادها من الجزيرة العربية واستوطنوا مناطقهم الجديدة، كانوا ينتمون إلى عرق واحد كان يطلق عليه اسم الجنس أو العرق السامي، بينما اسمهم الحقيقي- خاصة بعد الشكوك في نظرية العرق السامي- هو العرب. ونستشهد على سبيل المثال بما كتبه روم لاندو في كتابه: "الإسلام والعرب"، في

- (١) يمكن تلخيص مسرى الهجرات العربية التي خرجت من موطنها الأول في قلب الجزيرة العربية بـ:

1-1- للهجرات الأولى حوالي 3500 ق.م، حيث اتجهت نحو الشمال، فاجتاز قسم منها شبه جزيرة سيناء ثم إلى وادي النيل، وإلى شمال أفريقيا. كما هاجرت موجات عن طريق باب المنتب غرباً وشمالاً بمحاذاة نهر النيل. واتجه قسم آخر إلى بلاد الرافدين، فأُسس فرع منها الدولة الأكديّة، حيث وجد ملكها مرجون الكبير، في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، المنطقة المعروفة الآن بالعراق. وأقام الفرع الآخر في شمال دجلة ثم هبط نحو الجنوب فيما بعد وأسس الدولة الآشورية التي قنضت على دولة بابل وتوسعت حدودها حتى ساحل المتوسط، وكفى ملكها مرجون الثاني على دولة إسرائيل واحتل عاصمتها السامرة في سنة 722 ق.م، وأخذ اليهود أسرى إلى بابل (الأسر اليهودي الأول). ومن أعظم ما خلفته حضارتها مكتبة آشور بانيبال (باني ببل) التي وجدت في نينوى وتحوي آلاف الرقم الأبنية والعلمية والقانونية والإدارية والدينية.. الخ.

2-1- موجة الهجرات اللاحقة خرجت بين (2900-2200) ق.م، وبعد تقلّص استقرار فرع منها على الساحل السوري الشمالي، بينما أسس الفرع الثاني في جنوب الساحل السوري دولة الكنعانيين، كما دعي الفرع الثالث الذي أقام في سورية الشمالية وحوض الفرات بالعمرين، إذ قام فرع منهم بالنزول إلى جنوب ما بين النهرين وأسس دولة بابل الأولى حوالي 2450 ق.م، وكان من أشهر ملوكها حمورابي (1730-1685) ق.م، والذي كان أول مترع قانوني في التاريخ البشري.

3-1- خرجت موجة أخرى من قلب الجزيرة العربية في بدايات الألف الأولى قبل الميلاد إلى منطقة الأهرار جنوب العراق، حيث توسعت نحو الشمال فأسست الدولة البابلية الثانية التي عرفت باسم الدولة الكلدانية في القرن السابع قبل الميلاد، واشتهرت هذه الدولة بعلوم البناء وطولم الفلك، حيث تم بناء برج بابل الشهير. وقد ضمت إليها بلاد الشام، وقضى ملكها نبوخذ نصر نهائياً على دولة إسرائيل، ونقل أسراهم إلى بابل (الأسر اليهودي الثاني) سنة 586 م.

4-1- هجرة استقرت في وسط سورية وشمالها وفي أعالي ما بين النهرين حوالي 1500 ق.م. ولعبت مجموعات هذه الهجرات أدواراً كبرى في تاريخ سورية السياسي والثقافي والديني والتجاري، وكانت لغتها اللامية لغة الدبلوماسية والكتابة، حيث تطورت عنها لاحقاً للسريرية.

5-1- في نهايات القرن السادس وبدايات القرن الخامس قبل الميلاد قدم الأنباط والتكمريون من قلب الجزيرة العربية، فأقام الأنباط في الأردن وشمال شبه جزيرة سيناء، حيث أسسوا دولة الأنباط العربية التي كانت عاصمتها البتراء، وأسس التكمريون بعد ذلك مملكة تدمر. كما أن الهجرات التي خرجت من اليمن بعد انهيار سد مأرب استقرت بعض مجموعاتهما في الحجاز وتجد، وبعضها الآخر على مشارف الشام وجنوب العراق حيث أسسوا دولتي الفساسنة والمناذرة.

6-1- الهجرة التي ترافقت مع انتشار الدين الإسلامي، وخاصة إلى بلاد الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا والأندلس (شبه الجزيرة الأيبيرية)، وإلى أسية.

الصفحات (17-20)، من الترجمة العربية ما ملخصه: "جعل المؤرخون من شبه الجزيرة العربية موطناً للساميين، حيث يوجد لدينا من وقائع الوثائق براهين على انطلاق العديد من هذه الهجرات من قلب جزيرة العرب ابتداءً من 3500 ق.م. حيث اندغمت في شعب مصر اتحامي. وغمرت مجموعات أخرى حضارة بلاد الرافدين السومرية لتعطينا بابليي عصر لاحق. وحملت موجات أخرى حوالي 2500 ق.م العموريين إلى سورية، فانبعث منهم فينيقيو التاريخ الإغريقي. وفي الفترة من 1500 إلى 1200 ق.م حملت موجة ثالثة الآراميين إلى أواسط سورية، وامتزجت بشعوب الصحراء بوصفهم كتعانيين وآراميين في فينيقية وفلسطين وسورية بشعوب تلك الديار الأصلية".

وبالإجمال، بدأت الهجرات مبكرة من شبه الجزيرة العربية نحو الوهرة في الشمال باحة، تدفعها روح الإنسان الدائمة في البحث عن شروط الكفاية والأمان، دافعة في حركتها المستمرة نحو التشكل أثماناً باهضة مقابل الاستقرار والثبات، والتي كان يعترض طريق هجراتها واستقرارها يشكل دائم الإدارت السياسية والعسكرية في جنوب بلاد الشام وشمالها وفيما بين النهرين من العراق القديم. لكن تدفق هذه الهجرات لم يتوقف إذ استطاع خلال قرون عديدة من تأسيس حضوره التدريجي إلى أن صار في النهاية قادراً على تأسيس دولته وحضارته المميزة بالاسم المعروف: الدولة العربية الإسلامية.

أقام العرب الأنباط والأسرونيون والتدمريون مؤسسات ملكهم قبل قدوم التنوخيين واللخمين الذين اجتازوا وسكنوا الأطراف الشرقية للإمبراطورية الرومانية والأطراف الغربية للإمبراطورية الساسانية حتى القرنين الثالث والرابع، إذ لم يكن عرب التحالف من اللخمين والتنوخيين بالأساس من سكان سورية الأصليين، وإنما هاجروا إليها من بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا).

التنوخيون: أصولهم، هجراتهم، ومناطق استقرارهم

ورد ذكر تنوخ في الكتابات السبئية والحمرية، وفي الكتابات الإحصائية، كما ورد في كتب بطليموس الجغرافي والفلكي المصري (الأسكندراني) اليوناني الشهير، والذي عاش في القرن الثاني الميلادي. وتنوخ هي نفس قبيلة الملكة ماوية التي ثارت ضد روما، ونفس القبيلة التي حاربت الملكة زنوبيا متحالفة مع الإمبراطور الروماني أورليانوس في نهاية القرن الثالث. وقد تشكلت قبيلة تنوخ من اتحاد قبلي واسع شمل أكبر القبائل العربية، وضممت في عضوية اتحادها: الأزد وقضاة⁽¹⁾ بشكل أساسي، وقبيص، وإباد، وتميم،

(1) - انظر شهيد عرفان، ص 410 من كتابه بالإنكليزية " Byzantium and the Arabs in the Fourth Century بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ملخصاً رواية المسعودي في "مروج الذهب"، ج2، فصل ملوك الشام، ص 231، بالقول: " إن التنوخيين هم من قبائل قضاة العريضة الذين كانوا أول من سكن بلاد الشام، وأصبحوا مسيحيين، وتحالفوا مع الرومان، وصار ملوكهم تابعين للرومان". وهذا يعني أن ملوكهم المسيحيين بدأوا في القرن الرابع. ويعني أيضاً أن هوية قضاة حضيت باحترام التسمية "تنوخ"، فجميع قضاة هم التنوخيون جعلهم الرومان ملوك سورية.

والعماليق. فاتفق زعماء هذه القبائل على تمليك مالك بن فهم الدوسي الأزدي على المنطقة الممتدة بين نجد غرباً والخليج العربي شرقاً وحدود عمان جنوباً والبصرة في الشمال. وقدريماً سميت هذه المنطقة الجغرافية الشاسعة بالبحرين.

ورد وصف التتوخيين^(١) : (.. التتوخيون في الأصل قبائل عربية هاجرت من اليمن إلى البحرين، وهناك تحالفت على مقام ديني مع بعضها بعضاً، وأطلق عليهم فيما بعد : التتوخيون. أما محمد كرد علي في خطط الشام فيقول: نزل التتوخيون قبل الإسلام بقرن، وسموا تتوخيين لأنهم حلفوا على المقام بالشام، وكنَّتْخ، والكنَّتْخ (المقام)، وكانوا قبائل تتاخم منازلها مملكة تدمر، فلما غزا ملك الفرس الروم وأدبر فيهم السبي، وخرب العمائر، وأنفذ ملك الروم إلى التتوخ يستجدهم على ملك الفرس فأنجدوه.. ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جند الروم، فهاجمهم إلى ما أردوا، فقاتلوا الفرس وظفروا بهم، فأعجب بهم ملك الروم، ففرق فيهم الدنانير، والثياب وقرهم وأدناهم وأقطعهم سورية وما جاورها من الأصقاع.. ويرى كرد علي أن الحلف على التتوخ جرى في الشام ولم يجر في البحرين استناداً إلى ابن التديم، بينما يرى الطبري أن التتوخ جرى في البحرين أولاً. ويمكن أن يكون أي حلف جرى فيما بعد أطلق عليه التتوخ، ولا يستبعد أن يكون قد جرى ذلك في الشام بوقت متأخر.. وقيل أيضاً إن تتوخ هي أخلاط من قبائل عربية جاهلية بدأت كحلف لقبائل عدة هاجرت من اليمن بعد انهيار سد العرم في مارب، وذلك بعد أن أجذبوا باليمن. ونجح هذا الحلف بالسيطرة على مناطق متعددة أثناء زحفه شمالاً، حيث تمكن من إخضاع شرق الجزيرة العربية ومناطق أخرى في شمالها من سورية والعراق حتى جنوب إيران الحالي. ويخلص جواد علي^(٢) معظم الآراء التي تحدثت عن الموضوع، بالقول: إن تتوخ: "هم قبائل سكنوا بيوت الشعر والمطال والوبر غربي القرات بين الحيرة والأنبار فما فوقها في اصطلاح أهل الأخبار. ويظهر من وصفهم لتتوخ أنهم قصدوا بهم من كان يشتغل بالزراعة ومن كان يعيش عيشة أهل البادية من سكان منطقة ما بين الحيرة والأنبار. ولم يقصدوا قبيلة معينة).

ويروي جواد علي (نهاية الرواية، انظر حاشية رقم 1، ص 342) نقلاً عن ابن الأثير وابن الكلبي في تفسير أصل كلمة تتوخ ما خلاصته: (.. أنه لما مات بختنصر، انضم الذين سكنهم الحيرة من العرب إلى أهل الأنبار، وبقيت الحيرة خراباً، فغفروا بذلك زمناً طويلاً لا تطلع عليهم طالعة من بلاد العرب ولا يقدم عليهم قادم. وبالأخبار أهلها ومن انضم إليهم من أهل الحيرة من قبائل العرب من بني اسماعيل وبني معد بن عدنان. فلما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب، وملأوا بلادهم من تهامة وما يليهم، فرقتهم حروب وقمت بينهم وأحداث حدثت فيهم، فتشتتوا، وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين، وبها جماعة من الأزدي كانوا نزلوها في دهر عمران بن عمرو من بقايا بني

(١) - عارف عبد النبي "تاريخ الحيرة في الجاهلية والإسلام"، ص 18، دار كنان - دمشق.

(٢) - جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، الصفحات: (166-169).

عامر، وهو: (ماء السماء بن حارثة)، وهو: (القطريف بن ثعلبة بن امرئ القيس بن أسد بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة)، و (مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تميم الله بن أسد بن وبرة) في جماعة من قومهم، و (الحيقار بن الحيق بن عمير بن قنص بن معد بن عدنان في (قتص) كلها. ولحق بهم (غطفان بن عمرو بن الطمئان بن عوذ مناة بن يقدم بن قصي بن دهمي بن إباد بن نزار بن معد بن عدنان)، و (زهر بن الحارث بن الشلل بن زهير بن إباد)، و (صنح بن الحارث بن قصي بن دهمي بن إباد). فاجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب فتحالفوا على التتوخ، وهو المقام، وتعاقدوا على التوازر والتناصر، فصاروا يبدأ واحدة على الناس، وضمهم اسم تتوخ.

وتنخ على تتوخ بطون من (نمارة بن لخم)، ودعا (مالك بن زهير) (جذيمة بن الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي) إلى التتوخ معه، وزوجه أخته (ليس) ابنة (زهير). فتتخ (جذيمة بن مالك) وجماعة ممن كان بها من قومهم من الأزدي، فصار (مالك) و (عمرو) ابنا (فهم) والأزدي حلفاء دون سائر تتوخ. وكلمة تتوخ كلها واحدة. أما اجتماع من اجتمع من قبائل العرب بالبحرين وتحالفهم وتعاقدهم، فكان على حد قول (ابن الكلبي) في أزمان ملوك الطوائف الذين ملكهم الاسكندر وفرق البلدان بينهم عند قتله (دارا) ملك فارس إلى أن ظهر (أردشير بن بابك) ملك فارس على ملوك الطوائف، وقهرهم، ودان له الناس.

وفي عهد ملوك الطوائف، تطاعت أنفس من كان بالبحرين من العرب إلى ريف العراق وطمعوا فيه، واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف، فاجتمعوا على السير إلى العراق. وكان أول من طلع منها (الحيقار بن الحيق) في جماعة من قومه وأخلائه من الناس، فوجدوا الأرمانيين (بني إرم)، وهم الذين يارض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل، يقاتلون الأرمانيين، وهم ملوك الطوائف، فاستمادوا من ذلك وانتشروا في السواد. وسكن قسم منهم بين عرب الأنبار، وسكن قسم آخر منهم بين عرب الحيرة. ثم طلع (مالك) و (عمرو) ابنا (فهم بن تميم الله)، و (مالك بن زهير بن فهم بن تميم الله)، و (غطفان بن عمير بن الطمئان)، و (زهير بن الحارث)، و (صنح بن صنح) فيمن تنخ عليهم من عشائهم وحلفائهم على الأنبار على ملك الأرمانيين، فطلع (نمارة بن قيس بن نمارة) و (النجدة)، وهم قبيلة من العماليق، يدعون إلى (كندة) و (ملكان بن كندة) و (مالك بن كندة) و (مالك وعمرو ابني فهم) ومن حالقهم، وتنخ معهم على (نفر) على ملك الأرمانيين، فأنزلهم الحير (الحيرة). فلم تزل طالعة الأنبار وطالعة (نفر) على ذلك لا يدينون للأعاجم ولا تدين لهم الأعاجم حتى قدمها تبع، وهو (أسعد أبو كرب بن ملك يكر) في جيوشه فاستولى عليها، ونزل الحيرة فيمن معه.

وروى (ابن الكلبي) أن كثيراً من تتوخ نزلوا الأنبار والحيرة وما بين الحيرة وطف الفرات وغربيه إلى ناحية الأنبار وما والاها. نزلوا في المطال والأخبية لا يسكنون بيوت المدر، ولا يزوجون أهلها. وكانوا يسمون (عرب الضاحية). فكان أول من ملك منهم في زمن الطوائف (مالك بن فهم)، وكان منزله مما يلي الأنبار، ثم مات مالك بن فهم، فملك من

بعده أخوه (عمرو بن فهم). ثم هلك عمرو بن فهم، فملك من بعده (جذيمة الأبرش بن مالك بن مالك بن فهم ابن غانم بن دوس الأزدي).

وقد أخذ الطبري ما ذكره عن (تنوخ) من روايات ترجع إلى (ابن الكلبي وابن اسحاق). وتختلف روايات (ابن اسحاق) التي أخذها الطبري عن شيوخه (ابن حميد) عن (سلمة) عن (ابن اسحاق) بعض الاختلاف عن روايات (ابن الكلبي).

ولدينا رواية تذكر أن (بني زهير بن عمرو بن فهم)، ومنهم (مالك بن فهم) الذي تنحلت عليه تنوخ. هو ومالك بن فهم بن غنم الأزدي، تنخوا بعين حجر، وتحالفوا هناك، فاجتمعت إليهم قبائل من العرب، فنزلوا الحيرة، فوثب (سلمة بن مالك بن فهم) على أبيه (رواية حمزة الأصفهاني) وهو لا يعرفه، فرماه فقتله، فقال أبوه لما علم أن سلمة رامي:

جزاني لا جزاه الله خيراً

سلمية، إنه شرأ جزاني

أعلمه الرماية كل يوم

فلما اشتد ساعده رماني

فتفرقت بنو مالك، وكانوا عشرة، ولحقوا بعمان، وملك جذيمة بن مالك عشرين ومئة سنة (وفي رواية أخرى عشرين سنة). وذلك في أيام ملوك الطوائف. وهو أول من اتخذ داراً.

وما تنوخ في نظري إلا القبيلة التي ذكرها بطليموس في جملة القبائل التي كانت في أيامه. وهي وإن كانت في جغرافيته في مواضع بعيدة عن الحيرة غير أن ذلك لا يمنع من انتقال بطون منها إلى الحيرة وبادية الشام وإقامتها فيها، وهو حادث مألوف وليس بغريب، أو أنها كانت في هذه المواضع في أيام بطليموس كما كانت بطون منها تقيم في المواضع التي ذكرها أو أنه أخطأ في تعيين مواضعها الصحيحة فظن أنها حيث وضعها من الأماكن، وهو أمر ليس وقوعه من الكتاب في الزمن الحاضر بغريب، فكيف بالنسبة إلى تلك الأيام.

فتنوخ إذن على الوصف المتقدم، هم أعراب الحيرة لا حضرها وأهل مدرها، عاشوا في أطرافها وحولها، في بيوت الشعر والمطال، على تقيض (العباديين). وقد تبين من بعض الموارد أن بطوناً من تنوخ نزلت أرضين تابعة للروم⁽¹⁾.

ويلخص جواد على معظم الآراء التي تحدثت حول الموضوع⁽²⁾، فيقول: "قبائل تنوخ هم قبائل تجمعت مع عدد من البطون وتحالفت في البحرين، وانتقلت إلى أماكن قريبة من الحيرة، وإلى بادية الشام، وأقامت فيها، ونستطيع أن نقول: إن تنوخ هم أعراب الحيرة، سكنت في البداية بيوت الشعر والوبر غربي الفرات بين الحيرة والأنبار، وكان منهم من

(1) - سقا رواية جواد على عن التتويخين، المرجوعة بين () لأهميتها، وقد جاءت في الصلحات (166 - 169) من "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج 3. وقد استند جواد على في ذلك إلى مصادر متعددة يمكن الرجوع إليها لمن أراد. ويطليموس كان من يوناني الإسكندرية وعاش حتى 161 م، وله كتابان في الجغرافية والفلك. وكتابه في الجغرافيا جاء في ثمانية أجزاء.

(2) - عارف عبد الغني: "تاريخ الحيرة في الجاهلية والإسلام"، ص 19.

اشتغل بالزراعة، وأكثرهم يعيش عيشة البادية، وهم ليسوا من قبيلة واحدة. وفي موقع "أم الجمال" في الأردن على الحدود بين الأردن وسورية، ورد اسم جذيمة ملك تنوخ على نقش حجري⁽¹⁾، وهذا يعني أن تنوخ انصهرت فيها العديد من القبائل العربية لتأخذ اسماً جديداً، وتتخلى عن أسماؤها السابقة".

وتنوخ هو المقام الذي تعاهدت فيه جموع القبائل العربية التي اتفقت على التناخي والتآزر والتناصر والتحالف ليصيروا بدأ واحدة على الناس، فضمهم اسم تنوخ الذين وافقوا فيه على التحالف. ومن هذا الاتفاق بدأ يتنوخ على تنوخ بطون كثيرة من قبائل العرب، فقد ورد في "تاج العروس" للزبيدي، ج 7، ص 239: "تنوخ: (تنخ) بالمكان تنوخاً، بالضم، وتنأ تنوياً: (أقام) به، (كَنَخَ)، مُشَدِّداً، فهو تانخ وتانيء، أي مقيم، (ومنه) سميت (تنوخ)، كصبور، ومن شدد فقد أخطأ، (قبيلة) من اليمن، (لأنهم اجتمعوا) وتحالفوا (فأقاموا في مواضعهم). (ووهم) الجوهرى فذكره في (ن وخ) بناءً على أن التاء ليست بأصلية. ونظراً إلى الإشتقاق والمأخذ، فإنه من الإتاخة بمعنى الإقامة فلا بعداً مثل هذا وهماً. (و) تنخ في الأمر: رَسَخَ فيه وثبتت، فهو تانخ، مثل ننخ، بتقديم النون على التاء، ومنه (تانخه) في (الحرب) إذ (ثبته). وقال ابن قتيبة في المعارف: تنوخ ونمر وكلب، ثلاثهم إخوة".

وفي هذا المقام، نجد أن تاريخ القبائل والممالك العربية وتحالفاتها وحروبها وأوقات حكمها ووجودها قبل الإسلام مع سعته وكثرة تشعبه وما يرويه الأخباريون لا يخلو من خلط واضطراب، وتناقض في بعض الأحيان، يدفع الدارسين إلى الوقوف بحذر شديد قبل القطع برأي صائب معتمد على المصادر.

ويتحدث الأخباريون عن هجرة قبائل تنوخ، وهي من قبائل عرب الجنوب⁽²⁾ التي تركت اليمن، وأخذت تغير على حدود الدولة الفارسية في فترة الضعف التي مرت بين سقوط البرثيين وقيام الساسانيين. وقد نزلت هذه القبائل أول الأمر في البحرين، وتنوخت هناك واستقرت، ومن ثم أخذت تتطلع إلى العراق وخيراته وتحتج الفرص للانتقال إليه والاستقرار فيه. فواتتها الفرصة في الفترة التي قامت فيها الحرب الأهلية في فارس أواخر عصر الدولة البرثية، فهاجرت إلى منطقة الحيرة والأنبار، ويقسم الأخباريون العرب سكان الحيرة إلى طبقات ثلاث هي أصلاً من قبائل متعددة فيها القحطانيون والعدنانيون، وهم: تنوخ، العباد، والأحلاف. والتنوخيون عند هؤلاء الإخباريين قبائل سكنت بيوت الشمر غربي الفرات بين الحيرة والأنبار فما فوقهما،

(1) - جاء في نقش أم الجمال: "هذا موضع قبر بن ثلي مربي جذيمت ملك تنوخ..."، الفصل...، ج 3، ص 184.

(2) - يرى بعض المؤرخين أن روايات وتفاصيل هجرة التنوخيين إلى العراق أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق التاريخية المقربة، إلى جانب ما يقع من اضطراب وتناقض في الروايات. لكن المؤكد أن هذه القبائل جلبت في أطراف الفرات نهاية القرن الثاني وأوائل الثالث الميلادي. ويعتقد بعض من هؤلاء المؤرخين أن التنوخيين لم يكونوا ينتمون إلى قبيلة واحدة، وأنهم على الأرجح كانوا جميعاً عربياً من عدة قبائل من عرب الشمال - بغض النظر عن أين جاؤا - تنوخت واستقرت في وادي الفرات، فاستقلت من ضعف الدولة البرثية فتمتعت باستقلال شبه ذاتي وحملت على حماية القوافل التجارية المارة في منطقة سكناها، حيث أقامت علاقات مع الجوار.

ويظهر أنهم كانوا يشتغلون بالزراعة أيضاً إلى جانب معيشتهم كأهل البادية. أما العباد، فكانوا ممن سكن واستقر في الحيرة، ويقال أنهم كانوا من النصارى. وأصل تسميتهم جاءت من كسرى، الذي وجد حين استقباله لوحد لهم أن اسماءهم تبدئ بكلمة "عبد"، فقال لهم: أنتم عباد كلكم، فسموا عبّاداً، بينما يقول آخرون بأنهم سموا عبّاداً لأنهم كانوا يعبدون الله. ويقول جواد علي⁽¹⁾: "إن هذا الاسم لم يكن يعني قبيلة أو بطناً، وإنما يعني جماعة من قبائل شتى جمعت بينها وحدة الدين والوطن. لذلك لم يطلق إلا على النصارى من أهل الحيرة. أما غيرهم من نصارى العرب، فلم يشملهم اسم العباديين. ويمكن أن نقول استناداً إلى روايات الإخباريين في تحديد مدلول الكلمة واقتصارها على نصارى الحيرة دون غيرهم من نصارى العرب، فلما انتشرت النصرانية في الحيرة لازمت هذه التسمية جميع أنصارها، إذ لم تميزهم عن الوثنيين فحسب، وإنما ميزتهم عن بقية النصارى العرب من غير أهل الحيرة". وأما الأحلاف، فهم بقية من سكان الحيرة ومن نزل فيها من العرب ممن لم يكن من تنوخ أو العباد.

تحركت الهجرات العربية المارمة إلى أرض العراق بمجموعتين: الأولى تحت قيادة زعيم قبيلة قبيص الحيقاد بن الحنق التنوخي، الذين أغاروا على بابل وما حولها. ثم جاءت المجموعة الثانية تحت زعامة مالك بن فهم في جمع كبير من العرب، فهاجم الأرمانيين (بني إرم) في بابل وأجلاهم عن أرضهم، ثم اتجه غرباً فهاجم مملكة الأروانيين في الأنبار حيث استقروا هناك.

ويكاد إجماع الإخباريين العرب يتفق على أن أول حاكم من بني تنوخ كان مالك بن فهم، الذي كان في نظرهم من الأزد، حيث استطاع في العام 86 م إجلاء الفرس البرثيين عن عُمان، فأصبح ملكاً عليها لمدة سبعين سنة تقريباً، بينما كانت مدة حكمه على رأي اليعقوبي⁽²⁾ عشرين عاماً، وسع ملكه خلالها فضم إليها البحرين وأطرافاً من جنوب العراق. ثم تولى عمرو بن فهم الحكم بعد وفاة شقيقه مالك، ثم تولى من بعده جذيمة⁽³⁾ بن مالك المعروف بـ "الأبرش". ويعتبر العديد من المؤرخين أن جذيمة بن مالك بن فهم الأبرش هو المؤسس الأول لسلالة اللخمين العرب الذين حكموا الحيرة والأنبار وسائر بلاد الجنوب العراقي وصولاً إلى عُمان واليمن، وهي اللبنة الأولى التي أسست لدولة المفازة فيما بعد، وذلك على الرغم من أن جذيمة الأبرش كان تنوخياً. ذلك أن الطبري

(1) - "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، ص 169، وكذلك ج4، الصفحات (14-16).

(2) - اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ج1، ص 208.

(3) - وجدت وثيقة أم الجلال" ليس بعيداً عن موقع النمار. وهي وثيقة ثنائية اللغة، كتبت باليونانية والبطنية. وتحدث عن فخر معلم الملك التنوخي جذيمة بن فهم. إلا أنه لا يمكن الجزم أن تنوخ كانت في هذه المنطقة. وبالوقت نفسه، لا يمكن إغفال ذكر تنوخ بهذه الوثيقة دون أي ارتباط بالمكان. والوثيقة من القرن الثالث قرن أتيّة وزنبوب تكمر. ويرجح عرفان شهيد بأن كلمة ثينا Thainatha التي رويت في الوثيقة ربما تعادل أو توازي كلمة تنوخيا! انظر كتابه بالإكاذنية "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ص 415.

ذكر أنه كانت تقوم غزوات بين جذيمة وبين بني إيباد في عين أباغ⁽¹⁾. وقد ذكر لجذيمة مرة أنه ينزل في إيباد غلام من لحم اسمه عدي بن نصر بن ربيعة، وهو ابن أخت لهم؛ وأن لهذا الغلام جمال وظرف، فرغب جذيمة أن يضمه إلى مجلسه وأن يجعله في خدمته. فقبل بنو إيباد أن يرسلوا عدي إلى جذيمة بعد أن تصالحا وتوفقا عن الفزو والقتال. فولاه جذيمة شرايه، وأنزله منزلة عالية في قصره. ويقال أن رقاش ابنة مالك، أخت جذيمة، أبصرت عدياً فاحبته وتزوجته بحيلة احتالته على أخيها. ومن قصة هذا الزواج المزعوم جاء عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة حيث خلف خاله على الملك؟

ويروي الطبري في وصف جذيمة⁽²⁾ الأبرش: "... إنه كان من أفضل ملوك العرب رأياً وأشدّهم نكاية وأظهرهم حزمًا، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق، وضم إليه العرب، وغزا بالجيوش".

تولى عمرو⁽³⁾ بن عدي بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سعود بن مالك بن عهم بن ثمار بن لخم بعد خاله التتوخي جذيمة الأبرش فحكم لمدة عشرين عاماً على عرب الحيرة والأنبار. ويعد عمرو بن عدي⁽⁴⁾ مؤسس الإمارة اللخمية ومملكة اللخمين فيما بعد، وإليه يتسبون ملوك العراق، وهم ملوك آل نصر. وقد حدث خلال ذلك حروب عديدة مع الساسانيين الفرس، السلالة الجديدة الحاكمة بعد البرثيين الذين استطاعوا مد نفوذهم إلى ما بين النهرين، ما اضطر تحالف القبائل لقبول التعايش مع المحتل الفارسي.

خلف امرؤ القيس بن عمرو بن عدي على الملك سنة 288م، فاستمر لأربعين عاماً وسع فيها رقعة الدولة بإخضاع القبائل العربية والملوك المحليين في الحجاز ونجد وتهامة والعراق والشام واليمن لسلطانه. ولقب بملك كل العرب.

وقد ذكر عرّفان شهيد أن امرئ القيس يتحدر من ملوك الأسرة الأبحرية التي حكمت الدولة الأسرونية في عاصمتها إديسا/الرّها، أورفة حالياً، وتشهد وثيقة بيكولي Paikuli على ذلك، والاسم إديسا⁽⁵⁾ يعني المدينة الجديدة في الأكديّة - الآشورية المسمارية.

واوسروين أو اوسرونية كانت مملكة عربية قديمة حكمت في الفترة الممتدة بين 132 ق.م و 244 م، وتقع في شمال غرب ميزوبوتاميا (بين النهرين في أعالي الفرات). وساد حكمها منطقة ما بين الفرات ودجلة والخابور وطريق الحدود الحاضرة بين تركية وسورية، فوصلت إلى ميلين في الشمال ونصيبين في الشرق وزيوغما (وهي سلوقية على

(1) - جاء في "معجم البلدان"، بإقوت الحموي، ج 1، ص 61: "وعين أباغ ليست بعين ماء، وإنما هو وادٍ وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام. وقد ذكرها أبو نواس واللغة النيباني وآخرون في أشعارهم".

(2) - الطبري، ج 2، ص 613.

(3) - كان المناداة من ملوك الحيرة من لخم، والخصاصة: ملوك الشام من الأزد. فكلهما من أصل يمني واحد، وكان بينهما أحقاد وأصغاف وحروب.

(4) - جاءت نهاية عمرو علي يد الزناب لينة عمرو بن الظرب بن حسان بن أنبة بن السميدع بن هير العميلي، ملك العرب بأرض الجزيرة ومشارف بلاد الشام (جواد علي: المفصل...، ج 3، للصفحتان (104-105).

(5) - للزيادة، انظر Segal, Edessa.

الفرات 20 كم شمالي جرابلس) بالقرب من مدينة بروجيك في الغرب، وسنجار في الجنوب الشرقي، وحران في الجنوب الغربي. وقد تحكمتم مملكة الأسروينيين بالطريق الاستراتيجي بين الشرق والغرب، وبين آسيا الصغرى وميزوبوتاميا. وأمن لها موقعها الاستراتيجي مكانة مهمة بين المتحاربين البرثيين الفرس والروم من القرن الثاني قبل الميلاد إلى النصف الأول من القرن الثالث الميلادي حين أنهى استقلالها وضمها الامبراطور الروماني غورديان الثالث في عام 244 م إلى الامبراطورية الرومانية. وخلال تلك الفترة بدلت الأسرة الأبرجية الحاكمة تحالفاتها مع الفرس والروم حسب مصالحها. وهناك عدة روايات لأصل الاسم اوسروينة Osroene والأسروينيين؛ منها:

1- الاسم مشتق من Esro-Ayne (إسروئين)، ويعني: Ten-Chiefs أي القادة العشرة بالسريرية، وتعود هذه الرواية إلى تاريخ سقوط نينوى عاصمة الآشوريين سنة 612 ق.م. حينما اتجه الملك آشور أوباليت (أوباليط) الثاني وعشرة من قادته المسكرين إلى أعالي الفرات وكونوا مملكتهم الجديدة. وأكد المؤرخ الروسي ماتفييف في كتابه "تاريخ الآشوريين" أن مملكة اوسروينة تشكلت من هؤلاء القادة العشرة، فأطلقوا عليها حينها إسرويو Esroyo، ثم إسروئين Esro-Ayne فيما بعد.

2- كانت الكتبة الآشورية العاشرة تعسكر في حداتو (أرسلان طاش) عند سقوط نينوى، وكانت الوحيدة التي بقيت من الجيش الآشوري، فأطلق على منطقة حداتو إسرونويو Esronoyo، أي العاشرة، أو بيت العاشرة Beth-Esroyo.

3- تقول الفرضية الثالثة أن الاسم يعود إلى قبائل سوبارتو Subartu العشرة. حيث أكد المؤرخ التركي غونثاي⁽¹⁾: "... تعود مملكة اوسروينة إلى القبائل الآشورية العشرة، وأن السوريين القدماء هم أحفاد الآشوريين السوبارتو"⁽²⁾.

4- أوندالigh؛ كلمة تركية تعني عشرة فروع (on تعني عشرة، و daligh تعني فروع)، أي الفروع العشرة. تأتي هذه الفرضية لتؤكد الفرضيات الثلاث السابقة التي تبين أن الأسروينيين يعودون بأصولهم إلى الآشوريين.

شكل القادة العشرة، بعد موت آشور أوباليت الثاني، "مجلس العشرة"، وحكموا البلاد بما يشبه الحكم الديمقراطي لأول مرة في تاريخ المشرق. وسموا نظامهم البرلماني هذا بـ "مجلس بيت إسرويو. Bet-Esroyo" وقيل أن مجلس بيت إسرويو استمر في هذا النظام حتى سقوط الدولة على يد الرومان سنة 244م.

كانت اوسروينة تشكل جزءاً شبه مستقل داخل الامبراطورية السلوقية. وخلال عهد الملك السلوقي أنطيوخس السابع سيديت Sidetes (136 ق.م) أغارت القبائل العربية من أبناء اورحوي/اوسرو ونجحت باحتلال المنطقة، وأقامت حكماً جديداً نال رضى البرثيين

(1) - شمس الدين غونثاي في كتابه تاريخ الشرق، ص 18، إصدار 1994.

(2) - انظر تاريخ السوريين القدماء، الذي راجعه غابرييل ايدين، ص 18، إصدار 1994

الفرس. وحكمت السلالة الأبرجية اوسرونية، فحازت على شبه استقلال تام بين 132 ق.م و 244 م، وكانت السريانية لغتها، وإديسا عاصمتها، ولقب ملوكها بالأبجر. وتأثرت اوسرونية باضطهاد بالثقافة الآرامية، وتمتلك مركزاً منافساً للهلينستية، وبذلك أصبحت إديسا مركز المسيحية الأول في المشرق لتبني ملكها الأبجر الثامن للديانة المسيحية.

وفي عام 64 ق.م عقد ملكها الأبجر اتفاق سلام مع الفاتح الروماني يومبيوس. ثم تحالف مع القائد الروماني كراسوس (كان طرفاً في الاتفاق الثلاثي الأول الذي ضم يوليوس قيصر ويومبيوس وكراسوس سنة 60 ق.م) في الحرب ضد الفرس سنة 53 ق.م، ثم غير تحالفه سراً فأخذ جانب البرثيين الفرس، وذلك بتقديم معلومات مضللة لكراسوس، وانضم إلى الجانب الفارسي خلال معركة حران. مما أدى لمقتل كراسوس وهزيمة جيشه أمام البرثيين.

وفي العام (16 لم) قبل الأخير من حكم الامبراطور الروماني ترايانوس (تراجان) قام القائد لوكيوس كويتوس باحتلال إديسا خلال الحرب التي جرت بين روما وپارس. وحاولت اوسرونية بعدها إنهاء النير الروماني سنة 216م، لكن ثورتها فشلت، وأرسل ملكها أبجر التاسع منفياً إلى روما. إلا أن اوسرونية بقيت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي تحت سلطة روما، إلى أن تم ضمها للامبراطورية بشكل نهائي سنة 244م. انتقل الأسروينيون بعد ذلك إلى الحيرة وأسسوا ملكهم هناك، ثم انتقلوا إلى نمارا في جنوب سورية بعد خلافهم مع كسرى الفرس، ثم عادوا مرة أخرى إلى الحيرة في نهاية القرن الرابع بعد أن تصالحوا مع الملك الساساني. وهكذا كان مستقبل عائلة امرئ القيس قد اجبرها على تغيير مواقعها تبعاً لنتائج السياسات الإمبريالية الفارسية والرومانية بالانتقال⁽¹⁾ من إديسا إلى الحيرة إلى نمارا إلى الحيرة خلال فترة القرنين الثالث والرابع، حتى استقرت في الحيرة كعالم للفرس في القرنين الخامس والسادس وبداية القرن السابع كخمينين مناذرة تختلط دماؤهم وأنسابهم بالأسروينيين وتتوخ، واستمروا يحكمون هناك حتى التحرير العربي الإسلامي.

يعتبر امرؤ القيس بن عمرو واحداً من أقوى ملوك التتوخيين اللخمينيين المناذرة، بل من أقوى ملوك العرب قبل الإسلام. إذ لم يأت أي ملك عربي مثله بعد سقوط تدمر بخمسين عاماً، فهو الذي هاجم شواطئ فارس بتشكيلاته البحرية الكبيرة وهدد مشارف الامبراطورية الشرقية الشمالية قبل أن يتصالح معها. وانتهز امرؤ القيس فرصة موت هرمز الثاني بن نرسي سنة 309 م، فهاجم السواحل وعبر الخليج إلى الطرف الفارسي واحتل الشريط الساحلي لفترة خمسة عشر عاماً. وأمر قبيلة إياد بالإغارة على فارس العراق⁽²⁾. وفي سنة 324 م اغارت قبيلة قضاة التتوخية على مدن فارس وقتلوا عدداً

(1)- انظر عرفان شهيد في كتابه بالإنكليزية "BAFOC /بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ص 46. والذي اشار فيه عرفان إلى نولاك، GF, PP. 24, 28-29.

(2)- قال ابن الأثير: "غلبت إياد على سواد العراق وكثروا فيها الفساد، فمكثوا حيناً لا يغزوهم أحد من الفرس".

من حاشية شابور الثاني. فجرد شابور حملة عسكرية كبيرة في عام 325 وهاجم الحيرة عاصمة ملك كل العرب واحتلها، ثم نصب أوس بن قلام العميليقي أمير قبائل العماليق ملكاً عليها. ياتمر بأمر الفرس، وشن حملة على عرب شبه الجزيرة حتى الحجاز سنة 326 م لإنهاء غاراتهم المستمرة على أراضيه. مما جعل امرؤ القيس يفك تحالفه⁽¹⁾ مع شابور وينسحب إلى جنوب سورية التي كانت تابعة للرومان. ويعتقد عرفان شهيد في كتابه "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ص 32-36، أن هجرة أو هروب امرؤ القيس كانت لأسباب متعددة؛ منها أنه كان غاضباً من حملة شابور على عرب الجنوب الذين كانوا تابعين له، أو أن خلافاً نشب بين الملك العربي وشابور خلال الحملة أو بعدها، أو أن الملك أحس أن تبديله أصبح وارداً عند شابور لموقفه المعارض ولبيله إلى الممانوية التي تأثر بها، إلى جانب مسيحيته. وقد كان والده عمرو بن عدي من المتأثرين بالممانوية أيضاً، وكان شابور قد غضب من المعلم ماني فأعدمه. لذلك استبق امرؤ القيس وغادر إلى سورية. وقصد الإمبراطور الروماني قسطنطين لنصرته واسترجاع ملكه. وقد وضع فرقة من جنوده تحت تصرف الرومان. وربما نصبته بيزنطة قسطنطين ملكاً عربياً عاملاً على ولاية العربية. ومن خلال ذلك حقق مع أبنائه لروما تأثيراً جديداً وأمناً في المنطقة التي حكمها بما فيها الحجاز.

ويروي الإخباريون أن امرؤ القيس بن عمرو كان أول من تنصر من ملوك الحيرة، وهذا أمر يحتاج إلى أدلة قاطعة⁽²⁾ غير متوفرة حتى الآن. مات امرؤ القيس على أغلب الرويات سنة 328 م، وخلد ذكره في وثيقة التمار⁽³⁾ كشاهد على قبره في الأراضي التابعة للإمبراطورية الرومانية، والواقعة بم منتصف المسافة إلى الشرق من دمشق وبصرى (حسب دوسو)، حيث حكم امرؤ القيس مناطق حوران والبتئية والجولان وفينيقية الجنوبية، وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة، والمنطقة التي كانت تمر بها الطرق التي كان

(1) - يرى جواد حلي (المفصل...، ج 3، ص 191) رأياً آخر في تاريخ قرار أو هجرة امرؤ القيس إلى جنوب سورية، بأنه كان في سنة 293 م. ذلك أن الملك العربي كان من حزب ومييدي بهرام الثالث كسرى فارس حينها، فلما وقع الخلاف على ملك فارس بين بهرام ونرسي، والتصار نرسي (293-302) م، خرج امرؤ القيس من العراق إلى الشام، فاستقبله الروم وأيدوه وأقروه ملكاً على عرب بلاد الشام.

(2) - للباحث شهيد رأي آخر في ذلك، حيث يؤكد في كتابه الإنكليزية "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، وفي مواضع متعددة منه، بتنصر امرؤ القيس مبكراً وهو في الحيرة من عيال ملوك الفرس قبل هروبه إلى الروم. وقد استقى شهيد رأيه بالرجوع إلى هشام الكلب، ضمن آخرين، في "أخبار العرب وأنسابهم" التي استمدتها الكلبية من سجلات وقوائم بيع الحيرة وكاتبها، غير أن رقيم التمار لا يشير إلى تنصر الملك.

(3) - يوجد الرقيم الآن في متحف اللوفر في باريس، ويتكون من خمسة أسطر بالكتابة النبطية المنحوتة على لوحة حجرية من البازلت أبعادها 116 × 33 سم. وهذا نصها المأخوذ من كتاب المستشرق الفرنسي رينيه دوسو "العرب في سوريا قبل الإسلام"، ص 33، أصدرته مترجماً دار الحداثة في بيروت:

- هذا هو قبر لمرؤ القيس بن عمرو، ملك جميع العرب، ذلك الذي كالب بالناج
- وأخضع أمد ونزار وملوكهم وشئت شمل منحج حتى يومنا هذا، ونال
- نجاحاً في حصار نجران ومدينة شمر، وأخضع معداً وولّى أولاده
- على القبائل وينتبهم لدى الفرس والرومان. لم يصل ملك إلى مجده
- حتى يومنا هذا. ومات عام 223 يوم السابع من كسلول لتتعم ذريته بالسعادة. (الموافق 328 م - المؤلف).

يسلكها المغيرون من شبه الجزيرة العربية إلى فينيقية الجنوبية (الطريق بين دومة الجندل والجوف ويصري إلى دمشق وصولاً إلى حمص).
ألفت مخطوطة نمارا ضوياً كاشفاً على اللغة العربية المكتوبة ومخطوطاتها التي تتحدث عن صراعات شبه الجزيرة العربية، وعن التقديرات المتعددة للحاكم العربي وعلاقاته مع الآخرين. ويتحدث النقش عن امرئ القيس كرجل محارب شجاع وملك لكل العرب، لتوحيده القبائل العربية التي كانت تنتقل على طول الحدود بين الدولة الرومانية الشرقية ودولة فارس الساسانية، ومن دمشق وأنطاكية إلى ضفاف دجلة، وأخضع قبيلتي أسد ونزار وهزم مذحج وأخضع معد ووزع بنيه أمراء على القبائل العربية، وحدد علاقاته والقبائل التي تحته على نحو وفق فيه بين مصالح حكمه مع الدولتين. ويوحي الشطر الرابع من الوثيقة بأن بعض القبائل كانت تدور في فلك الفرس وبعضها الآخر في فلك الروم. وقد وصلت فتوحاته أسوار نجران (مدينة شمر يرعش الذي كان ملكاً على نجران إلى عام 320م) وسيطر على معظم أنحاء الجزيرة⁽¹⁾. فوصل ملكه إلى نجران، وحكم على العرب في النصف الشرقي من شبه الجزيرة العربية عندما كان ملكاً على الحيرة، وعلى العرب في أطراف ولاية العربية (العربيا) في المشرق وفي الحجاز بعد أن غير ولاءه من الفرس إلى الرومان.

1

ابتدأ اهتمام المؤرخين والرواة العرب بكتابة التاريخ العربي قبل الإسلام من بدايات القرن الهجري الثاني إضافة إلى اهتمامهم بالتاريخ الإسلامي. واهتم عبيد بن شربة وهوب بن منبه بدراسة تاريخ الجنوب العربي، بينما انصب اهتمام المؤرخ العربي المشهور هشام بن محمد الكلبي بتاريخ عرب الشمال. وجاء بعد ذلك الهمداني الذي كان اهتمامه الأساسي بتاريخ عرب الجنوب قبل الإسلام. فجاء تاريخهما عن هذه الفترة ليقدم صورة متوازنة عن بلاد العرب والقبائل العربية في الجنوب والشمال، واستمر الاعتماد على تاريخي ابن الكلبي والهمداني قبل الإسلام حتى القرنين الماضيين، وخاصة هشام الذي مازال الاعتماد عليه في فهم التاريخ العربي قبل الإسلام قائماً، إذ لم يعتمد هذا التاريخ على الوثائق أو النقوش أو الآثار، بل على الروايات بالدرجة الأولى.

ولد هشام بن محمد الكلبي، الذي يعرف عادة بابن الكلبي- نسبة إلى قبيلة كلب المشهورة في التاريخ العربي قبل الإسلام وفي عصوره الأولى، والتي لعبت أدواراً مهمة في هذا التاريخ- لعائلة متشيعية في الكوفة (737-820) م. وكان والده محمد بن الكلبي مهتماً بالتاريخ، فجاء اهتمام هشام مبكراً بكتابة التاريخ. كتب هشام عن تاريخ القبائل العربية وأنسابها بفهم ومعرفة، كما كتب المؤرخ اللاتيني تاليتوس عن تاريخ القبائل الألمانية المختلفة التي أقضت مضجع الإمبراطورية الرومانية وساهمت بشكل نهائي في سقوطها في الغرب مثلما ساهم العرب المسلمون في سقوطها وتمزيقها في المشرق في القرن السابع.

(1) - انظر المستدرك الرومية لونا بيغريفسكايا في "العرب على حدود بيزنطة وإيران"، ص 42.

ترك هشام أعمالاً مهمة عن عرب الشمال الذين شكلوا لأكثر من ثلاثمائة عام بدءاً من القرن الرابع الميلادي، ما سمي بعرب التحالف في خدمة بيزنطة: التتوخيون، بنو صالح، والفساسنة. وتعد "جمهرة النساب"، من أهم كتب هشام، الذي يتحدث عن تاريخ العرب، إذ أرجعهم جميعاً إلى جدهم الأول اسماعيل. وتحدث عن الأمة من خلال نسبها العائد لعائلة أصيلة واحدة.

وتشير معظم المصادر العربية (الطبري، اليعقوبي، ابن قتيبة، المسعودي، ياقوت، ابن خلدون...) التي استقت من هشام الكلبي، إضافة إلى المصادر غير العربية، إلى سلسلة الحكام العرب من فترة القرن الثالث حتى النصف الأول من القرن السابع في سورية ومنطقة الفرات وبين النهرين إلى الممالك العربية التالية: جذيمة، تدمر (أذينة وزنوبيا)، اللخمين في الحيرة (الناذرة)، التتوخيين وبنو صالح والفساسنة في سورية.

اتفقت المصادر العربية وغير العربية على أن أرض تتوخ كانت شمال شرق الجزيرة العربية على أطراف الخليج العربي والعراق، وعبرت فيما بعد إلى غرب الفرات في سورية والمناطق الرومانية. وتحدث وثيقة "أم الجمال" التي كتبت سنة 250 عن جذيمة كمرشد ورائد من رواد هذا التحالف القبلي العريض. وقد عدت روايات هشام عن التتوخيين ذات مصداقية عالية لأن القبائل الكلبيّة التي سكنت المناطق السورية كانت على صلات وطيدة وتحالف متين مع تتوخيي سورية. وأشارت المصادر العربية إلى انخراط التتوخيين في القوات البيزنطية في معارضة المسلمين⁽¹⁾ عند تحرير سورية مثل انخراطهم بعد سقوطهم تحت سيطرة بني صالح في التحالف الثالث مع بيزنطة الذي سادته الفساسنة، وذلك بعد سقوط بني صالح وصعود غسان نهاية القرن الخامس وحتى الثلث الأول من السابع.

ويضع هشام الكلبي هجرة التتوخيين من الأراضي تحت السيادة الفارسية في عهد أردشير، إلى الرومانية في سورية في الثلث الأول من القرن الثالث في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول، وذلك بعد حدوث صدامات بين عرب ما بين النهرين وبابل وأردشير مؤسس الأسرة الساسانية الذي طمح إلى تركيز سلطات دولته الجديدة بالتخلص من جميع الكيانات المستقلة.

لم تكن تتوخ قبيلة واحدة بل مجموعة كبيرة من عدة قبائل شكلت تحالفاً عريضاً بعد هجرتها من العراق. وقد كانت كذلك حتى قبل هجرتها من شمال- شرق شبه الجزيرة العربية. واستمرت بالانتماء بانضمام قبائل أخرى إلى تحالفها العريض، خاصة بعد استقرارها⁽²⁾ في سورية وما جاورها. وقد حدد ابن حزم في "الجمهرة"، الصفحة 453: من أن تحالف تتوخ مكون من فهم ونزار والأحلاف، فهم هي قبائل من أخاذ أسد بن وبرة التي كانت تستوطن سورية؛ تحالف واسع وعريض ضم امرؤ القيس اللخمي صاحب

(1) - انظر البلاتري في "فتوح البلدان"، الصفحات (172-174)، تحقّق الدكتور صلاح الدين المنجد.

(2) - سجل ابن خلدون بداية صعود التتوخيون في سورية بعد سقوط تدمر.

وثيقة النمارا^(١) على رأي ابن خلدون. وتشير المصادر العربية المتعددة إلى ارتباط اللخمين والتوخيين بروابط الدم والنسب، لذلك من الممكن استخدام مصطلح تنوخ والتوخيين بالمعنى الشامل للإشارة إلى المجموعتين الرئيسيتين المتحالفتين مع بيزنطة في تاريخ القرن الرابع. ولأن هذه المصادر تحدثت عن ملوك تنوخ الثلاثة: النعمان بن عمرو، عمرو بن النعمان، والحواري بن النعمان، يكون الحواري إذاً شقيق الملك الثاني عمرو. ومن المحتمل أن الملك التتوخي الأول النعمان بن عمرو ربما كان هو امرؤ القيس التي تتحدث عنه وثيقة النمارا؟ وربما كان النعمان هو لقب امرؤ القيس، على رأي عرفان شهيد^(٢)

وقد كان الحواري آخر ملوك التتوخيين؛ فالتتوخيون واللخميون مجموعتان عريبتان، حسب المصادر العربية، كانتا متحالفتين مع بيزنطة في القرن الرابع. والحواري زوج ماوية من أحد الفرعين، والفرعان منسوبان إلى أصل واحد ربما توحدوا وارتبطا ببعضهما بعد هجر امرؤ القيس اللخمي من الحيرة، وهجرته إلى المناطق البيزنطية في ولاية العربية. إلى جانب لحم التي أقامت في ولاية العربية في جنوب سورية، وشكلت مع قبائل تنوخ في شمال سورية التحالف العربي الواسع مع بيزنطة في فترة القرن الرابع، وامتدت سيطرتها من الشواطئ الغربية لنهر دجلة حتى شرقي نهر النيل، انضمت أيضاً القبيلتان العربيتان جذام وعاملة اللتان كانتا تقيمان في الجزء الجنوبي من ولاية العربية، وقبيلة بلكين في شرق الأردن، وقبيلة بالي/ بكلي في شمال الحجاز، وقبائل كلب القوية المقيمة بين سورية وبين النهرين (ميزوبوتاميا) وفي دومة الجندل، وقبائل صالح في منطقة المشرق.

لذا، لعب عرب التحالف العريض هذا تحت زعامة التتوخيين^(٣) في القرن الرابع دوراً بارزاً خلال تحالفهم مع بيزنطة في مرحلة مهمة من تاريخ الصراع العالمي بين الروم والفرس. فشكّلوا درعاً وأقياً قوياً في نظام الدفاع الروماني في المشرق وذلك بعد سقوط مملكة تدمر^(٤) في نهاية القرن الثالث. والتي كانت تشكل منطقة عازلة بين الفرس والروم من ناحية وبين عرب شبه الجزيرة والرومان من ناحية أخرى. لذلك عملت روما وبيزنطة على ملئ هذا الفراغ بتحالفهما مع هذا الطيف الواسع من القبائل العربية التي لم تكن على مستوى عام من الشعور بالانتماء يرقى إلى العمل الاستراتيجي المرسوم لبناء دولة أو امبراطورية عربية قادرة على حماية منجزات وحدتها البشرية والعقائدية والجغرافية والسياسية والاقتصادية، حيث تأخر تنفيذ هذا المخطط إلى أن جاءت دعوة العرب المسلمين في النصف الأول من القرن السابع لتقوم بتنفيذ هذا الدور الذي طال انتظاره.

(١) - كانت النمارا أسماً قاعدة عسكرية رومانية في ولاية العربية. وبالتالي، فإقامة امرؤ القيس كانت داخل أراضي الامبراطورية الرومانية.

(٢) - أشار عرفان شهيد في كتابه بالإنكليزية بيزنطة والعرب في القرن الرابع، ص 544، إلى أن سيطرة التتوخيين على قبائل هذا التحالف العريض لم تكن بنفس الوضوح التي كانت عليه سيطرة الغساسنة على قبائل عرب التحالف مع بيزنطة في نهاية القرن الخامس، والسادس، وبداية السابع.

(٣) - تشير رواية "التاريخ الأرمني" في الفصل الذي يتحدث عن أورليانوس إلى أن قبائل تنوخ حاربت إلى جانب الرومان ضد زوبيا (شهيد، روما والعرب، ص 76، ترجمة كاسم سيديان، دار كيوان - دمشق).

حدثت معارك بين الفرس والروم خلال فترة حكم امرئ القيس، وشابور ذي الأكتاف⁽¹⁾ حينها على حكم فارس. انتهز فيها العرب تحت حكم شابور الفرصة للانتقام منه لكثرة ما قتل من العرب في مطلع حكمه ولغزوه جنوب الجزيرة، فانضموا إلى قسطنطين ضد الفرس. وشارك عرب التحالف يوليانيوس في حملته الفارسية سنة 363 م، حين انضمامهم إليه عند الرقة بتشكيلات وحدات الخيالة الاحتياطية التي أدت مهامها القتالية على أكمل وجه خلال سير المعارك. فانهزم شابور على إثر ذلك ودخل الرومان المدائن (طيسفون). وتصادف أثناء ذلك أن قتل يوليانيوس بسهم طائش، ففتشت جيشه، وتمكن شابور حينها من تنظيم صفوف جيشه. فاضطر يوليانيوس خليفة يوليانيوس أن يعقد صلحاً مع شابور تنازل بموجبها عن بعض المقاطعات التابعة له في ميزوبوتاميا. وسنرى في سياق العرض اللاحق أن إدارات الأباطرة الرومان - البيزنطيين سيضعون اللوم على العرب في مقتل يوليانيوس، بل سيتهمونهم بأنهم كانوا وراء مقتله. وتشير الأحداث التاريخية إلى أن مشاركة اللخمين، الذين كانوا يقيمون في الجنوب (ولاية العربية)، في حروب روما كانت أقل من مشاركة التنوخيين في الشمال. فقد كانت مهمات العرب اللخمين الأساسيّة في تحالفهم مع روما هي المحافظة على سلامة الحدود من غارات الأعراب الآتية من أطراف الجزيرة العربية، والمحافظة على القانون والنظام في ولاية العربية وأطرافها المحاذية لشبه الجزيرة العربية.

2

اعترى علاقة يوليانيوس بالعرب عدم الثقة والشك قبل الحملة الفارسية، إذ مرت هذه العلاقة بمراحل متعددة من تجاهل العرب وعدم الاهتمام بالتعاون معهم إلى العداء من جانب يوليانيوس، والذي أدار ظهره للوفد العربي الذي كان ضمن الوفود المتحالفة معه، وذلك عند وصوله إلى أنطاكية وهو في طريقه لملاقاة الفرس. ثم غير رأيه بعد ذلك وهو في هيرابولس Hierapolis (منبج) فاستدعى العرب للانضمام إليه إن أرادوا، فانضموا إليه وهو في الرقة على الفرات، فكان انضمامهم إليه كفرقة احتياطية شاركته في الزحف على المدائن. وتطور الخلاف بين الطرفين بعد انسحابه من معركة المدائن. ورؤي أنهم تركوه، ثم هاجموا جيشه بعد مقتله⁽²⁾. وكان موقف يوليانيوس، بشكل عام، من العرب موقفاً سلبياً، إذ كان يراهم كإرهابية ومسيحيين وقطاع طرق ومغيرين. انتهت حملة يوليانيوس الفارسية بشكل مأسوي عليه وعلى بيزنطة. فإلى أي مدى أدى موقفه السلبي تجاه العرب إلى هذه النتيجة؟ إذ لم يأخذ في حسبانته قدرة العرب

(1) - روى أبو سعيد الحميري في كتابه "الحوار العين"، ص 322: "فلما أتت له ست عشرة سنة أمرهم أن يختاروا ألف رجل من أهل النجدة واليأس ففعلوا، فأعطاهم الأرزاق، فسار لهم إلى نواحي العرب الذين كانوا يعمتون في أرضهم، فقتل من قدر عليه منهم ويزع أكتافهم، وفي رواية أخرى أنه كان يقبض أكتاف مراضيه، ويعلق منها حتى لا يعود أحد لمراضته. فسمي ذا الأكتاف لذلك، وهو باني الإيوان الأعظم بالمدائن".

(2) - 1 - 2. 23. 1 / Res Gestae, Ammianus; XXIII, 2, 1. "مصنفه التاريخي، 23. 2. 1".

القتالية لو استطاع إقناعهم، حيث اعتقد أن دورهم لا يرقى إلى ما يريد، وتصور أن اعتمادهم على الجند الرومان دون مشاركة القوات الاحتياطية لمن كان يسميهم بـرابرة سيحقق النصر. ولم يدرك حينها أن مستوى كفاءة الفياق الرومانية في النصف الثاني من القرن الرابع لم تكن كما كانت من قبل، إضافة إلى أن الخيالة العرب، ومن ضمنهم حاملي الرماح الطويلة، الذين كانوا على كفاءة عالية في بيئتهم ومجالهم وخبرتهم في حروب الصحراء والبادي ومعرفتهم بجغرافية المنطقة وبيئتها. وهذا يعني أن يوليانوس لم يقدر ذلك قبل الدخول في المواجهة مع الفرس، فكانت القوات العربية هي القوات الوحيدة التي حاربت إلى جانب يوليانوس في وسطها وبيئتها، فمسرحت العمليات كان مسرحها الدائم الذي تعرفه جيداً وتعرف كيف تتعامل معه وتوظفه في الكر والفر.

وكانت أطراف متعددة (رومانية وأنطاكية، ومن هادة الفرق القتالية الموالية)، قد قدمت النصيحة ليوليانوس لثنيه عن القيام بالحملة الفارسية لقسوة مناطق القتال وعدم معرفة الجند بجغرافيتها وبيئتها، علماً أن عرب التحالف البيزنطي (التوخيين في الشمال وللخميين في الجنوب) قد رحبوا بالمشاركة وكانوا متحمسين لقتال شابور عدوهم القديم للتأثر منه لحملته الوحشية التي نفذها ضدهم في العشرينات من القرن. إلا أن يوليانوس فشل في استغلال هذه المعطيات لتجنيدهم، بل على العكس تحول عنهم واستعلى عليهم وفقرهم بعدم دفع مستحقات رواتبهم من خلال تجنيدهم كاحتياطيين في جيشه. بينما استطاعت ماوية استغلال جميع هذه المقومات التي يتمتع بها عرب التحالف الشماليون في ثورتها ضد والنس. وعلى عكس يوليانوس، كان الإمبراطور الروماني غالينوس قد نجح بتحالفه مع عرب تدمر وملكها أذينة ضد الفرس في نهاية الخمسينيات من القرن الثالث⁽¹⁾، حتى أن أذينة أصبح طليق اليد في مطاردة الفرس حتى تمكن من حصار المدائن، علماً أن المقارنة بين جيش تدمر وقوات عرب الاتحاد غير متوازنة. ولو أدرك يوليانوس أن احترامه للعرب وتحالفه معهم هو في مصلحة بيزنطة لكانت نتائج الحملة أقل مأساوية عليه وعلى بيزنطة⁽²⁾.

ورغم مهاجمة عرب الاتحاد الجيش الروماني خلال انسحابه من معركة المدائن بعد مقتل يوليانوس، عمل خليفته يوليانوس (جوفيان)، الذي كان مسيحياً أرثوذكسياً على مذهب المسيحيين العرب، إعادة بناء علاقات الثقة مع العرب، فاستقبل الأسقف أنثاسيوس صاحب المذهب الأرثوذكسي في إديسا واصطعبه معه إلى أنطاكية، فأحسن بالرضا لإعادة عرب التحالف إلى تحالفهم مع الرومان من جديد، وذلك بعد أن عقد معاهدة سلام مع الفرس سنة 363 م، والتي تخلى بموجبها عن حران ونصيبين وقسماً من شرق بلاد الرافدين للفرس. ويعد معاهدة السلام، انتقل كثير من المسيحيين عرب تلك المناطق التي كانت رومانية إلى غرب ميزوبوتاميا التي مازالت رومانية ومسيحية.

(1) - انظر مجريات ذلك تحت عنوان " ثروة مملكة تدمر بين الجبارين"، ص 299 من هذا الكتاب.

(2) - عرفان شهيد في كتابه بالإكتريزية " بيزنطة والعرب في القرن الرابع P. 238, "BAFOC".

لقد شارك والنس (هالينز) في حكم أخيه الإمبراطور والنتيانوس كأغسطس مسؤول عن الشرق بعد موت يويانوس اختناقاً سنة 364، واستمر حكمه حتى 378 م، بحيث أصبح الإمبراطور بعد موت شقيقه سنة 375م. وقد أخذ والنس بالمذهب الأريوسي المنافس للمذهب الأثناسيوسي (الأرثوذكسي) مذهب عرب الاتحاد. من هنا بدأ تجمع الماصفة التدريجي بين الطرفين.

ملوك وأحلاف العرب التنوخيون

بدأ تأسيس الحضور التنوخي الحقيقي الأول فيما بين النهرين بالملك جذيمة، واتخذوا من الحيرة عاصمة لهم. وجاء حضورهم الثاني في سورية بعد سقوط مملكة تدمر، ولكن من غير الواضح متى بدأ هذا الحضور. وتشير الحوليات أن الرومان جندوا التنوخيين لخدمتهم بعد سقوط تدمر التي كانت عدوهم المشتركة، ثم جاء حضورهم الثالث في عهد قسطنطين الكبير بحكم امرئ القيس⁽¹⁾ ملك كل العرب. إذ ابتدا صعود نظام التحالف العربي بالتشكل اعتباراً من بداية الربع الثاني من القرن الرابع بالانتقال من الحيرة وما بين النهرين إلى سورية، ثم إلى الولاية العربية بامرئ القيس وأبنائه، ثم في التحالف التنوخي الشمالي الذي تلاه صعود بني صالح بتحالفهم مع بيزنطة، ليختتم الفساسة نظام التحالف العربي هذا في القرن السادس والثالث الأول من السابع.

كانت علاقة امرئ القيس بالرومان علاقة وطيدة⁽²⁾ تأسست بعد سقوط تدمر، وما خلفه هذا السقوط من فراغ. فنجح التخطيط الروماني الاستراتيجي باستقبال لجوء امرئ القيس إلى ولاية العربية لماء الفراغ الذي خلفه سقوط تدمر، حيث بدأ صعود نظام التحالف العربي في المشرق. إلا أن وثيقة النمارا لم تتحدث عن علاقة امرئ القيس بالتنوخيين، بيد أن المصادر الأدبية العربية تحدثت عن التنوخية "رقاش" جدة الملك لأمه. ورفاش هذه كانت شقيقة جذيمة ملك تنوخ في القرن الثاني، وكانت "ماوية" أم جذيمة من قبائل الأزد التي شكلت جزءاً من تحالف تنوخ العام، وكانت "هند" زوجة جذيمة أزدية أيضاً، لذلك، ورغم أن امرئ القيس كان لخمياً إلا أنه ارتبط بقريابه عصب ونسب قوين بتنوخ، وكان والده عمرو بن عدي استقل عن أخواله التنوخيين وأسس فرع اللخمين وحكم الحيرة بعد موت جده (جذيمة) لأمه. وقد وجد امرؤ القيس بعد لجوئه إلى سورية أن من المناسب أن يربط نفسه إلى أخواله المستوطنين في سورية، حتى أنه ربما أحضر معه من تبقى من تنوخ بلاد النهرين بعد هجرتها الأولى إلى سورية في القرن الثالث. لذا، يمكن القول أن عرب التحالف بأشكال تحالفاتهم المتعددة من تنوخ إلى صالح إلى غسان كان يشكل في كل مرة تحالفاً مركباً ومؤلفاً من قبائل عديدة؛ كانت تنوخ وصالح وغسان المسيطرون، كلاً في زمنه، على هذا التحالف العريض حيث يصب في النهاية بالارتباط

(1) - المصدر السابق: P 374, BAFOC.

بيزنطة. وربما اتحدت لخم وتتوخ يداً بيد فشكلا التحالف الواسع بين عرب الشمال وعرب الجنوب، فجاء تحالفهما مع بيزنطة لأسباب سياسية واقتصادية بالدرجة الأولى. ويتحدث المسعودي في "مروج الذهب"، ج2، ص 231، فيقول: "كان ملوك التحالف التتوخي في القرن الرابع على التوالي، هم: النعمان بن عمرو بن مالك، عمرو بن النعمان بن عمرو بن مالك، الحواري بن النعمان بن عمرو بن مالك. وقد سبقهم جذيمة وعمرو بن عدي مؤسس الأسرة اللخمية وابنه امرئ القيس".

I

خرج جصحبان بن عتيق التتوخي اللخمي⁽¹⁾ سنة 330 م في جموع كثيرة من الفرسان من البحرين قاصداً الحيرة، ففتك بالملك أوس بن قلام. وتوالت بعدها غارات الأعراب وهجماتهم على أطراف فارس الساسانية، الذي دفع الملك الفارسي للاتصال بأبناء الملك امرؤ القيس الذين كانوا يقيمون في جنوب سورية متحالفين مع الرومان، فعادوا إلى الحيرة ونصبوا شقيقهم عمرو بن امرؤ القيس ملكاً عليهم في الحيرة، وذلك في سنة 377 م. ويمكن إجمال ملوك وممالك تتوخ بالتسلسل التالي:

1- تولى مالك بن فهم الأزدي بن غانم بن دوس الملك على اليمن وعمان والبحرين وجنوب العراق من عام 86 حتى 157 م.

2- تولى عمرو بن مالك بن فهم الأزدي.. الملك من 157 حتى 193 م.

3- تولى جذيمة بن مالك (الأبرش) بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي الملك من عام 193 حتى 268 م.

4- حكم عمرو بن عدي (اللخمي) ابن أخت جذيمة الأبرش بعد خاله جذيمة في الحيرة من سنة 268 حتى 288 م. وكانت منطقة حكمه في الحيرة.

5- تولى امرؤ القيس بن عمرو بن عدي بعد والده، وحكم من 288 إلى 325/324 م في الحيرة كعامل للفرس، ثم في ولاية العربية التابعة لروما كعامل للرومان حتى وفاته ودفنه في النمارا سنة 328. بينما يرى جواد علي أن هجرة امرئ القيس إلى جنوب سورية كانت في 293 م (انظر الحاشية رقم 3، ص 355).

6- عاد أبناء امرؤ القيس سنة 377 م إلى الحيرة بعد أن تصالحوا مع شابور. وأسسوا حكم السلالة اللخمية (المناذرة) في الحيرة كعامل للفرس منذ ذلك التاريخ حتى الفتح العربي

(1) - بيدر، من خلال التداخل اللغوي والبطون والأنساب، أنه من الصعب الفصل بين تتوخ ولخم. وهذا الاضطراب في سياق الروايات المتعددة والمختلفة لا يضع حدوداً فاصلة بين المجموعتين. ويحدث نفس التداخل عند الحديث عن بني صالح المتحالفين مع الرومان في القرن الخامس، الذين جاءوا بعد التتوخيين في نهاية القرن الرابع، والذين كانوا يدورهم متحالفين أيضاً مع الروم البيزنطيين، ثم تلاهم الخمسان الذين كانوا حلفاء ووكلاء بيزنطة في القرن السادس والصف الأول من السابع.

الإسلامي. وقد دارت صراعات وحروب لصالح الفرس والروم بين اللخمين في الحيرة وعرب التحالف الفساسنة^(١) لم تنته إلا بانتصار العرب المسلمين على الفرس والرومان.

7- أكمل الشق التنوخي الحكم في شمال سورية بحيث توج النعمان بن عمرو بن مالك ملكاً، على الغالب، في سنوات الثلاثينات من القرن الرابع، ثم خلفه ابنه عمرو بن النعمان بن عمرو بن مالك، ثم جاء بعده النعمان بن عمرو بن مالك الأزدي (الحواري)، ثم تولت الملكة ماوية بعد وفاة زوجها الحواري في 375م، واستمرت ملكة على عرب التحالف التنوخي في سورية حتى هزيمتها النهائية في ثورتها الثانية سنة 383م على يد الإمبراطور ثيودوسيوس.

2

احتل الأسكندر المقدوني سنة 332 ق.م عموم المشرق بما فيه بلاد فارس حتى شمال باكترية (أفغانستان الحالية)، وأنشأ امبراطورية مترامية الأطراف سرعان ما تلقصت وأصابها الانحلال بعد موته سنة 323 ق.م. هاقست ضباط جيشه الكبار الامبراطورية بينهم، فاستقل سلوقس نيكاتور وأسس حكم الأسرة السلوقية على معظم مناطق آسيا الصغرى وسورية في عاصمتها أنطاكية ابتداء من 312 ق.م حتى الاحتلال الروماني سنة 64 ق.م. من جانب آخر، استقل بطليموس بملك مصر وأسس حكم الأسرة البطلمية التي استمرت حتى الاحتلال الروماني لمصر سنة 30 ق.م.

كان الصراع يدور بين البرثيين الفرس، حينما كانوا يسيطرون على منطقة شرق الفرات، والسلوقيين في الشمال، وبين المصريين والفرس في الجنوب، وبين الفرس وجنوب شبه الجزيرة العربية أقصى الجنوب، وفي أحيان كثيرة^(٢) بين السلوقيين والبطالمة، وذلك قبل مجيء الاحتلال الروماني للمشرق.

شكلت العلاقات العربية الرومانية والعلاقات العربية البيزنطية، خلال سبعة قرون بدءاً من العلاقات العربية الرومانية والعلاقات العربية البيزنطية، خلال سبعة قرون بدءاً من الاحتلال الروماني للمشرق حتى التحرير العربي الإسلامي في القرن السابع، تحقيق الرومان انتصارات عسكرية وثقافية وأدبية على العرب خلال هذه الفترة الطويلة، رغم محاولات العرب العديدة والمنفردة للاستقلال وبناء امبراطورية تجمع كل هذا الطيف العرقي الواسع في بوتقة واحدة.

وتميزت فترة الاحتلال هذه بفترتين؛ يمكن تسمية الأولى: فترة الاستقرار الروماني التي استمرت من 64 ق.م إلى نهاية فترة حكم ديوقليتيانوس سنة 305 م، وذلك رغم ما اعتراها من اضطرابات داخلية عنيفة كادت تطيح بالبناء الأمبراطوري العظيم، خاصة

(١) - كان الفساسنة من خلف تنوخ في حضرموت ووسط الجزيرة العربية في الفترة (325-528) م. وبرت إشارات في نياي المؤلفات اللاتينية واليونانية إلى عرب الشام/عرب الروم (آل جفنة) وعرب الحيرة/عرب الفرس (آل لخم)... وقد حاصر بعض أصحاب هذه المؤلفات القياصرة الرومان في حملاتهم إلى الشرق فتونوا ما رأوا من الجواند والمجاهدات.

(٢) - شهد الصراع بين أبناء العمومة من السلوقيين والبطالمة خمسة حروب خلال فترة حكمهم لسورية ومصر.

خلال سنوات الأزمة الامبراطورية في القرن الثالث الميلادي التي شهدت صعود مملكة تدمر. وتسمية الثانية بفترة التحول البيزنطية التي شهدت انقسام الامبراطورية إلى: شرقية بيزنطية، وغربية رومانية. واستمرت هذه الفترة لأكثر من ثلاثمائة عام حتى عهد الإمبراطور البيزنطي هرقل الذي خسر المعركة الفاصلة في اليرموك سنة 636 م.

عرفت الفترة البيزنطية منذ بداياتها ثلاثة مجموعات عربية تحالفت معها، حيث احتفظ هؤلاء العرب بنوع مقبول من الاستقلال مقابل تقديم الولاء والدعم المطلوبين لروما وبيزنطة لاحقاً. وقد عرف هذا التحالف الذي استمر لثلاثمائة عام ونيف بالتحالف العربي- البيزنطي Byzantium - Arab Foederati. على الرغم من انكسار حلقات هذا التحالف أكثر من مرة، وقد شكل هذا التحالف درع الرومان الواقى ضد عرب شبه الجزيرة العربية وضد الجبهة الفارسية، إلى جانب تقديم الدعم العسكري للامبراطورية ضد القوط، وخاصة الشرقيين منهم، وفي جبهات القتال الرومانية والبيزنطية الأخرى. ويمكن تقسيم فترات هذا التحالف إلى حكم وسيادة المجموعات العربية الرئيسية التالية⁽¹⁾: التتويحون في القرن الرابع، وبنو صالح في نهاية القرن الرابع، والخامس، والفساسنة في نهاية القرن الخامس، والسادس، والتصف الأول من السابع. وهكذا تطورت العلاقات العربية- البيزنطية، حيث بدأ ميلاد تاريخ العرب الاتحاديين في القرن الرابع، واستمر في التطور إلى أن وصل إلى قمة صعوده أيام الفساسنة في القرن السادس والتقسيم الأول من السابع.

لا بد، هنا، من الإشارة إلى الأوصاف والمصطلحات والتعابير الثلاثة التالية التي استخدمها المؤرخون القدماء من اليونان واللاتين، والغربيون في العصور التي تلت، لأهميتها عند الحديث عن العلاقات العربية- الرومانية والبيزنطية.

أ- عرب السكيناتي (سكان الخيام) الذين كانت مناطق استقرارهم على أطراف الحدود الشرقية للامبراطورية، حيث كانت الغالبية منهم خارج الحدود.

ب- عرب التحالف مع روما أو بيزنطة فيما بعد، وهم المقيمون الذين تطبعوا رومانياً إلى حد ما، وكانت أعدادهم كبيرة.

ج- الرومان العرب الذين تم ضمهم إلى الامبراطورية وحازوا على حق المواطنة، كمرب الأنباط وتدمر على سبيل المثال.

وتتقسم المصادر التي تمدنا بالمعلومات إلى قسمين رئيسيين: المصادر اليونانية اللاتينية، والمصادر الأدبية العربية. فالمصادر اليونانية اللاتينية تشكل المصادر الأساسية لتاريخ العلاقات العربية البيزنطية، خصوصاً في القرن الرابع. ويعد المؤرخ المدني اليوناني أميانوس مرقليتيوس، والمؤرخون الكنسيون سقراط وسوزومن وجيروم، أهم أربعة مؤرخين قدموا إضاءات تاريخية جيدة بدءاً من فترة قسطنطين الكبير حتى فترة

(1) - يمكن الرجوع إلى دراسة عرفان شهيد في "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان، دمشق، لإلقاء الضوء على التطور التاريخي للمؤسسات العربية عسكرياً وسياسياً وثقافياً.

حكم ثيودوسيوس في نهاية القرن الرابع. بينما تقدم المصادر العربية، وأحياناً الأدبية السريانية، بشقيها الوثائقي القديم (وثيقة نمارا، وثيقة دومة الجندل، وثيقة خناصر في جنوب حلب) قبل الإسلام، والأدبي الذي جاء معظمه في القرون الأولى من العصر الإسلامي، والذي شكل فيه تاريخ هشام الكلبى وبعده الطبري والبلاذري والسعودي... أهم هذه المصادر. وتأتي المصادر اليونانية اللاتينية دقيقة في تواريخها بينما تقتقد إلى الدقة في تحديد أماكن هؤلاء العرب على عكس المصادر العربية.

3

تشكلت صورة العرب، خاصة في تاريخ القرن الرابع، من روايات الكتاب الكنسيين بشكل خاص: كسقراط وسوزومن وجيروم وإيפانيوس وروفيوس وآخرين، وأميانوس كمؤرخ عسكري مدني، في رسم وتولين هذه الصورة، فأتت كما لو كانت نتاج عدد من الفنانين تخاصموا على إخراجها، إذ أن منهم من وصف العرب بالغدر والإغارة والسطو والتخلف، ومنهم من اتهمهم بأنهم قوم هرطقة وبدع، وآخرين اتهمهم بالتمرد الدائم على الدولة والقانون... إلى آخر ما هنالك من أوصاف!

1- ولد المؤرخ اليوناني الوثني أميانوس مرقليتيوس في انطاكية (330-395/400)، وطلب العلم فيها. ولما اشتد ساعده تجند كمحترف في سلاح المشاة في غاليا (فرنسة)، ثم شارك في هيئة أركان حرب أورسيسينيوس Ursicinus في المشرق، فشهد الحروب، ورافق يوليانيوس المرتد في غزوه لبلاد فارس، وكتب عن مقتله. ويعد أميانوس واحداً من آخر المؤرخين الرومان الكبار. وقد كتب تاريخ روما "المصنف التاريخي Res Gestae" باللاتينية متمماً ما وصل إليه المؤرخ تاكيوتس من سنة 96 إلى 378م، فوقع مؤلفه في واحد وثلاثين كتاباً، ضاعت الكتب الثلاثة عشر الأولى، ولم يبق منها إلا من الرقم أربعة عشر حتى الواحد والثلاثين؛ وهي تحتوي على سرد قيم للأحداث بين 353-378م. وهذه الأسفار قيمة تاريخية لأنها مرويات شاهد عيان. وبالرغم من وثنيته، فقد كان معتدلاً فيما كتبه عن المسيحية. ولشهادة رأي آخر فيه لأنه وصف العرب⁽¹⁾ بما يلي: "... طباعهم فظة وملابسهم رثة تكشف عن أجزاء من أجسامهم، وهم مرتزقة متعطشون للدماء، حيث اعتبرهم قوة هدم وتدمير في الدولة.

رافق أميانوس الامبراطور يوليانيوس في حملته الفارسية وشهد مقتله. وقد عرف العرب في السلم وفي الحرب من خلال إقامته في المشرق، لذلك تعد ملاحظاته مهمة خاصة في القضايا والمسائل العسكرية. ودرج على الإشارة إليهم في مصنفه التاريخي بطريقة غامضة كأنما لا يريد أن يعطيهم هوية أو اسماً محدداً أو صفة دائمة، بحيث يفضي ذلك إلى احتمال الظن، في أحسن الأحوال، إلى عدم الرغبة بالاعتراف بهم كمجموعة بشرية واحدة تجمعهم مقومات وصفات متعددة، فمرة يشير إليهم كسكياتي

(1) - انظر شهيد في كتابه "Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, pp.173".

(عرب الخيام)، وثانية كسرقين^(١)، وأخرى كمرب رحل، وأحياناً كمقيمين.. الخ. لذلك، يمكن تلمس رؤية أميانوس الدونية لهم من بين السطور. لكنه كتب أيضاً عن عاداتهم وسرعة وحيوية حركتهم الرشيقية والمدمرة في غزواتهم وغاراتهم، كما كتب عن اندماجهم الجغرافي وملابسهم وطريقة امتحانهم السريعة للخيول والإبل، وعدم حبهم للزراعة، وعدم انسجامهم مع القوانين، وعن عاداتهم في الزواج، وعن طعامهم وشرابهم ومسكنهم. لكنه أكد رواية المصادر العربية التي جاءت بعد الإسلام بأن العرب المتحالفين كانوا بالفعل يحكمون من قبل ملوكهم^(٢).

3- ولد المؤرخ الكنسي سوزومن Sozomen (391-450) م في فلسطين وظهرت نجابته منذ صباه، فتضلّع في علوم الرياضيات واستيعاب الأسفار المقدسة. قصد القسطنطينية وتعلّم مهنة المحاماة فيها، لكن ميله إلى التاريخ غلب عليه، فآلف تاريخه المشهور في تسعة كتب؛ اشتمل الأول والثاني منها على مجمل الأحداث من ميلاد السيد المسيح (ع) إلى خلع ليكينيوس⁽¹⁾. والكتابان مفقودان. أما باقي كتبه فتؤرخ حتى وفاة الامبراطور هونوريوس سنة 423 م.

أضأء تاريخ سوزومن الكنسي (Historia Ecclesiastica: HE, VI.38) بشكل واسع ومفيد على التاريخ المسيحي للعرب وعلى تاريخ العلاقات العربية البيزنطية في القرن الرابع، بحيث تتناول بشكل رئيسي النشاطات العسكرية والسياسية والدينية والثقافية في تاريخ عرب التحالف مع بيزنطة في القرن الرابع، والتي منها :

ا - ثورة ماوية خلال فترة والنس، وتضمين موسى كاسقف للعرب الشرقيين الذين أخذوا بالمذهب الأرثوذكسي.

ب - تحول قبائل بني صالح إلى المسيحية، فكان زوكوم/زوكوموس/زكريا Zokomos هو الشخصية التي أسست لعمود بني صالح نهاية القرن الرابع، والخامس، وذلك بعد سقوط التتوخيين.

ج - تطور العرب الديني كأبناء لإسماعيل بين بداية المسيحية وفجر الإسلام.

د - تاريخ الشعر العربي في النصف الثاني من القرن الرابع. إذ كان سوزومن أول من كتب شهادة عن الشعر العربي القديم وأناشيده.

وكان اهتمام سوزومن بتاريخ العرب يتبع من الاعتبارات التالية:

ا- اهتمامه بالمسيحية والأماكن المقدسة في فلسطين موطنه الأصلي. وقد اندلعت ثورة ماوية على حدود ولاية المشرق ليس بعيداً عن موطنه الأصلي. ودارت بعض معاركها على أرض فلسطين.

ب- كفلسطيني من بيتليا (بيت إليا) Bethelia ومؤرخ مسيحي اهتم بتحول أبناء إبراهيم العرب إلى المسيحية بعد تحولهم إلى اليهودية.

ج - تحول العرب بواسطة الرهبان والقساوسة الذين أقاموا بينهم، والذين كان من بينهم عائلة سوزومن الوثنية كنتالك يعيشون في الصحراء قبل أن يتحول جده إلى المسيحية.

4- عد المؤرخ الكنسي القديس جيروم Jerome من مشاهير علماء الرومان (331-

420) م. ولد في ستريدون من أعمال دلماشيا (كرواتية الآن). ودرس اليونانية واللاتينية والأدب والفصاحة في روما. زار غالية وبريطانية وسورية. واعتزل في أنطاكية ودرس العبرانية والكلدانية، وزار الأماكن المقدسة سنة 376، ثم عاد إلى الغرب، ثم إلى المشرق

(1) - شارك قسطنطين في ولاية المشرق، واختلف معه على خلفية سياسته المسيحية، إذ كان ليكينيوس وثياً متحمساً ضد المسيحية. قتل مع ابنه بمعرفة قسطنطين سنة 324، مع أن زوجته وأم ولده هي شقيقة قسطنطين.

مرة أخرى في عام 387 م، وختم حياته هناك بأن أقام في صحراء خلقيس^(١)، ليس بعيداً عن حلب المنطقة التي سكنها التتوخيون، وكان المكان الثاني الذي أقام فيه هو بيت لحم، بالقرب من الأماكن التي دارت فيها غارات العرب السريين بقيادة ماوية على أطراف الامبراطورية الشرقية. وقد رسم صورة العرب على أنهم عبدة الإلهة العزى، برابرة وغزاة مغيرون يخربون الأديرة ويقتلون القساوسة ورجال الدين الجديد، وهم معاول هدم في جسد الامبراطورية.

ترك جيروم مؤلفات كثيرة، أهمها: ترجمة تاريخ أوسيدوس إلى اللاتينية سنة 387 م. فأدنا كثيراً فيما كتبه عن تاريخ السلوقيين في سورية. وقد بقي تأثيره مدة طويلة في الغرب اللاتيني، بحيث رسمت صورته التي رسمها عن العرب في ذهن الغربي حتى أزمان طويلة قادمة. وكان جيروم رومانياً حتى نخاعه رغم مسيحيته، ولم يكن متعاطفاً مع شعوب المشرق بشكل عام.

٤

بدأ التحالف العربي البيزنطي الأول منذ عهد قسطنطين حتى ثيودوسيوس الأول (305-395). حيث تغطي دراسة هذه الفترة كامل تاريخ القرن الرابع. إذ يقتضي المراد دراسة العلاقات العربية-الرومانية والبيزنطية مع كل إدارة من الإدارات الامبراطورية التي تناوبت على السلطة خلال هذه المدة شديدة الأهمية في تاريخ الامبراطورية المشرقية. ينعكس الحضور العربي في المشرق، من ضمن أشياء أخرى، في ثلاث ولايات سميت بولايات العربية: الأولى هي ولاية العربية التي أنشأها تراجانوس سنة 106م بعد أن أنهى مملكة الأنباط وضمها إلى الامبراطورية وأنشأ ولاية العربية وجعل عاصمتها بصرى الشام بدلاً من البتراء عاصمة الأنباط، والثانية فيما بين النهرين، والثالثة في مصر شرقي النيل، حيث بقيت الأخيرة تابعة للمشرق الروماني حتى فصلها ثيودوسيوس الأول عن المشرق سنة 381 م. وتعد مسألة الانصهار العربي في المشرق مهمة، كونها تأتي من بين أسباب متعددة، أهمها الصحراء والمناطق الجافة التي كانت دافعهم الدائم للبحث عن توفر سبل العيش المأمول بالهجرة نحو الشمال مخترقين الأطراف الشرقية للامبراطورية. لذلك وجب على المخطط الروماني إيجاد متحالفين عرب للدفاع عن الحدود الشرقية للامبراطورية من غارات عرب الجزيرة المستمرة، وضد الطموحات الفارسية، وللحفاظ على النظام في هذه الأطراف.

اتخذ التحالف العربي مع بيزنطة أشكالاً مختلفة خلال فترة القرن الرابع. فرغم معرفة كل قبيلة من قبائل التحالف بفرادة شخصيتها الخاصة ولأنها القبلي، إلا أن الإدارة الامبراطورية استطاعت توظيف الولاء القبلي المرتبط ببعضه بحيث شكل نوعاً من الاندماج العام لغالبية هذه المجموعات العربية. وهنا، يظن أن الرغبة وحدها ليست

(١) - يوجد في سورية عدة مدن باسم خلقيس أو خالقيس؛ أهمها خلقيس قيسرين، وخلقيس عجر، والمقصود هنا: خلقيس قيسرين - المحقق.

كافية لتقديم تفسير قومي مبكر لنجاح اندماج كهذا، إذ يقول المسعودي أن الرومان صنعوا من التتوخيين ملوكاً على عرب المشرق.

أثبتت تنوخ أنها كانت أبرز مجموعات التحالف في المشرق في القرن الرابع بلمب دورها في المعارك الدائرة بين الفرس والروم، وذلك من خلال سلطانها على القبائل على طول الفرات وفي غريه. إضافة إلى أن تنوخ نفسها كانت اتحاداً من عدة قبائل. كما أثبتت تنوخ دورها بتحالفها مع بيزنطة في المعارك التي دارت بين القوط والروم في تراقية ومادريانا بولس والقسطنطينية.

ولكن، كم يتبين بوضوح كيف كانت العلاقات تربط بين عرب التحالف التتوخيين في الشمال وعرب اللخمين في الجنوب في القرن الرابع، ولم يتبين بوضوح أيضاً كيف كانت بنية وتنظيم الحياة في جوانبها المدنية والاقتصادية والاجتماعية، وإلى حد ما الثقافية والسياسية في هاتين المجموعتين. كما لم يتبين أن أي من المجموعتين حصلت من خلال إقامتهما على أي نوع من أنواع السيادة، بالمعنى السياسي والإداري، على الأرض التي عاشت عليها. كذلك لم يكن واضحاً بشكل قاطع أن هؤلاء المتحالفين العرب في الشمال أو الجنوب قد حازوا على المواطنة الرومانية، غير أن بعض قادتهم منحوا حق المواطنة مقابل خدمات استثنائية قدموها للإدارة الامبراطورية. وقد اعتنق التتوخيون المسيحية قبل هجرتهم من ميزوبوتاميا إلى غرب الفرات، بينما اعتنق المسيحية من كان منهم يقيم في سورية، وذلك نتيجة للسياسات الامبراطورية الرسمية. وقد ظهر حضور التحالف العربي في القرن الرابع من خلال ملوكهم: اللخمي امرؤ القيس، الملك الحواري زوج ماوية، والملكة المحارية ماوية.

كانت المعاهدات غير المتكافئة التي عقدت على انفراد بينهم وبين بيزنطة تشترط عليهم الاشتراك في الحرب ضد أعداء الامبراطورية، سواء كانوا من الفرس أو القوط أو عرب شبه الجزيرة، وحماية حدود وأطراف الامبراطورية وطرق مواصلاتها في المشرق، مقابل أجور ومعونات وأعطيات سنوية أو موسمية متفق عليها. وقد تبين من خلال السياق العام للروايات التي كتبت عن ثورة ماوية أنها كانت تحكم على العديد من القبائل العربية في منطقة المشرق في فترة الأزمة التي عاشتها مع الإدارة الامبراطورية. بينما أشارت وثيقة النمارا إلى تفاصيل أكثر عن ملك كل العرب امرئ القيس وأولاده الذين عينهم زعماء على القبائل العربية وهم تحت إمرته. وقد أدت ثورتا عرب ماوية إلى تغير في التكتيك الروماني - البيزنطي للتعامل مع عرب التحالف بحيث أعيد ترتيب التحالف على أسس لا تسمح لهؤلاء المتحالفين العرب بتشكيل سياسي أو عسكري يمكن أن يتطور إلى تهديد للامبراطورية كما حدث في تدمر قبل قرن، وكما حدث في الحشد للحرب التي أعلنتها ماوية.

ومن المؤسف أنه لا يوجد حتى الآن، تحليل متتابع الحلقات لجميع أنواع المصادر التي تعتي بتاريخ العرب الشماليين حتى ظهور الإسلام.

الملك الحواري زوج ماوية

ذكرت المصادر العربية أن اللخمين والتتوخيين المتحالفين مع بيزنطة في القرن الرابع شكلوا تحالفاً بينهم. وقد رُبطت المجموعتان بروابط كثيرة حسيما ذكره المؤرخون العرب. فتخالفهم تحت اسم واحد ربما تم من خلال تزواجهم الدائم قبل وبعد فرار امرئ القيس أو هجرته إلى الأراضي التابعة لبيزنطة.

كان الحواري آخر ملوك قبائل التحالف التتوخي في جنوب ووسط سورية وشمالها. وجاء في كتاب نينا بيقوليفسكايا "العرب على حدود بيزنطة وإيران"، ص 58: "الأقرب إلى الاحتمال هو الافتراض بأن زوج ماوية كان ينتمي إلى فرع جانبي من اللخمين، هذا بينما حملت ماوية اسم عشيرتها الأزد على نحو ما تبين من رواية حمزة الأصفهاني". وقد ارتقت ماوية سدة الملك بعد موت زوجها سنة 375 م، وذلك لعدم وجود وريث له. فقادت فرسانها في ثورة تمرد أقض مضجع الحكم الروماني في المشرق، بحيث شملت هذه الثورة منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط حتى فلسطين الجنوبية.

ويتحدث المسعودي في "مروج الذهب"، ج 2، ص 231: "جاء ملوك التحالف التتوخي في القرن الرابع على الترتيب: النعمان بن عمرو بن مالك، عمرو بن النعمان بن عمرو بن مالك، الحواري بن النعمان بن عمرو بن مالك. وقد سبقهم جذيمة وعمرو بن عدي مؤسس الأسرة اللخمية وابنه امرؤ القيس".

كانت منازل التتوخيين في مناطق حلب وحماة وحمص شمالاً وغرباً وجنوباً وشرقاً. وقد أشار ياقوت الحموي في "معجم البلدان"، ج 5، ص 156، إلى: "أن مدينة معرة النعمان في شمال سورية سميت على اسم أحد ملوك تتوخ، والذي أظنه أنها مسماة بالنعمان وهو الملقب بالساطع بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن خزيمه بن تيم الله وهو تتوخ بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة". وهذا يعني أن صلة النسب والقرى بين تتوخ وبني الساطع في الحيرة (نسبة إلى الدبر المسمى دير حنا الذي كان لبني الساطع) كانت واحدة، أي أن بني الساطع من تتوخ. وقد لقب ملك تتوخ الأول في الحيرة جذيمة بالأبرش والوضاء، والذي ربما جعله التتوخيون على الحيرة بعد جذيمة (المطاطع)، مثلما فعل التتوخيون فيما بعد باحتمال إطلاقهم عليه نفس الصفة في شمال سورية في القرن الرابع. وبالإشارة إلى مسيحية تتوخ يبدو لقب الساطع ذو دلالة دينية، حيث كان الاسم الذي عرف به الملك التتوخي زوج ماوية هو من خلال لقب "الحواري" بمدلولها الإيماني المسيحي (تشبهاً بحواري السيد المسيح)، مما يعني أن الحواري كان مسيحياً جيداً. فكلمة حواري في القاموس⁽¹⁾ تعني: "القصار، أي الذي يقصر الثياب أو النسيج بالنقع لتبييضه، والحواري هو الحميم والإنصاح، وقال بعضهم: الحواريون هم صفوة الأنبياء الذين أخلصوا لهم، والحواري: البياض، وهذا أصل

(1) - الزبيدي: تاج العروس، ج 11، ص 103.

قوله (ص) في الزبير: "حواري" من أمّتي، وهذا كان بدءاً، لأنهم كانوا خلاصاء عيسى (ع) وأنصاره؛ وإنما سموا حواريين لأنهم كانوا يغسلون الثياب، أي يحورونها، وهو التبييض. ومنه قولهم: امرأة حواريّة، أي بيضاء. فلما كان عيسى (ع) نصره هؤلاء الحواريون وكانوا أنصاره دون الناس؛ قيل لأنصار نبيه حواريّ إذا بالغ في نصرته، تشبيهاً بأولئك.

فالحواري إذاً هو الملك الثالث والآخر في تحالف تتوخ. وهو ابن الملك الأول النعمان. وقد كان أهم الملوك الثلاثة. وربما كان هذا الملك يقوم بتبييض الثياب كنوع من الورع والتقوى والتواضع كمسيحي، فقد كان التتوخيون متحمسين مخلصين للعقيدة المسيحية، وربما كانت أسماؤهم تلخص إيمانهم. ويشير شهيد في الصفحة 380 من كتابه بالإنكليزية 'بيزنطة والعرب في القرن الرابع'، إلى أنّ الملك التتوخي "الحواري" هو زوج الملكة ماوية، كما يقول شهيد بإمكانية كون الملك الأول في لائحة الملوك التتوخيين الثلاثة هو نفسه أمرؤ القيس صاحب وثيقة النمارا؟

ويشير سوزومن إلى موت ملك السرخيين سنة 375م، بأنه زوج ماوية الملك وليس الفيلارخ (شيخ قبيلة أو عدة قبائل) دون أن يعطيه اسماً، كما يشير إلى المعاهدة المعقودة بين الملك ويويانوس مباشرة بعد مقتل يوليانيوس سنة 363م، وذلك بانضمام الحواري إلى يوليانيوس (جوليان) عند الرقة في الحملة على المدائن. ودامت فاعلية المعاهدة خلال معظم عقدي الستينات والسبعينات خلال حكم والنس، حتى تم نقضها من جانب ماوية بإعلان الثورة بعد موت زوجها.

تتعلق المعاهدة عادة بطرفين متعاهدين، كانت تتم عادة بين ملوك عرب كانوا أصحاب سلطة على قبائل ومجموعات عربية كبيرة وصغيرة عليها شيوخ، من طرف، وبين الإدارة الامبراطورية من طرف ثان. وقد كان ارتباط هؤلاء بالمعاهدة لقاء القيام بواجبات ما تطلبه الإدارة الرومانية مقابل مكافأة عينية تغلب على العلاقات بين الامبراطور وزعماء ومشايخ القبائل (الأعوان)، في حين تغير الأمر في الفترة البيزنطية بحيث أصبح القيام بما تطلبه الإدارة البيزنطية مقابل أعطيات مادية. وكان على المتعاهدين العرب، حسب بنود المعاهدة، القتال إلى جانب بيزنطة ضد الفرس كجزء من الجيش الامبراطوري في المشرق، والمحافظة على النظام وحراسة وحماية الحدود من غارات أمّراب شبه الجزيرة العربية. وكان يقتضي تجديد المعاهدة من قبل الملك الجديد بعد موت من وقعها، وهذا يعني أنّ المعاهدة تعتمد في بقائها على من وقعها من الطرفين وليس على مؤسسة الحكم، بحيث يتم تجديدها عادة بموافقة الطرفين، إن كانت العلاقات بينهما مناسبة للتجديد.

كان زوج ماوية ملكاً على قبائل عربية عديدة لعلها كانت تشكل اتحاداً تخمياً تتوخياً قوياً. وبعد موته تولت زوجته ماوية زعامة هذا الاتحاد. إذ يبدو أنها كانت ملكة في حياته، وإلا ما كانت تحصل على هذا اللقب من الامبراطور البيزنطي الذي عقد المعاهدة مع زوجها. وبدلاً من السعي لتجديد المعاهدة بعد موت زوجها قامت بإعلان الحرب على الإمبراطور والنس (فالينز).

انتهت المعاهدة التي وقعها والنس مع ماوية بعد موته سنة 378. فكان على الحاكم الجديد، ثيودوسيوس الأول، تجديد توقيع المعاهدة. إلا أنه لم يكن متحمساً للسير بالعلاقات العربية-البيزنطية إلا بالشكل الذي يخدم مصلحة بيزنطة.

لم يذكر أي مصدر وجود وريث ذكر للملك زوج ماوية، عدا سوزومن الذي أشار إلى وجود ابنة. وهذا يدعو للأخذ باحتمال واحد من اثنين: لا يوجد له ولد أو أولاد ذكور، وأن الزوجة كانت شخصية مميزة عند زوجها وعند عرب التحالف كي تحتلي العرش بعده. أو أن الملك ترك وراءه ولداً صغيراً أصبحت أمه ماوية وصية على العرش، كما حدث مع زنوبيا قبل قرن من الزمن، ومع سميراميس قبل أكثر من أحد عشر قرناً.

تزامن موت الملك الحواري (زوج ماوية) مع موت أسقف العرب ثيوتيوس الذي كان قد وقع مع الأساقفة الأرثوذكس المشاركين في مجمع أنطاكية إعلاناً فوجهاً إلى الإمبراطور المسيحي الأرثوذكسي يويانوس (جوفيان) سنة 363م، يقول بوحدة الأب والابن. ولما جاء والنس، الذي كان من أتباع الأريوسية، أقصى عدداً من الأساقفة الأرثوذكس العرب ونفاهم إلى فلسطين الأولى وإلى ولاية العربية ومصر، وعين بدلاً منهم أساقفة أريوسيين من أتباعه.

ويروي سقراط تفصيلات أكثر عن ماوية وابنتها التي تزوجت من وكثور (فكتور) قائد سلاح الفرسان في الجيش الروماني بنهاية السبعينيات بعد توقيع معاهدة السلام بين ماوية والنس، كما يذكر أن الملك الحواري حكم مدة عشرين عاماً، لذا كان الحواري "ملك كل العرب" خلال فترة حكم قسطنطيوس ويوليانوس ويويانوس ووالنتيانوس والنس. ووصف سوزومن زوج ماوية بالملك وليس بالقيصر، كما ذكر أن موسى ريثا هو نفسه موسى ماوية.

التوخيون (عرب التحالف) والمسيحية

أخذت المسيحية في القرن الرابع تنتشر بين القبائل العربية في تجمعات المدن والأرياف، وذلك نتيجة لانتشار النساك والرهبان خاصة بين القبائل، ونتيجة لازدياد التواصل التجاري بين المدن والحضر، وإلى السعي وراء الحصول على امتيازات خاصة من بيزنطة التي أصدر إمبراطورها قسطنطين الكبير مرسوم ميلانو سنة 313 م، الذي أجاز حرية الدعوة المسيحية في الدولة، كما رعى انقراض المجمع المسكوني الأول في نيقية سنة 325 م لحل الخلافات بين أتباع المذهبين: الأريوسي والأرثوذكسي.

لا شك أن جذور نظام التحالف الروماني مع عرب التحالف والفيلاخات في القرن الرابع والخامس في الفترة البيزنطية يعود في بداياته إلى الفترة الرومانية في نهاية القرن الثالث وبداية الرابع عندما تحالف الرومان مع زعماء القبائل أو المناطق العربية. إلا أن نظام التحالف هذا تطور في العهد البيزنطي وأصبح أساساً للعلاقات العربية-

البيزنطية. مع ملاحظة الاختلاف بين هذه التحالفات وتحالف تدمير مع الرومان في القرن الثالث، ثم انفكاكه عنها، والذي شهد صعود وسقوط تدمير كقوة ملكية عربية اعتمدت أساساً على المدينة - الدولة.

ويشهد المؤرخون الكنسيون البيزنطيون على أن ولاء وحماس عرب التحالف للعقيدة المسيحية والدفاع عن المذهب الأرثوذكسي خلال حكم الإمبراطور والنس لم يكن محل شك أبداً. غير أن هؤلاء المؤرخين تجاهلوا رواية تحالف العرب التتوحيين والتزامهم بالمسيحية قبل وبعد والنس. وجاءت روايات الإخباريين العرب فيما بعد لتؤكد هوية عرب التحالف التتوخي الذين ارتبطوا بتحالفاتهم مع بيزنطة في القرن الرابع.

استطاع قسطنطين الكبير (الأول)، بعد تنحي ديوقلتيانوس عن عرش روما سنة 305م، وهو في الستين، أن ينجح بالتغلب على خصومه ومنافسيه في الحرب الأهلية التي استمرت لسبعة عشر عاماً، وأن يعيد توحيد الامبراطورية ويأخذ على عاتقه تنفيذ الإصلاحات التي بدأها سلفه ديوقلتيانوس.

وينظر إلى قسطنطين الكبير بأهمية خاصة لما قام به من تغيير وجه التاريخ، وذلك بتحقيق الانتقال من العالم القديم إلى عالم جديد ستشهد أحداثه تطورات هائلة في السياسة والعقائد والأخلاق، إذ اعترف بالديانة المسيحية رسمياً عند إعلانه مرسوم ميلانو سنة 313م، وذلك بمنح المسيحيين حرية العبادة والدعوة في جميع أنحاء الامبراطورية، إلا أنه لم يصاحب هذا الإعلان الاعتراف بالمسيحية كدين رسمي للدولة، كما نقل العاصمة من روما إلى مدينة بيزنطة الواقعة على ساحل البوسفور، وأطلق عليها اسم القسطنطينية نسبة إلى نفسه، كما أدخل مبدأ الحكم الوراثي، وعمل على تقليص عدد أفراد الفرق العسكرية، وفتح الأبواب أمام انخراط البرابرة وخاصة الجرمان للتجنيد في الجيش النظامي. وكان مُشرعاً ناجحاً، إلا أن كفاءته الإدارية كانت موضع شك، لأنه ضاعف من الضرائب وحول بطريقة إدارته طبقة المزارعين والصناع إلى طبقة مسحوقة لم يسمح لها بتغيير مهنتها. لكن أهم ما قام به كان إصدار مرسوم ميلانو ونقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية.

قسمت الامبراطورية بعد موت قسطنطين بين أبنائه الثلاثة، إلى أن تمكن أحدهم وهو قسطنطيوس أن يوحد الإدارة الامبراطورية تحت قيادته، وذلك بعد مقتل أخويه قسطنطين الثاني وقونسطانس، وقد استمر قسطنطيوس حتى سنة 361م. إلا أن أزمات الامبراطورية بدأت تتسارع دون أن يتمكن الأباطرة يوليانيوس (361-363)، يويانيوس (363-364)، ووالنس (364-378) من وقف الأخطار المحدقة بالدولة، فقتل يوليانيوس سنة 363م أثناء الحرب على الجبهة الفارسية، فاضطر يويانيوس الذي أعلنه الفيالق في جبهة القتال إمبراطوراً إلى شراء السلم من الفرس بالتنازل عن بلاد الراشدين وبعضاً من أرمينية، وأما والنس فقد واجه مشكلة مركبة أخطر مما واجهه سابقه، إذ أنه واجه الفرس وثورة عرب التحالف بقيادة مأوية التي استمرت ثورتها لثلاثة أعوام (375-

(378)، وخطر القوط الذين تمكنوا من سحق الجيش الروماني وقتل الامبراطور نفسه في معركة هادريانابولس (أدريانوبول) (أدرنة). وينظر إلى والنس كنقطة تحول في تاريخ الامبراطورية البيزنطية، حيث بدأ ضغط القبائل الجرمانية والهون الآسيوية يشكل خطراً حقيقياً على كيان الدولة. فأخذ دور الكنيسة يتصاعد إلى مستوى عظيم من القوة والثروة والتنظيم حتى أصبحت المسيحية ديانة الدولة الرسمية في فترة ثيودوسيوس (378-395). بذلك أصبح مصير الامبراطورية معلقاً بين قبائل اليرابرة، وخاصة الجرمانية منها، ورجال الكنيسة.

أجل إلقاء الضوء على الأسباب المروية لثورة عرب التحالف تحت قيادة ملكتهم ماوية، ينبغي تقديم استعراض سريع لمجريات الخلاف بين المذاهب المسيحية خلال هذه الفترة. يذكر المؤرخ الكنسي أوسيبوس القيصري⁽¹⁾ Eusebius الرواية التالية التي نسبها إلى قسطنطين نفسه؛ خلاصتها أنه بينما كان يزحف على روما لهزيمة خصمه ماكسينتيوس Maxentius على جسر ميلويان⁽²⁾ Milvian سنة 312م، رأى عند المغيب هالة من النور على شكل صليب تتلألأ في كبد السماء، وتحتها عبارة: "in hoc signo vince"؛ ستتصير بهذا الرمز"، ورأى في منامه تلك الليلة صورة السيد المسيح ومعه نفس الصليب الذي رآه مضيقاً عند الغروب، يأمره أن يتخذ الصليب شعاراً له وأن يقوم بالزحف على عدوه فوراً. فجاءت هذه الظاهرة وما تبعها من نصره على خصمه لتكون إحدى الدوافع الأساسية لاعترافه بالمسيحية واستصدار مرسوم ميلانو وعقد مؤتمر نيقية فيما بعد سنة 325م للتوفيق بين المذهبيين الكنسيين الأساسيين الأرثوذكسية والأريوسية⁽³⁾.

عمل قسطنطين على محاولة إرضاء أطراف المسيحية الناشئة المتعارضة؛ الأثناسيوسية (الأرثوذكسية) والأريوسية دون أن يتخلى عن ديانة الدولة الوثنية أو حتى أن يتخلى عن عبادة الامبراطور، فاختار أن يقيم نجاحه في تسييس الدولة على ثلاثة دعائم رئيسية: العبادة الامبراطورية الوثنية، الأثناسيوسية، والأريوسية. فاحتفظ بلقب

(1) - ولد في فلسطين (265-340) م، ودرس في أنطاكية واكمل دروسه في الصعود، ثم أنشأ مدرسة قيصرية على الساحل الفلسطيني. استفاد من المكتبة العظيمة التي جمعها أحد أصدقائه. وصار أسقفاً على قيصرية سنة 315 م. لكتب على دراسة التاريخ، وخصوصاً للديني، ولقب بابي التاريخ الذي متكأ مسمي هيرودوت بابي التاريخ النبوي، ولقب تاريخه "التاريخ الكنسي Historia Ecclesiastica" في عشرة كتب، بدأ فيها من ميلاد السيد المسيح إلى 326م، وله غير التاريخ المذكور عدة مؤلفات: الإعداد الإيجلي Praeparatio Evangelica، والكرونيكون Chronicon الذي يروي فيه حوالات التاريخ منذ خلق العالم، وأخيراً كتاب لمجاد قسطنطين Laudes Constantine.

(2) - اسم الجسر باللاتينية هو ميلويوس Milvius، ويقع على نهر التيريس (التيبر) على بعد ثلاثة كيلومترات غن روما - المحقق.

(3) - يرى عرفان شهيد استاذ التاريخ العربي قبل الإسلام في جامعة جورج تاون، وصاحب المؤلفات الرئيسية الخمسة في دراسة تاريخ العلاقات العربية-الرومانية-البيزنطية منذ الاحتلال الروماني للمشرق عام 64 ق.م حتى معركة "ايرومك" في 20 آب 636 م، أن دوافع قسطنطين لقبني المسيحية لم تكن إيمانية وإنما كانت فكرية ومياسية، لإدراكه بانتصار المسيحية في صراعه مع الوثنية الرومانية. انظر الفصل السادس من كتابه "روما والعرب"، الذي يشير إلى إمساك قسطنطين بالعصا من وسطها، فقام مع المسيحيين ولم يضطهد الوثنيين. انظر أيضاً ابن الأثير، ج1، ص 396 من "الكامل في التاريخ" تحت عنوان "سبب تنصر قسطنطين"، والذي يورده ابن الأثير إلى أسباب سياسية محضنة.

الكاهن الأعظم، وهو لقب وثني، وكان بلاطه يغص بالأساقفة والقساوسة والرهبان من مختلف المذاهب المسيحية جنباً إلى جنب مع الكهنة والفلاسفة الوثنيين، كما نقش شارات المسيحية والوثنية على النقود التي سكها. وكان قتله لزوجته وأحد أبنائه يدل على مخالفة صريحة لتعاليم الدين الجديد. ولذلك يمكن القول أن قسطنطين بقي حتى موته وثنياً مع الوثنيين وأريوسياً مع الأريوسيين وأثناسيوسياً مع الأثناسيوسية. وشهد عهده بداية الخلاف بين المذهبيين. ثم تحول هذا الخلاف المذهبي إلى أعمال عسكرية عدائية بين عرب التحالف وقسطنطيوس في فترة الأولى.

بدأت خلافات العرب مع قسطنطين في نهاية عهده (336م)، وذلك بعد نفيه أثناسيوس. فحُلت المعاهدة بشكل آلي بين العرب والرومان بعد موته، فتولى ابنه قسطنطيوس الأريوسي المذهب على الجزء الشرقي من الامبراطورية، فثار العرب بقيادة ملكهم عمرو بن النعمان بن عمرو بن مالك شقيق الحواري زوج ماوية. إلا أن قسطنطيوس تصالح معهم سنة 338، وبقي هذا الصلح نافذاً طوال الأربعمينات، من هنا نرى أن الخلاف لم يأت بعد موت الحواري مباشرة، فقد كانت جذوره خادمة تحت الرماد منذ بدايات الخلافات المذهبية، إلى جانب أسباب أخرى، اقتصادية وسياسية قد تكون أقل في الأهمية من السبب المذهبي.

ويمكن هنا أن نستبق ونقول: إن ثورة الفساسةنة في القرن السادس ضد بيزنطة جاءت أساساً لأسباب مذهبية أيضاً، وذلك بسبب قيام يوستينيانوس بإعدام الأساقفة المنوفيزيين، لمخالفتهم مذهب. وهنا يبدو تشابه الأسباب كبيراً مع أسباب ثورات عرب التحالف التي توخى في القرن الرابع عندما بني سبب التمرد على أساس مذهبي بالدرجة الأولى. فبعد موت الحواري، قرر الامبراطور والنس، الذي كان يعتقد بأراء مخالفة لمعتقدات المذهب الأرثوذكسي الذي كان يؤمن به المسيحيون العرب في سورية، أن يجعل الدولة تأخذ بالمذهب الأريوسي. ولذلك قرر عدم الاستجابة لمطالب العرب وتجريد الأسقف العربي من منصبه كأسقف أرثوذكسي، مصراً بالوقت نفسه على تنصيب أسقف مكانه يؤمن بالمعتقدات الأريوسية المخالفة لما كان المسيحيون العرب الأرثوذكس يؤمنون به، وهو وجود طبيعة واحدة غير مجزأة للسيد المسيح، بحيث تتحد طبيعته بطبيعة واحدة؛ جزئياً إلهية، وجزئياً إنسانية. بينما المعتقدات الأريوسية Arianism، نسبة إلى لوكيوس أريوس Lucius Arius الأسكندراني (250-336) م، تقول: إن السيد المسيح لم يكن من نفس المادة الإلهية، ولكن من أفضل المخلوقات الموجودة، وأن الإله وجود دائم لا يمكن إدراكه، وأن الابن لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى، فوجوده لاحق لوجود الإله، وبالتالي فإن الإله الأب لا يقبل الانقسام لنفسه. وقد كتب الدكتور مصطفى العبادي في كتابه "مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي"، ص 294، قائلاً: (أما الدعوة الأريوسية فهي نسبة إلى أريوس Arius الذي كان من أصول ليبية وتعلم في أنطاكية، ودرس تعاليم مدرسته التي تعلمها في أنطاكية، وأصبح أحد رجال الكنيسة في

الاسكندرية. ويبدو أنه كان على جانب كبير من الطموح وقوة الشخصية وحدة العقل، ونظراً لتعلمه في مدرسة أنطاكية المسيحية التي كانت تسود فيها فلسفة أوريجينوس (أوريجين) الدينية التي كانت مشبعة بالفلسفة الأفلاطونية، فقد بقي محافظاً على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها في الاسكندرية بصورة متطرفة. وسرعان ما صاغ آراءً مستقلة في العقيدة المسيحية تختلف عن العقائد السائدة، مما أوقعه في صدام عنيف مع اسكندر أسقف الاسكندرية في ذلك الوقت.

وتتلخص عقيدة أريوس بأن ابتداء بموقف أفلاطون (بأن الإله وجود دائم أولاً ولا يمكن إدراكه؛ ثم استنتج من ذلك نتيجة منطقية في أن "الإبن" لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى، ولذلك يلزم منطقياً أن وجوده كان لاحقاً لوجود الإله، وبعبارة أخرى أن "الإبن" له بداية، في حين أن الإله "الأب" قديم ودائم. وأخيراً بما أن الإله "الأب" لا يقبل الانقسام فلا بد أن "الإبن" خلق من العدم)، ويستطرد العيادي قائلاً: (صدمت هذه الآراء كثيرين من رجال الكنيسة في الاسكندرية الذين كانوا يمتدنون أن الإبن مثل الأب قديم ودائم وأنهما من طبيعة واحدة؛ وقد تخرج الموقف كثيراً نتيجة لذلك حتى اضطراً الأسقف اسكندر إلى عقد مجمع القساوسة في مصر وليبية وأصدروا استكراً لعقيدة أريوس وأعلنوا حرمانه وأتباعه من الكنيسة. لكن خطر دعوة أريوس لم يقتصر على مصر بل انتشر خارجها في فلسطين وليبية وآسية الصغرى. حيث لم يمكث اسكندر مكتوف الأيدي بل راح يعمل بنشاط جم بين أساقفة الكنائس في الولايات الشرقية يحضهم بكل قوة على مقاومة دعوة أريوس في مناطقهم. في ذلك الوقت حاول الامبراطور قسطنطين أن يتدخل في الأمر ويصلح بين أريوس واسكندر بدون جدوى. فقرر عقد مجمع كنسي عالمي يشترك فيه أساقفة الكنائس المختلفة في الشرق والغرب لوضع حد للإنقسامات المذهبية التي انتشرت في ذلك الوقت، وأرسلت الدعوة للاجتماع في مدينة نيقية Nicæa في آسية الصغرى سنة 325 م). لذلك، انعقد المجلس الكنسي للمرة الأولى في مدينة نيقية سنة 325 م برعاية الإمبراطور قسطنطين (305-337)م وتحت إشراف البابا سلفستر الأول، لمعالجة مسألة الهرطقة الأريوسية. وأصدر المجلس في نهاية جلساته المرسوم النيقيني الأول⁽¹⁾ Nicæno Decree؛ وهو ملخص للعقيدة المسيحية ضد العقيدة الأريوسية.

صار الخوض في المسائل اللاهوتية مفتوحاً أمام الجميع، فانقسم المسيحيون إلى فريقين وثارت البغضاء المذهبية والسياسية بينهما لأكثر من قرنين. ودار جدل عنيف ودام في بعض الأحيان بين الطرفين من أجل تحديد ماهية العلاقة بين المسيح الإبن والإله الرب. فقال المفكر أريوس Arius كاهن الاسكندرية وأسقفها بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، ولما كان المسيح الابن مخلوق للإله الأب فهو إذاً دونه ولا يمكن أن يعادل الابن الإله الأب في المستوى والقدرة الكلية. وبعبارة أخرى، فالمسيح مخلوق والمخلوق لا يمكن أن يكون إلهاً بالمعنى المطلق للكلمة، وإلا فإن المسيحيين يصبحون

(1) - انظر ص 376، الحاشية رقم 4 (قرارات المجمع المسكوني للكنسي الأول).

متهمين بعدم التوحيد من خلال عبادة إلهين. واعتبرت الأريوسية أن السيد المسيح لم يكن من نفس المادة الإلهية ولكن من أفضل المخلوقات الموجودة، وإن الإله وجود دائم لا يمكن إدراكه، وإن الابن لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى، فوجوده لاحق لوجود الإله، وبالتالي فإن الإله الأب لا يقبل الانقسام لنفسه. أما أثاناسيوس Athanasius بطريرك الأسكندرية (328-336)، فقال بأن فكرة الثالث المقدس تحتم أن يكون الابن مساوياً للأب تماماً وفي كل شئ بحكم أنها من مادة واحدة، حتى وإن كانا كائنين متميزين. ويبدو أن اتباع مذهب أثاناسيوس (الأرثوذكسي) أدركوا أن المسيحية تعتمد أساساً في دعوتها على مكانة السيد المسيح، بينما يبدو أنصار الأريوسية من الموحدين مما جعل مذهبهم يتوافق مع منطق المفكرين والمتقنين بتقييمه لجعل العقائد المسيحية على أساس من المنطق والعقل، في حين كان المذهب الأثناسيوسي يستقيم مع تفكير العامة الذين يحكمون بمواظفهم قبل عقولهم. ولم تلبث الأثناسيوسية أن سادت في بلاد الغرب اللاتيني، بينما سادت الأريوسية في الشرق الهليني. إذ يظهر هنا أثر الفوارق الحضارية بين الشرق والغرب، فقد كان معظم المفكرين والفلاسفة والأدباء أريوسيين موحدين، بينما كانت معظم الطبقات الوسطى والدنيا التي انتمى إليها رجال الكنيسة من الأثناسيوسيين (الأرثوذكس).

ولأن قسطنطين كان بالأساس مهتماً ببناء الملك والدولة، رأى أن يدعو إلى عقد أول مجمع مسكوني في نيقية، الواقعة في آسيا الصغرى، للتوفيق بين المذهبين المتخاصمين والخروج بصيغة موحدة للطرفين. فشارك نحو 300 مندوب من الشرق والغرب، ورأسه قسطنطين رغم أنه لم يكن معمداً. ولكن، وبدلاً من الخروج بصيغة توافق، قرر المجمع المسكوني إدانة أريوس ومذهبه ونفيه إلى إليريا⁽¹⁾ وإحراق كتاباته ومنع تداولها واضطهاد أتباعه ونفيهم. ومع ذلك استمرت الأريوسية نشطة في الأجزاء الشرقية الشمالية من الامبراطورية بحيث انتشرت بين القبائل الجرمانية من خلال نشاط المبشرين.

أيد قسطنطين الأثناسيوسية وهو في روما، ولما كان يفكر بنقل العاصمة إلى بيزنطة (القسطنطينية فيما بعد)، والذي تم سنة 330، استدعى أريوس من منفاه سنة 327م لمعرفته بقوة الأريوسية في الشرق الهليني⁽²⁾. وبرعاية قسطنطين تم عقد المجمع المسكوني الثاني في مدينة صور على الساحل السوري سنة 334م، والذي قرر إلغاء قرارات مجمع نيقية السابق وعفا عن أريوس وأتباعه ثم عزل أثاناسيوس في العام التالي ونفاه إلى غاليلية حتى أطلق سراحه يوليانيوس المرتد الذي لم يكن أمر أي من المذهبين يهمه. وقد أشاع أتباع أريوس أنه مات مسموماً في القسطنطينية سنة 336م، بينما ادعى خصومه أن موته إنما كان تنفيذاً لحكم الله العادل. ومات قسطنطين سنة 337م بعد أن تم تعميده على المذهب الأريوسي وهو على فراش الموت.

(1) - إليريا (إليريا) هي المنطقة التي تضم الآن كرواتية ومونتينيغرو وشمال ألبانيا.

(2) - يدل ذلك على أن قسطنطين كان على استعداد تام للتدخل بميله المذهبية وفق مآقتضيه مصالحه السياسية.

ثار الخلاف بين أبناء قسطنطين الثلاثة بعد اقتسام سلطة الامبراطورية بينهم، فعمل كل منهم على تقوية سلطانه من خلال تبني وتشجيع المذهب السائد في منطقة حكمه، فاتجه قسطنطيوس إلى تشجيع الأريوسية في الشرق، في حين شجع أخواه قسطنطين الثاني وقونسطانس الأثناسيوسية في الغرب وإيريا ووسط شمال أفريقية.

بعد وفاة قسطنطين الثاني ومقتل قونسطانس تولت المؤسسة البابوية ورجال الدين في الغرب الدفاع عن الأثناسيوسية (الأرثوذكسية)، وذلك بعد أن تم توحيد الامبراطورية تحت قسطنطيوس (350-361) الذي فرض المذهب الأريوسي على الغرب كما هو في الشرق. ولما جاء يولييانوس تولى عن المسيحية وأعاد اعتبار الوثنية وحاول تحقيق نوع من التوازن بينهما، غير أن يولييانوس (363-364) أعاد الاعتبار من جديد للمسيحية بعد توليه العرش بعد مقتل يولييانوس، ثم أن والنس أقام الدولة على المذهب الأريوسي. ولما تولى ثيودوسيوس (378-395) أعاد الأثناسيوسية (الأرثوذكسية) إلى عموم الامبراطورية.

شهد القرن الرابع تطوراً مضطرباً في فلسفة اللاهوت المسيحي، حيث بدأ المفكرون والمتفكرون يتساءلون عن العلاقة بين الله والمسيح مصاولين تحديد هذه العلاقة، كما بدأوا يستفسرون عن طبيعة الملائكة، وما هو المقصود بأن الخبز والنبيذ تحولاً رمزياً إلى لحم السيد المسيح ودمه. ولأن المؤسسة الكنسية كانت قد بدأت خطوات بنائها الأولى في عهد قسطنطين، فقد وصلت في العقود الأخيرة من القرن الرابع والأولى من الخامس إلى مرحلة من التأسيس بدأت تأخذ على عاتقها الصمود والدفاع، ومن ثم الهجوم المضاد لمزيد من إحراز الانتصار والسيادة. فعملت من ضمن مسؤولياتها المتعددة على وضع دراسات لاهوتية لاقناع المتشككين. لذلك، أخذت كوكبة من كبار المفكرين الكنديين بتبوير الآراء والأفكار المسيحية وبرهنتها ووضعها بصورة يقبل بها المشككون. وقد أطلق عليهم لقب آباء الكنيسة الذين كان من أهمهم: أوريجين (185-254)، إقليدس كليمنص السكندري (القرن الثالث)، وأمبروز (340-397)، وجيروم (331-420)، والقديس أوغسطين^(١) (354-430)، والذين عملوا على التوفيق بين تعاليم المسيحية وبين مطالب الدولة والكنيسة في عهدها الجديد. غير أن السجال المذهبي المسيحي لم يتوقف عند ذلك الحد؛ حيث استمر في القرون اللاحقة، فظهرت مذاهب مسيحية جديدة قادت في أحيان كثيرة إلى التمسك والاضطهاد العنيف بحق المخالفين.

1

كان للمسيحية دور روحي في تعضيد العلاقات بين عرب التحالف وبيزنطة، خاصة بعد الأزمة التدمرية التي أدت إلى عدم وجود ثقة مشتركة لفترة طويلة بين الطرفين. إلا

(١) يعد القديس أوغسطين (أوغسطينوس) من أكثر الشخصيات الكنسية المؤسسة لعلم اللاهوت في الغرب، حيث وفق بين العقل (الفلسفة) والإيمان المسيحي، وذلك من خلال مؤلفاته التي حاول فيها فلسفة الديانة المسيحية بالتوفيق بين الزنوعين: الصوفية والفلسفية. ويضع تاريخاً عاماً للحضارة الإنسانية من خلال نظريته المسيحية الشاملة للتاريخ البشري العام، حيث قدم رؤية عامة للكون منذ بداية الخلق حتى يوم القيامة.

أن المسيحية كديانة مشتركة حلت هذه المشكلة بأن وحدت الطرفين روحياً، إذ أصبح هذا الاتحاد، بل التوافق الروحي، سبباً رئيسياً في محاربة عبدة النار الفرس وعبدة الأوثان العرب في ولاية العربية. فكانت واجهة العلاقات العربية البيزنطية الأولى من خلال علاقاتها المهمة مع المسيحية والتاريخ الكنسي.

أثر التطبيع الروماني- البيزنطي بمقوماته الرئيسية الثلاث: اليونان، الرومان، والمسيحية، على العرب قبل الإسلام، إلا أن أكثر ما أثر فيهم كانت المسيحية. فساعدت بيزنطة في تطور المكون الثقافي والديني في الامبراطورية وخارجها؛ في شبه الجزيرة العربية، بحيث أثرت كثيراً في حياة عرب الاتحاد في القرون الثلاثة؛ الرابع والخامس والسادس، مما ساعد على توافق، إن لم نقل تطبيع أو اندماج، المتحالفين العرب بشكل كبير في النظام الامبراطوري البيزنطي.

وخلال هذه القرون، وخاصة القرون الميلادية التي سبقتها، دار العرب والعربية سياسياً في تلك ثلاث دول شرقية هي: فارس، روما وبيزنطة، وحُمير في الجنوب في فترة مبكرة. فأصبحوا تحت تأثير اليهودية والزرادشتية والمسيحية، وأصبحت العربية ملعياً لهذه الديانات. وكان التناقض الأشد يدور بين اليهودية والمسيحية، فصارت الغلبة للمسيحية، وتطورت مراكز المسيحية في الحيرة ونجران والرّها، وختاصر إلى الجنوب من حلب وأنطاكية. وتبنى عرب التحالف سياسة الترميز التي اتبعتها الامبراطور قسطنطين الأول الذي جسد صورة السيد المسيح برسم الصليب على دروع الجنود الرومان، فأقبل العرب على الأخذ بهذا الترميز كعصر للسيد المسيح والمسيحية، فاتخذوه شعاراً في المعارك التي خاضوها.

وهكذا تحول العرب إلى مقاتلين في حملات صليبية ضد عبدة النار في فارس، وضد الوثنيين العرب في شبه الجزيرة العربية، وضد القوط الأريوسيين. وأدى انحراطهم إلى تقرير المذاهب الدينية المسيحية، وعلى خلاف أحياناً مع المسيحية التي تتبناها روما أو بيزنطة، إلى مساهمتهم في تشكيل مسارات التاريخ المسيحي في المشرق، فأمنوا بذلك مكاناً مهماً لهم في تاريخ الكنيسة الشرقية. وبذلك بدأت الكنيسة العربية بالظهور بعدما كانت جذورها السابقة تمثل ضمن بطريركية أنطاكية، وصار للمرة الأولى يتم المصادقة على الأساقفة من عرب التحالف، فبدأت المبادئ الأساسية للطقوس الكنسية بالظهور، كما بدأ العرب المسيحيون بتقديم الشهداء الكنسيين.

لم يتمثل الحضور المسيحي العربي في القرن الرابع في بطريركية المشرق في أنطاكية فقط، والذي كان يضم المسيحيين العرب الرومان (الحاصلين على حق المواطنة) بل كان يتسع هذا الحضور المسيحي إلى فلسطين الثالثة في هران وريثاو في الشمال الغربي من شبه جزيرة سيناء، وفي النقب وريثاو وإيلوسا في الشمال. كانت ريثاو على الساحل الشرقي لخليج السويس مركزاً لمجموعة من الزهاد برئاسة زاهد ريثاو موسى الذي قضى حياته في الزهد، وامتد تأثيره إلى جميع أرجاء تلك المنطقة. كما امتد تأثير ريثاو ليشمل هران التي تطورت إلى مركز من مراكز المسيحية العربية في جنوب العربية. وكانت

إيلوسا عاصمة فلسطين الثالثة، فتحول كاهنها العربي الوثني عبيد (عبيديانوس) إلى المسيحية على يد سانت هيلاريون، وأصبح قيما بعد كاهن إيلوسا المسيحي. حيث تطورت أسقفية إيلوسا إلى شهرتها في القرن السادس.

وفي مجمل الأحوال يمكن القول: إن تاريخ مسيحية المتحالفين العرب لم يكن واضحاً بالشكل الذي يجب أن يكون عليه في القرن الرابع؛ ولكن المسيحية قدمت إليهم مستويات جديدة من التجربة الروحية لم يشهدها من قبل. كما قدمت لهم نوعاً جديداً من الأفراد؛ الرهبان الشهداء في سبيل المبدأ، والقديسين.

وبالإجمال، اتخذ العرب من إيمانهم بالمسيحية موقفاً ملتزماً وعميقاً، فشاركوا من جانبهم بالجدل المذهبي الذي كان قائماً بين المذهبين الرئيسيين: الأريوسية والأثناسيوسية (الأرثوذكسية). ورغم أنهم لم يكونوا علماء في اللاهوت إلا أنهم كانوا مقاتلين أوفياء لقادتهم كما كانوا أوفياء لرجال دينهم الأرثوذكس، وخاصة أثناسيوس الذي كان مناصراً لقرارات مجمع نيقية سنة 325 م، القائلة بوحدة الطبيعتين للسيد المسيح، وكذلك أوفياء لأسقفهم موسى العربي وملكهم ماوية.

2

ارتبط العرب في أذهان المؤرخين الكنسيين بالهرطقة (بلاد العرب الدائمة الهرطقة Arabia haeresium ferax) التي ارتبطت بهم كصفة عامة حافظ علي إطلاقها هؤلاء المؤرخون (العربية الأرض التي تولد الهرطقة). وربما كان السبب الرئيس لهذا الإطلاق هو تسمية الرومان لهم بالبرابرة من الشعوب المشرقية الذين أخذوا بالمذهب الأرثوذكسي بينما أخذ الغرب الروماني في القرن الرابع بالأريوسية. ولما تهدلت الصورة في القرنين الخامس والسادس عادت روما وبيزنطة إلى الخلقدونية فبقي اتهامهم لشعوب المشرق بالهرطقة لأنهم كانوا منوفيزيين⁽¹⁾.

اضطر الامبراطور الأريوسي قسطنطيوس في سنة 338م، وبعد سنتين من توليه بعد موت والده قسطنطين لإعادة أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية المنفيين ومنهم أسقف كنيسة عرب التحالف بامفيلوس Pamphilus أو خليفته، وهذا ما حدث لاحقاً مع أسقف ماوية، وما سيحدث مسبقاً مع عرب التحالف الفساسنة ويوستتيانوس في القرن السادس.

(1) - المونوفيزية كلمة يونانية تعني "الطبيعة الواحدة". وقد تطورت في الكنيسة الشرقية، حيث ما زال أتباعها في الكنيسة القبطية المصرية والأقبوية وأماكن أخرى في الشرق الأوسط يأخذون بتعاليمها التي تقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح التي يكون من الصعب إدراكها بالمفهوم الإنساني، مع أنها أظهرت حياة السيد المسيح (ع) وأفعاله من خلال منظور إنساني ليتمنى لهمها وإدراكها، بينما كانت تظهر طبيعته الواحدة التي لا تتجزأ حين ممارسة معجزاته. وقد شجبت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في مجمعها الخلقدوني، الذي انعقد في البيثينية سنة 451 م، المونوفيزية. حيث أكدت الخلقدونية على طبيعتين للسيد المسيح لكنهما متحدتان في طبيعة واحدة إلهية ولسبورية. إلا أن قرارات المجمع الخلقدوني لم تته اشقاق القاتم، بل على العكس اتسعت فرة الشقاق بين الكنستين: الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية.

وظهر ثلاثة أساقفة عرب⁽¹⁾ في القرن الرابع، هم على التوالي: بامفيلوس Pamphilus، ثيوتيموس Theotimus، وموسى.

حضر مجمع نيقية الذي انعقد سنة 325م 318 أسقفاً كان من بينهم بامفيلوس الذي مثل عرب طي المسيحيين حسب لائحة الوفود المشاركة. وطى كانت ضمن الجسم العام للتحالف التنوخي. وهذا يعني أن قبيلة طى كانت من ضمن عرب التحالف، وبالتالي يفترض أن يكون للعرب أسقفاً منهم قبل مجئ أسقف ماوية، وإلا فاحتمال المفترض أن أسقفية العرب كانت نوعاً من اختراع حلفاء قسطنطين الكبير الذي يعود إليه تأسيس التحالف البيزنطي (الروماني) مع العرب. فقد كان أول امبراطور روماني بدأ بسياسة استيعاب البرابرة ضمن حدود الامبراطورية، والذين كان من ضمنهم العرب المسيحيون. ويعتقد أن الإشارة إلى عرب طى جاءت في هذه الفترة لأن قبائل تنوخ كان يطلق عليها الاسم العام "طينوا" قبل هجرتها من منطقة بين النهرين التي كانت تابعة للفرس، والتي وصلت حديثاً إلى غربي الفرات التابعة للرومان حيث مازال اسم طينوا شائعاً. وقد اعتنقت قبائل هذا التحالف العريضة المسيحية قبل هجرتها أو هروها نحو الغرب الذي كان بسبب خلافها مع سامانيي فارس، ومعارضتهم أيضاً لحملة شابور على عرب الجنوب أبناء عمومتهم، وإلى أسباب أخرى.

أشارت سجلات المجمع الكنسي في أنطاكية الذي انعقد سنة 363 م في فترة حكم يويانوس إلى مشاركة ثيوتيموس كممثل عن التنوخين الذين كانوا يسيّدون على عرب التحالف البيزنطي حينها. وجاء توقيع ثيوتيموس بين توقيع أسقف بيروت (حلب) أناتوليوس وتوقيع لوقيانوس أسقف عرقا بلبنان. إلا أن ثيوتيموس يبقى مجهول الأصل العرقي كما بامفيلوس، لكن يبقى أصلهما العربي محتملاً. وقد ثارت شكوك حول تحول الأسقف ثيوتيموس من الأرثوذكسية إلى الأريوسية تحت ضغط الإمبراطور الأريوسي قسطنطيوس.

ويعتقد أن الأسقف ثيوتيموس بقي على صلاته الأرثوذكسية مع العرب بعد موت يويانوس الأرثوذكسي سنة 364م واعتلاء والنس الأريوسي. ويتضح من سياق الحوادث العامة أن والنس ربما بدأ بالضغط على عرب التحالف وعلى ثيوتيموس لتغيير مذهبهم إلى الأريوسية.

ورواية سوزومن عن موسى كأول أسقف عربي ليست دقيقة، فقد سبقه بامفيلوس وثيوتيموس، إلا إذا كان ما قصده سوزومن من أن موسى كان أول أسقف عربي من أصل عربي. وعلى الغالب، كان إصرار ماوية على تنصيب موسى أسقفاً على العرب لمعرفتها بإصوله العربية.

(1) - انظر الصفحات (330-339) من كتاب شهيد "بيزنطة والعرب في القرن الرابع" بتسخته الإلكترونية.

ماوية ملكة العرب والثورة

بعد احتلال الرومان لسورية الكبرى سنة 64 ق.م استمر التجاذب وسلسلة الحروب للسيطرة عليها من قبل الرومان والفرس البثرثيين والساسانيين. واستمر الصراع حولها بين الجبارين لسبعمائة عام تلت، حتى تم حسم الأمر بانتصار ساحق للعرب المسلمين في معركتي اليرموك والقادسية في نهاية الثلاثينيات من القرن السابع. وكان من نتائج هذا الصراع الطويل الأمد ظهور قيادات محلية حاولت انتزاع نوع من الاستقلال الذي كان ينزع إلى إنشاء كيان أو دولة أو امبراطورية عربية مستقلة كما في حالة زنبوبيا تدمر في نهاية القرن الثالث، أو إلى نوع من إثبات الهوية والذات الشخصية العربية كما في حالة الملكة ماوية التي حاربت البيزنطيين وانتصرت عليهم في نهاية القرن الرابع، أو كما في دولتي: الفساسنة في جنوب سورية كوكلاء للبيزنطيين، واللخميين المناذرة في العراق كوكلاء للفرس.

ورثت الامبراطورية البيزنطية الامبراطورية الرومانية في قسمها الشرقي الذي شمل اليونان وآسية الصغرى والمشرق⁽¹⁾ العربي ومصر. وكانت المناطق الشرقية من هذه المنطقة الواسعة الأكثر إقلاقاً لروما وبيزنطة نتيجة المناهضة الساسانية الشديدة على منطقة المشرق العربي وجنوب شرقي آسية الصغرى.

ورغم تأثر سكان منطقة المشرق العربي بالثقافتين اليونانية واللاتينية، إلا أنهم حافظوا على هويتهم العربية والمشرقية، حيث ظهر ذلك في الحراك الذي شهدته فترات الاحتلال الطويلة. وقد جاءت ثورة الملكة ماوية وحركات التمرد التي سبقتها بمسبب تنامي الشعور الذاتي بالهوية الخاصة لهذه المجموعات العربية المقيمة والمتنقلة. بحيث امتد تأثير التحالف التنوخي على طول الساحل السوري وخاصة عبر فينيقية اللبنانية (الجبالية) إلى ولاية العربية وفلسطين الثالثة (الجنوبية) وسيناء وشرقي النيل، وحتى حدود الفرات شرقاً التي اخترقها تحصينات الإمبراطور الروماني ديوقلتيانوس (284-305) بالطريق الذي أنشأه وسماه (طريق ديوقلتيانا)، والذي امتد من إيلة (العقبة) حتى قرقيسيا (البصيرة؛ جنوب شرق دير الزور حيث يصب نهر الخابور)) على الفرات، وأنشأ على طول القلاع والحصون والحاميات لحماية الأطراف الامبراطورية من غارات أعراب شبه الجزيرة العربية.

انحدرت ماوية من جموع قبائل التنوخيين العرب الكبيرة، والذين شكلوا اندماجاً عريضاً وواسعاً فيما يشبه الاتحاد بين مكونات قبائلهم الواسعة التي بدأت هجراتها المستمرة من بداية الميلاذ أو قبله بقليل قادمة من شمال ووسط شبه الجزيرة العربية إلى سورية الشرقية ومنطقة بين النهرين وغرب الفرات. وقد اشار البلاذري، في "فتوح البلدان"، ج1، ص 172-173؛ بأن تنوخ كانت تسكن بالقرب من خلقيس (قنسرين)

(1) - كان المشرق العربي يشمل المنطقة الممتدة من بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وبلاد الشام وديار بكر.

جنوب حلب وفي حلب ومعرة النعمان⁽¹⁾ وخصاصر وصوران وزيدة وحماة ووادي النصارى وحمص والرقّة واللاذقية⁽²⁾. ومن هنا جاءت تسمية جبل تتوخ على الامتداد الواقع بين اللاذقية وحمص⁽³⁾. وكانت هذه القبائل قد بدأت بالتوجه نحو الداخل السوري إلى الغرب والشمال بعد تعرضها المستمر لتعسف وظلم السلطات الساسانية بعد صعودها إلى العرش الفارسي في إيران في النصف الأول من القرن الثالث.

بدأ ظهور عرب التحالف البيزنطي وقيامهم بالثورة بقيادة الملكة ماوية مفاجئاً ومؤثراً بقوته على بيزنطة وعلى والنس في سنوات حكمه الأخيرة. فقد كانوا حلفاء بيزنطة قبل الثورة، كما كانوا حلفاء يوليانيوس حينما قاتلوا الفرس إلى جانبه قبل خلافهم معه، ولذا فقد كان حضورهم في المشهد العسكري الروماني لافتاً في العقود الأخيرة حتى بداية الثمانينات من القرن الرابع.

من خلال ارتباط ماوية بالأرثوذكسية وبمبادئ مجمع نيقين الكنسي، إضافة لارتباطها بالأسقف العربي موسى الذي دار بينه وبين أسقف الاسكندرية لوكيوس جدال حول تعريف الإيمان الحقيقي في المسيحية، كان من الطبيعي أن تكون ماوية على اطلاع ومعرفة بما جاء بمجمع نيقية من مبادئ⁽⁴⁾. لذلك أعلنت الحرب على والنس الأريوسي انتصاراً للمبادئ التي قررها مجمع نيقية، كما كان من ضمن الأسباب الأخرى أن الأباطرة الرومان الأريوسيين قاموا بإسقاط ومعاقبة أساقفة نيقين ونفيهم، بحيث مثلت هذه الإجراءات لعرب التحالف شواهد واضحة على الطريقة غير العادلة التي عامل بها الرومان العرب بأن تجاهلوا دعوة رجال الدين الذين كانوا يمثلونهم إلى مجمع نيقية. وقد تطور الخلاف المذهبي- السياسي بين المتحالفين العرب وبيزنطة ابتداءً من عهد قسطنطين الأول، وبلغ قمته في عهد والنس حيث انفجرت الثورة. إضافة إلى أن والنس وثيودوسيوس لم يتبعاً سياسات الأباطرة الأول من بيت قسطنطين بمرعاة العرب والاهتمام برغباتهم ومصالحهم، إذ انصب اهتمامهما بالدرجة الأولى على الغرب متجاهلين حلفائهم العرب في الشرق، وخصوصاً بعد توقيع معاهدة يويانوس للسلام مع الفرس سنة 363، وتجاهل ثيودوسيوس لمصالحهم في بداية الثمانينات من القرن الرابع.

(1) - أشار عرفان شهيد في كتابه "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، الصفحات (448 - 450)، إلى الافتراض وجود ما سماه "بوران تتوخ الشعري" في القرن الرابع ضمن الديوان الشعري العربي العام، وأشار إلى زيارة الشاعر والفيلسوف التتويحي أبو العلاء المعري في القرن الحادي عشر إلى بغداد للبحث عن هذ الديوان.

(2) - سجل المؤرخ والجغرافي اليوناني سترابو (63 ق.م - 23م) في كتابه الشهير "الجغرافيا" Geography, XVI.2.10-11 الحضور العربي الواسع والعريض في ألمانيا وحولها، وخاصة باريوتانيا على المعاصي وخلقس إلى الشرق من أقميا في القرن الأول قبل الميلاد.

(3) - انظر شهيد في الصفحة 407 من "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، النسخة الإنكليزية.

(4) - "صدر المجمع المسكوني في نيقية عشرين قراراً كنسياً، أسماها: 'الإيمان بالإله الأب، القادر، خالق كل شيء، وبالسيد المسيح ابن الإله الوحيد، المخلوق من نفس المادة الإلهية، إله ابن إله، نور من نور، إله مطلق من إله مطلق، ليس مخلوقاً بل من نفس مادة الإله الأب، والذي صنع كل شيء في السماء وعلى الأرض، نزل بصورته الإنسانية المجسدة (ابن الإنسان) من أجل خلاصنا، وصلب من أجلنا ثم قام في اليوم الثالث ووقع إلى السماء. وهو الذي سيأتي ثانية لحساب الأحياء والأموات، لذلك فنحن نؤمن بالأب والابن والروح القدس...".

اعتمدت ماوية قبل إعلان ثورتها ضد والنس على معرفتها بالوضع العسكري الصعب الذي كان عليه والنس في حربه على الجبهة الفارسية وبالوقت نفسه مواجهته لإيقاف ضغطه واندفاع قبائل القوط المستمر، وكذلك على عدم الرضى والامتعاض العربي تجاه سياساته المذهبية في المشرق. كل هذه الأسباب جعلت حسابات ماوية تلقى مع طموحاتها الكامنة باعتقادها أنها قادرة على إحراز النصر في حربها على والنس، وهي واثقة من اعتمادها على تأييد العرب الأرثوذكس المطلق لها في المشرق.

اعتمدت ماوية في ثورتها ضد والنس على اتخاذ تكتيكين مختلفين:

الأول: في شن غارات خاضعة على المراكز الرومانية والبلدات والمدن المحصنة بحيث كانت تختفي بنفس السرعة التي تظهر بها. وكان ظاهر هذه الغارات النهب والسلب، بينما القصد كان على الغالب إثارة الهدوء ولفت إنتباه السكان المحليين لدعم الثورة ضد سياسات والنس الأريوسية، وسياساته المتجاهلة لمطالب المتحالفين العرب. فقيام الحرب يعني أن الشرخ بين الفريقين كان قوياً وعميقاً بحيث لا يمكن حله إلا عن طريق القوة.

الثاني: كان في انسحاب ماوية إلى ما وراء الحدود في الصحراء، والاستعداد لحملتها ضد القوات الرومانية. إذ ركزت ضرباتها ضد المناطق الأقل تحصيناً في فينيقية اللبنانية وفي فلسطين الأولى والثالثة نحو الطريق إلى مصر عبر السلم العربي في شرقي الدلتا والمرتبطة بفلسطين من ناحية جنوبها الغربي. وكان الحضور العربي في هاتين المنطقتين قوياً، إذ لجأ إلى فينيقية عدد كبير من عرب تدمر بعد تدميرها على يد الإمبراطور الروماني أورليانوس سنة 273، فضلاً عن ضعف نظام الحماية والتحصينات في هاتين المنطقتين. كما تأكدت الملكة ماوية، التي كانت تشارك زوجها شؤون الحكم ومعرفتها ببيئة المنطقة وميول أهلها، من نجاحها باختراق الحدود الرومانية في الأماكن الصالحة لذلك، وخصوصاً عند اتصال فينيقية اللبنانية بفلسطين الأولى (منطقة الجولان).

أثبتت ماوية ومقاتليها أيضاً مقدرتهم على خوض المعارك الثابتة، فهزمت القوات الفينيقية والفلسطينية وعليها قادتها الرومان الذين استجدوا بيوليوس القائد العام للقوات الرومانية في المشرق (تولى يوليوس المنصب من 371 حتى 378)، والذي قرر مواجهة ماوية دون الاستعانة بقوات فلسطين وفينيقية استخفافاً بها وبمقاتليها، غير أن ماوية التي قادت قواتها بنفسها هزمتهم، ولو لم يبادر قادة القوات الفينيقية والفلسطينية -الذين طلب منهم القائد يوليوس التنحي- تلك الطوق الذي ضربته ماوية على يوليوس وقواته لتمكنت ماوية من قتله أو أسره. وإجمالاً عدت مواجهة ماوية العسكرية مواجهة رئيسية مع قوات المشرق الروماني، إذ أثبتت وجودها على منطقة المشرق بجدارية.

نتيجة لانتصارات ماوية طلب الرومان عقد معاهدة سلام، خاصة أن وضعهم العسكري كان صعباً على جبهتي القتال الفارسية والقوطية، مما اضطر والنس للموافقة على شروطها بتتصيب الأسقف العربي موسى أسقفاً على العرب على مذهبهم الأرثوذكسي. خاصة وأن اضطهاد والنس لأساقفة نيقين كان قد توقف سنة 377 عند مغادرته إلى القسطنطينية للاقادة الأندفاع القوطي الذي أصبح يهدد المدينة. لذلك لم

يكن والنس قادراً على الاستمرار بالقتال ضد ماوية وضد تهديد القوط للقسطنطينية نفسها.

في النهاية نُصِبَ موسى أسقفاً على العرب من قبل الأساقفة الأرثوذكس الذين كانوا متغيبين في مصر، وعاد إلى عرب التحالف الذين كانوا طالبوا به أسقفاً أرثوذكسياً عليهم. وبذلك تم وضع حد للمواجهة العربية البيزنطية.

تزامن توقيع المعاهدة مع بيزنطة والنس بزواج ابنة ماوية من وكثور⁽¹⁾ قائد الفرسان في الجيش الروماني، الذي كان مركز قيادته في أنطاكية، وكان مسيحياً وأرثوذكسياً في الوقت نفسه. ويعتقد أن هذا الزواج السياسي قد تمت الموافقة عليه من والنس نفسه ضد المراسيم الامبراطورية التي كانت تُحرّم زواج القادة الكبار من غير الرومانيات. ولم يكن الزواج رغبة ماوية وإنتهى فقط وإنما أيضاً رغبة وكثور الذي كان يعد صديقاً للعرب لمعرفته بهم كفرسان في جيش المشرق، ومن تعامله العام معهم. وهو من أقنع والنس بعقد المعاهدة بعد الاستجابة لشروط ماوية. ولقد كان موقف وكثور الإيجابي من الأرثوذكسية قد قرب المسافات بينه وبين ماوية للوصول إلى اتفاق الصلح وعقد المعاهدة بما فيه مصلحة الجميع.

عمل وكثور في البلاط البيزنطي مع عدد من الأباطرة لمدة تقارب العشرين عاماً (363-383م)، حيث كان منهم الأريوسي، والمرتد، والأرثوذكسي. وهذا يدل على مستوى الكفاءة العسكرية والإدارية والدبلوماسية التي كان يتمتع بها الرجل، إذ استطاع أن يزواج بين خدماته للدولة وللكتيمة بنفس الوقت.

خلف ثيودوسيوس والنس بعد مقتله سنة 378/379، واستمر امبراطوراً حتى عام 395م. كانت معظم خدمة ثيودوسيوس في الغرب، إذ لم يكن على دراية كافية بالمشرق أو العرب، ولم يقاتلهم أو يقاتل معهم. مع ذلك تم إقناعه من قبل أعداء العرب في الإدارة الامبراطورية: أنهم كانوا أعداء للدولة، حتى أن صديق يوليانيوس الفيلسوف الوثني ليبيانوس Libanius أسهم بشكل مؤثر، من خلال كتابه "الخطابات"، في الأجزاء السابعة عشر والثامن عشر والرابع والعشرين، على الامبراطور الجديد بأن العرب كانوا وراء مقتل يوليانيوس، فضلاً عن ذلك لم يكن للعرب أنصار في الإدارة في بيزنطة أو المشرق، لأن وكثور كان قد ترك عمله وغادر أنطاكية مركز قيادة الفرسان وحل مكانه الجرمانى الوثني ريخومر، بحيث طفى العنصر الجرمانى على المناصب العسكرية والمدنية في البلاط وفي ولايات الشرق. لذلك ظهر لعرب التحالف بزعامه ملكتهم ماوية أن بيزنطة كانت تضمر لهم الشر، مما أدى إلى إعلانها الثورة الثانية سنة 383م.

لم يكن ثيودوسيوس منصفاً مع العرب عند تجديد المعاهدة، حيث منح القوط امتيازات لم يمنح العرب مثلاً أو أقل منها، علماً أن الامبراطور كان أرثوذكسياً على مذهب العرب، في حين كان غالبية القوط مازالوا على وثنيته. كما أن الامبراطور لم يدع أحداً

(1) - يعتقد بأن وكثور (فكتور) لم يكن روماني الأصول، وإنما من أصول (سلاوية) برورية.

من الأساقفة العرب للمشاركة في المجمع المسكوني الذي انعقد في القسطنطينية سنة 381، كما خفض المخصصات المالية والعينية التي كانت تقدم لهم.

لذلك وجد عرب التحالف التنوخي أنفسهم في جو امبراطوري غير موات لهم، خاصة وأن العلاقات البيزنطية الفارسية كانت هادئة وسلمية، كما أصبحت جبهة تراقية القوطية هادئة أيضاً. لذلك كان من السهولة توجيه ضربة قاسية أدت إلى إجهاض ثورة ماوية الثانية سنة 383. وكان مسرح ثورة ماوية الثانية نفس مسرح ثورتها الأولى. وكانت قوات الفرسان البيزنطية وقادتهم المقاتلة قد تعرفت على أساليب الكر والفر لقوات ماوية المحاربة، وعلى أساليب القتال المناسبة لتلك المنطقة، ف اتخذت الاستعدادات اللازمة لحسم المعركة لصالحها، كما كان العرب أضعف في ثورتهم الثانية منهم في الأولى لأنهم فقدوا الكثير من فرسانهم وجنودهم في المعارك التي شاركوا فيها في تراقية (أديريونيل) (أدرنة) وهادريانابولس وفي الدفاع عن أسوار القسطنطينية.

انحلت عرى تحالف العرب تحت زعامة التنوخين بعد هزيمة ماوية، فعاد قسم من هؤلاء إلى الأراضي الفارسية التي كانت قد هاجرت منها نحو الغرب بعد خلافها مع شابور الأول. كما اتجه قسم كبير من اللخميين الذين كانوا ينضون تحت زعامة هذا التحالف إلى منطقة الحيرة من الأراضي التي كانت تقع تحت الفرس، حيث شاركوا فيما بعد ملوك الحيرة وكلاء الفرس وحلفاءهم.

تحالف بنو صالح مع بيزنطية بعد سقوط التنوخين نهاية القرن الرابع ومعظم الخامس. فلم تسمح بيزنطة لتحالف عرب صالح بأن يتسع نفوذهم ليكونوا قوة مركزية كبيرة، كما حدث مع التنوخين، لتسهيل التعامل معهم والسيطرة عليهم.

ويبدو أن ماوية امتزجت الحياة العامة بعد خسارة معركتها الأخيرة، فانضمت إلى أحد الأديرة المسيحية النائية وتفرغت للعبادة وخدمة المجتمع. وذلك بعد أن حكمت كملكة على قبائل تحالف تنوخ، بعد موت زوجها الحواري، من سنة 375 إلى 383 م. وماتت سنة 425 م، حيث دفنت على الغالب في بلدة خناصر Anasarthra الواقعة إلى الجنوب من حلب في سورية.

1

اسمها ماوية / ماويا Mavia, Mawiyya, Mawia, Mawaiy, Mania، وأطلق عليها أحياناً مانية/مانيا. ملكة عربية محاربة، حكمت على قبائل التحالف من التنوخين العرب الذين كانوا من أشباه القبائل العربية في طريقة معاشهم واستقراهم. أي أن حياتهم وطرقهم المعاشية كانت بين الإقامة والترحال، حيث كانت تستقر في المنطقة الجنوبية والوسطى والشمالية من سورية الكبرى في القرن الثالث ونهايات القرن الرابع الميلادي.

لم يكن اسم ماوية شائعاً بين العرب قبل الإسلام. مع ذلك تميزت حاملات هذا الاسم بالأهمية قبل ذلك التاريخ. مع ذلك بقي اسم الملكة ماوية غير معروف عند المؤرخين العرب، غير أنهم ذكروا ماوية زوجة حاتم الطائي.

سجل معظم المؤرخين الكنعانيين تاريخ ثورة ماوية في السنوات الثلاث الأخيرة من حكم والنس⁽¹⁾ (375-378)م. وبالرغم من وضوح روايات هؤلاء المؤرخين: سقراط وسوزومن وثيودورس، بأن ماوية لم تكن ملكة العرب فقط بل ملكة عربية من أصول عربية. إلا أن المؤرخ ثيودورس أناغنوستس⁽²⁾ ذكر في تاريخه الذي كتبه في نهاية القرن الخامس وبداية السادس أن ماوية أسيرة رومانية وقعت بيد ملك العرب الحواري الذي تزوجها بعد أن وقع في حبها، وأرجع زواج ابنتها من وكتور لأصول دموية واحدة بين الاثنين أدت إلى وقوعهما في الحب. وقد أيد هذه الرواية ثيوفانس في "السجل التاريخي". فلو كانت ماوية أسيرة رومانية لكان اسمها رومانياً، ولذكر اسمها الروماني بعد تبديله إلى الاسم العربي، في الوقت الذي كان قد بلغ التطبيع العربي مداه بعد أكثر من أربعة قرون من الاحتلال الروماني، حيث كان العرب يتبنون أسماء يونانية ولايتينية ومسيحية، ولم يكن تبني هذه الأسماء معيباً. إضافة إلى أن ماوية أعلنت ثورتها بعد موت زوجها مباشرة تقريباً، فلو كانت أصولها رومانية لترددت فيما فعلته بشأن الحرب لسنوات ثلاث على بني جلدتها، ثم أنها أشعلت ثورتها الثانية سنة 383 م بعد معاهدة السلام التي عقدها مع والنس في العام 378 م، كما كان إصرارها على تنصيب أسقف عربي يدل على معرفتها بأصولها العربية وفخرها بالانتماء لهذه الأصول، إضافة إلى أن القبائل العربية لم تكن تقبل في أدبياتها بتنصيب ملكة ليست عربية عليها، إذ لم يسجل تاريخ العرب حتى تلك الفترة تملك أجنبية عليهم.

اعتمد روفينيوس وسقراط وسوزومن على "تاريخ غيلاريوس القيصري"⁽³⁾ الذي كان المصدر الإغريقي الأصلي الذي تضمن تاريخه رواية كاملة عن ماوية. وتعود دقة روايات

(1) - خدم والنس تحت قيادة أخيه الإمبراطور والكتيقيانوس الأول من عام 364 حتى 375 كمساعد للزبريطة في المشرق. وأقام في أنطاكية كمساعد لأخيه، وكإمبراطور بعد وفاته والكتيقيانوس سنة 375، وللإشراف على مواجهة هجمات القوط، وقد امتدت هذه الإقامة معظم سنوات حكمه. لكنه شدد أروسيته باضطهاد كل من لا يأخذ بها في المشرق الأرثوذكسي، قتل في معركة هادريانابوليس (أدرنة) ضد القوط سنة 378 م.

(2) - جاءت، على الغالب، رواية أناغنوستس عن رومانية ماوية مفبركة مثل تجاهلة المتعمد لأصول العربية للأنفقت موسى، إذ يعتقد أن أسبانياً مذهبية كانت وراء روايته. وقد أثبت أصفه كثيراً على الغرب اللاتيني والشرق الإغريقي خلال فترة العصور الوسطى، ذلك أن العرب في القرن السادس كانوا يأخذون بالذهب اليوناني الأرثوذكسي مقابل المذهب الخلقيدوني الكاثوليكي الذي كانت بينزطة وربما تأخذان به، وكافوا برون المونوفيزيين متطرفين، والكثير مما عرف عن ماوية جاء من المصادر والروايات المفبركة في تلك الفترة، والتي استمدت من كتابات روفينيوس Rufinus المفقودة الآن، والتي استقاها بدوره من روايات غيلاريوس القيصري (من قصيرة -). وقد حولها بعض الكتاب اللاتينيين إلى أصول رومانية ممجيحة؟ بالرغم من حقيقة معرفة أصولها العربية. وروى العديد منهم أنها ربما كانت تدين بالوثنية قبل تأثرها بالمسيحية.

(3) - يكتبها بعضهم بحرف (س)؛ قصيرة أو قيسارية، والصحيح بحرف (ص) نسبة إلى قيسر. وأصل القيسرية هي أنها كانت مؤسسة انتاجية للقصير - للمحقق.

هؤلاء الثلاثة لأنهم أخذوا عن غيلاريوس الذي عاش حينها في قيصرية الفلسطينية قريباً من الأحداث ونشاطات ماوية العسكرية .

أصبحت ماوية بعد موت زوجها أرملة، لكنها سرعان ما أصبحت مشهورة في اليوميات العسكرية خلال عهد والنس. ويذكر أنه يوجد ضمن قبائل كلب فخذ يسمى "بني ماوية" فقبائل كلب القوية والمشهورة كانت تسكن الأطراف الشرقية للإمبراطورية، وهذا يعني أن الملك التتوخي رأى أن من المصلحة السياسية له ولكلب أن يعقد قرانه على ماوية، إذ كان ذلك يعتبر مسألة ضرورية لعقد التحالفات بين القبائل العربية. فقد كانت قبيلة كلب في تاريخ القبائل العربية تسكن في شمال ولاية العربية بين سورية وبين النهرين، وكانت تسيطر على مواقع استراتيجيّة متعددة من ضمنها "دومة الجندل"، حيث يعتقد بأنهم ربما كانوا أحفاد دوما أحد أبناء اسماعيل الاثني عشر.

يبين نسب ماوية الكلبية حقيقة أن التتوخيين سكنوا في شمال المشرق قرب انضرات، لذلك كانت ماوية قادرة على شن الحرب من جبهة تمتد من فينيقية حتى مصر، معتمدة على مساندة قبائلها الكلبية التي كانت تخيم في السهوب المنبسطة من بادية السماوة في العراق إلى تدمر حتى تبوك في شمال الحجاز.

ويتضح من روايات المصادر الكنسية الرئيسية، بالأخص: روفينوس وسقراط وسوزومن أن ماوية لم تكن وثنية بل مسيحية عند اندلاع الثورة، ويؤكدون أن السبب الأساسي للثورة كان مذهبياً بينها وبين الإمبراطور المعاصر والنس لتشديده المتصاعد ضد الأرثوذكس في المشرق. بيد أن المؤرخ الكنسي سقراط أشار إلى أن ثورة ماوية ضد الرومان لم تكن فقط لأسباب مذهبية، وإنما أيضاً نتيجة لشعورها بانتماؤها العربية.

2

أصرت ماوية على تعيين الناسك العربي موسى أسقفاً على عرب التحالف بعد موت الأسقف السابق ثيتموس العربي⁽¹⁾ Theotimus Arabus في نفس السنة التي مات فيها زوجها الملك (375م). وكان قد شارك مع أساقفة آخرين في أنطاكية بتوقيع بيان وجه إلى يوانثوس سنة 363م يقول بأن الإله الأب والإبن هما من مادة واحدة (الطبيعة الواحدة). ويبقى السؤال المهم دون إجابة، وهو: لماذا لم يثر الحوار ضد تعيين ثيوتيموس على المذهب الأريوسي؟ ربما كان مرضه وراء ذلك وقد أشار عرفان شهيد أكثر من مرة، في كتابه "بيزنطة والعرب في القرن الرابع" إلى مرض الحوار الذي أودى بحياته في النهاية؟

اندلعت الثورة في جميع أنحاء المشرق، على طول المسافة من فينيقية اللبنانية في الشمال حتى شرقي الدلتا في مصر جنوباً. ويبدو من مسرح العمليات الواسع أن غالبية القبائل في هذا المسرح كانت منضوية تحت جناح الثورة، أو أن ماوية على الأقل مارست

(1) - لم تتأكد معرفة الأصول الأثنية للأسقفين بامفولوس وثيوتيموس.

نوعاً من السلطان على جموع هذه القبائل. والظاهر أن ثورة ماوية كانت استثنائية بحيث استطاعت توحيد عرب التحالف تحت قيادتها ضد بيزنطة. لذلك لا يبدو الأمر هنا مثار التساؤل: لماذا مثلت تتوخ عصب التحالف ومركزه وليس غيرها؟

جاءت الهجمات الرئيسية لماوية من شمال وسط سورية عند إشعال ثورتها في معظم أنحاء ولايات المشرق الامبراطوري. وسجل سوزومن (HE, GCS, 50, p.268) أحداث المعركة الرئيسية، التي دارت رحاها في فينيقية اللبنانية، إلى الشرق من سلسلة لبنان الشرقية، ويالتفصيل ضد الرومان بقيادة القائد الروماني يوليوس الذي تمت هزيمته في المعركة الثابتة فوق أرض الجولان.

انسحبت ماوية إلى داخل الصحراء عند إعلان التمرد وبدأت بهجمات الكثيفة على أطراف الأقاليم الشرقية والجنوبية للمشرق، وشنت هجماتها على ولاية العربية وفلسطين الأولى وفلسطين الكبرى التي تضم سيناء المحاذية لولاية العربية، كما شنت هجماتها ضد مصر وفينيقية. وكانت هذه المناطق قريبة من عمق الصحراء وبعيدة عن أنطاكية مركز الامبراطورية العسكرية في المشرق، وبعيدة أيضاً عن مناطق الاحتكاك مع الفرس، وذلك من أجل أن تدوب قواتها سريعاً في قلب الصحراء إن تعرضت لهجمات مكثفة من قبل الرومان. إضافة إلى أن هذه المناطق كانت أقل تحصيناً من المناطق الشمالية الأقرب إلى تمركز القوات الرومانية، كما أن عرب المناطق التي دارت فيها المعارك كانوا أقرب إليها عرقياً ويشاركونها مذهبها الديني. وهنا، تخمن بأن ماوية ربما رأت زنبوباً تدمر في نفسها.

كانت براعة مقاتلي ماوية ليس في احتلال المدن والمواقع ولكن في الهجوم السريع على أطراف المدن والمؤسسات الرومانية في المشرق. ولأن معظم المسيحيين في حينها كانوا يعيشون في الأطراف وليس في المدن، حيث كانت الأبرشيات والكنائس في المدن، فقد قصدت ماوية من مهاجمة المدن أن تجعل من حضورها المذهبي محسوساً عند الأطراف وكذلك المدن، فكانت تكتيكاتها؛ اضرب واهرب، التي اعتمدت أساساً على قواتها من كتائب الفرسان الخفيفة والسريعة الحركة في الهجوم والانسحاب. في التقدم الخاطف وفي الارتداد السريع⁽¹⁾، مستفيدة أيضاً من الخبرات والأساليب القتالية التي اكتسبها المقاتلون العرب في القتال إلى جانب الرومان. كما أثبت أنها أيضاً قادرة على هزيمة الرومان في ساحات المعارك الثابتة في فينيقية وفلسطين.

كانت نجاحات مقاتلي ماوية ضد جيش المشرق الروماني بقيادة يوليوس على أرض المعركة وهم يقاتلون جيشاً نظامياً يؤكد قدرتهم على خوض المعارك النظامية في مناطق قتال ثابتة، وليس فقط في معارك الكر والفر أو الإغارة والاختفاء. ولا شك في أن تراكم تجرية تدمر في أساليب القتال الاستراتيجي والتكتيكي، إن كان صحراوياً أو ثابتاً، قبل مائة عام، سواء في مقاتلة الفرس أو الرومان، قد أضادت الكثير إلى الإرث القتالي لعرب

(1) - ربما كان هذا التكتيك هو الذي منع الفوط من الاستيلاء على مدينة القسطنطينية، وهو من ضمن الأسباب التي مهدت للنصر العربي الإسلامي الحاسم والسريع على بيزنطة وفارس في القرن السابع.

تنوخ ماوية. وقد روى الطبري في تاريخه بأن قوات التحالف العربي هي من أحرزت نصر يوليانيوس عند محاصرته للمدائن، وذلك قبل عقدين تقريباً من وقوعهم دفاعاً عن مدينة القسطنطينية، بينما أرجع أميانوس خسارة القوط إلى حادثة فردية من أحد الجنود العرب، ونسب، وهو المؤرخ العسكري المدني، إنقاذ المدينة إلى قوى طبيعية خارقة، حيث استبق اجتهاد مؤرخ كيسي أرثوذكسي بالقول: إن الله هو من أنقذ المدينة المسيحية من القوط الأريوسيين؛ في الوقت الذي كان يشارك فيه عرب ماوية ضد هؤلاء القوط، بعد توقيع معاهدة السلام، في الدفاع عن المدينة التي كان امبراطورها والنس أريوسياً؛ ويبدو الانسقاط الذاتي هنا واضحاً ومبتعداً بشكل كبير عن الرؤية الموضوعية التي يجب أن يتصف بها المؤرخ؛

كانت انتصارات ماوية أكثر من لافتة، بحيث تعود أسباب نجاحها إلى^(١):

1- تألفت قواتها من الخيالة الموسمية التي كانت تشكل جزءاً من قوات الخيالة في الجيش الروماني التي كانت تعسكر عادة ضد الفرس. فشكل تحولهم ضد الرومان معضلة كبرى للقادة الرومان في المشرق، ودعماً كبيراً للثورة.

2- اعتمدت ماوية- بخلاف زنوبيا التي اعتمدت على مدينة واحدة- على قواتها المتحركة في مساحة هائلة، فكانت كما السراب بالنسبة للرومان؛ فهي هنا ولا هنا، هناك ولا هناك. ولذلك كان اندفاع قواتها وإنسحابها يتم بالسرعة الخاطفة التي يتمتع بها فرس الصحراء وفارسها وهو يعتلي ظهرها ويتلب بطنها، تدوب وتختفي في قلب الصعراء ثم تظهر حين يستدعيها الظهور.

3- قادت ماوية هجماتها بنفسها، بحيث كان أثر ذلك عظيماً على المقاتلين وهم يرون ملكتهم الجميلة وهي تتوهمهم في الكر والفر حسيماً تقتضيه الخطط.

4- الحماس المشترك للملكة وللمقاتلين في مذهبهم الأرثوذكسي، ورفضهم لنفي الأساقفة الأرثوذكس، ورفضهم للأريوسية.

5- أتاح لها انشغال والنس والفرق الرومانية ضد القوط في الغرب، وضد فارس في الشرق حرية الحركة في توجيه عملياتها بأسلوب ناجح. لذلك ظهرت ماوية بامتلاكها لمؤهلات قيادية استثنائية حيث استطاعت حشد قبائل جذام القوية في جنوب ولاية العربية إلى جانبها، والتي كانت تشكل المجموعة القبلية الكبرى من لخميين امرئ القيس، وربما كانت ماوية ترى في نفسها وزوجها قرابة ونسباً من "ملك كل العرب"؛ تحالف تنوخ ولخم، أصلاً واحداً.

وعلى خلاف رأي بعض المؤرخين من أن هجمات ماوية لم تتمد هجمات وغارات متعددة، ومكتفة أحياناً، رأى كل من سقراط وسوزومن أن ما قامت به ماوية كان حرباً بالمعنى الحقيقي وليس سلسلة من الغارات. فالقوات التي تصدت لها كانت قوات نظامية فلسطينية رومانية وفينيقية رومانية كان على رأس كل منها حاكم معين من بيزنطة.

(١) - انظر شهيد، الصفحات (147-149)، من كتابه باللغة الإنكليزية "بيزنطة والعرب في القرن الرابع.

لذلك اضطر والنس، الذي كان يواجه خطر القوط وخطر الجبهة الفارسية بنفس الوقت، إلى طلب الصلح وعقد معاهدة سلام بالاستجابة لشروط ماوية بتتصيب الناسك موسى العربي أسقفاً أرثوذكسياً على عرب التحالف، وإلى تجديد المعاهدة بشروط ماوية. إذن، قادت ماوية قواتها بنفسها بثورة ضد قوات الحاكم الروماني في المشرق. واستطاعت هزيمة قوات الجيش الروماني في المشرق في كل المعارك التي خاضتها ضدهم، حتى وصلت بقواتها إلى فينيقية وفلسطين وإلى حدود مصر القديمة جنوب الساحل السوري وفلسطين. مما اضطر الرومان إلى طلب عقد صلح معها لادراكهم عدم إمكانية هزيمتها. فوافقت على الصلح والسلام مقابل تنفيذ جميع شروطها.

استتجد الرومان بماوية بعد عقد الصلح للمساعدة في التصدي لهجمات قبائل القوط التي شنوها ضد القسطنطينية ومنطقة البوسفور. فأرسلت كتائب فرسانها لفلح الحصار الذي ضرب حول القسطنطينية، وذلك بعد أن نجح القوط في هزيمة الجيش الروماني هزيمة نكراء في معركة هادريانا بولس (أديانويل) الشهيرة على البوسفور في 28 آب من 378م. واتسمت هجمات وحدات الفرسان العرب بتشكيلاتها المثلية الرأس، وباستعمال خيالتها الرماح الطويلة التي تصل الخصم وهي بعيدة عن متناولها إذ كان التوافق والانسجام عظيمًا بين سرعة ومرونة حركة الجياد العربية والفرسان عليها واندفاع الضفط المتواصل للرماح الطويلة حاسماً في إحراز النصر على القوط في ذلك اليوم. وبشكل عام، أتبع الفرسان العرب في جيش ماوية في تكتيكات قتالهم الاندفاع السريع على شكل رأس حربة تتوسع بسرعة خاطفة خلال الاشتباك، وهم يقتحمون برماحهم الطويلة على ظهور أحصنتهم المظلمة والرشيقة بمهارة عالية تثير إعجاب قادتهم وترهب أعداءهم. وقد استغل قسطنطين الكبير - الذي كان أول من أنشأ فرقة الفرسان⁽¹⁾ المقاتلين في المشرق قوة هجومية متحركة وسريعة - كفاءة المقاتلين العرب بتجنيدهم تحت إمرة قائد الفرسان في جيش المشرق الروماني، حيث كانوا يشكلون على الدوام، ما عدا فترات الاختلاف، جزءاً مهماً من قوة الفرسان الرومانية. لذلك كان مكانهم ودورهم في جيش المشرق الروماني في القرن الرابع واضحاً وهم تحت إمرة قائد الخيالة الروماني في المشرق. وشهد هذا النظام الذي طوره ديوقلتيانوس وقسطنطين بعد ذلك تطوراً مهماً في نظام وحدات الفرسان الخيالة في حروب بيزنطة. إذ أن الاستعداد الدائم لهذه القوات المحمولة بمرورتها وحركتها السريعة بالتنسيق مع قوات الهجوم الرومانية المركزية يؤمن الانتجاع والحسم في سير المعارك.

أمام إصرار الإمبراطور البيزنطي والنس على تتصيب أسقف أريوسي على الأسقفية المشرقية، قررت ماوية الانسحاب مع جموعها بعيداً من حلب إلى داخل الصحراء لتأمين قاعدة تؤمن سرعة الحركة في الانقضاض والانسحاب مشكلة درعاً يتناسب مع سراب

(1) - شهوت وحدات الفرسان في جيش دمر زلويبا بأدائها القتالي في النصف الثاني من القرن الثالث. وكان اعتماد الفرسان الخيالة بالدرجة الأولى على استعمال سلاح السهام، الذي كان مثلاً أيضاً في سلاح الفرسان الروماني في فترة القرن نفسه.

الصحراء، بحيث تضرب في المكان المناسب وتتسحب في الوقت المناسب تاركة القوات الرومانية تجاهد في ملاحقة الصرّاب. وقد كان رفض ماوية واضحاً لا لبس فيه، حيث عملت على تشكيل تحالف واسع من عرب الصحراء، وحصلت على دعم القبائل العربية في معظم مناطق ولاية العربية وسورية استعداداً لمقاتلة الرومان.

ولا شك أن السبب المذهبي الذي ساقه معظم من كتبوا عن هذه الفترة لم يكن هو السبب الوحيد، إذ ربما سبقته أسباب أخرى مباشرة أو غير مباشرة. كما أنه ليس من الواضح حينها إن كانت ماوية أمنت بالمسيحية، أم أنها كانت بين الشك واليقين، بين الوثنية والإيمان الجديد؟ ويروي بعض المؤرخين أنها التقت خلال مقاتلتها للرومان بناسك استطاع التأثير عليها وإقناعها بالتحول من وثنيها إلى المسيحية الأرثوذكسية. فإن صحت هذه الروايات تكون أسباب الحرب الفعلية التي دفعت عرب الاتحاديين إلى إعلانها ضد روما ليست دينية، وأن الأسباب الدينية جاءت لاحقاً بعد اشتداد الصراع. وربما مثل ذلك إدراكاً مبكراً من ماوية بأن أي صراع بين طرفين يجب أن تفلسفه رؤية أيديولوجية!

شنت ماوية هجمات واسعة وسريعة ضد الحكم المركزي الروماني في منطقة المشرق، وذلك ابتداءً من عام 375م ولمدة ثلاث سنوات متتالية. وقد شبه الكثير من المؤرخين هذه الهجمات بالهجمات التي شنتها زنوبيا ضد السيادة الرومانية قبل قرن مضى حين اكتسحت قواتها ولاية العربية وفينيقية اللبنانية وفلسطين، ووصلت إلى حدود مصر القديمة من الشمال الشرقي ملحقة هزائم متتالية بالجيش الروماني. وتركت ماوية وقبائلها المتحالفة أماكن استيطانهم بحلب وما حولها، فمسيحين إلى داخل الصحراء لتأمين الحماية واستخدام الصحراء كقاعدة انطلاق لهجماتهم على البلدات والمدن والمراكز والفيالق الرومانية العاملة في المنطقة. فوجد الرومان أنفسهم بدون هدف يواجهونه في المكان، إذ كان الفرسان المغيرون يقومون بهجماتهم الخاطفة والسريعة والمؤثرة ثم يذوبون في الصحراء بنفس السرعة التي ظهروا فيها، مستخدمين تكتيكات حرب العصابات التي لم يكن الرومان على مستوى الدراية والمواجهة والملاحقة لحركتها، حيث كانت الفياق الرومانية تقبض الريح خلف تلك الهجمات، ونتيجة لنجاح الغارات المتتالية والفاجعة التي قامت بها قوات ماوية، وخسارة القوات الرومانية في معاولاتها لمواجهة هذه الغارات، شعرت القيادة الرومانية بالاحباط، خصوصاً بعد أن أثبتت ماوية أنها خصم عنيد في المعارك المفتوحة التي خاضتها ضد الفياق الرومانية. حيث كان العرب قد اعتادوا القتال إلى جانب الجيوش الرومانية خلال فترة طويلة من الزمن اكتسبوا فيها المعرفة بكيفية التكتيكات العسكرية الرومانية، والمهارة في هزيمة قوات المساعدة الرومانية التي أرسلت من فينيقية وفلسطين.

ساند سكان القرى والبلدات والأرياف في عموم المنطقة ماوية والمتحالفين معها، فكانوا شديدي التعاطف معها ومع قضيتها أيضاً. وظهر حينها أن كامل منطقة المشرق

الروماني تتجه نحو الانفصال عن جسم الامبراطورية، وأنّ ماوية وعربها من تحالف التتوخيين ربما يكونون حكامها الجدد.

جهز الرومان حملة عسكرية كبيرة كان على رأسها حاكم المشرق الروماني (يوليوس) بنفسه، فالتقى بماوية وقواتها في معركة مفتوحة (دارت على الغالب فوق أرض الجولان)، وليست في حرب عصابات، وكانت نتيجتها أن أثبتت ماوية أنها ليست فقط قائدة سياسية، بل قائدة في ساحات الحرب على مستوى عال من التكتيك باستخدام تقنيات القتال الرومانية، إضافة إلى استخدام قواتها للطرائق الرومانية التقليدية، والتي اعتمدت فيها على قوات الخيالة السريعة الحركة والجاهزية باستخدام الرماح الطويلة في ملعاتها المميّنة. فلم تكن المرة الأولى التي انهزم فيها الرومان الذين أحسوا فيها بالهزيمة المهيبة على يد هذه المرأة. ولم يكن لدى روما الإمكانية للإمداد بالقوات والعتاد في هذه المرة كما كانت الحال ضد زنوبيا قبل مائة عام، ولأنّ اتحاد القبائل العربية بقيادة التتوخيين وملكتهم هم من يقاتل الآن. ومع استمرار تدفق المقاتلين العرب للاشتراك في المعركة لم يكن أمام الامبراطور الروماني إلا أن ينصاع لمقد صلح وسلام مع ماوية ملكة العرب.

رأى البيزنطيون أنّ الحل الأمثل للتعامل مع القوات العربية يكون بتوظيفها كحلفاء لهم. حيث كانت الاستراتيجية للتعامل مع غارات عرب شبه الجزيرة تقع على عاتق القوات المتحركة وليس الثابتة، وبذلك كان في مقدرة عرب التحالف فرض إرادة روما والسلام الروماني على عرب الصحراء لمعرفتهم بتكتيكاتها وطبوغرافيتها. ولذلك نجحوا في ذلك أيما نجاح، كما كانوا قادرين أيضاً على كبح جماح اللخمين حلفاء الفرس في القرنين الخامس والسادس. إلا أن كفاءة الدرع البيزنطي المتين، الذي شكل معظمه عرب الاتحاد/ التحالف، انكسر أمام الهجوم الصاعق للعرب المسلمين في القرن السابع.

حارب التتوخيون (عرب التحالف) ضد جيوش الامبراطورية خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حكم والنس (375-378)، فكانت هذه من أهم الحروب التي قام بها العرب بعد حروب أدينة و زنوبيا. لكن أسباب هذه الحروب كانت، على الغالب عقائدية لأنهم حاربوا كمسيحيين أرثوذكس ضد الأريوسية، فربحوا حربهم. وكانت هذه مواجهة عسكرية استثنائية للعرب التتوخيين بقيادة الملكة ماوية ضد جيوش والنس الامبراطورية. ففي هذا القرن كان العرب من أوائل المدافعين الحقيقيين عن العقيدة الأرثوذكسية: عقيدة نيقين ضد عقيدة أباطرة القرن الرابع الأريوسيين. ولذلك ظهر الاتحاديون العرب كقبضة قوية في المشرق أخذوا على عاتقهم الدفاع عن المبادئ التي أقرها مجمع نيقين. ولذلك كانت علاقاتهم مع المسيحية الأرثوذكسية مهمة جداً خاصة أن صورتهم في المرأة الكنيسة البيزنطية تمكس رؤيتهم كمتهرطقين. ومن سخریات أقدار الضعفاء أنّ الذي أسقط عرب التحالف التتوخي كان الامبراطور الأرثوذكسي ثيودوسيوس الأول في الربع الأخير من القرن الرابع.

كان من أسباب تمرد عرب التحالف سيادة المذهب الأريوسي خاصة في عقد الخمسينات من القرن الرابع حينما كانت المعارك تدور معتمدة على الجبهة الفارسية، إضافة إلى تحييدهم وتجاهلهم بعدم دعوتهم للمشاركة في المجمع المسكوني الذي انعقد في أنطاكية سنة 331، حينما تم نفي بطريرك الاسكندرية أنثاسيوس. ويعتقد شهيد في كتابه "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ص 79، أنهم شنوا غاراتهم على الأطراف الشرقية للإمبراطورية خلال سنة 353م. ويرى شهيد أيضاً أنه لو لم يتم تحييد عرب التحالف مذهبياً لكان تمكن الامبراطور قسطنطينوس من تحقيق سيادة المذهب الأريوسي بين عرب التحالف، ولربما في الحبشة أيضاً، ولأمكن بذلك تجنب ما حدث لاحقاً.

بدأت خلافات عرب التحالف مع قسطنطين في سنة حكمه الأخيرة (336م)، وذلك بعد نفي أنثاسيوس. وقد حلت المعاهدة بينهم وبين بيزنطة بشكل آلي بعد موت قسطنطين. لذلك ثار العرب في بداية عهد قسطنطينوس الذي كان على القسطنطينية، ثم ما لبث أن تصالح معهم سنة 338م، وبقي هذا الصلح نافذاً خلال الأريينيات، إلا أنه لا توجد مصادر تشير إلى اشتراكهم في الحرب ضد الفرس. وقد أرح أميانوس في مصنفه أنهم ثاروا سنة 353، مع أنه وصف الحرب على الجبهة الفارسية بشكل مفصل، إلا أنه لم يشر إلى اشتراك العرب فيها. ربما لأنهم كانوا ضد سياسة قسطنطينوس الأريوسية. لذلك شهد حكمه خلافاً مذهبياً مع عرب التحالف المسيحيين. كما روى أميانوس أن العرب حول أقاميا انسحبوا من خدمة بيزنطة سنة 369-370م، وأعلنوا التمرد ضد السلطة الامبراطورية لأسباب مذهبية على الأغلب. ويلقي هذان التمردان الضوء على ثورة ماوية بعد ذلك بسنوات، حينما استجاب العرب لثورتها خصوصاً وأنهم كانوا يتشاطرون نفس الرؤية المذهبية.

وصف أميانوس العرب (كان على الأغلب يقصد عرب التحالف) في مصنفه التاريخي (Res Gestae, XIV, 4.1): "بأنهم عقبان جشعة وقائلة تكسح الامبراطورية..". كما وصفهم في أماكن متفرقة من مصنفه بأنهم سرقينيون، برابرة، قطاع طرق، وسكان خيام، ولم يشر إليهم باسمهم العام: العرب. وبدون شك كان من وصفهم في ثورة ضد الرومان، وهم تنوخيو التحالف الذين انسحبوا إلى عمق الصحراء وتحالفوا مع عرب شبه الجزيرة العربية الذين كانوا يقيمون في شمال العربية، إذ كانت أقوى مجموعاتهم من قبائل الكلبية، والتي كانت ماوية بأصولها منهم. وهم الذين شاركوا باستبسال في معركة هادريانابولس وفي معارك الدفاع عن القسطنطينية وفي جبهات القتال المتعددة في الشرق والغرب دفاعاً عن الامبراطورية! وربما كان تشابه الرؤية السلبية عن العرب عند أميانوس ويوليانوس المرتد تعود إلى أسباب عنصرية، خاصة أن المؤرخ الوثني أميانوس رأى في يوليانوس بطله الحقيقي لإعادة بريق المجد للإمبراطورية من جديد. مع ذلك قتل

يوليانوس على الجبهة الفارسية على مشهد من أميانوس الذي كان يرافقه. وقد ضمن أميانوس الكثير من الإشارات على أن العرب هم المسئولون عن مقتله. لكن، بالمقابل ذكر أميانوس في مصنفه التاريخي (RG, XXIV.1.10) أن يوليانوس كان راضياً عن أداء المقاتلين العرب قبل انسحابه من طيسفون (المدائن)، وهذا يعني ضمناً أن علاقاتهم مع يوليانوس كانت جيدة خلال حملته الفارسية، لكن موقفهم بدأ بالتبدل خلال انسحاب يوليانوس من المدائن. وقد دفع ذلك بعض المؤرخين، ومنهم أميانوس نفسه، إلى القول أن موقفهم هذا قد أدى إلى مقتل الامبراطور. والسؤال التالي الذي يطرح نفسه هو: لماذا انضم عرب التحالف لمشاركة يوليانوس في حملته الفارسية؟ فقد كان من وجهة نظرهم العقائدية أسوأ من قسطنطينوس الأريوسي الذي ثاروا ضده سنة 353، إذ كان يوليانوس وثنيًا مرتداً، لذلك جاء اسمه في مصادر التاريخ بـ "يوليانوس المرتد"، والاحتمال الأقرب لأسباب انضمامهم إليه رغم ارتداده ومناصرتة للوثنية هو أنه بدأ عهده بالتسامح الديني وإصدار مرسوم استدعاء الأساقفة الذين عاقبهم قسطنطينوس بالنفي أو السجن، فعاد هؤلاء الأساقفة إلى مجمع نيقية المناصر والمدافع عن الأرثوذكسية التي كانت مذهب عرب التحالف. وربما كان كرههم لشابور نتيجة لحملته على العربية التي هزمهم فيها في مناطق متعددة من شبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب سنة 326/325، وفرار ملك الحيرة امرؤ القيس، من ضمن الأسباب التي دعتهم للاشتراك مع جيش يوليانوس الذي كان يضم أيضاً القوط والخزر والأرمن. وأن هؤلاء هم عرب التحالف من اللخمين أحفاد الملك العربي في جنوب سورية مع ابتاء عمومهم في شمال سورية من أحفاد التوخيين الذين فروا من تعسف الفرس من ميزوبوتاميا إلى غرب الفرات. مع ذلك، تحدى عرب التحالف التوخيين في القرن الرابع السلطة الإمبريالية المركزية للإمبراطور والنس خلال نشوء الأزمة القوطية في السبعينيات من نفس القرن، حيث كان مصدر التحدي مذهبياً؛ وربما كان هذا الخلاف المذهبي انعكاساً لمشاعر قومية معادية للسلطة الإمبراطورية المركزية. لكن الكثير من المؤرخين، وخاصة الكنسيين منهم، يرون أن السبب الحقيقي لثورة ماوية هو أن العرب اعتقدوها حرياً مقدسة للدفاع عن مذهب الأرثوذكسية ضد والنس الأريوسي، ودليلهم على ذلك أن العرب عقدوا اتفاق سلام معه بعد الموافقة على شرطهم الرئيسي بتتصيب موسى أسقفاً على العرب، عادوا بعدها للتحالف مع والنس في الحرب ضد القوط وفي الدفاع عن القسطنطينية.

موسى، الأسقف العربي

سيضيع الكثير من ألق ثورة ماوية إذا لم يتم إلقاء الضوء الكافي على حياة الناسك المسيحي المقدس موسى العربي. بحيث يمكن الإشارة إلى أن ثورة العرب بقيادة الملكة

ماوية لم تكن فقط بارزة من خلال عملياتها العسكرية، وإنما يستبين بروزها أيضاً من خلال تاريخها المسيحي بما يتعلق بالتفافض والجدل اللاهوتي الذي كان حاصلًا في عموم الامبراطورية. وهذا يعني، من ضمن ما يعنيه، اشتراك عرب التحالف البيزنطي بفاعلية في مختلف وجوه الحياة الأدبية والثقافية. حيث يشهد ذلك النشاط على وصول الكثير من أسماء العرب الفلاسفة والمفكرين والأدباء إلى أرفع درجات الشهرة في الإنجاز. إلى جانب بدء ظهور آثار من الشعر العربي المنظوم تخليداً لبطولاتهم في المعارك الحربية. ومنها أشعار غنائية ومنظومة في وصف بطولات ماوية في معاركها ضد الرومان، لم يصلنا منها إلا قليل من الشعر المفقى.

كان التداخل سائداً بين العقائدي والمدني في القرن الرابع، حيث كانت المؤسسة الكنسية في طور تشييد بنائها المؤسساتي. وربما يرجع انشغال العرب واشتباكهم المذهبي في الأساس إلى استيماهم النفا في السائد آنذاك.

لم تعرف هوية الناسك موسى في المشرق وأين كان يقطن قبل أن يصبح معروفاً في التاريخ كاسقف ماوية. فقد اتفق سقراط وسوزومون أنه كان يسكن في أطراف الصحراء القريبة من تحالف عرب التتوخيين، ربما في أطراف ولاية البرية أو في جنوب ولاية فينيقية، بينما كان المؤرخ ثيودورس أكثر تحديداً بأن أسكنه بين مصر وفلسطين (شبه جزيرة سيناء). ولم يكن موسى شماساً أو كاهناً وإنما رجلاً تقياً وناسكاً حقيقياً يعيش عزلته في الصحراء، حيث مثل طرازاً فريداً من العرب الذين تحولوا من الشرك إلى المسيحية. وقد ترك بعض من هؤلاء المؤمنين، الذين كان الكثير منهم من غير العرب، المدن والبلدات خارجين إلى عمق الصحراء للتأمل والعبادة، وأُشيعت عنهم معجزات كثيرة. وكان من أبرزهم موسى الذي نال سمعة طيبة بين عرب التحالف. وربما كان إصرار ماوية على تنصيبه أسقفاً على العرب لأنه بالدرجة الأولى من أصول عربية، ولأنه لم يكن من أعداد الإدارة الكنسية التي كانت غالباً تتأرجح بين ما كانت تريده الإدارة الامبراطورية وبين المذهبين الأرثوذكسي والأريوسي. وقد تار شك بتأرجح الأسقف ثيوديموس خلال فترات الأباطرة قسطنطينوس ويويانوس والنس، لأن منصب الأسقف كان منصباً إدارياً كنسياً إضافة إلى جانب وظائفه الروحية.

مثل الناسك موسى الأهم بين الثلاثة (بامفيلوس، ثيوديموس، موسى)، وكان الوحيد بينهم الذي منح لقب القديس، إذ ما يزال يحتفل بعيده في السايح من شياط من كل عام. كان الحوار الذي جرى بين موسى ولوكيوس في الاسكندرية على خلفية محاولة تنصيب موسى على المذهب الأريوسي، وذلك بعد موت ثيوديموس، قد تطور إلى مشاحنة وخلاف شديد بين الاثنين أدى إلى حرارة في الجدل المذهبي الدائر في تلك الفترة. وربما يكون ما جرى قد سلط الضوء على موسى نفسه، فقد اشترط لوكيوس على موسى أن يتم تنصيبه أسقفاً على العرب على المذهب الأريوسي مذهب والنس والامبراطورية. فدارت وقائع الحوار تقارن بين المذهبين المتنافسين، واحتج موسى فيها على نفي الأساقفة الأتاسيوسيين (الأرثوذكس) الذين تم عزلهم ونفيهم، واتخذ آخرون منهم

ملاجئ لهم في الصحارى التابعة لعرب التحالف. وأصر موسى على تنصيبه ليس من قبل لوكيوس ولكن من قبل الأساقفة المنفيين. وفي النهاية نصب الناسك موسى أسقفاً أرثوذكسياً على عرب التحالف، ولكن في المنطقة الواقعة بين فلسطين ومصر وهو في طريق عودته من الاسكندرية، حيث كانت تجري عمليات ماوية الحربية ضد قوات ومواقع والنس الامبراطورية. وكانت من أولى مهام الأسقف الجديد أن يتولى إجراء المقاربة والمصالحة بين الطرفين المتحاربين.

تم عقد المعاهدة، كما تم تزويج ابنة ماوية من قائد الفرسان الروماني وكثور، كما تم الاتفاق أن ترسل ماوية فرسانها للاشتراك في معركة هادريانا بوليس (378م). شاركت هذه القوات بفاعلية كبيرة في الدفاع عن القسطنطينية بعد سقوط هادريانا بوليس.

لم يعرف موسى إلا من خلال ماوية، إذ كتب شهيد (ص: 153-155) من كتابه بالإنكليزية "بيزنطة والعرب في القرن الرابع؛ أن كلاً من روهينوس وسوزومون ذكرا في تاريخهما أنه عاش في الصحراء القريبة من مناطق التتوحيين عرب ماوية، بينما يقول سقراط أنه كان يعيش في الصحراء، ولم يحدد هذه الصحراء، بينما حددت رواية المؤرخ ثيودورس إقامته في المنطقة المحصورة بين مصر وفلسطين، إلا أن شهيد يشكك في رواية ثيودورس. لكن المؤكد أن موسى لم يكن شماساً أو كاهناً، بل ناسكاً يعيش في الصحراء. ومن خلال حياة ارتضاها موسى وأمثاله للعيش في الصحراء القاسية والفقرية الموارد وغير المضيفة تاركين حياة المدينة الثرية والمريحة، وهذا يعني دون شك أنه كان يمثل نوعاً جديداً من المثال الذي ربما حول الكثير من العرب باتجاه الدعوة الدينية الجديدة، إلى جانب شيوع تمتع هؤلاء بقدرات خارقة. ويعتقد أن غالبية هؤلاء الزهاد كانوا من غير العرب. ويبدو أن شهرة موسى أنت من كونه عربياً عاش بين قومه في أطراف الصحراء. من هنا جاءت شهرته في الروايات الكنسية عن تاريخ ثورة ماوية. وربما كان السبب الرئيسي في إصرار ماوية على تنصيبه أسقفاً على العرب لأنه عربي المولد.

كان مشهد الحوار الساخن الذي جرى في الاسكندرية بين الناسك الأرثوذكسي موسى والأريوسي لوكيوس، والذي تطور إلى مشاحنة كلامية، يشير إلى درجة الانفعال العاطفي الذي طرأ على الاختلافات المذهبية المسيحية في تلك الفترة. وربما كان هذا من الأسباب التي دعت المؤرخين الكنسيين حينها إلى تسجيل ثورة عرب التحالف والفصل الذي سجلته هذه الثورة في تاريخ العلاقات العربية البيزنطية في القرن الرابع. وأن اهتمام بعض هؤلاء المؤرخين الكنسيين بثورة ماوية أتى من خلال الحوار المثير الذي جرى في الاسكندرية بين موسى ولوكيوس، والذي قد يوضح الكثير من الإطلال على ثورة ماوية وربما يقود إلى القول بأن تاريخ عرب التحالف المدني قد تم إغفاله عن عمد، من قبل المؤرخين الكنسيين، في العصر الذي تميزوا فيه، وهو القرنين الرابع والخامس، خصوصاً وأن أميانوس كمؤرخ مدني معاصر لم يأت على تاريخ عرب التحالف إلا باستعراض عام.

وحسب رواية سقراط^(١)، بدا أن لوكيوس أراد أن يوجه موسى بتعاليم المبادئ الأساسية في المسيحية قبل تنصيبه، والتي تعني أن موسى في نظر لوكيوس لم يكن إلا زاهداً فقط لا مرتبة له في الكهنوت الكنسي، والتي تعني مما فهمه موسى ضمناً من خلال الحوار أنه ليس على مستوى أن يكون أسقفاً، بينما أراد لوكيوس أن يوجهه بمبادئ المذهب الأريوسي قبل تنصيبه أسقفاً على عرب التحالف. وقد كان جواب موسى رداً على تعاليم لوكيوس أن المهم ليس الأقوال بل الأعمال والأفعال، مشيراً إلى نفي الأساقفة (الأثناسيوسيون) الأرثوذكس وتعذيبهم في منافيهم، إذ يفيد بأن عرب التحالف لم يكونوا سعداء لما جرى ويجري لهؤلاء الأساقفة. وهذا ما دفع ماوية للقيام بالثورة، خاصة وأن البعض من الأساقفة الأرثوذكس التمسوا ملاجئ لهم في مناطق عرب التتوخين، مما يفيد أن هؤلاء ربما نفخوا في إوار الثورة. وقد ذهب موسى إلى الاسكندرية وليس إلى أنطاكية، حيث مثلت أنطاكية حينها أسقفية المشرق الرئيسية. وهذا قد يوحي أن موسى لم يكن يقيم بعيداً عن مصر (ربما في جنوب فلسطين)، أو أن ماوية لم ترغب بتنصيبه في أنطاكية التي كان يقيم فيها حينها الإمبراطور الأريوسي والنس الذي سيسهر بالإهانة لو تم تنصيب موسى على مرأى منه، أو أن موت بطريك أنطاكية يوسيو Eusius حينها لن يتيح الفرصة لأداء إجراءات التنصيب. وفي النهاية أدت نتيجة المواجهة بين موسى ولوكيوس إلى تنصيبه أسقفاً على العرب ليس من قبل لوكيوس ولكن من قبل الأساقفة الأرثوذكس الذين كانوا منفيين في مصر.

ويشير تقرير الناسك أمونيوس Ammonius، من كانوبوس المصرية، انذي سجل استشفاد الرهبان في جبل سيناء ومدينة ريثا Rhaithou التي تقع في منتصف المسافة على الساحل الشرقي لخليج العقبة، والتي حدثت في السبعينات من القرن الرابع خلال فترة والنس، إلى أن الناسك موسى هو من فلسطين الثالثة، وقد اتبع حياة النسك والزهد من بداية شبابه واستمر كذلك حتى نهاية عمره الثلاث والسبعين. وقد سكن صومعته في كهف بالقرب من ريثا، وفرض على نفسه حرماناً شديداً حيث لم يكن يأكل إلا التمور والماء، ولباسه من سعف النخيل، ولم يكن ينام إلا بعد أن يجهد نفسه في إقامة الصلوات الليلية، ويمضي باقي نهاره في التأمل. وكان يصوم أربعين يوماً مستمرة وحيداً في كهفه، ولم يكن يفتح باب صومعته إلا في اليوم الخامس من الأسبوع المقدس. ومن أهم صفاته أنه كان يتمتع بقوى معجزة خارقة في شفاء المرضى. ولم يقتصر تأثيره على الناسك والرهبان والمتعبدین وإنما أثر أيضاً من خلال هذه الصفات على ملك العرب أو شيخهم عبيدة (عبيديانوس) في قران من شبه جزيرة سيناء، والذي تحول من الوثنية إلى المسيحية، وبالتالي تحول معه أتباعه من العرب. وهذا يعني أن عرب قران وريثا قد مدوا منطقة تأثيرهم إلى العقبة والبتراء، وربما شاركوا ماوية في ثورتها من مناطقهم.

(١) - انظر الصفحات (153-156) من كتاب شهيد" بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، للسخة الإنكليزية.

إلا أن تقرير أمونيوس لم يشير إلى أن موسى هذا هو نفس موسى ماوية. فإذا لم يكن هو موسى ماوية، يكون هناك عندئذ اسمين مختلفين: موسى ماوية في الشمال وموسى في جنوب فلسطين، فإن كان موسى ماوية هو نفسه موسى فلسطين، ف عندئذ تكون ماوية قد سمعت بمعجزاته فاستدعته إلى حيث كانت وطالبت به أسقفاً على العرب الأرثوذكس. وقد وصف سوزومن زوج ماوية بالملك وليس بالفيلارخ، كما ذكر أن موسى ريثاو هو نفسه موسى ماوية.

الصلح مع الإمبراطور الروماني والتس (هالينز)

بدأت ماوية ملكة السرقينيين بإحداث اضطرابات عنيفة على القرى والبلدات الواقعة على حدود ولاية العربية والفينيقية وفلسطين ومصر، فقام مقاتلوها بمهاجمة ونهب وتخريب المقاطعات المجاورة. وبعد أنهاكها للقوات الرومانية في معارك متعددة صرعت الكثيرين منهم، وأجبرت البقية على الفرار، وافق الرومان على عقد معاهدة صلح وسلام، فوافقت على التزام الرومان بشروطها المعلنة، وأهمها تقصيب الناسك موسى أسقفاً على العرب.

سجل المؤرخون الكنسيون مآثر ماوية، مركزين خاصة على الشروط التي وضعتها للموافقة على عقد معاهدة الصلح مع الرومان، والتي اعتبرت حينها على درجة عالية من الأهمية للمساعي المسيحية الإنجيلية الأولى في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، وذلك حسيما سجله روفينوس Rufinus.

وكتب سقراط القسطنطيني عن هذه الحوادث قائلاً بأن الناسك موسى هذا كان سرقينياً بالمولد عاش حياة زهد ورهبة في الصحراء، فاصبح مشهوراً بشكل كبير بتقواه وإيمانه العميق ومعجزاته. كما روى سقراط أن ماوية كانت راغبة برسم موسى أسقفاً رسمياً على عربها، ووعدت أن تضع حداً للحرب إن حقق الرومان هذا الشرط. وكان التزام ماوية بعد توقيع المعاهدة أن ولدت هذا الاتفاق بتزويج ابنتها إلى وكتور رئيس أركان الجيش الروماني وقائد فرسانه حينها. وذكرها سوزومن بتفاصيل أكثر عندما أشار إليها بلقب مانية، واصفاً حكمها وتاريخ شعبها، وقد أطلق عليهم السرقينيون⁽¹⁾ Saracens، فروى أنهم اسماعيليون انحدروا من اسماعيل بن هاجر وإبراهيم (أشار إلى هاجر كمحظية لإبراهيم كما هي عادة الكتابات الكنسية)، لكنهم أخذوا اسمهم من سارة⁽²⁾ لكي لا يدعوا كابناء لهاجر، وبالتالي يتجنبون وصفهم بالعبيد. وفي رواية سوزومن، قادت ماوية قواتها بنفسها، فأثبتت أنها محاربة صعبة المراس ومواجهتها كانت

(1) - للزيادة، انظر الفصل التاسع من كتاب عرفان شهيد "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان بدمشق، 2008، حيث تجد دراسة أكاديمية موسعة عن هذا الموضوع.

(2) - لقد أوضحت هذا الأمر، أي أخذهم اسمهم من سارة زوجة إبراهيم الخليل، في كتابي "أسلافنا العرب"، إصدار وزارة الثقافة السورية، أن هذا ليس صحيحاً - المحقق.

محفوظة بالمخاطر. وقد تطلبت ضرورات المعارك من القوات الرومانية بذل جهود كبيرة لإفلات كامل قوات خيالتها ومشاتها بصعوبة شديدة من قبضة قوات ماوية المقاتلة.

أدت نتائج الحروب إلى عقد الصلح الذي استجاب الرومان فيه لشروط ماوية بأن تم ترسيم الناسك العربي (السرييني) موسى كأول أسقف عربي، حيث بدأت أول كنيسة عربية بالظهور في منطقة المشرق الروماني، جاذبة إليها الكثير من التوحيين الذين كانوا يسكنون فيما بين النهرين. وبذلك أيضاً استطاعت ماوية تتين التحالف التوحي واستعادة الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها قبل حكم الإمبراطور والنس، ولتعضيد الصلح والتحالف الجديد، زوجت ماوية ابنتها من القائد العسكري الروماني وكثور/ فكتور Victor، والذي كان على مذهب الملكة الأرثوذكسي. وبذلك استطاعت ماوية الحصول على سلام عادل، إلا أن هذا الصلح لم يعمر طويلاً.

ويرى المؤرخ سقراط أن نية ماوية بتزويج ابنتها التي كانت في مقتبل العمر من قائد الفرسان الروماني الستيني وكثور، المواطن الروماني من أصول سلافية، لثمتين معاهدة السلام الجديدة بين بيزنطة والعرب لاعتقادها أن وكثور سيكون مناصراً لقضاياها ووسيطاً يذفع عن مصالحها في الإدارة البيزنطية العليا كونه كان المحرك الأساسي لأقناع والنس بعقد الصلح معها. علماً أن والتينيانوس والنس كانا قد أصدرتا قانوناً بتحريم زواج الروماني من بربرية تحت طائلة من العقوبات الشديدة. لذلك جاء هذا الزواج فريداً لأن الموافقة جاءت بإذن خاص من الإمبراطور نفسه من أجل عقد المعاهدة، إذ يحتمل أن ماوية ربما اشترطت ذلك. وهذا يعني أنه كان زواجاً سياسياً بامتياز لخدمة أغراض الملكة السياسية المستقبلية. والذي يبدو أن ماوية وابنتها قد تعرفتا على وكثور (فكتور) من خلال قيادته لفرسان الامبراطورية في المشرق أو من خلال المفاوضات التي قادها نيابة عن والنس، أو من خلال الاثنين معاً. ويرى عرفان شهيد أن هذا الزواج تم كنوع من الثقة تضاف إلى توقيع المعاهدة وليس رضوخاً لطلب روماني يحتفظ بالأميرة كرهينة لدوام المعاهدة. كما يرى شهيد أنه لا يمكن استبعاد علاقة عاطفية بين الإبنة ووكثور، كما يمكن أن تكون الأم والبنات قد رأتا في وكثور كفاءة نوعية عالية بوضعه الوظيفي والاجتماعي وكفارس يكافئ وضع الأميرة ابنة الملكة التي كانت تتفق هنون الفروسية. ولا ندري إن كان وكثور (فكتور) حينها أرملاً أو عازباً.

ويعتبر تزويج هذا الزواج نجاحاً سياسياً لجهودها في تحسين العلاقات مع بيزنطة؛ بدءاً من نقض المعاهدة التي وقعها زوجها، إلى إعلان الثورة، إلى الانتصارات العسكرية التي حققتها على الرومان، وإلى الاستجابة لشروطها بتتصيب موسى أسقفاً أرثوذكسياً على العرب، إلى الصلح وعقد المعاهدة من جديد. وهذا ما حدث فعلاً، إذ تم إعادة العلاقات العربية البيزنطية إلى الطبيع حيث وصلت إلى مستوى ممتاز من التعاون، بحيث وافقت ماوية على إرسال قواتها للمشاركة في معركة هادريانا بوليس (أدرينوبول/ أدونة) والدفاع عن القسطنطينية عندما ضرب القوط حصارهم العنيف عليها.

تقلد وكتور قيادة قوات الفرسان في الجيش الأمبراطوري الروماني لعشرين عاماً (من 363م حتى تقاعده سنة 383) حيث كان مشهوداً لقيادته طوال هذه المدة، وشكلت كتابت الفرسان العربية جزءاً من قوات الخيالة الامبراطورية في المشرق تحت قيادته. ومثلت هذه الكتابات اهتماماً خاصاً له من خلال اختبار قدراتها القتالية. لذلك اعتقد وكتور بالعمل على مراعاة ما يريده هؤلاء العرب الذين زودوا بالجيش الروماني في المشرق بما كانت تحتاج إليه من عناصر هذه القوة. من جانب آخر وثق والنس بوكثور ليس كمسكري فقط وإنما أيضاً كمسياسي ومفاوض دبلوماسي ناجح مع الفرس والقوط ومع ماوية. ويمتد أنه فعلاً من أفتح والنس بعقد معاهدة السلام مع ماوية، وأنه من جند فرقة الخيالة العربية للحرب ضد القوط في تراقية. لذلك رأى وكتور، من جانبه أيضاً، بزواجه من ابنة ماوية تمضيماً وتسهيلاً لاستمرار العمل بالمعاهدة، وذلك من أجل مصلحة بيزنطة، إضافة إلى رغبته المحتملة بالزواج من أميرة شابة وجميلة. بذلك توج هذا الزواج إعادة العلاقات الطبيعية بين العرب وبيزنطة وذلك بعد تسوية الخلافات المذهبية والعيسائية بينهما.

قاد وكتور قوات فرسان يوليانيوس سنة 363م خلال حملة الفارسية، وهناك تعامل مع عرب التحالف فعرف طباعهم وقدر كفاءاتهم القتالية كفرسان خيالة، وربما كان قد التقى بالحواري والد زوجته المستقبلية، كما شهد ما آلت إليه سوء علاقات العرب مع يوليانيوس نتيجة لكبرياء وخيلاء الأخير ونظرته الدونية إلى العرب، وإيقاف مستحقاتهم وجعلهم كما روى بعض المؤرخين، مما أدى إلى تغير موقف العرب من الرومان. ويمكن أيضاً أن يكون زواج وكتور الأرثوذكسي المذهب من الأميرة العربية الأرثوذكسية قد جاء لنزع عنصر الشك من قلوب العرب، وأن زواجه منها يعني تشريف بيزنطة للمعاهدة. وكان وكتور رغم الخلاف المذهبي بينه وبين والنس يتمتع بثقة الأخير كقائد عسكري ورجل دولة شهد سوء العلاقات مع عرب التحالف في عهدي قسطنطيوس ويوليانيوس. لذلك يرجع إليه الفضل في إنهاء الحرب ووضع المعاهدة في عهد والنس وإعادة العلاقات إلى مسارها الممهود. وقد كان من نتائج المعاهدة جبهة هادئة ضد الفرس وتجنيد فرقة من الفرسان العرب في الحرب ضد القوط، إضافة إلى إعادة المجندين العرب إلى الجيش الروماني في المشرق. وقد عد كل ذلك ميزة سجلت لوكثور (فكتور) كخادم أمين للامبراطورية، وكذلك للأرثوذكسية.

كان وكتور نسيب ماوية من أكثر ضباط الجيش الروماني الكبار تميزاً واتزاناً في القرن الرابع، كما أثبت أنه رجل دولة خدم الامبراطورية، وبنفس الوقت خدم الأرثوذكسية، وحاز خلال خدمته الطويلة الرضى عن أدائه المميز: ف رغم أرثوذكسيته نال رضا الامبراطورين الأريوسيين قسطنطيوس والنس، وعلى رضا يوليانيوس الوثني. وقد استمرت خدمته مع ستة أباطرة (من قسطنطيوس إلى ثيودوسيوس) وشارك في حروب بيزنطة على الجبهة الفارسية وضد القوط فكان أداؤه متميزاً. كما أنه كلف بالتفاوض مع

القوط مرتين ومع الفرس ثلاث مرات، ومع ماوية حتى تم وضع المعاهدة. وقد حمل العضوية القنصلية سوية مع والنس في عهد والنثينيانوس شقيق والنس سنة 369 م. ظهر وكتور في مختلف المصادر التاريخية كمسيحي تقي ورع وكأرثوذكسي متحمس، ويذكر له أنه دعم أرثوذكسية كايادوكية، واستمر بتقديم الدعم للكنيسة الأرثوذكسية حتى بداية الثمانينيات من القرن الرابع، واستمر بدعمه حتى بعد أن بدأت مذهبية الدولة تتحول إلى الأرثوذكسية على يد الإمبراطور الجديد ثيودوسيوس. اندمج وكتور بأصوله البربرية⁽¹⁾، بشكل كامل في النظام الروماني، فاعتنق المسيحية، ومثل ضابط الاتصال بين السلطة والكنيسة ونجح في إعادة التطبيع إلى العلاقات العربية البيزنطية، وظل يمثل وجهة النظر العربية في البلاط الامبراطوري. لكن سرعان ما تغير الحال بعد تقاعده سنة 383 م. حيث أدى سوء العلاقات من جديد إلى الحد الذي قاد إلى إعلان ماوية لثورتها الثانية سنة 383 م.

مشاركة العرب في حروب بيزنطة ضد البرابرة القوط

أرسلت ماوية كتائب من قواتها، بناء على الطلب الروماني وكجزء من اتفاقية الصلح، إلى تراقية Thracia (وهي بلاد قديمة تقع إلى الغرب من البحر الأسود شمال بحر إيجة، وتتوزع الآن بين تركيا وبلغارية واليونان) من أجل تقديم الدعم والمساندة للقوات الرومانية في حريها ضد تمرد قبائل القوط، عندما تمكنت جموع المتمردين القوط من دفع الفياق الرومانية إلى الخلف نحو القسطنطينية، فنجحوا بهزيمة القوات الرومانية وقتل والنس في معركة هادريانا بولس الشهيرة في التاريخ الروماني، فأصبح الطريق إلى القسطنطينية مفتوحاً لولا تحصينات المدينة الهائلة، ووقوف المقاتلين العرب أمامهم ومنعهم من فتح المدينة والاستيلاء عليها. غير أن ما درج على ذكره الكثير من كتبه التاريخ اللاتيني والغربي هو إظهار عمليات قوات ماوية بأنها كانت أقل في مستوى أدائها مما اعتادت عليه في الصحراء أماكن تواجدتها الطبيعية. وقد عادت القوات العربية بعد انتهاء المعارك إلى بلادها وقد فقدت أعداداً لا بأس بها، مما أدى إلى فشل ثورة ماوية الثانية من ضمن أسباب أخرى.

كان القرن الرابع قرناً صاعباً بالنسبة لتاريخ العلاقات البيزنطية والساسانية لفارسية. وكذلك البيزنطية الألمانية. فاستعاد الملك الساساني شابور الثاني المنطقة، من بلاد ما بين النهرين، التي كان استردها ديوقلتيانوس. واستمر الصراع مستعراً بين الطرفين حتى تم عقد معاهدة يويانوس سنة 363 م بعد أن قتل يولييانوس على الجبهة الفارسية. وجاءت قمة العلاقات البيزنطية الألمانية بتتويج انتصار القوط الغربيين في 28 آب 378 م في معركة هادريانا بولس الفاصلة.

(1) - من: Sarmatia بلاد قديمة شجها من السلاف، وتقع إلى الشمال من البحر الأسود بين الأورال والدين.

شارك العرب التنوخيون (عرب الاتحاد) في القرن الرابع إلى جانب قسطنطين ويوليانيوس في معاركهما ضد الفرس، وشاركوا إلى جانب والنس ضد القوط في تراقية وفي هادرياناوبولس وفي الدفاع عن القسطنطينية. إذ يمكن القول أن اشتراك عرب التحالف إلى جانب الرومان ضد القوط قد مر بثلاثة مراحل؛ قبل معركة هادرياناوبولس وخلالها وبعدها. وقد كانت مشاركة العرب في المرحلة الأولى كما وصفها زوسيموس في تاريخه الجديد (HN, IV.21.22) حيث قدم والنس من أنطاكية إلى تراقية لملاقاة القوط، فأرسل كتيبة من الفرسان العرب المشاركين في الحملة لمواجهة القوط وهزيمتهم. وقد شرح زوسيموس سبب انتصار العرب في هذه المعركة حيث كان هجومهم وهم على خيولهم ورماحهم الطويلة التي كانت تؤمن لهم طعن أعدائهم وهم على مسافة آمنة إلى خسارة الكثير من قوات القوط مما أدى لانسحابهم عبر الدانوب أمام اندفاع الخيالة العرب في متابعة مطاردتهم. وربما يعود الفضل في ذلك إلى اجتماع عناصر ثلاثة للمقاتلين العرب، هي: الفُرس والفراس والسلاح. وتعد هذه الرواية من زوسيموس كمؤرخ شهادة واضحة لا تحتاج إلى تفسير. أما المرحلة الثانية فهي التي شارك العرب فيها وخسروا الكثير من مقاتليهم خلال المعركة. وأما الثالثة، التي جاءت بعد سقوط هادرياناوبولس بأيام قليلة، حيث يروي أميانوس في (Res Gestae, XXXI.16.5-7) المستصف التاريخي أن مساهمة العرب الذين كانوا يشكلون كتيبة من الفرسان الخيالة بتشكيلاتهم القتالية التكتيكية على شكل مثلث رأسي تندفع بسرعة إلى الأمام ثم تتوسع تدريجياً لفتح ثغرة في جبهة العدو لفك الحصار عن القسطنطينية. غير أنه لم يشر إليهم كعرب مأوية وإنما كسرقينيين، بل أشار إلى كتيبة الفرسان بأنها شرقية، وأن فك الحصار وهزيمة القوط لم يكن نتيجة لجهدهم الجماعي، ولكن لما أقدم عليه أحد المقاتلين السرقينيين بشرب دم مقاتل قوطي بعد قتله. ونتيجة لذلك شعر القوط بالارعب وفقدوا ثقتهم بأنفسهم، إضافة إلى ياسهم من إمكانية فتح المدينة المحصنة؟ وقد يرى البعض تضميناً مبطناً لمساهمة العرب في هزيمة القوط في هذه الرواية. وفي حين وصف المؤرخون الكنسيون أن الدفاع الناجح عن القسطنطينية يعود بجزء منه إلى مساهمة الكتيبة العربية ومليشيات المدينة، يأخذ أميانوس بالتحدث عن السرقينيين والشرقيين فقط، بما يوحي إلى طمس هويتهم عن عمد.

تظهر روايتنا أميانوس كمؤرخ عسكري ووثني، وزوسيموس كمؤرخ مدني ووثني، ووصف الهجمات العربية التي كانت تتخذ شكل الاندفاع المثلثي الرأس حيث يبدأ بالاتساع مع سرعة الهجوم الخاطف بتقدم الخيالة العرب المدرعين برماحهم الطويلة ضد القوط، وليس كمقاتلين بالسيوف والنبال. إلا أن الإثنين أغفلا هوية هؤلاء المقاتلين كمتحالفين عرب ومسيحيين.

توصل الامبراطور الروماني الجديد ثيودوسيوس إلى عقد اتفاق مصالحة مع القوط؛ فقدم لهم العديد من المناصب داخل المؤسسة الرومانية على حساب حلفائه من العرب. فشعر العرب أنهم خدعوا بشكل كبير بعدما أظهروا ولاهم للرومان. لذلك، استجمعت

ماوية تحالفاتها من جديد وبدأت بثورة جديدة سنة 383م، لكنها أخمدت سريعاً، لأنّ الفيلاق الرومانية لم تعد منشغلة بالتصدي للقوات القوطية في الغرب أو القوات الفارسية في الشرق. إلا أنه من غير المعروف إن كانت ماوية قد قادت قواتها بنفسها هذه المرة أم لا؟ حيث لم يذكر خبر ذلك؟ بذلك انتهى التحالف التنوخي الروماني أو بالأحرى التنوخي البيزنطي، لأن القسطنطينية بدأت بترتيب أوراقها ومغازلة قبيلة أخرى قوية في المنطقة، وهي قبيلة صالغ التي شاركتها في القضاء على التحالف التنوخي.

كان من نتائج معركة هادريانا بولس التي وقعت في 28 آب سنة 378 م أن أدت إلى تحطيم الامبراطورية الرومانية في الغرب في القرن الخامس عندما نجح القوط باجتياح روما سنة 410م، ثم نجحوا تدريجياً في إنشاء ممالكهم فيما بعد وعلى مدى قرون ثلاثة تالية. بينما استمرت التجربة البيزنطية مع العرب خلال القرون التالية قبل انطلاق عرب شبه الجزيرة العربية لإنهاء الوجود البيزنطي- الروماني في المشرق، لذا كانت المشكلة العربية في الشرق متوازنة مع الألمانية في الغرب من خلال أدوار هذين الشعبين كمطرقة تقع ضرباتها الموجعة على روما، وفيما بعد على القسطنطينية، في محيط البحر الأبيض المتوسط من الشمال والشرق، إذ يمكن أن يعد ذلك كتجمع للماصمة التي ستأتي على روما وبيزنطة لاحقاً. لذلك ارتبط التاريخ البيزنطي بشكل مباشر، وإلى حد ما ودون انقطاع، بضربات المجموعات الرئيسية الثلاث في القرن الرابع والقرون التي تلتها: الألمان والعرب والسلاف.

كان العرب بشكل عام، وعرب التحالف بشكل خاص، مقاتلين محترفين، ممتطين، ومغربين. وربما مثلت لهم الحرب نوعاً من المثابرة أو الصناعة الوطنية في عصر ما قبل الإسلام، والتي اتصفت بصفات البطولة والبسالة والشرف. وقد نجحت روما ومن بعدها بيزنطة باستيعابهم في خدمة الوظيفة الامبريالية، فجددوا كوحدات فرسان سريعة الحركة ورشيقة في جيش المشرق الأمبراطوري، وعلى الجبهات الغربية أحياناً، وفي الحرس الامبراطوري، كما حدث في عهد والنس بمشاركة في معاركة القوط في تراقية. وقد وصلت وحدات عرب الاتحاد في الجيش البيزنطي إلى قمة تطورها في القرن السادس حينما أثبتوا أنهم كانوا ذوي كفاءة تكتيكية واستراتيجية عالية في المعارك التي كانت تشارك فيها وحدات المقاتلين من الفرسان الخيالة.

من المفيد الإشارة إلى أن القوات الاحتياطية العربية كانت السبب الأساسي في هزيمة القوط أمام أسوار القسطنطينية، بعد حصارها مباشرة في أعقاب معركة هادريانا بولس سنة 378 م. فقد وصف المؤرخ العسكري أميانوس أن أحد الجنود العرب قتل أحد القادة القوط ثم قطع رأسه وقام بلمق دماؤه، مما أدى إلى إيقاع الرعب في قلوب القوط المحاربين فولوا الفرار! يأتي الإيقاع الضمني هنا ليقول أن الفعل متوحش. وأن هزيمة القوط هي نتيجة لتصرف فردي مستبسل على أفضل الوجوه، وبالتالي؛ فالعنى من الرواية هو نزاع مساهمة المقاتلين العرب في هزيمة القوط من سياقه العام.

سقوط عرب التحالف التنوخي

كان التنوخيون في القرن الرابع هم أول مجموعة عربية في التحالف العربي الذي خدم بيزنطة، حيث لم يطل المقام لهم بعد مشاركتهم الفعالة في المعارك الرومانية ضد القوط في تراقية وفي معركة هادريانابولس وفي الدفاع عن القسطنطينية. وقد تغلبت قبائل صالح على عرب التحالف التنوخي، إذ ظهروا عليهم بمؤازة بيزنطة كقوة مسيطرة جديدة على عرب التحالف في القرن الخامس، وذلك من خلال انضمامهم للقوات البيزنطية ضد ثورة ماوية الثانية سنة 383م. ثم جاء دور الفساسنة بالسيادة على التحالف العربي مع بيزنطة في القرن السادس والثالث الأول من السابع.

لم يمن سقوط التنوخيين (الذين كانوا أقدم مجموعات عرب التحالف البيزنطي في خدمة بيزنطة خلال القرون الثلاثة التي سبقت مجيء الإسلام) في نهاية القرن الرابع، والذين كانوا يسيّدون على عرب التحالف البيزنطي، اختفاءهم تماماً أو انتهاء دورهم كمتحالفين مع بيزنطة في المشرق. إذ استمروا بالتحالف مع بيزنطة في القرن الخامس، ولكن ضمن سيادة بني صالح على عرب التحالف، كما استمروا بالتحالف مع بيزنطة في القرن السادس تحت قيادة الفساسنة. ولم يختف دورهم في المشرق حتى بداية الإسلام الأول الذي شكلوا ضمنه جزءاً مهماً من نظام الأجناد الأموي بالرغم من استمرار بعضهم على مسيحيتهم حتى أنهم شاركوا جيش الشام في القتال ضد جيش الخليفة في معركة صفين. وقد أسلم معظمهم في زمن الخليفة العباسي المهدي. إلا أن مواجهتهم الأخيرة مع المهدي سنة 780م مثلت نهاية حضورهم كمجموعة عربية مسيحية شبه مستقلة في المشرق.

شكل التنوخيون من ضمن عرب آخرين قوة عسكرية مسيحية في حضورهم المشرقي في الربع الثاني من القرن السابع، فقاتلوا المسلمين إلى جانب بيزنطة تحت قيادة الملك الفساني جبلة بن الأيهم في دومة الجندل وفي معركة مؤتة سنة 629 م، وفي معركة اليرموك والمعارك اللاحقة، وهم: جذام، تنوخ، لخم، ويثقين، تغلب، إباد، ونمير. لكن أبو عبيدة صالحهم في حاضرتي قنسرين وحلب على دفع الجزية لمن بقي على مسيحيتهم. إلا أن الكثير منهم انضم إلى هرقل سنة 639 م عندما جرد حملة⁽¹⁾ فاشلة لاستعادة سورية. ومع هذه الحملة الفاشلة، انتهى تاريخ تنوخ والتنوخيين في أفق التاريخ البيزنطي.

أدى إعادة رسم السياسات في المشرق الروماني من قبل ثيودوسيوس الأول (379-395)، بعد المواجهات الدامية بين ماوية والنس، إلى إحدار وسقوط التنوخيين. ولم

(1) - "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، ج2، ص 496: "... وفيها سير أبو عبيدة بن الجراح جيشاً مع بيسرة بن مسروق العيسى، فسلكوا درب بخراس من أعمال طماكية إلى بلاد الروم، وهو أول من ملك تلك الدرب، فلقى جمعا للروم معهم عرب من شام وتنوخ وإباد يريون للحاق بهرقل، فأوقع بهم وقتل منهم مقلة عظيمة، ثم لحق به مالك بن الأشتر اللخمي مدناً من قبل أبي عبيدة وهو بطماكية، فسلموا وعادوا".

يكن هذا السقوط والانحدار نتيجة لرسم هذه السياسات العسكرية والسياسية فقط، وإنما أيضاً نتيجة للإصلاحات الإدارية وانعكاساتها في المشرق، إذ خطط راسمو هذه السياسات للقضاء على القوة التوخية من خلال سياسات امبراطورية وثأرية لإعتقادهم أن تحاذل العرب وانسحابهم أدى لمقتل يوليانوس، حتى أن الكثير منهم اعتقدوا أن العرب هم فعلاً من كان وراء مقتله، وكذا لما فعلته ماوية خلال ثورتها الأولى بإهانتها لقوات المشرق البيزنطية.

انتهت المعاهدة⁽¹⁾ بين التوخييين وبيزنطة بعد موت والنس في الوقت الذي صعد فيه ثيودوسيوس الأول إلى الأرجوان، والذي كان جدياً بارعاً أستدعي من تقاعده في إسبانية بعد موت والنس، وكان يرى أن هؤلاء العرب التوخييين يمكن أن يستمروا في إحداث المشاكل ضد الامبراطورية، لأنهم كانوا فضولين بنجاحاتهم في الحرب ضد القوط وفي الدفاع عن القسطنطينية وفي نجاحاتهم العسكرية ضد والنس، ولذلك بدأت الخلافات بين الإدارة الامبراطورية الجديدة وبينهم خلال المباحثات لوضع شروط المعاهدة الجديدة. وقد نجمت طبيعة هذه الخلافات التي تطورت خلال سنوات 379-382 على النحو التالي:

1- لم يقبل عرب التحالف التوخي أن يساوموا على مذهبهم الأرثوذكسي، بل بينوا أنهم مازالوا على استعداد للمقاتل من أجل ذلك، كما فعلوا في ثورتهم الأولى. فزعم قلة اهتمام ثيودوسيوس بالمسائل الدينية قبل تسلمه المنصب، إلا أنه أصبح من المهتمين المتحمسين للأرثوذكسية بعد صعوده إلى الأرجوان. فدعى ممثلي الأريوسية من القوط وبعض المجموعات التي تقف ضد المسيحية لحضور مجمع القسطنطينية⁽²⁾ الذي انعقد سنة 381 م، دون دعوة ممثلين عن العرب الذين شعروا بالامتناع وعدم الرضا، إذ رأوا أن من حقهم المشاركة خاصة بعد كل ما قدموه في معارك بيزنطة السابقة.

2- قاتل عرب التحالف من أجل مذهبهم الأرثوذكسي ضد والنس الأريوسي إلى جانب الدولة الامبراطورية ضد القوط الأريوسيين، وربما رأوا أن تجاهل الإمبراطور الجديد وتفضيل القوط عليهم بتعيينهم في المناصب العليا للدولة، وتجاهل دورهم ومشاركتهم في شؤون الامبراطورية، بالرغم من مشاركة الإمبراطور نفس مذهبهم الأرثوذكسي، أدى إلى شعورهم بعدم الرضا والتذمر، وربما شعروا أيضاً أن الإدارة الامبراطورية الجديدة تضمر الشر لهم.

3- كانت شروط معاهدة السلام مع القوط عام 382 تحايي القوط على حساب العرب. حيث بدا أن ثيودوسيوس يرتب لحل المسألة القوطية ليتفرغ لوضع حد لصعود التوخييين الذي كان يراه ما يزال يشكل خطراً على مستقبل الدولة.

(1) - كانت المعاهدة المعقودة بين طرفين تنتهي ألياً بمجرد موت أحد الطرفين للمؤمنين طيها. ويصار إلى تجديدها إذا رغب الطرفان بذلك.

(2) - انظر الصفحات (205-206) من عرقان شعيد في بيزنطة والعرب في القرن الرابع، النص الإنكليزي.

4- التحريض المستمر ضد العرب واعتبارهم مسؤولين عن مقتل يوليانيوس، والذي وجد أذنأ صاغية من ثيودوسيوس.

5- من ضمن الأسباب المباشرة التي أدت إلى الثورة الثانية كانت الطريقة التي تعامل بها القادة العسكريون في المشرق مع العرب، حيث تم تعيين جميع القادة ومرؤسيهم من غير العرب وخصوصاً في سلاح الفرسان لجيش المشرق. فقد ذكر زوسيموس أن تجاهل العرب وتحبيددهم عن المراكز العسكرية الأولى والثانية قد عجل في حدوث الثورة الثانية، مثلاً كان ذلك من أسباب الثورة الأولى. لذلك كان على العرب أن يتعاملوا مع إدارة بيزنطية ليست متعاطفة معهم، بل تتوجس منهم ومن طموحاتهم.

لم يكن للعرب صديق أو مناصر في المناصب العليا في المشرق إلا وكتور قائد القوات الامبراطورية في المشرق حينها، وكان قد ترك أنطاكية في 378 وتقاعد سنة 382. وعند قيام الثورة الثانية سنة 383 كان القادة الألمان الوثليون في جيش بيزنطة هم من وقفوا ضد الثورة، وعملوا على وأدها دون تأخير.

وبينما عرف الكثير عن الثورة الأولى لم يعرف إلا القليل عن الثانية (معلومات موجزة). إذ أشار ياكابوس إلى: أن السريقين ثاروا فسحقوا وعوقبوا لثورتهم. وفي هذا يمكن عقد المقارنة التالية بين الثورتين: الأولى والثانية:

1- كان العرب قادرين على إحراز النصر على والنس في الأولى لأن بيزنطة كانت تواجه مشكلتين بآن واحد: القوط والفرس، في حين كان قد تم الاتفاق في الثانية مع القوط والألمان سنة 382 م، وكانت الجبهة الفارسية هادئة.

2- وجه عرب التحالف اندفاعهم ضد نفس المناطق والأقاليم في الثورة الأولى. كما اتبعوا نفس الاستراتيجية والتكتيك العسكري مدفعين بنجاحاتهم السابقة. وكان القادة الرومان مستعدين للتعامل معها لأنهم درسوها مسبقاً.

3- كان عرب التحالف في الثانية أضعف بكثير منهم في الثورة الأولى، إذ كان ما تكبدوه من خسائر في معركة هادريانا بولس وفي الدفاع عن القسطنطينية من أسباب هذا الضعف.

4- كانت هزيمتهم ومماقتهم في الثانية نتيجة لما جاسوه في المناطق التي كانت مسرحهم في الأولى، إضافة إلى اتهامهم بمقتل يوليانيوس (ثار وانتقام مؤجل). ولأن بيزنطة لم تعد بحاجة للتحالف معهم، جاء وقت الانتقام منهم ليشفي غليل الثار من الأولى التي ما زالت ذكريات المقاتلين الرومان عنها حية في أذهان القيادة البيزنطية.

5- كان قائد الحملة لإخماد ثورة ماوية الثانية هو القائد الألماني الوثلي ريخومر Richomer الذي أثبت قدرته وولاءه بمعارية بني قومه في هادريانا بولس. وقد بالغ في رد فعله ضد العرب المسيحيين الأرثوذكس.

6- يعتقد أن ماوية قادت الثورة الثانية كما قادت الأولى. وما حدث لها بعد هزيمتها غير معروف على وجه الدقة. وإذا كانت الوثيقة اليونانية التي وجدت في خناصر بالقرب

من حلب تشير إليها، فإن الملكة ماوية إذاً، قد عاشت هزيمتها، وأكملت بقية حياتها كأرملة تقية ربما في دير منعزل خارج خناصر. لكن، كيف تقاضت الإدارة الامبراطورية عن تركها وشأنها، إذا سلمنا بصحة وثيقة خناصر... يبقى جواب السؤال معلقاً^{١٢}

كان من نتائج هزيمة التتوخين حدوث تغييرات في بنية قوى التحالف العربي في منطقة المشرق وفي علاقاتهم مع الامبراطورية، فتراجعت قوة التتوخين، وتعرضت البيئة القبلية إلى تبدلات جوهرية بعد تجاهلهم وإهمالهم من قبل الرومان. ومن الممكن أن قسماً من تحالف التتوخين قد شد الرحال من جديد نحو الشرق للاستقرار والميش فيما بين النهرين تحت مظلة اللخمين حلفاء الساسانيين الفرس. وربما كان من رحل إلى ما بين النهرين هم لخميو الجنوب، أحفاد ملك العرب امرئ القيس، من التحالف التتوخي العربي، وبعض من التتوخين أيضاً.

دعا سقوط التحالف التتوخي إلى صعود محسوب، من جانب القسطنطينية، لبني صالح كمتحالفين جدد مع بيزنطة، حيث لم تسمح بيزنطة بصعودهم إلى مستوى يهدد الامبراطورية. ولما كانت تعديلات ثيودوسيوس التي أدخلها على ولايات المشرق عادة في أسبابها إلى ثورة ماوية الأولى، وربما أيضاً إلى صعود تدمير قبل أكثر من مائة عام، فقد قام بفصل مصر عن المشرق، وتقسيم فلسطين إلى منطقتين، وهينقية إلى ولایتين. وتم التنازل للفرس سنة 387 عن أربعة أخماس أرمينية، وذلك لأن ثيودوسيوس لم يستطع وقف الاندفاع الفارسي إلى أرمينية لأن العرب لم يعودوا يشكلون جزءاً هاماً من قواته على الجبهة الفارسية حينها. وقد حققت هذه الاتفاقية سلاماً مع الفرس لقراءة قرن، أدى بدوره إلى استقرار العلاقات العربية البيزنطية لبقية القرن الرابع وكامل الخامس.

سقط عرب التحالف من بني صالح في أعقاب ظهور تحالف عربي جديد هو تحالف العرب الفساسنة مع بيزنطة من نهاية القرن الخامس وحتى معركة اليرموك (636 م).

والسؤال المهم الذي يطرح نفسه ويقتضي البحث والدراسة، هو: لماذا بقي سقوط التتوخين مغلفاً بغموض شديد؟ تاريخياً، عرف عرب التحالف البيزنطي الذي تشكل في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول ابتداءً من مكوناته العربية في القرن الرابع بسيطرة التتوخين على هذا التحالف، ثم جاءت بعدهم قيادة بني صالح على عرب التحالف خلال القرن الخامس، إلى أن حسم عرب الفساسنة السيطرة لصالحهم في القرن السادس وأوائل السابع. وفي كل فترة من هذه الفترات الثلاث كان معظم العرب يسلمون بقيادة المسيطر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن عرب التحالف البيزنطي على مدى هذه القرون قد دانوا بالمسيحية وكانوا متحمسين لها. وما ثورة التحالف التتوخي بزعماء الملكة ماوية بين سني (375-378) ضد الإمبراطور البيزنطي الأيوبي والفساد إلا مظهراً من مظاهر التمسك بالعقيدة المسيحية والمذهب الأرثوذكسي. كما شاركت تتوخ في القتال إلى جانب القوات البيزنطية في معارك التحرير التي خاضها العرب المسلمون في القرن السابع، وخاصة في معركتي قنسرين وحلب، واستمروا بالمحافظة على ديانتهم المسيحية خلال الفترة الأموية، فوظفهم الأمويون في نظام أجناد بلاد الشام وهم على مسيحيتهم.

وبدا وضعهم بالتحول في الفترة المباسية عندما زار ديارهم الخليفة العباسي المهدي (775-785) سنة 780م. ولم تجمع المصادر^(١) السريانية والعربية على رواية موحدة في كيفية بداية تحولهم عن المسيحية إلى الإسلام؛ فمنهم من روى أن المهدي أجبرهم على التحول إلى الإسلام بالقوة والعنف، ومنهم من تحدث عن زواج المهدي بإحدى بناتهم الجميلات، وبعد فترة من الزواج تم تحريض الخليفة لإجبارهم بالترغيب أو التهيب على الإسلام لما وضع أمام حقيقة أن يأتي أولاده وأحوالهم ليسوا على الإسلام. إذ تحتاج هذه الرواية إلى بحث جديد يبنى على مكتشفات مادية لظواهر الحقائق عن تاريخ تنوخ العام بما فيه العقائدي. وفي كل الأحوال، لعبت تنوخ دوراً مهماً في تاريخ المشرق العربي خلال خمسة قرون.

تجدر الإشارة إلى أنه خلال القرون الثلاثة (الرابع والخامس والسادس) لنظام التحالف العربي تبنى عرب التحالف في مجموعاتهم الثلاث المذاهب المسيحية التالية: الأرثوذكسية، النسطورية، والمنوفيزية.

وشهدت فترة نهاية القرن الرابع تأسيس مركز القوة العسكرية العربية في الحيرة في خدمة الامبراطورية الوثنية الفارسية؟ وكانت روما وفارس قد نجحتا في القرن الثالث بإنهاء المؤسسة العسكرية العربية في منطقة الهلال الخصيب؛ فقتضى الفرس على حران وميسان، وفتى الرومان على الرها وتدمر. فخرج من سقوط هذه الدول، التي أسست على المدن، العرب للخميين في الحيرة وعرب تنوخ في خلقيس بالقرب من حلب. وللأسف، درج هذان الفريقان العربيان، بأصولهما اليمينية الواحدة من لحم وأزد، في عداء حربي استمر ما يقرب من ثلاثة قرون لصالح القوتين العظيمتين: الفرس والروم. جاءت تعديلات ديوقلتيانوس للخطوط الدفاعية في المشرق الروماني في نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع فجعلت من منطقة خلقيس وجوارها منطقة دفاعية رئيسية مقابل الجبهة الفارسية ووكلائها للخميين وراء الفرات. كما كان طريق ديوقلتيانوس الممتد من الساحل الجنوبي للبحر الأسود حتى ساحل البحر الأحمر الشمالي من جهة الشرق ماراً بين النهرين وسورية، فشكل ممراً لخدمة المصالح الامبراطورية الرومانية الاستراتيجية. وكان الفرض من سياسة التحصينات الدفاعية الجديدة هو الوقوف ضد التحديات الفارسية والعربية في القرن الثالث. وجاءت تحصينات ديوقلتيانوس الدفاعية لتضع حداً للطموحات الفارسية-العربية، والعربية المستقلة التي مثلت تدمر زنوبيا فيها قوة استبقار عظيمة سيطرت على كل سورية الكبرى وآسية الصغرى حتى الدردنيل، إضافة إلى مصر. وبالنهاية أدى سقوط تدمر لهجرات عربية في المنطقة أدت إلى حركات اضطراب كان على روما أن تتعامل معها بنجاح. لذلك قام ديوقلتيانوس بإعادة رسم هذه الحدود على ما راينا.

(١) - المصدران السريانيان: ميخائيل السوري (1199 م)، وابن الجري (1286 م). والمصادر العربية: البلاذري، البكري، وهشام الكلبي، انظر هشام الكلبي في "أخبار تنوخ".

سكن قسم من عرب التحالف الروماني- البيزنطي داخل الحدود المشرقية للإمبراطورية، والقسم الآخر على أطراف الحدود الخارجية للإمبراطورية: شمال، وشمال- شرق سورية بين الخابور ودجلة وسنجار في شمال وغرب بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا) التي كانت تشكل مملكة العرب الأسرويتيين قبل ضمها سنة 244 إلى الإمبراطورية، فلسطين الجنوبية والنقب وسيناء، وجنوب ولاية العربية. ولذا، يمكن القول أنهم سكنوا على أطراف الحدود الإمبراطورية الداخلية والخارجية. فكانت القبائل العربية المنضوية تحت عيالة التحالف العربي البيزنطي، والتي تسكن على الأطراف الخارجية تشكل درعاً خارجياً، بينما كانت قبائل التحالف داخل الحدود تشكل درعاً أكثر قوة وتنظيماً، فكانت مهمة الدرعين المحافظة على المشرق الإمبراطوري الروماني- البيزنطي، في الوقت الذي كان فيه التأثير الإمبراطوري واضحاً إلى حد ما في المناطق التي خارج الحدود الإمبراطورية الرسمية.

وكان سقوط حران بيد شابور الأول في القرن الثالث، ثم استعادتها من قبل الرومان (تناوب الطرفان عليها) وسقوط الرها وتدمير بيد الرومان مسألة تستحق الدراسة والتحليل. حيث مثل سقوط هذه المراكز العربية الحضرية التي كانت تتحكم وتنظم عرب الفرس والرومان في هذه المنطقة سواء كانوا مقيمين أو متنقلين، درساً مستقبلياً لرؤية أوسع وأشمل قامت على عائق وهمة وفروسية عرب الحنوب في القرن السابع.

موت ماوية

لم تتحدث المصادر اليونانية بشكل واضح وصريح عن ماوية بعد حصار القوط للقسطنطينية سنة 378م. غير أن وثيقتين يونانيتين وجدتا في خناصر؛ أحدهما داخل أسوار المدينة والأخرى خارجها. فقد اكتشف في بلدة خناصر Anasarth - الواقعة على بعد 55 كم جنوب حلب مع زاوية ميل صغيرة نحو الشرق تقريباً غير بعيد عن الفرات، والتي كانت تقع على تقاطع أطراف أقاليم العربية وفينيقية اللبنانية وسورية، وهي المناطق التي كان يقيم فيها عرب التحالف من تنوخ ولخم - وثيقتان يونانيتان⁽¹⁾ على شاهدين قبورين:

1- النقش الأول مكون من خمسة أسطر من الشعر اليوناني على شاهد قبوري وجد خارج أسوار بلدة خناصر:

Anasarth: Martyrium Extra Muros
خناصر: المقام (المشهد) المقدس خارج أسوار المدينة

Irfan Shahid, Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, VI, Dumbarton Oaks, - (1) Washington, DC.

أرخ النقش بسنة 737 من التأريخ المملوكي الموازي لسنة 425 ميلادي. وأقيم المقام على شرف سيدة عربية باسم ماوية أو قريية لها ، وإضافة إلى ما ذكره النقش من فضائل هذه السيدة، فالوثيقة تحتفل بذكرى تكريس هذا المقام إلى صاحب القداسة القديس توماس (القديس توما). ويتحدث النص الشعري التبجيلي الموجود على النقش عن تاريخ سيدة عظيمة وليس عن حفيذة مجهولة، والتي ربما عاشت في عزلتها حتى بلغت الثمانينيات من عمرها سنة 425م. فرواية سوزومن التي تناولت انتصاراتها على الرومان ما زالت تروى شفاهة حتى القرن الخامس. لذلك، قد يكون النقش تعبيراً عن هذا الاحتفاء حيث حافظت ماوية على حبها لزوجها المتوفي سنة 375، إذ لم تتزوج بعده، وأن ابنتها التي تزوجت من وكثور في النصف الثاني من عام 378م كانت في سن الزواج المبكر. إذ لو كان المقصود- في نص الوثيقة- حفيدتها لكان على النقش أن يحتفي بهذه الحفيذة كسيدة رومانية لأنها ابنة مواطن روماني هو وكثور.

ويمتد أن ماوية انزلت في دير مهجور بعيداً عن الناس بعد هزيمتها في ثورتها الثانية. لذلك فإن اسم ماوية ووجود النقش خارج الأسوار وصفات العفة والطهارة الضمنية بين سطور النقش، وفي المصادر الأدبية، كلها توحي أن صاحبة التشريف هي على الغالب الملكة ماوية. كما يشير تكريس المقام إلى القديس توما إلى أن تاريخ المسيحية العربية في هذه الفترة هو على الخصوص تاريخ مسيحية التتوحيين.

طاف التتوحيون أراضي بين النهرين من الحيرة إلى الشمال والغرب وذلك قبل عبورهم إلى الرومان على أطراف وغرب وجنوب الفرات ليصبحوا بعد ذلك حلفاء للرومان. والقديس توما (ليس القديس توما الراهب السوري الذي مات سنة 551م) كان الكاهن الرسولي المعروف في ميزوبوتاميا حيث أقيم له مقام مقدس في الرها (إديسا) التي كانت عاصمة المسيحية الأولى في المشرق خلال فترة مملكة أوسروينة التي حكمها الأبرجيون. وقد تحدث سقراط وسوزومن عن استمرار التتوحيين بتبجيله حتى بعد عبورهم الفرات نحو الغرب. ويبدو أنهم مثل غالبية القبائل العربية المقيمة فيما بين النهرين نظرت إلى الأبرجيين في مملكة أوسروينة وعاصمتها الرها كعاصمة ومركز رئيسي للمسيحيين العرب في تلك المنطقة. والتكريس في النقش يشير إلى استمرار الروابط الروحية التي ربطت بين التتوحيين وميزوبوتاميا وأوسروينة وإديسا والأبرجيين. ويمكن التأكيد، من قراءة النص، على المناطق التي عاش بها التتوحيون؛ المناطق المحيطة بحلب وقيسرين وخصاصر حتى الفرات شرقاً والعاصي غرباً، ويدل بناء المقام خارج الأسوار على أن العرب كانوا يفضلون الإقامة خارج أسوار المدن والمراكز الرئيسية لتكون موازية لإقامة معسكراتهم المفتوحة إلى الصحراء.

ويشير النقش إلى السنوات الأخيرة من حياة الملكة خصوصاً وأن المصادر الأدبية صممت فجأة عن الحديث عنها بعد فشل ثورتها الثانية سنة 383. كما يشير النقش إلى أن آخر عمل لها كان بناء هذا المقام المقدس. حيث يمكن القول أنها كانت أول ملكة عربية

تقوم ببناء مثل هذا المقام. وقد تبعها أخريات فيما بعد، حيث أقامت هند زوجة المنذر، الملك اللخمي حليف الفرس في الحيرة، مقاماً لدير مسيحي سمته "دير هند"⁽¹⁾.

وأخيراً، يمكن الاستنتاج أن النقش يشير إلى أن عرب التحالف التتويخين لم يكونوا جميعهم قبائل مرتحلة وغير متعلمة ومتقفة، بل كان كثير منهم مقيمين حول المدن والبلدات الكبيرة، بحيث كانت أماكن إقامتهم هذه تؤمن لهم مراقبة وحماية حدود الامبراطورية الرومانية والبيزنطية من غارات وتسلل عرب شبه الجزيرة العربية، كما كانت تؤمن لهم الذويان بمرعة في جوف الصحراء عندما كانت تقتضي الضرورة ذلك. ويشير النقش أيضاً إلى أنهم كانوا بنائين للكنائس والأديرة بحيث أقاموا استقراراً لتطور الحياة على الأطراف البيزنطية الشرقية، إضافة إلى ذلك، شكلوا قوة مسلحة سريعة الحركة والفعل أثبتت حضوراً جسوراً في النشاطات العسكرية.

2- النقش الثاني مكون من عشرة أسطر من الشعر اليوناني على شاهد قبوري وجد داخل أسوار مدينة خناصر:

Anasarth: Marytrium Intra Muros خناصر: المقام (المشهد) المقدس داخل أسوار المدينة

تحدث الأسطر الثلاثة الأولى من النقش عن سلوانوس Silvanus (سلفانوس) باني المقام المقدس على شرف بعض الشهداء المشهورين. بينما يتحدث القسم الثاني عن صفات العفة والطهارة لفتاة شابة باسم Chasidat (الاسم السرياني: حاصيتا Hasida، أي الحريصة على عفتها، وتعني في الآرامية حرصاً أو حريصة أو الحريصة). وتحدث الأسطر 7- 10 عن ورع وتقى ديني وعظمت أخلاقية: المجد لمن يضحي بدمائه، والنجاة ليست بالخطب والبلاغة والترنيم الوعظي والصلوات، وإنما المجد يأتي من خلال التغيير الحقيقي للحياة حسب تعاليم الكتاب المقدس.

وتعد الوثيقة ذات أهمية عظيمة في تاريخ العلاقات العربية البيزنطية. وهي لسوء الحظ غير مؤرخة، وتظهر بعض كلمات النقش المهمة مطموسة أو مشوهة.

وتشير الوثيقة إلى شخصيتين، هما: سلفانوس وحاصيتا، لكن المؤرخين والدارسين لم يحددوا هاتين الشخصيتين بدقة حتى الآن، حيث كثر الجدل حول من كانتا. والكثير منهم يتحدث عن سلفانوس الضابط الروماني الذي تزوج من فتاة عربية. بينما يرى عرفان شهيد من مقارنة المصادر الأدبية والنقوش: أنها وكثور وزوجته حريصة ابنة ماوية، واسمه الكامل هو فلافيوس سلوانوس (سلفانوس) وكثور Flavius Silvanus Victor. والنقش مؤلف من عشرة أسطر شعرية باللغة اليونانية؛ كل بيت منها يحتوي على ستة نغمات شعرية. وحسب رأي شهيد، الصفحة 213، من النص الإنكليزي في

(1) - انظر "دير هند الصنبري" و"دير هند الكبرى" في معجم البلدان، ج 2، الصفحتان (541 - 542).

كتابه "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ثم وضع اسم سلفانوس لأنه الوحيد بين الاسمين: الأول فلافيوس، والثالث وكثور الذي يتوافق مع ضرورة الشعر في السطر اليوناني في النقش.

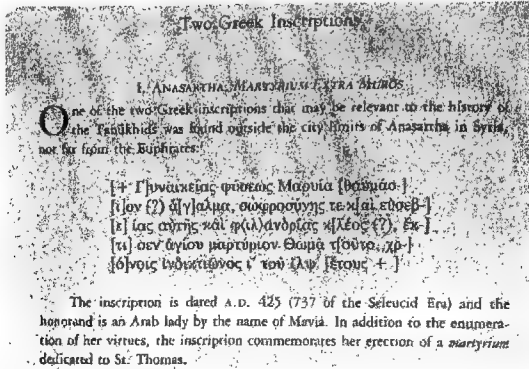
فإذا كان سلوانوس (سلفانوس) هو وكثور (هكتور) وحاصيتا ابنة ماوية هي زوجته، يمكننا عندها أن نقول أن وكثور وجد زوجته ميتة أو أنها كانت في حالة صحية مشرقة على الموت، وذلك عند عودته من القسطنطينية إلى المشرق، فقام ببناء نصب تذكاري، ربما بناءً على وصية منها، لتخليد شهداء العرب⁽¹⁾ من التتوخييين الذين سقطوا في المعارك التي خاضوها تحت قيادة والدها والدةها، ولكن، ألا يحق لنا أن نتساءل: هل يقوم وكثور المتقاعد وصديق العرب بتنفيذ مثل هكذا وصية لتخليد شهداء العرب، وهو من كان في الإدارة البيزنطية العليا؟

كرس المقام داخل الأسوار إلى عدة شهداء، وتركت أسماؤهم مجهولة. وربما قصد بهذا النصب تخليد كل الشهداء الذين ربما كانوا من عرب التحالف الذين استشهدوا في الثورة الأولى والثانية دفاعاً عن الصليب والأرثوذكسية، والذين قد يشكلون لائحة طويلة من الأسماء اقتضي عدم ذكر أسمائهم، وثانياً لتجنب مساءلة السلطات البيزنطية لأنها تعتبرهم متمردين وخارجين على الدولة.

تذييل. يمكن، من خلال سياق الأحداث، الاستدلال بتحليلها، ويربطها بتاريخ حدوثها أن نقدر تاريخ ولادة ماوية في سنة 340 م بزيادة أو نقصان سنتين إلى ثلاثة، وذلك من خلال معطيات زواج ابنتها "حريصة/ حريصة" بوكثور قائد الفرسان في الجيش الامبراطوري سنة 378 م، والتي كانت في مقتبل الشباب، وهذا يعني أنها ربما كانت في العشرين من عمرها بزيادة أو نقصان سنتين أو أكثر، مما يعطي التاريخ التقريبي لزواج ماوية من الملك "الحواري"، وهو العشرين من عمرها تقريباً. أي أن تاريخ ميلادها التقريبي يمكن أن يكون سنة 340 م، وأن زواجها تم بين 358 و 360 م تقريباً. وتشير الوثيقة الشعرية اليونانية المنحوتة على النشاهد القبوري التي وجدت خارج أسوار بلدة "خناصر"، والتي تحتفي بموت الملكة إلى تاريخ موتها سنة 425 م. فتكون ماوية قد عمرت ثمانين عاماً أو أكثر هليلاً.

(1) - انظر الصفحات (235-238) من كتاب عرفان شهيد بالإنكليزية: "بيزنطة والعرب في القرن الرابع". انظر صورة الوثقتين (التقنين) باللغة اليونانية على الصفحة التالية.

صورتان للوثيقتين (النقشان) اليونانيتين
الأولى: المقام خارج أسوار المدينة،
والثانية: المقام داخل أسوار المدينة^١.



I- Anasartha: Martyrium Extra Muros

خناصر: المقام (المشهد) المقدس خارج أسوار المدينة

١ - الصورتان مأخوذتان من كتاب عرفان شهيد " / Byzantium and the Arabs in the Fourth Century " ، ص: 222، 223
بزلفة والعرب في القرن الرابع، ص: 222، 223

II. ANASARTHA: MARTYRIUM INTRA MUROS

The second of these two Greek inscriptions was found within the walls of Anasartha.²²

[Μ]άρτυριον εὐθύμνοισι πολέλλιτον ἀνθετο νηόμ.
 [π]ολλὸν ὅπ' αἰθους, σῆσι καὶ ἔρκεσιν εὐκτετον ὠδε
 [λα]μπρότατος Σιλδανός, ἀεὶ κρατέων ἐν Ἑρεμβοῖς
 [π]άνητα δ' ἐπ' ἐννεοῖσιν ἀποικομένης θετο παιδός,
 5 [πα]ντότῃσ' ἀρετήσιν ἀοιδ<ι>σάτης Χασιδάθης
 [ἀ]μφὶ φύλαρχοι <οἱ>ν ἑὴς ἤντευσαν ἀνάκτες.
 [Ὡς] καὶ πένθος ἔκανσε τῷ πατρίῳ "οὐδ' ἔπ' ὄψιν τε]
 [καί]ρῳ, ὅφ' αἰμάτω<ς> ἐνὶ λαχεῖν γέρας, οὐχ[ὶ] σέσωται ?]
 [δοτις] ὅσον ψαλμοῖσιν ἐπ' ἐρχομαῖς τε κο[ρέσθη ?],
 10 [ἀλλ' ὅς] θειοτάτῃσι γραφαῖς ἔχε μετα [νεήσοι ?].

II-Anasartha: Martyrium Intra Muros

خناصر: المقام (الشهد) المقدس داخل أسوار المدينة

مقارنة بين ماوية وزنوبيا

اقترب العديد من الدارسين المحدثين من ماوية ضمن دراسة تاريخ الملكات العربيات المحاربات اللواتي سبقنها، واللواتي كان من أشهرهن زنوبيا ملكة تدمر. فقد سجل استاذ التاريخ العربي قبل الإسلام في جامعة جورج تاون الأمريكية عرفان شهيد أن هاتين الملكتين وصلتا إلى مضائق البوسفور وحدود بيزنطة. ولاحظ شهيد أن غياب ذكر وصول ماوية إلى البوسفور في تاريخ زوسيموس كان قد تم تجاهله عن عمد، فقد كان زوسيموس على اطلاع كامل بما كتبه ودونه سوزومن وسقراط القسطنطيني، لذلك استنتج شهيد أن تجاهل كان مقصوداً من قبل زوسيموس⁽¹⁾، وذلك لأن روايته عن وصول ماوية إلى البوسفور إن وردت ستكون متناقضة وغير متوافقة مع فرضيته عن الأسباب التي أوردتها في "التاريخ الجديد" Nova Historia عن انحدار وسقوط الدولة الرومانية⁽²⁾ التي أرجعها في تاريخه إلى عاملين رئيسيين: المسيحية والبربرية، واللذين تزامنتا مع حكم الامبراطور قسطنطين الكبير (305-337) وإصلاحاته. وقد ناقش شهيد في "روما والعرب"، الفصل الثامن، ص 202 من الترجمة العربية، أن الحذف كان مقصوداً في رواية زوسيموس، فقال: "... من غير المتوقع أن زوسيموس أراد كتابة رواية موسعة عن ماوية، حيث تبرهن حالة زنوبيا على أنه لو أراد أن يكتب عنها لكتب ما يحدد هوية السرقينيين بمآثرهم التي وصفها، وذلك بإلباس زنوبيا ثوباً جديداً يجعلها مسيحية وبربرية بآن واحد، وريما يبتعد أكثر يجعلها موالية لروما لما حاربت من أجله، وهذا ما تجنب روايته عن قصد عن مآثر ماوية. ولذلك بينت حالة ماوية للقارئ ما كانت عليه الملكات العربيات من رؤية جديدة متجذبة لامبراطورية برياطها المسيحي. وبذلك أبطلت فرضية زوسيموس الذي كان يؤسس عليها في التاريخ الروماني لما بعد قسطنطين، أي أن الانحدار الروماني بدأ بسبب من التطبيعين البربري والمسيحي. وجاءت المفارقة الجادة بين تاريخ الملكتين العربيتين- انتمت الأولى إلى عالم القرن الثالث الوثني وغير الموالي لروما، بينما انتمت الثانية إلى عالم القرن الرابع، الجديد والموالي لروما- ونسب نجاحها إلى نجاح التجربة القسطنطينية (نسبة لقسطنطين الكبير)؛ ولذلك أبطلت فرضيته بطمسها للحقائق ذات الصلة، كما طمسست عن عمد حقائق ثابتة عن فيليب العربي لأسباب كثيرة متشابهة".

(1) - Zosimus: مؤرخ يوناني كتب مؤلفه المسمى تاريخ زوسيموس الجديد والمكون من خمسة أجزاء، جاء فيه: على تاريخ روما والرومان منذ تأسيس روما حتى 410 م. وكان متعصباً للوثنية، فطنع في المسيحية والمسيحيين طعناً شديداً، وأسس تاريخه على فرضية الانحدار الروماني بسبب التحول من الوثنية الرومانية إلى المسيحية، وإفساح المجال أمام البربرية في الامبراطورية.

(2) - انظر كتاب عرفان شهيد "روما والعرب"، الفصل الثامن، ترجمة قاسم سويدان، حيث يدرس المؤلف مواقف زوسيموس المتعددة عن روايته التي عزا فيها أسباب السقوط الروماني بشكل أساسي إلى الديانة المسيحية، وعدم الالتزام بالديانة الوثنية الرومانية، إلى جانب أسباب أخرى من ضمنها دخول البربرية بشكل كثيف للمشاركة في الإدارة الإمبراطورية الرومانية للامبراطورية.

1- لم يذكر التاريخ والأعمال الحديثة التي تناولت أحداث القرن الرابع حياة الملكة ماوية كما ذكرت أعمال زنبوبيا وحروبها ومآثرها في القرن الثالث، إذ يظهر أن المؤرخين حينها لم يتحدثوا عنها بشكل كاف ودقيق، بل ربما تجاهلوا عن عمد أو إهمال.

2- دخلت ماوية المسرح التاريخي، والكتسي على وجه الخصوص، كملكة عربية ثائرة تمردت على الامبراطورية البيزنطية لأسباب دينية وسياسية يمكن اعتبارها مرحلية أو كأهداف تكتيكية وليست استراتيجية. إذ لم يكن واضحاً ماهي النهايات التي خططت ماوية للوصول إليها، إلا أن تكون قادرة على انتزاع اعتراف روماني - بيزنطي بمشاركة عرب التحالف في جزء متواضع من الفئمة الامبراطورية. بينما طورت ملكة تدمر زنبوبيا رؤاها الاستراتيجية للعمل على إنشاء دولة امبراطورية تضم الطيف العريض العام لشعوب المشرق القلقة في سورية الكبرى وشمال شبه الجزيرة العربية وشمال مصر، من أجل أن تقف على قدم المساواة مع روما وفارس.

3- لم يكن عرب التحالف علماء لاهوت، ولكنهم بكل بساطة أيدوا قساوستهم وأساقفتهم، فكان ولاؤهم لهؤلاء كما كان ولاؤهم لشيوخهم ورؤسائهم وملوكهم في الحروب. وهذا يدل على أن قسَمَ الوفاء والولاء القبلي والحربي قد ارتبط أيضاً بالولاء والوفاء الديني. وكما كان هذا الولاء والوفاء عاملاً مهماً من عوامل نجاح ثورة ماوية، فسيكون هذا أيضاً عاملاً مهماً وحاسماً سيرتبط بقوة لا تتفك بينهم وبين الدين الجديد الذي بزغ فجره في مطلع القرن الميلادي السابع. بينما كان قسم الوفاء والولاء القبلي والحربي الذي قدمه التدمريون لملكهم زنبوبيا يعتمد بالأساس على مدينة- دولة تمكنت من بناء مؤسستها الحاكمة على أسس إدارية وعسكرية امبراطورية نجحت في فرض سيطرتها على كامل المشرق القديم تقريباً ولو لفترة بسيطة في تاريخ القرن الثالث.

4- كانت المؤسسة المسيحية الأرثوذكسية لعرب التحالف بقيادة التبوخييين مفتاحهم للتعاون والمشاركة أو الرفض، إذ لم يشاركوا إلى جانب قسطنطينوس الأريوسي، وحاربوا والنس، ولم يشاركوه حربه ضد القوط، إلا بعد استجابته لشروطهم في عقد معاهدة السلام. في حين كان تحالف تدمر مع الرومان تحالفاً مرحلياً يهدف لتفنيذ تخطيط طموح لتأسيس امبراطورية خاصة تجمع شعوب المنطقة من أجل أن تقف على قدم المساواة مع الفرس والرومان.

5- كان إصرار ماوية على تنصيب أسقف عربي يعني ضمناً رغبتها في تأسيس الكنيسة العربية الناشئة، وهذا يعني أيضاً من ضمن ما يعنيه إحساساً وشعوراً بالهوية العرقية للمملكة والعرب، كما مثل لها التزام الناسك موسى بالأرثوذكسية حساً واقعياً بسلاسة التعامل معه أكثر من التعامل مع أسقف أنطاكي إغريقي أريوسي أت من أنطاكية التي جعلها والنس مركز عملياته العسكرية الأساسي في المشرق. لذلك نستطيع القول أن ماوية وعربها شاركوا في حياة الامبراطورية الدينية والمسيحية والثقافية. في حين كانت الوثنية تشكل ديانة التدمريين، ولكن دون تعصب لهذه الديانة. حيث كانت حرية المعتقد

الديني مشهودة في حياة المجتمع التدمري، وفي الوقت نفسه كانت الوثنية الرسمية تتعايش مع اليهودية والمسيحية بجو من السماحة والقبول. كما شهد بلاد زنبوبيا مساجلات حرة في المعتقدات الوثنية واليهودية والمسيحية، حتى أن بعض المؤرخين أشاروا إلى اعتناق زنبوبيا الديانة اليهودية، مع أن الأدبيات الدينية اليهودية تنهم زنبوبيا بمعاداتها لليهودية، وهذا يعني أن الإشارة ليست على قدر من المصادقية لمناقشتها.

6- يمكن القول أن ماوية كانت أول من وضع اللبانات الأولى لما يمكن أن يطلق عليه "الكنيسة الوطنية العربية"، بعد أن كانت جميع أسقفيات المشرق العربي وكذلك أسقفيات المشرق غير العربي بأساية الصغرى تابعة لبطيركية أنطاكية، إلى أن تم اكتمال مؤسساتها خلال فترة القرون التالية، فمؤسسوها على الغالب كانوا من عرب التتوخين وملكتهم ماوية وأسقفهم موسى.

7- لم يستطع الرومان هزيمة ماوية لأن حركتها كانت كالسراب، بحيث لم يكن جيش المشرق الإمبراطوري قادراً حتى على القبض على ريعها في ثورتها الأولى، غير أن أسلاف الجيش الروماني كانوا قادرين على حشد عسكري هائل لملاقاة زنبوبيا في معارك ثابتة أدت إلى هزائم متتالية لتدمر.

8- بينت سير الحروب التي أشعلتها ماوية ضد الرومان نفس النتائج التي بينتها دراسة المقاطع الواضحة في وثيقة النمارة بشعور الملك العربي امرئ القيس، ملك كل العرب، بالفخر والاعتزاز بانتماؤه العربي وليس بالوطنية الرومانية (مع أن الهوية العربية حينها لم تكن على قدر كاف من الوضوح بحيث يمكن إطلاق هذه الصفة عليها). وبينت سير الملكة العربية التدمرية زنبوبيا اعتزازها وشعورها بالفخر بمحاربيتها للرومان والإمبراطور الروماني أورليانوس، حيث يمكن العودة إلى رسالة⁽¹⁾ التحدي التي وجهتها زنبوبيا، والتي وردت في "التاريخ الأوغسطيني: سير الأباطرة الرومان" رداً على رسالة أورليانوس لها بالإستسلام.

9- بسقوط تدمر، المؤسسة العربية الحضرية العسكرية المقيمة في سهوب بلاد الشام، أصبح الرومان وجهاً لوجه أمام عالم شبه الجزيرة العربية بقبائله العربية المضطربة والقلقة. وكان سقوطها دافعاً للمجموعات العربية بالنكوص إلى البداوة الغالبة في المنطقة. بينما تم استيعاب عرب التحالف في دور جديد في المسار الإمبراطوري البيزنطي، وذلك بعد انتهاء دور التحالف التتوخي.

10- كانت المصادر عن عرب التحالف (الاتحاديين) خلال فترة حكم يوليانيوس المرتد قليلة ومحصورة بمصدر تاريخي مدني واحد تقريباً هو أميانوس، بينما كانت غزيرة خلال فترة والنس. في حين أن المصادر التاريخية عن تدمر وزنبوبيا كانت غزيرة إلى الحد الذي جعلت منها أسطورة عالية خالدة ترسم صورتها بين الواقعي والخيالي.

(1) - انظر نص الرمالتين (رسالة أورليانوس ورسالة زنبوبيا) تبعاً على المصنفين 316 و317.

11- بعد عقد الصلح، وبناء على طلب الرومان، أرسلت ماوية كتائب خيالتها لمساعدة الجيش الروماني في التصدي لهجمات قبائل القوط والدفاع عن مدينة القسطنطينية، وذلك بعد انتصار القوط على الرومان في معركة هادريانابولس (Hadrianapolis) (Adrianople) الفاصلة في 28 آب 378م. وعلى العكس من ذلك انحل الجيش التدمري وطواها النسيان.

12- لو لم تكن الملكة ماوية أرثوذكسية (أسباب مذهبية)، لما اهتم المؤرخون الكنسيون بتسجيل مآثرها وكتابة رواية ثورتها في عهد والنس وثيودوسيوس، ولكانت مسيرتها قد ملأها النسيان. بينما لم يستطع التاريخ اليوناني- اللاتيني تجاهل سيرة زنوبيا التي كان تأثيرها في تاريخ روما علامة بارزة من علامات التحدي الذي كاد ينجح في إنهاء سيطرة روما على المشرق.

13- كانت تجربة روما مرة مع تدمير قد جعلتها تتخذ خطوات ممانعة وذلك بعدم إعطاء فرصة لعرب التحالف بالصعود إلى المراتب العليا في الدولة وخاصة العسكرية منها حتى لا تكون هناك إمكانية لأن يطور أحدهم طموحات كبرى تتعارض مع السياسات الرومانية. مع ذلك، طور عرب التحالف خلال القرن الرابع طموحاتهم بظهور شخصيتين مهمتين، هما: امرؤ القيس وماوية. كما طور ملوك الغساسنة في القرن السادس طموحاتهم من خلال تحالفهم مع بيزنطة.

وكانت روما قد اعتمدت على العرب الأنباط، ثم على التدمريين من بعدهم للدفاع عن جزء كبير من المشرق بالدرجة الأولى ضد البرثيين والساسانيين الفرس، وضد الغارات الآتية من عرب الجنوب. وقد نشأ فراغ في منطقة المشرق بعد هزيمة تدمر، بينما امتد الدرع العربي الذي شكله عرب التحالف (تنوخ وصالح وغسان) لحماية حدود الامبراطورية من شمال المشرق حتى جنوبه حيث كان عملياً يشكل شعراً لولايات المشرق.

14- عاصر الشاعر التنوخي عمرو بن عبد الجن، والد امرئ القيس عمرو بن عدي في نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع، وهو يشير في بيتين مما وصلنا من شعره إلى الرهبان والهيكل ويعيسى بن مريم، كما تشير رواية سوزومن إلى النظم الشعري الشعبي المغني⁽¹⁾ في تمجيد ماوية. وربما يعني هذا أن الإنجاز الثقافي والأدبي والفني لم يتعد الإطار الشعري مقارنة بالإرث الثقافي والفني العظيمين اللذين تركهما التدمريون، حيث ما نزال نقف باحترام وتذوق جمالي راق أمام هذه الأوابد الشامخة، وشعور بالحسرة على هذه الباقيات دون برامج تخطيط مادي تؤدي في فترة زمنية ليست طويلة إلى إعادة إعمارها بالصورة التي كانت عليها قبل ارتكاب جريمة تسويتها بالأرض في 272/ 373 م.

(1) - رواية سوزومن الذي استمع إلى الأشعار الممخنة في منتصف القرن الخامس، وسجلها في كتابه " التاريخ الكنسي"، كانت قصائد منوع ولشداد غنائي عربي منموض تشيد بانتصارات ملكهم ماوية على الإمبراطور البيزنطي والنس، وحافظت على انتقالها شفاهة حتى القرن الخامس. لكن الألف لم يصلنا مما نظم منها شيء.

المصادر العربية

- 1- د. مصطفى العبادي: "تاريخ اليونان القديم"، مكتبة الأنجلو المصرية.
- 2- د. محمد كامل عياد: "تاريخ اليونان"، مطابع ألف باء الأدبي-دمشق.
- 3- د. مفيد رائف العايد: "دراسات في تاريخ الإغريق"، جامعة دمشق.
- 4- الخوري عيسى أسعد: "تاريخ حمص-ج1"، المنشورات الجامعية - طرابلس- لبنان.
- 5- د. محمد محفل: "تاريخ الرومان"، دار غندور- لبنان.
- 6- مصطفى العبادي: "مصر من الأسكندر الأكبر إلى الفتح العربي" مكتبة الأنجلو المصرية.
- 7- أيدوس بل: استاذ شرف علم البردى بجامعة ألكسندرية في كتابه "مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي"، دراسة في انتشار الحضارة الهلينية وضمها لبلادها، نقله إلى العربية وأضاف إليه د. عبد اللطيف أحمد علي - دار النهضة العربية، بيروت.
- 8- أندريه إيمار وجانين أبوايه: "تاريخ الحضارة العام- روما وإمبراطوريتها"، ترجمه عن الفرنسية يوسف وفريد داغر، منشورات عويدات- بيروت.
- 9- ياقوت الحموي: "معجم البلدان"، دار صادر- بيروت.
- 10- د. جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، ج2، ج3- منشورات الشريف الرضي.
- 11- د. نبيه عاقل: "تاريخ العرب القديم وعصر الرسول"، سلسلة تاريخ العرب والإسلام.
- 12- القرآن الكريم: سور: الأنبياء، سبأ، التمل، ص، البروج، الفيل.
- 13- عبد الحميد همو: "بليقيس بين الحقيقة والأسطورة"، دار معد - دمشق.
- 14- زياد منى: "بليقيس لغز ملكة سبأ"، دار قدس - دمشق.
- 15- "العهد القديم من الكتاب المقدس: التوراة"، (Bible Society).
- 16- أحمد سوسة: "العرب واليهود في التاريخ"، العربي للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق.
- 17- أحمد ربيع عبد المنعم: "بليقيس بين القرآن والتاريخ"، دار مشارق- القاهرة.
- 18- ابن الأثير: "الكامل في التاريخ"، دار صادر- بيروت.
- 19- خير الدين الزركلي: "الأعلام"، دار العلم للملايين- بيروت.
- 20- صفى الرحمن المباركفوري: "الرحيق المختوم"، دار الفحاء- دمشق.
- 21- د. أحمد فخري: "دراسات في تاريخ الشرق القديم: مصر والعراق - سوريا واليمن"، الأنجلو المصرية- القاهرة.
- 22- مصادر التاريخ العربي الأولية: الطبري، المسعودي، يعقوبي، ابن الأثير، والهمداني، الأصفهاني، الإكليل، وابن خلدون..
- 23- "سميراميس ملكة آشور وبابل"، جيوفاني بيتيناتو، ترجمة د. عيد مرعي، دار روافد للثقافة والفنون- دمشق.
- 24- الموسوعة السوفيسية، المجلد الأول، مطابع الأهرام التجارية.
- 25- "هانيبل/هانيبال"، ج2، جورج مصروعة، دار المكتوب- بيروت (1960/1959).
- 26- كتاب "درثا"، الجزئين الأول والثاني، دار التراث- ليبيا.

- 27- كتاب "تاريخ المغرب الكبير، الجزء الأول العصور القديمة"، د. رشيد التاطوري، دار النهضة العربية - بيروت.
- 28- "فرطاجرة أو امبراطورية البحر"، فرانسوا ديكره، ترجمة عز الدين أحمد عزو، تحقيق د. عبدالله الحلو، دار الأهالي بدمشق (1997/1996).
- 29- "القانون الروماني"، د. عكاشة محمد عيد العال، كلية الحقوق بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية، أدار الجامعة (1988).
- 30- "ناج المروس"، الزبيدي، ج7، ج28، إصدار وزارة الإعلام الكويتية.
- 31- "مجلة المري الكويتية"، العدد رقم: 619.
- 32- "الفنقيين وإمريكا"، فضول العالم، ترجمة وتحقيق د. عبدالله الحلو.
- 33- "المختصر في تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الاحتلال البريطاني"، تحقيق وتعليق د. علي عبد المنعم شعيب.
- 34- عرفان شهيد: "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان بدمشق.
- 35- خالد الأسعد وفيين أوفه ويديغ هانسن: "زفوييا ملكة تدمر والشرق".
- 36- محمد محفل: "دمشق: الأسطورة والتاريخ"، إصدار الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية.
- 37- أبو سعيد الحميري: "الحوار العيني"، تحقيق كمال مصطفى، دار أزال - بيروت.
- 38- أحمد حسين: "موسوعة تاريخ مصر"، ج1، دار نشر..
- 39- "تاريخ الطبري"، ج2.
- 40- هشام الكليبي: "جمهرة النسب- أخبار تنوخ"، الذي أخذ ممن سبقه من المؤرخين العرب، أمثال: الطبري، المسعودي، الحموي، اليعقوبي، ابن قتيبة، ابن خلدون..
- 41- البلاذري: "فتوح البلدان".
- 42- الفلقشندي: "صبح الأعشى".
- 43- عارف عبد الفتي: "تاريخ الحيرة في الجاهلية والإسلام"، دار كتان - دمشق.
- 44- نينا يينغوليفسكايا: "العرب على حدود بيزنطة وإيران"، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون في الكويت.
- 45- رينه دوسو: "العرب في سورية قبل الإسلام"، دار الحداثة - دمشق.
- 46- روم لاندو: "الإسلام والعرب".
- 47- ماقهيف: "تاريخ الآشوريين".
- 48- شمس الدين غوناثي: "تاريخ الشرق".

المصادر الأجنبية

أهم المصادر عن رواية سميراميس الأسطورية هي رواية ديودوروس الصقلي المأخوذة عن رواية الطبيب الإغريقي كليسياس:

1-The Library of History of Diodorus Siculus, published in Volume I of the Loeb Classical edition, 1933, book II. Also, the same Book II, translated by Edwin Murphy, 1989.

يحتوي الكتاب الثاني من "المكتبة التاريخية" على ستين فصلاً؛ بحيث تتحدث الفصول من الأول إلى الثالث عن نينوس وأعماله كأول ملك آشوري. كما يتحدث الفصلان الرابع والخامس عن ولادة وطفولة سميراميس. بينما يروي الفصل السادس زواج الملك نينوس من سميراميس. وفي الفصل السابع رواية صعود سميراميس إلى العرش الآشوري بعد موت الملك. أما الفصول من الثامن حتى الثالث عشر فتتحدث عن بنائها لبابل وحدائقها المعلقة وعن إنجازاتها. وتروي الفصول من الرابع عشر حتى العشرين قصة حملاتها العسكرية على مصر وإثيوبية والهند. بينما تتحدث باقي فصول الكتاب عن كسل وترف وتبذير ملوك آشورية اللاحقين، وعن حروب الميديين، وعلوم التنجيم عند الكلدانيين، وعن طبوغرافية الهند وغنى أراضيها، وعن السكيثيين وغيرهم من شعوب تلك الفترة، وعن الجزيرة العربية وأراضيها وأساطيرها، وعن اكتشاف الجزر في جنوب المحيط الهندي.

2-Edward Foryan, *Legendary Mysterious Great Queen of Assyria*.

3- The Illustrated Dictionary and Concordance of the Bible: The Jerusalem publishing house Ltd.

4- Berosus the Babylonian in his work "Babyloniaca".

وهو عن تاريخ بابل، ويقع في ثلاثة مجلدات، كتبها بيروسوس بين 290 - 278 ق.م.

5- Cambridge Ancient History, Part III.

6- H.D. Guterbock, *Babylonia and Assyria*. ed. Vol. II.

7- Donald.A. Mackenzie, *Myths of Babylonia and Assyria*.

8- Strabo, *Geography*) سترابو "الجغرافيا"

9- Virgil, *Aeneis*, 1.338-368

10- Titus Livy, *The Wars with Hannibal*.

11- Polybius, *The Histories of Rome*.

12-Forum Romanorum: Justin 18-3f (contains Justin, 18.3-6, relating the Early Story of Elissa in full)

13-Translation of Virgil's Work including the Aeneas by AS. Kline.

14-Ovid's Imagined Letter from Dido to Aeneas, trans. by Micealf. Vaughan.

15- Appian, *The Punic wars*, Chapter 1.

16- Dido, Queen of Carthage, original texts, modernation, and discussion of Chaucer's Legend of Dido in "The legend of Good Women", trans. by Sarah Jasmon.

17-The Tragedy of Dido, the Queen of Carthage, by Christopher Marlowe.

18- Theodore Ayrault Dodge, *Hannibal: A History of the Art of War among the Carthaginians and Romans down to the Battle of Pydna*, 1995.

19- Livy (Titus Livius), *The History of Rome*, V III..etc.

20- John Prevas, *Hannibal Crosses the Alps*.

21- Peter Connally, *Hannibal and the Enemies of Rome*.

22- Appianus, *History of the Syrian Wars*.

- .23- Bismark Otto Casapari's Article (Encyclopedia Britannica)
- 24- A Study done by The Historical Department of the American Military academy.
- 25- Nathan Davis, Carthage ang the Romans.
- 26- Silicus Italicus, Punica, I.
- 27- James Parker, Comparing Strategies of the Punic Wars.
- 28- Roland Miller, The Roman Historians.
- 29- Marie Mackregore, The Death of Hannibal and the Story of Rome.
- 30- Julius Caesar: The pursuit of Power by Ernle Bradford, Hamish Hamilton, London, 1984.
- 31- Suetonius, Life of Caesar
- .32- Plutarchus, Parallel Lives (Caesar and Marcus Antonius)
- 33- Dio Cassius, History of Rome
- 34 - Robertino Soarion, Apollonius of Tyana and The Shroud of Turin, Julia Domna, The philosophical Empress, 2005.
- 35 - Six Authors (Loeb Library) , Historia Augusta (The Scriptor (Historiae) , Severus 3.9, 18.8, and others (Zebobia, Aurelianus etc التاريخ الأوغسطي (سير الأباطرة الرومان).
- 36- G.W. Boewrsock, Roman Arabia, Harvard Univesity Press,1983.
- 37- Barbara Levick, The Syrian Empresses (Series of Women of The Ancient World) , Paperback, 2007.
- 38- M.G.William, Studies in the Lives of Roman Empresses: Julia Domna, Julia Maesa, Julia Mamaea..
- 39- A. Birley, Septimius Severus: The African Emperor, New Haven, 1989.
- 40- G. Turton, The Syrian Princesses: Women who ruled Rome (ad 193-235) , London, Cassell, 1974.
- 41- Balsdon, Roman Women and Their History, London, 1989.
- 42- Eduard Gibbon, The Decline and the Fall of the Roman Empire.
- 43- Herbert Schaltz, Queen Zenobia's last Look Upon Palmyra
- 44- Irfan Shahid, Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, Dumbarton Oaks, ISBN 0-88402-116-5
- عمران شهيد: "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، دومبارتون أوكس.
- 45- Irfan Shahid, Rome and the Arabs, Dumbarton Oaks, Washington DC.
- 46- Ammianus, Res Gestae, XIV, XXIII, XXIV...etc
أميانوس مرقلانيوس "المصنف التاريخي".
- 47- Zosimus, Historia Nova
زوسيموس: "التاريخ الجديد"
- 48- Sozomen, Historia Ecclesiastica
سوزومن: "التاريخ الكنسي"
- 49- Eusebius, Historia Ecclesiastica
أوسيبوس: "التاريخ الكنسي"
- 50- Socrates of Constantinople in His History
- 51- Sant Jerome in his Works
- 52- Sidney Smith Article, Bulletin of the School of oriental and African Studies.
- 53- J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt.
- 54- S. Davis, Relations in Ancient Egypt.
- 55-S. Freud, Moses and Monotheism.

فهرسة الاسماء والامكن والكلمات

269, 271, 272, 283	322, 341, 342	آباء الكنيسة: , 368
284, 286, 291, 292	347, 350, 383	إبراهيم: , 44, 53, 63
294, 296, 300, 301	أردشير: , 27, 41, 42	65, 66, 90, 265, 390
305, 306, 308, 309	291, 292, 294, 298	ابن الأثير: , 74, 75, 80
311, 318, 326, 332	338, 347	282, 337, 344, 364
335, 343, 353, 366	أرمطو: , 34, 145	410
367, 372, 412	149, 187, 189	ابن خلدون: , 56, 76
أشور: , 45, 46, 85, 99	أريو: , 54	128, 230, 282, 347
100, 103, 104, 105	أريوس: , 272, 365	411
106, 107, 111, 112	366, 367	ابن وحشية: , 242
113, 114, 115, 116	أزمة القرن الثالث: , 27	إبيفانوس: , 36, 37, 39
117, 118, 142, 262	260, 289	أثاسيوس: , 29, 303
266, 335, 343, 410	أسبرطة: , 33, 34, 35	329, 350, 364, 366
أشوربانيبال: , 100, 101	133, 146	367, 369, 384
105, 113, 114, 117	استير: , 62, 70	أثينة: , 32, 33, 102
118	إسرائيل: , 55, 61, 62	174, 185, 189, 219
أشيلوس: , 283, 334	63, 65, 66, 67, 68	224, 280, 285, 304
أعمدة هرقل: , 125	69, 72, 73, 89, 100	أجاتوكليس: , 148, 169
140, 150, 155	114, 121, 335	أخاتون: , 63, 66, 93
أغريبا: , 287	أسرحدون: , 105, 106	أخيلاس: , 206, 208
أغريباس: , 126	114	أدريانويل: , 20, 47
أفروديت: , 15, 108	أسقفية إيلوسا: , 369	327, 331, 356, 363
209, 285	أسكندر سيفيروس: , 7	375, 381, 391
أفروديت السماوية: , 108	27, 245, 256, 257	إدوارد غيبون: , 260
إفسوس: , 33, 36, 174	258, 260, 261, 274	285, 302
185, 186, 209, 217	282, 289, 291, 293	إديسا: , 235, 342
222, 223, 224	أسومس: , 187	344, 350, 401
أفلاطون: , 257, 303	أسمية: , 24, 25, 32, 33	أذينة: , 27, 76, 264
365	46, 52, 56, 68	265, 269, 270, 271
أكتيوم: , 25, 186, 202	97, 115, 118, 123	274, 276, 281, 282
224, 225, 226, 286	152, 157, 174, 175, 185	283, 285, 295, 296, 298
أكد: , 97, 113, 194	187, 188, 190, 196	299, 300, 301, 302
223, 225, 243, 249	198, 199, 200, 222	304, 316, 319, 321
343, 356	225, 234, 240, 245	
آل نصر: , 298, 342	250, 259, 261, 263	

الأفلامونية الحديثة: ,
303
الأكديون: , 97, 335
الإكليل: , 54, 56, 76
410, 77
الأنب: , 6, 147, 157
169, 166, 159, 158
318, 180, 177
الإنيادة: , 33, 133, 136
الأنبا: , 26, 56, 57
276, 270, 268, 209
335, 303, 290, 288
409, 358, 354, 336
الأنطونية: , 31, 271
288
الإنيادة: , 6, 121, 133
الإبيرو: , 6, 143, 156
168, 166, 158, 157
182
البرثية: , 26, 41, 219
291, 261, 254, 241
340
البرثيون: , 25, 36, 107
241, 219
البطلمية: , 5, 9, 38
39, 190, 191, 192
218, 203, 202, 198
231, 223, 221, 219
353, 284, 269, 233
البيلاري: , 347, 372
411, 399
البليان: , 131
البو: , 155, 156, 159
170, 162
البليان: , 91, 245, 260

143, 132, 125, 119
186, 180, 152, 151
190, 189, 188, 187
200, 198, 194, 193
212, 208, 203, 201
290, 283, 269, 229
365, 353, 338, 291
410
الاسكندرونية: , 187
الاسكندرية: , 19, 29
185, 66, 40, 38, 35
191, 190, 188, 186
195, 194, 193, 192
206, 203, 202, 198
211, 209, 208, 207
218, 215, 214, 212
223, 222, 221, 220
229, 227, 226, 225
242, 236, 233, 230
284, 272, 267, 259
307, 306, 304, 303
365, 339, 329, 317
386, 384, 373, 366
411, 388, 387
الاشوريون: , 43, 68
112, 110, 106, 99
335, 118, 116, 113
الأعلام: , 14, 46, 76
411, 410, 276
إلغابالوس: , 7, 19, 27
256, 255, 245, 31
262, 261, 258, 257
289
الأغورا: , 270, 273
280, 276, 275
الأطامي: , 37, 102
الأفلاطونية: , 259, 303
365

الإتلاف: , 25, 197
200, 201, 202, 205
214, 215, 217, 222
286, 276
الأبجر: , 344
الأبجيريون: , 401
الأبرش: , 282, 306
338, 339, 341, 342
352
الأبوليان: , 163
الأثروسيون: , 149, 196
الأخمينيون: , 45, 106
107
الآرامية: , 9, 43, 45
61, 63, 65, 68, 70
97, 99, 100, 115
123, 280, 314
344, 402, 368
الآراميون: , 45, 335
آريك: , 30
الآريوسية: , 272, 329
362, 365, 366, 367
369, 371, 373, 383
384, 396
الأز: , 8, 55, 326
336, 338, 341, 342
351, 359
الأسر البابلي: , 93
الأسرة السورية: , 252
260, 289
الأسرة السيفيريانية: , 237
238
الأسروينيون: , 335, 344
الاسكندر: , 10, 16, 32
33, 34, 35, 36, 38
107, 106, 101, 39

الحيرة: , 298, 282
 , 339, 338, 337, 305
 , 344, 342, 341, 340
 , 348, 347, 346, 345
 , 369, 360, 352, 351
 , 401, 399, 385, 376
 , 411, 402
 الخابور: , 44, 372, 400
 الخلقدونية: , 370
 الخورني: , 109
 الدانوب: , 26, 29, 34
 , 261, 240, 239, 211
 , 309, 293, 288, 271
 , 393, 326, 317
 الرها: , 235, 294
 , 332, 322, 304, 299
 , 401, 400, 399, 342
 الروميون: , 199, 205
 , 286, 206
 الرومان: , 7, 19, 21
 , 32, 31, 25, 24, 22
 , 131, 121, 57, 41, 36
 , 149, 144, 143, 135
 , 153, 152, 151, 150
 , 159, 157, 156, 154
 , 165, 164, 163, 162
 , 170, 168, 167, 166
 , 175, 174, 173, 172
 , 179, 178, 177, 176
 , 194, 183, 182, 181
 , 203, 199, 197, 196
 , 211, 210, 209, 204
 , 215, 214, 213, 212
 , 221, 220, 219, 216
 , 230, 228, 224, 223
 , 235, 234, 233, 232
 , 244, 242, 241, 237
 , 251, 250, 249, 246
 , 268, 267, 263, 260

, 383, 362, 360, 359
 , 401, 395, 393
 التوراة: , 45, 53, 60
 , 66, 65, 64, 63, 61
 , 82, 77, 69, 68, 67
 , 95, 93, 92, 89, 85
 , 410, 334, 265
 التبر: , 141, 196, 210
 , 328
 التيجان: , 77, 267
 الثاملي: , 83
 الجامعة المتحركة: , 305
 الجزيرة العربية: , 45
 , 57, 56, 53, 50, 49
 , 91, 90, 85, 63, 60
 , 122, 99, 97, 94, 93
 , 278, 271, 268, 123
 , 328, 322, 305, 292
 , 335, 334, 333, 332
 , 346, 345, 337, 336
 , 353, 352, 349, 347
 , 369, 368, 361, 354
 , 402, 394, 384, 372
 , 412, 408, 407
 الحارث بن جبلة: , 272
 الحثيون: , 43, 44
 الحروب البونية: , 121
 , 199, 182, 147, 132
 الحواري: , 8, 20, 330
 , 359, 352, 351, 348
 , 364, 362, 361, 360
 , 379, 377, 376, 365
 , 403
 الحوريون: , 44
 الهوليات الآشورية
 التاريخية: , 68, 117

التاريخ الأوغسطي: , 102
 , 283, 261, 239, 237
 , 297, 296, 285, 284
 , 313, 309, 302, 300
 , 318, 316, 315, 314
 , 413, 408, 348, 321
 التاريخ الجديد: , 306
 , 406, 316, 315, 309
 , 413
 التاريخ الطبيعي: , 52
 , 266
 التاريخ الكنسي: , 364
 , 413, 409
 الترابيل: , 275
 التحالف: , 8, 20, 25
 , 170, 165, 157, 149
 , 268, 232, 197, 186
 , 312, 311, 295, 283
 , 329, 328, 322, 314
 , 340, 336, 331, 330
 , 349, 348, 347, 346
 , 353, 352, 351, 350
 , 358, 357, 356, 354
 , 362, 361, 360, 359
 , 368, 365, 364, 363
 , 372, 371, 370, 369
 , 376, 375, 374, 373
 , 380, 379, 378, 377
 , 385, 384, 383, 381
 , 390, 388, 387, 386
 , 395, 394, 393, 391
 , 399, 398, 397, 396
 , 407, 403, 402, 400
 , 409, 408
 التعرف الجبركية: , 269
 , 276, 275
 التبرخيون: , 8, 327
 , 346, 337, 336, 335
 , 357, 354, 351, 347

,97,91,86,85,83
 ,122,102,101,98
 ,150,144,131,123
 ,203,189,178,153
 ,268,265,235,234
 ,281,280,274,270
 ,288,284,283,282
 ,298,295,291,290
 ,322,315,309,302
 ,329,328,327,326
 ,333,332,331,330
 ,337,336,335,334
 ,341,340,339,338
 ,346,345,344,342
 ,350,349,348,347
 ,354,353,352,351
 ,359,358,357,355
 ,365,364,362,361
 ,371,370,369,368
 ,375,374,373,372
 ,383,381,380,377
 ,387,386,385,384
 ,391,390,389,388
 ,396,394,393,392
 ,400,399,398,397
 ,409,408,403,401
 411,410
 العرب على حدود بينزنطة:
 359,346,
 العرب واليهود في التاريخ:
 ,123,101,98,62,61
 410,265
 العربية السيدة: ,59
 المصور الوسطى: ,71
 377,333,303
 المصريون: ,98,45,44
 335,103
 العهد الرياعي: ,276

المسور: ,274,147
 280,279,276
 السومريون: ,335
 الشرق: ,1,2,3,5,6
 ,26,25,22,18,15,9
 ,32,31,30,29,28
 ,45,43,35,34,33
 ,68,67,57,50,49
 ,100,99,97,87,70
 ,124,123,122,117
 ,143,131,129,125
 ,173,164,151,150
 ,187,186,183,174
 ,194,190,189,188
 ,209,206,202,198
 ,219,217,214,212
 ,226,225,222,220
 ,266,264,263,249
 ,270,269,268,267
 ,276,274,273,272
 ,283,281,280,277
 ,293,292,291,290
 ,305,301,295,294
 ,313,309,308,307
 ,330,328,318,314
 ,345,343,342,333
 ,366,352,350,346
 ,373,372,370,367
 ,385,380,379,375
 ,400,399,398,394
 411,410,408,407
 العاصي: ,37,44,43
 ,295,284,115,45
 372,310
 العربي: ,15,14,13,8
 ,30,29,20,19,16
 ,50,49,44,42,41
 ,56,54,53,52,51
 ,62,61,60,59,57
 ,79,77,76,74,63

,278,272,270,269
 ,287,286,285,283
 ,291,290,289,288
 ,296,295,294,293
 ,301,299,298,297
 ,306,305,303,302
 ,310,309,308,307
 ,314,313,312,311
 ,328,318,316,315
 ,343,336,332,330
 ,349,348,346,345
 ,353,352,351,350
 ,358,357,355,354
 ,370,369,368,362
 ,378,374,373,371
 ,382,381,380,379
 ,389,386,384,383
 ,397,393,391,390
 ,401,400,399,398
 413,410,408,407
 الرون: ,159,158
 328,240,177
 الزياء: ,342,282,281
 الزمان: ,40,192,193
 203,194
 الساسانيون: ,291,259
 315,292
 السد: ,56,54,53
 السريانية: ,335,269
 399,354,343
 السلام الروماني: ,31
 288,271,242
 السلوقيون: ,35
 السمعاني: ,271
 التسميد: ,268,265
 342,282,281
 السميساطي: ,303
 310,304

318, 317, 308, 307
 354, 330, 329, 328
 369, 363, 359, 358
 377, 375, 374, 373
 385, 381, 380, 379
 394, 393, 392, 391
 400, 397, 396, 395
 408, 407
 الكابيتول: 213, 210
 220, 214
 الكاشيون: 98, 46
 الكلث: 158
 الكلثية: 156, 155
 158
 الكلدانيون: 117, 106
 الكلوسيوم: 287
 الكتعاثيون: 335
 الكهيسة: 259, 42, 31
 281, 280, 272, 263
 367, 365, 363, 303
 408, 407, 370, 369
 الكوشيون: 46
 المدائن: 269, 241
 299, 295, 293, 291
 349, 329, 301, 300
 385, 361, 350
 المدينة المتالقة: 148
 المزركشات: 259
 المسرح: 150, 118
 379, 275, 274, 233
 407
 المسعودي: 76, 54
 358, 351, 347, 336
 411, 360
 المسلة السوداء: 114

372, 368, 363, 361
 380, 379, 376, 373
 391, 385, 384, 383
 399, 398, 393, 392
 409, 407, 402, 400
 القسطاط: 307
 القلوية: 31
 الفينيقيون: 122, 111
 139, 128, 124, 123
 150, 145, 142, 141
 411
 القادسية: 332, 43, 41
 القدس: 93, 91, 26
 272, 259, 235, 188
 373, 303
 القرآن: 58, 56, 50
 68, 66, 65, 63, 62
 83, 80, 79, 77, 76
 94, 92, 91, 90, 89
 334, 332, 280, 122
 410
 القرطاجيون: 130
 145, 144, 143, 131
 176, 154, 147, 146
 199
 القرن الذهبي: 271
 288
 القسطنطينية: 20, 16
 30, 29, 28, 23, 22
 327, 308, 197, 42
 363, 356, 333, 328
 379, 375, 374, 367
 385, 384, 381, 380
 393, 392, 391, 387
 397, 396, 395, 394
 409, 406, 403, 398
 القوط: 27, 23, 20, 8
 301, 289, 32, 30, 29

المعد القديم: 51, 50
 64, 63, 62, 61, 60
 92, 73, 70, 69, 68
 410, 265, 259, 117
 الميلاميون: 104, 45
 النبال: 201, 167, 25
 217, 210, 206, 205
 320, 259, 239
 الفساسنة: 274, 272
 351, 348, 347, 335
 370, 365, 354, 352
 409, 398, 395, 371
 الفرات: 67, 45, 44
 98, 97, 89, 69, 68
 110, 106, 105, 99
 264, 241, 188, 150
 293, 291, 282, 265
 300, 299, 295, 294
 315, 314, 305, 303
 338, 337, 335, 329
 343, 342, 341, 340
 358, 353, 349, 347
 378, 372, 370, 359
 401, 400, 399, 385
 القرس: 28, 27, 25
 36, 35, 34, 33, 29
 106, 78, 43, 42, 41
 185, 151, 143, 107
 201, 189, 187, 186
 259, 240, 220, 219
 270, 269, 268, 267
 292, 291, 290, 276
 299, 298, 296, 293
 314, 307, 302, 300
 330, 329, 320, 315
 341, 337, 332, 331
 345, 344, 343, 342
 350, 349, 348, 346
 359, 358, 353, 352

اليهود: 26, 36, 55,
61, 62, 63, 65, 66,
70, 71, 72, 76, 89,
90, 93, 101, 105,
215, 219, 220, 230,
304, 335
اليوليوس: 31, 287
اليونان: 24, 32, 33,
34, 35, 50, 56, 79,
101, 119, 124, 125,
141, 143, 151, 174,
186, 190, 206, 212,
214, 215, 216, 224,
236, 242, 266, 296,
268, 278, 285, 371,
334, 354, 368, 371,
410
أم الجمال: 306, 340,
341, 347
امرؤ القيس: 342, 344,
345, 347, 348, 351,
352, 359, 360, 385,
409
أمنعتب: 92, 93
آمون: 118, 188, 189,
209
أمونيوس: 304, 356,
388, 389
أمونيوس النحوي: 356,
أميانوس: 330, 349,
354, 355, 356, 380,
384, 388, 393, 394,
408, 413
أنتيفونس: 190
أنخريس: 133, 136
أنطاكية: 26, 36, 37,
123, 174, 185, 198,

النمارا: 328, 341,
345, 347, 351, 352,
359, 360, 408
إله الجبل: 289
إله الشمس الحمصي:
236, 256, 261, 289,
295, 312
الهدهد: 70, 78, 79,
81, 82, 83, 89, 92,
الهابال الخصيب: 45,
63, 97, 100, 385,
399
الهدداني: 54, 56, 76,
346
الهند: 35, 50, 56, 72,
107, 110, 189, 211,
245, 267, 270, 273,
412
الهيروغليفيّة: 242
اليرموك: 23, 30, 144,
332, 333, 364, 371,
395, 398
إليريا: 367
إلرية: 168, 240, 367
إليسا: 3, 6, 121,
125, 126, 127, 128,
129, 130, 131, 132,
133, 134, 135, 137,
138, 139, 140, 177,
262, 284, 288
اليمن: 5, 49, 50, 51,
52, 53, 54, 55, 58,
59, 60, 71, 75, 76,
83, 84, 85, 87, 90,
94, 334, 335, 337,
340, 352

المسيح: 12, 45, 58,
72, 244, 272, 303,
304, 356, 360, 364,
365, 366, 368, 369,
370, 373
المشرق: 16, 20, 44,
101, 125, 197, 198,
218, 236, 237, 242,
250, 254, 262, 266,
269, 271, 300, 301,
309, 312, 322, 328,
329, 330, 331, 332,
334, 343, 344, 346,
348, 351, 353, 355,
356, 357, 358, 359,
360, 361, 369, 370,
371, 372, 373, 374,
375, 377, 378, 379,
380, 381, 382, 383,
384, 386, 388, 390,
391, 394, 395, 396,
397, 398, 399, 400,
401, 403, 407, 408,
409
المصري: 372
المكتبة التاريخية: 119
المناذرة: 341, 342,
344, 347, 352, 371
الموسوعة الموسيسرية:
111, 410
المونوفيزية: 370
الميتانيون: 44
الميديون: 44, 105
النضيرة: 292
النقراطيسي: 38, 188

117, 118, 119, 188,
189, 190, 241, 279,
335, 338, 341, 412,
بانيان: , 245, 249,
250
بابلون: , 307
باسيانوس: , 19, 237,
238, 241, 255, 256,
257, 261, 289,
باكتريه: , 109, 110,
189, 198, 353,
بالميرا: , 128, 264,
266, 270, 272,
بالميرا ادرينا: , 266,
بامفيلوس: , 370, 371,
378, 386,
بانونيه: , 236,
باولوس: , 164, 165,
180
بايوس: , 26, 242, 283,
برثيه: , 37, 46,
برجامة: , 175,
برحوشا: , 101,
برديكاس: , 189, 190,
برقا: , 138, 145, 154,
167, 182, 285,
برنديزي: , 202, 219,
بروتوس: , 25, 206,
211, 213, 214, 215,
217, 286,
بروسياس: , 175,
بروكوبيوس: , 308,
بصري: , 270, 276,
288, 306, 358

اوريجين: , 259, 365,
368
اوريجينوس: , 259, 365,
اوسيبوس: , 114, 303,
356, 357, 363, 413,
اوغسطس: , 25, 57,
136, 197, 202, 233,
235, 244, 250, 276,
اوغسطين: , 368,
اوغسطينوس: , 368,
اوكتاڤيوس: , 25, 31,
136, 185, 186, 197,
202, 204, 210, 211,
213, 214, 217, 218,
219, 220, 221, 222,
223, 224, 225, 226,
227, 228, 229, 230,
232, 233, 286, 287,
اوليمياس: , 34,
اومباريه: , 182,
اونيس: , 108, 109,
110
ايجه: , 32, 97, 101,
175, 217, 224, 392,
ايطاليكوس: , 154,
إيليان: , 245,
آينياس: , 121, 133,
134, 136, 137, 138,
199,
بايل: , 5, 6, 27, 35,
38, 43, 45, 46, 63,
66, 73, 76, 79, 97,
98, 99, 100, 101,
102, 103, 104, 105,
106, 107, 110, 112,
113, 114, 115, 116

218, 219, 242, 254,
259, 267, 269, 272,
285, 291, 293, 294,
295, 303, 304, 309,
310, 311, 313, 349,
350, 353, 355, 357,
361, 363, 365, 369,
371, 374, 375, 377,
378, 379, 384, 388,
393, 395, 397, 407,
408
أنطونيوس: , 7, 25, 26,
31, 40, 175, 185,
186, 193, 197, 201,
202, 205, 210, 211,
213, 214, 215, 216,
217, 218, 219, 220,
221, 222, 223, 224,
225, 226, 227, 228,
229, 230, 232, 242,
256, 270, 271, 285,
286, 288,
أنطونيوس الثاني: , 31,
271, 288,
أنطيوخس: , 36, 37,
38, 39, 102, 174,
180, 181, 283, 316,
343
أوتيك: , 128, 129,
139, 169,
أورليانوس: , 8, 28,
262, 274, 291, 300,
303, 306, 307, 308,
309, 310, 311, 312,
313, 314, 315, 316,
317, 318, 319, 320,
321, 322, 336, 348,
374, 408

336, 335, 334, 333
 358, 351, 347, 342
 390, 372, 371, 370
 401, 399, 398, 392
 تاج العروس: , 340, 122, 411, 360
 تاريخهم: , 182, 167, 222, 202, 199
 تاريخ الحضارة العام: , 178, 157, 148, 125, 410
 تايكوتس: , 203, 28, 346, 291, 236, 233, 355
 تحالف تنوخ: , 351, 347, 93, 92, 68, 28, 27, 19, 7, 128, 78, 76, 45, 32, 266, 265, 264, 262, 270, 269, 268, 267, 274, 273, 272, 271, 278, 277, 276, 275, 283, 282, 281, 280, 289, 288, 286, 284, 297, 296, 291, 290, 301, 300, 299, 298, 305, 304, 303, 302, 310, 309, 307, 306, 314, 313, 312, 311, 320, 319, 316, 315, 324, 323, 322, 321, 341, 337, 335, 326, 350, 348, 347, 344, 362, 359, 353, 351, 379, 378, 374, 371, 399, 398, 381, 380, 409, 408, 407, 406, 411

بولس البعبيساطلي: , 304, 303, 285, 271
 بوليبيوس: , 158, 128, 180, 176, 170, 162, 182, 181
 بوليو: , 321, 285, 102, 25, 24, 23
 بوميبي: , 234, 199, 46, 26
 بيجماليون: , 126, 121, 138, 137, 127
 بيروس: , 102, 101, 151
 بينظلة: , 28, 20, 8, 320, 197, 59, 58, 42, 331, 330, 328, 327, 345, 344, 341, 336, 349, 348, 347, 346, 357, 354, 351, 350, 361, 360, 359, 358, 367, 365, 363, 362, 372, 370, 369, 368, 377, 376, 375, 374, 382, 381, 380, 379, 390, 388, 387, 384, 395, 394, 392, 391, 403, 398, 397, 396, 411, 409, 406, 404, 413
 بيسكينوس فيجر: , 242
 بيغوليفسكايا: , 346, 411
 بين النهرين: , 26, 16, 98, 52, 49, 45, 35, 113, 112, 103, 100, 236, 198, 123, 115, 254, 250, 249, 241, 293, 291, 273, 266, 332, 322, 320, 300

بطليموس: , 38, 36, 35, 185, 106, 52, 40, 39, 192, 191, 190, 186, 196, 195, 194, 193, 206, 203, 201, 198, 210, 209, 208, 207, 221, 220, 217, 214, 223, 339, 336, 269, 353
 بل: , 122, 121, 6, 150, 143, 138, 134, 166, 157, 155, 154, 236, 182, 174, 169, 335, 278, 261
 بل الفينيقي: , 134
 بلشمين: , 280, 279
 بلامنتيا: , 182, 162, 6, 223
 بلانكوس: , 223
 بلقيس: , 18, 9, 5, 3, 68, 61, 60, 59, 49, 74, 72, 71, 70, 69, 79, 78, 77, 76, 75, 86, 85, 84, 83, 82, 91, 90, 89, 88, 87, 410, 94, 92
 بلوتارخوس: , 204, 114, 213, 210, 207, 206, 218, 216, 215, 214, 227, 225, 224, 219, 232, 230, 229, 228
 بلوتيانوس: , 238, 26, 7, 246, 244, 243, 242, 263, 255, 251, 249
 بلونيم: , 196, 195, 207, 206
 بنيامين الطلطي: , 272

249, 252, 254, 255,
257, 261, 262, 270,
289
جوليا سمية، و 31
جوليا ماميا، و 31, 289
جوليا ميسا، و 19, 31
244, 251, 255, 262,
289
جولياني، و 29, 32, 46,
287, 328, 329, 361
جيروم، و 357
جيلون، و 149
حران، و 25, 44, 63,
66, 105, 201, 205,
254, 272, 292, 293,
294, 300, 344, 350,
399, 400
حريصا، و 403
حمص، و 27, 28, 43,
236, 237, 238, 239,
244, 255, 256, 263,
264, 272, 284, 293,
295, 299, 301, 303,
304, 310, 311, 312,
316, 319, 345, 410
حمورابي، و 45, 98, 99,
102, 103, 106, 123,
335
حمير، و 53, 54, 58, 76,
77, 79, 85, 306
حتون، و 140, 157, 182
حيران، و 298, 299,
301, 302, 316
خالد بن الوليد، و 272
خلفدونية، و 28

ثيودوسيوس، و 29, 30,
32, 330, 331, 353,
354, 358, 361, 363,
367, 373, 375, 384,
392, 394, 396, 397,
398
جابينوس، و 193, 208,
216
جالهنوس، و 195, 229
جبله بن الأيهم، و 395
جيبيل، و 44, 123, 128,
187
جصحيان، و 352
جذيمة، و 268, 282
306, 338, 339, 340,
341, 342, 347, 351,
352, 360
جرجي زيدان، و 85
جرمانيكوس، و 26
جمهرة النسب، و 77
411, 347
جواد علي، و 50, 86
265, 270, 282, 302,
315, 337, 339, 341,
342
جورج مصروعة، و 170
171, 173, 175, 410
جوستيان، و 47, 245
274, 276
جوستين، و 126, 127
جوفيان، و 29, 46, 328,
330, 350, 356, 361
جوليا دومنا، و 3, 7, 11
19, 31, 234, 238,
239, 241, 243, 244,
245, 246, 247, 248

تراجان، و 26, 31, 46,
276, 306, 344
تراسيمينو، و 6, 162,
180, 182
ترافية، و 35, 46, 260,
293, 316, 318, 320,
356, 358, 375, 391,
392, 393, 394, 395
تراپانوس، و 26, 31, 46,
270, 271, 276, 288,
344, 358
تسالية، و 187, 201
تشرين، و 159, 182
تغلات بلاسر، و 53, 73,
99, 100, 104, 105,
106, 118, 142
تتصر قسطنطين، و 356,
364
تتوخ، و 20, 292, 305,
331, 336, 337, 338,
339, 340, 341, 347,
348, 351, 352, 358,
360, 370, 372, 376,
379, 380, 381, 395,
398, 399, 400, 409,
411
تورتون، و 252
تورغيس بومبيوس، و 127
تيطوس، و 58, 155
158, 176, 179, 181,
287
تيمايوس، و 132, 139
ثيرموبولاي، و 174
ثيوتيوموس، و 361, 370,
371, 379, 386

,235,234,233,232
,239,238,237,236
,243,242,241,240
,249,247,245,244
,256,255,252,250
,260,259,258,257
,266,264,263,261
,271,270,269,267
,287,286,284,274
,293,292,290,289
,300,298,297,296
,308,307,306,302
,315,312,311,309
,319,318,317,316
,327,322,321,320
,344,336,330,328
,355,354,349,348
,364,363,362,357
,370,369,368,367
,394,389,383,382
,407,406,400,399
411,410,409
روما والعرب: ,234
,269,263,249,236
,306,297,290,284
,319,316,315,309
,355,354,348,321
411,406,389,364
رومولوس: ,137,24
ريثاؤ: ,388,369,362
389
ريخومر: ,375,331
397
زاما: ,132,24,6
,171,170,159,144
,182,177,176,174
233
زنوبيا: ,19,8,7,3
,231,76,28,27,20

ديودورس الصقلي: 102
139,118,111,108
ديودوروس: ,119,108
412,148
ديوقلتيانوس: ,28,27
,260,197,46,32
,276,275,274,271
,322,297,291,290
,362,353,327,326
399,392,382,372
رقيم النمارا: 345
روفينوس: ,299,298
,387,378,377,302
389
روكسانا: 189
روما: ,15,11,7,6
,26,25,24,23,19
,32,30,29,28,27
,132,125,72,42,41
,136,135,134,133
,143,141,139,137
,148,147,145,144
,152,151,150,149
,156,155,154,153
,162,159,158,157
,166,165,164,163
,170,169,168,167
,174,173,172,171
,178,177,176,175
,182,181,180,179
,194,193,192,185
,199,198,197,196
,204,203,201,200
,208,207,206,205
,212,211,210,209
,217,215,214,213
,221,220,219,218
,226,224,223,222
,231,230,229,228

خلتيس: ,357,330
399,372
خفاصر: ,376,354
,402,401,400,398
405,404,403
خير الدين الزركلي: ,410
داريوس: ,107,41,35
188,187
داكية: ,238,211,26
288
داود: ,73,71,67,62
,80,78,77,76,74
,93,92,89,84,81
104
دومة الجندل: ,345
395,378,354,348
دوميتانوس: ,271
ديانا: 285
ديدو: ,125,121,6,3
,134,133,130,126
,138,137,136,135
284,154,140,139
ديدون: ,125,121,6
139
ديديوس يوليانيوس: ,240
289,288
ديركيتو: ,108,107
115
ديكسيبوس: 315
ديليوس: 217
ديو كاسيوس: ,27,19
,237,229,226,200
,245,244,243,242
,254,252,251,250
263,261,260,255

سنحريب: , 106, 105, 114, 113
 سونيارتو: , 343, 99
 سوتر: , 39, 38, 36
 192, 191, 102, 40
 سوجنتوم: , 157, 156
 182, 167, 159
 سور هاديان: , 288
 سورية: , 35, 32, 20, 5
 , 42, 39, 38, 37, 36
 , 56, 46, 45, 44, 43
 , 98, 97, 68, 58, 57
 , 109, 107, 101, 99
 , 123, 116, 115, 114
 , 186, 185, 174, 144
 , 193, 192, 191, 190
 , 202, 198, 195, 194
 , 218, 216, 209, 208
 , 234, 227, 220, 219
 , 240, 239, 237, 235
 , 266, 264, 256, 242
 , 280, 279, 278, 269
 , 299, 296, 288, 283
 , 306, 305, 301, 300
 , 328, 318, 309, 308
 , 337, 336, 335, 332
 , 348, 347, 345, 344
 , 359, 357, 352, 351
 , 372, 371, 365, 360
 , 379, 378, 377, 376
 , 400, 399, 395, 385
 411, 407
 سوزمين: , 357, 356
 , 379, 371, 362, 361
 , 409, 406, 401, 389
 413
 موسه: , 101, 62, 61
 , 170, 152, 139, 123
 410, 265, 171

سقراط: , 354, 316
 , 378, 377, 362, 356
 , 388, 387, 386, 381
 401, 390, 389
 سكرويس المصري: , 32
 سكيبيو: , 156, 143
 , 170, 169, 168, 159
 , 180, 177, 174, 171
 205, 182
 سلاميس: , 143
 سلفانوس: , 403, 402
 سلوقس: , 37, 36, 35
 , 283, 269, 198, 190
 353
 سلوقس نيكاتور: , 36
 , 283, 269, 198, 190
 353
 سليمان: , 59, 52, 10
 , 70, 69, 68, 67, 62
 , 76, 74, 73, 72, 71
 , 81, 80, 79, 78, 77
 , 90, 89, 84, 83, 82
 , 95, 94, 93, 92, 91
 265, 132, 104
 سمسي: , 295, 237
 سمورامات: , 97, 5
 , 110, 108, 105, 102
 , 116, 114, 113, 112
 119, 118
 سميراميس: , 6, 5, 3
 , 105, 102, 100, 97
 , 110, 109, 108, 107
 , 114, 113, 112, 111
 , 118, 117, 116, 115
 , 361, 279, 262, 119
 412, 410
 سمهساح: , 303

, 269, 268, 264, 262
 , 280, 275, 274, 271
 , 284, 283, 282, 281
 , 299, 297, 296, 285
 , 304, 303, 302, 301
 , 308, 307, 306, 305
 , 312, 311, 310, 309
 , 316, 315, 314, 313
 , 320, 319, 318, 317
 , 324, 323, 322, 321
 , 371, 361, 348, 336
 , 382, 381, 380, 379
 , 407, 406, 399, 383
 411, 409, 408
 زوسيموس: , 309, 284
 , 319, 316, 315, 311
 , 406, 397, 393, 321
 413
 سابور: , 292, 42, 41
 ساسان: , 298, 291
 ساويروس: , 289
 سبا: , 52, 50, 49, 5
 , 58, 57, 56, 54, 53
 , 70, 69, 61, 60, 59
 , 78, 77, 76, 74, 71
 , 83, 82, 81, 80, 79
 , 89, 88, 87, 86, 85
 410, 94, 92, 91, 90
 سبارتاكوس: , 286, 25
 سبتيمما: , 283, 242
 سترابو: , 148, 131, 57
 , 229, 194, 192, 174
 412, 372
 سرجون: , 97, 85, 73
 , 106, 105, 103, 98
 335, 111
 سردينية: , 138, 131
 153, 151, 150

هايسفون: , 254, 291
 , 293, 295, 301, 349
 385
 عرفان شهيد: , 234
 , 236, 269, 284, 290
 , 306, 309, 315, 316
 , 341, 342, 344, 345
 , 348, 350, 354, 364
 , 372, 379, 389, 390
 , 396, 402, 406, 411
 413
 عرفا: , 257, 263, 371
 غالانوس: , 27, 350
 غزة: , 56, 124, 188
 190
 غلابريو: , 174
 غلاطية: , 309
 غيراموس: , 237, 284
 295
 غيلاريوس القيصري: ,
 377
 قارماليوس: , 25, 196
 , 201, 206, 217, 286
 قاروس: , 25, 208
 فالينز: , 8, 20, 29, 47
 , 328, 330, 350, 361
 389
 فريد: , 65, 66, 93
 فكتور: , 47, 331, 362
 , 374, 390, 391, 403
 هلامنوس: , 162
 هويسكوس: , 297, 309
 , 314, 316, 318, 319
 321
 هيالق: , 25, 235, 240
 311, 310

شيشرون: , 25, 180
 , 200, 210, 211, 214
 216, 217, 253
 شيلفن: , 165
 صالح: , 322, 331
 , 347, 348, 351, 352
 , 354, 357, 376, 394
 395, 398
 صخرة نورا: , 138
 صدريل: , 122, 155
 , 156, 157, 166, 168
 , 169, 177, 181, 182
 صقلية: , 24, 32, 131
 , 141, 142, 143, 149
 , 150, 151, 152, 153
 , 154, 155, 156, 159
 , 161, 162, 165, 167
 , 169, 170, 182, 199
 219, 239
 صور: , 11, 19, 35, 74
 , 116, 121, 122, 124
 , 125, 126, 127, 130
 , 131, 132, 133, 134
 , 135, 137, 138, 139
 , 141, 142, 143, 144
 , 145, 147, 151, 174
 , 178, 186, 187, 188
 , 226, 253, 367
 صيدا: , 123, 124
 , 128, 142, 143, 187
 219, 238
 طايانا: , 309, 311
 318
 طيريس: , 23, 24, 25
 , 30, 31, 286, 287
 طروادة: , 33, 121
 , 132, 133, 134, 135
 136, 199, 212, 217

سولا: , 23, 24, 192
 , 200, 215, 286
 سوير: , 98, 106
 سويتونيوس: , 199, 200
 سيفيايوس: , 121, 126
 136, 137
 سير النظراء: , 213
 218, 224
 سيرة أبولونيوس الطلياني: ,
 244
 سيفيروس: , 7, 19, 26
 , 27, 31, 139, 176
 , 236, 238, 239, 240
 , 241, 242, 243, 244
 , 245, 246, 249, 250
 , 251, 253, 257, 258
 , 260, 261, 262, 270
 , 275, 288, 289, 290
 , 292, 295, 298, 326
 سيلبيوس: , 138, 154
 شاپور: , 27, 41, 290
 , 292, 293, 294, 295
 , 299, 300, 301, 305
 , 315, 322, 329, 344
 , 348, 350, 352, 371
 375, 392, 400
 شاربين: , 227, 229
 شرشينا: , 173
 شعبة التاريخ: 163
 شلمنصر: , 99, 100
 , 104, 105, 113, 114
 , 116, 117, 118, 138
 142
 شوسير: 137

قيصريون: 40, 185,
201, 209, 221, 230
كابادوكية: 294, 392
كاتيلينا: 216
كارهي: 25, 201
كامبيوس: 203, 204,
212, 214, 215, 232,
237, 251, 252, 257,
263, 302
كاليغولا: 26, 31, 287
كاليبيكوس: 36, 284,
303
كامبانية: 163, 167
كاناي: 6, 24, 144,
164, 165, 167, 182
كانديوس: 225
كبرانجست: 72, 94
كتب موسى: 62
كتسياس: 110, 111
كراتروس: 189
كراسوس: 24, 25,
201, 205, 223, 225,
283, 286, 344
كراكلا: 7, 27, 31,
235, 239, 241, 242,
243, 244, 245, 246,
249, 250, 251, 252,
253, 254, 255, 259,
261, 262, 275, 289,
297
كراكوس: 286
كروتون: 169
كلاودية: 287
كلغو: 112, 113, 114,
116, 117, 118

181, 182, 183, 192,
238, 411
قرطاجنة: 155, 157
قرنة: 140, 142
قسطنطين: 28, 30,
31, 32, 197, 271,
272, 290, 326, 327,
328, 329, 331, 345,
347, 349, 351, 354,
356, 358, 362, 363,
364, 366, 367, 368,
369, 370, 373, 381,
384, 393, 398, 406
قسطنطيوس: 28, 29,
32, 326, 328, 329,
362, 363, 364, 367,
370, 371, 384, 385,
386, 391
قصر يلوات: 114
قلعة بيرصا: 147
قنصل: 162, 299
قورش: 41, 44, 62,
101, 107
قوس النصر: 274, 279
قونستانتس: 367
قيصر: 7, 19, 23, 25,
31, 40, 46, 136, 156,
185, 186, 193, 196,
197, 198, 199, 200,
201, 202, 203, 205,
206, 207, 208, 209,
210, 211, 212, 213,
214, 215, 217, 221,
222, 230, 232, 233,
242, 245, 251, 276,
283, 286, 287, 326,
344, 378

فيرجيل: 6, 121, 133,
134, 135, 136, 137,
138, 139
فيروموس: 308, 317
فيرونا: 27, 290
فيزوف: 26
فيلبي: 25, 52, 185,
202, 215, 217, 286
فيلستوس: 132
فيولتام: 230
فيولستراتوس: 194,
244
فيليب المري: 27, 289,
290, 291, 292, 295,
297, 315, 406
فينوس: 15, 127,
135, 137, 199, 210,
230, 285
قائد المائة: 247
قادش: 44, 155, 200
قانون يولييان: 25, 287
قريت حديث: 130
قرطاجنة: 6, 18, 24,
127, 128, 129, 130,
131, 132, 133, 134,
135, 136, 137, 138,
139, 141, 142, 143,
144, 145, 146, 147,
148, 149, 150, 151,
152, 153, 154, 155,
156, 157, 159, 166,
167, 168, 169, 170,
171, 172, 173, 174,
176, 177, 178, 179

167, 165, 164, 163
 173, 172, 171, 169
 201, 182, 179, 177
 212, 210, 205, 202
 219, 217, 214, 213
 240, 233, 223, 221
 251, 246, 243, 241
 258, 257, 254, 253
 283, 278, 276, 275
 289, 288, 287, 286
 305, 298, 293, 290
 313, 312, 309, 307
 320, 319, 318, 317
 327
 محرم: 88, 87
 محمد محفل: 3, 15
 281, 271, 196, 46
 411, 410, 289
 مرسوم ميلانو: 28
 362, 327, 272, 271
 364, 363
 مروج الذهب: 336, 76
 360, 351
 مريانوس: 187
 مسرى الهجرات العربية:
 335
 مسيحية الامبراطور فيليب:
 290
 مصر: 35, 32, 7
 40, 39, 38, 37, 36
 57, 51, 50, 49, 46
 68, 66, 63, 62, 60
 102, 93, 91, 87, 69
 143, 142, 118, 105
 188, 186, 185, 153
 193, 192, 191, 190
 198, 196, 195, 194
 204, 203, 202, 201
 209, 208, 207, 206

مارب: 57, 54, 53
 86, 78, 77, 76, 58
 337, 335, 94, 88, 87
 مارك أنطوني: 25, 7
 215, 193, 185, 41
 ماري: 106, 98, 44
 265, 181, 123
 ماريوس: 200, 24
 286, 215, 214
 ماسينيسا: 182, 170
 183
 ماكريفوس: 255, 254
 294
 ماكسيموس: 163, 27
 293
 ماميا: 255, 251, 19
 259, 258, 257, 256
 263, 262, 260
 مانبي: 345, 28, 27
 مانيزيا: 175, 174
 ماريه: 29, 20, 8
 330, 327, 326, 32
 350, 348, 336, 331
 357, 356, 353, 351
 362, 361, 360, 359
 370, 369, 364, 363
 374, 373, 372, 371
 378, 377, 376, 375
 382, 381, 380, 379
 386, 385, 384, 383
 390, 389, 388, 387
 394, 393, 392, 391
 398, 397, 396, 395
 403, 402, 401, 400
 409, 408, 407, 406
 مجلس الشيوخ: 25
 159, 157, 145, 127

كلوديوس: 31, 28, 26
 240, 238, 181, 167
 308, 307, 306, 305
 317
 كليوترا: 19, 18, 7
 39, 38, 37, 36, 34
 186, 185, 175, 40
 195, 194, 193, 192
 202, 201, 198, 196
 206, 205, 204, 203
 210, 209, 208, 207
 215, 214, 212, 211
 219, 218, 217, 216
 223, 222, 221, 220
 227, 226, 225, 224
 231, 230, 229, 228
 262, 242, 233, 232
 286, 285, 284, 270
 314, 306
 كورنيليا: 206
 كيمير: 212
 لائحة المقامات: 236
 لاتيوم: 136
 لبتوس ماغنا: 149
 لونجينوس: 214, 28
 304, 303, 285, 271
 319, 316, 314, 305
 321
 لبيبة: 151, 127, 100
 410, 365, 176
 ليون: 240, 239
 ماتو: 154
 ماجو: 145, 125
 162, 150
 ماران: 272

نبوخذ نصر: 66, 71,
 93, 101, 103,
 104, 110, 142, 335,
 نجران: 50, 58, 328,
 345, 346
 نشوان الحميري: 76,
 نصيبين: 29, 41, 293,
 نقراطيس: 191,
 نقش رستم: 294,
 نهر الريبكون: 25,
 نوميديّة: 142, 169,
 170, 171, 172, 173,
 176, 182, 183, 236,
 289, 293
 نيتوكريس: 114, 262,
 نيرفا: 288,
 نيرو: 169, 181, 287,
 نيرون: 26, 287,
 نيقولا الدمشقي: 109,
 195
 نيقية: 28, 245, 272,
 329, 362, 364, 366,
 367, 369, 370, 373,
 385
 نيقين: 272, 373,
 374, 383
 نيكوماخوس: 314,
 نينوس: 109, 110,
 111, 412
 نينوي: 42, 44, 100,
 101, 104, 105, 109,
 110, 111, 113, 117,
 118, 335, 343
 هاديان: 26, 31, 46,
 266, 270

مهريل: 122, 165,
 166
 مورت كارت: 64,
 موسى: 8, 20, 61, 62,
 63, 65, 66, 67, 91,
 93, 109, 356, 357,
 362, 369, 371, 373,
 374, 377, 378, 381,
 385, 386, 387, 388,
 389, 390, 407, 408,
 موكاپور: 320,
 ميثاويرو: 168,
 ميثون: 186, 224,
 ميخائيل السوري: 399,
 ميدية: 44, 110, 185,
 220, 221
 ميزوبيوتاميا: 43, 46,
 47, 107, 236, 241,
 249, 291, 294, 300,
 320, 322, 336, 342,
 348, 349, 350, 359,
 371, 385, 400, 401,
 ميمسا: 238, 243,
 245, 254, 255, 256,
 257, 258, 261, 262,
 ميلاتو: 29, 317, 363,
 ميلاي: 153,
 مينلاوس: 133,
 نبع افقا: 276, 277,
 280
 نيو: 100, 101, 103,
 112, 113, 115, 117,
 118, 268, 278, 279,
 نيو يلاس: 100, 101,
 103

214, 215, 217, 218,
 221, 222, 226, 227,
 228, 229, 230, 231,
 233, 242, 267, 270,
 284, 286, 287, 290,
 296, 306, 307, 308,
 309, 314, 317, 318,
 331, 334, 336, 353,
 358, 365, 366, 373,
 374, 378, 379, 381,
 386, 387, 388, 398,
 399, 407, 410, 411,
 412
 معبد إشمون: 177, 178,
 معبد اللات: 280,
 معجم البلدان: 49, 54,
 265, 272, 342, 360,
 402, 410
 معركة زيلا: 209,
 معركة موند: 210,
 معين: 52, 53, 85, 90,
 104, 189, 236, 333,
 381
 مقدونية: 10, 24, 33,
 34, 35, 46, 165, 187,
 190, 192, 198, 211,
 217, 225
 مكريانوس: 237, 253,
 254, 255, 256, 300,
 301
 مكسيموس ثراكس: 260,
 ملقارت: 35, 122,
 126, 127, 130, 151,
 188
 ممر سانت برتار: 158,
 ممقيس: 188,
 منظم الدنيا: 318,

362, 358, 352, 351
 379, 378, 372, 368
 389, 386, 382, 381
 400
 وهب الثلاث: 271, 269
 306, 302, 299, 298
 323, 320, 308, 307
 ياقوت الحموي: 56, 54
 410, 360, 342, 265
 يعقوب: 66, 65, 63, 62
 271, 76
 يوستيانوس: 47, 30
 281, 276, 274, 245
 365
 يوسفوس فلافيوس: 265
 يوشع: 67, 64, 62
 93, 71
 يوليانيوس: 46, 32, 29
 331, 330, 329, 328
 356, 355, 350, 349
 372, 367, 363, 361
 391, 385, 380, 375
 408, 397, 396, 392
 يوليانيوس: 46, 32, 29
 350, 349, 330, 328
 367, 363, 361, 356
 392, 379, 373, 371

Inv: 1274

Date: 16/2/2016

هوميريوس: 34, 33
 285, 177, 128
 هونوريوس: 30, 29
 356
 هيرودوت: 108, 107
 364, 334, 196, 114
 هيرودوس الأدومي: 219
 235, 227
 واسپسيان: 236
 والنتيانوس: 32, 29
 350, 330, 46
 والتس: 328, 47, 8
 357, 356, 350, 330
 365, 363, 362, 361
 373, 372, 371, 367
 378, 377, 375, 374
 383, 382, 381, 380
 389, 388, 387, 385
 393, 392, 391, 390
 398, 397, 396, 394
 409, 408, 407
 واليريانوس: 41, 27
 301, 300, 294, 47
 وطاقة: 128
 وكتور: 362, 331, 47
 387, 377, 375, 374
 392, 391, 390, 389
 403, 402, 401, 397
 ولاية العربية: 267, 26
 305, 288, 276, 270
 345, 328, 322, 308
 349, 348, 347, 346

هادريانيولس: 20
 هادريانوس: 31, 26
 297, 288, 266, 46
 هانز: 167, 140
 هانيبال: 121, 24, 6
 179, 178, 166, 163
 233, 182, 181, 180
 410, 285
 هانجيل: 36, 24, 6, 3
 144, 143, 139, 122
 155, 154, 147, 145
 159, 158, 157, 156
 164, 163, 162, 161
 168, 167, 166, 165
 172, 171, 170, 169
 176, 175, 174, 173
 181, 180, 179, 177
 249, 233, 183, 182
 410, 321, 288
 هرقل: 33, 30, 16
 188, 180, 140, 42
 332, 231, 216, 200
 395, 353
 هشام الكلبي: 345
 411, 399, 354, 347
 هكسيا: 259
 مملقار: 145, 143
 155, 154, 151, 147
 182, 170, 167, 156
 هميرة: 150, 149
 هوراس: 230, 224



لعبت ملكات من الشرق دوراً تاريخياً بارزاً في قيادة وتقرير مصائر أوطانهن عبر العصور والأزمان التاريخية القديمة حيث تقدم قراءة سير تاريخهن عبر تقلدهن أعلى مراتب السلطة، رؤية مشرقية امتد زمنها لفترات متقطعة بداية من القرن التاسع قبل الميلاد وحتى نهاية القرن الرابع الميلادي، تحدث صاحباتها الصعاب والمحن، فحاولن الرد عليها بالتهوؤ بما حملن من طموحات لبناء دولهن. وقد وقفت كل واحدة منهن على مسافة قريبة من هدفها النهائي، إلا أنهن ما عدا بلقيس، انتهين بمأساة هزائمهن، وذلك لأسباب كثيرة أهمها أنهن حاولن تحقيق حلمهن في إقامة وبناء دولهن في أزمان تاريخية تنازعتها إمبراطوريات عالمية ضخمة: الرومانية واليونانية والفارسية.

كانت بلقيس سيدة نساء عصرها وإحدى الملكات اللواتي عطرن التاريخ وأضفن عليه بهاء لا يزال يثير الخيال حتى الآن في حين أن زنوبيا ملكة تدمر، وجوليا دومنا الحمصية وأختها جوليا سوميا، كما أليسا مؤسسة وملكة قرطاجة، والسورية سميراميس ملكة بابل وآشور، وكليوباترا ملكة مصر، كما ماوية ملكة التتوخيين؛ كلهن جئن من ماضي الشرق البعيد كما تجيء الأساطير، فتفوقن على الرجال، ونجحن في الحصول على تقدير واحترام ومحبة شعوبهن. وكان لهن مهارة الاندماج للصعود إلى أعلى درجات المسؤولية في الدولة بحيث لم يتركن تأثيرهن على شعوبهن ومناطقهن فقط، وإنما على المحيط الدولي في أزمانهن.